د. أسعد حومد

محنة العرب في الأندلس

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

محنة العرب في الأندلس

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً « موكيالي »
بيروت ـ ص.ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت
تلكس : LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة
١٩٨٨

د. أسعد حومد

محنة العرب في الأندلس

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

وصف ريشليو - كاردينال فرنسا ورئيس وزرائها في عهد لويس الثالث عشر - عمل اسبانيا في إبادة العنصر العربي الاسلامي في الأندلس، وطردِ جميع من تبقّى منهم فيها عامي ١٦٠٩ و ١٦١٠م بأنه (أكثر ما عرفه التاريخ في جميع عصوره من أعمال القسوة والبربرية والجرأة).

والكاردينال ريشليو عاصر آخر فصل من فصول مأساة العرب ومحنتهم في الأندلس، وعرف ما رافق عملية إخراجهم من اسبانيا من مآس لا يمكن أن يعبر عنها وصف.

والواقع أن محنة العرب في الأندلس من أكثر المحن في تاريخ الإنسانية إيلاماً وتأثيراً في النفوس، فقد روت كتب التاريخ الكثير عن قهر شعب لشعب، وعن استسلام الغالب لجميع أنواع الاضطهاد والعسف والوحشية في معاملة الشعب المغلوب من قتل وحرق وسبي وتخريب وهتك للأعراض... الخ، ولكن هذه الفظائع كانت تُرتَكب فقط في الفترة التي تلي التغلب في الميدان العسكري، وفي البلاد التي تفتح عنوة بقوة السلاح، فتُستباحُ المدن حيناً من الزمن ثلاثة أيام أو أسبوعاً أو شهراً، تعود بعدها سيادة القانون إلى البلد، ويعود الأمن الى النفوس التي بقيت على قيد الحياة، وتبدأ الحياة سيرها الطبيعي من جديد في ظل قانون الفاتحين.

لقد غزت قبائل البرابرة أوروبا، وحطمت الامبراطورية الرومانية، وأغرقت أوروبا في بحر من الدماء. وغزت قبائل التتر بلاد أواسط آسيا وغربيها، وهدمت مدناً، وقتلت ملايين البشر، ولكن جميع ذلك لا يمكن أن يقاس في نظرنا بما ارتكبه الاسبان بحق العرب في الأندلس. فتلك القبائل المتوحشة، كانت تبالغ في استعمال

العنف لتوقع الرهبة في النفوس، وتدخل الوهن إلى قلوب من يفكرون بمقاومتها، أو اعتراض سبيلها، إلا أنها كانت تعامل المسالمين الذين خضعوا لها معاملة مقبولة، في الأعم الأغلب. كما أن أغلب العسف والقمع كان يحل بالمدن التي تقاوم. ثم إن المآسي ما كانت تدوم إلا فترة قصيرة نسبياً.

أما الاسبان فهم شعب عرف الحضارة، وله دين سماوي يأمر بالخير والرأفة، والوفاء بالعهد، وقد دخلوا أكثر المدن الإسلامية صلحاً. وعقدوا مع الأندلسيين عهوداً ومواثيق، أقسم ملوكهم وكبار رجال دينهم على الوفاء بها تضمنته أبداً. ولكنهم خرقوا جميع هذه العهود، بعد أن وضع الشعب العربي سلاحَه، وتجرد من أسباب الدفاع عن نفسه. وقد استسلم الاسبان إلى حركة قمع رهيبة ضد هذا الشعب المسالم، الذي وثق بعهودهم وشرفهم ودينهم، وقبلَ الدخولَ في ذمتهم.

واستمر الاضطهاد متواصلاً، بدون هوادة أو تراخ، مدة مئة وعشرين عاماً، لم يتركوا خلالها صنفاً من أصناف العذاب والتنكيل والنهب والاستغلال إلا وصبوه على هذا الشعب المنكود الحظ. وكان من نتيجة ذلك كله أنه لم يبق في الأندلس كلها أحد من العرب في أواخر عام ١٦١٠ مع أن المؤرخين كانوا يقدرون عدد سكان الأندلس في عهد المنصور بن أبي عامر (حوالى سنة ١٠٠٠م) بما يقارب الثلاثين مليوناً من الناس السعداء.

وأكثر ما في مأساة عرب الأندلس من إيلام، هو أن الاسبان الذين اضطهدوهم، وأمعنوا في الاساءة إليهم، وتفننوا في أساليب العسف والتعذيب والارهاب التي استعملوها معهم، كان أسلافهم في غالبيتهم العظمى من رعايا عرب الأندلس، وعاشوا في ظل الدولة العربية أحراراً مكرمين، ولاقوا من العرب أطيب معاملة، وأنبلها، وأعدلها، ونعموا بممارسة جميع حرياتهم على نحو لم يعهدوه في عهد أي من الحكومات التي تتالت على الأندلس قبل دخول العرب الى الجزيرة الايبرية، كما لم تعهده أوروبا في ذلك الحين.

ونحن العربَ لا نستطيع أن نفهم كيف يستطيع شعب أن يبيد شعباً آخر إبادة تامة، ويجتث جذوره حتى لا يبقى له في أرضه من باقية. فقد ألف العرب التسامح والاخاء والمحبة. وإننا نجد اليوم في أرضنا بقايا من جميع الأمم التي عاشت عليها، أو مرت بها، منذ ألوف السنين. فهناك في منطقة حمص ومعلولا - في سوريا - قرى سريانية، مازالت مقيمة على لغتها وأديانها، تتلو صلواتها بلغتها، وتتكلم فيما بينها

اللغـة السـريـانية . ونجد في الجزيرة وشمالي العراق بقايا الأشوريين والكلدانيين ، وقد تحول أكثـرهـم الى النصـرانيـة ، وهـم يتحـدثـون بلغاتهم ، ويتسمون بأسماء آبائهم ، ويمارسون العادات التي ألفوها في مجتمعاتهم القديمة ، كما يشاؤ ون .

ونجـد في مصـر كثـيراً من الأقبـاط مازالـوا مقيمـين على عاداتهم وتقاليدهـم ، يمارسـون طقـوس عبـادتهم بالشكـل الذي ألفوه منذ زمن بعيد ، وربما وجد بينهم من يعرف اللغة القبطية القديمة .

وفي شمالي إفـريقيـا نجـد البـربر بقبائلهم المختلفة ، وقد تحولوا إلى الإسلام ، يقيمون على عاداتهم وتقاليدهم ولغاتهم ولهجاتهم .

ونجد في بلادنا اليوم غير هؤ لاء وهؤ لاء من الأقليات العرقية أو الدينية بأعداد قليلة أو كثـيرة عاشـوا في المـاضي ، ويعيشـون اليـوم بأمن وسـلام وإخاء مع اخوانهم العـرب ، في أرض واحـدة لا يشعـرون بتفـرقـة ولا بتمييـز في المعاملة ، وشعار الجميع «الدين لله والوطن للجميع » .

وقد كان من السهل أن تمحى آثار هذه الأقوام من أرضنا ، وتعفّى آثار وجودهم تمامـاً ، لغـة وديـنـاً وعنصـراً ، لو كان العـرب متعصبين عرقياً أو دينياً . فقد بلغت دولة العـرب من القـوة درجـة تستطيع معها ألا تبقي في أرضها أثراً لشعب أولدين لا تريد وجـوده . وكـانت عقليـة تلك العصور لا تستكبر مثل هذا العمل ولا تستنكره لو أقدم العرب عليه .

ولكن الـروح المتسـامحـة التي ألفهـا العـرب قبـل الإسـلام ، والتي تأصلت في طبيعتهم ، تقبلت أحسن القبـول تعـاليم الـدين الإسـلامي في التسامح المفرط ، وفي حسن معـاملة أهـل الـذمـة ، والأمم المغلوبـة ، وفي التعايش السلمي مع جميع الأمم الراغبة في السلام .

ولو كانت عقلية العربي لا تقبل التسامح الديني والعنصري ؛ لما استطاعت أن تفهم روح التسـامـح الإسـلامي ، ولتأولتـه ، أو حرفتـه بحسب مستـواهـا الفكري ، ومفاهيمها الخاصة . ولما تمكنت من أن تصوغ نظرية كاملة في التسامح ، مازالت تعتبر الى اليوم ـ وبعد أربعة عشر قرناً ـ مثالا في الاخاء الانساني المستنير الواعي .

أخـذ الفقهـاء المسلمـون قولـه تعـالى : (لا إكراه في الدين) ، ففهموه في نطاقه الـواسـع البعيد ، فلم يتأولوه ، ولم يضعوا له حدوداً ، لأن عقليتهم كانت منسجمة مع هذه الـروح ، ومتشبعـة بها تشبعـاً تامـاً ، فتركـوا الناس وما يعبدون ، ولو كان حجارة

ونـيرانـاً وأصنـامـاً. وبـالغوا في التسامح، فقالوا إن المسلمين ليس لهم أن يتدخلوا في شيء من شؤون أهـل الذمة، وتركوا لهم مطلق الحرية في ممارسة عاداتهم وعباداتهم، كما تركوا لهم قياساً على ذلك إدارة شؤونهم الدينية، وجعلوا لهم استقلالا ذاتياً تاماً.

وأخـذوا قولـه تعالى (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا) فأفاضوا في التوسع في مسألـة الـوفـاء بالعهـود والعقـود والـذمم، واعتـبروا الإنسـان الـذي يقبل مهادنة المسلمين، ويدخل في عهدهم وذمتهم معاهداً لا يمكن أن تخفر له ذمة، ولا ينقض له عهـد من جانب المسلمـين إطلاقاً، لأنه وثق بدين المسلمين وعهدهم وذمتهم، وألقى سلاحـه، وأزال حصـونـه وقـواعـده، ودخل المسلمون أرضه، فلم تعد به قدرة على مباشرة القتال، بعد أن خرجت من يديه أسباب قوته.

حتى إن الفقهـــاء حددوا حق الإمـــام في نقض العهـود، التي تم توقيعهـا بين المسلمـين وبـين الأمم الأخـرى، التي قبلت مهـادنة المسلمين، ودخلت في عهدهم. وقـالـوا إن من واجب الإمـام أن يعيـد كل شيء الى ما كان عليه، قبل توقيع العهد، وقبل دخول المسلمين أرض المعاهدين. فيخرج الجيش الإسلامي خارج الأرض التي احتلـها، ويعيد الى الشعب ما أخذه من خيل وسلاح وأموال، وأن يرمم لهم ما خربه من حصـونهم وقـلاعهم، وأن يعطيهم مهلة كافيـة يستجمعـون فيهـا قوتهم، ويتمون استعـداداتهم. ثم إذا شاء المسلمـون بعـد ذلـك القتال باشروه. فإذا لم يتم ذلك من جانب الإمـام، فإن نقض العهـد الـذي تم يكـون غير جائز اطلاقاً. وحق الإمام في نقض العهــود التي تمت يمكن أن يلجأ اليــه، إذا لم يكن هو قد اعطى موافقتـه على العهد صراحة أو ضمناً، خلال فترة معقولة من وقت علمه بعقده. ومن تصفح كتب التـاريـخ، وكتب الفقـه الاسـلامي، يجد أمثلة لا تحصى على روح التسامح والإخاء والوفاء بالعهد المتأصلة في نفوس العرب. وفي تعاليم دينهم.

وفي الأنــدلس لم يشـــذ العـــرب عن هذه القـــواعـد المتسـامحـة في معـاملتهم المستعـــربين الاسبـان ورجـال كنيستهم. فعـاملوهم في أوسع حدودها ومفاهيمها، فازدهـر مجتمعهم، وحسن حالهم، ولاقـوا أرحم معـاملة وأكـرمهـا وأعدلها من جانب الحكام العرب، ومن جانب العرب المسلمين الذين كانوا يعيشون معهم. وقد بلغ من حسن حالهم، أنهم طالبوا ملك قشتالة، الذي احتل طليطلة عام ١٠٨٥م بأن يحافظ لهم على الامتيازات التي كانت لهم تحت حكم العرب.

ولم يستطـع البـاحثـون عن مثالب تشين الحكم العربي، تسجيل مخالفة جدية

واحدة خلال ثمانمئة سنة من حكم العرب، للمعاهدات التي عقدها العرب مع المدن الاسبانية أيام الفتح. فقد حافظ الحكام المسلمون على الوفاء بما تضمنته شروط المعاهدات، وكان أئمة المسلمين وفقهاؤهم حفظة أمناء يسهرون على حسن تنفيذها.

ولما تبدلت الأحوال، وأصبح الأسبان في مركز الغلبة والقوة، لم يجزوا المسلمين خيراً بخير، ولا وفاء بوفاء، وإنما غدروا بهم، وأساؤوا معاملتهم أيما إساءة، ولم يفوا لهم بالعهود المقطوعة، التي أقسم على الوفاء بها ملوكهم وزعماؤهم، وكبار رجال دينهم، فحولوا الجوامع الى كنائس خلافاً للعهود، ثم أجبروا المسلمين على التنصر بالقهر والعنف. وأخذوا يلاحقونهم أمام محاكم التفتيش بدعوى أنهم ما زالوا مقيمين على الإسلام. ثم أخذوا ينقبون عن أسرارهم، ويكشفون عن ضمائرهم، وكمائن نفوسهم، ويحاسبونهم عليها. واعتبروا النظافة والطهارة والامتناع عن شرب الخمر، وعن أكل لحم الخنزير، قرائن على اقامتهم على الإسلام، وآخذوهم عليها. وأجبروهم على حضور القداس في الكنائس أيام الآحاد. وخربوا الحمامات، ومنعوا المسلمات من استعمال الحناء في تلوين أصابعهن. حتى إن الكاردينال جيفارا عذب المسلمات لاستعمالهن الحناء، وأجبرهن على حك أظافرهن لإزالة آثارها. وألزموا المسلمين بفتح بيوتهم أيام الأعياد ليراقبوا ما يجري داخلها، لكيلا يحتفل المسلمون بالأعياد الاسلامية، ثم أجبروهم على التخلي عن اسمائهم العربية، وألزموهم باتخاذ اسماء اسبانية، وحرموا عليهم استعمال اللغة العربية، ولبس الألبسة العربية، وأحرق الكاردينال خيمنس قرابة مليون كتاب عربي. هي عصارة حضارة العرب، وثقافتهم، وعلومهم في الأندلس، خلال ثمانمئة عام، وذلك في محاولة منه للقضاء على اللغة العربية، ولقطع صلة العرب بماضيهم الحضاري.

وسنوا القوانين الجائرة البالغة القسوة بحق العرب، وجعلوا عقوبة اتفه المخالفات الموت، والاسترقاق، والشغل في السفن مدى الحياة، ومصادرة الأموال.

وكان دور الكنيسة في هذه المأساة الانسانية، دور الموجه والمحرض والدافع الى ابادة العرب والى اضطهادهم وإلحاق الأذى بهم، فقد دفعت الكنيسة الملوك الاسبان الى خرق حرمة معاهدات الاستسلام التي كفلت للمسلمين حياتهم وأموالهم وحرياتهم في العبادة والتعبير والمعتقد والتقاضي بحسب الشريعة الاسلامية.

واستخدمت الكنيسة ديوان التحقيق (محاكم التفتيش) ـ آلة الاضطهاد

الجهنمية ـ في اضطهاد العرب، وفي حملهم على التنصر، فقتل منهم ألوفاً لا تحصى بحجج مختلفة. وقد أوردنا قصة رواها ضابط فرنسي كان في جيش نابليون في مدريد عام ١٨٠٩م، وكان له الفضل في كشف مصنع العذاب، في أحد أديرة ديوان التحقيق. وقد قص هذا الضابط ما رآه واخوانه من آلات العذاب، والأساليب الرهيبة التي يستعملها رجال الديوان من القسس، في التحقيق مع ضحاياهم. وذكر الضابط أنهم عثروا على لوائح باسماء الكثيرين من المثرين، حاكمهم الديوان واستصفى أموالهم، لا لجرم اقترفوه، وإنما طمعاً من رجاله في أموالهم.

وإذا كانت هذه هي المعاملة التي كان رجال ديوان التحقيق يعاملون بها اخوانهم الكاثوليك الاسبان لاستصفاء أموالهم في عام ١٨٠٩م، فكيف إذاً كان أسلافهم من رجال الديوان يعاملون المسلمين قبل ثلاثة قرون؟ قبل أن تنتشر أفكار التحرر في العالم الغربي، وقبل أن تنصقل العواطف، ويخف التعصب؟!.

وأرسلت الكنيسة القسس يزعجون المسلمين في بيوتهم ومناطقهم، ويسيئون الى دينهم ومعتقداتهم في محاولة منها لحملهم على الرضوخ والاستكانة والقبول بما يفرض عليهم، أو لدفعهم الى الخروج والثورة على الظلم والطغيان، لِتُحِلَّ للسلطات الحاكمة دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

وكانت تصرفات القسس الشاذة السبب المباشر للعديد من الثورات التي قام بها الاندلسيون دفاعاً عن حقوقهم وأعراضهم ودينهم وحرياتهم ولغتهم. وكان من نتيجة هذه الثورات القضاء على مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال، واسترقاق الوف الألوف منهم، واجبار الكثيرين على النزوح الى المغرب هرباً بدينهم وحياتهم وأعراضهم.

وقد اعترف الكاردينال خيمنس ـ معرِّف الملكة ايزابيل ـ أنه هو الذي دفع أهل غرناطة الى الثورة عام ١٤٩٩م بتصرفاته الشاذة واللاإنسانية، ليتاح للملكين الاسبانيين اعتبارهم خارجين على القانون، وليضعهم أمام خيارين لا ثالث لهما «القتل كثائرين متمردين، أو العفو إذا قبلوا العماد والتنصر».

.وساهم الفاتيكان هو الآخر في اضطهاد العرب، أو دفع هو الى هذا الاضطهاد، وأصدر الأوامر العديدة الى ملوك اسبانيا لطرد المسلمين وإبادتهم. وأحل الملوك من الوفاء بالقسم الذي أقسموه هم وأسلافهم على الوفاء للمسلمين بما تضمنته معاهدات التسليم.

ومنح الفاتيكان ديوان التحقيق سلطة محاكمة الأموات خلال خمس سنوات من تاريخ وفاتهم، لاثبات جرم الكفر عليهم، واصدار الحكم بمصادرة أموالهم لصالح الكنيسة وديوان التحقيق.

اننا في عقليتنا العربية، لا نستطيع ان نفهم هذا الموقف غير الانساني، وغير العادل، من جانب الفاتيكان والقسس، ولا نستطيع أن نجد له تفسيراً معقولاً ومقبولاً، ولا نستطيع ان نعتبره متفقاً مع روح الدين المسيحي السمح، الذي جاء الاسلام متمماً لأحكامه.

فالأديان كلها - في نظرنا - والسماوية منها بصورة خاصة - تأمر بالخير والمحبة والاستقامة والوفاء بالعهود، والعطف على الضعفاء، والأديان كلها تكره الضرر والفسوق والظلم والقسوة والخديعة والنكث بالعهود.

واننا في عقليتنا العربية، نعتبر رجال الدين حماة للفضيلة والأخلاق والعدل، وحراساً مكلفين بالسهر على حسن تطبيق تعاليم الدين، وأوامر الأخلاق. وعلى ألا يقع على الضعفاء ظلم أو عسف.

وفي اعتقادنا أن رجال الكنيسة الاسبانية لو كانوا من العرب، لكان لهم موقف آخر يختلف عن المسلك الذي سار عليه رجال الدين الاسبان، ولما سمحوا للسلطات الحاكمة الاسبانية بأن تخرق حرمة المعاهدات، ولا ان تسيء الى شعب آمن، وثق بالحكام ودينهم وشرفهم، واستسلم لهم، حتى لو كان الشعب الذي وقع عليه الجور والاضطهاد شعباً غير عربي، فالعرب كانت لهم عقلية في التحرر والتسامح المفرط لم تعرفها الأمم الأخرى في القرون الغابرة.

على أن جميع هذه الأساليب الجائرة لم تحمل عرب الأندلس على التخلي عن دينهم ولغتهم وقوميتهم وعاداتهم، فمارسوا دينهم سراً، وأقاموا المساجد خفية، يجتمعون فيها ويقيمون الصلاة، وعلموا أطفالهم دينهم ولغتهم، ونشؤوهم على التقاليد العربية الكريمة، والأخلاق الاسلامية الحميدة، وكانوا يتهربون من أداء الواجبات التي تفرضها عليهم الكنيسة الكاثوليكية ما وسعهم ذلك. وكانوا لا يستدعون القسيسين الى بيوت مرضاهم الا بعد أن يكونوا قد فارقوا الحياة، أو فقدوا القدرة على النطق، لكيلا يتركوا للقسيسين مجالا لتلقينهم شيئاً يتنافى مع مبادىء الاسلام قبل وفاتهم.

وكانوا إذا ما اضطروا الى عقد زواجهم في الكنيسة، عادوا الى بيوتهم فعقدوه

حسب الشريعة الاسلامية، بعد أن يطهروا انفسهم وثيابهم، مما أصابها من ماء الكنيسة وزيتها.

كان الملوك ورجال الكنيسة يعتقدون أنهم سيقضون،على كل أثر للإسلام والعرب في شبه الجزيرة، بعد مرور جيل أوجيلين، وأن الآباء إذا لم يجعل العماد بالاكراه منهم مسيحيين صالحين، فإن الأبناء سيكونون كذلك. ولكنهم وجدوا بعد مرور أكثر من مئة عام، أن المسلمين العرب مازال أنسالهم عرباً مسلمين كما كان آباؤ هم وأجدادهم من قبلهم. لذلك اعترفوا بفشلهم الذريع في القضاء على حيوية هذا الشعب العنيد، واعترفوا بأنهم لم يحققوا أي نجاح في جعله شعباً مسيحياً.

لذلك قرروا في عام ١٦٠٩م اخراج جميع من تبقى في اسبانيا من نسل العرب دون تمييز، وباشروا في ذلك. ولم يمض عام ١٦١٠م إلا وكان شبه الجزيرة الايبرية خالياً من العرب تماماً.

ولكن التعصب الاسباني لم يستطع أن يجتث من أرض الأندلس أصول الحضارة الزاهرة التي خلقها العرب وخلفوها فيها، وهي حضارة ثمانمئة عام من العمل النير الدائب المستمر. وإذا كان السائحون في العالم يسافرون اليوم الى اسبانيا، فذلك لأنهم يريدون أن يروا ما خلفه العرب من جميل التراث. ولولا آثار العرب في قرطبة المتمثلة في مسجدها الجامع العظيم، لما تجشم أحد المسير اليها، ولو كان منها على مسيرة نصف ميل، على ما قاله القسيس (ماك كيب).

لقد هزت مأساة العرب في الأندلس كل نفس حرة منصفة من العالم، فكان الاوروبيون أول من نعى على الاسبان جهلهم، وتعصبهم، وقسوة قلوبهم، وغدرهم، ونكرانهم للجميل: لأن هؤلاء الأوروبيين كانوا أكثر الناس قرباً من حضارة العرب الزاهرة في الأندلس، وأكثرهم اغترافاً منها، وتقديراً للمعاملة الانسانية الرفيقة التي لقيها الاسبان من العرب.

ولعل أبلغ عبارة قيلت في إنصاف عرب الأندلس ، وفي التشنيع على الطغيان الاسباني البربري، تلك الكلمة المنصفة التي قالها الكاردينال ريشليو معلقاً بها على طرد الاسبان للعرب؛ وهي أن ما قام به الاسبان يعتبر (من أكثر ما عرفه التاريخ في جميع عصوره من أعمال القسوة والبربرية والطغيان).

ومن الغريب أن نجد في عصرنا الحاضر، عصر النور والحريات، أناساً من

المثقفين، ورجال الدين الاسبان، يحاولون الدفاع عن التصرفات الفاجرة الحمقاء التي صدرت عن اسلافهم، ويجدون لها الأسباب والمبررات، ويحاولون أن يضفوا عليها صفة الشرعية، ويعتبرونها ضرورة ملحة، وحلاً لم يكن بد منه لتأمين وحدة الدين والقومية في اسبانيا.

وبعض الذين يستنكرون فعل الكنيسة والاسبان يحاولون بحث الأمر ومناقشته على أساس الضرر المادي الذي لحق بالاقتصاد الاسباني نتيجة لإخراج العرب، وعلى أساس التأخر والجمود اللذين أحدثهما فقدان اليد العاملة العربية المتخصصة والنشيطة في ميادين الصناعة والزراعة والعمران، والصحة والثقافة. . .

ويحاول المتحمسون من رجال الكنيسة والاسبان المثقفين أن يردوا على هذه الأقوال بالبرهنة على أن اسبانيا لم تتضرر من خروج العرب، وانه إذا كان قد حدث فيها ضرر، فقد كان ضرراً طفيفاً لا يمكن أن يقارن بالمنافع الكثيرة التي حققتها اسبانيا.

على أن هذه الأصوات النشاز لا يمكن أن تحجب الحقيقة عن أعين المنصفين في العالم، ولا يمكن أن تبرر في أعين الناس الجرائم الوحشية التي ارتكبت بحق العرب لاجتثاث أصولهم من شبه الجزيرة.

والقول بأن التدبير المتخذ بحق العرب كان ضرورياً لتحقيق وحدة الشعب الاسباني من الناحيتين القومية والدينية، هو قول ضعيف لا يمكن أن يقنع أحداً. وكان الأجدر بهؤلاء الاعتراف بجرأة بخطأ أسلافهم المتعصبين، ورد ذلك الى الجهل والتعصب الذميم، وضيق الأفق، واستنكاره كما فعل غيرهم. لأن القول بأن القضاء على العنصر العربي كان ضرورة ملحة معناه اعطاء الحق لجميع الأمم والشعوب التي تعيش في أكنافها أقليات عنصرية ودينية، بأن تبيدها بحجة تحقيق الوحدة الداخلية.

وهؤلاء المتعصبون يعرفون أنه كان يعيش في ظل الحكم العربي في الأندلس كثير من الاسبان الذين بقوا اسباناً في دينهم ولغتهم وتقاليدهم، فهل كان يعتبر هؤلاء المتعصبون فعل العرب مشروعاً ومبرراً لو أنهم عمدوا الى إبادة العنصر الاسباني المسيحي من الأندلس العربية المسلمة، بحجة أن العرب يريدون تحقيق وحدة العنصر العربي المسلم في الأندلس؟

وفي يقيني أن عرب الأندلس لو أقدموا على فعل منكر مثل هذا لاستنكره عرب

اليوم قبل غيرهم، لأنه يعتبر تلطيخاً لتاريخنا المشرق الجميل.

وهل يرى هؤلاء المتعصبون أن يقوم الانكليز الذين يحتلون جبل طارق اليوم بإبادة الاسبان الموجودين في هذا الجيب المحتل لتحقيق وحدة شعبه، لكيلا يصدر صوت ينادي بخروج الانكليز منه واعادته الى الوحدة مع اسبانيا؟

لاشك في أن هؤلاء المتعصبين سيكونون أول الثائرين المشنعين على الانكليز قسوتهم ووحشيتهم لو أنهم عمدوا الى شيء من ذلك. ومن أبسط قواعد الانصاف أن يعامل الإنسان الناس بما يحب أن يعاملوه به.

ويريد هؤلاء المتعصبون - في محاولتهم اليائسة للبحث عن اسباب ومبررات مقبولة تخفف من أثر جريمة اجدادهم في ايذاء العرب واخراجهم من الأندلس - أن ينسبوا الى عرب الأندلس، تآمرهم على أمن اسبانيا ووحدتها مع المغاربة والأتراك والفرنسيين. وقد سخر المؤرخ الاسباني (موديستولا فوينت) من هذه الأقوال، ونفاها، وضرب الأمثلة على هدوء العرب واستقرارهم وبعدهم عن الإزعاج.

ولنفترض أنه كان هناك أناس قد اتصلوا بالمغرب، وبأتراك الجزائر وبفرنسا، ليسهلوا لهم سبل الهرب من جحيم الحياة التي فرضت عليهم في اسبانيا، فإن ذلك لا يمكن أن يعتبر سبباً مبرراً لاضطهاد شعب بأكمله، ولمؤاخذة المجموع بما ارتكبه فرد أو أفراد قلائل منه.

وإذا صرفنا النظر عن أسباب إقدام العرب على محاولة الهجرة من اسبانيا، بعد أن جعلت السلطات والكنيسة حياتهم لا تطاق، وبعد ان شددت الأوامر بمنعهم من الخروج منها، وإذا تركنا رد السبب الى تصرف السلطات الاسبانية نفسها - كما يبين من الأحداث المذكورة في هذا الكتاب - فاننا نستطيع أن نقول إن العرب لم يعاقبوا الاسبان المستعربين على عواطفهم نحو الاسبان في الممالك الشمالية، ولم يتخذوا بحقهم جميعا تدابير قمع شاملة وجماعية، بحجة أن بعضهم اتصل باسبان الشمال وتآمر معهم على العرب.

لقد كان في سوريا والأناضول كثير من المسيحيين من عرب وسوريين ويونانيين وأرمن، وقد تعاون بعضهم تعاوناً وثيقاً مع الغزاة الصليبيين، وحارب الكثير منهم في صفوف الصليبيين، ونكلوا بالمسلمين تنكيلاً شديداً، ولكن المسلمين حينما انتصروا على الصليبيين، وطردوهم من بلادهم، لم يفكروا بإبادة العناصر غير المسلمة من أرضهم، بحجة تعاونهم مع الصليبيين، لأن العقاب في نظرهم لا يمكن أن يحل

بالمذنب وبالبريء على السواء، ولذلك فانهم بقوا حيث هم لم يمسسهم أذى ولا ضر.

وفي معرض الاستهجان والنقد لتصرفات الاسبان، وفي موضوع الدفاع عنها، نجد اليوم أن موضوع النقد والنقاش، أصبح في أكثره يدور حول فائدة العرب الأندلسيين أوعدم فائدتهم في الوجود الاسباني، وحول الأثر الذي أحدثه اخراجهم من اسبانيا، فمن قائل إن خروجهم أدى الى بوار الأرض والصناعات، ومن قائل إنهم لم يحدثوا إلا أثراً ضعيفاً في الحياة الاقتصادية للبلاد، لا يمكن أن يقارن بالفوائد التي حققتها اسبانيا من وحدة الدين والقومية.

إن الموضوع في نظرنا أكثر من مسألة ضرر مادي، أو نفع مادي حدث لاسبانيا أو لم يحدث، إنها قصة مبدأ التسامح والتعايش والإخاء الانساني. وإنها قضية العرفان بالجميل، والتقيد بالعهود، والمواثيق، إنها قضية القهر والغدر، والاساءة والإيذاء للمسالمين والمستضعفين. ومن الواجب أن يعالج الموضوع من هذه الناحية، لا من ناحية ما أحدثه خروج العرب من ضرر مادي للأندلس. وفي رأينا أنه كان من الواجب أن يُعَامَلَ العرب معاملة انسانية حسنة، سواء أكان في وجودهم نفع لاسبانيا أم لم يكن فيه نفع. وسواء أحدثَ خروجُهم ضرراً أم لم يحدث.

لقد أقام العرب في الأندلس ثمانمئة عام، وارتبطوا بها، وأبدعوا فيها الكثير، فأصبحت لهم فيها حقوق. ثم غلبهم الاسبان. واتفقوا معهم على شروط، لم يلبث الاسبان أن داسوها، وكان في مقدمة من خرقها الملكان اللذان وقعاها، وأقسما على الوفاء بها، وكبير الكرادلة.

وتتالت بعد ذلك الاساءات بحق العرب واستمرت الى يوم اخراجهم.

لقد كانت هزيمة الأندلسيين أمام أعدائهم، وانهيار دولتهم، هما سبب بلائهم ومصدر شقائهم. وكانت الهزيمة وكان الانهيار نتيجة حتمية لخلافاتهم فيما بينهم، ولنزاعاتهم، ولعجزهم عن الاتحاد والتضامن أمام الأخطار المحدقة بهم، ولقصورهم عن معرفة أي الأخطار أقلها شراً واختياره.

لقد عانى الأندلسيون الكثير من النزاعات التي وقعت بينهم: بين العرب والبربر، وبين عرب الحجاز وعرب اليمن، وبين المولدين الأندلسيين، وبين سلطة الخلافة. وقد استمرت هذه النزاعات فيما بينهم حتى خلافة الناصر لدين الله. ولا شك في أن الأندلسيين قد أدركوا حقيقة ما جرته عليهم هذه النزاعات من بلاء

وكوارث. وكان من المفترض فيهم أن يتعظوا بما جرى. فقد رأوا كيف شجعت هذه الخلافات أعداءهم في الشمال، فاستطالوا عليهم، ووسعوا أرضهم على حسابهم، وهم يدركون أن بلادهم لم تعرف الراحة والاستقرار إلا في عهد الخليفة الناصر وابنه المستنصر. فلما مات المستنصر كان من المفروض أن يلتف الأندلسيون جميعاً حول عرش ابنه القاصر هشام الثاني، وأن يحافظوا على وحدتهم لكيلا تتجدد خلافاتهم، فينتهزها عدوهم، ويذكي نارها استعاراً، ويقطف وحده ثمرات هذه الفوضى، وذاك الاقتتال.

ولكن النزاع ما لبث أن تجدد بين جعفر المصحفي - وزير الخليفة القاصر والمشرف على إدارة الحكم - وبين المنصور محمد بن أبي عامر، الرجل الطموح، الذي استطاع أن يكسب ثقة (صبح) والدة الخليفة هشام، وأن يفوز في الصراع ويقضي على عدوه ومنافسه.

كان المنصور بلا شك رجلاً عظيماً، حقق للأندلس ما لم يحقق في أي عهد آخر، فكان عهده استمراراً - من الناحية الخارجية والداخلية - لعهد الخليفة الناصر، فأذل أعداءه الاسبان في الشمال، وفرض عليهم الجزية، ووصل في فتوحاته في أراضيهم مناطق لم يصلها قبله أحد من القادة العرب.

ولكن مغامرة المنصور، واعتداءه على السلطة الشرعية، حركت أطماع المغامرين، وحسد الحاسدين، فتطلع كل واحد منهم الى تجربة حظه. وإذا كان هؤلاء المغامرون الطامعون لم يستطيعوا حراكاً في عهد المنصور، بسبب حزمه وقدرته الفائقة، وإدارته الحكيمة، وانتصاراته الرائعة على الاسبان، فانهم ما لبثوا أن تحركوا في عهد ابنه الثاني عبد الرحمن (ويعرف باسم سنجول) الذي أراد أن يلعب دور أبيه، دون أن تكون له كفاءاته ومقدرته وهيبته على الجند، فتحرك الطامعون واطاحوا البيت العامري، وبالخليفة هشام الضعيف.

وهكذا تجددت الانقسامات، وعمت الفوضى، وأخذ كل فريق يستعين بالاسبان لتثبيت مركزه، فخرج الاسبان من الجحور التي ألجأهم إليها الناصر والمنصور، وعاودوا الكرة على المسلمين، واسترجعوا منهم في وقت قصير، وبدون قتال، كل ما تعب الناصر والمنصور في استعادته منهم خلال ما يقارب ثلاثة أرباع القرن.

وبرزت الخلافات على نحو أوضح بين الأندلسيين بعد سقوط الخلافة الأموية،

وقيام حكم ملوك الطوائف. وقد أدت هذه الخلافات بالامراء المسلمين جميعاً الى الخضوع للممالك الاسبانية، والى دفع الجزية إليها. ولم ينته حكم ملوك الطوائف على أيدي المرابطين عام ١٠٩١م إلا بعد أن استولى الاسبان على كثير من عواصم الثغور الاسلامية ومنها طليطلة.

وفي عهد المرابطين استعادت الأندلس وحدتها، وتحقق لها تعاون المغرب معها تعاوناً مثمراً وثيقاً، ولكن الأندلسيين ما لبثوا أن تحركوا يحاولون التخلص من حكم المرابطين، وكأنهم لم يكفهم ما حل بهم وبوطنهم من كوارث، من جراء ضعفهم، ونزاعاتهم، واقتتالهم. فعادوا الى التآمر مع الاسبان على اخوانهم المرابطين الذين كان لهم الفضل في وقف اندفاعة الاسبان.

وقد أدت مؤامرات الأندلسيين مع الاسبان الى سقوط العديد من عواصم الثغور في الشمال والشرق ومنها سرقسطة، بيد أعدائهم الاسبان.

ولما ضعف أمر الموحدين (الذين خلفوا المرابطين في حكم المغرب والأندلس) تحرك الأندلسيون مرة أخرى يتنازعون ويتنافسون، والعدو من فوقهم جميعاً يتلقف المدن والحصون، فسقطت أكثر مدن الأندلس الكبرى في يديه، ومنها قرطبة واشبيليا وماردة وبلنسية.

وانكمش العرب أخيراً في رقعة ضيقة في الجنوب الشرقي، في مملكة غرناطة، ولبثوا فيها قرنين ونصفاً تقريباً، وهم يعملون متحدين متماسكين ومتعاونين مع اخوانهم في المغرب، فلم يجد العدو فيهم مطمعاً. ولكن النزاع في البيت النصري المالك، نشب فجأة بين الملك أبي الحسن، وبين ابنه أبي عبد الله الصغير، وتطور النزاع الى انشقاق خطير في المملكة، فكانت فيه نهايتها، ونهاية الحكم العربي كله.

واننا لنشعر بالألم العميق حينما نذكر المأساة الأليمة التي حلت باخواننا عرب الأندلس، الذين لم يتعظوا بما مر بهم من ألوف الدروس والعبر التي مرت بهم أنفسهم، والدروس التي قرؤوها في كتب التاريخ ورواياته عن مساوىء الاختلافات والانقسامات والنزاعات الداخلية، التي دمرت كثيراً من الأمم والشعوب، التي شغلها الحقد على الأهل والأقارب والأخوة في الوطن، فاندفعت تريد إرواء أحقادها، وتستعين باعدائها، غير مفكرة بما سيكون عليه حالها إذا أراد هذا العدو النصير، أن يفتك بها.

وما هي إلا فترة وجيزة يستنفد فيها الجميع قواهم، ويتلفون سلاحهم

وأموالهم، فلا يحسون إلا والأعداء قد انقضوا عليهم وأفنوهم جميعاً، غير موفرين أحداً.

وإذا كانت أحداث التاريخ تروى لتكون عظة وذكرى للأحياء، يتأملون دروسها، ويستخلصون العبر منها، فان أمتنا اليوم أحق الناس بالتأمل فيما جرى على عرب الأندلس، وكيف أبادهم أعداؤ هم بسبب تفرقهم وتخاصمهم، واجتثوا أصولهم وجذورهم من أرضهم، حتى لم يتركوا لهم في دارهم من باقية.

فنحن نواجه اليوم في فلسطين، وفيما حولها، تهديداً خطيراً بدأ منذ مطلع هذا القرن بمد استعماري مدمّر يرافقه مد استيطاني صهيوني اشد خطراً وتدميراً منه، وقد تحالفا على أمتنا، وتآزرا على قهرها وإذلالها، وتمزيق أوصالها، وقد استقر الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في أرض فلسطين، وأخذ يتوسع ويتمكن، ويبني الحصون والقلاع، وعرف أهم نقاط ضعفنا فاستفاد منها، وبصورة خاصة خصومات حكامنا ومنازعاتهم فيما بينهم، وحاربنا أكثر من مرة، حتى انتزع فلسطين كلها منا، وانتزع فوقها كثيراً مما حولها.

ولا شك في أن نجاح هذا العدو في قهرنا لم يكن مصادفة، وعثرة حظ بالنسبة لنا، وإنما كان بجهد وتخطيط، ومعرفة بحقيقة حالنا، وقد كانت عدته في نجاح غزوه أسباباً كثيرة من أهمها الأمور التالية:

١ ـ تجزئة الأرض العربية، وإقامة كيانات اقليمية، الغاية منها خلق مصالح خاصة، للفئات الحاكمة، تمنعها من التفكير الجدي في إعادة توحيد أجزاء الأمة العربية المبعثرة، لكيلا يحرموا الخيرات التي يدرها الحكم على الحكام.

٢ ـ إثارة الخلافات بين الحكام العرب، وإذكاء نار الحرب والأحقاد بينهم، لاستنفاد ثرواتهم وقواهم في هذه المنازعات، واشغالهم بخصومات بعضهم لبعضهم الآخر، عن التفكير في أعدائهم الحقيقيين. ومنعهم من التقارب والتفاهم والتحالف في سبيل استرجاع الحقوق العربية السليبة.

٣ ـ الايحاء للمواطن العربي بأنه متخلف عقلياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وأنه غير قادر على مجاراة ركب الحضارة الحديث، وعاجز عن استيعاب العلم الحديث والسلاح المتطور الحديث. وبذلك يدخل اليأس الى قلب العربي ونفسه، من إمكان التطور، والانعتاق مما هو فيه، فيبقى في طور البداوة الذي هو فيه عقلياً.

٤ ـ اقناع العربي بأن اليهودي إنسان متطور عقلياً وعسكرياً وعلمياً وتنظيمياً، وأنه قادر على الابداع والأخذ بأسباب التطور العصري، وأنه يستحيل على الانسان العربي أن يلحق به أو أن يجاريه. والحرب اليوم لا تقوم بكثرة الرجال، وإنما تقوم بالسلاح المتطور، وبالعلماء، وبالنخبة الممتازة من الرجال المقاتلين القادرين على استيعاب السلاح، وحسن استخدامه بكفاءة في الحرب.

٥ ـ اقناع المواطن العربي أن اليهودي إنسان عملاق، قادر على سحق العربي في أية لحظة، وحيثما كان، سواء أكان ذلك في ميدان الحرب المكشوفة، أو في ميدان الحرب الخفية، التي تستطيع أن تتسرب فيها القوى الخفية الى أي مكان تريده، فتقتل وتنسف وتضرب، وتسخر من العربي في عمق أرضه، وفي عقر داره، ثم تعود سالمة غانمة.

وهذا كله يتم بفضل العقل المبدع، والتنظيم الدقيق، والانضباط الشديد، والتدريب الشاق المستمر، والكفاءة العالية.

٦ ـ تسخير اجهزة إعلام المستعمرين، وأعداء العرب في كل مكان، والأجهزة الصهيونية المسيطرة على المال والبنوك وكثير من فروع الاقتصاد في العالم، في الضرب على هذه الأوتار باستمرار، لاقناع العربي بتخلفه وعجزه عن مقارعة اليهودي في ميدان الحرب والتنظيم، وقصوره عن مجاراته في ميدان التكنولوجيا والعلم والتقدم العصري.

والغاية من وراء ذلك كله هي أن يستقر في نفس العربي اقتناعه بتفوق اليهودي عليه، وإذا ما استقر ذلك، استسلم العربي لليأس، والخضوع للقدر المحتوم، وقبل بوجود اليهودي معه في فلسطين. وحينئذ ينفتح الباب أمام المستعمرين وأصحاب المطامح في السيطرة على الأرض العربية وثرواتها، فيلجونها دون عناء.

هذا هو باختصار السلاح الذي استعمله أعداء العرب للسيطرة عليهم؛ ومن يتابع بإمعان سير الحوادث في منطقتنا منذ الحرب العالمية الأولى، تتضح له هذه الحقائق بشكل لا يقبل الجدل.

أ ـ فقد استعمل الاستعمار البريطاني سلطته ليسهل هجرة اليهود من أنحاء العالم، وييسّر لهم الاستقرار في المواقع الحساسة، ذات الأهمية البالغة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية في أرض فلسطين، وقدم لهم جميع التسهيلات الممكنة لانتزاع الأراضي من أيدي أصحابها العرب بالضغط والاكراه حيناً، وبالترغيب والاغراء أحياناً.

ومنحهم أراضي الدولة، التي تعتبر من الناحية القانونية ملكاً لشعب فلسطين، وليس للمنتدب أن يتصرف بشيء منها، لأن يده على الأرض يد أمانة مؤقتة، لا تمنحه حق التصرف بها هبة وعطاء لأية جهة كانت.

ب ـ قدم الاستعمار البريطاني العون والحماية لليهود لاقامة المستعمرات الاستيطانية في المناطق التي نصحهم بالاقامة فيها، نظراً لأهميتها الاستراتيجية في المستقبل، وربط هذه المستعمرات بشبكة من الطرق والكهرباء والمياه، على حساب الحكومة المحلية، حتى اصبحت تلك المستوطنات، وما حولها من زراعات، من أهم وسائل الدعاية للمنجزات اليهودية. بينما فرض على المدن والقرى العربية البقاء حيث كانت، قلة ماء، وسوء انارة، وقلة اهتمام بالنظافة، وقلة مدارس، بالاضافة الى اذكاء نيران الخلافات بين الزعامات العربية المحلية، لكيلا تجتمع الكلمة على عمل اصلاحي مفيد، ينهض بالمناطق العربية، من جهة العمران والزراعة والنظافة والتعليم.

وبذلك ظهر الفارق كبيراً بين المناطق الحديثة التي سكنها اليهود، وبين المناطق العربية التي ظلت كما كانت عليه أيام الحكم العثماني المتخلف.

واتخذ الاستعماريون واليهود ذلك الفارق وسيلة هامة من وسائل الدعاية، والحديث عن البون الشاسع بين العقل اليهودي الغربي المنظم المبدع، والمتمرس، وبين العقل العربي المتواكل الفوضوي والمستخذي. حتى ان هذه الدعاية الخبيثة المضللة والجائرة، أثرت في نفوس بعض عرب فلسطين وبعض الزعامات العربية، فاقتنعوا بوجود ذلك الفارق بين العربي واليهودي، وكان ذلك أول الخسران للقضية الفلسطينية.

ج ـ ولما كان اليهود قلة قليلة، تستقر في نقاط يحيط بها بحر واسع من العرب فقد نصحهم الاستعماريون الانكليز، بأن تكون مستعمراتهم متقاربة ومتصلة فيما بينها، ومحصنة تحصيناً قوياً لتستطيع الدفاع عن نفسها، والتعاون فيما بينها، على نحوٍ فعّال في صد أي هجوم عليها.

ونصح الاستعماريون اليهود بأن التهاون في رد أي اعتداء من قبل السكان العرب المجاورين على أية منشأة زراعية أو صناعية يهودية، أو أي إنسان يهودي من سكان المستعمرات، يمكن أن يُطمِعَ العرب ويشجعهم على الاستطالة على اليهود.

لذلك كان اليهود يردون ـ تحت حماية المستعمرين ـ رداً عنيفاً على كل

استفـزاز، أوتعـرض لمنشـآتهم، أو اعتـداء على أفـرادهـم من قبل جيرانهم العرب ليظهروا بأسهم وتماسكهم، وتشبثهم بأرضهم وقراهم ومنشآتهم.

وحينـما كان العـرب يحاولون الرد على الصهاينة، كان الاستعماريون يتدخلون لحماية اليهود، ولترك كفة اليهود أرجح من كفة العرب في ميزان الثأر والانتقام، ليبقى لذلك اثره في نفس العربي العادي.

د ـ وكـان من الطبيعي أن تزدهـر االمنـاطق اليهـوديـة، لما يتـدفق عليهـا من مال من الخـارج، ومن خيرات حملهـا المهـاجـرون من البـلاد التي قدمـوا منهـا، ومن عون وارشـادات الانكليـز، ومن مجمـوع التسهيـلات التي كان يلقـاهـا اليهـود على جميع الأصعدة والمستويات.

وبقيت المناطق العربية، خلال ذلك كله، متخلفة لأسباب كثيرة، منها محاربة الحكم الاستعـماري لكـل تقدم عربي، ومنها عرقلة كل مسعى عربي يقصد به وضع خطـة للتقـدم والتطـور، على المـدى البعيد، ومنها شراء بعض الضمائر العربية بالمال والنسـاء للسـير في المخطط الاستعماري الصهيوني، ومنها الدعاية المنظمة الخبيثة التي أشـرنـا إليهـا، والتي كان هدفهـا إدخـال اليأس إلى قلوب العـرب، وتثبيط همتهم في السعى للإصلاح والتقدم.

وأخـيراً بالقـوة المسلحـة، إذ كان اليهـود يفتعلون الأحـداث لتصفيـة كل فرد أو جماعة من العرب يسمح لها وعيها وبعد نظرها بالاهتداء الى الطريق القويم.

هـ ـ ثم قامت اسرائيل، فاسرعت الدول التي توارثت عبر أجيال كثيرة، كره العرب، والحقـد عليهم وعلى تاريخهم وحضـارتهم ومثلهم العليـا، الى الاعتراف باسرائيل، وتقديم الرجال والمال والسلاح للدفاع عنها، حتى أصبحت اسرائيل مستودعاً ضخماً للسـلاح والمسلحـين المـدربـين. بينما ضن هؤلاء الحاقدون على العرب بشيء منه، وذلـك لكي يبقى اليهـود في وضـع المتفـوق، ولتـترسـخ اقـدام الصهيونية، وتضرب بجذورها في الأرض العربية.

واستشعرت اسرائيل القوة بهذا العون، فلم تعد تقبل بدولة تقوم ضمن حدود التقسيم التي رسمتهـا الأمم المتحـدة عام ١٩٤٧، ولم تعـد تقبل بالتعايش مع العرب المـوجـودين ضمن حـدودهـا، بحسب خطـوط التقسيم، فانـدفعت تضـرب الجيوش العربية الواحد بعد الآخر، بينما بقي الآخرون حيث هم لا يتحركون. وكثيراً ما كان بعض الحكـام العـرب يشمت بالهـزائم التي تلحق بالجيـوش العربية الأخرى، حتى

أهين العرب جميعاً، وأهين الحكام واهينت الجيوش.

وراح اليهود في نفس الوقت يعتدون على السكان العرب الآمنين، ويفتعلون المذابح الرهيبة، ويهتكون الأعراض، ويبقرون بطون النساء الحوامل، ويذبحون الأجنة والرضع والأطفال والشيوخ بعنف لا مثيل له في تاريخ البشرية، اللهم الا تاريخ بني اسرائيل اسلافهم.

وكانوا ينشرون انباء هذه الفظائع، ويهولون فيها، وغايتهم من ذلك ادخال الذعر الى جميع القلوب، وحمل الناس على الهجرة والرحيل، فكان لهم ما أرادوا، وخلت أرض فلسطين من سكانها، وتشرد الشعب الفلسطيني.

واستقدمت اسرائيل المتطوعين من كل مكان لإعمار الأرض وتوفير اليد العاملة والجنود للدفاع عنها.

و ـ وتمكنت اسرائيل اخيراً من اجبار الحكام العرب على عقد اتفاقات للهدنة، ابقت اسرائيل في المناطق التي انتزعتها من العرب، مما كان يقع خارج حدود التقسيم، وسلم إليها بعض الحكام العرب، تواطؤا أجزاء أخرى من أرض فلسطين.

وأمنت اسرائيل داخل الحدود الجديدة، وراحت تحشد الرجال والسلاح فيها، ولما رأى يهود العالم أن ما كانوا يظنونه حلماً غير قابل التحقيق، قد أصبح حقيقة واقعة، وأنهم قد اصبحت لهم دولة، توجهت انظارهم إليها، ونزح إليها كثير من المثقفين والتقنيين والعمال المهرة من يهود العالم. وتدفقت رؤوس الأموال من الصهيونية العالمية، ومن الشركات الاحتكارية، التي كانت تحلم بأن تفتح لها اسواق الشرق العربي وخيراته لاستثماراتها، فاقامت فروعا لصناعاتها في اسرائيل، بانتظار تمكن اسرائيل من اجبار العرب على الصلح معها، وفتح ابواب حدودهم للتعامل معها.

وبذلك تحسنت حالة اسرائيل اقتصادياً وعسكرياً وثقافياً، بينما سار العرب في تقدمهم سيراً بطيئاً.

وإذا أردنا ان ننصف انفسنا وعدونا، لقلنا إن تقدم اسرائيل وتطورها، ليس لاسرائيل محلياً كبير فضل فيها، فالمهاجرون من انكلترا والمانيا والولايات المتحدة ومن بلاد أوروبا الغربية، ومن بلاد الكتلة الشيوعية، وغيرها إنما نشؤوا وتعلموا واختصوا، واتقنوا عملهم في البلاد التي قدموا منها. والى تلك البلاد يعود الفضل ـ لا الى اسرائيل ـ في ثقافتهم وتعلمهم، وانضباطهم ونظرتهم الى الاعمار والتطور، وحسن تدريبهم العسكري. وكل ما فعلته اسرائيل أنها أتاها أناس من بلاد متطورة

فاستوعبتهم، واستفادت منهم، ثم أسلمت إليهم قيادها، فأحسنوا التصرف في كثير من المجالات.

والعرب بلا شك قد حققوا كثيراً من التقدم منذ عهد الاستقلال حتى اليوم، ولكن تقدمهم كان بطيئاً وناقصاً، لأن ذلك التقدم كان مثقلاً بتركة الماضي الثقيلة، وبتخلف دام قروناً، ترشح الينا من الحكم الأجنبي.

وبعد الاستقلال وصل الحكم الى أيدي أبناء الشعب ولكن الذين تسلموا القيادات لم يكونوا هم الاكفأ والأجدر في الشعب، وكانلايهمهم أن لا يبر زمن الشعب من يزاحمهم، ويفضح قصورهم وينتزع السلطة من أيديهم، فحكم ذلك الهاجس تصرفاتهم ومسيرتهم، فأصبحوا يضيقون بكل منتقد، ويحاربون كل نابغ بعيد النظر، حتى اضطر ألوف من الشباب العرب النابغين والمتخصصين في كثير من العلوم والمهن الى البقاء حيث هم خارج البلاد. ولو أنهم قدموا الى بلادهم، وعملوا في نطاق اختصاصاتهم، ووجدوا مجال العمل رحباً أمامهم، لأحدثوا ثورة ثقافية، ولظهرت آثار التقدم والتطور في البلاد العربية في شتى المجالات.

صحيح إن المقارنة الاحصائية تظهر أن عدد المثقفين العرب اليوم والمتخرجين من المعاهد العليا والجامعات هم أكبر بكثير من عدد أمثالهم ممن تخرجوا في أوائل الاربعينات، وأن المستوى المعاشي للفرد العربي اليوم،(أفضل بكثير مما كان عليه قبلاً، وأن الاقتصاد تحسن، وأن ثروات نفطية ومعدنية ضخمة ظهرت في بعض الأراضي العربية، ولكن ذلك التقدم كان دون مستوى آمال المثقفين، وكان دون مستوى ما حققته الأمم الأخرى. وربما كان لظهور بعض الأنظمة، ولخوف أنظمة أُخرى، وقيام نزاعات حادّة وتناقضات بين أكثر الأنظمة العربية، أثّر في ذلك القصور الذي أشرنا إليه.

ولو أنه كان من الممكن أن تتضافر جهود الدول العربية، وتتعاون حكوماتها، وأن تضع هذه الثروات الهائلة في خدمة المجتمع العربي كله، لأحدث ذلك ثورة كبرى، ولدفعت بالوطن العربي أشواطاً كبيرة في طريق التقدم والازدهار والرقي الحضاري، ولأدى ذلك الى خلق جيل مثقف متطور، في فكره ونظرته للحياة، ولأمكن الأمة العربية بهذا الجيل الواعي المؤمن أن توحد أقطارها المجزأة، وأن تبني جيشاً عصرياً مزوداً بأحدث ما ابتدعه العلم من سلاح. ووجود هذا الجيل المثقف الحر الموحد، واقامة هذا الجيش العصري القوي، وبناء الاقتصاد المزدهر المتطور،

هي الشـروط الثـلاثـة الـلازمـة والكـافيـة للقضـاء على الكيان الصهيوني الدخيل، واقتلاع جذوره من الأرض العربية الى الأبد.

ولم يكن ليغيب عن اسرائيل وحماتها الاستعماريين، اخطار توافر ذلك للعرب، لذلـك وقفـوا جبهـة واحـدة يسـدون الطريق أمام كل تقارب عربي، وأمام كل تطور عربي، وراحـوا يهدمـون بكيـدهم ودسـائسهم كل جسـر يمتـد ليصـل بين قطـرين عربيين، لكيلا يصل بهما إلى الوحدة، فيكون ذلك مشجعاً للعرب على السعي إلى الوحدة، ولكيلا يكون لذلك تأثير حسن على النفس العربية، التي اقنعتها الدعايات المسمومة، أن الأنانيات العربية، والروح الفردية المركبة في تكوينهم، لاتسمح لهم بأي تفاهم أو تقارب أو تحقيق أية وحدة.

وخلقـوا تنـاقضـات كبـيرة بين رجـال الحكم في الأقطار العربية، وخلقوا لهم مصـالـح خاصـة أصبحـوا يستميتون في الدفاع عنها، واغروا بعضهم ببعض، حتى أصبح بينهم عداء لايـرجى معـه صلح أو اتفـاق. وقـوى الاستعـماريـون اسرائيل، ونصحـوهـا بضـرب العـرب كلما تجمـع لديهم سلاح، أو أصبحت لديهم نواة جيش عصـري، ليقضـوا على كل أمـل للعـرب في التقـدم والقوة، وليستهلكوا مال العرب وثـرواتهم، فلا تصـرف في سبيـل تحقيق التطـور الاقتصـادي، وهما الشرطان الأولان لإقـامـة الجيش العصـري. وانـدفع بعض الكتاب المشبوهين يغرون الحكام بتفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة من الرجال، ومعنى ذلك تحطيم أسس القانون في البلد، وإبعـاد العلماء والمثقفين والأكفيـاء من الرجال عن مجالات العمل والابداع، واحلال المحسوبين على الحكام محلهم في المراكز الهامة في الحكم والادارة والجيش، والاشراف على الانتاج والصناعات، تحت ستار الثقة بهم وباخلاصهم نحو الحكام.

وكـانت نتيجـة ذلـك كلـه أن تضعضـع الاقتصـاد، وانحـد التطـور، وسـاء الإنتـاج، وخـربت الادارة وضعفت ثقـة النـاس بالحكم، وحـدثت هوة عميقـة بين الحـاكم والمحكـوم. وهـاجرت الادمغة والأيدي الصناع إلى البلاد الأجنبية هرباً من الطغيان، وقرفاً من التمييز، وطلباً للأمن والحرية.

كما هاجرت رؤوس الأموال إلى الخارج، وخاف أهل الثروات النفطية، وملاك الثروات الهائلة على ثرواتهم أن تضيع إذا ماوظفت في الأقطار العربية، فأرسلوها إلى الخـارج، وأخفـوهـا في البنوك العالمية، فاقرضها من أودعت لديهم إلى اسرائيل وغير اسـرائيـل من أعـداء العرب فتقووا بها، وزادوا بها تطورهم. وحرم منها العرب. هذا

بالضبط ماأراده الأعداء بنا، حققناه نحن بجهلنا، وانجررنا إليه، وأكثرنا لايدري، فتحقق فينا القول المأثور:

مايبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

وكان من نتيجة ذلك كله، حد من التطور العربي، وبطء في النمو الاقتصادي، وزيادة في الخلاف بين الحكام، وضعف في البنية الاجتماعية للمجتمع العربي، فزاد ذلك في يأس الإنسان من امكان تخطي الحواجز التي وضعت لاعاقة سيره، وبدأ يميل إلى الاستسلام إلى العجز البادي له، وكأنما هو قدر محتوم لا سبيل له إلى مقاومته والتحرر منه.

وقد ظهر ذلك في حرب حزيران ١٩٦٧، اذ تحللت في ساعات قليلة جيوش كاملة العدد والعدة دون قتال يذكر، وهربت مخلفة للعدو مالديها من سلاح وعتاد وتجهيزات وحصون، كلفت الأمة مليارات الدولارات خلال سنوات طويلة. ولو أن هذه الجيوش قاتلت بما لديها من سلاح، وثبتت أمام العدو، لما وقع بها جزء من الخسائر التي لحقت بها، وهي منسحبة هاربة بدون سلاح.

وركزت الدعايات الاستعمارية والصهيونية جهودها على تضخيم الانتصار اليهودي، وعزوه إلى التنظيم الهائل، والقوة الخارقة التي لاتقهر، وإلى التضحيات التي لامثيل لها، وإلى الجهود المضنية التي صرفها العدو في الاعداد والترقب والبحث عن أفضل الطرق والظروف لضرب العرب، فكان له ماأراد. وهولت هذه الدعايات علينا بعبقرية رجال اسرائيل، وضخمت قاماتهم، حتى أظهرت رجالنا أقزاماً بجانبهم.

وكان ذلك جزءا من الخطة القديمة الرامية إلى بث الثقة في نفوس اليهود، وإلى تثبيط همة العرب، وادخال مزيد من اليأس والقنوط إلى نفوسهم.

وقد نجحت هذه الخطة نجاحاً كبيراً لبعض الوقت، وانساق معها بعض القادة والساسة العرب فاعترفوا بتخلف الانسان العربي وقصوره عن بلوغ ركب الحضارة الحديثة، ووصفوه بأنه مازال في عقلية البداوة وإن لبس ثياب المدينة، وركب السيارة والطائرة، فالعربي لم يأخذ من مظاهر الحضارة العصرية إلا قشورها، أما التطور الحقيقي فلم يبلغ أعماق نفسه، ولم يتأصل فيها.

ولم يقبل كثير من العرب بهذه النتيجة المخزية التي حلت بالعرب عام ١٩٦٧، وتمردوا عليها، واستنكروا وقوعها، فلا يمكن أن ينحل جيش عربي كامل العدد

والعـدة، بالشكـل الذي انحلت به الجيوش عام ١٩٦٧، إلا لسبب جوهري، ولعله غيـاب القـادة أولي الـرجـولـة والعـزم والرأي عن هذه الجيوش حينما وقعت المعركة، ووضع اناس في القيادات غير أكفياء، وغير قادرين على ادارة دفة القتال، لأن القادة قدروا أن أمثال هؤلاء العاجزين لايشكلون خطراً على حكمهم.

فالعـربي يعـرف عنه بانه مقاتل شجاع، كان ذلك في الجاهلية، وكان ذلك في أيام دولته في ظل الاسلام وحتى في أيام الدولة العثمانية كان العربي مقاتلاً مشهوداً له بالجرأة والبأس، وكانت الدولة العثمانية تضع العرب في مقدمة جيوشها لفتح العالم.

ولاننسى موقف اخـواننـا أبطـال المغـرب العربي الذين كانت تنتدبهم قيادات الحلفـاء في الحـرب العالمية الثانية، لاقتحام كل موقع استعصى اقتحامه على قواتها، مثل موقع دير كاسينو.

وقـد جر التمرد على فشل عام١٩٦٧، العرب الى حرب عام ١٩٧٣، وكانت بلا شك حرباً مجيدة ثبت فيها المقاتل العربي، وقاتل بجرأة وشراسة، وتحدى اليهودي في حصـونـه المنيعـة، وتحـدى الخـوف ومـا اريد غرسه في نفسه من استسلام لليأس. وشهـدنـا في دمشق جماهـير الشعب وهي تصعـد أسطح المنازل، وتنزل إلى الشوارع لتشـاهـد المعـارك الجـويـة، ولتسـاهـم بالقبض على طيـاري العـدو الـذين أسقطت طائـراتهم، ولم يعبؤوا بالقنـابـل والصـواريـخ التي كانت تتساقط على المدينة، وتدمر الأبنية ولم يبد على أحد منهم خوف أو هلع.

لقد بثت عزائم المقاتلين واندفاعهم روح البطولة والتحدي في نفوس الشعب، فشعـر بالعـزة والفخار، ونفض عن نفسه روح الاستخذاء وعدم المبالاة، التي أرادت الدعاية الخبيثة خلال أعوام طويلة ادخالها إلى نفسه.

وأظهـرت حرب عام ١٩٧٣، العـربي على حقيقته مقاتلاً شجاعاً، وأظهرت اليهـودي على حقيقتـه، دون مستـوى الـرجـال جرأة وحمـاسة، لا يقاتل إلا من وراء حصن منيـع، أوداخـل آلـة قوية تحميه، أوبسلاح يرمي عن مسافة لا تصل إليه فيها أسلحة العربيّ.

ولوتابع العرب الحرب أشهراً أخرى، وقاتلوا كما يقاتل اليوم بعضهم بعضاً في لبنان، أوكما قاتل رجال الثورة الفلسطينية في جنوب لبنان في شهر آذار١٩٧٨، وهم قلة قليلة، جيشـاً ضخـماً من اليهـود مزوداً بأحـدث سلاح، وأكمـل عتـاد، تدعمـه عشـرات الطـائـرات من أحـدث طراز، وثبتـوا لهذا الجيش ثبـات الجبـال، وأنزلوا به

ضربـات قاصـمات، وأجـبروه على التقـدم مترنحاً، لايعرف كيف يتصرف، وكيف ينهي هذه المعـركـة الخـاسـرة التي لم يكن يتـوقعها، نقول لو أن العرب قاتلوا مثل هذا القتـال العنيف الجـريء، لأوقعوا باليهود خسائر كبيرة بالرجال والعتاد لن ينسوها أبد الـدهـر. والنصـر يجر النصـر، والهـزائم تجر الهـزائم، وتكسـر النفـوس. ولكن حرب تشـرين ١٩٧٣ لم يكن يراد منهـا أن تكـون حرباً شاملة على اليهود، لاسترداد أرض فلسطـين ومـا احتله اليهـود في حرب عام ١٩٦٧، ولتـدمـير قواعـد اليهود، واجتثاث جذورهم من الأرض العـربيـة، فتعـالت الأصوات التي كانت تريدها حرباً محدودة، لاتتجـاوز فيهـا الجيـوش حدوداً معينة ليسمح الوضع القائم للدول الكبرى بالتدخل وجر الفريقين إلى مائدة المفاوضات.

وتمكنت هذه الأصـوات في آخر الأمر من فرض وقف اطلاق النار على العرب. وكـذلـك سمـح وقف اطـلاق النـار لليهـود مرة أخرى، بالتقاط أنفاسهم، واستعادة قواهم، والعـودة الى جمع السـلاح والعتاد والتزود بالحديث منها، وتنظيم أنفسهم من جديـد، والعـودة إلى التشـدد، والتظـاهـر بالقـوة والبأس، وعـادوا يعلنـون تشبثهم بالأرض المحتلة، وعـدم الـرغبـة في الجلاء عنها. وهكذا ظهرت اسرائيل أمام شعبها بمظهر القوة لتنسيه حقيقة الكارثة التي حلت بها في الحرب، ولترفع من معنوياته المنهارة.

وقـد أدى وقف اطـلاق النـار بالعـرب إلى تبـادل التهم بالتـواطؤ مع اليهـود والأمـيركيين، والضلوع معهم في المخططات الرامية إلى الاعتراف بوجودهم، وانهاء الحـرب معهم، وإلى انهـاء عهـد المقـاطعـة الاقتصادية لهم، وإلى فتح أبواب البلاد العـربيـة أمـام اليهـود ومنتجاتهم، والتعامل معهم.... الخ، وأسرع الاستعماريون إلى انقـاذ اسـرائيـل من الهـوة التي اردتهـا فيها حرب ١٩٧٣، وأرسلوا إليها السلاح والمتطوعة على عجل، وضغطوا على الحكام العرب وهددوهم إن هم استمروا في الحرب.

وحـرك أعـداء العـرب نيران الخـلافـات الكـامنـة بين الـزعـامـات العـربية، في محاولة منهم لتمـزيق وحـدة صفهم، ولالهائهم بأنفسهم، وحملهم على نسيان حرب تشرين ونتـائجهـا المـدمـرة المخـزيـة على اسـرائيل، ولصرف انظارهم عن استغلال الوضع المتضعضـع في اسـرائيل لمخاطبة اليهودي وكشف الحقائق له، واستلام زمام المبادهة، في محاولـة لاضعـاف ثقتـه بنفسـه وبحكومته وبمستقبل وجودها، وهكذا برزت قضية

الصحـراء الغـربيـة ، فأشغلت المغـرب العـربي كله ، وخلقت عداء بين حكـامـه ، ووضعت الجميع على حافة الحرب .

وأشغلت قضيـة تحقيق الـوحـدة وعـودة الحرية إلى نظام الحكم في مصر، دول ليبيا والسودان ومصر وتونس ، وأثارت بينها عداء أدى إلى قيام مؤامرات لقلب أنظمة الحكم ، وإلى تهديـد بالثأر والحـرب ، وبـذلـك انشغلت مصر أكبر دول المواجهة مع اسرائيل ، بدفع المؤامرات عنها ، عن الحرب مع اليهود ؛وقتل الملك فيصل أكبر زعيم عربي في الجزيرة ، وأبعدهم نظراً ، وأكثرهم نفوذاً ، وقد كان له الفضل الأكبر في دعم دول المـواجهـة ، ومـدهـا بالمـال والسلاح ، ومباشرة حرب البترول ضد دول الغرب ، ونشبت خلافات عقائدية بين الحزبين الحاكمين في سوريا والعراق .

ووقعت فتنة خطيرة في لبنان ، جرت دول المنطقة كلها والعالم العربي معها إلى الاشـتراك فيهـا ، وأشغلت قوات الثـورة الفلسطينيـة ، بحـرب مدمـرة لاعـلاقـة لها بمهمتهـا الأسـاسية . وكان مثيرو هذه الفتنة يهدفون إلى قيام حرب طائفية دينية ، في لبنان وفي الشرق العربي كله ، تحمل أوروبا المسيحية على معاداة العرب والمسلمين ، انحيـازاً إلى الطـائفيـين ، الـذين يريـدون تمزيق وحدة لبنان ، وإقامة دويلة عنصرية طائفيـة تعـادي العـرب وتتآمـرعليهم . وبـذلـك تعـود أوروبا إلى تأييد الصهيونية ، والتخـلي عن التفـاهم مع العـرب ، وتأييـد قضاياهم العادلة ، فتعود أوروبا إلى عهد جي موليه وايدن .

وقـد أدت هذه الفوضى الشاملة ، الى تعالي بعض الأصوات القيادية العربية ، منادية بوضع حد للحروب بين العرب واليهود ، والاعتراف بدولة لاسرائيل بحجة :

١ ـ إن أميركا ودول العالم لايسمحون بالقضاء على اليهود .

٢ ـ إن العرب غير قادرين من الناحية المادية على القضاء على الدولة اليهودية .

٣ ـ إن موارد البلاد العربية (وخصوصاً دول المواجهة) لاتسمح لها بمتابعة حالة الحرب فقد انهار الاقتصاد ، وخرب الانتاج ، ونضبت الموارد .

وهذا كلام ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، وهو كلام حق أريد به باطل .

١ ـ فنحن أولا لانريد القضاء على اليهود كشعب وكدين ، وكمواطنين ، وإنما نريـد القضـاء على التهـديد الخطير الذي يمثله الحكم الصهيوني الفاشي المتزمت ،

على العرب وعلى القيم الأخلاقية، التي عملت الانسانية طويلا لارساء قواعدها، مثل المساواة، والاخاء الانساني، وحرية الرأي والمعتقد، وارساء قواعد العدل والمحبة.

وقصة رعاية العرب لليهود كمواطنين عبر التاريخ، قصة مثيرة ومشهورة، فلقد وجد العرب اليهود في الأراضي التي دخلوها في بلاد فارس وفي الامبراطورية الرومانية، وفي الأندلس في أسوأحال من البؤس والسوء والذل والمهانة، وكانوا قد أخضعوا لقهر شديد عبر قرون طويلة، وذبحوا وشردوا مراراً، وأجبروا أكثر من مرة على ترك دينهم ومعتقداتهم، لاعتناق النصرانية أو المجوسية.

فجاء العرب ليرفعوا ذلك العسف عنهم، وليرفعوهم الى مستوى البشر في المعاملة، وهذه كتب التاريخ - وخصوصاً الغربية منها - أكبر شاهد على صحة هذا القول.

فالعرب لا يعرفون التعصب العرقي، كما لا يعرفون التعصب الديني، ولم يسبق لهم في تاريخهم الطويل ان اضطهدوا شعباً أو أمة أو مجموعة من الناس لمعتقداتهم الدينية، أو لأصولهم العرقية، وإنما بسطوا للناس حمايتهم، وأظلوهم بعطف انساني مخلص، ، أصيل، ولم يسمحوا لأحد أن يتعدى على أحد أو يطغى عليه.

ولذلك فان اليهود ليس لهم اليوم ان يخافوا قهراً من حكم عربي، وليس لهم أن ينفروا من وجودهم رعايا في دولة ديموقراطية مثل العرب، وليس هناك أحد في العالم يعتبر هذا التعايش في دولة ديموقراطية بين اليهود والعرب، تهديداً للعنصر اليهودي وابادة له.

٢ - أما القول بأن العرب غير قادرين حالياً على تحطيم الدولة اليهودية العنصرية، فهو قول غير صحيح، فالعرب قوة كبيرة وشعب محارب، فإذا خلصت نوايا القادة وأخلصوا في اعداد الجيوش وتجهيزها، وأخلصوا في التفاهم فيما بينهم، وفي تحقيق الوحدة بين قواهم، وهي الوحدة التي يأمل الجميع بتحقيقها، وينادي الجميع بالعمل لأجلها، ولا يعرف أحد لماذا لم يتحقق شيء منها حتى اليوم.

نقول إذا خلصت النوايا، وجدّ العرب، فان الدولة اليهودية تتفتّت في أقل مما يتصوره الكثيرون، وحرب أبطال الثورة الفلسطينية ضد اليهود في آذار ١٩٧٨ في جنوب لبنان خير دليل على ان الانسان هو آلة الحرب الأولى، وهو وحده الذي يحقق

النصر مهما كانت معدات العدو وتجهيزاته .

٣ ـ وأخيراً نقول إنه بلا شك أن الأمة العربية قد لحقت بها أضرار بسبب الحروب مع اسرائيل خلال اربعين عاماً، وأن وجود هذا الدخيل أدى الى انفاق مال كثير على المعدات والسلاح واعداد الجنود ، مما أدى الى تأخير النمو الاقتصادي والتقني في البلاد العربية .

ولكن العرب قوم مظلومون، اعتدت عليهم الصهيونية، وفرضت عليهم قيام دولة لها في فلسطين فرضاً، ومن فرضت عليه الحرب لا بد له من مجابهتها، بروحه وماله وبكل ما يستطيع ليرد الأذى عن نفسه وأهله وأرضه وليستنقذ حقه، وكل الأمم تتعرض للمخاطر، وكلها تتحمل التضحيات وتنفق الأموال، فهذا هو قدرنا ولا خيار لنا في ذلك.

وإذا كانت اسرائيل وهي غاصبة معتدية، وفيها شعب صغير مؤلف من أخلاط من الناس، تتحمل الكثير لصيانة بقائها في أرضنا، فكيف بنا ونحن شعب كثير العدد، أرضه واسعة، وخيراته كثيرة، وثرواته لا تنضب، نضيق بجهد للقضاء على خطر مميت يهدد مصيرنا وكياننا ومستقبل شعبنا؟

وإذا أردنا أن نكون واقعيين ومنصفين لأنفسنا لقلنا إن حروبنا مع اسرائيل ليست هي وحدها سبب خراب اقتصادنا، واستهلاك مواردنا، وضياع ثرواتنا، فهناك الى جانب الحرب أسباب أخرى كثيرة كان لها أثر في احداث ذلك الخراب والدمار والتخلف، وسنشير الى بعض هذه الأسباب إشارة عابرة دون التعمق في بحثها ومعالجتها علماً بأن الحرب بيننا وبين اسرائيل ليست مستمرة لندعي بأن الحرب قد دمرتنا ومنعتنا من التفكير في أمور الاصلاح والتطور.

ـ فهناك الفساد والفوضى والارتشاء وعدم الاخلاص، مما يبرهن عليه تكدس ثروات كبيرة جداً في أيدي أناس لا ينتظر أن يكون بين أيديهم مثلها .

ـ وهناك فقدان الانضباط، وانعدام الحماسة .

ـ وهناك شعور الناس بعدم التساوي بين المواطنين، في المسؤوليات والمغانم، وفي الحقوق والواجبات .

ـ وهناك انعدام للتخطيط الصحيح .

ـ وهناك تبذير لأموال الأمة العربية على الصعيدين الرسمي الحكومي وعلى الصعيد الفردي الشخصي. فهناك تبذير للأموال العامة على حوك المؤامرات، وشراء الضمائر

والـذمم والصحف ووسائل الاعلام، ولاثارة القلاقل والفتن، وخلق المتاعب للخصوم من الحكام الآخرين.

ـ وهناك أيضاً إقامة أجهزة كثيرة لا لزوم لها، وهي تستهلك الكثير الكثير من المال.

ـ وهناك قتل للمؤسسات الاقتصادية العامة، بتسليمها الى أيدي المحسوبين والجهلة وقليلي الخبرة والكفاءة، وبإدخال أعداد كبيرة من العمال والموظفين ممن لا عمل لهم، ولا حاجة لضرورات العمل اليهم، فساء الانتاج، واستهلكت الأرباح، وضعف نشاط المخلصين من العمال لأنهم يرون أناساً يتقاضون رواتب وأجوراً ولا يعملون شيئاً.

هذا جانب مما يراه الرائي ـ للوهلة الأولى ـ سبباً لتضعضع اقتصادنا وتعثره.

ولكننا على كل حال، لا نرى أن حياتنا الاقتصادية هي على درجة كبيرة من السوء، كما يريد أن يصورها البعض، تحقيقاً لأغراضهم في جر الأمة العربية الى السلام مع اليهود.

فنحن نرى في البلاد المحيطة باسرائيل والقريبة منها (مصر وسوريا والأردن والعراق والكويت والسعودية ولبنان) بذخاً غريباً، وهدراً هائلا في الأموال في بناء القصور الفخمة، والمباني الضخمة، وشراء الأثاث الغالي الثمن النادر الوجود، والتأنق في المأكل والملبس والسيارات، وأجهزة التبريد والتدفئة، وكل ما تنتجه مصانع العالم من وسائل الرفاه، ونلاحظ ما ينفقه الأثرياء العرب من رسميين وأفراد على موائد القمار، وفي الأندية الليلية وعلى الغواني في بلاد الغرب، ونرى تبذيراً كبيراً لا حدود له يفوق التصور في نفقات الدولة على السيارات والرحلات، والحفلات والمراسم... الخ، فنقول إن كل ذلك لا يدل على اقتصاد خرّبته الحرب مع اسرائيل. وإنما يدل على عقول قاصرة عن الاصلاح، وضبط الأموال، وتقدير المسؤولية.

وليس من باب الصدف أن يقول (براون) رئيس أركان الحرب الأميركي، كلمة نقد لاذعة عن النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة، معقل الصهيونية في العالم، مما هز كيان اليهود الأميركان خوفاً وفزعاً. لأن اليهود يريدون أن يبقى نفوذهم سراً مستتراً لا يظهر للشعوب التي يعيشون بينها.

واستمرار الحرب يفضح هذا النفوذ ويكشفه ولا يبقي مجالا لاخفائه، وبذلك تتخلى شعوب العالم عن تأييد اليهود، وتتنكر لهم، وتسلمهم لمصيرهم المحتوم.

ولـو ركـزنـا نحن دعـايتنـا على فضـح النفـوذ الصهيوني، أمام شعوب العالم، لسـاعـدنـا المناضلين من أبنـاء الشعوب على التحرر من النفوذ الصهيوني، ولكسبنا حلفاء، ولوفرنا على أنفسنا عداوة أناس لا سبب للعداوة بيننا وبينهم.

ولقـد سبق لأمتنـا أن تعـرضت في حيـاتها الى مد صليبي مدمر دام مئتي عام، تصـدت له أمتنـا، ومن ورائهـا أمم الاسـلام، بعـزم ورجـولـة، ولم يبخـل فيها أحد بتضحية مهما غلت، ولم يضعف قائد، ولم تفتر له همة، ولم يفكر أحد في مهادنة الغزاة ومساومتهم والاتفاق معهم للتمكين لهم.

واليـوم وبعـد ثلاثـين سنـة من قيام دولة اسرائيل، يقف العرب لأول مرة على طريق النضال الصحيح، وقد اطرحت نفوسهم الخوف من العدو، والرهبة من جيوشه وسـلاحـه، وقـد تغلبـوا على ترددهم، واستشعروا القوة والعزم، والقدرة على سحق التحدي، وهزم جيوش الدخلاء.

في مثـل هذا الـوقت الـذي لاحت فيه بشائر النصر، يريد بعض القادة العرب وضـع حد للحـرب مع العدو، وضمان أمنه واستقراره في أرضنا، والاعتراف بوجوده، ومنحه وثيقة ميلاد شرعية نوقعها بأيدينا؟؟

ويحتج المتخاذلون، في سعيهم الى الصلح، بأن اسرائيل قوة عسكرية كبيرة لا يستهـان بها، وأنهـا تمتلك سلاحاً نووياً رهيباً، وأن وراءها الولايات المتحدة الأميركية بآلتهـا الحـربية الجهنمية الهائلة، ترعى اسرائيل، وتحافظ عليها، وتمنع انهيارها... ووراءها الدول الغربية كلها، لا ترضى بالقضاء على اسرائيل، ولا بتقويض دولتها. كما أن المعسكـر الشـرقي الاشـتراكي هو الآخـر له مصـالـح واضحة في بقاء اسرائيل ولـذلـك فانـه هو الآخـر يشـارك الغـرب رأيه في ضرورة المحافظة على وجود اسرائيل وكيانها كدولة على قسم من أرض فلسطين.

وقـد أدى الخـوف الـذي يحدثـه وجود الولايات المتحدة خلف اسرائيل ببعض لقـادة الـحـرب الى حد لجوئهم الى استطـلاع رأي كيسنجـر وزيـر خارجية الولايات لمتحـدة في موقف حكـومته إذا قامت الجيوش العربية بالقضاء على الجيب الاسرائيلي لـذي تسـ ـرب غربي القنـاة في حرب ١٩٧٣، وكأنهم كانـوا ينتظـرون من كيسنجـر ليهودي الصهيوني أن يجيبهم (أقضوا عليهم لا رحمهم الله).

ويـزعمـون أنهم إنـما تراجعـوا عما اعتزموه من إبادة القوة اليهودية غربي القناة

حينما أبلغهم أن حكومته لا يمكن أن تقف مكتوفة اليدين، مع أنه كان في مستطاعهم ذلك القضاء.

ولا ندري متى كانت الجيوش تستأذن حلفاء الأعداء في القضاء على قوات حلفائهم في الحروب؟ ويقولون أيضاً في تبرير سعيهم الى السلام مع العدو إن العرب لا يملكون سلاحاً نووياً، ولا يملكون صناعة حربية يمكن أن تسد حاجاتهم الى السلاح إذا ما نشبت حرب طويلة الأمد مع العدو الصهيوني، ولجأت الدول التي تمدنا عادة بالسلاح ألى قطع إمدادها لنا من السلاح، كما كانت تفعل كلما خضنا حرباً مع اسرائيل.

وتقول الشعوب العربية للقادة العرب جميعاً رداً على ذلك: «لماذا يتعادون ويتقاطعون ولا يسعون الى التفاهم والاخاء الصحيح، والتعاون المخلص في سبيل ايجاد صناعات مشتركة تسد حاجة العرب جميعاً من السلاح وغير السلاح؟.

ولماذا لا يسعون الى استعادة النوابغ من العرب الذين استقروا في البلاد الأجنبية بعد أن أتموا دراساتهم وتفوقوا فيها، عن طريق اغرائهم بالعودة، والعمل على استيعابهم في مجالات اختصاصاتهم؟.

ولماذا لا يقيمون المعاهد التقنية العالية المتطورة لتخرج النوابغ من المتفوقين فعلا في دراساتهم في جميع نواحي العلوم والمعرفة والتقنية، لسد حاجات البلاد الى الفنيين المؤهلين وتهيئة العلماء المبدعين.

لقد نجحت الجامعة العربية في التقريب بين وجهات النظر العربية في بعض النواحي غير السياسية، فلماذا لا يُلجأ اليها لتتولى هي تأسيس المعاهد المذكورة، واستقدام العلماء من كل مكان ـ من عرب وأجانب ـ ولتضع أسساً ثابتة لقبول المتفوقين من الطلبة من الأقطار العربية على أن لا تكون هناك محاباة أومراعاة في قبولهم، وأن لا يكون لغير الكفاءات الشخصية دور في انتقائهم واختيارهم.

إن الأمة العربية تبذر مليارات الدولارات كل عام في غير طاعة الله، وهي تنفق الملايين الكثيرة على دراسات طلابها في الخارج، ولا تفيد الأمة العربية في نهاية المطاف من دراساتهم شيئاً، لأن النوابغ تغريهم الاقامة في الخارج، وتغريهم الحرية المتوافرة والأمن، والرواتب الضخمة والأعمال المؤمنة وتستهويهم الحياة نفسها فيبقون.

ويعود جزء من الفاشلين الذين لا يقدمون شيئاً يذكر لأمتهم..

ولو وفرت الأمة العربية هذه الملايين الطائلة لأقامت عشرات المعاهد التي تخرِّج

ألوفاً من النوابغ والفنيين والتقنيين والعلماء في كل باب تحتاجه البلاد . .

ومتى توافر لنا العدد الكافي من العلماء المؤهلين فعلا ، والرجال الصناع الأكفياء ، لا يبقى بيننا وبين انتاج السلاح النووي الذي تخيفنا به اسرائيل اليوم ، عقبة ما دام المال متوفراً لنا بشكلٍ لم يسبق له مثيل في تاريخ العرب .

ثم إن الشعوب العربية تعرف أن القضاء على اسرائيل يحتاج وقتاً ، كما يحتاج الى مقومات وفرص لابد من توافرها ، وإن اسرائيل لم يمض على قيامها أكثر من ثلاثين سنة ، بينما بقي الصليبيون في أرضنا مئتي عام ، وقد أمضينا من هذه السنوات الثلاثين أكثر من نصفها في النضال ضد المستعمرين الذين كانوا يحتلون الأرض العربية ، كما أمضينا جزءاً كبيراً منها في النضال ضد الفساد والتسلط والارهاب . .

وإن الأمة العربية تعرف أن توافر هذه المقوّمات والفرص ليس بالأمر الهيّن ، ولن يكون رهن اليدين في وقت قريب ، وإنما يحتاج إلى ظروف محلية وعالمية وعربية مواتية ، فما علينا إلاّ أن نستمر في نضالنا ضد اسرائيل من جهة وأن نستمر في توفير الأسباب المؤاتية عربياً وننتظر الفرص الدولية ومتى تحقق للعرب الوحدة والقوة والعلم والتقنية ، فلابد من أن تلوح لهم الفرصة خلال ذلك لاسترجاع حقهم والقضاء على الدمل الخبيث الذي يتهدد كيانهم ومصيرهم بالفناء .

إن أرض فلسطين هي أرض العرب ، وأرض الاسلام ، وهي وديعة مقدسة في أيدي أجيالنا من عرب ومسلمين ، ولا يملك أحد حق التفريط فيها ، أو المساومة عليها ، وقد سبق للقادة المسلمين «عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والمظفر قطز والظاهر بيبرس» أن خاضوا الحروب الطويلة ، وبذلوا والشعوب العربية والاسلامية من التضحيات ما لا يدخل تحت حصر للقضاء على الدمل الصليبي الخبيث الذي تسرب الى أرض فلسطين ، وبدأ يهدد مقدسات العرب والمسلمين على نحوٍ لم يسبق له مثيل في التاريخ الإسلامي . ولم يقبل أحد منهم بالاعتراف لهؤلاء الدخلاء بحق ، ولم يرض أحد منهم أن يفرّط في شبر من الأرض المقدسة يعطى للأعداء كسباً للسلام .

وكان هؤلاء القادة إذا ما أعجزتهم الظروف عن النصر يعقدون هدنة محددة المدة مع العدو، يستجمعون خلالها قواهم ، ويعيدون تجهيز جيوشهم ، ويعودون الى ساحة القتال .

والصليبيون أيضاً كانت تمدهم أوروبا بقضها وقضيضها ، وفرسانها

المشهـورين ، وسـلاحهـا وقـادتهـا وكنيستهـا ، كلهم كانـوا يرفدون الصليبيين لعلهم يستطيعون الابقاء على دولتهم متماسكة أمام الضغط الإسلامي المتواصل .

ولكن إرادة النضـال ، وحمـاسـة الايـمان الصحيح ، وحب الاستشهاد في سبيل الله ، والحق والـوطن ، كل ذلـك كان عنـد المسلمـين والعـرب الحـافز الدافع لمواصلة النضال ، حتى كتب لهم النصر النهائي .

فما بال بعض قادة العـرب اليـوم يظهـرون العجـز حينـما لاحت بشائر النصر ، واتضحت الرؤ ية أمام العرب لكسب المعركة؟ .

إن جماهـير المسلمـين في العـالم ، والجماهير العربية في جميع الأرض العربية ، لا يمكن أن يعـترفـوا لاسـرائيـل بوجـود مشروع على أي شبر من أرض فلسطين ، ولن يقبلوا بتـوقيـع وثيقـة الاعتراف بشرعيتها مهما كانت الظروف . أما الذين لا يجدون في أنفسهم القـدرة على متـابعـة النضـال فما عليهم إلا أن يتنحـوا عن منـاصبهم لكي يفسحوا المجال للرجال القادرين على حمل راية النضال .

﴿ فـلا تهنـوا وتـدعـوا الى السلم وأنتم الاعلون والله معكم ولن يتـرَكُم أعمالكم ﴾ (سورة محمد ـ الآية ٣٥) .

صدق الله العظيم

د. أسعد حومد

القسم

١

الفتـــح

الفصل الأول

الفتح الاسلامي في شمالي إفريقيا

١ ـ فتح برقة :

استولى عمرو بن العاص على الاسكندرية في عام ٢٢ هـ، وأخذ يتطلع الى الغرب ليضمه الى الدولة الاسلامية الفتية؛ وما هي الا فترة من الراحة، اخذ اهبته فيها، وأكمل استعدادته، حتى سار بعدها الى ليبيا، بمحاذاة الساحل؛ ولم يلق المسلمون في حملتهم هذه قتالا، ولا مقاومة يذكران. الى ان وصلوا برقة. فصالحهم أهلها على أن يدفعوا للمسلمين جزية سنوية مقدارها ثلاثة عشر الف دينار، يحملها اهلها الى الامير في مصر، لكيلا يدخل الجباة المسلمون ارضهم.

٢ ـ فتح طرابلس :

وبعد ذلك استمر عمرو بن العاص في زحفه حتى بلغ طرابلس. فحاصرها مدة شهر، وكان سور المدنية من جهة البحر ضعيفاً. الا أنه كان هناك اسطول بيزنطي (رومي) يحميه. ولما جاء الجزر، وانحسر الماء عن الشاطىء ابتعدت السفن البيزنطية عن الميناء، فتسرب العرب الى المدينة من جهة البحر، وهاجموها مباغتة، فلم يشعر الحراس إلا والسيوف تأخذهم من كل جانب ففروا. وتمكن عدد منهم من الوصول الى السفن الراسية فاقلعت بهم مبتعدة عن الساحل، واستولى المسلمون على البلد.

ثم تابع عمرو بن العاص زحفه حتى بلغ مدينة صبره (وهي مدينة زرارة اليوم)، وكان أهلها لا يتوقعون، هجوماً فاستسلموا للمسلمين. وبعد ان دانت ليبيا

للعرب، كتب عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المدينة يخبره بما فتح الله عليه من البلاد، وإعلمه انه اصبح على مسيرة تسعة أيام من افريقيا (ويقصد تونس) واستأذنه في متابعة فتوحاته نحو الغرب. ولكن عمر بن الخطاب خاف على المسلمين في تلك الأصقاع النائية، فرد عليه «ان افريقية مفرقة فعد». فعاد عمرو الى مصر، واناب عنه في إمارة ليبيا احد اقربائه، عقبة بن نافع الفهري.

٣ ـ ولاية عبد الله بن أبي السرح:

وبعد ان ولي عثمان بن عفان الخلافة، عزل عمرو بن العاص عن امارة مصر، وجعل عليها أخاه من الرضاع عبد الله بن أبي السرح. وتطلع عبد الله الى افريقيا، وأراد استئذان الخليفة في متابعة الفتح نحو الغرب، فلم يأذن له. تهيباً لما تهيبه عمر بن الخطاب. فاكتفى عبد الله بالقيام بغارات على أراضي المغرب، واستولى على كثير من المغانم أرسل قسماً منها الى الخليفة. فلما رأى عثمان كثرة الغنائم أخذ يفكر في أهمية هذا الاقليم وغناه، واستشار الصحابة في أمر غزوه، فلم يشر عليه أحد منهم به. ولكن عثمان قدر أهمية فتح المغرب وضمه الى أرض الاسلام، فجهز جيشاً بلغت عدته ٤٨٠٠ رجل، كان بينهم كثير من أبناء الصحابة وسادة المسلمين، وفتح عثمان خزائن بيت المال، وجهز الجيش أحسن تجهيز، وعهد بقيادته الى مروان بن الحكم.

ولما وصل الجيش الى مصر ضمه عبد الله بن أبي السرح الى جيش مصر الذي قدرت عدته بحوالي عشرة آلاف مقاتل، وسار بالجيش كله الى برقة (عام ٢٦ هـ)، فانضم اليه أميرها عقبة بن نافع بمن عنده من الجند، وتحرك الجيش العربي، كله كتلة واحدة الى طرابلس، وكان الروم قد استرجعوها، ففتحها مرة أخرى وطرد الروم منها، وتابع زحفه الى حدود تونس.

٤ ـ انتصار العرب على البيزنطيين:

كان شمالي إفريقيا يخضع كله لبيزنطة (الروم)، وكان حاكم المقاطعة رجلا تسميه الرواية الاسلامية (جريجير) ولعله محرّف عن لفظة (Gregoire) فلما علم بوصول المسلمين الى حدود أرضه، جمع جيشاً كبيراً قدرته الروايات بمئة وعشرين

ألفاً من الروم والبربر، وهوجيش يفوق كثيراً عدد جيش المسلمين. ولكن قبل أن تنشب المعركة، وصل مدد للمسلمين من الخليفة بقيادة عبد الله بن الزبير. وأشار ابن الزبير على القائد العربي أن يقيم له كمينا من أبطال المسلمين، حتى إذا حمي وطيس المعركة يخرج الكمين، وينقض رجاله على العدو، فيوهن ذلك من عضده، ويضطره الى الفرار. ونجحت الخطة نجاحاً كبيراً، وهزم المسلمون الروم هزيمة شنيعة، وقتل ابن الزبير جريجير. وقد قدر المؤرخون خمس الغنائم الذي أرسل الى الخليفة بمليون دينار، وقدروا نصيب الفارس بثلاثة آلاف دينار، ونصيب الراجل بالف دينار. ولكن المسلمين لم يتوغلوا في أراضي المغرب. واكتفوا بمتابعة غاراتهم على ما حولهم، حتى مل الروم والبربر كثرة الغارات عليهم، وعرضوا على ابن أبي السرح ان يكف عنهم، فطلب منهم ٣٠٠ قنطار من الذهب، وأن يختار لهم أميراً منهم، فقبلوا الشرطين، وجمعوا له المال، وعين لهم أميراً عليهم من بينهم، وعاد الى مقره في مصر.

ولكن بيزنطة استنكرت هذا الصلح، فجهزت أسطولاً قوياً بقيادة (بطريق) من قادتها، فوصل الى قرطاجنة، وطرد الأمير البربري الذي عينه المسلمون، وأخذ ينظم أمور المغرب. وفي ذلك الحين كان العالم الاسلامي يعاني شر أزمة خطيرة هي أزمة مقتل عثمان بن عفان، والخلاف بين علي ومعاوية[1].

٥ ـ ولاية معاوية بن حديج:

ولما انتهت الفتنة، واستقر الأمر لمعاوية، وصل حاكم افريقية البربري الذي طرده الروم، الى دمشق وقابل الخليفة، وقص عليه حال الناس في افريقيا. واختار معاوية رجلا سبق له أن اشترك في فتح الاسكندرية، هومعاوية بن حديج، فسيره مع القائد البربري على رأس جيش من عشرة آلاف مقاتل، ولما وصل الجيش الى الاسكندرية مات القائد البربري، فتابع معاوية سيره الى أن وصل تونس. ولما علم القائد البيزنطي (البطريق) بنبأ مسير هذا الجيش استنجد بالقسطنطينية فأمدته بثلاثين ألفاً من الرجال، انضمت اليهم جماعات من المحاربين البربر، ونشبت

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٢ ص٣٦٩.

المعركة فانهزم الروم والبر بر هزيمة منكرة، واستعاد العرب السيطرة على تونس، وعاد معاوية بن حديج الى دمشق.

٦ ـ ولاية عقبة بن نافع الفهري:

وبعد هذا الفتح المبين رأى الخليفة أن يفصل ولاية افريقيا عن حكم مصر فاستشار عمرو بن العاص فيمن يوليه أمور افريقيا فاشار عليه بتولية عقبة بن نافع، الذي سبق له أن تولى حكم برقة. وكان عقبة من افاضل الصحابة علماً واخلاقاً وورعاً وحسن رأي. فاستدعاه معاوية عام ٥٠هـ، وعهد اليه بولاية افريقيا، وجهز معه جيشاً من عشرة آلاف مقاتل فسار بهم الى أن وصل تونس، وقرر بناء حصن بعيد عن الساحل، يتخذه مقراً له، فاختار مكاناً في وادي القيروان، بنى عليه مدينة القيروان. وأخذ من مقره الجديد يسير البعوث الى البربر، ويدعوهم الى الاسلام. ولكن عقبة لم يستطع اتمام الخطة التي وضعها لنفسه لأن معاوية بن أبي سفيان عين والياً جديداً على مصر هو مسلمة بن مخلد، وبدا له أن ينهي استقلال حكم افريقيا، ويعيد ضمها الى والي مصر. فعزل مسلمة بن مُخلد، عقبة بن نافع عن ولاية افريقيا، وعين مكانه مولاه أبا المهاجر، فتوجه هذا الى القيروان، ولم يرع حق عقبة ولا حرمته، فعاد عقبة الى دمشق، وشكا أمره الى الخليفة فوعده برده الى مكانه.

٧ ـ ولاية أبي المهاجر:

ولاحظ البربر هذا الاضطراب والتبدل في الحكم الاسلامي فجمعوا جموعهم بقيادة ملك منهم اسمه (كسيلة) وتقدموا لمهاجمة المسلمين. وكان أبو المهاجر رجلاً شجاعاً حازماً، فتقدم الى تلمسان والتقى بالبربر وهزمهم وأسر كسيلة فتظاهر هذا بالاسلام، فقبل منه أبو المهاجر اسلامه، واستبقاه في معسكره.

٨ ـ عودة عقبة بن نافع الى افريقيا:

ومات معاوية بن أبي سفيان دون أن يفي لعقبة بن نافع بما وعده به من رده الى

افريقية، فنفذ ابنه يزيد ذلك، ورد عقبة الى ما كان عليه، من حكم افريقيا مستقلاً عن مصر. ولما وصل عقبة القيروان تسلّم الحكم، واستبقى أبا المهاجر في معسكره بعض الوقت. وبعد أن ثبت أقدامه رأى أن يخضع الشمال الافريقي كله، ليضع حداً لإغارات البربر، وتهديداتهم المستمرة. فجمع جيشه وأناب في القيروان زهير بن قيس، واصطحب معه أبا المهاجر وكسيلة، واتجه بجيشه نحو الغرب فاستولى على ما تبقى من مناطق جبال الأطلس بدون قتال، واخضع قبائل البربر، وتابع سيره الى أن وصل الى طنجة. وكان حاكم المنطقة رجلا يقال له الكونت جوليان (يوليان حسب الرواية الاسلامية)، وأدرك هذا عجزه عن مقاومة هذه القوة المندفعة، فعقد مع عقبة صلحاً على أن يؤدي له الجزية. ويقال إن عقبة فكر في فتح الجزيرة الاسبانية، ولكن يوليان ثناه عن عزمه هذا، وقال له إنه من الأفضل له ألّا يغامر في اقتحام الأندلس قبل أن يطهر الأرض وراءه في إفريقيا، ويأمن خطر البربر، فقبل عقبة هذه النصيحة، ووقف مع جيشه على شاطىء الأطلسي وهي أول مرة في التاريخ العربي يصل فيها جيش عربي الى هذا المحيط. وخاض عقبة المحيط بجواده حتى بلغ الماء صدره فتوقف واتجه الى ربه بالشكر على ما فتح عليه، وقال عبارته المشهورة: (والله لولا هذا البحر أمامي يمنعني من المسير لأوصلت اسمك الى أقصى المعمورة).

٩ ـ مقتل عقبة:

وعاد عقبة من غزوته هذه ظافراً محملاً بالغنائم. وتقول الروايات إن عقبة أساء معاملة كسيلة في اثناء العودة، وعلم البربر بذلك فأضمروا له الشر، وطووا نفوسهم على الانتقام من المسلمين، ولما قرب عقبة من القيروان سير جيشه أمامه إليها، وبقي في ثلاثمائة من أصحابه، فراسل كسيلة أتباعه البربر وأمرهم بمهاجمة المسلمين.

وحينما أصبح عقبة قرب بسكرة ـ في الجزائر ـ هاجمته قوات كبيرة من البربر، وأحاطت بقوته الصغيرة. ولما شعر عقبة بخطورة ما هو فيه، أطلق سراح أبي المهاجر وأمره بأن يسرع الى القيروان ليدبر أمرها مع زهير بن قيس مخافة أن يتوجه البربر، بعد القضاء على عقبة وأصحابه، الى القيروان، ويأخذوها على حين غرة من أهلها. فرفض أبو المهاجر النجاة بنفسه، وقال إنه يطلب الشهادة مع إخوانه. والتحم

المسلمـون بالـبر بر،وقـاتلوا قتـال اليائس المستميت. فقتل عقبة وقتل أكثر المسلمين، وأسر قليلون منهم وكان ذلك عام ٦٣هـ.

ولـمـا علم نائب عقبـة في القـيروان بما حل بالمسلمـين، وبـزحف كسيلة على القـيروان، أسـرع يدعـو الناس الى اتباع سبيل عقبة وإخوانه في الاستشهاد، ولكن الأكثـريـة خافت العـاقبـة، وآثـرت السلامة، فانسحب المسلمون من القيروان على عجل، وبقي زهير بن قيس فراسله كسيلة،واتفق معه على أن يسلمه القيروان بشرط ألا يؤذي مسلماً، وأن يؤمن المسلمـين البـاقـين في القـيروان في دينهم ومعـاشهـم، وانسحب زهير بمن معه الى برقة.

ثم اضطرب أمر المشرق مرة أخرى، وحدث خلاف بين مروان بن الحكَم وعبد الله بن الـزبـير، فألهت الأحـداث العاصمة الاسلامية عن أمر افريقيا بعض الوقت. ولـمـا استقـر الأمـر لعبد الملك بن مروان أخذ يفكر في أمر الفتح في إفريقيا، واتصل عام ٧٩هـ بزهـير بن قيس فطلب منـه هذا إمـداداً وأمـوالاً ليستأنف عمليـاتـه الحربية في الشمال الإفريقي، فوعده بذلك، وسيَّر إليه جيشاً وإمدادات قوية، فعاد زهير يزحف على القيروان والتقى بكسيلة قربها ودارت معركة عنيفة أسفرت عن مقتل كسيلة، وعدد كبير من رجاله، وانتصر المسلمون نصراً مبيناً.

١٠ ـ مقتل زهير:

ترك زهير نائباً عنه في القيروان، وعاد الى برقة، ولما وصلها كان هناك أسطول بيزنطي يغير عليها، ويأسر عدداً غير قليل من المسلمين، ولم تكن مع زهير قوة كبيرة، ومع ذلك قرر خوض المعركة طلباً للشهادة، وأوصى من ينجو من أصحابه بأن يسرع لابـلاغ الخـبر الى الخليفـة في دمشق، ولم تطـل المعركة كثيراً فقد كانت القوى غير متكافئة، وقتل زهير وأكثر أصحابه، وأسرع من نجا منهم بالمسير الى دمشق.

١١ ـ ظهور الكاهنة:

وفي الوقت الذي قتل فيه زهير، كان البر بر يتجمعون بزعامة امرأة، عرفت في كتب التاريخ باسم الكاهنة، لما كانت تحتله لدى البر بر من زعامة دينية، وأقامت هذه

الكاهنة مقرها في جبال الأوراس، وخضعت لها قبائل البربر في منطقة جبال أطلس وفيما وراءها من الصحراء، واستشعر البربر القوة مرة أخرى فارتدوا عن الاسلام وعادوا الى ما كانوا عليه من وثنية، وفي ذلك الحين تجمعت قوات كبيرة من الروم والبربر في قرطاجنة، وأصبحت تهدد الوجود العربي في الشمال الافريقي تهديد خطيراً.

١٢ ـ ولاية حسان بن النعمان:

وأدرك عبد الملك بن مروان خطورة هذا التحدي، فقرر العمل بسرعة، وندب حسان بن النعمان الغساني ليقود جيشاً ضخماً قدرته الروايات بأربعين الف مقاتل الى شمالي إفريقيا، فسار حسان في عام ٧٤هـ، الى القيروان. وقدر أنه ما دام للروم موطىء قدم في إفريقيا فإن الفتح الاسلامي لن يكون في مأمن من الخطر، وسيبقى البربر يأملون دائماً في أن يتمكنوا، بالتعاون مع الروم، من إخراج المسلمين من إفريقيا كلها، وسيكون هذا الأمل مبعث اضطراب دائم.

١٣ ـ الاستيلاء على قرطاجنة:

ففكر حسان بأن خير ما يفعله هو أن يستولي على مدينة قرطاجنة الحصينة، التي يتخذها الروم مركزاً لهم، وملجأ لاسطولهم. وأدرك أن مهمته هذه لن تكون سهلة فقرطاجنة مدينة عظيمة قوية التحصين، لم يطمع أحد من القادة العرب من قبله في قهرها. . ولكن عزمه، وتصميم أصحابه كانا أقوى من أسوار قرطاجنة. فأعد الجيش لهذه المهمة الخطرة، ولما اكتملت استعداداته، زحف الى قرطاجنة، وحاصرها وفكر في إمكان إخضاعها بالجوع والتضييق، ولكنه تبين بعد قليل أن المدينة تتمون من البحر بواسطة الأسطول البيزنطي، فقرر اقتحام الأسوار والاستيلاء عليها عنوة، وفي ذات اليوم استطاع المسلمون اقتحام الأسوار، ودخول البلد، فنجا من نجا والتحق بالاسطول، ووقع بيد المسلمين عدد من الروم والبربر أسرى.

١٤ ـ هدم قرطاجنة:

وترك حسان مدينة قرطاجنة متوجهاً الى القيروان وترك فيها حامية اسلامية

صغيرة، ولكنه ما إن وصل القير وان حتى جاءته الأنباء بأن جموعاً من البربر اقتحمت أسوار قرطاجنة، واضطرت الحامية الاسلامية فيها الى الانسحاب، فعاد مسرعاً وطرد البربر منها، وأدرك أنه لن يتمكن المسلمون من الاحتفاظ بها، والدفاع عنها، فقرر هدمها وعفّى أثرها.

١٥ ـ انتصار الكاهنة على حسان:

وتجمع البربر والروم من جديد قرب بنزرت، فأسرع إليهم حسان وكسرهم، ورأى أن يسير الى معقل الكاهنة زعيمة البربر في جبال الأوراس، وينهي أمرها قبل أن يستفحل، وقبل أن تقوم هي بمباغتة المسلمين في وقت لا يكونون فيه على استعداد، فلما اقترب من مقر الكاهنة هدمت الحصن الذي تقيم فيه، وهو حصن (باغاية)، وانسحبت الى الداخل فلاحقها حسان والتقى بجموعها على نهر يُسَمَّى بنهر تيني ـ حسب رواية ابن الأثير ـ واحتدم القتال وصبر البربر صبراً عجيباً، فانهزم المسلمون، وقتل منهم خلق كثير، وأسر عدد كبير منهم، أطلقت الكاهنة سراحهم فيما بعد، واستبقت واحداً منهم اتخذته ولداً، هو خالد بن يزيد القيسي.

وبعد هذا النصر قوي أمر الكاهنة، فبطرت واستبدت، وخيل إليها أن المسلمين إنما يريدون الحصون والمدن فقررت تخريبها لكيلا يطمعوا فيها، ونفذت فكرتها هذه ففزع الناس من هذا التصرف الغريب.

أما حسان، فإنه انسحب الى برقة، واتخذها قاعدة لعملياته الحربية، وأخذ يستقصي أخبار الكاهنة وتحركاتها، وكان خالد بن يزيد القيسي، الذي استبقته الكاهنة لديها، يوافي حساناً بأخبارها فجمع حسان قواته من جديد. وتحرك نحو الكاهنة، التي يبدو أنها كانت على خلاف مع ولديها، مما دفع أحدهما الى الالتحاق بحسان.

١٦ ـ مقتل الكاهنة:

والتقى المسلمون بالبربر مرة أخرى، وكانت معركة رهيبة قتل فيها خلق كثير من الجانبين، ثم نصر الله المسلمين فانهزمت الكاهنة وجموعها، ولكن بعض المسلمين

تمكنوا من الظفر بها وقتلها، فتفرق جمعها في جميع الدروب. ورأى البربر إثر هذه المعركة، أن يعقدوا صلحاً مع المسلمين، فراسلوا حساناً في ذلك فقبل العرض، بشرط أن يقدم البربر ١٢٠٠٠ من رجالهم، يضمهم حسان الى جيشه ليساعدوه في غزواته، وليتعلموا أمور الدين الاسلامي، فقبلوا بهذا الشرط، واختار حسان ابني الكاهنة لقيادة هذه القوة البربرية تألفاً لقلبيهما.

١٧ ـ تأسيس دار صنعة في تونس:

ورأى عبد الملك بن مروان أن يقيم المسلمون اسطولاً لهم في تونس يحمي شمالي إفريقيا من غزوات البيزنطيين (الروم)، فأمر حساناً بانشاء دار صنعة لصنع السفن للأسطول المقبل. وبذلك أصبح للمسلمين أسطولان يحميان الشواطىء الإسلامية، ويدفعان عنها الاساطيل المعادية في البحر الأبيض المتوسط.

١٨ ـ ولاية موسى بن نصير:

بقي حسان في مقره في القيروان الى حوالى عام ٨٦هـ، ولما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة قدم عليه حسان بن النعمان بكثير من التحف والنفائس، ورغب إليه الوليد أن يعود إلى مقر عمله في افريقيا، فاعتذر. فطلب الوليد من عامله على مصر ـ وهو عمه عبد العزيز بن مروان ـ أن يختار أميراً لافريقيا فاختار مولاه موسى بن نصير، وسيره إلى القيروان في عام ٨٧هـ وباشر موسى عمله بجد وكفاءة.

ورأى موسى بثاقب نظره أن ادخال البربر في الإسلام، وترسيخ الدين في قلوبهم، يضفي قوة على قوته، ويجنبه انتفاضاتهم فأخذ يرسل إليهم الفقهاء ليؤدوا مهمتهم، وتابع موسى سيره في الشمال الافريقي متبعاً طريق عقبة بن نافع حتى أفضى به السير الى ساحل المحيط الاطلسي. وتقول الروايات، إن اقليم سبتة كان تابعاً لبيزنطة ـ مثله مثل الشمال الافريقي كله ـ، إلا أن حاكم هذا الاقليم وجد نفسه مضطراً الى البحث عن قوة غربية يعتمد عليها، بعد ان انقطع اتصاله ببيزنطة اثر الفتح العربي، ولم يكن هناك اقرب اليه من اسبانيا، فدان بالولاء لحكامها القوط.

١٩ ـ ولاية طارق في سبتة وطنجة :

ثم عاد موسى بن نصير إلى القيروان، بعد أن عهد إلى مولاه طارق بن زياد بمتابعة العمليات في المنطقة، فتقدم حاكم سبتة يطلب تجديد الصلح مع المسلمين، على أن يدين لهم بالطاعة وأن يدفع لهم الجزية فقبل طارق منه ذلك. واتخذ طارق مدينة طنجة مقراً له ليصرّف منها الأمور ويشرف على إدارة المنطقة. وتختلف الروايات في أصل طارق، فمنها ما يجعله من سبي فارس، ومنها ما يجعله بربرياً من نسل الفاندال الغربيين، أشقر اللون أزرق العينين. . وأيّاً ما كان أصله فقد حقق هذا البطل بشجاعته وبُعد نظره نصراً خلّد اسمه على مر الدهور.

الفصل الثاني

اسبانيا والفتح الاسلامي

٢٠ ـ اسبانيا قبل الفتح:

تعرضت الجزيرة الايبرية الى العديد من موجات الغزو الخارجي، الذي كان بعضه عابرا لم يستقر فيها، بينما استقر بعضه الآخر فيها، وترك آثاره في أرضها. وكان الفينيقيون من الأمم التي تطلعت الى هذه الجزيرة الغنية الخصيبة. فاغاروا عليها على دفعات متفرقة واستقروا في بعض سواحلها، واقاموا فيها عددا من الحواضر منها قادس وقرطاجنة ـ وذلك بين القرنين الخامس عشر والحادي عشر قبل الميلاد ـ. ولما سقطت الدولة الفينيقية الغربية، خلف الروم الفينيقيين في بسط نفوذهم على اسبانيا، ولما سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية تحت ضربات البرابرة من قبائل الفاندال والهون، اتجهت موجة من موجات الفاندال في القرن الخامس الميلادي الى إسبانيا واستولت عليها.

ثم تعرضت اسبانيا في أوائل القرن السادس الميلادي الى غارة من غارات القوط الغربيين (عام ٥٠٧م) فأجلوا الفاندال عنها، فنزحوا الى شمالي افريقيا. وحل القوط الغربيون محل الفاندال في حكم الجزيرة. ودام حكم القوط لاسبانيا قرابة قرنين.

وقد أغرقت الحياة الناعمة في إسبانيا، الفاتحين الجدد، فهاموا بالترف، ومباهج الحياةوالترف والبذخ يحتاجان إلى المال. فأخذ الجباة يستنزفون أموال الشعب، ويتعسّفون في تحصيلها منه حتى أرهقوه وأفقروه.

وأكثر الذين كتبوا في تاريخ الأندلس أشاروا إلى سوء الحالة الاجتماعية في الجزيرة الايبرية قبيل الفتح الاسلامي، والى الطبقات التي كان يتألف منها المجتمع. فمنهم من يجعلها أربعاً، ومنهم من يجعلها خمساً أو ستاً، إذا اعتبر اليهود في المجتمع طبقة. على كل حال، ان الطبقات الاجتماعية في أوروبا في تلك العصور كانت اربعاً:

١ ـ طبقة النبلاء (وهم في اسبانيا إذ ذاك سلالة القوط الفاتحين)، وكانت هذه الطبقة تمسك بأهم المناصب في الجيش والبلاط والادارة. وكانت أكثر الأراضي الخصبة بيدها كاقطاعات حصلت عليها اثر الفتح.

وكانت طبقة النبلاء تقسم في العصور الوسطى الى ثلاثة أقسام بحسب أهمية دخولها المالية: (١)

(أ) القسم الأول، ويضم من كانت دخولهم قليلة نسبياً، إذ كان سلطانهم لايمتد الى أكثر من قرية واحدة أو قريتين أو قرى قليلة، ولكن دخول هذه القرى لا يكفي لأن يكون السيد الاقطاعي ذا أهمية مالية.

وموضوع تقييم هؤلاء السادة الاقطاعيين موضوع صعب من الناحية التاريخية فقد كان كثيرون منهم فقراء جدا، ودخولهم قليلة إذ كان دخل بعضهم لا يتجاوز ٣٠٠ الى ٤٠٠ ليرة سنوياً.

ولكن كان بين أفراد هذه الطبقة من يصل دخله الى ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ ليرة سنويا.

(ب) القسم الثاني، ويضم من كانت أملاكهم تشمل عددا كبيراً من القرى وقد تتراوح أملاكهم بين عشرين وخمسين قرية، قد يكون بعضها متصلا ببعض وقد يكون منفصلا عنه، ولذلك كانت دخولهم كبيرة تكفيهم لحياة البذخ والترف، وهؤلاء هم السادة الأعلون. ولكن لم يكن بينهم وبين أفراد الطبقة الأولى حدود مميزة تفصل بعضهم عن بعض.

وكان للسادة من أفراد هذه الطبقة أن يستوفوا رسوماً من الأسواق والمناجم والمقالع ورسوماً عن المرور، وكانت دخولهم تتراوح بين ٣٥٠٠ ليرة وبين عشرة آلاف ليرة سنوياً، وقد تصل الى عشرين الف ليرة.

(جـ) القسم الثالث، السادة الاعلون للمقاطعات، وكانت دخولهم كبيرة، وتشمل وارداتهم ما يتقاضونه من رسوم ادارة المحاكم، والريع مدى الحياة الذي يدفعه لهم اتباعهم الاقطاعيون.

وقد كان يسود بين افراد هذه الطبقات الثلاث من الاقطاعيين شعور مشترك

---

(١) هيلر بيلوك، تاريخ الحروب الصليبية ص٥٢.

بنبل الدم، وهذا الشعور المشترك هو الذي يفصل بين مجموعة النبلاء وبين بقية أبناء الشعب.

٢ ـ طبقة رجال الدين (الاكليروس)، وكانت تشارك النبلاء في إدارة البلاد، وفي اقتسام المغانم وتملك الأراضي الخصبة. وكان الاكليروس كالنبلاء معفيين من الضرائب، ومن الالتزامات المالية.

٣ ـ طبقة الصناع والتجار وصغار الملاك (البورجوازيين) وكانت هي الطبقة التي تتحمل الواجبات المالية والضرائب.

٤ ـ طبقة الاقنان (رقيق الارض)، وهي مرتبطة بالأرض تنتقل معها من مالك الى مالك. وكان واجبها تأمين العمل في الأرض. ولم تكن لها حقوق.

اليهود: وكان في اسبانيا عدد كبير من اليهود، يمكن ان يعتبروا طبقة خاصة، بسبب تضامنهم وتكتلهم، واثرهم في الحياة الاقتصادية للبلاد، وقد استاء المجتمع الاسباني من تغلغل هؤلاء اليهود في جميع مرافق الحياة الهامة والحساسة، واخذ الحكام القوط يلاحقونهم ويضايقونهم. واتخذ الملك ريكاردو (الذي حكم اسبانيا من ٥٧٤ الى ٦٠١م) أول تدبير ضد اليهود، إذ حرم عليهم إقامة شعائرهم الدينية، وحرم عليهم التزاوج حسب شريعتهم واعرافهم، ومنعهم من الشهادة ضد المسيحيين. وتتالت هذه التدابير الزاجرة بحقهم من قبل الحكام القوط، ولكن اليهود كانوا لا يجهلون كيف يصلون الى هؤلاء الحكام، وكيف يشترونهم لالغاء التدابير المتخذة بحقهم، أو لتطبيقها بأقل عنف ممكن، إذا لم يكن بالامكان التوصل الى الغائها.

ولما ارتقى العرش الملك سيسوت (٦١٢ ـ ٦٢٠م)، اخذ في ملاحقة اليهود بشكل جدي وعنيف، واصدر أمراً يفرض عليهم اعتناق الديانة المسيحية، ومن لم يشأ منهم ذلك، كان عليه مغادرة البلاد فوراً. فتنصر قرابة تسعين الفاً، وهاجر كثير من اليهود الى فرنسا وشمالي افريقيا. ولكن تنصر اليهود كان ظاهرياً، فقد استمروا مقيمين سراً على يهوديتهم، وبقي نفوذهم قوياً في البلاد. وعادت مشكلة اليهود تشغل من جديد بال المجتمع الاسباني، ولكن بصورة أكثر تعقيداً. لذلك انعقد مجمع ديني في طليطلة اتخذت فيه مقررات جائرة وغير انسانية إذ قضى بعضها بانتزاع أبناء هؤلاء اليهود المتنصرين من أهلهم، وتربيتهم في أديرة كاثوليكية. ويبدو أن المضايقات الشديدة التي عاناها اليهود، حملتهم على حوك مؤامرة ينتقمون فيها من

الحكام القوط، ولكن أنباء هذه المؤامرة تسربت الى السلطة الحاكمة فكان ذلك سبباً في تزايد الأذى الذي يحل بهم. وصدر اثرها أمر غريب، يقضي بمنع تزاوج اليهود المتنصرين فيما بينهم. وبقي اليهود في اسبانيا يعانون الضيق المتزايد كل يوم، حتى جاء الفتح الاسلامي فازال عنهم شر ما يعانون، فكانوا أول من رحب به، وأبدى استعداده للتعاون معه.

٢١ ـ تفكك المجتمع الاسباني:

ومثل هذا المجتمع المتفكك الذي تمتاز فيه طبقتان غريبتان عنه، أو شبه غريبتين، هما طبقتا النبلاء ورجال الدين ـ مع أنهما لا تؤلفان إلا قلة عددية فيه ـ وتبقى الطبقتان الأخريان فيه، اللتان تشكلان الغالبية العظمى من الشعب، تئنان من جور الحكام، وتتحملان عبء الواجبات الثقيلة، ونتائج الفساد والرشوة، والانحلال الخلقي للحكام، وذوي الامتيازات، دون ان يكون لهما حقوق تقابل هذه الأعباء الثقال؛ نقول إن مثل هذا المجتمع لا يمكن أن يكون مجتمعاً متماسكاً متضامناً، ولا يمكن أن يكون للروح القومية والعاطفة الوطنية أثر كبير فيه. والواقع أن جميع الذين كتبوا في تاريخ الفتح الاسلامي لاسبانيا، أشاروا بشكل خاص الى تفكك المجتمع الاسباني في زمن الفتح، ولاحظوا ضعف المقاومة التي لقيها العرب في زحفهم الصاعق، مع قلة عددهم، وعظم مهمتهم، ولا يجد الانسان كبير صعوبة في تعليل التخاذل الذي ظهر من الشعب الاسباني، ولا في تفسير ضعف المقاومة التي أبداها للمسلمين، مع أن الجيش الاسباني كان أكثر من المسلمين عدة وعددا، وهو يدافع عن أرض يعرفها، ويعرف طبيعتها، فقد كان الجيش الاسباني يتألف في غالبيته العظمى من ابناء الطبقات الشعبية ـ البورجوازيين والفلاحين ـ ولا يشكل النبلاء أصحاب الامتيازات فيه إلا الاطار القيادي. . وكانت الطبقات الشعبية في اسبانيا قد بلغت في ذلك الحين، أسوأ ما يمكن أن يتصوره الانسان من سوء حال، وكره للحكام، ونفور منهم، حتى إنها اصبحت تتمنى إنزالهم عن عاتقها بأي ثمن، وبأية وسيلة كانت.

كان الشعب الاسباني يرى الغزاة ينقضون على أرضه بين الحين والآخر، ليطردوا غزاة آخرين، استولوا هم أيضاً بقوة السلاح على مقدرات أموره، وتسلطوا

عليـه، وسلبـوا حريتـه، وحرموه من جني خيرات أرضه، وثروات وطنه، ثم لا يلبث الغزاة الجدد أن يصبحوا أشدعسفاً، وأكثر تنكيلاً من الغزاة السابقين. ولما تكرر ذلك يئس الشعب من الخـلاص والفـرج، واستسلم لهذا اليأس، وكأنـه قدر محتوم، فتبلد حسـه، ولم يعـد يبالي من يعزلون ومن يولون، وكأن الأمر لا يتعلق به وبوطنه وأرضه. وحينما يصبـح الشعب غريباً في أرضه، عدواً لحكامه، متفككاً لانقسامه الى طبقات متنـافـرة متحـاسـدة تستغـل فيه القلة الكثرة، وتغتصب منها قوت يومها، يصبح هذا الشعب متراخيـاً فاقـد الحماسة والنجـدة، عديـم القـدرة على الحرب، والدفاع عن حيـاض الـوطن. وينحصـر كل همه في تأمـين قوتـه ومعـاشـه. أمـا الـوطن، وأمـا الاستقلال، وأما الأرض فانه يترك أمر الدفاع عنها الى من يفيد من استغلالها.

٢٢ ـ اغتصاب الملك:

توفي آخـر ملك من ملوك القـوط، واسمـه وتيـزة (Witiza) (وتعرفه الروايات العربية باسم غيطشة) تاركاً ولدين صغيرين، فوثب قائد الجيش، رودريكو (وتسميه الـروايـة العـربيـة لذريق) على الملك، وانتزعه من ابني سيده، واستأثر به من دونهما. فثار انصارهما في نواح مختلفة من البلاد. وكان لذريق رجلاً حازماً شجاعاً، فأخذ يسير على رأس جيشـه لاخمـاد هذه الثـورات، الواحدة تلو الأخرى، الى أن وصل العرب وهـاجمـوا الأنـدلس. وتقـول روايات اخرى إن مجلس الدولة هو الذي اختار رودريكو للملك، نظـراً لصغـر ابني الملك السابق، ولم يغتصبه. ولكن أياً ما كان سبب وصول رودريكو الى الحكم، فإن أنصار الملك السابق لم يقبلوا هذا الانتقال للملك وكافحوه.

٢٣ ـ أسباب الفتح:

تكـاد الـروايات العربية تجمع على أن السبب في اتجاه العرب لفتح الأندلس، هو تحريض يوليان، حاكم سبتـه لهم، لما كان في نفسـه من حقـد بسبب هتـك لذريق عرض ابنتـه فلورنـدا، فقـد كان من عادة حكـام الـولايـات القـوطية إرسال أبنائهم وبنـاتهم الى البـلاط ليعيشـوا فيه فترة من الزمن يتدربون خلالها على آداب البلاط.

وتبعاً للتقاليد هذه، أرسل يوليان ابنته فلورندا، وكانت فتاة رائعة الجمال، فافتتن بها رودريكو وأغواها ودنس شرفها، متجاوزاً بذلك تقاليد البلاط التي كانت تعتبر هؤلاء الأطفال والأولاد، كأبناء الملك، يحافظ عليهم كما يحافظ على أبنائه. ولما علم يوليان بما ارتكبه رودريكو من جرم شنيع بحق ابنته، استاء وأقسم ليزيلن عرشه. وأخذ يتصل بموسى بن نصير وبطارق بن زياد ويغريهما بغزو الأندلس.

وهناك رواية حديثة قال بها المؤرخ المعاصر (سافيدرا)، وأخذ بها كلاوديو سانشس البرنس، مؤلف كتاب (اسبانيا المسلمة)(١) وتقول هذه الرواية إن أبناء الملك السابق واسرته كانوا يسعون لاستعادة الحكم من الغاصب فاتصلوا بيوليان، وكان من أنصارهم، ليعرض على العرب، أن يمدوهم بقوة ترد لهم ملكهم، لقاء مبالغ من المال يدفعونها للعرب. ولكن العرب الذين أغرتهم مباهج الحياة، وثروات الأندلس وجمالها، حولوا العون الى فتح، وقرروا البقاء في الأندلس. وهذه الرواية التي لم يقل بها أحد قبل سافيدرا غايتها الصاق التهمة بالعرب بأنهم غدروا، بمن استنجد بهم، وأغراهم الطمع فاحتفظوا بالفتح لأنفسهم. ولو كان لهذه الرواية نصيب من الصحة، قليل أو كثير، لتمسك بها المؤرخون الاسبان الذين كتبوا تاريخ بلادهم، في عهود بعيدة كان الحقد فيها على العرب لا يحده حد، والرغبة في تشويه سمعتهم، والاساءة الى تاريخهم، لا تقاوم. ولكن لا يستبعد أن يكون يوليان وهو يرتب الاتصال بالعرب لغزو الجزيرة الايبرية، قد اتصل بأعداء رودريك في الداخل، وفي طليعتهم أهل البيت المالك السابق. وتقول الرواية العربية إن أبناء غيطشة طلبوا من العرب أن يعيدوا إليهم الاقطاعات والضياع التي كانت لهم ثم صادرها رودريكو، لقاء معونتهم للعرب، فأعادوها إليهم، وكانت نحواً من ثلاثة آلاف قرية(٢).

٢٤ ـ الغزو:

استأذن موسى بن نصير الخليفة الوليد بن عبد الملك في غزو الأندلس، فوافق على ذلك، على أن يختبرها بإغارات صغيرة تكشف له أمرها، فلا يقع المسلمون في

(١) اسبانيا المسلمة ج١ ص٣٤.
(٢) ابن القوطية ص٢٨.

خطر مهلك. وفي شهر رمضان من عام ٩١هـ (تموز ٧١٠م)، أرسل موسى كتيبة فيها ٤٠٠ راجل و ١٠٠ فارس بقيادة رجل بربري اسمه طريف، أنزلتهم السفن على الساحل الاسباني في الموضع المعروف اليوم باسم جزيرة طريف (ويسميها الاسبان اليوم طريفة)، غربي الجزيرة الخضراء مقابل طنجة.

ومن هناك أغار طريف على المناطق المجاورة فأصاب سبياً، وغنم شيئاً كثيراً، وعادت الكتيبة بما تحمل الى الساحل الافريقي فسر موسى بذلك، واستقر عزمه على الغزو، ولكنه أراد أن يرسل مولاه طارقاً على رأس قوة أكبر، تجوس خلال المناطق الساحلية، وتختبر قوة الاسبان، وتكشف أحوالهم. ونقلت سفن قدمها (يوليان) حاكم سبتة، طارقاً مع سبعة آلاف رجل معظمهم من البربر، الى الشاطىء الاسباني، وأنزلتهم في الموقع المعروف اليوم بجبل طارق، يوم سبت من شهر شعبان من عام ٩٢هـ (آب ٧١١م). وما إن تكامل نزول المسلمين في الأرض الاسبانية، حتى طارت الأنباء للملك رودريكو - وكان إذ ذاك في منطقة الباسك في الشمال (البشكنس)، يقوم ببعض العمليات ضد المنشقين عليه - فأسرع بالسير نحو الجنوب، على رأس جيشه، وانضمت إليه، أثناء سيره، أعداد من المحاربين. ولما وصل أمام الجيش الاسلامي، كان تعداد جيشه أربعين الفاً في رواية ومئة الف في رواية أخرى.

علم طارق من عيونه مبلغ قوة الجيش الاسباني الزاحف إليه، فأسرع يستمد مولاه موسى، فأمده بخمسة آلاف رجل فأصبح جيش طارق اثني عشر ألفاً، ولما تكامل العدد استعرض طارق جيشه الصغير، وأراد أن يقطع أمل رجاله في الهرب، فأمر بإحراق السفن التي نقلتهم، ووقف في رجاله خطيباً، وألقى فيهم خطبته المشهورة:

«أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواتهُ موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب برعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت إليكم به مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن

سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لا أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا أحملنكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس. وأنا أبدأ بنفسي واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالارفه طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي.

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك، ذوي التيجان، وقد انتخبكم أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهاراً واختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجادلة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه في هذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين، واعلموا أني مجيب الى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون إليه أموركم، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون».

وتقدم طارق بجيشه حتى وصل الى بحيرة قريبة من مدينة شذونة[1] (مدينا سيدونيا)، بعد أن أفتتح عدداً من المدن والمواقع، وهناك التقى به رودريك.

وكان رودريك قد استدعى ابني سلفه غيطشة، وعهد اليهما بقيادة جناحي الجيش، وفيهما أكثر رجالهما، أما هو فتولى قيادة قلب الجيش، وتقول الرواية العربية[2] ان ابني غيطشة، وكبار أصحابهما، درسوا موضوع الحرب فقالوا ان رودريكو غلب على الملك، واستأثر به دون أصحابه الشرعيين، فإذا انتصر فلا أمل لهم باسترجاع حقهم منه. أما إذا انتصر العرب فإنهم قوم غزاة لا يهمهم من أمر شبه الجزيرة شيء، وسيعودون الى موطنهم بعد أن تمتلىء أيديهم من السبي والغنائم، وحينئذ يستطيع أصحاب الحق الحصول على حقهم. وبعد تقليب أوجه الرأي

---

١ ـ وتسمى اليوم بالاسبانية (مدينا سيدونيا).

٢ ـ اخبار مجموعة ص٧.

وجدوا أن أفضل ما يقومون به هو أن ينهزموا بجناحي الجيش، حينما تشتد المعركة، فيصطلي رودريك بنارها وحده، ويهلك.

التقى الجيشان عند نهر صغير (ويقول دوزي إنه نهر سلادو، الذي يرفد نهر وادي الليث «غواداليت» الذي يصب في المحيط الأطلسي). وكان اللقاء قرب بحيرة هناك لذلك قالت الروايات العربية إن المكان يدعى (وادي لكه) ـ وهي كلمة محرفة عن كلمة (لاغو) (Lago) الاسبانية ومعناها البحيرة ـ وجرت معارك هناك دامت ثمانية أيام، انتهت بهزيمة القوط هزيمة تامة، بعد أن نفذ ابنا غيطشة وأصحابهما خطتهم بالهرب في أثناء المعركة، واحتوى المسلمون معسكرهم، ووجدوا حصان رودريك وقد ساخت قدماه في الطين قرب البحيرة، ويقدر المؤرخون أنه غرق في البحيرة.

٢٥ ـ الزحف نحو الشمال:

وبعد هذا النصر تابع طارق زحفه شمالاً الى مدينة استجة (Esija) وكان قد تجمع فيها جيش من فلول المنهزمين فهاجمهم، وقاتلهم قتالا شديداً، فظهر عليهم، وفرّق جمعهم، ولم يجتمع للقوط بعدها جيش، وبينما كان طارق يستحم في النهر بعد المعركة عثر على رجل اسباني، فلما أسره تبين له أنه قائد الجيش الذي هزمه قبل قليل.

ثم قسم طارق جيشه الى أربع فرق سير كلا منها الى غاية معينة، فأرسل مغيثاً الرومي في ٧٠٠ فارس الى قرطبة، وأرسل جيشاً ثانياً الى غرناطة، وثالثاً الى مالقة، وسار هو بمعظم الجيش الى طليطلة عاصمة القوط.

أما مغيث فإنه لما اقترب من قرطبة قبض على راع، علم منه أن حامية المدينة هربت منها، ولم يبق فيها غير الحاكم في أربعمائة رجل من أهل البلد، ودله على ثغرة في السور، فارتقى المسلمون منها ليلا، واقتحموا الأبواب فانحاز قائد الحامية ورجاله الى كنيسة غربي قرطبة تحصّنوا فيها، فحاصرهم مغيث ثلاثة أشهر، ثم علم أن قائد الحامية قد هرب سراً في غفلة من جماعته، فلحق به وأسره، وعاد به مغيث فاستسلم أصحابه الموجودون في الكنيسة.

وفتح الجيش المتجه الى غرناطة منطقة (إلفيرا)[1]، وفتح الجيش المتجه الى مالقة منطقة (ريا)[2]، ثم سار والتقى بجيش غرناطة، واتجها معاً الى مدينة أوريولا (منطقة تدمير)[3]، فخرج حاكم المقاطعة، واسمه تدمير، على رأس قوة كبيرة من رجاله لقتال المسلمين، فهزموه وألجؤوه الى الحصن، بعد أن تفرق جيشه، وكان تدمير رجلاً عاقلا، واسع الحيلة، ففكر في طريقة يحصل بها من المسلمين على أفضل الشروط، بعد أن يئس من إمكان المقاومة طويلاً، فألبس النساء ثياب الرجال، وسلمهن عيداناً من القصب، وأوقفهن في أعلى السور ليظن المسلمون أن الحامية كبيرة وخرج هو كرسول من المدينة، الى مقر القيادة الاسلامية، وفاوض في الصلح وتوصل الى اتفاق مع القائد المسلم فيه كل المصلحة للاسبان، إذ حفظ للناس حياتهم وأموالهم وحريتهم، كما حفظ لـ (تدمير) ملكه. وبعد توقيع الاتفاق كشف تدمير للمسلمين عن حقيقته، ودخل المسلمون البلد فلم يجدوا رجالاً قادرين على حمل السلاح، كما لاحظوه من تحت السور، وسرعان ما علموا بالحيلة، فأعجبوا بذكاء الرجل ودهائه، ووفوا له ولأصحابه بشروط الصلح، (وقد أوردنا في الفقرة ١٢٣ نص وثيقة الصلح الموقعة مع تدمير).

وإذ كانت القوات الاسلامية الفاتحة غير كبيرة العدد، فقد اتبع المسلمون طريقة فريدة لتوفير الحاميات للمدن المفتتحة، إذ كانوا يجمعون اليهود في البلد، ويسلمونهم أمور الحراسة تحت إشراف مفرزة اسلامية.

ووصل طارق بعد ذلك الى طليطلة فاحتلها، واستولى بغير قتال يذكر على كثير من المناطق المجاورة لها، وعاد الى طليطلة (عام ٩٣هـ - ٧١٢م).

٢٦ - دخول موسى الى اسبانيا:

وعلم موسى بما قام به طارق وجيشه من جلائل الأعمال، فقرر أن يكون له شرف المساهمة في هذا الفتح العظيم، ودخل الأندلس في رمضان من عام ٩٣هـ (تموز

---

١ - إلفيرا - كانت حاضرة مقاطعة غرناطة. وكانت غرناطة قرية صغيرة بجانبها.

٢ - كانت مقاطعة مالقة تسمى (ريا).

٣ - هي ولاية مرسية. وقد سميت قديماً باسم حاكمها يوم الفتح (تدمير).

ـ آب ٧١٢م)، على رأس جيش قدرته الروايات بثمانية عشر ألفاً أكثرهم من العرب، ونزل في الجزيرة الخضراء وهناك قرر أن يسير في طريق غير التي سلكها طارق، فيفتح المدن التي لم تفتح بعد، وبعدئذ يلتقي بطارق في طليطلة.

اتجه موسى الى مدينة شذونة فافتتحها حرباً، ثم توجه الى حصن (قرمونة) (كرمونا)، وكان من أمنع الحصون فنصحه من كان معه من الاسبان باتباع الحيلة، فوجه عدداً من الاسبان المستأمنين بأسلحتهم، كما لو كانوا هاربين من المعركة فأدخلهم حماة الحصن اليه، وفي الليل فتحوا الأبواب للمسلمين، وفقاً للخطة فدخلوا واستولوا عليه، ثم سار الى اشبيلية، وكانت عاصمة اسبانيا أيام الحكم الروماني، ولما نقل القوط عاصمتهم الى طليطلة بقيت في أشبيلية طبقة النبلاء الرومان والفقهاء والعلماء، وبعد أشهر من الحصار احتلها المسلمون، وعهد موسى الى اليهود بحراستها، وهرب قسم من أهلها الى باجة[1]، وسار موسى بعد ذلك الى ماردة[2]، فخرجت اليه حاميتها وقاتلته قتالا شديداً. وتقول الرواية ان موسى لاحظ وجود قنطرة في المنطقة، فوضع فيها خلال الليل قوة اسلامية تكون كميناً له. وفي اليوم التالي خرج الاسبان من البلد لقتال المسلمين فهاجمهم الكمين الاسلامي من خلفهم فقتل منهم مقتلة عظيمة وارتد الباقون الى مدينتهم الحصينة. واستمر الحصار بضعة أشهر ثم شرع المسلمون بنقب جدار السور، وبينما كان النقّابون المسلمون يعملون ذات يوم انقض عليهم الاسبان بغتة، وقتلوا كثيرين منهم، فأسمى العرب البرج الذي وقعت عنده المذبحة ببرج الشهداء، وبعد هذه المعركة فاوض الاسبان موسى على الاستسلام، وتقرر أن يستولي المسلمون على أموال من قتلوا أو هربوا من البلدة، كما اتفق على أن تكون لهم أموال الكنيسة وكنوزها، ودخل المسلمون البلدة يوم عيد الفطر من عام ٩٤هـ.

وفي أواخر شوال من عام ٩٤هـ (أواخر تموز ٧١٣م)، خرج موسى من مادرة الى طليطلة، فخرج طارق لاستقباله، واجتمع الرجلان هناك. وتتحدث الروايات عن اللقاء بين القائدين، وما لقيه طارق من العتب والتعنيف من موسى، ثم وجه موسى طارقا الى منطقة أراغون في الشمال الشرقي واستعد هو للمسير الى غاليسيا

---

(١) باجه هي اليوم مدينة (Beja).

(٢) ماردة وتسمى بالاسبانية (Merida).

(جليقية) في الشمال الغربي من اسبانيا لافتتاحها، وكان قد لجأ إليها كثير من الاسبان والقوط الذين هربوا من مدن الجنوب، ولكن مغيثاً الرومي مولى أمير المؤمنين الوليد ابن عبد الملك، جاء من المشرق يبلغ موسى أمر الخليفة بالسفر الى دمشق فرجاه الانتظار بعض الوقت ريثما ينفذ برنامجه، فرضي مغيث وسار معه. وفتح المسلمون كثيراً من المدن والحصون وخضع الاسبان، ورضوا بدفع الجزية وأخذ البربر يبنون القرى في المناطق الجبلية ويستقرون فيها.

٢٧ - عودة موسى الى الشام:

ولما استبطأ الوليد عودة موسى أرسل اليه رسولا آخر فاضطر موسى الى ترك اسبانيا والعودة، وكان إذ ذاك في مدينة لووغو (Luogo) في أقصى الشمال الغربي. وعاد طارق من أراغون فالتقى بموسى وسارا معاً مع جميع من أراد العودة الى المشرق. وخلَّف موسى ابنه عبد العزيز أميراً على الأندلس، وكلفه بأن يتخذ أشبيلية مقراً له، لقربها من الساحل الافريقي.

وفي ٢ ذي الحجة من عام ٩٥هـ (آب ٧١٤م)، عبر موسى المضيق مع جيشه وثلاثين ألف أسير وكنوزاً لا تحصى. وتقول بعض الروايات ان موسى كان ينوي فتح جنوبي أوروبا ليعود الى دمشق عن طريق القسطنطينية (وهو ما حاول عبد الرحمن الغافقي إتمامه فيما بعد)، ولكن دعوة الخليفة اضطرته للعودة قبل تنفيذ برنامجه، ولما وصل موسى الى فلسطين، التقاه سليمان بن عبد الملك، وأعلمه بمرض أخيه الوليد، وطلب إليه التريث في السفر الى دمشق ريثما يكون الوليد قد توفي وتسلم هو الخلافة فيدخل عليه بما معه من تحف وهدايا، وينسب الفتح إليه، فرفض موسى ذلك، وأسرع الى دمشق، ليرى الخليفة قبل وفاته، فأكرمه الوليد وأثنى عليه لكن الخليفة ما لبث أن توفي بعد قليل، وخلفه أخوه سليمان فأساء معاملة موسى واستصفى أمواله.

الفصل الثالث

امارة الأندلس بعد موسى

٢٨ ـ أمراء الأندلس حتى قيام الدولة الأموية :

حفلت الفترة التي تلت الفتح الاسلامي للأندلس ـ وامتدت حتى قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨هـ ـ بالأحداث الجسام والاضطرابات. ومع أن هذه الفترة لا تزيد على ٤٧ عاماً فقد تبدل خلالها الحكام قرابة ٢١ مرة. ولن نتوقف طويلا عند أحداث هذه الفترة، وإنما سنكتفي بالاشارة الى بعض الحوادث التي تركت أثراً في تاريخ الأندلس فيما بعد.

أورد صاحب كتاب أخبار مجموعة الأندلسي في آخر كتابه لائحة بأسماء أمراء الأندلس ومدة حكم كل منهم :

طارق بن زياد :	من رجب ٩٢هـ (نيسان ٧١١) حتى رمضان ٩٣ (حزيران ٧١٢) حتى جاء موسى.
موسى بن نصير :	من رمضان ٩٣هـ (حزيران ٧١٢) حتى صفر ٩٥ (تشرين الأول ٧١٣).
عبد العزيز بن موسى :	قتل في رجب ٩٧ (آذار ٧١٦).
أيوب بن حبيب اللخمي :	حتى ذي الحجة ٩٧هـ (آب ٧١٦ م):

الحر بن عبد الرحمن الثقفي :	حتى رمضان ١٠٠ هـ (آذار ـ نيسان ٧١٩).
السمح بن مالك الخولاني:	رمضان ١٠٠هـ حتى قتل في معركة طولوزه في ذي الحجة ١٠٢هـ (حزيران ٧٢١).
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (بالوكالة):	حتى صفر ١٠٣هـ (آب ٧٢١م).
عنبسة بن سحيم الكلبي :	توفي في شعبان ١٠٧هـ (كانون الثاني ٧٢٦م) (وقد استولى على قرقشونة ونيم
عذرة بن عبد الله الفهري (بالوكالة):	حتى شوال ١٠٧هـ (شباط ـ آذار ٧٢٦م).
يحيى بن سلمة الكلبي :	حتى ربيع الأول ١١٠هـ (كانون الأول ٧٢٨م)
حذيفة بن الأحوص القيسي :	حتى شعبان ١١٠هـ (كانون الأول ٧٢٨م)
عثمان بن أبي نسعة الجذامي :	حتى المحرم ١١١هـ (نيسان ٧٢٩)
الهيثم بن عبيد الكلابي (وقيل الكناني):	حتى ذي العقدة ١١١هـ (شباط ٧٣٠).
محمد بن عبد الله الأشجعي :	حتى صفر ١١٢هـ (آذار ـ نيسان ٧٣٠).
عبد الرحمن الغافقي. (للمرة الثانية):	حتى رمضان ١١٤هـ (تشرين أول عام ٧٣٢) قتل في معركة بواتيه (بلاط الشهداء).
عبد الملك بن قطن الفهري :	حتى شوال ١١٦هـ (تشرين ثان ٧٣٤م)
عقبة بن الحجاج السلولي	حتى صفر ١٢٣ هـ (كانون ثان ٧٤١م).

عبد الملك بن قطن (للمرة الثانية):	حتى ذي القعدة ١٢٣ (أيلول ٧٤١م).
بلج بن بشر القشيري:	حتى شوال ١٢٤هـ (آب ٧٤٢).
ثعلبة بن سلمة العاملي:	حتى رجب ١٢٥هـ (أيار ٧٤٣م).
أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي:	حتى رجب ١٢٧هـ (نيسان ٧٤٥).
ثوابة بن سلمة الجذامي:	حتى المحرم ١٢٩هـ (أيلول ٧٤٦).
يوسف بن عبد الله الفهري:	من ربيع الثاني ١٢٩هـ (كانون الثاني ٧٤٧) واستمر في الحكم حتى دخول الامير الأموي عبد الرحن الأول في ١٠ ذي الحجة ١٣٨هـ (أيار ٧٥٦م).

٢٩ ـ ولاية عبد العزيز بن موسى:

تابع عبد العزيز بن موسى أعمال الفتح في اسبانيا بعد سفر أبيه، وتزوج بأجيلونا زوجة رودريك، أو ابنته على رواية، فراجت إشاعات كثيرة عن تصرفات صدرت عن عبد العزيز، فثار عليه بعض قادة جيشه وقتلوه غيلة وهو في المسجد. وتختلف الروايات في أسباب مقتله، ولكن أقربها الى التصديق هي القائلة إن سليمان ابن عبد الملك أساء معاملة موسى بن نصير، وخاف أن يتحرك ابنه عبد العزيز، فكلف بعض ثقاته باغتيال عبد العزيز. ويبدو أن هذا تكلم بسوء بحق الخليفة لما سمع بالمعاملة السيئة التي عامل بها أباه، فقرر الخليفة التخلص منه، وكان سليمان وعد من يقتله من ثقاته بأن يكون هو والي الأندلس بعده، فاختار القتلة أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى، وممن اشتركوا في مقتل عبد العزيز، ولكن

الجيش لم يقبل بهذا الاختيار، وولى أموره عبد الرحمن الغافقي ريثما يصل الأمير الجديد[1].

٣٠ ـ بدء تجمع الاسبان في منطقة استورياس في أقصى الشمال :

في عهد الحر بن عبد الرحمن الثقفي عام ٩٨هـ، هرب من قرطبة أحد قادة الملك رودريكو، واسمه بلايا (Peilayo) ولجأ الى منطقة (استورياس)، فالتف حوله أهل المنطقة، وثاروا على المسلمين، وشرعوا في محاربتهم، وتقول الرواية الاسبانية[2]، إن بلايا ورجاله انتصروا في عام ٧٢٢م انتصاراً كبيراً على المسلمين الذين كانوا بقيادة رجل اسمه علقمة. وذلك في معركة (كوفا دونجا) (Covadonga)، ومنذ ذلك اليوم بدأت عملية استرجاع الأراضي المحتلة من أيدي العرب، ويعتبر المؤرخون الاسبان هذه المعركة، معركة فاصلة وينسجون حولها قصة طويلة هي أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة، ثم مات بلايا في عام ١٣٣هـ وكان قد تسمى بلقب الملك، وملك بعده ابنه فافيلا (Fafila)، ودام حكمه سنتين، وملك بعده الفونسو بن بيدرو جد ملوك قشتالة المعروفين.

٣١ ـ تطلع المسلمين الى بلاد الفرنج :

أخذ المسلمون يتطلعون الى امتلاك فرنسا عبر جبال البيرينه (البرانس)، وخاف دوق اكيتانيا من مشاريع العرب فأراد إرباكهم بشقهم على أنفسهم وإشغالهم عنه، فأغرى أحد الزعماء البربر المستقرين في الشمال الاسباني، واسمه منزه، بالثورة على حكومة اشبيلية، ونتج عن ذلك ان ارسل عبد الرحمن الغافقي جيشاً ليضرب الثائرين، فهرب منزه ولجأ الى دوك اكيتانيا، ومنذ ذلك الحين اخذ المسلمون يفكرون في غزو فرنسا.

---

(١) البيان المغرب في اخبار المغرب لابن عذارى ج٢ ص٢٣.

(٢) عن تاريخ الفونسو الثالث ـ أوردها سانش البرنس في كتاب اسبانيا المسلمة ج١ ص٥٦.

٣٢ ـ معركة بواتيه (بلاط الشهداء):

اتجه الجيش الاسلامي بقيادة عبد الرحمن الغافقي ليطارد (منزه) فأدرك الدوق (أودس) أنه لا قبل له بمقاومة هذا السيل الجارف فلجأ الى شارل مارتل، يرجو عونه. واجتمع الفرنج لصد المسلمين، فتقدموا اليهم، والتقوا بهم قرب مدينة (تور)، وكان الفرنج بقيادة شارل مارتل. وبعد معركة عنيفة جرت عام ٧٣٢م (١١٤هـ) قتل عبد الرحمن الغافقي، فاختلفت كلمة المسلمين، وقرروا الانسحاب ليلا، ولم ينكسر المسلمون في الحرب.

٣٣ ـ الخلافات الداخلية:

تمتاز الفترة الأولى من تاريخ الحكم العربي في الأندلس بثلاثة أشياء:

أ ـ بنشوب الخلافات بين العرب والبربر.

ب ـ بتجدد الخلافات بين عرب اليمن وعرب الحجاز.

ج ـ ببدء تكوُّن الدول الاسبانية في أقصى الشمال.

٣٤ ـ ثورة البربر في شمالي افريقيا:

ثار البربر في شمالي افريقيا في عام ١٢١هـ، بقيادة رجل منهم اسمه (ميسرة)، بتأثير مذهب الخوارج ـ على ما قيل ـ، ونفوراً من عسف والي افريقيا عبد الله بن الحبحاب، الذي أمر بتحصيل الجزية من المسلمين غير العرب. وجرت في تلك السنة معركة عنيفة بين العرب والبربر قتل فيها كثير من أشراف العرب، وانهزموا أمام البربر أقبح هزيمة.

ولما علم الخليفة هشام بن عبد الملك بما حدث استاء، وقرر الانتقام من البربر لرد اعتبار الدولة، فجمع جيشاً كبيراً من عرب الشام، قدرته الروايات بأربعين ألف رجل، وعهد بقيادته الى كلثوم بن عياض القشيري. ولما وصل كلثوم الى افريقيا انضم الى الجيش العربي فيها، ولكن التفاهم بين الجيشين لم يكن على ما يرام، إذ إن العرب في افريقيا كانوا من الحجازيين الذي يكرهون أهل الشام، لما اقترفوه في

موقعـة الحـرة ، فلما التقى العـرب بالـبر بر في وادي (سبو) ، لم يخلصوا النية ، ولم يبذلوا الجهـد في القتـال ، فانهـزموا وتفرق جمعهم ، وقتل كلثوم ، فتولى قيادة جند الشام ابن أخيه بلج بن بشر القشيري ، بناء على وصية الخليفة .

تمكن بلج من النجاة مع حوالي ٧٠٠٠ رجل من جنده لجؤوا الى حصن سبتة فحـاصـرهم الـبر بـر وضيقـوا عليهم الخنـاق ، حتى بلغ بهم الجهـد والجوع غايتهما . فأخـذوا يتصلون بعـرب الأنـدلس ، وكـان يلي أمـرهم رجـل من يثرب ، شهد موقعة الحرة ، هو عبد الملك بن قطن الفهري ، فرفض إمدادهم والسماح لهم بالعبور الى الأندلس .

٣٥ ـ ثورة البر بر في الأندلس :

ولكن حدث في ذلـك الحين ما حمل عبـد الملك على تبـديـل موقفـه من بلج وأصحـابـه ، ذلك أن بربر الأندلس تحركوا إثر انتصار جماعتهم في افريقيا ، وثاروا ثورة شديـدة بعـرب الأندلس ، فأدرك عبد الملك خطر البر بر على العرب ، وعلى مستقبل الأنـدلس . فقـرر أن يستعـين ببلج وأصحابه في قتال البر بر . لكنه أراد أن يستوثق من أنهم لن ينتهـزوا الفـرصـة للبقـاء في الأنـدلس ، وكـان من جملة الشروط التي وضعها عليهم ، أنهم يحاربـون الـبر بـر فإذا انتصـروا عادوا الى سبتـة خلال عام واحـد ، واشترط الشاميون من جهتهم أن يؤمن عبد الملك عودتهم الى افريقيا دفعة واحدة لا على دفعـات متفـرقـة ، لكيـلا يفتـك بهم الـبر بـر . فقبـل الجـانبان الشروط ، وقدم الشاميون عشرة من زعمائهم رهائن لعبد الملك ضماناً للوفاء بالشرط .

وفي عام ١٣٣هـ عبر الشاميون المضيق الى الأندلس وانضموا الى جيش عبد الملك ، الذي كان يقوده ابناه قطن وأمية . وسار الجيش العربي كله الى طليطلة حيث يتجمـع الـبر بـر ، وعلى ضفاف وادى السلط جرت معركة عنيفة قاتل فيها الشاميون قتـال المستميت فانهـزم الـبر بـر ، وقتـل منهم جمع كبـير . وأخـذ العـرب في مطاردتهم والقضـاء على تمردهم حتى أخمـدوا حركتهم تمامـاً ، وعـاد الجيش الى قرطبة ، وحينما مرت السنـة طالب عبـد الملك الشـاميـين بالعودة الى افريقيا ، تنفيذاً للشرط فطالبوه بتنفيـذ ما اتفق عليـه من نقلهم في السفن دفعـة واحـدة ، فأعلن لهم عبد الملك عجزه عن ذلك ، ثم حدث خلاف حاد بين الجانبين ، أدى الى ثورة الشاميين بعبد الملك ، وعزلهم إياه وتولية بلج بن بشر القشيري .

٣٦ ـ تمرد جند الشام وقتل عبد الملك:

ولما أطلق الشاميون سراح الرهائن الذين قدموهم الى عبد الملك من قلعة الجزيرة الخضراء وجدوا أن أحدهم قد مات من الجوع وسوء المعاملة، وأن الآخرين عانوا كثيراً من العنت والارهاق فطالبوا بلجاً بتسليمهم عبد الملك ليقتصوا منه، ولما حاول بلج ثنيهم عن ذلك هددوه بالعقاب أيضاً فاضطر الى دفعه اليهم، فأساؤوا معاملته وقتلوه، وهرب ابنا عبد الملك، قطن وأمية، الى شمالي اسبانيا وجمعا قوات كبيرة انضم إليها جميع الناقمين على الشاميين من عرب الحجاز والأندلسيين والبربر حتى قيل إن عدتهم بلغت مئة ألف رجل.

اتجهت القوة المناوئة للشاميين الى قرطبة فخرج إليهم بلج بجند الشام، وكانوا قد بلغوا حوالي ١٢٠٠٠ رجل بعد أن انضم اليهم الناجون من معركة الشمال الافريقي. ولم يمهل الشاميون أعداءهم فانقضوا عليهم وهم على مسافة مرحلتين من قرطبة، وجرى قتال عنيف انتصر فيه الشاميون، وتبعوا أعداءهم يقتلون ويأسرون، وأصيب بلج في المعركة فمات متأثراً من جراحه.

٣٧ ـ إمارة ثعلبة بن سلمة العاملي:

اختار جند الشام بعد بلج ثعلبة بن سلمة العاملي قائداً لهم، وعاد العرب والأندلسيون والبربر المنهزمون من وقعة قرطبة فتجمعوا في منطقة ماردة فخرج اليهم ثعلبة وقاتلهم قتالا عنيفاً ولكنهم كانوا أكثر منه عدداً فاضطر الى الانحياز الى مدينة ماردة، وأخذ يناجزهم القتال.

ولما حل عيد الأضحى قدر ثعلبة أن أعداءه سيتراخون في حراسة معسكرهم، فقرر أن يباغتهم، فلم يشعروا إلا والقوات الشامية تنقض عليهم من كل جانب فانهزموا لا يلوون على شيء، فسبى ثعلبة نساءهم وأطفالهم، وعاد الى قرطبة، يجر وراءه قرابة عشرة آلاف أسير. وكان ما قام به ثعلبة من سبي النساء والذرية عملا لم يسبق له مثيل في تاريخ الاسلام حتى ذلك الحين. ولما تعاظمت الفوضى في الأندلس، لجأ عربها الى حنظلة بن صفوان عامل الخليفة على افريقيا، يرجونه إرسال رجل من قبله يطيعه الجميع، ويضع حداً لتمرد جند الشام، فراسل حنظلة الخليفة

هشام بن عبد الملك فأرسل اليهم أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي وهو من عرب اليمن .

وكـان أول ما قام به أبـو الخطـار، هو أنـه قسَّم جند الشـام الى فئات بحسب مناطقهم في سوريا، ووزعهم على المناطق الأندلسية ، فأسكن جند دمشق في منطقة غرناطة ، فسميت المنطقة باسم دمشق ، وأنزل جند قنسرين (حلب) في منطقة جيان فسميت قنسـرين ، وأنـزل جند حمص في منطقة أشبيلية فأسميت حمص ، وأنزل جند فلسطين في منطقة شذونة ، أما جند مصر فأنزلهم في منطقة مرسية (تدمير) .

٣٨ ـ الخلافات بين اليمنية والمضرية :

كان العـــداء بين عرب اليمن وعـــرب الحجـــاز شديـداً لم يذهب به الاســلام وتعـاليمـه ، كما لم يذهب الاسـلام بالعصبيـة القبلية ، التي كانت تسيطر على العقلية العـربيـة في جاهليتهـا ، وانـدلعت نار الخـلاف فجأة بسبب حادث تافه وقع بين يمني ومضـري ، فلجأ اليمني الى أبي الخطـار فأنصفه ، واستاء المضري فلجأ الى الصميل ابن حاتم بن ذي الجوشن ، زعيم المضرية ، ولما ذهب الصميل الى أبى الخطار ليكلمه في أمـر المضـري أساء اليمنيون الى الصميل وضربوه فخرج مغضباً ، وذهب الى قومه يستصرخهم ويحرضهم على أبي الخطار واليمنية ، ونشبت الحرب بين الجانبين في قرية شقندة (سيكوندة) غربي قرطبة فانتصر اليمنية وانسحب الصميل الى مقره في مدينة سرقسطـة وأرسـل أبـو الخطـار جيشـاً يتعقب الصميل ويحاصره في سرقسطة ، ولما علم المضـريـون في نواحي الأنـدلس بما قام به أبو الخطار أخذوا يتجمعون لنجدة الصميل وسـاروا الى سرقسطـة فانسحب اليمنيـون ، ثم عمل الصميل على تأليف حلف بين المضرية وبين قبيلتي لخم وجذام ، لمواجهة أبي الخطار فتم له ماأراد ، وتحرك أبو الخطار ليضرب ثعلبة بن سلمة العاملي رئيس قبيلة لخم ـ وهو الذي قاد جند الشام بعد بلج ـ والتقى اللخميـون بأبي الخطـار عنـد نهر شريش فهـزمـوه ، وأسـروه وحملوه مقيداً الى قرطبـة . وإثـر ذلـك كثـر الجـدل والنزاع حول السلطة في الأندلس الى أن تم الاتفاق أخيـراً بين اليمنيـين والمضـريـين على أن تكـون الامـارة بالتناوب سنة لليمنيين وسنة للمضـريـين ، وتسلم يوسف ين عبـد الـرحمن الفهـري زعيم المضـرية الامارة ـ وكان يعاونه فيهاالصميل ـ ، ولما انتهت السنة تجمعت اليمنية لتسلم الامارة فباغتهم يوسف

والصميل وقتلا منهم مقتلة كبيرة فتفرقوا .

واستمرت هذه القلاقل والاضطرابات بين الجانبين الى أن جاء عبد الرحمن بن معاوية الأموي . وكانت هذه الفترة من أخطر الفترات التي مرت في تاريخ الأندلس وأحلكها ، كما كانت فترة تجدد فيها نشاط الاسبان اللاجئين الى الشمال ، وأخذوا يشنون الحرب على المسلمين وكوّنوا نواة دولة .

الفصل الرابع

حكم الأمويين في الأندلس

٣٩ ـ قيام الدولة الأموية في الأندلس:

حينما انهار حكم الأمويين في الشرق، ونكل بهم العباسيون أبشع تنكيل، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الى شمالي افريقيا، واختفى عند أخواله البربر من قبيلة (نفزة)، بعض الوقت، ثم فكر في الاتجاه الى الأندلس، لعله يجد فيها ما يرضي طموحه. وقد رأينا كيف كانت حالة الأندلس تغلي بالاضطرابات بين العرب والبربر من جهة، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى.

ولما كان جيش اليمنيين يحاصر الصميل في سرقسطة دخل دعاة عبد الرحمن الى الأندلس يبثون الدعوة له، ولما علموا بتحرك المضرية لنجدة الصميل، اندس عدد من هؤلاء الدعاة بين المضرية، ولما انسحب اليمنيون حاول الدعاة إقناع الصميل بالتعاون معهم لخدمة عبد الرحمن، فقبل في بادىء الأمر ثم نكل مخافة ضياع الأمر من يديه. وعندئذ قرر الدعاة الاتجاه الى اليمنية، فرحب اليمنيون بمقدم عبد الرحمن، لعلهم يستطيعون عن طريقه استعادة نفوذهم، فعبر المضيق، ونزل حصن (طرش)، وكان أكثر من فيه من الموالين للأمويين.

وأخذ عبد الرحمن يعمل على تتبع الحوادث، وجمع الأنصار، ولما علم أن يوسف والصميل قد خرجا الى الشمال لقمع بعض الفتن، تحرك هو نحو قرطبة، محاولا الاستيلاء عليها ولكن زوجة يوسف طيرت إليه خبراً فعاد مسرعاً.

وقف الجيشان يفصل بينهما نهر الوادي الكبير عند قرية (المصارة)، يوم ٩ ذي الحجة من عام ١٣٨هـ (٧٥٥م) وأخذ عبد الرحمن يعمل الحيلة، فراسل خصومه يقول لهم بأنهم في أيام عيد الأضحى، ولا يجوز فيها سفك الدماء، وأنه على استعداد لمفاوضتهم إذا مكّنوه من اجتياز النهر الى جهتهم، فقبل يوسف والصميل ذلك،

وأرسلا إليه المؤن والعلف. ولما اجتاز عبد الرحمن الى الجانب الآخر قال لخصومه إنه لا مجال للمفاوضة إلا إذا قبلوا به أميراً على الأندلس، باعتباره صاحب الحق الشرعي، فكانت الحرب.

وأبدى عبد الرحمن في المعركة جرأة وحسن تدبير بهر بهما زعماء جيشه، وقاتل جيش عبد الرحمن بين يديه قتالا شديداً، فانهزم يوسف والصميل، ودخل عبد الرحمن قرطبة، وتسلم مقاليد الأمور فيها في ذي الحجة من عام ١٣٨هـ (٧٥٥م). وكان ذلك بدءاً لحكم الأسرة الأموية في الأندلس الذي استمر حتى عام ١٠٣١م.

٤٠ ـ عبد الرحمن الداخل (١٣٨ ـ ١٧٣هـ، ٧٥٥ ـ ٧٨٩م):

حكم عبد الرحمن الأندلس قرابة ٣٥ سنة، قضى أكثرها في الحروب واخماد الثورات ورد المغيرين الى أن وطّد أركان الملك، وقضى على المؤامرات الداخلية والخارجية، وكان من أخطر ما واجهه عبد الرحمن إبان حكمه، هو محاولة أبي جعفر المنصور، القضاء على الحكم الأموي عن طريق عامله في افريقيا العلاء بن مغيث، فقد هيأ العلاء حملة على الأندلس في عام ١٤٦هـ (٧٦٣م)، واتصل ببعض الناقمين على الأمويين، فتحركوا في طليطلة بقيادة هشام بن عبد ربه الفهري، ودعوا لبني العباس ليشغلوا عبد الرحمن، بينما تكون حملة العلاء قد وصلت الجزيرة. ولكن عبد الرحمن تمكن من حصار الثائرين في طليطلة وإخضاعهم، وقبض على هشام وصلبه، ومزق شمل أصحابه، وما إن عاد الى قرطبة حتى علم بأن العلاء بن مغيث قد نزل في إقليم باجة مع ٧٠٠٠ رجل داعياً لبني العباس، وانضم إليه جمع من الناقمين على الأمويين والمؤيدين للعباسيين، فسار عبد الرحمن إليه ولكنه لم يستطع مهاجمته لما رآه من كثرة جموعه فانحاز الى حصن قرمونة (كرمونا) وتقدم العلاء فحاصر عبد الرحمن مدة شهرين، حتى كادت أقوات عبد الرحمن تنفد، فقرر هذا خوض معركة مصير، ودعا رجاله وحرضهم وحثهم على القتال والثبات، وطلب إليهم أن يقاتلوا قتال من لا يطمع في عودة. فحرقوا أجفان سيوفهم، وخرجوا وراءه وباغتوا المعسكر العباسي، فهزموا من فيه وقتلوا العلاء وكثيراً من رجاله، وأسروا الكثيرين منهم. وأمر عبد الرحمن بالعلاء فحنط جثمانه بالملح، وجمع آذان القتلى، وكتب عليها أسماء أصحابها، ولفها بالعلم العباسي، وأمر بها فحملت الى الحج، لتوضع هناك حينما يكون أبو

جعفر في الموسم. ونقلت اللفافة الى المنصور فاستاء كثيراً واضطرب، وأدرك أنه أمام خصم عنيد فقال: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا بحراً يقينا شره».

وجرت محاولة لا تقل خطراً على حكم الأمويين، عن محاولة ابن المغيث، إذ اتفق عدد من الأمراء المسلمين الناقمين، مع شارلمان ملك فرنسا، لتوقيت عمل مشترك، لضرب عبد الرحمن لكن المؤامرة أحبطت إذ استطاع عبد الرحمن القضاء على الأمراء المسلمين واحداً بعد واحد، قبل أن يصل شارلمان، ووصل شارلمان بعد القضاء على حلفائه، فامتنعت عليه سرقسطة، وخف عبد الرحمن بجيشه لرفع الحصار عنها، وفي ذلك الحين وردت أنباء مقلقة عن تحركات الساكسون في الشمال فانسحب شارلمان مخذولاً، بعد أن تكبد خسائر فادحة، وتحرك البشكنس، وهم أهل إقليم الباسك يهاجمون الجيش الفرنسي في ممرات الجبال الضيقة حتى أهلكوا أكثره، وعرض عبد الرحمن على شارلمان عقد صلح بينهما فتم ذلك، وهكذا ثبت عبد الرحمن دعائم حكم الأسرة الأموية، وقطع الخطبة للعباسيين، وأعلن استقلاله عنهم في السنة العاشرة لامارته، وتتابع الأمراء الأمويون في حكم الأندلس بعد عبد الرحمن حتى عام ١٠٣١م. وسنورد هنا بايجاز كبير لمحة عن تاريخ أمراء هذه الأسرة إتماماً للغاية.

٤١ ـ هشام بن عبد الرحمن (١٧٣ ـ ١٨٠هـ، ٧٨٩ ـ ٧٩٦م):

توفي عبد الرحمن دون أن يسمي ولياً لعهده، وكان ابناه سليمان وهشام غائبين عن قرطبة، حينما اشتد عليه المرض، فسلم خاتمه لابنه الثالث عبد الله (ويعرف بالبلنسي)، وكلفه تسليمه الى من يحضر من أخويه قبل الآخر، فلكل منهما في نظر أبيه ميزات مفضلة: الأول لسنه ومحبة أهل الشام له، والثاني لعلمه وفضله، ورجاحة عقله، فوصل هشام الى قرطبة قبل سليمان فسلمه اخوه الخاتم، وبايعه، وتمت له البيعة.

كان هشام تقياً ورعاً، سعدت الأندلس أيام حكمه واستقر الحكم في عهده. وقد تحرك عليه بعض أفراد الأسرة الأموية، يريدون منازعته الحكم، وفيهم أخوه الأكبر سليمان، فقضى على حركاتهم، وحارب الممالك النصرانية، التي وسعت رقعتها إبان الاضطرابات السابقة في المملكة الاسلامية.

وغـزا هشـام فرنسـا بجيش قوامـه مئـة ألف رجل، ليشغل الناس بالجهاد عن الفتن، فأسرع النــاس الى الانضـواء تحت لوائـه، فســار بهم، وحـارب في طريقـه الامارات الاسبانية، ثم دخل فرنسا (عام ١٧٧هـ، ٧٩٢)، وكان شارلمان مشغولاً في جهـات الـدانـوب، فقـام كونت طولوز بحشد قوات فرنسا، وجرت معركة عنيفة بين قرقشـونـة (أركاسون)، وبين أربونة، انتصر فيها المسلمون نصراً كبيراً وعادوا مكتفين بما حققوه من نصر وغنائم، وقد سر الفقهاء في عهد هشام، وزاد نفوذهم وعظُم شأنهم وكان أكثرهم حظوة عنده الفقيه يحيى بن يحيى الليثي، تلميذ الامام مالك.

٤٢ ـ الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ، ٧٩٦ ـ ٨٢١م):

وُلي الحكم بن هشـام الامـارة بعـد موت أبيـه، وكان شاباً محباً للترف واللهو، ولكنـه كان حازمـاً وشجـاعـاً مستنـير الفكـر واسع الأفق أراد إضعاف سلطَة الفقهاء ليـوازن بين سلطـة الـدولة وبين سلطتهم، فأخذ يتولى الأمر بنفسه، ويعهد بالأعمال الى رجال من ثقاته، لذلك نقم عليه الفقهاء، وتحدثوا عنه بالسوء في أوساط الشعب حتى كرهته العامة، واسمعته قارص الكلم في أثناء مروره في أحياء المدينة، وقيل إنهم رجموه بالحجارة في بعض المرات. وفي أحد الأيام تجمع عدد من الفقهاء ووجهاء البلد في دار محمد بن القاسم المرواني، وكانت غاية المجتمعين العمل على إسقاط الحكم، وتولية المرواني، فأعلموه بأنهم راضون عن جعله أميراً للأندلس فتردد في القبول، ولم يقطع في الأمر، وطلب أن يمهلوه ليلة للتفكير ولكنه خرج بعد انصرافهم الى الأمير الحكَم وأعلمـه بما جرى، وليتأكـد الحكم من صدق الـروايـة، أرسـل مع محمـد بن القـاسم أحـد خاصتـه، فوضعـه في غرفـة مجاورة، ولما عاد الجماعة إليه في اليوم التالي ليعطيهم جوابـه النهـائي قال لهم إن المـوضـوع خطـير وسألهم عن أسماء أصحـابهم ومؤيـديهم فسمـوهـم له فوافقهم ابن القـاسم على أن يكـون التنفيـذ في يوم الجمعـة التالي. ولكن الحكم قبض على المتآمرين قبل موعد التنفيذ بيوم، وصلبهم على باب القصر، وكانت عدتهم ٧٢ رجلاً، فزادت نقمة الشعب على الحكَم، وأدى ذلك إلى انفجار العامة يوم الربض.

٤٣ ـ يوم الربض:

ازدادت نقمـــة العـامـة على الحكَم بسبب اعـدامـه زعـماء المؤامـرة، ثم جاء

الحادث الذي أطلق الشرارة الأولى للفتنة في عام ١٩٨هـ (٣١ آب ٨١٣م)، على أثر خلاف بين جندي من حرس الحكم وبين أحد الصناع، فتطور الأمر الى الثورة، فقد كان الحكم يحيط نفسه بقوة من الجند غير العرب، لذلك سموا بالخرس لجهلهم اللغة العربية، وفي أحد الأيام اتجه أحد هؤلاء الجنود الى قين (صانع سيوف) في حي الربض في قرطبة ليصلح سيفه، ولكن القين لم يفهم منه ما يريد فوقع بينهما جدل أدى الى قتل الجندي القين، فثار الناس بالجندي وقتلوه، وتحركت العامة بتحريض الفقهاء الى قصر الأمير الحكم، وحصروه فيه، ولما وجد أن حرسه لا يكفي لدفع المهاجمين استدعى بعض قواته وأمرها بالتوجه الى حي الربض لاشعال النار فيه، ولما رأى العامة الذين يهاجمون القصر النار تشتعل في بيوتهم، أسرعوا إليها لانقاذ عائلاتهم ولكنهم ما إن وصلوا الى قنطرة قرطبة حتى أطبق عليهم الجنود من خلفهم ومن أمامهم، وقتلوا منهم مقتلة كبيرة.

وبعد ذلك أمر الحكم أهل الربض بالخروج من الأندلس، وترك الربض خلال ثلاثة أيام، تحت طائلة عقوبة الموت، وخرب الحكم الربض وعفى أثره، لذلك سمي في التاريخ بالحكم الربضي، وسار الأندلسيون النازحون الى مدينة فاس في مراكش، وسار آخرون في السفن الى الاسكندرية واستولوا عليها، ثم هاجمهم والي مصر من قبل المأمون وأخرجهم فاتجهوا الى جزيرة كريت، واستولوا عليها، وأقاموا لهم دولة فيها عرفت باسم الدولة الكلبية.

٤٤ ـ ثورة طليطلة على الحكم:

كانت طليطلة عاصمة القوط، وفيها نبلاء المملكة، وقد ترك الفتح الاسلامي الحرية تامة للنصارى في ممارسة دينهم وعاداتهم، ولغتهم، وجعل لهم شبه حكم ذاتي لحل مشاكلهم الخاصة، فهدؤوا حيناً من الزمن، ولكن لما بدأت التحركات في القرن التاسع ضد الأمراء الأمويين، في المناطق الأخرى مثل سرقسطة وماردة؛ تحركت طليطلة بتأثير شاعر يدعى غربيب أو (غارب) الطليطلي، فكان يحرك الأهلين، ويدفع بهم الى التمرد، وكانت قرطبة تنظر الى هذه الحركات في طليطلة نظرة خاصة، لما كانت عليه طليطلة من حصانة وكثافة سكان، وبقيت الأمور على هذا الشكل حيناً من الدهر الى ان توفي غربيب، فأراد الحكم القضاء على الفوضى في

المدنية، فولى على طليطلة رجلا من وشقة، وهي من مناطق طليطلة، وأرسل الحكم الى أهل طليطلة رسالة يقول فيها، إنه اختار لهم حاكماً منهم، وفوض إليه أمر المدينة، وأمر الحكم الوالي الجديد ببناء قصر كبير فيه حفرة واسعة، حتى إذا انتهى من بنائه أرسل الى الحكم يستنجد به لارسال جيش لدفع خطر غزو خارجي مهدد. ولما تم بناء القصر أرسل الوالي كتاب الاستنجاد الى الحكم، فأرسل الحكم ابنه على رأس جيش، مع اثنين من وزرائه، وأعطاهم كتاباً يسلمونه الى الوالي وفيه تعليماته الواجب عليه تنفيذها. وتقضي التعليمات السرية بأن يتظاهر الوالي بأنه يود إقامة حفلة على شرف الأمير قائد الجيش، ويدعو أهل طليطلة لحضورها وللتفرج على القصر الجديد، فحضر الكثيرون من أهل طليطلة، فكان الحرس يدخلونهم واحداً واحداً من باب يفضي الى حيث توجد حفرة، وقد قام عليها جلادون يضربون أعناق المارين أولاً بأول ويلقون بأجسادهم في الحفرة، ثم شعر الطليطليون بالمكيدة فهربوا، ولكن بعد أن قتل منهم ٥٣٠٠ شخص، وهدأت طليطلة بعد أن أخذ الحكم رهائن من أهلها اقامهم في قرطبة وكان ذلك في عام ٨٠٧م[1].

شغلت هذه الاضطرابات والفتن الأمير الحكم عن تحركات الاسبان في الشمال، فتوسعوا على حساب المناطق الاسلامية، ولكن الحكم بعد أن تفرغ من مشاكله الداخلية، شرع في محاربة أعدائه في الشمال فغزاهم أكثر من مرة وظفر بهم، وتوفي الحكم في عام ٢٠٦هـ (٨٢١م)، فخلفه ابنه عبد الرحمن.

ومن طريف ما يروى عن شجاعته ورباطة جأشه:

يروي مؤلف كتاب أخبار مجموعة قصة طريفة عن الحكم بن هشام تظهر شجاعته ورباطة جأشه رأينا ايرادها، ترفيهاً عن أنفس القراء الكرام:

حينما ثار أهل الربض بالحكم، وأحدقوا بقصره، وحصروه وجنده، حتى أشرفوا على اقتحام القصر، قاتل الحكم بنفسه، وقاد الجند في صراعهم مع المهاجمين، ولما تحرج وضع الجند وخاف من أن يُغلبوا وأن يصل اليه العامة، دعا وهو في غمرة المعركة، بالغالية والمسك فتطيَّب، فوقف الغلام الذي حمل إليه الغالية يتفرج

---

١ ـ عن كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص٦٨.

على ما يفعله سيده مشدوهاً، ولم يملك نفسه عن فضولها، فسأله عما يفعل في هذه اللحظة الحرجة جداً.

فزجره الحكم، وقال له: إن هذا هو يوم الفصل في حياته، وإن عليه أن يستعد للموت، أو للنصر، وإنه يريد إن قتل أن يتميز رأس الحكم عن رؤوس الآخرين الذين سيقضون معه نحبهم».

٤٥ ـ عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ، ٨٢١ ـ ٨٥٢م):

كان عبد الرحمن الثاني، عاقلا حازماً معتدلا في لينه وشدته، واسع الثقافة والأفق، محباً للعلم والعمران، وقد ورث ملكاً ممهداً فانصرف الى العمران والعلوم فارتقت الأندلس في عهده رقياً كبيراً، وأصبحت من دول العالم الكبرى المتقدمة، حتى عد تاريخ عبد الرحمن الأوسط تاريخاً للحضارة الأندلسية في مطلع عهدها وبدءاً لتكون الطابع الحضاري للأندلس العربية.

وقد وفد في عهد عبد الرحمن الأوسط، على الأندلس عدد من الشخصيات العلمية والأدبية والفنية من المشرق فوجدوا أن الميدان رحب أمامهم، وأحسن الأمير استقبالهم، ويسر لهم سبل العيش، وعرف مقامهم وفضلهم، فتوافد عليه أهل العلم والأدب من كل صوب، وكان من القادمين عليه المغني زرياب، والعالم الطبيعي العباس بن فرناس، وأخذ المترفون من الأندلسيين يقلدون المشارقة في حياتهم من مأكل وملبس، وخفف عبد الرحمن من القسوة التي عامل بها أبوه الفقهاء، فقرب يحيى بن يحيى الليثي، الذي حرك ثورة الربض، وجعله مشرفاً على القضاء في الأندلس، وتزايد نفوذه بعد ذلك كثيراً.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط بدأ يظهر نفوذ الجواري في القصور، ونفوذ الغلمان والمماليك الذين كانوا يسمون بالصقالبة، فقد حاولت طروب جارية الأمير عبد الرحمن، وهي فتاة جليقية، الاستفادة من تعلق الأمير بها لتلعب دوراً في الحياة السياسية، وفي جعل ولاية العهد لابنها عبد الله، فأخذت تعمل على كسب الأنصار من حولها، وتجمع المال لتشتري المؤيدين، ويقال إنها حاولت دس السم للأمير بمعاونة الغلام نصر كبير الصقالبة، ولكنها لم تفلح[1].

---

١ ـ عن كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص٩٦.

٤٦ ـ غارات النورمند :

غزا النورمنديون لأول مرة ساحل الأندلس، في عهد عبد الرحمن (عام ٢٠٩هـ ـ ٨٢٤م)، وكان أول نزولهم في منطقة لشبونة عند مصب نهر التاج، فتجمع المسلمون وردوهم فساروا الى مصب النهر الكبير ثم صعدوا في النهر ينهبون المدن والقرى الواقعة على ضفتيه، حتى بلغوا اشبيلية فنهبوها، وحاربهم المسلمون وتغلبوا عليهم بعد جهد، فانحدروا جنوباً، وعبروا مضيق جبل طارق، الى السواحل الأندلسية الشرقية فنهبوا وأسروا، ثم عادوا بعد أنْ أغاروا على سواحل فرنسا الجنوبية، فتصدى لهم المسلمون في العودة وهزموهم، وقام النورمنديون بعد ذلك بغارات أخرى على شاطىء الأندلس، فأيقظت غاراتهم فكرة انشاء أسطول بحري للأندلس، يدفع عنها غارات المغيرين.

٤٧ ـ الاضطرابات الداخلية :

حدث في عهد عبد الرحمن الثاني حادثان يلفتان النظر هما :
١ ـ تجدد الخلافات بين اليمنية والمضرية في منطقة مرسية، واستمرارها سبع سنوات الى أن قضى عليها الأمير.
٢ ـ تحرك المستعربين (الاسبان النصارى المقيمين بين المسلمين) في قرطبة بدافع من الحماسة الدينية.

فقد ساء بعض رجال الدين ما رأوه من ذوبان الاسبان في بحر الحضارة العربية، حتى ان الكثيرين منهم أهملوا لغتهم، وأقبلوا على اللغة العربية يتعلمونها، ويتقنون آدابها، ويحفظون أشعارها، وأصبح الكثيرون من هؤلاء المستعربين يتسمون بأسماء عربية، ويتشبهون بالعرب في حياتهم الخاصة، لذلك قدر هؤلاء المستاؤون أن أفضل طريقة لرد الاسبان الى لغتهم وقوميتهم، وإبعادهم عن العرب وحضارتهم، هي خلق هوة بين الشعبين، وإثارة موجة من الحماسة الدينية لدى الاسبان المستعربين، وإثارة عداء ديني، فقام نوع من هستريا الاستشهاد في سبيل الدين، مع أنهم لم يلاقوا من أحد من الحكام أو من أحد المسلمين، ما يزعجهم في حياتهم الخاصة ولا في معتقدهم. وأخذ رجال الدين المتحمسون يدفعون بالحكام الى قتلهم وذلك

بإقدامهم على شتم النبي محمد عليه السلام، فكانت الكنيسة تعتبر من يقتل من هؤلاء شهيداً، فيدفع ذلك غيره الى الاقتداء به، وتكرر الحادث أكثر من مرة، ولكن لم تكن له نتيجة كبيرة لأن الكثيرين من رجال الدين المسيحيين، وكبار المستعربين، شعروا بسخف هذه الحركة واستنكروها وأيدوا السلطة الحاكمة في موقفها منها.

٤٨ ـ محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨ ـ ٢٧٢هـ، ٨٥٢ ـ ٨٨٦م):

لم يعين عبد الرحمن الثاني ولياً لعهده فلما مات كتم الغلمان الصقالبة خبر موته، واجتمعوا للتشاور فيما بينهم فيمن يولونه. فارتأى بعضهم تولية ابنه عبد الله بن طروب، ولكن هذا الرأي استبعد، ثم رُئي أن أصلح واحد للامارة هو ابنه الأمير محمد فأقسم الجميع على ذلك، وأرسلوا الى محمد خبراً به، فخاف وظن الأمر مكيدة، ولكن الرسل طمأنوه وسلموه خاتم الامارة، وحملوه الى القصر، ودعوا الناس لبيعته فبايعوه.

٤٩ ـ تحرك طليطلة:

لما اعتلى الأمير محمد عرش قرطبة، بدأت الاضطرابات في طليطلة، وثار أهلها، وقبضوا على واليهم، ولم يقبلوا باطلاق سراحه ما لم تطلق قرطبة رهائن الطليطليين فيها، فأرسل الأمير أخاه الحكم بن عبد الرحمن عام ٢٣٩هـ (٨٥٣م)، لمهاجمة طليطلة وإخضاعها. فرمم قلعة رباح، واتخذها مقراً للقوة المحاصرة، لكنه لم يستطع كسر شوكة الطليطليين، وفي نفس السنة أرسل الأمير جيشاً الى الشمال، نصب له أهل طليطلة كميناً وهزموه. وفي المحرم من عام ٢٤٠هـ (حزيران ٨٥٤م)، سار الأمير محمد بنفسه الى طليطلة فاستنجد أهلها بملك جليقية الاسباني فأرسل اليهم أخاه على رأس جيش كبير، ولكن الأمير محمد تمكن من هزم الطليطليين والجيش الاسباني في معركة وادي السلط (جوادا ساليت)، وقتل منهم مقتلة عظيمة، حتى قيل إن عدد القتلى بلغ ثمانية آلاف.

ثم أقام الأمير محمد قوات كبيرة في قلعتي رباح وطلبيرة لمراقبة تحركات أهل

طليطلة وحصرهم، وكرر الأمير إرسال الجيوش الى طليطلة لاخضاعها حتى أرهقها الحصار والقتال واضطرت الى طلب الأمان في عام ٢٤٥هـ (نيسان ٨٥٩م)، فمنحها إياه وعفا عن الثائرين.

وفي أواخر أيام الأمير محمد بدأت سلطة الحكومة المركزية تضعف على حكام الأقاليم، ووجدت زعامات محلية مهدت السبيل فيها بعد لحكم ملوك الطوائف، وكان من أهم البيوتات المتزعمة، بنوحجاج، وهم عرب من قبيلة لخم، كان لهم نفوذ في أشبيلية، حتى إنهم شكلوا ما يشبه الدويلة لهم فيها، وبقوا على استقلالهم الى أن قضى عليه الخليفة الناصر.

وتحرك المولدون الأندلسيون، وبسطوا نفوذهم على ولاية الغرب، جنوبي غربي شبه الجزيرة وتسلموا السلطة في عدد من المدن والولايات، وحدثت ثورتان خطيرتان على وحدة المملكة وعلى سيادة الحكومة المركزية:

١ ـ الثورة الأولى قام بها عبد الرحمن بن مروان الجليقي، وهومن أهالي قرطبة، وقد أزعج هذا الثائر سلطة الامارة، وتحالف مع الاسبان، حتى اضطر الأمير الى أن يقطعه مدينة بطليوس (باداخوس)، يقيم فيها مع جماعته، على أن لا يدفع الجزية لقرطبة.

٢ ـ والثانية قام بها عمر بن حفصون، في جنوبي البلاد في منطقة ريا (مالقة)، واتخذ هذا الثائر مقره في حصن بوبشتر (بوباسترو)، المنيع وعظم أمره وهزم كثيراً من القوات الحكومية التي أرسلت لقتاله وبلغ من جرأته أنه عاش في أراضي قرطبة نفسها، واستمرت ثورته الى أن تمكن الخليفة الناصر من القضاء عليها.

٥٠ ـ المنذر بن محمد (٨٨٦ ـ ٨٨٨م):

كان المنذر شجاعاً باسلاً حصيفاً، وافر العزم والهمة، وقد عهد إليه أبوه بقيادة عدد من الجيوش التي كانت توجه لقتال المنشقين أولقتال الاسبان، فكان يظهر كثيراً من الفطنة والحزم والجرأة، وكان يوم توفي أبوه في منطقة مالقة يحاصر عمر بن حفصون، فلم يتعجل السير الى قرطبة، وإنما رتب أموره على مهل وسار الى قرطبة فتولى الأمر وقضى أكثر حكمه في ملاحقة الثائرين. واستطاع المنذر خلال عام واحد من حكمه أن يخضع أكثر المنشقين، ولو طالت به حياة لما بقي خارج عن سلطة

الخلافة في جميع الأندلس، ولكن المنية عاجلته وقيل انه مات مسموماً، وكان أكبر همه إخضاع عمر بن حفصون، الذي أعلن له الخضوع ثم غدر بقوات الأمير فأقسم المنذر على متابعة قتاله حتى القضاء عليه، وسار بجيش كبير الى معقل بن حفصون، ببشتر وشدد الحصار عليه حتى كاد يأخذه، لكنه مرض مرضاً شديداً، بعد ٤٣ يوماً من الحصار، فاستدعى أصحابه أخاه عبد الله لتولي قيادة الجيش وتدبير الأمور، ولكنه حينما وصل الى المعسكر كان المنذر قد مات.

٥١ ـ عبد الله بن محمد (٨٨٨ ـ ٩١٢م):

تولى عبد الله الامارة بعد وفاة أخيه المنذر، فخضع له ابن حفصون بعض الوقت ثم عاد ينقض ما تم الاتفاق عليه وعاث في المناطق المجاورة حتى وصل الى ضواحي قرطبة، وفي عهد عبد الله كثر عدد الخارجين على الدولة، وحدثت ثورة في أشبيلية، وظهر من السلطة المركزية عجز عن القضاء على هذه الثورات التي كادت ـ تعصف بالأندلس ووحدتها، وكان من نتيجة هذه الثورات أن ضعفت هيبة الدولة الخارجية، وتلاشت قوتها، ووجد الاسبان، الذين كانوا يتحينون الفرص في الشمال، ذلك مناسبة سعيدة للتوسع على حساب المسلمين.

٥٢ ـ عبد الرحمن الثالث (أو الناصر لدين الله) (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ، ٩١٣ ـ ٩٦١م):

لم يعهد الأمير عبد الله بولاية العهد لأحد من أبنائه وإنما اختار حفيده عبد الرحمن بن محمد، لما لاحظه فيه من كرم الخصال، وعلو الهمة، فقام عبد الرحمن بالعبء الثقيل خير قيام، ولمّ شعث الأندلس، وجدد وحدتها تحت تاج الخلافة، حتى بلغت في عهده أعظم ما وصلت إليه من قوة واتساع، وقيل إن عبد الله أوصى بالامارة لحفيده عبد الرحمن، لأنه كان أمر بقتل ابنه وولي عهده محمد ـ والد عبد الرحمن ـ لظنه أنه اشترك في مؤامرة عليه، فأراد أن يكفر عن خطئه. (١)

وقد حقق عهد عبد الرحمن للأندلس الأمور التالية:

---

١ ـ عن كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص١٢١.

١ ـ القضاء على جميع الثورات والانتفاضات وإعادة وحدة الأندلس.
٢ ـ استرجاع الكثير من الحصون مما كان الاسبان قد استولوا عليه في العهود السابقة، وإجبار أمراء الممالك الاسبانية على الاعتراف بعجزهم عن مقاومته، ودفع بعضهم الجزية له.
٣ ـ القضاء على الزعامات العربية السابقة وتحطيمها لأنها اعتبرت من أسباب الخلافات والاضطرابات.
٤ ـ مد سلطان الأندلس الى الشمال الإفريقي والاستيلاء على أجزاء من المغرب لمواجهة الخطر الفاطمي.
٥ ـ تحويل الامارة الى خلافة، وهو ما كان يحجم عنه أسلافه.

٥٣ ـ الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ، ٩٦١ ـ ٩٧٦م):

خلف الحكم أباه الناصر، وكان محباً للعلم والأدب، جمع مكتبة لم تجتمع قبله لغيره واستقدم كثيراً من كبار العلماء مثل أبي علي القالي، وتابع سياسة أبيه نحو الممالك الاسبانية في الشمال، وأخضع الأدارسة الذين طمعوا في الاستقلال في المغرب.

٥٤ ـ هشام الثاني (٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ، ٩٧٦ ـ ١٠٠٩م):

توفي الحكم تاركاً ابناً صغيراً دون العاشرة، هو هشام الثاني وكان قد عهد إليه أبوه بحضور عدد من كبار رجال الدولة والجيش وأخذ عليهم العهد والايمان بأن يوفوا له بما فيه، وفي بادىء الأمر كانت السلطة الفعلية بيد وزيره جعفر المصحفي، لكن محمد بن أبي عامر، تمكن بجهده ودأبه من اكتساب عطف صبح، والدة الخليفة هشام، فأزاح المصحفي، وانفرد بتدبير الأمور، وحجر على الخليفة حتى أصبح لا يراه أحد إلا برأيه وإذنه، وأظهر ابن أبي عامر ـ وتلقب بالمنصور ـ من الشجاعة والحكمة والدراية بأمور الدولة والحرب، ما بقي ذكره خالداً على كر العصور، وتابع الفتوحات في أراضي الامارات الاسبانية حتى بلغ أقصى الشمال، وهي أراض لم تطأها قبله قدم عربي، وأخضع جميع الامارات الاسبانية، وفرض الجزية عليها،

ووسـع حدود المملكـة في المغـرب، وضـرب بيـد من حديد على يد كل من سولت له نفسـه الانتفـاض داخـل البـلاد. واتخـذ جيشاً من الصقالبة والبربر دوخ به اعداءه، فكـان عهـده استمـراراً لعهـد الناصر، ولكن إذا كان المنصور قد جمع السلطة بيديه، وحقق للأنـدلس ما لم يحققـة الأمـراء السابقون، فإنه قد استنّ سنّة غير حميدة، وفتح الطـريق واسعـة أمام المغامرين الطامعين بالاستئثار بالحكم، وحرك الغيرة والحسد في نفـوس الـزعـامـات المحليـة. وسنجـد أن المثال الذي ضربه ابن أبي عامر، كان من أسباب تقسيم الأندلس الى دويلات وإمارات متخاصمة ومتشاحنة، أنهكت قواها في الخلافات والخصومات واستعان الكثير ون من أولئك المغامرين، بأعدائهم الاسبان، لقتـال اخـوانهم المسلمـين فأفاد الاسبان من تلك الخلافات والاقتتال، للاندفاع نحو الجنوب وطرد المسلمين من أرضهم شيئاً فشيئاً حتى كانت الكارثة.

٥٥ ـ الخلافة بعد هشام الثاني (١٠٠٩ ـ ١٠٣١م):

وبعـد موت المنصـور بن أبي عامر عام ١٠٠٢، وقعت أحداث أدت الى عزل الخليفــة هشـام بن الحكم المستنصـر عام (١٠٠٩م)، ومنـذ ذلـك الـوقت أصبحت الخـلافـة مسـرحـاً للتنـازع والاقتتـال بين أبناء الأسرة الأموية، يحركهم الطامعون في السلطـة من القـادة المغـامـرين، حتى بلغ عدد الخلفـاء ثمانية، في الفترة الواقعة بين ١٠٠٩ و ١٠٣١م وهو تاريخ سقوط الدولة الأموية في الأندلس، وهم:
محمد الثاني الملقب بالمهدي:

محمد الثاني الملقب بالمهدي:
(محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر) ١٠٠٩ ـ ١٠٠٩ (مرة أولى)
سليمان الملقب بالمستعين بالله:
(سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر) ١٠٠٩ ـ ١٠١٠ (مرة أولى)
محمد الثاني (المهدي): ١٠١٠ ـ ١٠١٠ (مرة ثانية)
هشام بن الحكم المستنصر: ١٠١٠ ـ ١٠١٣ (مرة ثانية)
سليمان المستعين بالله: ١٠١٣ ـ ١٠١٦ (مرة ثانية)
عبد الرحمن الرابع الملقب بالمستظهر:
(عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار) ١٠١٦ ـ ١٠٢٣

(محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر
والد الشاعرة ولادة) (ويعرف بالمستكفي) ١٠٢٣ - ١٠٢٣

يحيى بن علي الادريسي (الحسني):
(وهو من غير البيت الأموي) ١٠٢٥ - ١٠٢٦

هشام الثالث:
(وهو آخر خليفة أموي) ١٠٢٦ - ١٠٣١م

الفصل الخامس

سقوط الدولة الأموية وبدء الانهيار

٥٦ ـ بلغت الأندلس أيام الخليفتين الناصر والحكم المستنصر أوجها في القوة والازدهار والتقدم العلمي والصناعي والزراعي والعمراني، وفي اتساع رقعة الدولة، وفي زيادة عدد السكان، حتى أصبحت قوة عظيمة يحسب حسابها في ذلك العصر.

ولما تقدمت السن بالخليفة الحكم المستنصر، وشعر بالضعف يدب الى جسمه، أخذ يفكر في الطريقة التي يستطيع بها أن يضمن انتقال الملك الى ابنه الطفل هشام ليخلفه من بعده ولم يكن له انذاك من العمر أكثر من عشر سنين. وكان الحكم يدرك خطورة اختيار طفل للملك في دولة عظيمة مثل الأندلس، يحيط بها الأعداء من كل جانب، ففي المغرب كانت تقوم منافسة قوية بين دولة الاندلس ودولة الفاطميين، وكانت بينهما حروب كثيرة، وتوثب للانقضاض.

وفي الشمال كانت ممالك النصارى تقبع مستكرهة في جحورها، متحفزة للانقضاض على الأندلس حينما تلوح لها الفرصة المواتية.

وكان الحكم لا يجهل أن الملك الحقيقي سيكون بين أيدي بعض رجال خاصته باسم الخليفة الطفل. كان الحكم ينعى على خلفاء بني العباس عهدهم بالملك الى أبنائهم القاصرين، وتقديمهم أياهم على أهل الرأي والحزم والدراية من اخوتهم وأبناء عمومتهم، وكان يعتبر تسلط الجند والغلمان والمماليك على الخلافة في بغداد من نتائج سياسة الخلفاء في تفضيل ولاية الأبناء القاصرين العاجزين عن ادارة الدولة، وترجيحهم على من يصلح للحكم من أهل الرأي والحزم والدراية من الأخوة وأبناء العمومة.

ولكن الحكم قد يكون خضع في ذلك لرأي زوجته صبح أم ابنه الوحيد هشام، وتعامى عن النتائج الخطيرة التي يمكن أن يحدثها اختياره هذا، فأقدم عليه. وكان هذا الاختيار بدءاً لانهيار ذلك الملك العظيم. وتتالت الأحداث المحزنة بعد ذلك

سراعاً بصورة لم يكن يتوقعها أحد، ولايمكن أن يتوقعها أحد.
٥٧ ـ وبدأ الانشقاق في الحكم حينما توفي الحكم، وقبل أن يدفن كان في قصره ألف من الغلمان الصقالبة يشكلون حرس الخليفة الخاص، ويتزعمهم الغلامان الخصيان فائق وجؤذر، فكتم هذان الغلامان خبر وفاته، وفكرا في استبعاد الغلام هشام عن الخلافة، وتولية عمه المغيرة. وباشرا في العمل في سبيل انجاح مشروعهما فاستدعيا الوزير جعفر المصحفي، وأخبراه بموت الحكم، وبما فكرا فيه من استبعاد هشام الطفل، وصرف الأمر الى عمه المغيرة، مخافة أن يصبح الخليفة الطفل العوبة في أيدي المتسلطين من رجال الحاشية، وسببا في التنافس بينهم لايعرف أحد عواقبه ونتائجه.

فأظهر المصحفي أنه يوافقهما على خطتهما، وأنه سيبذل جهده في سبيل تحقيقها وانجاحها، ولكنه حينما خرج من عندهما بدأ فورا في العمل على احباط خطتهما، فجمع القادة، وكبار رجال الدولة وأخبرهم بموت الخليفة، وبما يبيته الخصيان الصقالبة من صرف الأمر إلى المغيرة، واستبعاد ابن الخليفة الراحل هشام، فرأى بعض المجتمعين أن يقتل المغيرة فوراً ودون إبطاء لافساد خطة الصقالبة، فتولى محمد بن أبي عامر القيام بهذه المهمة.

ولما علم فائق وجؤذر بما تم من قتل المغيرة، واجماع قادة الجيش ورجال الدولة على مقاومة خطتهما، اعلنا للحاجب جعفر المصحفي عن موافقتهما على ماتم من تدبير، واعتذرا اليه عما كانا اقترحاه من تنحية الطفل ولي العهد، لأنهما كانا يظنان أن صرف الأمر الى رجل راشد أفضل لمصلحة الدولة، ومصلحة الرعية.

وبويع لهشام المؤيد بالخلافة في ٣ صفر ٣٦٦هـ (أول تشرين الأول ٩٧٦م).
وقد يكون الغلامان الصقلبيان اقترحا استبعاد هشام خوفاً من أن تصبح الدولة تحت قبضة جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر، لما يعرفانه من أثر الأول على الخليفة الصغير وعلى محمد بن أبي عامر، ولما يعرفانه من أثر ابن أبي عامر على أم الخليفة صبح، إذ قد يؤدي ذلك إلى زوال نفوذ الصقالبة أو إضعافه. أما إذا نجحا في تولية المغيرة فإنه سيعترف لهما وللصقالبة بهذه اليد، وسيزداد نفوذهم في الدولة، وقد أشار المصحفي إلى ذلك وهو يعرض الأمر على رجال الدولة والجيش، إذ قال لهم إنه إذا ولي المغيرة واستبد الصقالبة بالأمر قضي عليهم وعلى دولتهم وعلى نفوذهم، وان المغيرة والصقالبة سينكلون بهم. فكل واحد من الفرقاء المتنافسين كان يتصرف وفقاً لما

تمليه عليه مصلحته الخاصة، وحسبما يقدر أنه الأكثر فائدة ومنفعة له ولزمرته، ولم يكن أحد يفكر في مصلحة الخلافة والدولة والإسلام. .

وكـان جعفـر المصحفي ومحمد بن أبي عامر يتصرفان ويعملان معاً ويداً واحدة لاحبـاط مشـاريـع خصـومهـا الـراميـة الى استبعـاد ولي العهـد الطفل عن منصب الخلافة، وتولية رجل آخر من بيت الخلافة، ولكن كلا من الرجلين المتنافسين القويين كان يشعـر في قرارة نفســه أن خصمه ومنافسه الحقيقي هو صاحبه وشريكه في الخطة، وأن الصـراع المـريـر سيكـون بينهـا نفسيهـا لينفـرد واحـد منهما بالسلطة دون شركة من أحد.

وكـان كل منهـما يدرك ان مفتـاح نجـاحـه يكمن في الفوز بثقة أم الخليفة صبح ورضائها وموافقتها على أن تكون معه على خصمه العنيد.

وكـان ابن أبي عامـر أكثـر دهاء، وأبعد نظراً، واكثر طموحاً، فكان يعمل منذ زمن بعيد على كسب ثقة صبح ونساء القصر، ومحبة تلميذه الطفل هشام.

وكـان إبن أبي عامـر يحاول التظـاهر بالولاء والاخلاص للمصحفي، ليصرف أنظاره عما يدبره هو من خطط للوثوب على الأمر، والاستبداد به من دون خصمه.

وأخـذ ابن أبي عامـر يتتبـع جذور المصحفي فيقطعها واحدا اثر واحد بصمت وحـذر، ولمـا علم أن المصحفي يريـد خطبـة ابنة غالب قائـد الحدود الشمالية ـ وكان غالب إذ ذاك أقـوى رجـل عسكـري في الأنـدلس كلهـا ـ سارع هو الى التقـرب من غالب، وخطب إليه ابنته لنفسه، وأرسل اليه كثيراً من التحف والهدايا، فقبل غالب أن يزوجـه ابنتـه، وفسخ خطبتها الى المصحفي، وبذلك أصبحت كفة ابن أبي عامر هي الأرجح في الصراع بين الرجلين.

وتمكن ابن أبي عامـر ـ في آخـر المطـاف ـ من أن يبعـد المصحفي عن الحكم، وقبض عليه وزجه في السجن، وقد حاسبه حساباً عسيراً حتى استصفى أمواله وأموال أسرته، ومات المصحفي في سجنه.

ثم رأى ابن أبي عامر أن يتخلص من صهره غالب، لينفرد بالسلطة وحده دون أن يشـاركـه أحـد فيها، ودون أن يكون لأحد فضل عليه أو دالّة بما سبق أن قدمه إليه من عون أو يد.

وبعد معركة عنيفة انهزم فيها ابن أبي عامر، توفي غالب وهو في المعركة، فعاد ابن أبي عامـر يكـر بجيشـه، فانهـزم أنصـار غالب، وكسب ابن أبي عامـر المعـركة، وأصبح سيد الموقف في الأندلس بدون منازع.

ورأى ابن أبي عامر أن يصرف نظر الشعب عن استبداده بالسلطة ، وأن يقضي على التململ الذي أخذ يبدو واضحاً في أوساط البيت الأموي ومن يواليهم ، وفي أوساط كثيرة من الشعب ، فرأى أن أفضل ما يساعده في القضاء علي ذلك كله هو أن يشغل الناس في الجهاد ضد الاسبان ، فأخذ يشن عليهم حرباً كل ستة أشهر (الصوائف والشواتي) في مطلع الصيف ، وقبل حلول الشتاء ، حتى أرهق الاسبان ارهاقاً كبيراً ، وانتزع منهم كثيراً مما كانوا استرجعوه من المسلمين خلال السنين الخوالي ، ووصل في جهاده مناطق لم يصلها قبله قائد عربي . وعكف على تقوية الجيش بمتطوعة من البربر من شمالي افريقيا ، وبمرتزقة من النصارى ، حتى غدا جيشه من أقوى جيوش العالم في ذلك العصر . فهدأ الناس ، وسكن أعداؤه خوفاً من صولته وبطشه .

ولكن اذا كان المنصور ـ وهذا هو اللقب الذي اتخذه ابن أبي عامر لنفسه ـ قد جمع السلطة بيديه الحديديتين ، وحقق للأندلس مالم يحققه الأمراء والخلفاء السالفون ، فانه قد استن سنة غير حميدة ، وفتح الطريق واسعة أمام المغامرين الطامعين في الاستئثار بالحكم ، وحرك الغيرة والحسد في نفوس الزعامات العربية التي عمل على تحطيمها لتثبيت حكمه ، وفي نفوس الزعامات المحلية ، وسنجد فيما بعد أن المثال الذي ضربه ابن أبي عامر ، كان من أسباب تقسيم الأندلس الى دويلات وامارات متخاصمة ومتشاحنة ، انهكت قواها في الصراعات والخصومات ، واستعان الكثيرون من الحكام المسلمين بأعدائهم الاسبان في قتال خصومهم المسلمين ، فأفاد الاسبان من تلك الخلافات والاقتتال ، للاندفاع بقوة نحو الجنوب ، والاستيلاء على المدن والحصون والقلاع ، بدون حرب في كثير من الأحيان ، سلمها إليهم الحكام المغامرون ثمناً لعونهم في قتال اعدائهم من المسلمين .

واستمر الاسبان في اندفاعهم نحو الجنوب حتى كانت الكارثة الكبرى فيما بعد .

الفصل السادس

سقوط الدولة العامرية والتنافس في السلطة

٥٨ ـ مات المنصور ابن أبي عامر في ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ (١١آب ١٠٠٢م) في مدينة سالم وهو عائد من غزوته الصيفية للأراضي الاسبانية في الشمال، بعد أن دام حكمه سبعة وعشرين عاماً.

وخلفه في منصبه ابنه عبد الملك، وكان شهماً حازماً كأبيه، فأتبع خطوات أبيه في تشديد قبضته على الخصوم والمنافسين والأعداء في الداخل، وفي شن الحرب المستمرة على النصارى في الشمال، حتى لم يترك لأحد من هؤلاء وهؤلاء فرصة للكيد له ولا للدولة.

ولم يطل حكم عبد الملك فقد وافته منيته قرب قرطبة في ١٦ صفر ٣٩٩هـ وهو يتجهز للخروج على رأس الجيش لمجاهدة الاسبان، وقيل ان أخاه الأصغر عبد الرحمن هو الذي دس له السم.

وتولى الحكم بعده أخوه الأصغر عبد الرحمن، وكانت أمه ابنة سانشو ملك الاسبان (ولذلك تسميه الرواية العربية «بسنجول») وهي كلمة محرفة عن اللفظة الاسبانية سانشويلو (أي سانشو الصغير).

وكان عبد الرحمن صغير السن، قليل الخبرة والدراية في شؤون الحكم، ولم تكن له همة أبيه وأخيه، ولا بعد نظرهما، ولا هيبتهما على الجند والمنافسين، فبدأ حكمه بأن حمل الخليفة الضعيف هشاماً المؤيّد على أن يجعله ولي عهده، فأصدر الخليفة بذلك منشوراً، وكان عمل عبد الرحمن هذا هو العامل الأكبر في القضاء على الدولة العامرية، اذ الب الناس جميعا عليه، واجتمع المروانيون جميعاً على عدائه ومقاومته، واستماتوا في ذلك لكيلا يخرج الأمر من بيتهم.

وأراد عبد الرحمن أن يشغل الناس بحديث الجهاد، فتجهز للغزو، وخرج في وقت شديد البرودة، كثير الأمطار، وكانت الأنهار في أوج فيضانها، فتحصن الاسبان

في حصونهم، فاضطر عبد الرحمن الى الارتداد الى طليطلة خائباً، لم يدخل حرباً، ولم يحقق نصراً، وقد انهكت الأنواء الجيش وبعثرته.

وفي طليطلة جاءته الأنباء بأن انقلاباً حدث في قرطبة، وأن الثوار استولوا على قصر آل عامر في مدينة الزاهرة، فأخذ الجند والمتطوعة ينفضون عنه. وحاول من كان معه من قادة المرتزقة ثنيه عن الاتجاه الى قرطبة لكيلا يقع في قبضة أعدائه، ونصحوه بأن يسير معهم الى بلادهم، وان يبقى لديهم يرقب الأحداث وتطورها، ريثما ينجلي الموقف فأبى ذلك، وسار الى قرطبة، وفي ظنه انه متى اقترب من قرطبة خاف المشاغبون، وتفرقوا فيرجع هو الى ما كان عليه من سلطة، ودخل قرطبة على رأس قوة صغيرة، فقبض عليه الثائرون وأعدموه فورا.

٥٩ ـ وكان على رأس حركة المقاومة ضد حكم بني عامر، محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر، وكان والده هشام قد اشترك في مؤامرة على المنصور ابن أبي عامر فأعدمه.

وقبض محمد بن هشام على الخليفة الضعيف هشام المؤيد، وسجنه في قصره، وأعلن نفسه خليفة مكانه، وتسمى بلقب المهدي، وجعل ولي عهده ابن عمه سليمان ابن هشام بن سليمان بن الناصر.

وبدلا من ان يمسك الخليفة الجديد الأمر بيد من حديد، ويسهر على تقويم ما فسد خلال فترة حكم بني عامر، وجمع الناس حول الخلافة، وحول حكم بني أمية، الذي كاد الناس ينسونه فان الخليفة الجديد أخذ في الفساد والافساد، وناصب البربر العداء، وأخذ في التحريض على قتلهم، لأنهم كانوا عدة الحكم والقوة في دولة بني عامر، وسجن ولي عهده سليمان بن هشام لنصحه إياه في الاعتدال والاستقامة، والسهر على حرمة الحكم ومصلحة الشعب.

وخاف هشام بن سليمان بن الناصر ـ والد ولي العهد المسجون ـ مغبة تصرفات المهدي على الحكم، وعلى مستقبل البيت الأموي، ومن أن يفلت زمام الأمور من بين أيدي الأمويين، فأخذ يسعى في خلع المهدي، وانضم إليه البربر والغلمان العامريون، ومن كانوا يتوجسون خيفةً من الحكم الجديد، وانطلقت الثورة، وأحاط الثائرون بقصر الخليفة، فقاتلهم جند الخلافة وانتصر عليهم، وأبادهم إبادة شبه تامة.

ثم أخذ يتتبع المناوئين له، وصبّ نقمته بصورة خاصة على البربر، فحرّض

العـامـة على قتلهم، وجعـل لرؤوسهم ثمنـاً يدفعـه لمن يقتلهم، فانطلقت العـامـة والدهماء يقتلونهم في كل مكان وجدوهم فيه. فانسحب البربر شمالاً إلى قلعة رباح، وصحبهم سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، فالتفوا حوله وبايعوه بالخلافة، وتلقّب بالمستعين، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم، ويستعدون للعمل لمقاومة المهدي.

٦٠ ـ الاستعانة بالإسبان والثمن الغالي:

وفكـر الـبربـر ومعهم المستعين بالاستعـانـة بالإسبـان في الشمال، فأخذوا في مفـاوضـة سانشـو غرسيـه قشتاله على إمدادهم بالجند، وتمَّ الاتفاق بينهم على ذلك على أن يتعهدوا بالتنازل له عن عدد كبير من القلاع والحصون والمدن مقابل عونه لهم.

وعلم الفتى واضح ـ قائد الحدود الشمالية ـ وهو من الغلمان العامريين، بما يدور من اتصـالات بين الـبربـر والنصارى، وما يجري من مفاوضات على العون النصراني للمسلمـين، وعلى تنـازل المسلمـين للنصـارى عن الحصـون والقـلاع، فاستاء من ذلـك، ونـادى في مدن الثغـور بأن تقـاوم مشاريع البربر، وأن تمتنع عن تقديم العون والمؤن إليهم، واتصـل بالمهـدي في قرطبـة يعلمـه بتأييـده وعزمه على مقاومة البربر، فأيده المهدي وأمده ببعض القوات.

وضـاقت الأمـور بالـبربر فلجؤوا الى حليفهم سانشو أمير قشتاله، فأمدهم بما طلبوه من مال ومؤن وقوات.

وسـار واضـح بقـواتـه لقتـال الـبربـر، فالتقى بهم قرب قلعة هنارس (أو قلعة السلام) في ذي الحجة ٣٩٩هـ فدارت الدائرة على واضح، وهزم جيشه، فاتجه الى قرطبة على رأس أربعمئة ممن نجوا من المعركة.

ولاحقهم المستعـين والـبربـر، ومعهم القـوات القشتـالية بقيادة أمـير قشتاله سانشو غرسيه حتى وصلوا ضواحي قرطبة في ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ، وخرج الفتى واضـح في قوات قرطبـة لقتـالهم، وبعـد معـارك عنيفة انهزم جيش قرطبة، فارتد الى المدينة، وتحصن فيها بعد أن قتل منه قرابة عشرة آلاف رجل.

ولاحق الـبربر المنهزمين، وحاصروا قرطبة وضيقوا الخناق عليها. وحمل الخوف الخليفـة المهـدي على اظهـار الخليفـة المخلوع هشـام المؤيد، وأعلن أنه نائبه ويعمل

باسمه، ودعا البربر وحلفاءهم المسلمين الى طاعته. فلم يقبل البربر بذلك، وتمسكوا بخليفتهم سليمان المستعين. ولما ضاقت الأمور بالمهدي وأهل قرطبة، هرب المهدي سراً الى طليطلة، ودخل زاوي بن زيري زعيم البربر قصر الخلافة، ودخل أثره المستعين في ١٥ ربيع الأول ٤٠٠هـ وبايعه الناس بالخلافة.

ودخل أمير قشتالة مسلّماً على المستعين ومهنئاً بالنصر، فاستقبل استقبالا حافلا، ووعده البربر بتسليمه الحصون والقلاع والمدن المتفق عليها، متى استقرت الأمور، فترك قوة صغيرة من جيشه في قرطبة وعاد الى بلاده.

وأخذ المهدي في طليطلة ينظم أموره ويجمع القوات، وانضم إليه الفتى واضح، وأعلنت مدن الثغور ولاءها له. فسار المستعين بقوات البربر وقرطبة الى طليطلة، ودعا أهلها الى طاعته، فأبوا عليه ذلك، فسار الى مدينة سالم فلم تفتح له أبوابها فارتد الى قرطبة.

٦١ ـ استنجاد الطرف الآخر بالإسبان والشروط المبهظة:

وسار الفتى واضح الى طرطوشة، وأخذ يتصل بأمير برشلونة الكونت ريموند باريل، وأمير أورقلة الكونت ارمنجو، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر في قرطبة، وكان من جملة الشروط الباهظة التي تم الاتفاق عليها:

- ان يقدم المسلمون لقواتهما الطعام والمؤن.
- ان يتقاضى كل من الأميرين مئة دينار في اليوم.
- ان يتناول كل جندي دينارين في اليوم.
- ان يستولي النصارى على ما يغنمونه من سلاح البربر وأموالهم.
- ان يستولوا على مدينة سالم وتكون لهم.

وسار النصارى فورا الى مدينة سالم فاحتلوها بعد أن أخلاها الفتى واضح من أهلها المسلمين.

وسار الأميران النصرانيان مع واضح الى طليطلة فانضم اليهم المهدي، وسارت قواتهم مجتمعة الى قرطبة. وخرج المستعين اليهم بقوات البربر وقوات قرطبة، والتقى الفريقان على مسافة حوالى العشرين كيلومترا شمالي قرطبة في منتصف شوال

سنة ٤٠٠ هـ، وقاتل البربر قتالا شديدا بقيادة زاوي بن زيري وقتلوا الكونت ارمنجو أمير أورقلة.

واخترقت قوة من الفرنج صفوف البربر، واقتربت من مكان المستعين في المؤخرة فظن أن الهزيمة قد وقعت ففر هاربا، فانكشفت مؤخرة البربر وارتدوا الى الزهراء فاخذوا أهلهم وأموالهم وساروا نحو الجنوب، وفر سليمان نحو الشرق ووصل الى شاطبة.

ودخل المهدي وواضح ومن معهما من الفرنج قرطبة، وجدد المهدي البيعة لنفسه، وعين واضحا لحجابته.

ولاحق المهدي البربر يريد القضاء عليهم نهائيا، ومعه جيش من الفرنج يبلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل، فأدركهم قرب الجزيرة الخضراء في ذي العقدة سنة ٤٠٠ هـ، ونشبت هناك معركة بالغة العنف قاتل فيها الجانبان قتالا شديدا، فدارت الدائرة على المهدي وحلفائه، وقتل من الفرنج وحدهم ثلاثة آلاف.

وارتد المهدي الى قرطبة منهزما، وعاد النصارى الى بلادهم، فلاحق البربر المهدي الى ناحية (رية)، ولما علم المستعين بالنصر أسرع الى معسكر البربر بمن معه من القوات، ووصل المهدي الى قرطبة وباشر في تحصينها، ولكن الفتى واضح ومن معه من الغلمان العامريين أخرجوا الخليفة هشاما المؤيد من محبسه، وقبضوا على المهدي وأتوا به بين يدي الخليفة وضربوا عنقه وكان ذلك في ذي الحجة من عام ٤٠٠ هـ. ودعوا البربر والمستعين الى طاعة الخليفة المؤيد فلم يقبلوا بذلك.

٦٢ - التسابق الى طلب العون من الإسبان:

وحاول البربر وسليمان المستعين أن يحصلوا على معونة سانشو غرسيه أمير قشتالة، وعرضوا عليه أن يسلموه جميع الحصون الأمامية التي كان الحكم والمنصور قد افتتحاها، مقابل عونه لهم على استعادة قرطبة ففضل سانشو أن يحصل على ما يريد من الخليفة الشرعي هشام المؤيد، وأرسل رسله الى قرطبة يطالبون الخليفة المؤيد بتسليمه جميع الحصون والقلاع التي سبق أن افتتحها الحكم والمنصور، ووصل رسله الى قرطبة بينما كانت قوات البربر تدخل الزهراء غربي قرطبة في ربيع الأول ٤٠١ هـ، فاضطر الخليفة الى الرضوخ الى مطالب سانشو مخافة أن يتفق عليه مع

الـبربـر والمستعـين، وتم عقـد مجلس من الفقهاء والقضاة وكتب محضر بذلك، وسلم الى سانشو أكثر من ٢٠٠ موقع وحصن وقلعة ومدينة.

وشدد البربر حصارهم على قرطبة حتى ضاق الأمر بالناس، وشعر واضح أن الأمـر ميئـوس منـه فأراد الهـرب الى الشـمال، وعلم القادة ووجوه الناس بعزمه فقتلوه ونهبوا دوره وأمواله.

وحـاول الخليفـة والقـرطبيـون التفـاهم مع الـبربـر فلم يقبلوا ذلـك، ثم قتل القـرطبيـون حبـاسـة بن ماكسن ـ ابن أخي قائـد البربر زيري بن زاوي ـ في احدى المعـارك، فهـاج البربر لمقتله وهاجموا المدينة هجوما عنيفا، وقاتل أهل قرطبة بشجاعة وعنف، ولكنهم هزموا ودخل البربر قرطبة.

وطلب القـاضي ابن زكـوان والفقهـاء الأمان من المستعين ومن البربر للناس، فمنحـوهم إيـاه لقـاء دفـع مبـالغ كبيرة من المال. ودخل البربر المدينة فقتلوا الشيوخ والأطفال وخربوا الدور واغتصبوا النساء.

وفي اليـوم التـالي دخـل المستعـين قرطبة فأحضر الخليفة هشاماً المؤيد بين يديه وعنّفه على ماكان منه، ويقال إنه حبسه ثم قتل بعد ذلك.

٦٣ ـ وتسلم البربر السلطة الفعلية في قرطبة، فأراد سليمان المستعين أن يبعدهم عن العـاصمـة بشكـل لايـوحشهم، ولايبـدو وكأنـه محاولـة للتخلص منهم، فأقطعهم مقاطعات الاندلس، وأعطى عليا والقاسم ابني حمود (وهما من نسل الامام الحسن بن علي) ولاية الثغور في المغرب، فولى عليا على سبته والقاسم على طنجه والجزيرة الخضراء.

وطمـع على بن حمود في الاستيـلاء على الخـلافـة، وأخـذ يبحث عن حلفـاء ومؤيدين له بين الناقمين على حكم البربر وسليمان المستعين، فوجد ضالته في الغلمان العـامـريـين، الـذين فر أكثـرهم الى شرقي الاندلس خوفا من بطش البربر، وأقاموا لأنفسهم امارات مستقلة يمتنعون فيها.

فأخـذ علي بن حمود في مكـاتبـة خيران كبـير الفتيان العامريين في المرية، وحثه على التعـاون لانقـاذ البـلاد من البـلاء الجـاثم على صدرهـا، ونشـر رسالة زعم أن الخليفة هشاما المؤيد أرسلها إليه يطلب فيها انقاذه من أسر البربر، ويوصي إليه فيها بالخـلافـة من بعـده. ولـما استـوثق عليٌ من ولاء الفتيـان العـامـريين في الجنوب، عبر من سبتة الى الجـزيـرة الخضراء في أواخر عام ٤٠٦ هـ وسار بقواته الى مالقة فسلمها إليه واليها

عامر بن فتوح، وسار خيران بقواته من المرية والتقى بعلي في المنكب، واتجهت القوات المتحالفة صوب قرطبة، وانضم اليها أثناء زحفها زاوي بن زيري وحبوس الصنهاجي في قوات بربر غرناطة.

وخرج سليمان المستعين لقتالهم، وجرت معركة شديدة انهزم فيها جند المستعين، وقتل كثير من رجاله، ووقع المستعين وأبوه وأخوه أسرى، ودخل علي بن حمود قصر قرطبة في ٢٨ المحرم ٤٠٧هـ (تموز ١٠١٦م) وبحث علي عن الخليفة هشام المؤيد فلم يجده، ولما علم انه قتل، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه. وبويع له بالخلافة، وتلقب بالناصر لدين الله.

وبمقتل سليمان المستعين انطوت آخر صفحة في حياة الدولة الأموية بعد أن حكمت ٢٦٨ سنة.

٦٤ ـ حاول علي بن حمود فرض هيبة الدولة على الجميع، والزم الزعماء البربر باحترام القانون، فانضبطت الأمور، واطمأنت النفوس بعض الشيء.

ولما لم يجد خيران العامري ـ الذي آزر عليا بن حمود ـ هشاما المؤيد حيا، خاف على نفسه من الخليفة الجديد، وسار بقواته الى شرقي الاندلس، الذي كان في أيدي اخوانه الفتيان العامريين. وأعلن انشقاقه عن علي بن حمود، وبايع بالخلافة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر، بعد أن استدعاه إليه من جيان، ولقبه بالمرتضى. وانضم إليه المنذر التجيبي قائد الثغر الأعلى ومعه عدد من المرتزقة النصارى، وانضم اليه عدد من مدن الشرق مثل بلنسية وشاطبة وطرطوشة.

وسار الخليفة المرتضى بمن اجتمع إليه من القوات لقتال البربر الموالين لعلي بن حمود في غرناطة، فلقيهم زاوي بن زيري أمير غرناطة، وقاتلهم قتالاً شديداً فمزق جموعهم، وسقط المرتضى قتيلا وهرب خيران والمنذر التجيبي بمن نجا من قواتها الى المرية، وعاد الفرنج نحو بلادهم في الشمال.

٦٥ ـ وبعد هذه المعركة تقسمت الاندلس الى امارات متصارعة متنافسة تتسابق الى الاستعانة بالاسبان في حربها مع اخوانها، وتدفع لهم ثمنا لعونهم مدنا وحصونا وقلاعا وأموالا، واستمر الحكام في خصوماتهم وتقاتلهم وبحثهم عن ارواء أحقادهم من اخوانهم وتسابقوا في طلب العون من النصارى، والمبالغة في بذل الثمن الغالي المبهظ للاسبان، للحصول على هذا العون الكاذب، حتى أصبحوا جميعا، ودون استثناء، تابعين للحكام الاسبان، يدينون لهم بالولاء، ويخضعون لهم خضوعا تاما، ويدفعون

إليهم الجزية، ولم يبذل الاسبان في سبيل تحقيق هذا التفوق على المسلمين كبير عناء، ولاتحملوا تضحيات تذكر، ومن الغريب أن يكون الحكام المسلمون ذوي أنفة وعزة ونخوة في حروبهم بعضهم مع بعض، لا يغتفرون زلة، ولا يعفون عن هفوة أوذنب ولو كان ذلك الذنب تافهاً حقيراً، مع أنهم كانوا في نفس الوقت كراماً متسامحين تجاه أعدائهم الاسبان يحتملون الأذى والمهانة بصدور رحبة لا يثورون لمهانة تلحق بهم ولا يتأثرون لذلة أصابتهم، ولايتململون من تجاوز على حرمات شعبهم وكراماته وأعراضه.

جهلا علي وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

لقد كان هؤلاء الطامعون في الحكم اعداء لأنفسهم ولأهلهم ولدينهم وقومهم، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأذلهم وأخزاهم، وفضلوا مصالحهم الخاصة على مصالح أمتهم ودينهم فعاقبهم الله بأن انتزع الملك من أيديهم، وسلط عليهم أعداءهم. وبددوا أموال الأمة في بناء القصور والتسابق الى اقتناء الجواري وفي الانفاق على الملاذ وتحصيل أطايب العيش فضعفوا أمام أعدائهم، فاستولى الأعداء على ما في أيديهم من مال وحكم، وأنزووا في زوايا النسيان من التاريخ.

الفصل السابع

قيام دول الطوائف وتعاظم الخطب على المسلمين

٦٦ - حينما انتهى عهد الدولة الأموية في الأندلس في عام ٤٠٧هـ (١٠١٦م) تقسم ما تبقى بيد المسلمين من أرض الأندلس الى دويلات وامارات، بلغت العشرين عداً، وعرفت في التاريخ باسم دول الطوائف، وهذه الدويلات أو الامارات هي :

١ - دولة بني جهور في قرطبة	من عام ٤٢٢هـ	الى عام ٤٦٣هـ
	١٠٣١م	١٠٧٠م
٢ - دولة بني عباد في اشبيلية	٤١٤هـ	٤٨٤هـ
	١٠٢٣م	١٠٩١م
٣ - دولة بني الأفطس في بطليوس	٤١٣هـ	٤٨٨هـ
	١٠٢٢م	١٠٩٤م
٤ - دولة بني يحيى في لبلة	٤١٤هـ	٤٤٥هـ
	١٠٢٣ م	١٠٥٣م
٥ - دولة بني مزين في باجة	٤٣٠هـ	٤٥٥هـ
	١٠٣٩م	١٠٦٣م
٦ - دولة بني البكري في ولبة	٤٠٣هـ	٤٤٣هـ
وجزيرة شلطيش	١٠١٢م	١٠٥١م
٧ - دولة بني هارون في شنتمرية الغرب	٤١٧هـ	٤٤٣هـ
	١٠٢٦م	١٠٥١م
٨ - دولة بني ذي النون في طليطلة	٤٢٧هـ	٤٧٨هـ
	١٠٣٦م	١٠٨٥م

٩ ـ دولة بني مناد في غرناطة	٤٥٩هـ ١٠١٣م	٤٨٣هـ ١٠٩٠م
١٠ ـ دولة بني برزال في قرمونة	٤٠٤هـ ١٠١٣م	٤٥٩هـ ١٠٦٧م
١١ ـ دولة بني دمر في مورور	٤٠٣هـ ١٠١٣م	٤٥٨هـ ١٠٦٦م
١٢ ـ دولة بني خزرون في اركش	٤٠٢هـ ١٠١١م	٤٦١هـ ١٠٦٨م
١٣ ـ دولة بني يفرن في روندة	٤٠٦هـ ١٠١٥م	٤٥٧هـ ١٠٦٥م
١٤ ـ مملكة المرية	٤٠٥هـ ١٠١٤م	٤٨٤هـ ١٠٩١م
١٥ ـ مملكة مرسية	٤٠٣هـ ١٠١٢م	٤٨٤هـ ١٠٩١م
١٦ ـ مملكة دانية والجزائر الشرقية	٤٠٠هـ ١٠٠٩م	٤٨٤هـ ١٠٩١ م
١٧ ـ مملكة بلنسية	٤٠٠هـ ١٠٠٩م	٤٨٧هـ ١٠٩٤م
حكمها السيد الكمبيادور والقشتاليون	٤٨٧هـ ١٠٩٤م	٤٩٥هـ ١١٠٢م
١٨ ـ بني رزين في شنتمرية الشرق	٤٠٣هـ ١٠١٢م	٤٩٧هـ ١١٠٤م
١٩ ـ امارة البوينت	٤٠٠هـ ١٠٠٩م	٤٩٥هـ ١١٠٢م
٢٠ ـ مملكة سرقسطة (بني هود)	٤٠٨هـ ١٠١٧م	الى مابعد ٥٠٣هـ بقليل مابعد ١١١٠م

٦٧ ـ ولن نسترسل في سرد تاريخ دول الطوائف، ولن نطيل الكلام فيما جرى

بين الحكام المسلمين من حروب وصراعات، ومؤامرات. . . استمرت قرابة نصف القرن، وأخرجت من أيدي المسلمين قرابة نصف مساحة أرض الأندلس بدون حروب تذكر مع العدو، وانما تنازل عنها الحاكمون ثمنا لعون كاذب لهم في صراعاتهم وحروبهم ومحاولاتهم الانتقام والتشفي من اخوانهم المسلمين في الامارات الأخرى، وسنكتفي بايراد نماذج من المواقف المخزية التي وقفها بعض هؤلاء الحكام، الذين كان من السهل اليسير عليهم الخضوع للاسبان، والتنازل لهم عن المدن والقلاع والحصون، ثمنا لصداقتهم لهم، بينما كان أحدهم يجتهد في حرب اخوانه المسلمين، ويشتد في تدميرهم وقتلهم، ويحاول انتزاع الأرض والمدن والحصون من أيديهم ليسلمها كلها أو بعضها الى الأعداء الاسبان، وهو يعلم أن الاسبان هم الأعداء الحقيقيون، وانهم لن يدخروا جهداً ولا وسيلة في تدمير الحكام المسلمين جميعاً، وانتزاع الأرض منهم، ودفعهم الى الوراء تمهيداً لاخراجهم من الجزيرة الايبرية كلها، وقد لمسوا ذلك كله لمس اليد، ولكنهم لم يتعظوا، ولم يقلعوا عن فسقهم وفجورهم، ولم يرتدعوا عن غيهم، واسترسلوا في ذلك الى أن عمهم البلاء جميعاً، وخضعوا جميعهم للاسبان، يدفعون الجزية لهم، ويستخذون أمامهم، ويستجيبون لأوامرهم، وينفذون مايطلبونه منهم وهم صاغرون أذلاء.

٦٨ - بين بني عباد في اشبيلية وبني باديس في غرناطة:

أقام بنو عباد حكماً لهم في أشبيلية، وانتهى هذا الحكم الى المعتمد بن عباد. وأقام باديس بن حبوس الصنهاجي حكماً له في غرناطة ومقاطعة (ريا). ولما توفي باديس خلفه في حكم غرناطة حفيده عبد الله بن بلقين، وخلفه في حكم مالقه حفيده الآخر تميم، ولم يمض وقت طويل على حكم عبد الله لغرناطة حتى سار المعتمد بن عباد في قواته واستولى على مدينة جيان، وكانت من أهم مدن مملكة غرناطة، (٤٦٦هـ - ١٠٧٤م). وألح ابن عباد على غرناطة يريد الاستيلاء عليها وعلى ما يتبعها من أرض وحصون ومدن. فاتجه عبد الله بن بلقين أمير غرناطة الى المأمون بن ذي النون أمير طليطلة - وكان صديقاً لالفونسو ملك قشتالة - ليسعى لدى الفونسو لعقد معاهدة تعاون وصداقة بين غرناطة وقشتالة، وتم له ما أراد، وقد خضع أمير غرناطة بموجب هذه المعاهدة لالفونسو، وتعهد له بأن يكون تابعه، وبأن يدفع له

الجزية سنوياً بالدنانير الذهبية، ولقاء ذلك تعهد الفونسو بحماية امارة غرناطة من أطماع المعتمد بن عباد، وبأن يمد عبد الله بالجند والقوات عند الحاجة.

وفي عام (٤٦٧هـ ١٠٧٥ ميلادية) أغار المأمون بن ذي النون أمير طليطلة على قرطبة، واستولى عليها وأخرجها من حكم بني عباد.

وحينما نزلت هذه الكارثة بالمعتمد بن عباد أسرع أمير غرناطة ينتهز الفرصة، واستمد حليفه الفونسو ملك قشتالة، ووعده بأن يحصل على جزء مما يتحقق له من المغانم من الأرض والمال والسلاح والغنائم الأخرى التي يمكن أن يحصلوا عليها من بني عباد، فأمده الفونسو بقطعة من جنده ضمها الى جيشه، وسار أمير غرناطة بهذه القوة المختلطة الى مدينة قبرة التابعة لبني عباد واستولى عليها وضمها الى ملكه.

ولما رأى ابن عباد تسابق خصومه الى اعلان الخضوع والطاعة والولاء لملك قشتالة، والتباري في دفع الجزية اليه، فكر هو في أن يحذو حذوهم، وأن يطلب من الفونسو عقد محالفة معه، وأرسل وزيره ابن عمار الى قشتالة ليعقد مثل هذه المعاهدة، فوفق في مسعاه، واتفق الفريقان على أن يطلق الفونسو يد ابن عباد في احتلال غرناطة على أن تكون المدينة للمعتمد، وأن يكون ما في القلعة الحمراء من أموال وذخائر ونفائس وسلاح وأموال ملكا لالفونسو. وفوق ذلك تعهد ابن عباد بأن يزيد مقدار الجزية السنوية التي كان يدفعها أبوه المعتضد لملوك قشتالة منذ عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م)، وأن يجعلها خمسين ألف دينار ذهب كل عام.

وبعد توقيع هذه المعاهدة أخذ الاسبان في الاغارة على بسائط غرناطة ومرجها، وعاثوا فيها خرابا وتدميرا. وقام ابن عباد ومعه حلفاؤه النصارى بالاغارة على غرناطة، ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها.

ورأى عبد الله بن بلقين من جهته أن يتجه بنفسه الى الفونسو لمفاوضته واسترضائه، وعقد حلف حماية معه، وقد أسفرت هذه المفاوضات عن تعهد عبد الله بأن يؤدي الى الفونسو جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يسلم اليه بعض الحصون الواقعة جنوبي غربي جيان فتسلمها الفونسو، ولكنه فكر في انه يستحيل عليه الاحتفاظ بها، فباعها الى المعتمد بن عباد.

٦٩ ـ بين بني هود في سرقسطة وبني ذي النون في طليطلة

حينما ترسخ حكم سليمان بن هود في سرقسطة أخذ يتطلع الى توسيع رقعة

ملكه على حساب أراضي جاره المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، فأغار على مدينة وادي الحجارة واحتلها بعد معارك عنيفة هزم فيها المأمون بن ذي النون هزيمة منكرة (عام ٤٣٦هـ ١٠٤٤م).

ولم يجد ابن ذي النون، وسيلة للانتقام من عدوه ابن هود أكرم وأشرف من أن يلجأ الى فرناندو ملك قشتالة، فاستغاث به، واعترف بطاعته، وخضع له وتعهد بدفع الجزية اليه، فأمده فرناندو بقوة من جنده تقوى بها ابن ذي النون، وأخذ في الاغارة على أراضي أعدائه بني هود في سرقسطة، فأفسد وخرب.

فأسرع ابن هود بدوره يعقد الحلف مع ملك قشتالة، وبذل له أموالا كثيرة وتحفا ونفائس وتعهد له بدفع الجزية. فأرسل فرناندو قوة من جنده تعيث في أراضي طليطلة حتى خربها. وهو يرمي من وراء عونه المزدوج للفريقين المسلمين المتنافسين، ان يحملهما على التسابق في البذل والعطاء، والتنازل عن المدن والحصون والقلاع، كسبا لوده، واستقواء به على الخصوم المسلمين، فيفتقر الجانبان وتضعف قواهما، وتسوء سمعتهما، ومكانتهما لدى شعوبهما، فيسهل عليه الفتك بهما، واخضاعهما لامره، وانتزاع مايريده منهما بسهولة ويسر، وكان له فعلا ماأراد.

ولما رأى المأمون بن ذي النون ان فرناندو قد خانه، وأعان عدوه ابن هود، لجأ هو بدوره الى ملك نافارا، واستماله ببذل الأموال الجليلة له، فقام ملك نافارا بالاغارة على أراضي سرقسطة، وعاث فيها فسادا وتخريبا.

ولجأ ابن هود الى فرناندو، وزاد له في البذل والعطاء، فأغار ملك قشتالة على أراضي طليطلة، وقتل وخرب وأفسد.

واستمرت الحال على ذلك زمنا طويلا، يغير هذا على اراضي طليطلة، فيرد الآخر بالاغارة على أراضي سرقسطة، حتى أرهقت الامارتان المسلمتان، وخربتا ونضبت مواردهما، وانتزعت منهما كثير من الحصون والقلاع والمدن، كانت من نصيب العدوين الاسبانيين اللذين يترقبان الساعة المناسبة التي ينقضان فيها على أعدائهما المسلمين للقضاء عليهم، وانتزاع ماتبقى بأيديهم من أراض.

٧٠ ـ الصراع بين أبناء سليمان بن هود

قسم سليمان بن هود ـ قبل وفاته ـ أعمال مملكته بين ابنائه الخمسة، وتسلم كل

واحـد من الأبنـاء المنطقـة التي عينها له أبوه. وكان ابنه أحمد صاحب سرقسطة (ولقب فيها بعد بالمقتدر) أكثر اخوته طمعاً بما في أيديهم من أرض، وقد استطاع ان يحتال على ثلاثة من اخوته فسجنهم وسمل أعينهم، وانتزع ما كان في أيديهم من أرض ومدن.

وناصبه أخوه الرابع (ويسمى يوسف) صاحب لاردة العداء، وقاوم أطماعه.

ولما رأى أهـل الامـارة القسـوة البـالغـة التي عامـل بها أحمد اخوته، نفروا منه وخرجت أكثر مدن الامارة عن طاعته، وأعلنت الطاعة والولاء لأخيه يوسف.

وأصـابت مجاعـة شديدة مدينة تطيلة في احدى السنين ـ وهي من القواعد التي أعلنت الـولاء ليـوسف ـ فاستغاث أهلها بيوسف، فجمع كميات كبيرة من الأقوات والمؤ ن ليرسلهـا اليهـا. ولكن كان لابـد له لايصـال هذه المؤ ن الى تطيلة من ان يمر بأراضي أخيـه أحمـد، أوبأراضي مملكة نافارا، ولكن أحمد ماكان ليسمح لأخيه العدو بأن يمد مدينة خرجت عن طاعته، واستفظعت جرمه نحو اخوته، فاضطر يوسف الى الاتصـال بملك نافـارا، وبذل له المال الوفير لكي يسمح له بمرور المؤ ن في اراضيه، فوافق ملك نافارا على ذلك.

وعلم أحمد بن هود أمير سرقسطة بما تم من اتفاق بين أخيه يوسف وبين ملك نافارا، فاتصل بغرسيه ملك نافارا سرا، وعرض عليه أن يبذل له ضعفي مابذله أخوه يوسف، وان يتخلى له عن القـافلة وحمـولتهـا كلهـا، ومـا يحمله حراسها من سلاح، ومـامعهم من خيـول، اذا هو مكنـه من القضاء على حراس القافلة ومنع وصولها الى مدينة تطيلة. فخضع غرسيه الى الاغراء، وخان عهده ليوسف، وعقد الاتفاق معه.

وبينـما كانت القافلة تسير آمنة مطمئنة في أرض مملكة نافارا ـ وكانت تتألف من عدة ألـوف من الجنـد وعـدد كبـير من الـدواب بأحمـالهـا، باغتتهـا قوات أحمـد أمـير سرقسطة، وفتكت بقوة الحماية، فقتل من قتل وأسر من أسر، واستولى النصارى على أسلاب الجند والمؤ ن والدواب وفقاً للاتفاق.

ويئس أهـل تطيلة من وصـول المؤ ن عن طريق أمـيرهم يوسف، فأعلنـوا خضوعهم للغادر أحمد بن هود.

٧١ ـ النورمان يرتكبون أفظع المآسي في أهل بربشتر والحكام يتفرجون

تقـع مدينـة بربشـتر بين مدينتي لاردة ووشقة في الشمال الشرقي من سرقسطة،

وكانت من أمنع قواعد المسلمين في الشمال. وفي عام ٤٥٦ هـ (١٠٦٤م) نزلت قوة كبيرة من الفرسان النورمان والفرنسيين على بربشتر، وكانت تخضع ليوسف بن هود، وحاصروها، ولم يتمكن يوسف من انجادها لانه ليس له طريق أرضي يتصل بها بواسطته الا عن طريق الأراضي الواقعة تحت حكم أخيه الغادر أحمد، أو عن طريق أراضي مملكة نافارا، وقد خبر عدر ملكها وخسته من قبل.

ولم يتحرك أحمد بن هود لنجدة القلعة المسلمة، حقدا منه على أهلها الذين خلعوا طاعته وأعلنوا الولاء لأخيه يوسف، وجبنا منه ونذالة، فوقف يتفرج على الأحداث التي تمزق نياط القلوب القاسية.

وقاتل المسلمون قتالا مجيدا، ولكن النورمان تمكنوا من اقتحام المدينة في آخر الأمر، ولجأ المدافعون المسلمون الى القصبة يتابعون دفاعهم، وقتلوا أعدادا من المهاجمين، وكان في نيتهم أن لا يستسلم أحد منهم لاعدائهم، ولكن أحد الخونة دل النورمان على مجرى الماء الذي يصل الى القصبة فسدُّوه، وقطعوا الماء عنها، فاضطر المدافعون - تحت وطأة العطش الشديد - أن يعرضوا على النورماند تسليم المدينة، على أن يسمح لهم بالخروج منها هم وعائلاتهم بأرواحهم فقط دون مال. فوافق النورماند على ذلك، ولكنهم حينما استسلم المقاتلون، ونزعوا اسلحتهم، غدروا بالناس، وانقضوا على الأهلين العزل يقتلونهم بغير رحمة ولاشفقة، وسبوا النساء. ثم سمحوا لمن بقي حيا بالخروج من البلد

ولما خرج الناس من البلد في ظل الأمان المقطوع، أمر قائد النورماند رجاله بقتل من يقدرون على قتله مخافة أن ترتد الجموع عليهم، فقتلوا منهم حوالي ستة آلاف فحدث هرج ومرج، ومات خلق كثير من شدة الزحام.

ولما أصبحت الجموع خارج أسوار المدينة، طلب اليهم النورماند الرجوع الى دورهم بأهليهم وذراريهم.

ويصف ابن حيان - وهو من مؤرخي الاندلس - وقد عاصر هذه المأساة الإنسانية - ما جرى وصفا مؤثرا للغاية، ومما جاء في وصفه لها مايلي:

(ولما برز جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها بعد من خفف منهم بالقتل، وهلك في الزحمة ظلوا قياماً ذاهلين منتظرين نزول القضاء فيهم، نودي فيهم بأن يرجع كل ذي دار الى داره ووطنه بأهله، وازعجوا لذلك، فنالهم من الازدحام قريباً مما نالهم في الخروج عنها.

ولما استقروا بالدور مع عيالهم وذراريهم، اقتسمهم المشركون، فأمر سلطانهم، فكل من صارت في حصته دار حازها. وحاز مافيها من أهل وولد ومال، فيحكم كل علج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب مايبتليه الله به منهم، يأخذ كل ما أظهره إليه، ويقرره عليه فيما أخفى، ويعذبه أشد العذاب، وربما زهقت نفس المسلم من دون ذلك فاستراح، وربما أنذره أجله إلى أسوأ من مقامه بذلك. فإن عداة الله كانوا يومئذ يتولعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم، وعلى أعينهم إبلاغاً في نكايتهم، يغشون الثيب، ويفتضون البكر، وزوج تلك، وأبو هذه موثق بقيد أسره، ناظر إلى سخينة عينه، فعينه تدمع، ونفسه يتقطع، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك بنفسه، أعطى من حوله من غلمانه يعبثون فيهم عبثه، فبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لاتلحقه الصفة على الحقيقة والحول والقوة لله العظيم)[1] .

ثم تحدث ابن حيان عن عشرات ألوف السبايا اللاتي وقعن في قبضة هؤلاء الوحوش. ووصلت أنباء هذه الفظائع إلى قرطبة في أوائل رمضان من عام ٤٥٦هـ (وكان ابن حيان مقيماً فيها)، فتأثرت النفوس لذلك أشد التأثر، ولكن الحكام المسلمين جميعاً كانوا عاجزين عن فعل شيء، وقد يكون بينهم من كان يتشفى بأهل المدينة وما حلّ بهم . . .

وقد وجّه ابن حيان نقداً عنيفاً ولاذعاً ومؤثراً إلى الحكام المسلمين في الأندلس، وفي غير الأندلس، على تقاطعهم وتعاديهم، وتقاتلهم، واستشراء بعضهم على بعض مبددين بذلك قواهم، ومضعفين قوتهم، ومهيئين للعدو أسباب الهيمنة عليهم، وإخضاعهم جميعاً لأمره ونهيه، فهم أمام الأعداء يستخذون ولا يستحيون، وأمام إخوانهم قساة غلاظ لايتسامحون ولايتساهلون، ولاتؤثر فيهم نكبة، ولاتهز وجدانهم كارثة، ولاتوقظهم من غفلتهم حادثة مؤلمة، ولا ضياع أرض ولا عرض. همهم البقاء في الحكم، والتمتع بخيراته، وإنفاق الأموال ـ أموال بيت مال المسلمين ـ على الخمر والغواني، وشراء الإماء والمغنيات، وابتناء القصور وزخرفتها وإنفاق الكثير الكثير عليها، واستدرار مدح الشعراء، وسماع أقوال المتملقين المنافقين فيهم، وفي ظنهم أن ذلك يمكن أن يخلّدهم، ويبقي على ذكراهم حيّة على الدهر.

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ ـ نقله محمد عبد الله عنان في كتابه دول الطوائف ص٢٦٦ .

وبما قاله ابن حيان في التعليق على هذه الكارثة :

(لقد استوفينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، تؤذن بوشك القلعة ، طالما حذر اسلافنا لحاقها بمن احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والالفة فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه ، على شفا جرف يؤدي الى الهلكة لامحالة ، اذ قدر الله زماننا هذا بالاضافة الى ماعهدنا في القرن الذي سلخه من آخرأمور الجماعة على ادراك ما لحق الـذي قبله ، فمثـل دهـرنـا هذا ـ لاقـدس ـ بهيم الشبـه ، ما ان يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا في سبيـل الـرشـد باتقياء ، ولا على معالي الغي بأقوياء ، نشدمن الناس هامل يعللون انفسهم بالبـاطـل من أوائل الـدلائل على فرط جهلهم واغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعــة خالقهم ، ورفضهم وصيــة نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغـرهم حتى اطـل عدوهم الساعي لاطفاء نورهم ، يتبجح عراص دورهم ، ويستقرىء بسائط بقاعهم ، يقطـع كل يوم طرفـا ، ويبيـد أمـة ، ومن لدينـا وحـوالينـا من اهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بثهم ، ماان يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكر لهم أوداع ، فضلا عن نافر اليهم ، اوماش لهم ، حتى كانهم ليسوا منا ، أوكان فتقهم ليس بمفض الينـا ، قد بخلنـا عليهم بالـدعـاء بخلنـا بالقناء ، عجائب فاقت التقدير، وعرضت للتغيير ولله عاقبة الأمور واليه المصير) .

وقـد وقف أحمـد بن هود من هذه الأحـداث المفجعـة موقف المتفرج الشامت ، فالبلد خلع طاعتـه ودان بالـولاء لأخيه وخصمه وعدوه يوسف ، فما يعنيه هومن نصرة أهله المسلمين؟

ولم يفكـر أحـد من امـراء الطـوائف المسلمين الآخرين في انجاد حصن بربشتر لانهم كانوا جميعا يخضعون للاسبان ، ويدفعون لهم الجزى ، ولايسمح الاسبان لاحد منهم بأن يتدخل لانجاد مسلمين ورفع الغمة عن حصن مهدد بالسقوط في ايدي قوى نصرانية ، لانهم مع كل ما يؤدي الى دمار المسلمين في النهاية ، وضد كل من يقف في وجه القوى النصرانية من اي قطر كانوا .

٧٢ ـ الحرب بين ابني المقتدر بن هود واستعانة كل منهما بالنصارى :

بعـد ان مات المقتـدربن هود (أحمـد) ، تسلم الحكم مكـانـه في سرقسطـة ابنه

يوسف المؤتمن، وتسلم الحكم في لاردة ابنــه الآخــر المنـذر. وقـد قامت الحـرب بين الأخـوين العـدوين فاستعـان المؤتمن بصديق ابيه وحليفه (السيد الكمبيـادور) وكان هذا السيـد يقـود جيشـا من المرتزقة القشتاليين). واستعان المنذر بسـانشو رامير ز ملك اراجـون وبـرامـون برنجيـر امير برشلونة، ووقعت أول معركة بين الأخوين عند قلعة المنار قرب لاردة، انهزم فيها المنذر هزيمة منكرة، واسر رامون برنجير امير برشلونة.

ولم يطـل حكم المؤتمن فقـد توفي بعـد سنـين قليلة، فخلفه في الحكم ابنه أحمد المستعين. وأخذ أحمد يتطلع - بعد دخول المرابطين الى الجزيرة - الى الاستيلاء على بلنسية، ودفع (السيد) الى مهاجمتها، ظنا منه ان السيد انما يعمل لحسابه هو، ولكن السيـد خدعـه، واستولى على بلنسيـة لحسـابـه الخاص، وبقي السيد حيناً يحكمها بصورة مستقلة.

وحينما ثبت المرابطون أقدامهم في الجزيرة بعد موقعة الزلاقة، رأى المستعين ان يلجأ الى الفونسو ملك قشتالة يعلن له الخضوع، ويطلب منه الحماية ضد تهديد المرابطين.

وفي هذه الأثنـاء الـح ملك أراغـون على مدينة وشقة وحاصرها يريد أخذها، فأدرك المستعين انه لن يستطيع انقاذ المدينة عن طريق الاستعانة بملك قشتالة، ويبدو ان صحوة من ضمير هزته، فاتجه الى يوسف بن تاشفين يستنجد به، وهو يقدر مبلغ الخطـر الـذي يشكله المـرابطـون على حكمـه، ولكنـه أدرك أنـه إذا كان لابـد له من الاختيار بين المرابطين وبين النصارى، فان التسليم للمرابطين أكرم له ولأهله ولقومه ولدينه.

فأسرع يوسف بن تاشفين بأمر ولاته في الأندلس بانجاد المستعين، وأرسلوا إليه ألف فارس، وستـة آلاف راجل من المـرابطـين، وأمـد ملك قشتالة المستعين بقوة من الجند أيضاً.

وبعـد ان اشتـد الحصـار على وشقة، وطال حوالي ثلاثين شهراً، سار المستعين بمن تجمـع لديـه من قوات لرفـع الحصار عنها، فسار إليه ملك أراغون، وجرت بينهما معركة عنيفة انهزم فيها المستعين وجند المرابطين والقوة القشتالية، وسقطت وشقة في يد ملك أراغون فجعلها عاصمة ملكه (عام ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦م).

٧٣ - بين ابن ذي النون في بلنسية وبين ابن هود في لاردة :

بعد أن احتل الفونسو مدينة طليطلة، أخرج ملكها يحيى بن ذي النون (القادر) إلى بلنسية، ووعده بالعون على احتلالها، وهو يعلم أن ترسّخ قدم ابن ذي النون في بلنسية يعني خضوع المدينة له، وترسّخ قدمه هو فيها.

وسار القادر إلى بلنسية ومعه سرية من الجند القشتاليين تحت إمرة القائد (البارهانيس)، وخافت جموع أهل الرأي في المدينة من أن تقع بلنسية فريسة للاحتلال القشتالي، فقرروا تسليمها للقادر ابن ذي النون (شوال ٤٧٨هـ - ١٠٨٦م).

وحينما استغاث ابن عباد وأمراء الجزيرة بالمرابطين، وأخذت تتدفق سراياهم على الجزيرة، اضطر الفونسو أن يجمع قواته لمواجهة السيل المتدفق، فاستدعى قائده البارهانيس.

وأنعش نصر المسلمين في الزلاقة آمال أهل بلنسية في الخلاص من أيدي القشتاليين وعملائهم، وحدثت حوادث تمرد في الحصون والقلاع والمدن التابعة لبلنسية، واضطربت الأمور على ابن ذي النون، فتحرك المنذر بن هود ليستولي على بلنسية التي كانت أراضيها تفصل بين شطري مملكته في الجنوب والشمال، فسار في قواته، ومعه قوة من المرتزقة (القطلان) وضرب الحصار حولها (١٠٨٨م).

فاضطرب أمر القادر، ولم يجد وسيلة تخرجه مما هو فيه من الضيق سوى اللجوء إلى سيده ملك قشتالة الفونسو السادس، فاستغاث به كما استغاث بالمستعين بن هود ملك سرقسطة، وخصم عمه المنذر العنيد.

وكان المستعين يتطلع إلى الاستيلاء على بلنسية، فأسرع إليها ومعه السيد الذي كان يقود قوة من المرتزقة القشتاليين، وكان جيش المستعين يتألف من ٤٠٠ مقاتل، وجيش السيد يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل، وكان السيد يعمل في الظاهر لحساب ابن هود، ولكنه في الحقيقة كان يعمل على الاستيلاء على المدينة لحساب نفسه

ولما رأى المنذر بن هود قدوم ابن أخيه المستعين مع القوة النصرانية أدرك أنه لم يعد يستطيع الاستيلاء على بلنسية، فأخذ في مفاوضة القادر بن ذي النون لعقد معاهدة صداقة وتحالف بينهما ضد ابن أخيه المستعين.

ولما رأى القادر أن قوات ابن هود تبتعد عن بلنسية، أخذ يفكر في أنه لا ينجده عند الشدة إلّا القشتاليون، فأخذ يتصل بالسيد سراً، ويحثّه على عقد حلف بينهما

سراً دون علم ابن هود، وبعث إليه بطائفة من التحف والأموال الجليلة.

ولما وصل المستعين الى بلنسية ذكر للسيد انه يرغب في الاستيلاء على المدينة، وطلب إليه العون في قتالها، فماطل السيد في ذلك، وقال له ان ابن ذي النون داخل في حماية ملك قشتالة، وان بلنسية هي من أملاك الفونسو، أعطاها للقادر، فالعمل على احتلالها يعتبر اعتداء على حقوق الفونسو، ولذلك لابد من استئذانه قبل أية محاولة لمهاجمتها، لأن السيد لايستطيع أن يعمل ضد سيده ومليكه ملك قشتالة.

وسار السيد الى الفونسو لمفاوضته، والاتفاق معه، فحصل منه على تفويض بأن أي أرض أوحصن أومدينة ينتزعها السيد من المسلمين، تغدو ملكاً خالصاً له ولأولاده وأعقابه.

ولما رأى المستعين بن هود ما فعله السيد به، قطع علاقاته به، واتجه بانظاره الى برنجير كونت برشلونة، وعقد معه أواصر الود والصداقة.

وعاد السيد ومعه قوة قشتالية مؤلفة من سبعة آلاف مقاتل، فأعاد فرض الجزية على صاحب السهلة وشنتمرية الشرق، ابن رزين، ورفعها من ثمانية الاف دينار سنوياً الى عشرة، فاضطر ابن رزين لقبول هذا الغرم الثقيل.

ولما وصل السيد الى بلنسية، كان برنجير أمير برشلونة يحاصرها طمعاً في الاستيلاء عليها، فوقعت بين السيد وبين صاحب برشلونة معركة انهزم فيها الكونت برنجير وسقط عدد كبير من رجاله أسرى في أيدي السيد، وانسحب برنجير بقوته الى برشلونة.

وضرب السيد الحصار حول بلنسية، وأخذ يخضع ما حولها الى سيطرته، حتى خافه أهل المنطقة جميعاً، واضطروا لدفع الجزية له.

وفي ذلك الحين كان المرابطون قد استولوا على اكثر مناطق الأندلس واستولوا على حصن لبيط، وأصبحوا قريبين جداً من امارة المستعين بن هود، فخاف منهم على نفسه، فعاد يتصل بالسيد، وأسفرت الاتصالات بينهما عن عقد صلح وحلف بينهما، فسار السيد بقواته الى سرقسطة، وهناك عقد محالفة مع ملك أراغون وملك نافارا للتعاون مع ابن هود ملك سرقسطة على مقاومة خطر المرابطين، وابعاده عن شرقي الأندلس.

ولما اقترب المرابطون من بلنسية تحرك الناقمون على حكامهم الخاضعين للنصارى، وكان القاضي ابن جحاف المعافري أقوى الرجال المناوئين للسيد

والقشتاليين والقادر ابن ذي النون الخاضع لهم. فأخذ ابن جحاف يفاوض داود بن عائشة قائد المرابطين، ووعده بتسليم بلنسية اليه إذا ساعده على محاربة القادر والسيد، فبعث إليه سرية من جند المرابطين، ولما دخلت هذه السرية المدينة اندلعت نيران الثورة، وقادها ابن جحاف، فقبض على ابن الفرج مندوب السيد، وقبض على القادر وقتله في الحال، واستولى على ما كان في يده من مال وجواهر (رمضان ٤٨٥هـ - تشرين الأول ١٠٩٢م).

ولما علم السيد بهذه التطورات سار الى بلنسية، واخضع المناطق التي مر بها، وفرض عليها المغارم الثقيلة. ووصل بقواته الى بلنسية، ونزل في جباله، فاجتمع إليه أنصار القادر بن ذي النون (أواخر عام ١٠٩٢) وحاصر المدينة بعد أن أحرق ما حولها.

وحاول السيد التفاهم مع ابن جحاف وأهل بلنسية على اخراج المرابطين، ويعدهم بالمعاملة الطيبة، وبأن يجعل ابن جحاف ملكاً عليها.

ومال ابن جحاف وفريق من أصحاب المصالح البلنسيين الى التفاهم معه، وانتهت المفاوضات الى تقرير مايلي:

- يغادر المرابطون المدينة.
- يدفع ابن جحاف للسيد ثمن ما كان مخزوناً في مستودعاته وقت قتل القادر.
- أن تؤدى إليه الجزية التي سبق فرضها ومقدارها ألف دينار في الاسبوع.
- أن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد.
- أن يرتد الجيش القشتالي الى جبالة، ويبقى هناك مع السيد.

وهكذا عادت بلنسية تخضع للسيد مرة أخرى، وتدفع له الجزية، ولم يمانع المرابطون في عقد الصلح، فقد كانوا ملّوا تقلّب أهل بلنسية.

وماكاد المرابطون يغادرون المدينة، حتى نقض السيد العهد وأخذ يغير على ضواحي المدينة ويتلف ما حولها من زروع وثمار وأقوات، ويلح على ابن جحاف بالمطالب الثقيلة.

وكان فريق من أهل بلنسية - أمثال آل طاهر أصحاب مرسية السابقين - يتآمرون على ابن جحاف ويثيرون في وجهه الاضطرابات والقلاقل، ويتصلون سراً بالسيد.

وكان ابن جحاف كلما استجاب لطلب مرهق من مطالب السيد، جاءه بعده

طلب آخر أكثر ثقلاً وارهاقاً، حتى أنه بعد أن أحكم طرق الحصار حول المدينة، طلب إليه أن يسلمه جميع موارد المدينة، وأن يقدم ابنه رهينة على ولائه للسيد، فرفض ابن جحاف هذه المطالب، وأغلق أبواب المدينة، وكتب الى داود ابن عائشة قائد المرابطين يستغيث به، واستصرخ المستعين بن هود، وكتب الى الفونسو ملك قشتالة، فأرسل كل واحد من هؤلاء خطاباً الى ابن جحاف يعده بالعون.

وشدد السيد الحصار على المدينة بغية اجبار أهلها على الاستسلام، قبل أن يستجيب المرابطون للصريخ، ودام الحصار عشرين شهرا، هلكت فيها الأقوات، وانقطع الرجاء. وتحرك الحزب المناوىء لابن جحاف يعمل ليضطره الى المفاوضة والاستجابة لمطالب السيد.

ولما لم تصل نجدات اضطر ابن جحاف الى التسليم في (جمادى الأولى ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م) على الشروط التالية:

- يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها. ويؤمن في نفسه وأهله وماله.
- يؤمّن السكان في أنفسهم وأموالهم.
- يتولى ممثل السيد تحصيل الضرائب.
- تحتل المدينة حامية من النصارى المستعربين الذين يعيشون بين المسلمين.
- يبقى السيد مرابطاً بجيشه في جباله، ولايغير شيء من شرائع المدينة وأحكامها.
- يسلم ابن جحاف للسيد جميع أموال القادر بن ذي النون.

وحينما دخل السيد المدينة بجيشه لم يف بالعهود واحتل جيشه أكثر دور المدينة، وتسلموا الأبراج خلافاً للمعاهدة.

وسلمه ابن جحاف أموال القادر، وأخذ السيد يشدد عليه في السؤال ليعلم ان كان بقي عنده شيء منها، وطلب إليه الحلف أمام الأعيان من الملتين على ان يستبيح دمه ان ظهر أنه أخفى منها شيئا، فحلف ابن جحاف على انه لم يخف شيئا.

ثم وجد السيد مخبأ فيه حلي القادر وذخائره، فأمر السيد بالقبض على ابن جحاف وعذبه عذاباً شديداً، ثم أمر باعدامه حرقاً. وأراد السيد أن يحرق زوجة ابن جحاف وبناته، ولكن بعض قادته ثناه عن ذلك. وأخذ في احراق أصحاب ابن جحاف، وفي ازعاج أهل بلنسية واذلالهم والاساءة إليهم.

وكان من الظواهر المؤلمة يومئذ أن التف حول السيد رهط من الخونة الذين تستروا بالاسلام، ومعظمهم من السفلة والأشرار، انضووا تحت لوائه، وأخذوا

يعيشون في المدينة فساداً، ويعتدون على اخوانهم، يقتلون الرجال، ويسبون النساء والأطفال، وقد ارتد عن الإسلام جماعة منهم وكان يطلق على تلك العصابات يومئذ اسم (الدوائر).

٧٤ ـ صورة مما كان يتلهى به حكام الاندلس والخطوب تلح عليهم

حينما أخذت الأندلس في التمزق، قام في شنتمرية الشرق بيت من البربر دخل جدهم رزين مع طارق بن زياد وأعلن كبيرهم أبومحمد هذيل بن عبد الملك بن رزين، الاستقلال بما كان تحت يده من الأراضي، عن حكومة قرطبة. وكان هذيل ـ كما تصفه الروايات الأندلسية ـ جباراً جاهلاً فظاً، روي أنه قتل والدته بيديه. وقد اشتهر هذيل بحياته المترفة الناعمة، والاهتمام بالفنون، والشغف باقتناء أجمل الجواري والفتيات البارعات في الحسن والموسيقى والغناء، وقد اشترى جارية ابي الطيب الكناني بثلاثة آلاف دينار، وكانت وحيدة عصرها، وقد أحجم الملوك عن شرائها لغلاء ثمنها.

وكان مجلس انسه أشهر مجالس ملوك الأندلس وأمرائها، وقد اجتمع لديه مئة وخمسون جارية ومغنية، وكن مضرب الأمثال في الجمال والمعرفة بفنون الطرب والغناء.

وجمع المأمون بن ذي النون ثروات طائلة، وابتنى في عاصمة ملكه طليطلة قصوراً باذخة اشتهرت في ذلك العصر بروعتها وفخامتها، وكان منها مجلسه الشهير المسمى (المكرم)، وكان آية في الروعة والبهاء.

ويصف ابن حيان هذا المجلس فيقول:

(وأغرب ما فيه لحظي من بهي زخرفه إزاره الرائع الدائر بأُسِّهِ حيث دار، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبْيض المسنون، الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة، ونصاعة التلوين، قد خرمت في جثمانه صور البهائم، وأطيار وأشجار ذات ثمار، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما فيها من أفنان أشجار، وأشكال الثمر. وفوق هذا الكتاب الفاصل من هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الابريز، وقد أجريت فيها أشكال حيوان وأطيار، وصور أنعام وأشجار، يذهل الألباب، ويقيد الأبصار. وأرض هذه البحار من أوراق الذهب الابريز، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير، وأبدع تقدير).

وقال ابن بدران يصف القصر الذي بناه المأمون بن ذي النون :

«بنى المأمون صاحب طليطلة فيها قصراً تأنق في بنائه ، وأنفق مالاً كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وسيق الماء الى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل على القبة حواليها محيطاً بها ، متصلاً بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء» .

٧٥ ـ مواقف مخزية لملوك الطوائف في كارثة طليطلة :

حينما رأى ملك قشتالة اضطراب أمر المسلمين ، واختلاف آراء حكامهم وأمرائهم ، وتشتت أمرهم ، أخذ يلح على المناطق المجاورة له ، ينتزع من أمرائها الحصون والقلاع والمدن ، طوعا أو كرها ، وركز اهتمامه على مملكة طليطلة المجاورة له ، فقد كان أمراؤها خضعوا له منذ وقت ، وقبلوا بحمايته لهم ، ودفعوا له الجزية ، ولكنه كان يطمع في أكثر من ذلك ، فكان يساعدهم تارة ، ويكون مع أعدائهم عليهم تارة أخرى ، ليزيد في اضطراب أمرهم ، وضعفهم ونكالهم .

وقد وجه فرناندو رسالة معبرة الى أهل طليطلة ينبههم فيها الى سوء حالهم ، وفساد حكامهم ، وينذرهم بسوء العاقبة والمصير ، وذلك حينما أرهقهم بمطالبه واشتط فيها ، فرفضوها فوجه اليهم الرسالة التالية :

(اننا انما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول أمركم ، فقد سكنتموها ماقضي لكم ، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم ، فارحلوا الى عدوتكم ، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم ولن نرجع عنكم) .

وفي عام ١٠٦٢م (٤٥٤هـ) خرج فرناندو على رأس جيش قوي يعيث في أراضي مملكة طليطلة الشمالية ، فخربها ، فاضطر المأمون بن ذي النون الى الخضوع لمطالب الملك القشتالي ، وزيادة مبلغ الجزية التي كان يدفعها .

وبعد ان مات المأمون بن ذي النون خلفه في حكم طليطلة حفيده يحيى الملقب (بالقادر) ، وكان انسانا ضعيفا نشأ بين العبيد والجواري ، فغلب العبيد والموالي على أمره ، واضطربت الأمور في طليطلة حينما فتك القادر بوزير جده ابن الحديدي ، بإغراء من أعداء آل ذي النون وأعداء ابن الحديدي ، وهكذا سقط القادر في أيدي أعدائه

وأعداء بيته الذين كانوا يحيكون المؤامرات لاسقاطه. وفي هذه الأثناء تحرك ابن هود وسانشو راميرز ملك اراجون الى مدينة قونقه التابعة لمملكة طليطلة، وحاصراها، وكادت تسقط في ايديهم، لولا ان افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال، واضطر القادر مرة أخرى الى اعلان الخضوع والولاء لملك قشتالة، وطلب حمايته، والتماس عونه. وكان الفونسو يشتط في طلب الجزية منه، ويلح عليه في تسليم الحصون والقلاع والمدن ثمنا لهذه الحماية، فكان القادر يخضع مضطرا، فثار الشعب عليه واضطره الى الهرب من المدينة بأهله الى حصن وبذة.

ولما وجد أهل طليطلة أنفسهم بدون أمير عليهم، استدعوا ابن الأفطس. ولجأ ابن ذي النون مرة أخرى الى الفونسو يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون، وما كان للمأمون من فضل في غوثه وعونه، ويطلب منه العون في محنته. فاستجاب الفونسو لدعوته، وسار مع جنده الى طليطلة ومعه القادر فانسحب ابن الأفطس مسرعا الى بطليوس، وحاصر الفونسو والقادر طليطلة (١٠٨٠م):

وأخيرا دخل القادر طليطلة في حماية الجند النصارى، وحاول الشعب ردهم ومدافعتهم، فنكلوا به شر تنكيل، وجلس القادر على عرشه مرة أخرى في حماية أعدائه النصارى.

وبعد أن أصبح القادر في قبضة الفونسو ورهن اشارته، أخذ يفكر في احتلال طليطلة بصورة نهائية. ويقال ان القادر بن ذي النون تعهد لألفونسو بأن يحكم البلد باسمه، وأن يسلمها اليه متى شاء، على ان يعاونه على استرداد بلنسية لتكون مقرا لامارته.

وكان المعتمد بن عباد يطمع في ان يستولي على الأراضي الواقعة في أيدي اخوانه الحكام المسلمين، ولكنه كان يدرك انه لايستطيع أن يمضي قدما في تنفيذ خططه ومشاريعه الرامية الى تحقيق أطماعه الا اذا وثق أواصر الود والصداقة مع الفونسو ملك قشتالة، وقبل الملك القشتالي أن يغضّ الطرف عن تحركات ابن عباد. لذلك أرسل المعتمد وزيره أبا بكر بن عمار الى بلاط قشتالة، ففاوض ملكها وتم الاتفاق بين الجانبين على الأمور التالية:

- يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد بن عباد في حروبه مع أعدائه من الأمراء المسلمين بالجند والسلاح والمال
- يؤدي ابن عباد لالفونسو جزية سنوية كبيرة بلغت خمسين ألف دينار.

ـ يقوم المعتمد بغزو اراضي مملكة طليطلة الجنوبية، ويسلم لالفونسو منها الأراضي الواقعة شمالي: جبال سيرا مورينا (جبال الشارات).

ـ يطلق المعتمد بن عباد يد الفونسو في تحقيق مشاريعه ضد طليطلة.

وبعد توقيع هذه المعاهدة، تأكد الفونسو أن جميع ملوك الطوائف ـ باستثناء أمير بطليوس ابن الأفطس ـ قد خضعوا له خضوعا تاما، وتعهدوا صاغرين بدفع الجزية له، فلم يعد يخشى شيئا اذا ما تحرك لمهاجمة طليطلة، وانه أصبح واثقا بأن أحدا من الأمراء المسلمين لن يتحرك لمعونتها.

وحرك الفونسو في نفس الوقت الحزب المعارض لابن ذي النون داخل المدينة، يثير القلاقل والاضطرابات وكان كثير من هؤلاء الناقمين من النصارى وهم يؤيدون احتلال الفونسو للمدينة.

باشر الفونسو أعماله الحربية ضد طليطلة، وأخذ في الاغارة على ماحولها يخرب المزارع والقرى والأقوات ويتلف المحاصيل، حتى خربها، وأشاع فيها الفوضى والمجاعة.

وحينما عاد القادر بن ذي النون الى عرشه بمساعدة الفونسو عام ٤٧٤هـ (١٠٨١م) أخذ الفونسو يشدد من حملاته على طليطلة وماحولها، فيقطع الأشجار وينهب المحاصيل، ويتلف ما يمكن ان ينتفع به أهل المدينة ان حاصرها ذات يوم، كما كان يقتل الرجال الذين يقعون في يده ويسبي النساء والأطفال ولا يجد في كل ذلك من يقف في وجهه.

وقد شغل المعتمد بن عباد نفسه في ذلك الحين بمحاربة أمير غرناطة عبد الله ابن بلّقين، كما شغل عبد الله نفسه بمحاربة ابن عباد، وكل منهما يستعين بالفونسو، وبذلك كان كل منهما يبرر تقاعسه عن نجدة طليطلة بأنه منشغل بما هو أهم وهو محاربة أخيه في الدين والقومية، بينما يعيث ملك الاسبان خرابا ودمارا في عاصمة الاندلس الأولى طليطلة.

وشغل أمير سرقسطة ابن هود نفسه بمحاربة ملك آراغون وأمراء برشلونة، فتابع الفونسو أعماله التخريبية ضد طليطلة وهو مطمئن البال الى نجاح خطته تماما.

وأدرك عقلاء المسلمين أن الموقف في طليطلة خطير للغاية، وأن الأمر يقتضي التعاضد والتساند والتوقف عن النزاعات الداخلية القائمة بين الحكام المسلمين، وتكريس الجهد والطاقات لمواجهة العدو وانقاذ طليطلة من السقوط في ايدي الأعداء.

وأرسل المتوكل بن الأفطس القاضي أبا الوليد الباجي يطوف قواعد الاندلس وعواصمها صائحا ومنذرا ومحذرا من عواقب التفرق والخصام والاقتتال، ومؤكدا ان ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها واحدة بعد الأخرى، ولكن جميع هذه الصيحات والجهود ذهبت أدراج الرياح فلم يكن لها صدى يسمع.

وحينما ألح الفونسو على طليطلة لم يتحرك من الأمراء غير ابن الأفطس، الذي أرسل جيشا بقيادة ابنه لصد النصارى عن طليطلة، ولكن جيش ابن الأفطس لم يقو على الثبات طويلا في المعركة فانهزم عائدا الى بطليوس. وهكذا ترك المسلمون جميعا طليطلة لمصيرها المحتوم.

وفي خريف عام ١٠٨٤م اقترب الفونسو من المدينة، وضرب الحصار حولها، وطال الحصار، ودخل الشتاء، وقلت الأقوات في المدينة، والقادر بن ذي النون لايتصرف تصرف من يريد الجد في قتال الأعداء، وكان الحزب الواعي الداعي الى الصبر والمقاومة يتوقع من اطالة امد الحرب أن يخف أحد من المسلمين الى نجدتهم ولكن عبثا انتظروا.

واضطر الزعماء - في آخر الأمر - وبالاتفاق مع القادر بن ذي النون ان يرسلوا وفدا الى الفونسو للحديث في أمر الصلح، فأبى أن يستقبلهم، واستقبلهم وزيره سنندو، وكان هذا الرجل قد أسره المسلمون، وعاش في بلاط ابن عباد حينا من الدهر، وتعلم العربية ثم هرب الى قشتالة.

وحاول سنندو أن يدخل اليأس والقنوط الى قلوب أعضاء الوفد الاسلامي، ليدركوا أنه لافائدة من المقاومة، ولا من المفاوضة، وانه لابد من تسليم البلد.

وأدخل سنندو زعماء طليطلة الى خيمة الملك، فقالوا لألفونسو إنهم ينتظرون عونا من اخوانهم المسلمين، فزجرهم الملك، وسخر منهم، واستدعى من خيامه سفراء الملوك المسلمين الذين جاؤوه جميعا يخطبون وده، ويقدمون له الجزى المتوجبة على ملوكهم.

وحينما رأى الوفد المسلم هذا المنظر المؤلم خرجوا من خيمة الملك وقد فقدوا كل أمل في العون، وبعد مضي تسعة أشهر طلبت المدينة التسليم لملك قشتالة، وكان من شروط التسليم:

- يسلم القصر والأبواب والقناطر وحديقة القصر الملكي الى الفونسو.
- يكون القادر حرا في الذهاب الى مدينة بلنسية وفق رغبته.

ـ يسمح لمن شاء من المسلمين ان يتبعه، وأن يأخذوا معهم أموالهم.
ـ الـذين يريـدون البقـاء في المـدينـة لايتعـرض لاحـد منهم بشيء في أمـوالهم ولافي أملاكهم، ولافي حريتهم في العبادة.
ـ تبقى مسـاجـد المسلمـين في ايـديهم يقيمـون فيها صلواتهم، وتجرى على المسلمين أحكام شريعتهم على أيدي قضاة من المسلمين دون غيرهم.
ـ لاتفرض ضرائب على المسلمين الباقين أكثر من الضرائب التي كانوا يدفعونها الى ملوكهم.

ولكن ملك قشتـالـة غدر بالمسلمـين بعد أن دخل المدينة، وداس شروط العهد التي قطعها على نفسه، وحنث بالايمان التي أقسمها هو وكبار رجال دولته ودينه.

وتبـع سقـوط طليطلة سقـوط جميـع المنـاطق المحيطة بها والتابعة لها، وتتضمن ثمانين موضعا بها مسجد، عدا القرى والضياع.

وكـان لتلك النكبـة اسوأ الوقع في نفوس المسلمين في الجزيرة وخارجها، وأدرك المعتمـد بن عبـاد وملوك الطـوائف الآخرون عظم الخطأ الذي ارتكبوه بحق الاسلام والمسلمـين وبحق أنفسهم، بسكـوتهم عن تصـرفـات الفونسو، وتواطؤهم معه على اطـلاق يده في التصـرف لاحتـلال المـدينـة العظيمـة التي كانت ثغرا عظيما من ثغور المسلمين في الشمال الاندلسي، وأدركوا جميعا أن الدائرة ستدور عليهم قريبا، فاتجهوا جميعاً وهم متحـدو الكلمـة الى طلب العـون من أمـير المـرابطين يوسف بن تاشفين حينما تقدم الفونسو في العام التالي لحصار اشبيلية.

٧٦ ـ معركة الزلاقة عام ١٠٨٦م (٤٧٩هـ) وسقوط حكام الطوائف

بعـد أن استـولى الفـونسـو عام ١٠٨٥م على طليطلة عاصمة بني ذي النون، استخف بملوك الطوائف المسلمين جميعا، وبقواهم وجيوشهم، فأخذ يجوب الأراضي الاسـلاميـة فيـما يشبـه النـزه، والجميـع خائفون منه، يحجمون عن التعرض له وعن مقاومته. وبلغ من تعجرفه أن طلب من المعتمد بن عباد أن يسمح لزوجته بأن تضع مولـودهـا في مسجـد قرطبـة، حيث كان يوجـد مقـام لبعض القـديسين النصارى في المـاضي قبـل دخـول المسلمـين. ولما تلكأ ابن عباد في الاستجابة لطلبه هدده الفونسو بالحرب. ووقع في ذلك الحين أن أرسل الفونسو وفدا من قبله يرأسه رجل يهودي الى

ابن عبـاد ليتسلم منـه الجـزيـة، ولما قدمهـا ابن عبـاد تطـاول اليهـودي عليـه واتهمـه بأنـه يزيف العملة التي يقدمها جزية الى ملك اسبانيا، فضربه ابن عباد وقتله، فوجد الفونسو في ذلـك فرصته ليستولي على ما تحت يد ابن عباد من أرض وحصون، وليخضعه بصورة نهائيـة لسلطـانه، وحشد جيشا ضخما وتقدم الى اشبيلية وعسكر أمامها على الجانب الآخر للنهر الكبير.

فاستبد القلق بابن عباد، ولم يجد وسيلة يدفع بها خطر الأذفونش إلا اللجوء الى أمـير المـرابطـين في المغـرب. ولما قيل له إن المرابطين قد ينتزعون ملكه منه قال بأصالة المؤمن الشـريف «لأن أرعى الجـمال عنـد ابن تاشفـين، خير لي من أن أرعى الخنازير عنـد الأذفـونش[1]». وتقــدم يوسف بن تاشفـين الى الأنـدلس بقـوات ضخمـة، وانضمت إليـه جميـع القـوى المسلمـة في الجزيرة، والتقوا بألفونسو وجيشه بتاريخ ٢٣ تشـرين الأول ١٠٨٦م (٤٧٩هـ) في موقـع تعرفه الروايات العربية بالزلاقة، بالقرب من بطليـوس (بـاداخـوز)، وحاول ألفونسو خداع المسلمين، لأخذهـم على غرة لكنه فشـل بسبب يقظـة المسلمـين، ومعـرفـة الأندلسيين بغدره ومكره، ودارت على الأثر رحى معـركـة طاحنـة قتـل فيهـا أكثـر الاسبـان، ونجا الفونسو جريحاً مع خمسمائة من رجاله. وقد أوقف هذا النصر اندفاعة الاسبان المحمومة بعض الوقت.

وعـاد ابن تاشفـين الى المغرب، تاركاً بعض جيشه في الأندلس ولكنه أدرك أن أمـراء الطـوائف لن يقـووا على الصمـود في وجـه العـدو، ولا سيـما وأنهم عادوا يتآمر بعضهـم على بعض ويتصلون بالعدو، فقرر القضاء عليهم وتوحيد الأندلس والمغرب وانتهى من ذلك عام ١١٠٢م (٤٩٥هـ).

٧٧ ـ المرابطون:

يرجـع المـرابطـون في أصلهـم الى قبيلة لمتونـة، وهي بطن من بطون صنهاجة الكبيرة، وقد اشتق اسم لمتونة من ثوبهم البسيط (اللمت)، ويسمون أيضاً بالملثمين، وكـان اللمتـونيـون من البـدو الـرحل الذين يتنقلون في صحارى افريقيا، ثم نزلوا في أقصى غربي إفـريقيـا قرب المحيط الأطلسي، أما دينهم فكان الوثنية، ثم تحولوا الى

---

(١) المعجب في تلخيص اخبار المغرب ـ للمراكشي ص٨٢.

الاسـلام في أواسـط القرن الحادي عشر الميلادي بجهود رجلين، أحدهما من لمتونة هو يحيى بن ابـراهيم اللمتـوني، الذي طاف بالمشرق، واطلع على تعاليم الاسلام ودان به. والآخـر هو عبـدالله بن ياسـين الكـزولي. وقـد افتتن اللمتونيون بعبدالله وجعلوه زعيـماً لهم فتسمى بالامـام، واعتـبر أبـوزكريا يحيى بن عمرزعيم الملثمين نفسه تابعاً للامـام، وتلميـذاً له، فاختـاروه لقيـادة المجـاهـدين في سبيل الله. واتخذ اللمتونيون لأنفسهم اسم (المـرابطـين)، الـذين ينـذرون أنفسهم في الثغـور للدفـاع عن أرض الاسلام، والجهاد في سبيله.

ودفعت الحماسة الدينية هؤلاء الرجال الأشداء الى بسط نفوذهم على موريتانيا، وكـان أبـوزكـريا زعيم اللمتونيين، أشد الناس جرأة وشغفاً بالجهاد، فسقط ذات يوم قتيلا، فاختار الامام أخاه أبا بكر بن عمر مكانه، وكان الامام عبد الله مؤسس الدولة المـرابطيـة شديـد التقشف في مأكله وملبسـه، شديـد التعصب لرأيه ومذهبه، يفرض على أصحابه الورع والبساطة، والتمسك بأهداب الدين.

وفي عام ٤٥٢هـ (١٠٥٩م)، قتـل الامـام في إحـدى المعارك مع أهل (تاسنا) فاستقل أبوبكر قائد المجاهدين بالأمر دون مشاركة. ولما اتسع ملك المرابطين، وتزايد عددهم، رأى أبـوبكـر أن يبني له ولجـماعتـه حصنـاً يتخـذونـه قاعـدة، فاختار مدينة مراكش، وشـرع في بنـائهـا عام ٤٥٤هـ (١٠٦٢م)، وفي تلك الأثناء نشب قتال بين قبيلتي لمتـونـة وكدالة فأسرع أبوبكر الى الصحراء ليحول دون اقتتال القبيلتين، وترك ابن عمه يوسف بن تاشفين في مراكش، نائباً عنه، وكلفه بتولي أمر إتمام بنائها.

كان يوسف رجـلا مقـدامـاً واسـع الذكاء، بعيد النظر، طموحاً، ولكنه شديد البسـاطـة في حيـاتـه، فطمع بالزعامة، وألف لنفسه جيشاً كبيراً. ولما عاد أبوبكر بعد مدة طويلة قضـاهـا متنقـلا في الصحـراء خرج يوسف للقائه بجيش ضخم فارتاع أبو بكر، وقرر التنازل ليوسف عن الزعامة، وعاد هو الى الصحراء.

اتسع ملك يوسف حتى شمل جميع غربي إفريقيا، من تونس الى موريتانيا، ولمـا ساءت حالـة المسلمـين في الأنـدلس رأوا أن يستنجـدوا بيوسف كما رأينا، فخف لنجـدتهم، وانتصـر على الاسبـان، لكنه وجد أنهم لن يقووا على الصمود، وأنهم لم يتعظوا بما تم عليهم من الخذلان، بسبب تنافرهم، واقتتالهم فيما بينهم، واستعانتهم بالاسبان لمحاربة اخوانهم، فقرر القضاء عليهم، وتوحيد الأندلس تحت حكمه.

وفي المحرم من عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م)، توفي يوسف بن تاشفين بعد أن ولّى

عهده ابنه أبا الحسن عليّ بن يوسف، وكان علي وافر العزم، واسع الأفق، دخل الجزيرة غازياً أكثر من مرة، وانتصر على الاسبان أكثر من مرة، ولكن النفور بين المرابطين وبين الأمراء الأندلسيين الموجودين في الثغور الشمالية أدى الى استعانة هؤلاء بالاسبان على المرابطين، فأدى ذلك الى سقوط عدد من أمهات مدن الثغور، مثل سرقسطة، بيد الاسبان.

وخلف تاشفين بن علي أباه في الملك، وكانت سلطة المرابطين قد بدأت تضعف، واحتل النصارى كثيراً من المواقع الاسلامية، وتطاولوا على المسلمين حتى وصلت جيوشهم ضواحي قرطبة وأشبيلية تنهب وتقتل وتسبي، وفي نفس الوقت قامت في المغرب حركة الموحدين، وأخذت تقوى وتشتد حتى قضت على المرابطين في المغرب.

توفي تاشفين بن علي عام ٥٣٩هـ (١١٤٥م)، فخلفه ابنه ابراهيم، وفي عهده احتل الموحدون مراكش عاصمة المرابطين، ثم قضوا عل حكم المرابطين قضاء تاماً.

٧٨ ـ الموحدون:

خرج في عهد يوسف بن تاشفين رجل من قبيلة مصمودة اسمه عبد الله بن تومرت، الى الأندلس ومصر وبغداد، طلباً للعلم والتفقه في شؤون الدين، وقابل في بغداد الامام الغزالي، وأخذ عنه، وعاد الى وطنه عام ٥١٠هـ (١١١٦م). ولما عاد أخذ يهاجم الحكام المرابطين في خطبه، وينعى عليهم الترف والفجور، ويدعو الناس الى الزهد والتقشف. وطاف في بلاد المغرب يعظ الناس، ويدعوهم الى الخير، ومحاربة الفساد، فالتف الناس حوله، وكان من أنشط تلاميذه رجل يدعى عبد المؤمن، لازمه وأخذ عنه، ثم لاحقته السلطات المرابطية فهرب مع خواص تلامذته. وعاد فقوي أمره وبايعه الناس، وتلقب بالمهدي، وسمى جماعته بالموحدين، أي الداعين الى وحدانية الله.

وفي عام ٥١٦هـ (١١٢٢م)، حقق الموحدون أول نصر لهم على المرابطين، وتتالت انتصاراتهم عليهم، وجعل المهدي تلميذه عبد المؤمن قائداً لقوات الموحدين. وفي رمضان من عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م)، توفي المهدي فخلفه عبد المؤمن، وتابع جهوده حتى أزال دولة المرابطين من المغرب، واستولى على عاصمتهم مراكش عام

٥٤٠هـ (١١٤٥م)، وتابع ملاحقتهم حتى استولى على جميع ما كان بيدهم بما فيه لأندلس.

وكان لتدخل الموحدين في الأندلس مثل الأثر الذي كان لتدخل المرابطين فيها، إذ أوقف جهد هذه القوة الناشئة اندفاعة الاسبان، واخر سقوط الأندلس.

وفي عام ٥٩١هـ (١١٩٥م)، حقق الخليفة الموحدي المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، انتصاراً رائعاً على الاسبان في معركة الارك (أركوش[1])، - قرب بطليوس - لا يقل أهمية عن انتصار المرابطين في الزلاقة، لكن الموحدين منوا بهزيمة ساحقة عام ٦٠٩هـ (١٢١٢م)، في معركة العقاب (التل)، وتسميها الروايات الاسبانية (لاس نافاس دي تولوسا[2])، فقد استنجد الاسبان باخوانهم المسيحيين في أوروبا فجاءهم عدد كبير من المتطوعة الألمان والانكليز والفرنسيين، وتجمعت لهم قوات كبيرة من ممالك اسبانيا، فتوجه إليهم الخليفة الموحدي الناصر بن المنصور بالله، على رأس جيش كبير، قدرته الروايات بنصف مليون جندي، والتقى الفريقان عند مكان يعرف بالتل، ودارت الحرب، وثبت الموحدون وكادوايهزموز عدوهم، لكن بعض الخلل وقع في صفوفهم أدى الى انكسارهم في النهاية، وتفرق الجيش، ولم ينج الخليفة بنفسه إلا بشق الأنفس، وعاد فالتزم بيته في مراكش حتى مات غماً وحزناً.

٧٩ - تفسخ الدولة الاسلامية بعد معركة العقاب:

انهارت سلطة الموحدين في الأندلس وفي المغرب إثر انكسارهم المريع في معركة العقاب، وآل الملك بعد موت الناصر الى إبنه القاصر أبي يعقوب يوسف المستنصر بالله، وعمره ١١ سنة فقام بأمر الملك أعمامه ووزراؤه؛ وكان في الأندلس أربعة من هؤلاء الأعمام يحكمون مقاطعاتها، ولم يكن الاخوة متفقين فيما بينهم، ولم تكن سيرتهم في الشعب الذي يحكمونه حسنة، فنقم عليهم وسخط. وعلى الرغم مما كانت عليه الممالك الاسبانية إذ ذاك من تنازع فيما بينها، فإنها استطاعت ان تنتزع من المسلمين

---

١ - بالاسبانية (Alarcos).

٢ - وبالاسبانية (Las Navas de Tolosa).

كثيراً من المدن والقلاع ، حتى بلغ الأمر بمغامريهم أن وصلوا الى بسائط أشبيلية وقرمونة ، يخربون وينسفون ويأسرون .

وفي عام ١٢٢٤ ، مات الخليفة الطفل المستنصر غير مخلف عقباً فقام بأمر الملك في مراكش عم أبيه أبو مالك عبد الواحد .

٨٠ ـ خروج الأندلس من ملك الموحدين :

اشتد التنافس بين أفراد البيت الحاكم الموحدي ، وقامت بينهم حروب ومعارك ، فطمع الأندلسيون في الخلاص من حكمهم ، وثار في منطقة مرسية أبو عبد الله محمد بن يوسف ، سليل بني هود أمراء سرقسطة السابقين ، فاستولى على مرسية ، ونادى بنفسه أميراً على المنطقة باسم (المتوكل على الله) ، وحاول جمع الأندلسيين حوله ، وتأليبهم معه لقتال الموحدين ، ولبس السواد معلناً الطاعة لبني العباس ، فأسرعت المدن الأندلسية الكبرى الى الاعتراف بطاعته ، وأعلن الجهاد ضد الاسبان ، وسار في عام ١٢٣٠م ، لقتالهم على رأس جيش كبير ؛ ولكن ألفونسو ، ملك ليون هزمه ، واستولى على مدينتي ماردة وبطليوس .

وعمل ابن هود على إسقاط الخليفة الموحدي المأمون ، فخاف هذا ، وعقد معاهدة مع ملك قشتالة أمده الملك القشتالي على أثرها باثني عشر ألف رجل جعلهم المأمون حرساً له في مراكش ، فزاد ذلك في نقمة الشعب عليه في الأندلس وفي المغرب .

وبعد وفاة المأمون عام ١٢٣٢ ، استطاع ابن هود السيطرة على معظم مناطق الأندلس الباقية بيد المسلمين ، وأصبح بذلك أقوى أمراء المسلمين في الأندلس .

وكان في الأندلس بجانب ابن هود أميران آخران موحدان ، أحدهما في بلنسية ، والآخر في أشبيلية كما كان في جيان أمير غير موحدي ، هو محمد بن الأحمر النصري ، وكان هؤلاء الأمراء في نزاع مستمر على السلطة .

٨١ ـ سقوط بلنسية والقواعد الأندلسية الكبرى :

كان أمير بلنسية الموحدي هو أبا عبد الله محمد ، فلما تعاظم أمر ابن هود خاف

الأمير الموحدي على ملكه منه فلجأ الى ملك أراغون خايم الأول (جاقمة)، يطلب عونه، ويتعهد بأن يؤدي له الجزية، وأن يكون الأمير الموحدي تابعاً له، فاستاء أهل بلنسية من ذلك، والتفوا حول زعيم منهم يدعى أبا جميل زيان ابن أبي الحملات، سليل آل مردنيش، أمراء بلنسية السابقين، وطردوا الأمير الموحدي. فلجأ أبوعبد الله الى خايم يطلب حمايته، ويقال انه اعتنق النصرانية حسبما رواه ابن خلدون. وفي عام ١٢٣٧م، زحف خايم على بلنسية بجيش ضخم، فاستنجد ابن مردنيش بابن هود، ولكن هذا قتل غيلة في المرية بينما كان يعد جيشاً لنجدة بلنسية، فيئس زيان من العون، وحاول دفع خايم عنه، وعرض عليه أن يتنازل له عن جميع الحصون الواقعة بين طرطوشة وبين نهر الوادي الكبير، ولكن خايم رفض العرض وأصر على فتح بلنسية، وبعد حصار طويل أجهد المسلمين وأتعبهم، اضطر زيان الى المفاوضة لتسليم المدينة الى خايم، وتم الاتفاق على الشروط، ووقعت معاهدة التسليم في ٢٨ أيلول ١٢٣٨م (١٧ صفر ٦٣٦هـ)، وكان من شروط التسليم :

١ ـ تستسلم المدينة لملك أراغون، على أن يؤمن أهلها في أنفسهم وأموالهم.
٢ ـ يحق لجميع من يريدون الهجرة الى المناطق الاسلامية أن يخرجوا من المدينة بجميع أموالهم.
٣ ـ يكفل ملك أراغون للذين يريدون البقاء حريتهم التامة في مزاولة شعائرهم الدينية، والتكلم بلغتهم، والتقاضي لدى قضاتهم بحسب شريعتهم وعاداتهم، ولا يكلفون بدفع ضريبة أكثر مما يدفعه الرعايا الآخرون.
٤ ـ تستسلم لملك أراغون جميع الحصون والمواقع الواقعة على ضفة نهر شقر اليسرى.
٥ ـ وفي نظير ذلك، تقوم هدنة بين خايم وزيان مدتها ثمانية أعوام.

وإثر توقيع هذه المعاهدة دخل خايم مدينة بلنسية، وحول مسجدها الجامع الى كنيسة، وخرج من المدينة قرابة خمسين ألف مسلم.

لكن خايم لم يشأ الوفاء بالبند الرابع فقرر متابعة فتوحاته في الأراضي الخاضعة لزيان، ففتح جميع ما كان تابعاً لبلنسية من أرض.

٨٢ ـ سقوط المراكز الهامة :

اشتد التنافس بين الأمراء المسلمين بعد مقتل ابن هود، للفوز بما كان تحت يده

من أرض، وقد زاد ذلك في انقسامهم ومتاعبهم، وتحرك الاسبان يقطفون ثمرات هذه الخلافات بين المسلمين، فبدأت قواعد الأندلس الكبرى، ومواقعها الحصينة، تتساقط بيد الاسبان: فسقطت قرطبة عام ١٢٣٦، بعد أن مكثت بيد المسلمين ٥٢٥ سنة، فهجرها أكثر سكانها. ثم سقطت مرسية عام ١٢٤٣م. ثم أشبيلية عام ١٢٤٨م، ولم يبق بيد المسلمين بعد فترة قصيرة غير إمارة غرناطة في أقصى الجنوب.

.لفصل الثامن

دولة بني الأحمر في غرناطة

٨٣ ـ قيام دولة بني الأحمر:

يرجع نسب بني الأحمر، أوبني نصر، الى سلالة عربية نبيلة، استقرت في الجنوب من شبه الجزيرة. وقد ولد محمد بن الأحمر النصري ـ مؤسس الدولة ـ في مدينة ارجونه، وكان منصرفاً الى الزراعة والعناية باملاكه؛ وحينما ساد الاضطراب أرجاء الأندلس، في أواخر عهد الموحدين، اهتم بشؤون الحرب، واشترك في مجاهدة الاسبان. وأظهر من الجرأة والشجاعة، وسداد الرأي، ما لفت الأنظار اليه فاختاره أصحابه سيداً لارجونه وما جاورها. واستطاع أن يدعم سلطانه بسرعة، برغم هجمات ابن هود عليه. ولما قتل ابن هود، تمكن ابن الاحمر من بسط سلطانه على جزء من الأراضي الخاضعة لابن هود، واتخذ غرناطة قاعدة له.

وفي ذلك الحين كانت أعداد كبيرة من المسلمين تنزح من المناطق التي احتلها الاسبان، أو أخذوا في تهديدها. ولم يكن أمام هؤلاء النازحين غير مملكة ابن الاحمر مكان يلجؤون إليه، فتدفقت ألوف من أولئك النازحين من أرباب العلم والحرف والصناعات، ورجال السيف، على منطقة غرناطة، فعمر بهم ابن الأحمر مملكته، واتخذ منهم جيشاً يقف معه في وجه التهديد الاسباني. وكان أول نصر حققه ابن الأحمر على الاسبان عام ١٢٣٨م (٦٣٦هـ)، حينما هاجم الاسبان حصن مرطوس، فتصدى لهم ابن الأحمر وهزمهم هزيمة منكرة، فارتفع شأنه في أعين مواطنيه، واخذ مسلمو المناطق الأخرى ينظرون اليه كآخر أمل لهم في السلامة.

٨٤ ـ اتفاق ابن الأحمر مع ملك قشتالة:

وفي عام ١٢٤٥م، هاجم الاسبان حصن جيان، وحاصروه واستولوا على

جميع الحصون والمواقع المحيطة به. ولم يكن في جيان كميات كافية من المؤن، فأسرع ابن الأحمر لدفع الاسبان عن المدينة، لكن الاسبان هزموه، وتابعوا حصار جيان. وخاف ابن الأحمر ان تسقط جيان بيد الاسبان، فيجر سقوطها سقوط العديد من القلاع والحصون الأخرى، فقرر أن يقوم بمحاولة لعلها تنقذه، فسار بنفسه الى معسكر ملك قشتاله، وعرّفه بنفسه وأعلن له طاعته، فدهش فرناندو لجرأة ابن الأحمر وعانقه، وعقد معه اتفاقاً كان من بنوده:

أ - يحتفظ أمير غرناطة بما تحت يده من المدن والحصون.

ب - يؤدي أمير غرناطة لملك قشتاله جزية سنوية مقدارها ٥٠ الف مثقال من الذهب.

جـ - يتعهد ابن الأحمر بأن يسرع بقواته لعون ملك قشتاله، كلما طلب منه ذلك، سواء كان ذلك لمحاربة المسلمين أو النصارى.

د - يتعهد ابن الاحمر بان يحضر اجتماعات مجلس التاج (الكورتس)، كبقية الامراء التابعين للعرش.

هـ - يسلم ابن الاحمر قلعة جيان للملك فرناندو رهناً وتوثيقاً للعهد.

و - يمتنع ملك قشتاله عن الاعتداء على الأراضي التابعة لمملكة غرناطة.

وبعد هذه المعاهدة، عاد ابن الاحمر الى غرناطة، ودخل فرناندو جيان، في نيسان ١٢٤٦م (٦٤٣هـ) وحول مسجدها الجامع الى كنيسة. وأقام في قلعتها حامية قشتالية قوية.

٨٥ - فوائد الاتفاق للجانبين:

ومنذ ذلك اليوم استقر ملك بني الأحمر في جنوبي الأندلس، وبدأ عهد دولتهم التي امتد حكمها حتى سقوط غرناطة في ٢ / ١ / ١٤٩٢م. وأخذت شكلها التاريخي. وكان طول هذه المملكة من الشرق الى الغرب حوالي ٢٠٠ كيلومتر. أما عمقها من البحر، فقد كان في الغرب قرابة مئة كيلومتر، بينما يبلغ في الشرق حوالي مئتين. أما أهم المدن في هذه المملكة فهي: غرناطة والمرية ومالقة، ورونده وبسطة ولوشه. وكانت تغطي أرض المملكة سلسلة من الحصون والقلاع الحصينة، التي توفر حماية كافية، وتؤمن عمليات الدفاع عنها. وتجعل حركة الجيوش العدوة أمراً صعباً.

يعتبر المؤرخون الأجانب، ان الملك فرناندو هو المؤسس الحقيقي لمملكة غرناطة لأنه اتفق مع ابن الأحمر، ويسر له الوقت والحماية الكافيين، لتوطيد دعائم ملكه، ويعللون تصرف الملك القشتالي بعدد من الدوافع والاسباب الخاصة ومنها:

١ ـ مهد هذا الاعتراف بابن الاحمر، السبيل أمام النصارى للسيطرة الكاملة على المناطق الاسلامية الأخرى، الواقعة خارج غرناطة. وفي الواقع فان القشتاليين افادوا من تحالفهم مع ابن الأحمر فوائد جلى، إذ تدخل ابن الاحمر في كثير من الحالات التي استعصى فيها على القشتاليين التغلب على الحصون، وخاصة اشبيلية، فكان يقنع المسلمين بعدم جدوى المقاومة، ويتوسط بين الجانبين، ليحصل المسلمون على أفضل شروط الاستسلام.

٢ ـ ان التنافس الشديد بين مملكتي اراغون وقشتاله، والتسابق بينهما الى افتتاح الاراضي الاسلامية، جعل ملك قشتالة يفضل محالفة ابن الاحمر، ليعجل بذلك افتتاح الاراضي الاسلامية الباقية، إذ كانت هذه المناطق تفضل الاستسلام لحليف ابن الاحمر، لقاء حصولها على شروط معقولة.

٣ ـ خاف فرناندو ان يحمل اليأس المسلمين على الاستماتة في المقاومة، لذلك فضل ان يكون للمسلمين منطقة يمكنهم اللجوء اليها، وبذلك تسهل مهمة الفتح.

٤ ـ اصبحت غرناطة تعج بعشرات الالوف من المحاربين الاشداء، الذين نزحوا ليها من جميع المناطق فلم يكن من العقل خوض معركة مع هذه الألوف المدربة من الرجال الأشداء، الذين يضطرمون حقدا على الاسبان وغيظاً منهم.

وأياً ما كانت الاسباب التي ادت الى قيام مملكة غرناطة واستقرارها فان ملك قشتالة وجد من مصلحته ان تكون المملكة الجديدة حليفة له، تؤيده في التنافس القائم بينه وبين ملك اراغون. ولا شك في ان المسلمين افادوا من هذا التحالف، أيضاً إذ مكنهم من تدعيم ملكهم، وارساء أسسه، وبناء دولة قوية قاومت الاحداث قرابة قرنين ونصف القرن.

ولا شك في ان مملكة غرناطة تمكنت من مقاومة هجمات اعدائها الشماليين، بفضل توافر ثلاثة عوامل اساسية، فلما فقدت هذه الأسباب انهارت، وانهار معها آخر معقل عربي في شبه الجزيرة. وهذه العوامل هي:

أ ـ تماسك الجبهة الداخلية في مملكة غرناطة، وتصميم رجالها على الموت في الدفاع عن ارضهم. ولكن هذه الوحدة الوطنية تصدعت في آخر عهد المملكة، وبدأ هذا

التصدع بتفسخ البيت النصري المالك، فسرى الانقسام الى الشعب، وأخذ يضرب بعضهم بعضاً.

ب ـ تنازع الممالك النصرانية في الشمال، وتنافسها، وقد كان لذلك أثر واضح في بقاء مملكة غرناطة إذ حال هذا النزاع دون اتخاذ تدبير موحد مخلص ضد المسلمين. ولكن حينما اتحد تاجا قشتالة وأراغون، بزواج وارث عرش اراغون بوارثة عرش قشتالة عام ١٤٦٩، زال التنافس، ووحدت المملكتان خطتهما للانتهاء من وجود الجيب الاسلامي.

جـ ـ تفاهم البيت النصري مع سلاطين المغرب، من بني مرين، وتعاون البيتين تعاونا مخلصاً ضد نصارى اسبانيا. وقد كان لجهود سلاطين آل مرين، وللمجاهدين المغاربة، اكبر الفضل في دفع شر الطامعين في ارض غرناطة.

ولكن بني مرين عانوا محنة شديدة، أولا بانهزامهم امام القوات النصرانية المؤتلفة، وتحطم اسطولهم تحطيما تاماً. ثم باضطراب أمرهم في المغرب نفسه، الأمر الذي صرفهم عن انجاد الأندلس، فكان لذلك أبعد الأثر في تقرير المصير المحزن، للحكم العربي الاسلامي في شبه الجزيرة الايبرية.

سقوط غرناطة

٨٦ ـ توحيد تاجي قشتالة واراغون :

ارتقت الملكة ايزابيل عرش قشتاله، وكانت قد اقترنت بملك صقلية، فرناندو دوك مونت بلان الوارث الشرعي لعرش اراغون، وسارت الأمور بينهما سيرا حسناً، في بادىء الأمر، ثم حدث خلاف بين الزوجين، حول ممارسة صلاحيات الحكم. ولكن رُئي، حسماً لهذا الخلاف، تقسيم الصلاحيات بينهما، فاكتسبت الملكة محبة زوجها وثقته. ولتصرف الملكة انظار الناس عن الفوضى والفساد في مملكتها، وجدت ان افضل وسيلة لذلك هي إشغالهم بمحاربة المسلمين في مملكة غرناطة، إذ كانت تطمع في ان يقترن اسمها في التاريخ، باخراج المسلمين من اسبانيا. ولكن كانت تقوم في وجهها صعوبتان، دون تحقيق هذه الأمنية الغالية عليها:

١ ـ وجود معاهدة بين مملكتي قشتاله وغرناطة. وقد جددت هذه المعاهدة عام ١٤٧٨، بين الملكة، وبين مولاي أبي الحسن ملك غرناطة. وقد ادخل في هذه المعاهدة بند يسمح لكل من الجانبين بالقيام بالغارات، ومهاجمة الحصون الواقعة على الحدود، بشرط ان لا يكون مع المهاجمين مدافع، وبشرط ان لا يدوم حصار حصن من الحصون اكثر من ثلاثة أيام.

٢ ـ ان حالة المملكة الاقتصادية والمالية لم تكن لتسمح بشن الحروب واحتمال نفقاتها. كما كان الملك يعارض في اشغال نفسه في حرب قد تكون طويلة الأمد، تهم مملكة قشتاله وحدها. ولكن الظروف المؤاتية لتحقيق مطامع الملكة، ما لبثت ان توافرت، فاشعلت الشرارة الأولى لنيران الحرب.

٨٧ ـ استيلاء المسلمين على حصن الصخرة :

فاجأ مولاي أبو الحسن، حصن الصخرة الواقع في الجهة الغربية على حدود

مملكـة غرنـاطـة ـ ليل ٢٦ ـ ٢٧ كانون الأول ١٤٨٠م ـ وتمكن خلال وقت قصير من القضاء على مقاومة حاميته وأسر من تبقى حيّاً من رجال الحامية، ومن كان في الحصن من سكان، فكانوا حوالي ١٠٦٠ شخصاً.

وتعـالت صيحـات الاسبـان، وارسلت الملكـة الى أبي الحسن تطـالبه باعادة الحصن، والتعويض عن الأضرار التي الحقها بالحامية والسكان. ولكن أبا الحسن، رد بأن معـاهـدة عام ١٤٧٨ تسمـح بما قام به. فسكتت الملكـة على مضض. وادرك أبو الحسن ان الحرب لا بد واقعة، فانصرف الى الاستعداد.

٨٨ ـ استيلاء الاسبان على حصن الحامة:

أخذ الاسبان يتحينون الفرص للانتقام لما حل بهم في حصن الصخرة. وبدؤ وا يتجسسـون على الحصـون الاسـلاميـة لمعـرفـة أوضـاعهـا، وقوة حامياتها، ليضربوا ضربتهم. وفي أوائـل عام ١٤٨٢، علم مركيـز قادس (رودريكو بونسه دوليون)، من جواسيسه ان حصن الحامة الواقع جنوبي غربي غرناطة سيىء الحراسة، وان مباغتته ممكنـة. فأرسـل شخصـا من قبله يستطلع حقيقـة الأمر. وعاد الرسول يؤ كد له اقوال الجواسيس. وبعد ان اتصل بحاكم مقاطعة الأندلس في اشبيلية، جمع حوالي ٧٠٠٠ رجل وسار بهم في طرق ملتوية بعيدة عن الأنظار. وعند منتصف ليل ٢٦/٢٧ شباط ١٤٨٢م، انقض على حامية الحصن، والتحم معها في عراك دام طوال الليل واليوم التـالي كله. ولكن الحصن لم تكن فيـه قوة كبـيرة، إذ كان جميـع من فيـه ٦٠٠ عائلة مجمـوع افـرادهـا ٣٨٠٠ شخص. فانتهت المعركة مساء اليوم التالي، بعد ان قتل من رجال الحامية ٨٠٠ رجل، وأسر من تبقى في الحصن من الرجال والنساء والأطفال.

ولـما اتصـل نبأ الهجوم الاسباني بأبي الحسن، أسرع على رأس من تجمع لديه من الرجال آملا ان يصل في الوقت المناسب فيدفع الاسبان عن الحصن، ريثما تكون بقية قواته قد تجمعت والتحقت به. ولكن ابا الحسن لم يصل الا بعد سقوط الحامة، فشن هجـمات على الاسبـان في الحصن لاستعـادتـه فلم يوفق. فانسحب ليجمـع القوات، وبعد قليل عاد على رأس خمسة عشر الف جندي وعدد من المدافع، وهاجم الحصن بعنف بالـغ، فصمـدت له الحـاميـة الاسبـانيـة، وارسلت تستنجد باشبيلية فاسـرع الملك فرنـانـدو بالاستعـداد للسير بنفسه، وأرسل من أشبيلية قوة قوامها ٤٥ الف رجـل بقيـادة دوك مدينـة شذونـه (انريك جوسمان). ولما رأى أبو الحسن القوات

الاسبانية تقترب من ميدان المعركة انسحب.

ولكن أبا الحسن ما كان يطيق ان يترك هذه الحربة مغروسة في جنب غرناطة، فاصبح همه استعادة الحامة كما أصبح هم الاسبان الاحتفاظ بها والدفاع عنها، وتقوية حصونها وحاميتها ومدها بالمؤن والسلاح. وهكذا اصبحت الحرب محتومة بين الجانبين.

٨٩ الخلاف في البيت النصري:

كانت مملكة غرناطة تعتمد في دفاعها حتى ذلك الحين على العنصرين الهامين التاليين:

١ ـ وجود عدد كبير من الحصون والقلاع الحصينة التي تغطي المملكة، وتجعل تقدم العدو في ارضها امراً بالغ الصعوبة. ولكن اسوار هذه الحصون، التي كانت قادرة على مقاومة هجمات العدو في الماضي، اصبحت اضعف من ان تحتمل هجمات المدفعية، التي اخذت تظهر في الحروب سلاحاً ناجعا لقهر الحصون.

٢ ـ وجود جيش قوي ومتمرس بالحروب، أصبح فرسانه مضرباً للمثل في الشجاعة والشهامة والتقاليد الحميدة. وقد وصف احد الكتاب جيش غرناطة بعبارات مثيرة، حين قال:

(ان جميع عرب غرناطة قد تمرسوا بالحروب، وتدربوا على السلاح، وكانوا يمتازون في الحملات الصغيرة، (إد كانت صدمتهم الأولى لا تقاوم. وكانوا ميالين الى اقامة الكمائن. ويبحثون عن الملاجىء، وراء الأسوار والجدران، ويتراجعون أمام حصار طويل، ويتفرقون بعد أيام من المسير).

وكان لغرناطة في الماضي اسطول قوي، ولكنه اصبح مهملا فضعف شأنه مع تمادي الايام.

ولكن هذين العاملين فقدا أهميتهما: الحصون فقدت اهميتها امام المدفع، والجيش ضعف بالانقسام على نفسه نتيجة للانقسام الذي حدث في البيت الحاكم، في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ العرب في الأندلس. بدأ الخلاف في البيت النصري بين زوجة السلطان أبي الحسن، ستي عائشة (وتعرف بالحرة) وبين محظيته الاسبانية

الاصـل ثريـا (وكان اسمها ايزابيل دوسوليس) . فقد كان السلطان متزوجاً من عائشة وانجبت له ابنـه وولي عهـده ابـا عبد الله الصغير . ثم وقعت في يده فتاة اسبانية ، من اسرة نبيلة اسمها ايزابيل دوسوليس ، فأسلمت وتسمت باسم ثريا ، فسيطرت بدلالها وجمـالهـا على الملك الشيـخ ، وأنجبت له عددا من الابناء . ثم اخذت تسعى لتجعل ابنها الاكبر وليا لعهد أبيه بدلا من أبي عبد الله الصغير . ولتنجح في مسعاها ، عملت على تحريض الملك على ابنه الصغير وأمه عائشة .

وسـرعـان ما بدأ الصراع بين الامرأتين ، وأخذت كل منهما تجمع حولها الانصار والمؤيدين حتى اصبح الصراع مكشوفاً بينهما حينما كان أبو الحسن يهاجم حصن الحامة في ربيع عام ١٤٨٣ ، فاضطر أبو الحسن للعودة الى غرناطة لحسم الخلاف . وسجن عائشـة وابنهـا . ولمـا عاد أبـو الحسن لمتـابعـة حصار الحامة ، تمكنت عائشة من اغتنام الفرصة واطلاق سراح ولدها ، فما لبث الصغير ان اعلن الثورة على أبيه ، ولم يسمح له بدخـول غرنـاطـة ، فلجأ أبـو الحسن الى حاكم المرية ، وهناك جمع قوة ضمها الى جيشه وسار الى غرناطة فدخلها . وانحاز ابنه بمن معه من الرجال الى حي البيازين ، واستمرت الحرب بينهما وقتا طويلاً .

ووجدت الملكة الاسبانية هذه الفرصة ذهبية لا يمكن تفويتها ، ورجت زوجها ان ينضم اليها في تنفيذ المخططات التي كانت تحلم بها منذ زمن بعيد . واعلمته بانها ستعمل على توفير المال اللازم لسد نفقات الحرب من المصادر التالية :

أ ـ ستفرض ضريبة استثنائية على المدجنين ، ومقدارها دوكا واحدة على كل رأس .

ب ـ ستحمـل محاكم التفتيش على ان تدفـع لخزينـة الـدولـة مجمـوع الغـرامـات والمصادرات التي ستقضي بها .

جـ ـ ستتدخل لدى البابا ، ليحمل الكنيسة على أن تتنازل لخزانة اسبانيا ، عن ثلث حصتها من العشر .

فقبل الملك رجاء الملكة ، واخذا يعملان مع البابوية من أجل حصة الكنيسة ، ومن أجـل اعـلان الحـرب التي يريـدان شنهـا على المسلمين ، حربا صليبية مقدسة . ونجحـا في المسعيـين ، اذ اصـدرت البابوية نداء لمساعدة الملكين الاسبانيين في حربهما المقـدسـة ضد المسلـمين . واصـدرت صكـوك غفـران بيعت في جميع انحاء اسبانيا ، وكانت حصيلتها شيئاً كثيراً . اما ثلث العشر الكنسي فكانت حصيلته حوالي مئة الف فلوران .

٩٠ - بدء الصراع المصيري:

تقدم فرنـاندوعلى رأس قواته الى حصن لوشه، فحاصره في ٥ تموز ١٤٨٣، واستمر في حصاره حتى ١٤ منه، لكنه اخفق في الاستيلاء عليه، إذ أسرع أبو الحسن الى انجاد الحصن، فخرج من غرناطة تاركا الصراع مع ابنه واتجه بقواته الى لوشه، مقـدرا بأنـه إذا انتصـرعلى الاسبان، فان الشعب سينحاز اليه. فاضطر فرناندو الى الانسحاب. ولما انسحب انقض ابو الحسن على الحصن الاسباني (كافيت لا ريال)، واستـولى عليـه في آب. لكنـه لما رجع الى غرناطة، وجد ان الشعب كله ناقم عليه، وانه انحاز الى ابنه ابي عبد الله. وان وزيره يوسف ابن كماشه، استولى في غيابه على قصـر الحمـراء، فلم يشأ الملك أن يضيـع جهوده في قتال ابنه، في وقت يظهر فيه خطر الاسبان ملحاً. فسار الى مالقة، حيث كان اخوه ابو عبدالله الزغل، يتولّى حكمها باسمـه. وهكـذا اصبح في مملكـة غرنـاطـة الصغيرة ملكان يتنازعان الملك، ويجران الشعب معهـما الى الانقسـام والاقتتـال، في الـوقت الـذي اتحدت فيـه جميع القوى النصرانية في اسبانيا على قتالهما، وسحقهما.

٩١ - نصر أبي الحسن في مالقة:

في أواسـط آذار ١٤٨٣ سار مركيـز قادس على رأس قوة مؤلفة من أربعة آلاف رجـل، لتخـريب بسـائط مالقة، والاستيلاء على الحاصلات التي تتمون بها المدينة. فاسـرع ابـو الحسن على رأس ٥٠٠ فارس لمقـاومـة الاسبـان، وتمكن من القضـاء عليهم، رغم قلة عدد رجـالـه، وعـاد فرسـانه الى مالقة يحملون قرابة الف رأس من رؤوس القتلى، ويجـرون وراءهم ٩٠٠ اسير منهم ٢٥٠ نبيـلا، وكـان دخـول أبي الحسن مالقة يوماً مشهوداً، تردد صداه في جميع أرجاء الأندلس.

٩٢ - أسر أبي عبد الله، وبدء الكارثة:

شعـر أبـو عبـد الله بضعف مركـزه تجاه النصـر الذي حققه أبوه، فاراد ان يقوم بعمل بطولي يضمن له استمرار تأييد الشعب الغرناطي. فأعد للجهاد عدته، وخرج

في ٢٠ نيسان ١٤٨٣م، على رأس ١٨٠٠٠ رجل متجها الى حصن (اللسانة) ليباغته. ولكن قادة الحصون الاسبان كانوا يقظين، فاعلنت اشارات التحذير والاستغاثة في جميع المناطق بواسطة اشعال النيران على رؤوس الجبال، واخذت الكتائب الاسبانية تتجمع للدفاع عن الحصن. وشعر أبوعبد الله وكبار قادته بفشل خطتهم، وبخطر اندفاعهم في أرض العدو، فقرروا الانسحاب. وعاد الغرناطيون بانتظام. ولكن الاسبان انقضوا عليهم في الطريق فوقع الخلل في صفوف المسلمين، وتدافعوا منهزمين. ولما وصل أبوعبد الله الى ساقية كان عليه اجتيازها سقط حصانه، ولم ينتبه رجاله الى ملكهم، فاضطر الى الاختباء، بعد ان قتل حصانه. ولكن جنديين اسبانيين عثرا عليه، واستاقاه الى (كونت قبره[1]) الذي اعلم الملك بأسره فاسرع بالسفر الى قرطبة حيث حمل اليه أبوعبد الله. وأخذ في مفاوضته لاطلاق سراحه. وتقول الرواية الغربية[2] ان الملكة التي يكمن في اعماقها كره رهيب للعرب والمسلمين، كانت تريد استبقاء أبي عبد الله في أسرها، لتتلذذ برؤية أمير مسلم تحت سلطانها، ولكن فرناندو البعيد النظر كان يريد اطلاق سراحه ليحقق اغراضه، بدوام تقسيم المملكة المسلمة، واستمرار ضعفها. واسفرت المفاوضات بين فرناندو وبين الصغير عن اتفاق على اطلاق سراح الصغير بالشروط التالية:

١ - يعلن أبوعبد الله تبعيته لملك اسبانيا.

٢ - يتنازل عن الحصون التي يستولي عليها القشتاليون، مما تحت يد أبي الحسن.

٣ - يتعهد الصغير بأن يسمح للجيش القشتالي بالمرور في الأراضي الخاضعة له كلما طلب الملك القشتالي ذلك.

٤ - يطلق خلال خمس سنوات سراح ٧٠٠ أسير، ممن هم تحت يده، على ان يختار ملك قشتاله ٣٠٠ منهم.

٥ - وتحقيقا للوفاء بهذه الشروط، يسلم أبوعبد الله ابنه البكر، و١٢ شخصاً من كبار رجال دولته ليبقوا رهائن بيد ملك قشتاله.

٦ - يدفع أبوعبد الله فدية مقدارها ١٤٠٠٠ دينار من الذهب.

---

(١) قبره بلدة في شمال غرناطة الغربي وتدعى اليوم (Cabra).

(٢) الكونت سيركور ج١ ص٢٩٣.

٩٣ ـ اطلاق سراح أبي عبد الله، وتجدد النزاع بين الوالد والابن:

لما علم أبـو الحسن بأسـر ابنـه، اسـرع فورا الى غرناطة ودخلها، وخاف ملك قشتاله من عواقب عودة وحدة المملكة الاسلامية، فأسرع باطلاق سراح أبي عبد الله الصغـير، واعلن عن منحـه هدنـة مدتهـا سنتـان لكـل مدينـة تعلن ولاءهـا للملك الشـاب. فاضطـر ذلـك المـدن التي خضعت في المـاضي لأبي عبد الله الى التردد في اعـلان انضـوائها تحت علم أبي الحسن. وبالتالي فانه جعل أمر توحيد أجزاء المملكة مرة أخرى شيئاً صعباً.

أطلق الملكان سراح أبي عبد الله فسار إلى غرناطة، وحاولت والدته تسهيل أمر إدخـالـه إلى حي البيـازين، لكنه بعد أن حارب أباه أيّاماً اضطر إلى الانسحاب إلى المـريـة، واتخـذهـا قاعـدة له. وشرع يهاجم منها المناطق الخاضعة لأبيه، ويعيث فيها فساداً وتخريباً.

وأراد فرنـانـدو ان يزيـد في حدة الخـلافـات بين العرب، وان ينهك قوى الوالد والـولـد، قبـل ان يشرع في عمله الحاسم ضدهما. فاصدر أمره الى القادة الاسبان في جيـان ومـرسيـة بضـرورة تقـديم العـون لأبي عبـد الله ضد ابيـه. واخـذت القوات الاسبـانيـة، بعد ذلك، تقوم بمهاجمة المناطق الغربية من مملكة غرناطة، فتمكنت من الاستيلاء على اكثر من ٣٠٠ حصن في مرج غرناطة، بين حزيران وتشرين الأول.

٩٤ ـ موت ابي الحسن وتسلُّم اخيه الزغل :

وتتالت الاحداث والخلافات بين الوالد والولد من جهة، وبين الوالد والاسبان من جهـة اخـرى، وكـان الاسبان قد ارهقوا المملكة، واستولوا على كثير من حصونها وقـلاعهـا ومـدنهـا. وساءت صحة أبي الحسن، وكف بصره، ولم يعد قادرا على حمل امانة الحكم، فاقنعه ابنه يحيى النير بالتنازل عن العرش لأخيه الزغل ففعل.

تسلم الـزغـل الحكم في ظروف صعبـة للغـايـة، ومـع انـه كان رجلا شجاعاً مقداماً، إلا أن الظروف المحيطة بالمملكة، كانت اقوى منه. وكانت قوته أدنى من قوة خصومه بكثير. وقد حقق فعلاً بعض الانتصارات على الاسبان لكن ذلك لم يكن له نتيجة عملية، ولم يمنع تساقط الحصون والقلاع بيد الاسبان.

٩٥ ـ تقسيم المملكة بين الزغل والصغير:

ولما طالت الخلافات بين الزغل وابن اخيه، وأنهكت قوى الشعب، وأضعفت ثقته بنفسه وبحكامه، تدخل العلماء والفقهاء ووجوه الناس، واجبروا الجانبين على التفاهم، وانهاء الحرب بينهما، فاعطوا نصف المملكة للزغل مع الحمراء لتكون مقرا له، واعطوا النصف الآخر لأبي عبد الله، مع حي البيازين ليكون مقرا له.

قبل الزغل بهذه القسمة، وأمل في أن يتمكن من التفرغ لرد غارات الاسبان وعدوانهم. ولكن الصغير لم يلبث أن تنكر للاتفاق، وأرسل الى الملك الاسباني، يرجوه مهاجمة مالقة الخاضعة لعمه، ويعده بالسماح للقوات الاسبانية بالمرور في أراضيه، وبتقديم العون لها. ولكن فرناندو، بدلا من أن يسير الى مالقة، سار الى حصن لوشه التابع للصغير، نظرا لأهميته الاستراتيجية، إذ إن سيطرة الاسبان على هذا الحصن، مع سيطرتهم على حصن الحامة، يجعلهم قادرين على شطر المملكة، وقطع الاتصال بين شرقيها وغربيها.

٩٦ ـ أسر الصغير ثانية:

تحرك فرناندو في أوائل عام ١٤٨٦، على رأس جيش مؤلف من ستين الف رجل الى لوشه. وعلم أبو عبد الله بذلك فأسرع على رأس قواته للدفاع عنه، ودخل الحصن ليشترك في أعمال الدفاع مع الحامية. وجاءت القوات الاسبانية فاحاطت بالحصن، واخذت تقصف اسواره ومنشآته بالمدفعية، واستمر الحصار مدة شهر كامل. فاحدثت المدفعية كثيراً من التخريب في التحصينات ووسائل الدفاع، فضعفت همة المدافعين، وشعروا بعدم جدوى المقاومة، فشرع أبو عبد الله في مفاوضة فرناندو، لتقرير شروط التسليم.

وقع أبو عبد الله اتفاقين مع فرناندو أحدهما سري، والآخر علني. أما السري منهما فإنه يتضمن:

أ ـ استعداد أبي عبد الله لتسليم غرناطة عاصمة ملكه الى الاسبان، إذا ما تمكنوا من اخضاع عمه الزغل.

ب ـ قبول أبي عبد الله بأن يستبدل بلقبه الحالي ـ ملك غرناطة ـ لقب (دوق) وادي

آش، اعترافاً منه بتبعيته لملكي اسبانيا.
جـ ـ تبقى شروط المعاهدة السرية، في طي الكتمان الى أن يتم اخضاع الزغل.

اما المعاهدة العلنية، فانها تتناول مصير السكان في مدينة لوشه، ومصير أموالهم، وحريتهم في البقاء في المملكة الاسبانية كمدجنين، أو النزوح بأموالهم المنقولة الى حيث يرغبون. ولكن الاسبان لم يتركوا لأحد خيارا إذ اجبروا الجميع على الهجرة.

وفي خلال شهر حزيران استولى فرناندو على كثير من القلاع والحصون فى مرج غرناطة، وأبدى الكثير من رجال حامياتها مقاومة مشرفة خليقة بتقاليد فرسان غرناطة، ولكن التفوق العددي الساحق، الذي يتمتع به العدو، وقصف المدفعية، كانا فوق احتمالهم وجرأتهم.

٩٧ ـ برنامج الملكين للاستيلاء على مملكة غرناطة:

بعد أن بلغت الأمور ما بلغته قرر الملكان الاسبانيان، جعل قضية الاستيلاء على الأراضي المتبقية في أيدي المسلمين، القضية الأولى للمملكة. وعقد (الكورتس) مجلس التاج[1]، اجتماعاً في مدينة طركونة في شباط ١٤٨٤م، تقرر فيه جعل مسألة الاستيلاء على مملكة غرناطة، الهم الأول للمملكة، وان تقدم على جميع ما سواها من المسائل، وان تستمر الجهود المبذولة الى نهايتها. وتقرر طلب تضحيات اكبر من الشعب. وحصلت الملكة من الكنيسة على ثلث عشرها لمدة عشرين عاماً، مساهمة من الكنيسة في نفقات الحرب المقدسة. ووضع مخطط جديد لسير المعركة، ينفذ على سبع مراحل:

أ ـ في المرحلتين الأولى والثانية يصار الى فتح النهاية الغربية من مملكة غرناطة، وهي المنطقة الواقعة بين جبل طارق ومالقة.
ب ـ وفي المرحلة الثالثة تفتح المنطقة الشمالية، وهي منطقة لوشه ومقلين.
ج ـ وفي المرحلة الرابعة تفتح منطقة مالقة.
د ـ وفي المرحلة الخامسة، تفتح المنطقة الشرقية، وهي منطقة شرقي المرية.

---

(١) ويسمى أيضاً تجوزاً المجلس النيابي، مع أنه لم يكن في ذلك العصر مجالس نيابية بالمعنى المعروف في العصور المتأخرة.

هـ ـ وفي المرحلة السادسة تفتح المنطقة الشمالية الشرقية، بما فيها المرية ووادي آش.
و ـ وفي المرحلة السابعة، يتم فتح مدينة غرناطة والبشرات.

ووضع منهاج للعمل المستمر، الذي يمكن ان يؤدي الى ارهاق المسلمين، وتحطيم قواهم المعنوية والمادية وكان مما اتفق عليه في هذا الصدد:

أ ـ يقوم الملك بحملتين في السنة إحداهما في فصل الربيع والأخرى في فصل الخريف.

ب ـ في الأوقات التي لا تكون فيها حملات عسكرية، يتولى امراء الاقطاع، حماية الثغور، ويبذلون جهدهم لمنع العرب من جني غلالهم، وذلك بالقيام بعمليات تخريب مستمرة في الأراضي المجاورة لهم.

ج ـ تسهر الملكة والكاردينال على تأمين السلاح والمؤن، والعتاد للقوات المحاربة الاسبانية.

وشرع الاسبان في تنفيذ هذا البرنامج بدقة، واخذت الحصون والقلاع العربية تتساقط تباعاً بيد الاسبان، نتيجة لهذا العمل المستمر المنظم. حدث كل ذلك والملكان المسلمان عاجزان عن دفع هذا البلاء عن انفسهما وأرضهما، بل إنه يمكن القول إن كلا منهما كان يشمت بعدوه المسلم إذا نزل به مكروه، وقد كان هم أبي عبد الله الصغير الأول هو تحطيم عمه، ومنعه من تحقيق أي نصر على الاسبان، يمكن أن يرفع من هيبته في نظر شعب المملكة، مخافة ان يؤدي ذلك الى تضعضع مركزه هو. فكان يتصرف وكأنه يريد تصفية المملكة في اقرب وقت.

وبرغم جميع هذه الخلافات الحادة التي مزقت وحدة المملكة، فقد ادافع كثير من حاميات المدن والحصون دفاعاً مجيداً مشرفاً، أكبره المؤرخون الغربيون وذكروه بكل احترام وتقدير.

ولن نطيل الحديث في كيفية تطبيق البرنامج الاسباني لاحتلال المملكة الاسلامية، وانما نكتفي بالإشارة الى مختصر لتاريخ سقوط المدن الاسلامية الكبرى الثلاث: غرناطة والمرية وبسطة.

٩٨ ـ استهداف مالقة:

تمكن فرناندو من احتلال رونده، في ٢٣ أيار ١٤٨٤، وهي اهم حصن يدافع

عن مدينـة مالقـة ، بعد قتال بطولي قاومت فيه الحامية الصغيرة الهجوم العنيف الذي شنـه جيش اسبـاني عدتـه اربعـون الف جندي ، مزودين بالمدفعية . ولم يستسلموا الا بعـد ان تهدمت جميـع ابراج حصنهم ، وغارت الآبار التي يستقون منها ، فسمح الملك لمن في الحصن بالخـروج الى حيث يشـاؤ ون . وبعـد ان سقطت رونـده سقطت بيـد الاسبان اكثر القلاع والحصون القريبة منها ، ونزح عنها اكثر سكانها الى غرناطة والى شمالي إفريقيا . وكانت هذه الحصون هي عدة الدفاع عن مالقة من جهة البر ، إذ كان رجـالهـا ينضمـون الى حامية مالقة ، حينما تتعرض للخطر. ووضع الملك في برنامجه ان يهاجم مالقـة عام ١٤٨٧ ، فاستعـد لذلـك استعـدادا خاصاً ، واكتفى عام ١٤٨٦ ، بالقيـام بعمليـات محدودة ليـوفـر قواه لمعـركـة مالقـة ، اذ كان يقدر ان انتزاع مالقة من المسلمـين سيحـرمهم من المينـاء الطبيعي الهـام ، ويؤدي الى اقتطـاع جزء كبـير من مملكتهم ، ويمنع عنهم وصول النجدات من المغرب .

باشر فرناندو بحشد قواته في قرطبة منذ أوائل شهر تموز ١٤٨٧ ، ولكنه علم في ذلك الحين ان أبا عبد الله تمكن من دخول غرناطة واحتلال حي البيازين ، وانه يطلب عونـا من قشتـالة ، لتثبيت اقدامه فيها . فصفق الملك لهذا الخلاف يتجدد بين الملكين المسلمين ، ويشغلهما عن انجاد مالقة . وأراد الملك ان يزيد في ارتباك الزغل ، فأرسل بعض قواتـه الى البيـازين لمسـاعدة الصغير ، فوصلت هذه القوة الاسبانية ، ودخلت البيازين ، فنشبت الحرب في شوارع غرناطة ، واستمرت بضعة أيام ، دون ان يتمكن فريق منهما من احراز نصر حاسم .

وسـار فرنـانـدو بقواته من قرطبة فوصل أمام حصن بلش مالقة ، يوم ١٦ نيسان ١٤٨٧ ، وهـو حصن قريب من مالقـة ، وشـرع في حصـاره . أما الزغل فإنه رأى أن لا فائـدة من متـابعـة قتـال ابن اخيـه الصغـير ، وأنه من الخير له أن يسرع لانجاد بلش مالقـة ، فترك بعض قواتـه في غرنـاطـة لمتـابعـة القتـال ، وسـار بباقي جيشه الى لقاء الاسبـان ، وكـان يقـدر أنّه سيجد في سكان الجبال القريبة من ميدان المعركة ، مدداً لجيشـه . ولكن حالـة المملكة ، واستمرار القتال بين العم وابن اخيه أدخل اليأس الى نفـوس سكـان المنـاطق المعـرضـة لخطـر الغـزو، لذلك شرع سكان المناطق المحيطة ببلش ، يفـاوضـون الملك الاسبـاني على التسليم ، ولمـا وصـل الـزغل ، كان الأمر قد سوي . فارتبك الزغل ، وخاف أن يؤ دي تفاهم مسلمي المنطقة مع الاسبان الى قطع خط الـرجعـة عليـه ، وعلى جيشـه إذا قدرت عليهم الهـزيمـة . فلم يقم بمهـاجمـة

الاسبان، كما كان ينتظره أهل بلش مالقة ليقوموا هم من جهتهم بشن هجوم في نفس الوقت، يضع الاسبان بين نارين. وأخذ الزغل يتجول بعيداً في الجبال يراقب تطور الاحداث،فانصبت عليه المدافع الاسبانية،فتفرق جيشه،وفجأة وجد الزغل نفسه مع قلة من الرجال، فانسحب عائداً الى غرناطة، ولكنه علم وهو عائد أن الصغير احتل قصر الحمراء، فتابع سيره الى المرية، التي يتولاها ابن اخيه.

ولما انسحب الزغل شرع قائد حامية بلش مالقة، رضوان بنيغش، بالتفاوض مع الملك لتقرير شروط الاستسلام. ولما كان الملك حريصاً على الاستيلاء على مالقة، تساهل مع حامية بلش، ليتفرغ للأهم. وفي ٢٧ نيسان وقعت اتفاقية بين الجانبين منح الملك فيها سكان بلش مهلة ستة أيام، وأمانا على أرواحهم، وضماناً لأموالهم، كما منحهم حرية الاختيار بين النزوح الى افريقيا وبين البقاء في أرض المملكة، في المناطق الداخلية، ليعيشوا كمدجنين. وفي ٣ أيار اخليت المدينة من سكانها، وتفرق اهلها. وبعد ذلك استسلمت حاميات خمسين قرية وحصنا مما حول بلش، على نفس الشروط التي استسلمت عليها بلش.

٩٩ ـ حصار مالقة :

تعتبر مالقة أكثر المدن مناعة في مملكة غرناطة، إذ كانت أسوارها يحيط بها ثمانون برجاً بارزاً، وأربع قلاع تتصل فيما بينها بسراديب سرية، وكانت القلاع تتمركز فيها قوة من المدفعية التي تستطيع السيطرة على جميع الاتجاهات والمواقع التي يمكن أن يحتلها جيش العدو. ولما سقطت بلش، انسحب حاكم مالقة يوسف بن كماشة، فتسلم القيادة في المدينة ثلاثة من الرجال الأشداء، هم: حامد سليم الثغري شيخ قبيلة غمارة، وابراهيم الزناتة (او الزيناتي)، وثالث تقول الرواية الاسبانية إن اسمه حسن. وقد صممت الحامية بقيادة هؤلاء القادة الأبطال، على الصمود والقتال حتى النهاية، وعدم الاستسلام والرضى بالذل. وادرك فرناندو صعوبة المهمة التي ستواجهه إذا ما ثبتت الحامية على قرارها في المقاومة، وأراد أن يستميل القادة ويشتريهم، فارسل اليهم يعرض عليهم العروض السخية المغرية، ومن جملة ما عرضه على الثغري، أن يمنحه حصن ذكوان، وأربعة آلاف دينار من الذهب، فلم يقبل أحد من القادة التزحزح عن موقفه، ورد الثغري رداً نبيلاً، إذ قال له: إن مواطنيه العرب،

اختـاروه للدفـاع عنهم ، كأفضـل رجل فيهم ، لذلك لن يكون أسوأهم ببيعهم تأميناً لمصالحه الخاصة .

ولـما يئس الملك من استـمالة القادة لجأ الى التهديد، ليوقع الشقاق والبلبلة بين رجـال الحـامية ، وفي أوساط الشعب، فأرسل الى المدينة يخيرها بين الاستسلام على نفس الشروط التي استسلمت عليها بلش مالقة ، وبين الوقوع في الرق إذا ما أخذت المدينة عنوة، فلم يجده ذلك نفعاً، إذ اصرت المدينة على القتال.

ووصل فرناندو أمام مالقة يوم ٧ أيار، على رأس جيش قدرته الروايات بستين الفـاً ، ولم يكن في المـدينـة غير ثمانيـة آلاف مقاتل يؤلفون القوة المدافعة ، وكان معهم بعض (القوم) الذين اتوا من المغرب تلبية لداعي الجهاد، ونجدة اخوانهم في القومية والدين . وركز الملك مدافعه في الأماكن التي تسيطر على المدينة ، وقد أظهر القائدان الثغري والزيناتي من الجرأة والحذق في اعمال الدفاع ، ما أكبره المؤرخون الغربيون . وكـان ابـراهيم يقود عمليات الحامية ، وقتال الاسبان خارج الاسوار، فيؤثر فيهم اثراً بليغـاً ، ويـوقـع الـذعـر في قلوبهم ، حتى أخـذ النبـلاء الاسبان يرتجفون من مواجهة المسلمين في ميدان القتال ، ويكرهون الهجوم على المدينة ، لكيلا يصطدموا بالمسلمين وجهـاً لوجـه . فتقـدموا الى الملك يعرضون عليه دفع نفقات الحصار مهما طال أمـده لاخضاع المدينة بالجوع والانهاك ، بشرط وقف الهجوم على المدينة(١) .

وبرغم ما كان يعانيه المسلمون من ضيق ، واجهاد ، وما كانوا يتحملونه من غدر الاسبـان وغشهم ، فان قادة الحـاميـة ورجـالهـا بقـوا أوفياء للتقاليد العربية الاسلامية الحميـدة ، في النبـل والشهـامـة ، فقد التقى إبراهيم يوماً وهو عائد من ميدان القتال ، بجمـع من الصبيـة الاسبان ، يلعبون وهم يظنون أنهم في مأمن من الخطر ، فداعبهم إبـراهيم بكعب رمحـه ، وقـال لهم اذهبـوا إن امهاتكم ينتظرنكم ، ولم يفكر بايذاء أحد منهم ولا في اخـذهم أسـرى أو رهـائن . ولما قال له أصحابه لماذا لم تضرب بسن رمحك قال : لم أجد فيهم شارباً . وقد ذكر الكونت سيركور هذه القصة ، وعلق عليها بكثير من الاحترام والتقدير .

استمـرت عمليـات الحصـار حتى شهـر آب ، وكـانت الأسـوار والابـراج قد تهدمت ، من كثرة ما احتملتـه من قذف المـدفعيـة ، ونفـذت الاقـوات والـذخائر من

---

(١) الكونت سيركور ج١ ص٣١٢ .

المدينة. وألح الألم والمرض على القائد الثغري فانسحب الى قلعة جبل فارومع شجعان جيشه من القوم، وانسحب ابراهيم هو الآخر الى احد الأبراج المتهدمة لمتابعة المقاومة. وحينئذ أخذ اغنياء البلدة في مفاوضة الملك على التسليم، وأرسلوا شخصاً يتولى المفاوضة عنهم، ويبدو أنه خانهم، إذ اهتم بتأمين مصالحه، ومصالح أقربائه، وحصل على ضمان لحياة السكان.

ونتيجة للاتفاق سلمت المدينة الى الملك يوم ١٨ آب، واستسلم الثغري يوم ٢٠ منه، بعد أن نفدت ذخيرته وأقواته، فقذف الملك به في السجن، ولم يشفع له جهاده ونبله وبطولاته، ولكنه بقي في سجنه وقيوده أكبر من فرناندو المنتصر عليه، كما يقول الكونت سيركور(٢).

ولم يكن مصير الزيناتي بأفضل من مصير صاحبه. وقد أظهر الملك ـ على ما يقوله الكونت سيركور ـ بعد ظفره في مالقة من أعمال الغش والخداع ما يثير الاشمئزاز والقرف والاحتقار(٣). فقد كان في المدينة قرابة ٤٥٠ يهودياً، أعلن اخوانهم في مملكة قشتالة عن استعدادهم لافتدائهم، بمبلغ ٢٧ الف دوكات من الذهب، فلما دفعوا الفدية قبضها الملك، وقال لهم إن هذا المال يعود إليه أصلاً، ولا يمكن أن يكون فدية لأهل مالقة، وبذلك قبض المال واسترق اليهود.

أما السكان العرب، وعددهم قرابة ١٢ الفاً، فقد أراد الملك ان يستصفي أموالهم، وأن يحملهم على اخراج ما يخبئون من مال، فاعلن لهم أنه يقبل منهم افتداء أنفسهم بدفع ٣٦ دوكا عن كل شخص، تدفع خلال سنة ونصف على أن يكون السكان كلهم متضامنين، فاذا لم يدفعوا كامل المبلغ، كان له أن يسترقهم. وجهد العرب في جمع المال، وأخرجوا كنوزهم، وحصلوا على أموال وإعانات من اخوانهم في غرناطة، وفي المناطق الأخرى، ولكن المبلغ المفروض كان كبيراً. فلم يتمكنوا من جمعه كله، فتسلم الملكُ المبلغ المجموع، واسترق أهل مالقة. وهو ما كان قد قرر في نفسه عمله على كل حال.

---

(١) ذات المرجع ص٣١٤.

(٢) ذات المرجع ص٣١٣.

١٠٠ ـ احتلال بسطة :

تقع بسطة في الشمال الشرقي من غرناطة، على ضفة نهر يسمى باسمها، وتعتبر مفتاح المنطقة الشرقية كلها. وكانت توجد حولها بساتين كثيفة، تفصل بينها جدران (دكوك)، تحد هذه البساتين، وتجري فيها اقنية مياه الري، فتجعل حركة الفرسان صعبة، وتجعل المدفعية عديمة الجدوى. وبالاضافة الى حصون المدينة وأبراجها، فإن كثيراً من الأبراج التي كانت تقوم بين البساتين، تمكن الحامية من الدفاع عن المدينة، إذ كان يعتبر كل برج منها، وحدة دفاعية مستقلة، تتطلب جهوداً خاصة للسيطرة عليها. وكان في قلعة بسطة حامية يبلغ تعدادها عشرين الفاً، إذ ان الزغل ادرك من حملة فرنانـدو لعام ١٤٨٨، أن هدفه المقبل سيكون بسطة، فجمع فيها الأقوات والرجال والمؤن والذخائر لتكفي الحامية خمسة عشر شهراً، وأرسل اليها خيرة رجال المملكة، وأكثرهم تدريباً.

وفي ربيع عام ١٤٨٩، سار فرناندو على رأس قوات قدرت باثني عشر الف فارس، وخمسين الف راجل، فوصلها في أوائل حزيران. وجرت فوراً معركة بين الاسبان والحامية تمكن فيها الاسبان من دحر الحامية وردها الى حصونها. وتقدم الاسبان الى الحصون الخارجية، وحينئذ أدرك الملكان عظم المهمة التي سيواجهانها، وأن الحصار سيطول، فقررا تخريب البساتين، وهدم جدرانها العائقة لتقدم الفرسان والمدفعية، وأمرا أربعة آلاف رجل القيام بهذه المهمة تحت حماية الجيش كله، فشقوا طريقاً الى بسطة خلال أربعين يوماً، وكانت المناوشات لا تنقطع بين الجانبين، ثم رئي أن العملية تتطلب جهداً أكبر فقرر الملكان تحويل مياه نهر بسطة، وإقامة سورين وابراج لاقامة رجال المراقبة. وقد استغرق العمل في تنفيذ ذلك أربعة أشهر. وكان الخريف قد حل، وأخذ البرد يشتد ويزعج الجنود فطالبوا بالسماح لهم بالعودة الى بيوتهم كما هي عادتهم دائماً.

ولكن الملكين أرادا الاستمرار وعدم تأجيل عملية الاستيلاء على بسطة لأن جميع الجهود المبذولة ستضيع سدى إذ إن المسلمين سيتمكنون من تخريب جميع ما بنوه وأقاموه، فأمر الملكان ببناء أماكن تقي الجنود البرد والمطر. أما المسلمون فقد بقوا مصممين على الدفاع، ثابتين عليه، وفرسانهم يقومون كل يوم بتحدي الفرسان النصارى المشهورين، ويدعونهم للمبارزة. فأمر الملك بمنع فرسانه من قبول التحدي

ضناً بهم، وخوفاً على حياتهم. وقد بلغت خسائر الاسبان حتى ذلك الوقت قرابة عشرين الف رجل نتيجة الحرب والمرض. وأراد الملك أن يضعف عزيمة المسلمين، باظهار تصميمه على مواصلة القتال، فأرسل الى الملكة يدعوها الى العودة الى المعسكر، لتبقى مع جنودها، تثير فيهم النخوة والعزيمة، وترفع من معنوياتهم. فجاءته في ٥ / ١١ / ١٤٨٩ وقد نجحت خدعة الملك إذ أدرك المسلمون، أنه مصمم على الحرب، وأنه لن يتخلى عن مهمته في فصل الشتاء.

كان يقود أعمال الدفاع شخص يدعى محمد حسن الشيخ، ويشرف على العمليات الأمير يحيى النير، مفوضاً من قبل عمه الزغل، فلما رأى المسلمون تصميم الاسبان، ذهب يحيى النير الى معسكرهم، وقابل الملكة والملك، وتقول الروايات الاسبانية(١)، إن الملكة استعملت كل ما لديها من سحر واغراء لاستمالة الأمير المسلم، وذكرته بأصل أمه الاسباني، وحملته بالعروض والاغراءات الكبيرة، على التنصر فتعمد سراً، واتفق على أن يبقى تعمده سراً ليستطيع تأدية مهمته على الوجه الأفضل.

ولما عاد يحيى الى بسطة، أقنع القائد محمد الشيخ بعدم جدوى المقاومة، وكتبا بذلك الى الزغل في وادي آش، وأعطياه صورة غير صحيحة عن حال المقاومة المسلمة في بسطة، ففوض الأمر إليهما، فسارا الى المعسكر الاسباني، واتفقا مع الملكين على تسليم المدينة، لقاء السماح للحامية بالخروج بسلاحها، وأمتعتها الى حيث تريد. أما السكان فيخيرون بين البقاء مع ضمان حرياتهم جميعاً، وبين الهجرة الى حيث يشاؤون بأموالهم.

وحينما استسلمت بسطة قدم قواد المواقع المحيطة بها خضوعهم على نفس الشروط التي تم عليها استسلام بسطة.

١٠١ - استسلام الزغل:

تابع النير مهمته الخسيسة، التي كلفته بها الملكة، وهي العمل على استسلام عمه الزغل، ووضع حد لمقاومته، فاذا تم ذلك تكون الأندلس كلها قد خضعت

---

(١) الكونت سيركورج ص٣٢٣.

للاسبان، لأن اتفاقية (لوشه) السرية مع أبي عبد الله الصغير، تلزمه بتسليم ما بيده فور الانتهاء من القضاء على الزغل. وتمكن النير من خداع عمه (الزغل)، الذي شلت الاحداث تفكيره، فاقنعه بعدم جدوى المقاومة، وحمله على وضع سلاحه بين يدي أعدائه. ونتيجة لمسعى النير أمكن التوصل الى الاتفاق التالي(1):

أ ـ يتعهد الزغل بأن يسلم ما بيده، وأن يحمل الحصون الخاضعة له على الاستسلام، وهي حصون مقاطعة المرية، وموتريل ووادي آش.
ب ـ يتنازل عن كل حق أو دعوى بملكية هذه الحصون.
ج ـ يتعهد الملكان لقاء ذلك، بتأمين السكان على أرواحهم وأموالهم، مع منحهم حق العيش في المملكة كمدجنين.
د ـ يحتفظ الزغل بملكية أندرش وبملكية البشرات ووادي الكرين، ويتسمى باسم ملك أندرش.
هـ ـ يحق للزغل الاحتفاظ بألف رجل من أتباعه.

وبعد أن وافق الطرفان على الشروط تم التوقيع على الاتفاق في ٢٢ كانون الأول ١٤٨٩م في خيمة الملك فرناندو أمام المرية. وتقول الرواية الاسبانية إن الملك قابل الزغل بالاحترام والإكرام، ولم يسمح له بتقبيل يده، ولام رجاله الذين تركوا الزغل يترجل عن حصانه ليقدم احترامه للملك الاسباني. وقد أثرت هذه المعاملة الحسنة في الزغل، وجعلت منه نصيراً متحمساً لفرناندو.

١٠٢ ـ سقوط غرناطة:

لما تم الاتفاق بين الزغل وبين فرناندو أرسل الملكان رسالة الى أبي عبد الله الصغير يطالبانه فيها بتنفيذ مضمون الاتفاق السري الموقع في لوشه، ورد الصغير بأنه على استعداد للتنفيذ، لكن الجماهير في البيازين والحمراء، انقلبت عليه منذ أن انتهى أمر عمه، واصبحت تهدده وتهدد ملكه، وتجعل من العسير عليه الوفاء بما سبق أن قبل به. وفي الواقع إن نقمة الشعب تزايدت على الصغير، وأخذ الناس يشتمونه علناً، وينعتونه بالمرتد والخائن، ويسمونه قاتل أبيه. ولولا متانة أسوار الحمراء، وجهود

---

(1) نفس المرجع ج١ ص٣٢٥.

وزيره ابن كماشة، لفتكت به الجماهير.

وقدر الصغير، في هذا الموقف الشديد الخطورة، أنه إذا ما حقق نصراً على الاسبان، فانه قد يستطيع استعادة ثقة الجماهير، ويتخلص من الضيق الذي يعانيه، ولاحت له الفرصة حينما قام الكونت دوتانديللا - القائد العام للحدود - بحملة شتوية على مرج غرناطة. وتقول الرواية الاسبانية إن الصغير هو الذي دفعه الى القيام بها، فانقض الصغير عليه، وانتصر عليه، وعاد يحمل الغنائم ورؤوس القتلى، ويسرق أمامه الأسرى، ودخل غرناطة دخول الظافرين فهلل له الشعب الذي دبت فيه الحماسة، وعاودته شجاعته.

وقد فوجىء فرناندو بهذه الحياة تدب من جديد في جسم حسبه ميتاً، وأدرك أن عليه أن يتسلم غرناطة حرباً. لكن الحرب كانت قد أرهقت اسبانيا واستنزفت معركة بسطة أموال الخزانة، حتى أصبحت الدولة تطلب دفع الضرائب كل عشرين يوماً[1]. لذلك رأى فرناندو على كره منه، أن يؤجل مسألة غرناطة الى وقت آخر وأرسل الى غرناطة رسالتين:

١ - الأولى موجهة الى الصغير، يحاول فيها إغراءه بالمنح والوعود والعطايا والاقطاعات ليتخلى عن فكرة المقاومة.

٢ - والثانية موجهة الى زعماء غرناطة، يعرض فيها عليهم، وعلى الشعب، تقديم الضمانات والعروض السخية، ويعرض على الزعماء منحاً شخصية، إذا سمحوا له بان يحتل بعض البيوت والأبراج في حي البيازين.

وحينما وصل رسول ملك اسبانيا الى غرناطة كان الصغير خارجاً منها يريد الإغارة على حصن البذول، الذي يسيطر على وادي الكرين، الممنوح للزغل، وقد تمكن الصغير من الاستيلاء عليه، وعاد يجر الأسرى وراءه.

وبعد أن حقق الصغير هذا النصر الصغير، رد على رسالة الملك رداً غير مرض، فوصل الرد الى الملك وهو في أشبيلية، في نفس الوقت الذي وصل إليه نبأ سقوط البذول، فاستبد به الغضب، وخرج من فوره الى مرج غرناطة يعيث فيه ويقطع الأشجار. ووافاه الزغل ويحيى النير على رأس ٣٥٠ فارساً، وساعداه في عيثه

---

(١) نفس المرجع ج١ ص٣٢٩.

في المنطقة، وقدم الزغل للملك حصن (همدان[1])، التابع له ليضع فيه حامية قشتالية. كما قدم يحيى النير حصنا استولى عليه بالحيلة ليستخدمه في مثل ذلك. وقد أساء هذا التصرف الى الزغل إساءة بالغة، أنسى الشعب جميع حسناته، فأخذ شعب البشرات، الخاضع له يشتمه في المساجد[2].

وزاد في نقمة الشعب على الزغل، أن الملكة إيزابيل نقضت شروط الاستسلام مع المرية ووادي آش، وحولت المساجد الى كنائس، فكان لذلك أسوأ الأثر وأبعده في نفوس أتباع الزغل، فانفجرت الثورة في البشرات ووادي المرية، وانضم سكان جبال الثلج (سيرا نيفادا) الى الصغير وأصبح الصغير في نظرهم رمزاً للنضال الوطني. وتحرك الصغير يحاصر الحاميات الاسبانية الموجودة في الحصون الواقعة في المنطقة، وأصبحت المنطقة كلها نيرانا تشتعل بالحقد والغضب على الزغل، وعلى ابن اخيه النير، وعلى الاسبان.

ولما رأى فرناندو تطور الأمور أسرع على رأس ثلاثين ألفاً الى مرج غرناطة في أواخر تموز، وأرسل مفرزة الى شلوبانية لتقطع طريق الرجعة على الصغير، فخاف هذا، وارتد مسرعا الى غرناطة، وانطلق النير الى وادي المرية فاخضعه وأعاده الى طاعة الملك الاسباني.

وفتحت ثورة البشرات عيون الزغل على الدور الخسيس الذي يقوم به في معركة المصير العربية في الأندلس، وهو الذي كان يتمتع بحب شعبه واحترامه، فباع املاكه الى الملكة، والى يحيى النير، وعبر المضيق الى المغرب. وهناك لاقى أسوأ معاملة، إذ قبض عليه سلطان فاس وسمل عينيه، وتركه يستجدي الناس ليعيش.

وبعد أن ارتحل الزغل الى افريقيا أصبح سقوط غرناطة أمراً محتوماً، ولكن المسألة مسألة وقت لا غير.

١٠٣ ـ استسلام غرناطة:

سار فرناندو في أوائل عام ١٤٩١م، على رأس خمسين الفاً، الى مرج غرناطة،

---

(١) وتقوم مكان بلدة (Alhendin).

(٢) اخبار العصر ص٣١. ونفح الطيب ج٢ ص٦١٣.

وأخذ في إحراق القرى والمزارع ولما وصل أمام غرناطة، أقام معسكره في المكان المعروف الآن بـ (سانتا فيه)، ثم حضرت الملكة، ليبث وجودها الحماسة والنخوة في رؤوس القادة والفرسان. وكان فرسان غرناطة يخرجون لقتال أعدائهم، ويوقعون بهم خسائر كبيرة، وكادوا يأسرون الملكة يوم ١٨ حزيران. ثم اهتدى الاسبان الى المسالك التي تتمون عن طريقها غرناطة، فسدوها بالرجال. وضيقوا الخناق على المدينة في محاولة لإجبارها على الاستسلام.

وبينما كان الحصار يسير سيره، ويفعل فعله، وقع حريق في المعسكر الاسباني وكان منشأ من الأخشاب، فقرر الملكان إقامة معسكر مبني بالحجارة، مكان المعسكر المحترق، وسمياه سنتا فيه.

أخذت غرناطة تعاني من نتائج الحصار، وتقل فيها الأقوات، فبدأت النفوس المريضة المرجفة، تحاول نقل مرضها الى الشعب لاضعاف مقاومته، وإخماد جذوة حماسة. وأدرك الصغير ووزراؤه أن المقاومة لا جدوى منها، وأنه من الخير التفاهم مع الاسبان للحصول على أفضل الشروط. وفي تشرين الأول، وصلت الى المعسكر الاسباني رسالة من الصغير، يطلب فيها وقف القتال، والدخول في مفاوضات، لبحث شروط الاستسلام. فسر الملكان سروراً كبيراً من هذا العرض غير المتوقع، وأمرا بوقف اطلاق النار اعتبارا من ٥/ ١٠/ ١٤٩١ لمدة سبعين يوماً. ودارت المفاوضات بصورة سرية بين الجانبين، واستغرقت وقتاً طويلاً، وقد ضمن الصغير لنفسه الكثير من المنافع، وأدت المفاوضات الى عقد معاهدة تحدد الشروط التي اتفق عليها الجانبان (٢٥/ ١١/ ١٤٩١) كما تم اتفاق آخر خاص، حدد المنافع التي يحصل عليها الصغير وأهله نتيجة لهذا الاستسلام.

وفي يوم ٢/ ١/ ١٤٩٢، خرج ابو عبد الله الصغير مع عدد قليل من أتباعه، خارج غرناطة، ووقف على جسر نهر شنيل ينتظر قدوم الموكب الملكي، ثم تقدم من الملك وقبل ذراعه اليمنى، فسلم وزيره يوسف بن كماشه الاسبان مفاتيح الحمراء، والحصون الأخرى. وقبل ان يتوجه الصغير الى وادي الكرين سلمته الملكة ابنه الذي كان رهينة لديها. وتوقف الصغير عند جبل الريحان ليلقي على غرناطة اخر نظرة وردد عبارة الله أكبر. ويسمي الاسبان المكان الآن (اخر زفرات العربي). وتذكر الروايات أن والدته عائشة سبقته ثم توقفت وسألت عنه فقيل لها انه يبكي فقالت:

ابك مثل النساء ملكا مضاعا ... لم تحافظ عليه مثل الرجال

ونقل الاستاذ عنان في كتابه نهاية الأندلس (ص٢٤٠) عن المؤرخ الاسباني كوندي قصة الاجتماع الذي تم في قصر الحمراء للتوقيع على وثيقة تسليم غرناطة:

«حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا معاهدة التسليم لم يملك كثير من الزعماء أنفسهم من البكاء، والذي بقي وحده صامدا قويا هو القائد موسى ابن أبي الغسان، فقال للحاضرين:

اتركوا العويل للنساء والأطفال فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لارسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة، ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة، ذلك هو الموت المجيد المشرف فلنمت دفاعا عن حريتنا، وانتقاما لمصائب غرناطة، وسوف تحتضن الأرض أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يضم رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال ان أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعا عنها.».

وصمت موسى، ونظر أبو عبد الله في وجوه الحاضرين، فلم يجد فيها عزما، عندئذ صاح: الله أكبر لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، لارادَّ لقضاء الله، تالله لقد كتب عليَّ أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدي.

وصاحت الجماعة الله أكبر ولا راد لقضاء الله، واخذوا يوقعون وثيقة التسليم. فنهض موسى مغضباً، وصاح في الجماعة:

لا تخدعوا انفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا الى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشاه، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك أعراض نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي الذميم، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق... وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه. وخرج مغضباً.

وتقول رواية اسبانية قديمة إن سرية من الفرسان النصارى تبلغ خمسة عشر فارساً، التقت مساء ذلك اليوم على ضفة نهر شنيل بفارس مسلم قد تدجج بالسلاح، وقد أدنى خوذته على وجهه، وشهر رمحه، وكان جواده غارقا مثله في الحديد، فلما رأوه مقبلا عليهم طلبوا إليه ان يقف ويُعَرِّف بنفسه، فلم يجب الفارس المسلم، وانقض عليهم يَطعن ويُطعن حتى اثخنته الجراح واثخنت حصانه، فسقطا على الأرض، فاستل خنجراً وأخذ يقاتل الفرسان الاسبان فلما رأى أن قواه ستخور

وتخذله، ارتد الى الوراء والقى بنفسه في الماء، فغاص في النهر تحت ثقل السلاح.

وتقول الرواية النصرانية إن هذا الفارس هوموسى بن أبي الغسان، وإن بعض المسلمين عرفوا جواده المقتول.

١٠٤ ـ معاهدة تسليم غرناطة المعقودة بين:
أبي عبد الله الصغير وبين الملكين الاسبانيين
بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني ١٤٩١ (٢١ محرم ٨٩٧هـ)[١][٢]

أورد الكونت دوسيركور، ترجمة كاملة لمعاهدة تسليم غرناطة الى اللغة الفرنسية، كما نشر الاستاذ محمد عبد الله عنان، خلاصة لمحتويات هذه المعاهدة، منقولة عن الأصل الاسباني الرسمي، في كتابه نهاية الأندلس (ص٢٣٠ وما بعدها)، وفيما يلي ننقل محتويات هذه الخلاصة، كما أوردها الاستاذ عنان مع اضافة قليلة من ترجمة سيركور:

مادة ١: يتعهد ملك غرناطة، والقادة والفقهاء والعلماء وكافة الناس، سواء في غرناطة والبيازين وأرباضهما، بأن يسلموا طواعيةً واختياراً، في ظرف ستين يوماً من ناريخ هذه المعاهدة، قلاع الحمراء والحصن ـ حصن الحيزان ـ وأبواب وأبراج الحمراء والحيزان، وأبواب غرناطة والبيازين، الى الملكين الكاثوليكيين أو الى من يندبانه من رجالهما، على ألا يسمح لنصراني بأن يصعد الى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين، حتى لا يكشف أحوال المسلمين، وأن يعاقب الملكان من يفعل ذلك. وضماناً لسلامة هذا التسليم، يقدم الملك أبوعبد الله والقادة، الى جلالتيهما، قبل تسليم الحمراء بيوم واحد، ٥٠٠ شخص صحبة الوزير ابن كماشة، من أبناء زعماء غرناطة والبيازين وآخرين، ليكونوا رهائن في أيديهما لمدة عشرة أيام، تصلح خلالها الحمراء. وفي نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً. وأن يقبل جلالتهما ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء، وسكان غرناطة والبشرات وغيرهما من الأراضي رعايا واتباعا تحت حمايتهما ورعايتهما.

---

(١) سيركور ج١ ص٤٢٤ (ملحق الكتاب وثيقة رقم ٩).
(٢) محمد عبد الله عنان ـ نهاية الأندلس ص٢٣٠.

٢ ـ حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلم الحمراء فعليهم أن يدخلوا من باب العشار، ومن باب نجدة ومن طريق الحقول الخارجية، ولا يسيروا إليها من داخل المدينة، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم.

٣ ـ متى تم تسليم الحمراء والحصن، يرد الملكان الى الملك أبي عبد الله ابنه المأخوذ رهينة لديهما، وكذلك ترد جميع الرهائن الذين معه، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية.

٤ ـ يتعهد جلالتهما وخلفاؤهما الى الأبد، بأن يُترَكَ الملكُ المذكور أبوعبد الله والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان، وسائر الشعب، تحت حكم شريعتهم، وألا يؤمروا بترك شيء من مساجدهم ومآذنهم، وتترك لهذه المساجد مواردها كما هي، ويقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ويحتفظون بتقاليدهم وعاداتهم.

٥ ـ لا يؤخذ منهم خيلهم ولا سلاحهم الآن أو فيما بعد، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة، فإنها تسلم.

٦ ـ يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما الذين يريدون العبور الى المغرب، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاؤوا، وأنه يحق للملكين شراؤها بمالهما الخاص.

٧ ـ يحق للسكان المذكورين أن يعبروا الى المغرب، أو يذهبوا أحرارا الى أية ناحية أخرى، حاملين معهم أمتعتهم وسلعهم وحليهم من الذهب والفضة وغيرها. ويلتزم الملكان بأن يجهزا في بحر ستين يوماً من تاريخه عشر سفن في موانيهما، يعبر فيها الذين يريدون الذهاب الى المغرب، وأن يقدما خلال الأعوام الثلاثة التالية، السفن لمن شاء العبور، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه، ولا يقتضى منهم خلال هذه المدة أي أجر أو مغرم، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك، نظير دفع مبلغ دوبل واحد (دوبلا) عن كل شخص، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع أملاكه أن يوكل لادارتها وأن يقتضي ريعها حيثما كان.

٨ ـ لا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم الآن أو فيما بعد على تقلد شارة خاصة بهم.

٩ ـ ينزل الملكان، للملك أبي عبد الله، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما، ولمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه، عن سائر الحقوق التي يجب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم.

١٠ ـ يجب على الملك أبي عبدالله وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، والبشرات وأراضيها ، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ، ودون أية فدية ، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم .

١١ ـ لا يسمح الملكان، بأن تؤخذ من الملك أبي عبد الله والأشخاص المذكورين، خدمهم وخيولهم ومواشيهم لتستخدم في أعمال السخرة، ويستثنى من ذلك ما يقدمونه هم طواعية، وتدفع لهم أجور مناسبة وعادلة.

١٢ ـ لا يسمح لنصراني بدخول مكان عبادة المسلمين إلا بإذن من الفقهاء ويعاقب من يخالف ذلك.

١٣ ـ لا يولى على المسلمين مباشر يهودي، ولا يمنح أحد من اليهود أية سلطة و ولاية عليهم.

١٤ ـ يُعَامَلُ الملكُ أبو عبد الله وسائرُ السكان المسلمين برفق وكرامة، ويحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ويؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقا للقواعد المرعية.

١٥ ـ إذا قام نزاع بين المسلمين، فُصِلَ فيه وفقا لأحكام شريعتهم، وتولى ذلك قضاتهم.

١٦ ـ لا يكلفون بإيواء ضيف، ولا تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية، أو غيرها دون إرادتهم.

١٧ ـ إذا دخل نصراني منزل مسلم قهراً عنه، عوقب على فعله.

١٨ ـ يحتفظ المسلمون بأنظمتهم في شؤون الميراث، ويحتكمون الى قضاتهم وفقا لسنن المسلمين.

١٩ ـ يحق لسكان غرناطة والبشرات، وغيرهما الداخلين في هذا العهد، الذين يعلنون الولاء لجلالتيهما في ظرف ثلاثين يوماً من التسليم، أن يتمتعوا بالاعفاءات الممنوحة، مدى السنوات الثلاث.

٢٠ ـ يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أو أية أشياء أُخرى موقوفة على أوجه الخير، وكذلك دخل المدارس يبقى متروكاً لنظر الفقهاء، ولا يتدخل جلالتهما بأية صورة، في أمر هذه الصدقات ولا يأمران باخذها في أي وقت.

٢١ ـ لا يؤخذ أي مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر، فلا يؤخذ والد بذنب ولده، أو ولد بذنب والده، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم.

٢٢ ـ إذا كان مسلم أسيراً وفر الى مدينة غرناطة أو البيازين وأرباضهما أو

غيرهما، فانه يعتبر حراً، ولا يسمح لأحد من ضباط العدلية أومالكيه باقامة الدعوى ضده إلا إذا كان أسود من جزر الكنارى أو من بولوف أو من الجزائر.

٢٣ ـ لا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون للملوك المسلمين.

٢٤ ـ يحق لسكـان غرنـاطـة والبيـازين والبشـرات وغـيرهـا، ممن عبروا الى المغرب، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية، وأن يتمتعوا بكل ما يحويه هذا الاتفاق.

٢٥ ـ يحق لتجـار غرنـاطـة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها، أن يتعاملوا في سلعهم آمنـين، عابـرين الى المغـرب وعـائـدين، كما يحق لهم دخـول سائر النواحي التابعة لجلالتهما ولا يدفعون من الضرائب إلا ما يدفعه النصارى.

٢٦ ـ إذا كان أحـد النصـارى ـ ذكـراً كان أم أنثى ـ اعتنق الإسلام، فلا يحق لإنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة، ومن فعل ذلك يعاقب.

٢٧ ـ إذا كان مسلم قد تزوج بنصـرانيـة، واعتنقت الاسـلام، فلا ترغم على العودة الى النصرانية، بل تسأل في ذلك أمام المسلمين والنصارى، ولا يرغم أولادها على التنصر سواء أكانوا ذكوراً أم اناثاً.

٢٨ ـ لا يرغم مسلم أومسلمة قط على اعتناق النصرانية.

٢٩ ـ إذا شاءت مسلمـة متـزوجـة أو أرملة أو بكـر، اعتناق النصرانية، بدافع الحب، فلا يقبـل منهـا ذلـك حتى تسأل وتوعظ وفقا للقانون. وإذا كانت قد استولت خلسـة على حلي أوغيرهـا من دار أهلهـا أو شيء آخـر، فانهـا ترد لصـاحبهـا وتتخذ الاجراءات ضد المسؤول.

٣٠ ـ لا يطلب الملكـان، ولا يسمحـان بأن يطلب، الى الملك أبي عبد الله أو خدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرها، من الداخلة في هذا العهـد، بأن يردوا ما أخـذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين، من الخيل والماشيـة أو الثيـاب أو الفضـة أو الـذهب أوغيرها، أومن الأشياء الموروثة، ولا يحق لأحد تعرف على شيء من ذلك أن يطالب به.

٣١ ـ لا يطلب الى أي مسلم يكـون قد هدد أوجرح أوقتـل أسـيراً أوأسـيرة نصرانية ليس أوليست في حوزته رده أوردها الآن أو فيما بعد.

٣٢ ـ لا يدفـع عن الأمـلاك والأراضي السلطـانيـة (الملكيـة)، بعـد انتهـاء السنوات الثلاث المعفاة من الضرائب إلا وفقا لقيمتها، وعلى مثل الأراضي العادية.

٣٣ ـ يطبق ذلك أيضاً على أملاك الفرسان والقادة المسلمين فلايدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية.

٣٤ ـ يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما، والأراضي التابعة لهما بما في هذا العهد من الامتيازات، ويسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر تبدأ من ١٨ كانون الأول.

٣٥ ـ يكون الحكام والقواد والقضاة، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضي التابعة لهما، ممن يعاملون الناس بالحسنى، ويحافظون على الامتيازات الممنوحة، فإذا أخل أحدهم بالواجب، عوقب، وأحل مكانه غيره يحسن معاملة المسلمين.

٣٦ ـ لا يحق للملكين ولا لاعقابهما الى الأبد أن يسألوا الملك أبا عبد الله أو أحداً من المسلمين المذكورين في أية صورة عن أي شيء يكونون قد فعلوه حتى يوم تسليم الحمراء، أي بعد ستين يوماً من توقيع المعاهدة.

٣٧ ـ لا يولى عليهم أحد من الفرسان والقادة أو الخدم الذين كانوا تابعين لملك وادي آش (مولاي الزغل).

٣٨ ـ إذا وقع نزاع بين نصراني أو نصرانية ومسلم أو مسلمة فإن النزاع ينظر أمام قاضٍ نصراني وآخر مسلم لكيلا يتظلم أحد مما يقضى به.

٣٩ ـ يقوم الملكان بالافراج عن الأسرى المسلمين ذكوراً وإناثاً، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما، إفراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها، ويكون الإفراج عمن كان من هؤلاء الأسرى في الأندلس، في ظرف خمسة أشهر تلي المعاهدة. أما الأسرى الذين يكونون في قشتالة فيفرج عنهم خلال ثمانية أشهر.

٤٠ ـ إذا دخلت أية محلة من نواحي البشرات في طاعة جلالتيهما فإنه يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصارى ذكوراً وإناثاً في ظرف خمسة عشر يوماً، من تاريخ الانضمام، وذلك دون أية نفقة.

٤١ ـ تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن في موانىء مملكة غرناطة لتسافر في أمان، على ألا تكون حاملة أي أسير نصراني، ولا يحدث لها أي ضرر ولا إتلاف، ولا يؤخذ منها شيء. ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى نصارى. ويحق للملكين أن يرسلا من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض.

٤٢ ـ لا يُدعى أحد من المسلمين الى الحرب، ولا يؤخذ رغم إرادته، وإذا

شاء الملكان استدعاء الفرسان الذين لهم خيول وسلاح للعمل في نواحي الأندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة.

٤٣ - يجب على من كان عليه دين أو تعهد، أن يؤديه لصاحب الحق، ولا يحق له التحرر من هذه الحقوق.

٤٤ - يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لمحاكم المسلمين، مسلمين الآن وإلى الأبد.

٤٥ - يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين من المسلمين ولا يتولاها نصراني الآن ولا في أي وقت.

٤٦ - وفي اليوم الذي تسلم فيه الحمراء وحصن الحيزان والأبواب يقوم الملكان باصدار مراسيم الامتيازات، للملك أبي عبد الله، وللمدينة ممهورة بتوقيعهما، ومختومة بخاتمهما، وأن يصدق عليها ولدهما الأمير، والكردينال دسبينا، ورؤساء الهيئات الدينية، والعظماء.. حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن وفي كل وقت.

وقد ذيلت المعاهدة بحاشية خلاصتها ان ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانه باسميهما، ويمهرانه بخاتميهما» (٢٥ نوفمبر - تشرين الثاني ١٤٩١م).

القسم

٢

المعاملة

الفصل الأول

المستعربون الاسبان في ظل الحكم العربي

١٠٥ ـ أولاً ـ القواعد العامة في معاملة المسلمين للأمم المغلوبة :

حينما شرع المسلمون في فتح الأندلس عام ٩٢هـ (٧١١م)، كانت نظريتهم في معاملة الأمم المغلوبة قد تبلورت، وتكاملت، وظهرت نتائجها الطيبة في التطبيق، إذ اجتذب التسامح وحسن المعاملة، وسهولة فهم الدين، الملايين من أبناء تلك الأمم الى الدين الاسلامي، فكانوا قوة جديدة تتحمس لنشره، وتدفع أذى أعدائه وخصومه في ميداني الحرب والجدل.

ومنذ أن حقق المسلمون أول نصر لهم في اسبانيا، بدؤ وا بتطبيق قواعدهم العامة دون تخبط أو اضطراب، فوجد الاسبان من المسلمين عدلاً ووفاء بالعهد، وحرمة تامة للمجتمع القائم وأعرافه، وعدم تدخل في شؤونه الدينية، فدخلت أفواج من الاسبان في الدين، وخصوصاً الطبقات الفقيرة والفلاحين الذين حررهم الاسلام من ربقة العبودية، ورفع شأنهم، وساواهم بمن كانوا في جيش الفتح من المسلمين السابقين، وهي أمور لم يكونوا يطمعون فيها، أو يحلمون بمثلها، إذ كانت غريبة عن روح العصر، وعن تقاليد المجتمع الغربي في ذلك الحين. أما الذين أرادوا الاقامة على دينهم فقد ترك لهم العرب الحرية التامة في ممارسة دينهم، وجعلوا لهم نوعاً من الاستقلال الاداري والقضائي مارسوه بإشراف كنيستهم وأعيانهم.

ويحسن بنا قبل أن ندخل في بحث معاملة العرب للمستعربين الاسبان أن نعطي صورة عامة للقواعد التي وضعها الفقهاء المسلمون في معاملة الأمم المغلوبة التي قبلت العيش في ظل الحكم الإسلامي.

١٠٦ ـ نشر الدعوة الاسلامية :

شرع الله الاسلام ديناً عاماً، وفرض على المسلمين القيام بدعوة الناس إليه، وهدايتهم الى الحق من ربهم، والنور الذي أتى به الأنبياء والمرسلون، لتبلغ دعوة الله أكبر عدد ممكن من بني البشر فيعرفوا طريق الخير الى الله، وتنقطع معاذيرهم، وتقوم الحجة عليهم(١)، ﴿ لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ليهلكَ من هلكَ عن بينةٍ ويحيا من حيي عن بينة﴾(٢)﴿ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً(٣) ﴾ . ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾(٤) .

لكن الله فرض على النبي والمسلمين أن تكون الدعوة بالحسنى، والموعظة الحسنة، لأن الغاية من الدعوة هي تعريف الناس بالخالق، ونشر الخير على الأرض، لا الافساد وإزهاق الأرواح، وإذلال البشر، قال الله تعالى﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة(٥)﴾ . وغاية الدين هي ابلاغ الدعوة لا اجبار الناس على الأخذ بها، لأن الله خلق الناس، وخلق لهم عقولا تميز بين الخير والشر، وبين الصالح والطالح من النظريات والآراء، وقد كره الله أن تفرض العقيدة على الناس فرضاً، لأن ذلك ينفرهم منها، ويحملهم على الأخذ بها ظاهراً، ونبذها باطناً، مع أن الغاية من الدعوة هي اقناع الناس بها اقناعاً حراً بريئاً لتتغلغل أفكارها ومبادؤ ها الى أعماق نفوسهم، فيكونوا لها مخلصين، وعلى التقيد بها حريصين، لذلك جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم، توجب التزام الدعوة بالحسنى وعدم إكراه الناس على ترك مايعبدون للدخول في الاسلام حتى ولو كان مايعبدون حجارة وأصناماً :

- ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ . (سورة البقرة آية ٢٥٦ ﴾
- ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ . (سورة المائدة آية ٤٨) .
- ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ . (سورة الشورى آية ٨) .

---

(١) التشريع الاسلامي لغير المسلمين ـ عبد الله مصطفى المراغي ص ٣٠ .
(٢) سورة النساء آية١٦٥ .
(٣) سورة فصلت آية ٤١ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٠٤ .
(٥) سورة النحل آية ١٢٥

ـ ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ . (سورة يوسف آية ١٠٣) .
ـ ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ، إن الله يهدي من يشاء ﴾ . (سورة القصص آية ٢٨) .
ـ ﴿ إدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ . (سورة النحل ١٢٥) .
ـ ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ،أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (سورة يونس آية ٩٩) .
ـ ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ،ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ .(سورة النحل آية ٢٧)
ـ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) . (سورة آل عمران آية ١٥٩) .
ـ ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ . (سورة آل عمران آية ١٠٤) .
ـ ﴿ فإن اعتزلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ . (سورة النساء آية ٩٠) .

ولذلك فان الاسلام لم يفرض على المسلمين القضاء على الأديان الأخرى، وانما فرض عليهم دعوةَ الناس اليه بالحسنى، وشرحَ محاسنه بالرفق واللين، وبعد ذلك ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر[1] ﴾. ولهذا يُعَدُّ المسلمون ممن يقبلون التعايش الحر، مع أتباع الديانات الأخرى، ولايتبرمون بوجود هذه الديانات، ولايرسمون سياسة خاصة للقضاء عليها.

١٠٧ ـ الجهاد في نشر الدعوة :

لم يترك المشركون العرب الدعوة الجديدة تظهر بينهم بدون مقاومة منهم لها، وايذاء للنبي ﷺ وللمسلمين، وتابعوا بغيهم وعدوانهم، حتى اضطروهم الى الهجرة من بلدهم مكة الى الحبشة مرتين، ثم الى يثرب . لذلك شرع الله الجهاد للدفاع عن النفس أولاً ، ثم للسماح للدعوة بأن تنتشر بحرية دون أن يكون هناك عائق يضغط على إرادة من يريد اعتناقها، ﴿أُذن للذين يقاتلون في سبيل الله انهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير[2]﴾ ،وبعد أن دانت الجزيرة العربية كلها بالاسلام كان على

---

(١) سورة الكهف اية ٢٢٩
(٢) سورة الحج آية ٣٩

المسلمين أن يحملوا الدعوة خارج الجزيرة، ولكن كانت هناك على حدودهم الشمالية والشرقية مملكتان قويتان هما فارس وبيزنطة (الروم) فأرسل الرسول الى ملكيهما رسالتين يدعوهما فيهما الى الإسلام، فرد ملك فارس رداً قبيحاً، ومزق الرسالة، ورد ملك الروم رداً جميلاً، ولكن المملكتين لم تكونا على استعداد للسماح للدعوة الاسلامية بأن تنتشر بحرية في الأراضي الخاضعة لهما، لذلك كان لا بد للدعوة الاسلامية من أن تحطم هذين السورين المنيعين، لتنطلق بعدها فيما وراءهما، وتبلغ أسماع بني البشر، فكانت الحرب، وكان تحطيم الامبراطوريتين العظيمتين في القادسية واليرموك.

١٠٨ ـ اعلان الحرب:

أوجب الدين على المسلمين ألا يأخذوا أعداءهم على حين غرة، وألا يقاتلوهم غدراً وغيلة، وإنما أوجب عليهم:

أ ـ أن يدعوهم الى الاسلام، ويعرفوهم به أولا، ويشرحوا لهم تعاليمه، ويعلموهم بأنهم إن أسلموا، صاروا مع المسلمين يداً واحدة، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، لا ميزة لواحد منهم على واحد الا بالتقوى.

ب ـ اذا رفضوا الاسلام خيروا بين أمرين:

١ ـ اما أن يقبلوا بدفع الجزية للمسلمين، وحينئذ يتركهم المسلمون آمنين في أرضهم وبيوتهم، ويصبحون في ذمة المسلمين، الذين يتكفلون بالدفاع عنهم، وعن أرواحهم وأموالهم، فان عجز المسلمون عن حمايتهم لم تكن لهم عليهم جزية.

٢ ـ وإما أن يرفضوا الاسلام والجزية، فلا يبقى أمامهم غير القتال، واذا مضت مدة ولم يردوا على المسلمين بشيء ينتظر المسلمون لأن يبلغ رئيسُ القوم جماعته شروط المسلمين، فإن لم يردوا بعد ذلك وجب على المسلمين قتالهم.

هذه هي القاعدة العامة في إعلان الحرب على الأمم الأخرى، وهذه هي الشروط التي كان يعرضها المسلمون على جميع الأمم التي حاربوها، ولم يستثنوا غير فئتين من الناس:

١ ـ المشركين العرب، الموجودين داخل جزيرة العرب.

٢ ـ والمرتدين عن الإسلام، بعد الدخول فيه.

فهاتان الطائفتان، كان على المسلمين تخييرهما بين أحد أمرين، الإسلام أو القتال، ولا تقبل منهما الجزية.

١٠٩ ـ معاملة المسلمين لغير المحاربين:

اعتبر الإسلام الحرب والقتال شَرَّين لابد منهما شرعاً للضرورة، وبما أن الضرورة تقدر بقدرها، لذلك لم يجز الاسلام قتل من لا يحارب، حتى لو عثر عليه في أثناء القتال، ومن هؤلاء: المرأة والشيخ الهرم الفاني، والمقعد والأعمى والصبي والمجنون، ومن لا يقدرون على القتال، والراهب الذي لا يخالط الناس، إذا كان في صومعته، والمترهب في كنيسته أوداره، إذا أطبق عليه بابه. وجعل الإسلام كل من لا يجوز قتله في أثناء المعركة لا يجوز قتله بعدها، حتى لو أخذ أسيراً، إلا إذا كان قد ساعد المحاربين بقول أورأي، ما عدا الصبي والمعتوه، فإنه لا يحل قتلهما ولو أخذا أسيرين، لأن القتل عقاب للمقتول على ما جنى، والصبي والمجنون ليسا أهلاً للعقاب[1].

١١٠ ـ كيف يعامل المسلمون من دخلوا في ذمتهم[2]:
عقد الذمة «والأمان المؤبد»:

تعريف عقد الذمة: هو عقد يتولاه الإمام أو نائبه من جانب، والذمي من جانب آخر، على أن يُترَكَ القتالُ من الجانبين مؤبداً.

ركنه: وركنه لفظ العهد أو الدلالة على قبول الجزية، كأن يدخل رجل من أهل دار الحرب، أرض الإسلام ويقيم فيها أكثر من سنة.

شروطه: يشترط في عقد الذمة ثلاثة شروط:

أ ـ أن لا يكون المعاهد من مشركي العرب.

ب ـ أن لا يكون المعاهد مرتداً عن الإسلام.

ج ـ أن يكون العقد مؤبداً فإن حدد له وقت لم يصح عقد الذمة.

---

(١) المراغي ص٢٧.

(٢) المراغي ص٣٠.

آثاره: يترتب عليه من الآثار عصمةُ المال، وعصمةُ النفس. ويروى عن سيدنا علي أنه قال [إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤ هم كدمائنا].

صفته: هو عقد لازم بحق المسلمين، ولا يملكون نقضه بحال من الأحوال. أما بحق الذمي فهو غير لازم ويمكنه نقضه في إحدى الحالات الآتية:

أ ـ أن ينقضه الذمي بإسلامه.

ب ـ إذا لحق الذمي بدار الحرب.

ج ـ إذا غلب العدو على موضع فحاربه المسلمون عليه.

ويرى الإمامان مالك وابن حنبل أن هناك أربعةَ أمور تجعل الذمي بريئاً من ذمة الشرع:

أ ـ الكفر بالله وذكره بما لا يليق بجلاله.

ب ـ ذكر كتابه بما لا ينبغي.

ج ـ ذكر دينه بما لا ينبغي.

د ـ ذكر رسوله بما لا ينبغي.

وحينئذ ينقض عهده سواء أشرط ذلك أم لم يشرط.

وقال ابن القاسم إن الأمور التي تنقض عهد الذمي ثمانية:

أ ـ أن يجمعوا على قتال المسلمين.

ب ـ أن يزني أحدهم بمسلمة.

ج ـ أو يصيبها باسم النكاح.

د ـ أو يفتن مسلماً عن دينه.

هـ ـ أو يقطع على المسلم الطريق.

و ـ أو يؤوي للمشركين جاسوساً.

ز ـ أو يعين على المسلمين بدلالة، فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين.

ح ـ أو يقتل مسلماً أو مسلمة عمداً(1).

١١١ ـ الجزية والخراج:

يبسط المسلمون سلطانهم على أراضي أعدائهم باحدى صورتين:

---

(1) الشعراني ـ كتاب الميزان ج٢ ص١٦٢.

١ ـ بالحرب، إذا قهروا عدوهم في ساحة المعركة، وغلبوا على أرضه وداره.
٢ ـ بالصلح والعهد، إذا قبل العدو أن يجنح للسلم، ويتعاقد مع المسلمين، وحينئذ يكون على المسلمين مسالمته ومصالحته، عملا بقوله تعالى ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾(٢).

وتختلف المعاملة التي يعامل بها الشعب الداخل تحت سلطان المسلمين، باختلاف الطريقة التي خضع بها: الحرب أو العهد أو الصلح. وفي كل حال تفرض على الأرض ضريبة هي الخراج أو العشر، وضريبة على الرجال المعتملين (أي الذين يمارسون عملاً)، القادرين على الحرب هي الجزية.

١١٢ ـ الخراج:

هو ضريبة تتوجب على أرض الحربي، إذا صار ذمياً، وأقره المسلمون على ملته، وهو نوعان:

أ ـ خراج مقاسمة: وهو أن يؤخذ جزء شائع من غلة الأرض كالخمس أو العشر أو نحوهما.

ب ـ خراج وظيفة: وهو فرض مبلغ مقطوع على الأرض بحسب زراعتها، كما لو أخذ من الأرض المروية قفيز بر عن كل جريب، ومن الأرض غير المروية المزروعة كرماً مثلاً، عشرة دراهم، عن كل جريب من الأرض وهكذا.

وللخراج ستة أنواع:

١ ـ أرض استأنف المسلمون احياءها، فهذه أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج، باتفاق الأئمة.
٢ ـ أرض أسلم أهلها طوعاً من غير قتال ـ فهذه أرض تدفع العشر ولا خراج عليها.
٣ ـ أرض استولى عليها المسلمون عنوة وقهراً من عدوهم، وفيها قولان:

ا ـ قول يجعلها غنيمة للمسلمين، تقسم بين الفاتحين كالمنقولات، وتكون أرض عشر لا خراج عليها.

ب ـ وقول آخر يجعل الإمام بالخيار إن شاء قسَّمها على المجاهدين، فتكون

---

(١) سورة الأنفال اية ٦١.

أرض عشر لا خراج عليها، وإن شاء ضرب عليها خراجاً، يكون كالأجرة، فهذه أرض عشرية ـ خراجية. فإذا تركها الإمام بيد غير المسلمين ففيها الخراج سواء أزرعوها أم لم يزرعوها، ولا عشر عليهم.

٤ ـ أرض صالح عليها أصحابها على أن تبقى في أيديهم، وحينئذ يُضرب عليها الخراجُ، وتكون الأرض لهم، فهذا الخراج يعتبر جزية منهم، ما أقاموا على شركهم، وتسقط عنهم بالإسلام. وإذا بيعت لمسلم سقط عنها الخراج.

٥ ـ أرض جلا عنها أهلها، فاستولى عليها المسلمون بغير قتال، فهذه حكمها حكم الأرض المأخوذة عنوة تترك وقفاً، ويضرب عليها خراج يكون أجرة تؤخذ ممن تستقر في يده، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، ولا تتغيرّ بإسلامه ولا بذمته.

٦ ـ أرض صالح أهلها المسلمين على نزولهم عنها، فتعتبر ملكا للمسلمين، وتقر بأيدي أهلها غير المسلمين بالخراج. ولا يسقط هذا الخراج بالإسلام.

ويقدر الخراج بحسب ما تحتمله الأرض، فيمكن أن يزاد، وينقص لأنه غير مقدر شرعاً، وللإمام ترك الخراج، واسقاطه أو تخفيفه، بحسب ما يرى فيه مصلحة المسلمين ولكن لا يجوز له ذلك في الجزية(١).

١١٣ ـ الجزية:

فرضت الجزية بقوله تعالى﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾(٢).وأجمع الفقهاء على أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب، ومن المجوس. وقد تردد عمر بن الخطاب في أخذها من المجوس، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف، بأن الرسول أخذها من مجوس هجر، وقال (سنوا فيهم سنة أهل الكتاب). واختلف الفقهاء في معنى (الجزية)، فقال بعضهم إنها مشتقة من الجزاء، أي العقوبة، وقال صاحب المغني إنها مشتقة من كلمة جراه، بمعنى قضاه، كقوله تعالى﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾، فتكون الجزية مثل الفدية وقدرها الحنفية بـ ٤٨ درهماً في السنة، تؤخذ من الغني، و ٢٤ درهماً تؤخذ من

---

(١) المراغي ص٣٠.

(٢)سورة التوبة آية ٢٩ .

متوسطي الحال، و ١٢ درهماً تؤخذ من الفقير الصحيح السليم، المعتمل (أي الذي يمارس عملا). ولا يتعين في استيفاء الجزية أخذها بالذهب والفضة، بل يجوز أخذها مما تيسر من أموالهم، من ثياب، وسلاح، وحديد، ونحاس، ومواش وغير ذلك. ولا تفرض الجزية على الصبي والامرأة والمجنون والشيخ الفاني والأعمى، ولا على المريض الذي لا يرجى برؤه، وإن كانوا موسرين، لأن هؤلاء ليسوا من أهل القتال.

أما الرهبان ورجال الدين، فإن كانوا ممن يخالطون الناس في مساكنهم ومعائشهم فعليهم الجزية، أما إذا كانوا منقطعين الى صوامعهم، وعباداتهم، فلا تجب عليهم الجزية.

وتسقط الجزية بالإسلام، وبالموت، وبمضي سنة على عدم استيفائها، لأنها ضريبة متجددة، ولا يحل تكليف أهل الذمة ما لا يقدرون عليه، ولا تعذيبهم لحملهم على أدائها، ولا حبسهم، ولا ضربهم.

ولا تؤخذ الجزية من مشركي العرب، ولا من المرتدين. ورضي عمر بن الخطاب أن يأخذ من نصارى تغلب العرب الذين يعيشون خارج الجزيرة العربية، الصدقة مضاعفةً بناء على طلبهم بدلا من الجزية، لأنهم وجدوا في دفع الجزية إساءة لهم كعرب.

١١٤ ـ كيف أراد الأئمة المسلمون معاملة أهل الذمة :

قال تعالى ﴿إن الله يأمر ان تؤدوا الامانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل﴾ (الآية ٥٨ من سورة النساء).

قال تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) (الآية ٥٨ من سورة النساء).

فالله تعالى يأمر المؤمنين بأن يحكموا بين الناس جميعاً بالعدل، وأن يكون هذ العدل شاملاً للبر والفاجر، وللمؤمن وغير المؤمن، ولكل واحد، وأن لا يمنعهم من اقامة العدل حقد أو كره أو عداوة. فقد قال الله تعالى: ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (سورة الأنفال آية ٨).

وقال الله تعالى ﴿ واوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (الآية ٩١ من سورة النمل).

وقال رسول الله ﷺ : ثلاث المسلم والكافر فيهن سواء :
- من عاهدته فـوفِّ بعهده مسلماً كان أو كافراً فانما العهد لله .
- من كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلماً كان أو كافراً .
- ومن ائتمنك على امانة فأدها إليه مسلماً كان أو كافراً .

قصة عبد الله بن رواحة مع يهود خيبر :

صالح رسول الله ﷺ يهود خيبر على ان يكون نصف غلة نخلهم للمسلمين ، وكان يكلف عبد الله بن رواحة الأنصاري ، بأن ينوب عنه في اقتسام الغلة مع اليهود . وفي احدى المرات حاول اليهود رشوة عبد الله بن رواحة ، فغضب لذلك عبد الله غضباً شديداً ، وقال لهم : يا اخوان القردة والخنازير ، والله انني لأحب محمداً حباً لا يعدله حب واكرهكم كرهاً لا يعدله كره . ولكن حبي لمحمد وكرهي لكم ليسا بمانعيَّ أن أعدل في عملي ، وليسا بدافعي الى أن أجور في حكمي . فقال له اليهود صدقت فبالعدل قامت السماوات والأرض .

وصية أبي بكر لجيش أسامة بن زيد :

أوصى أبو بكر جيش أسامة بن زيد الذي كان رسول الله ﷺ قد أعده ليرسله لغزو الروم انتقاماً لمعركة مؤتة فقال لهم :

أوصيكم بعشر فاحفظوها :

لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وإذا مررتم بقوم فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم إليه .(١)

وفي زمن عمر بن عبد العزيز وفد قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم غدراً ، واسكنها المسلمين فكتب عمر يأمر بنصب قاض للنظر فيها

---

(١) ابن خلدون - العبر ج٢ ص٣٧٢ .

ذكروا، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي، فحكم باخراج المسلمين من المدينة على ان ينابذوهم على سواء. فكره أهل سمرقند الحرب، وبقي المسلمون فيها.

قال رجل من ثقيف: استعملني علي بن أبي طالب على (بزرج سابور)، فقال لي: لا تضربن رجلا سوطاً في جباية درهم، ولا تبيعن رزقاً، ولا كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها ولا تقيمن رجلا قائماً في طلب درهم. قلت: يا أمير المؤمنين إذا أرجع إليك كما ذهبت. قال رضي الله عنه: وإن رجعت كما ذهبت دهبت ريحك إنا أمرنا بأن نأخذ منهم العفو (يعني الفضل) (رواه أبو يوسف في كتاب الخراج).

وجه أبو يوسف خطاباً للخليفة هارون الرشيد، يعظه في حسن معاملة أهل الذمة وكان مما جاء فيه:

(وقد ينبغي يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك، وابن عمك محمد ﷺ، والتفقد لهم، حتى لا يظلموا ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم، فقد روي عن النبي ﷺ: من ظلم معاهداً، أو كلفه فوق طاقته، فأنا حجيجه) - رواه أبو يوسف في كتاب الخراج.

حينما سار سعد بن أبي وقاص بالجيش الى القادسية، كتب إليه عمر بن الخطاب رسالة جاء فيها:

(ونحّ منازلهم - يعني العسكر - عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمةً وذمةً، ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً، فلا تنتصرون على أهل الحرب بظلم أهل الصلح)(١).

وقال أبو بكر موصياً بعض قادته:

(ولا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله، فيطلبك الله بذمته فيكبّك على وجهك في النار)(٢).

ومر عمر بن الخطاب على قوم أقيموا في بعض أرض الشام، فقال ما شأن

---

(١) التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية - لمحمد الغزالي ص١٦٠.

(٢) طبقات ابن سعد ج٣ ص١٣٧.

هؤلاء؟ فقيل لهم أقيموا في الجزية. فكره ذلك وقال، هم وما يعتذرون به؟ قالوا: يقولون لا نجد. فقال لهم عمر دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ثم أمر بهم فأخلي سبيلهم)(1).

ومر عمر بباب قوم عليه سائل يسأل، وكان شيخاً ضرير البصر، فضرب عمر عضده وقال له: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال يهودي، قال فما ألجأك الى ما أرى؟ قال اسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله وأعطاه مما وجد، ثم أرسل به الى خازن بيت المال، وقال له: انظر هذا وأضرباءه، والله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، انما الصدقات للفقراء - والمساكين، والفقراء هم الفقراء المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ثم وضع الجزية عنه(2).

ولما دنا أجل عمر بن الخطاب، أوصى الخليفة من بعده بأهل الذمة خيراً، وأن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم.

ونقل الطبري نص كتاب العهد الذي اعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على انفسهم ودمهم وأموالهم، وكافتهم وصعنهم ومدهم وعددهم. لا يزيد شيئاً في ذلك ولا ينقص، ولا يساكنهم النوب. وعلى أهل مصر ان يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح. وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف، وعليه ممن جنى نصرتهم، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزى بقدرهم. . وذمتنا ممن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته إذا انتهى، رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثا، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين، وعلى النوب الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا فرساً، على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة، شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه.

---

(1) الخراج لأبي يوسف ص71.
(2) الخراج لأبي يوسف ص71.

ووافق عليه عمر بن الخطاب وأجازه(١).

ذكر الأمير شكيب أرسلان في تعليقه على الجزء الأول من كتاب ابن خلدون (ص١٧٧) القصة التالية:

«ويقال ان السلطان سليم أراد حمل النصارى الذين في المملكة على اعتناق الإسلام جميعاً، أو يخرجون من البلاد، فعارضه مفتي المسلمين (زنبللي علي أفندي)، وقال له لا يحل لك ذلك. وليس لنا إلا أن نأخذ منهم الجزية والطاعة».

وأورد محمد الغزالي في كتابه التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية، القصة التالية في الصفحة ٢٧٤.

«ذكر ميخائيل السوري في تاريخه أن نور الدين بن زنكي، كتب الى الخليفة العباسي يقول له:

إن المسلمين حكموا ٥٠٠ سنة لم يسيئوا خلالها الى النصارى، أما الآن وقد انصرمت هذه الأعوام فيجب أن لا يبقى هؤلاء النصارى في البلاد، ومن لم يسلم منهم يقتل، فأجابه الخليفة إنك لم تفهم أقوال النبي ﷺ، إن الله يأمرنا أن نقتل من يرتكب السوء. فالخليفة أخذ بقوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألَّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ .(سورة المائدة آية ٨).

وذكر صاحب كتاب «أخبار مجموعة» الخبر التالي (ص ٢٢):

«إن الخلفاء المسلمين كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق، يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادهم، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه، وإنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية، بعد أن أخذ كلٌ ذي حق حقه».

وذكر ابن الأثير في تاريخه (ج٣ ص٥٦) أن عمر بن الخطاب خطب الناس مرة فقال:

«أيها الناس إني ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه. فوثب عمرو بن العاص فقال (يا أمير

---

(١) ابن خلدون ـ العبر ج٢ ص٣٤٧.

المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته، فأدب بعض رعيته، أئنَّكَ لتقصنه منه؟ قال إي والذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، وكيف لا اقصنه منه وقد رأيت النبي ﷺ يقص من نفسه، الا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمدوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم».

ثم روى ابن الأثير خبراً عن سالم بن عبد الله بن عمر، يبين مدى اهتمام عمر بأن يكون وأهله قدوة حسنة للمسلمين، فقال: «كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهل بيته، فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة».

وهناك الوف الأمثلة على حسن رعاية المسلمين لأهل الذمة.

١١٥ ـ الرقيق في نظر الشرائع السابقة:

قال تعالى ﴿ وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى . . . وما ملكت ايمانكم ﴾. (سورة النساء آية ٦٠).

في موضوع الرقيق تميز اليهودية بين اليهودي والغريب، فاليهودي لا يجوز استرقاقه، ولا يباع بيع العبيد.

وإذا افتقر اليهودي وعجز عن وفاء دينه، واضطر الى أن يبيع نفسهً لدائنه فيميز الشرع اليهودي بين حالتين:

أ ـ فإن كان الدائن يهوديا، فعليه أن يعامل رقيقةاليهودي معاملة حسنة ويعتبره كخادم لديه، لا عبد. ويتحرر هذا الرقيق بعد ست سنوات من الخدمة، أو يتحرر في سنة اليوبيل (وسنة اليوبيل هي السنة الخمسون بعد سبع سنوات سبتية، والسنة السبتية هي السنة السابعة التي تلي كل ست سنوات).

وعلى الدائن اليهودي أن يزوده، حين تحريره، بشيء من ماله يعيش به.

ب ـ وإذا كان الدائن غير يهودي فعلى أقرباء المدين، وعلى أفراد عشيرته أن يفتدوه، ويحرروه، ولا يجوز أن يبقى عبداً لغريب.

أما الرقيق غير اليهودي ـ أي الغريب ـ فيجوز استرقاقه بالحرب أو بالشراء،

---

(١) عن كتاب الرق في الاسلام ـ الدكتور عبد السلام الترمانيني.

ويعامل بقسوة، ولا يجوز عتقه ولا تحريره، ولا قبول فداء فيه، ويبقى رقيقاً أبداً. واليهود يرون أن الله جعل الغرباء - أي غير اليهود - عبيداً لليهود، فلا يتحرر من يقع في رقهم، لا بعتق ولا بفداء.

وجاء السيد المسيح فثار على التعاليم التي يطبقها اليهود في معاملة الناس - الأغراب -، وأوصى تابعيه بأن يعاملوا الناس بالحسنى، كما يحبون أن يعاملهم الناس به، ولذلك نقم اليهود على المسيح، وأغروا الحاكم الروماني بقتله.

وحينما أشتد طغيان الحكم الروماني على المسيحيين، خرج رجال الكنيسة برأي يتفق مع الواقع الأليم الذي يعيشه المسيحيون، فبرّرت سلطة الحاكم على المحكومين، واعتبرت السلطة ترتيبا الٰهيا يجب الخضوع له خضوعا مطلقا، ومن يقاومها يؤاخذه الله، لأن السلطة من أمر الله.

وقال القديس بولص في رسالة وجهها الى أهل روما:

(لتخضع كل نفس للسلاطين، ومن يقاوم السلطان فإنه يقاوم الرب، والمقاومون سيدانون).

ودعا القديس بولص العبيد الى طاعة سادتهم، وحضهم على تسخير أجسادهم لخدمتهم، والاخلاص لهم بالقلب الذي يرضي الله، لا بالمظهر الذي يرضي الناس.

الرق في نظر الاسلام:

الرق عجز حكمي يصيب من يقع في الأسر في حرب مشروعة. والحرب المشروعة كما عرفها الفقهاء المسلمون هي الحرب التي يخوضها المسلمون ضد من تبلغ دعوة الله، ورفض الخضوع لحكم الشرع: الدخول في الإسلام أودفع الجزية. وبذلك جعل الإسلام للرق مصدراً وحيداً، هو الحرب المشروعة.

ويزول الرق بالعتق وبالفداء. وقد حض الإسلام كثيراً على العتق، ويسر أسبابه. وأمر الإسلام بمعاملة الرقيق معاملة حسنة تحفظ شعوره الإنساني، وجعل الله في أول الكفارات عن الذنوب التي يرتكبها الانسان إعتاق الرقاب، ونهى الإسلام عن قتل المرأة والصبي والعاجز والمريض والشيخ الهرم، والرهبان والقسس الذين انقطعوا لصوامعهم، فإذا وضعت الحرب أوزارها بنصر المسلمين كان للامام أن يأخذ الرجال

القادرين على الحرب أسرى.

أما الأسرى من المقاتلين فإن الامام مخير فيهم بين القتل، والاسترقاق، والعفو، وقبول الفداء، وعليه أن يختار ما هو أصلح للمسلمين.

وإذا اختار خطة فله أن يعدل عنها لما هو ارفق منها، وليس له أن يعدل عنها الى ما هو أشد. فإذا اختار الاسترقاق فليس له أن يعدل عنه الى القتل، وإذا اختار العفو، فليس له الاسترقاق أو طلب الفداء.

وإذا أسلم المقاتل قبل الأسر فإنه يسلم من القتل، ومن الرق، وتسلم له أمواله وذراريه لقوله ﷺ: إذا أسلم الرجل فهو أحق بأرضه وماله.

واعتبر الاسلام الرق نظاماً دولياً لا يمكن الغاؤه من جانب واحد، ولم يجعله وسيلة قهر ولا إذلال، وإنما جعله وسيلة لنقل الرقيق من الكفر الى الإيمان.

وقد دعا الإسلام الى الرفق بالمستضعفين عموماً، وقال رسول الله ﷺ: (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه).

وجاء في سورة النساء (الآية ٦٠): ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين وما ملكت ايمانكم . . . ﴾.

وحض رسول الله ﷺ على التجاوز عن خطأ العبد، ونهى عن ضربه إلا في معصية الله، وقد قال: (اضرب عبدك إذا عصى الله واعف عنه إذا عصاك).

وقال أيضاً: (لايدخل الجنة سيىء الملكة - أي سيء الصحبة لمماليكه).

وقال أيضاً: (إخوانكم خولكمَ فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فان كلفتموهم فاعينوهم).

ومن أحكام الفقه الاسلامي في أمر الرقيق:

- لايجوز التفريق بين كل ذي رحم محرَّم كالولد مع أمه، والرجل مع زوجه.
- للسيد تأديب العبد أو الأمة بالتوبيخ أوبالضرب الخفيف على ألا يصيب الوجه، ولا يجوز التوبيخ أو الضرب بغير ذنب.
- إذا كان العبد يحسن صنعة فله أن يطلب مكاتبته، وأن يجيزه سيده بالتكسب لقاء مبلغ يؤديه لسيده، وما فضل ينفقه العبد على نفسه.

- إذا امتنع السيد عن النفقة على عبده له أن يرفع أمره للقاضي، وعلى القاضي ان يجبر السيد على بيع العبد، ولو كان عدم الانفاق لعجز من السيد عنه.
- للعبد أن يطلب من السيد تزويجه طلباً للعفة، وعلى سيده أن يزوجه أو أن يملكه أمة يتسراها.
- وإذا طلبت الأمة من سيدها أن يزوجها كان للسيد أن يتسرى بها، أو أن يتزوجها أو أن يزوجها لأحد.
- للعبد أن يلجأ الى القاضي لمقاضاة سيده إذا انتقص السيد حقاً من حقوقه أو عامله بسوء.
- كان من جملة وظائف المحتسب مراقبة معاملة السادة للعبيد.

١١٦ - رأي بعض المنصفين الغربيين:

ويشهد المنصفون الغربيون من الكتّاب والمؤرخين ورجال الدين، على حسن معاملة المسلمين لمن كان تحت يدهم:

أ - يقول تريتون: يصر الإسلام على وجوب اصطناع الرفق مع الشعوب المغلوبة على أمرها، ويوصي بحسن معاملتها، والتزام العدل معها . [١].

ب - وينقل تريتون شهادة للبطريق عيشويابه، الذي تولى بطريركية أنطاكية من سنة ٦٤٧ إلى ٦٥٧م، جاء فيها: «إن العرب الذين مكّنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون. إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملّتنا، ويوقرون قسيسينا، ويمدون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا [٢].

ج - ويقول رونسيمان: لقد خفف تبديل الحكومة بعد طرد المسلمين للبيزنطيين من سوريا ومصر، ما كان يعانيه الخوارج على المسّيحية - ويقصد بذلك النصارى الشرقيين -. وقد قال ميشيل السوري بطريرك اليعاقبة في أنطاكية، الذي كتب تاريخه في عهد الممالك الصليبية في الشرق، بعد خمسة قرون من الفتح:

«إن آله الانتقام، الواحد الكبير القدير، بعث من الجنوب أبناء اسماعيل

---

(١) تريتون - أهل الذمة في الاسلام ص١٦٨.

(٢) نفس المصدر ص١٤٩.

لينقذونا بأيديهم من سلطة الرومان، وإذا كنا قد تكبدنا بعض الخسائر لأن الكنائس التي انتزعت منا، وأعطيت الى أنصار مجمع خلقدونية، بقيت لهم، إلا أننا قد أصابنا خير ليس بالقليل، بتحررنا من قسوة الرومان، وشرورهم، وغضبهم، وحفيظتهم علينا، هذا من جهة ومن جهة ثانية، لقد سادت الطمأنينة بيننا[1] » .

د ـ ويقول رونسيان أيضاً: «إن النسطوريين كانوا يتفقون مع اليعاقبة في هذا الرأي، وقد كتب مؤرخ منهم غير معروف الاسم يشيد بحكم العرب لهم ويقول: ليبارك الرب حكم العرب وليجعله أكثر تقدماً وازدهاراً[2] .

هـ ـ ويقول رونسيان أيضاً: «وليس للنصارى أي سبب يبرر شكواهم من انتصار الإسلام.. فقد كانوا أسعد حالاً في ظل الإسلام منهم في زمن الأباطرة المسيحيين[3] » .

و ـ ويقول الكونت سيركور: «ومهما قيل في حكم العرب، فإن حظ الأسرى في الحرب والمعتقين منهم، كان لدى العرب أفضل مما كان عليه لدى أية أمة أخرى في تلك الفترة التي كانت الحرب تقوم فيها، في كل مكان، بالنار والدم، وكانت حياة المغلوبين ملكاً للغالبين، وتحت رحمتهم بدون تحفظ[4] » .

ز ـ ويقول سيركور في موضع آخر: «إن القرآن أمر بحسن معاملة العبيد ولذلك فان حظ العبيد النصارى كان متعلقاً بطبع أسيادهم ومزاجهم[5] » .

ح ـ ويقول سيركور في موضع آخر: «وبالاختصار فإن المستعربين في الاندلس كانوا ـ حتى جاء حكم المرابطين ـ يتمتعون بحماية رسمية.. وينتج من مجموع الأعمال السياسية، أن عرب اسبانيا اتخذوا من التسامح أساساً لحكمهم وسيطرتهم، وقد تسامحوا مع رعاياهم المسيحيين في كل شيء، في التقاليد وفي الدين وفي المؤسسات والعادات والأخلاق[6] » .

---

(١) رونسيان، تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص٢٠ .
(٢) نفس المصدر ج١ ص٢١ .
(٣) نفس المصدر ج١ ص٢٦ .
(٤) الكونت سيركور ج١ ص٢٧ .
(٥) نفس المصدر ج١ ص٢٩ .
(٦) الكونت سيركور ج١ ص٦٧ .

١١٧ ـ معاملة المسلمين لبيوت العبادة :

تقوم خطة الإسلام في معاملة الأمم المغلوبة، على عدم التدخل في شؤونها الدينية، وعلى السماح لها بممارسة عباداتها وطقوسها كما تحب، وكما يوجبه عليها شرعها وتقاليدها، سواء أكانت تلك الأمم من أهل الكتاب أم من المجوس، أم من غيرهم، وكثيراً ما كانت عقود الذمة أو الأمان، تتضمن الشروط التي يتفق عليها المسلمون مع أهل الذمة، فيما يتعلق بأمور العبادة. وكان الحكام المسلمون يحترمون تلك الشروط دائماً، ويتقيدون بها. وكان الفقهاء المسلمون يقفون حكاماً عدولاً، ساهرين على مراقبة الالتزام بتنفيذ هذه الشروط. وقد قسم الفقهاء البلاد التي تحت يد المسلمين الى ثلاثة أقسام، وكانت لهم آراء في حق بيوت العبادة، تختلف من أرض الى أرض، بحسب القسم الذي تدخل فيه، ويمكن تلخيص الآراء التي استقر عليها رأي الأكثرية في الآتي :

أ ـ بلاد أنشأها المسلمون في الإسلام، وهذه البلاد تعتبر خالصة للمسلمين وللإمام أن يجيز أهل الذمة، للاستقرار فيها، وفي ذلك اتفاق من الأئمة. ولكن إذا كانت هناك بيوت عبادة قائمة في أرض خلاء، وجاء المسلمون، وبنوا فيها قرية أو مدينة، فإن بيوت العبادة تبقى، ولكن إذا أحدثت في هذه البلاد بيوت عبادة حديثة جاز للامام هدمها[1] .

ب ـ بلاد أنشئت قبل الإسلام، واستولى عليها المسلمون عنوة وقهراً، وفي هذه الأرض لا يجوز للذميين احداث بيوت عبادة لهم، أما بيوت العبادة القائمة يوم الفتح فيجوز أن يتركها الإمام كلها لأصحابها، أو أن يترك بعضها، ويستولي على بعضها الآخر، بحسب ما يراه موافقاً لمصلحته، على اعتبار أن أخذ البلد عنوة يجعله وما فيه ملكاً للمسلمين على قول. أما بيوت العبادة التي تبقى بيد أهلها فإن لهم أن يصلحوها ويرمموها، أما إذا أهملوا العناية ببعضها حتى انهدم تماماً، فإن الفقهاء يرون عدم السماح بتجديده.

جـ ـ بلاد أنشئت قبل الإسلام وافتتحها المسلمون صلحاً، وفي مثل هذه البلاد يستطيع أهل الذمة الاحتفاظ بمعابدهم، ولهم إحداث ما شاؤوا منها، إذا تم الصلح معهم

---

(١) المراغي ص١٠٨. وابن القيم الجوزية ص٦٦٧.

على أن تكـــون الأرض لهم، ويـدفعـون الخـراج للمسلمـين، ولم يكن في الصلح ما يمنعهم من ذلك الاحداث.

وإذا وقـع الصلح على أن الـدار للمسلمين، ويدفعون الجزية، فحكم المعابد فيـما يقـع عليـه شرط الصلح[1]، وتعتبر الشروط المدرجة في معاهدة الصلح ـ أو عقد الذمة ـ هي الأساس الذي يقوم عليه التعامل بين أهل الذمة والحكام المسلمين، فإن اشترط فيها أن يحدثوا بيوت عبادة، وأن يرمموا ما رث منها وما انهدم، أو أن يوسعوا ما انهدم، فإنهم يستطيعون ذلك، وليس لأحد أن يعارضهم فيه[2].

وكـان بعض الحكـام المسلمـين يتسـاهلون في مراقبة الذميين في التقيد بشروط العهد، فيتجاوز أهل الذمة على الشروط، ثم يأتي بعد ذلك حاكم متشدد، أو تكون هنـاك ظروف خاصـة، فيطـالب الحاكم الذميين بالتزام العهد، وما فيه من الشروط، وقـد يصـل الأمـر بالحـاكم الى درجـة هدم بعض المعـابد التي بنيت أو جددت خلافاً للعهد، وما فيه من شروط.

ولكن الحكـام المسلمـين كانـوا إجمـالا أميل الى التساهل في أمور العبادة، وفي هذا الصدد يقول تريتون (تتجلى لنا مما سبق عدة حقائق أولها أن الكنائس كانت تبنى بحرية تامة، وكانت تشيد بموافقة السلطة وأصحاب الأمر والنهي بل وأحياناً بمساعدتهم[3]).

١١٨ ـ هل تتدخل الدولة في الشؤون الدينية والقضاء؟

يقـول الإمـام الشـافعي: إن الحكـومة يجب ألا تتدخل في أي عمل من أعمال الـذميـين، حتى ولو كان فيه ما يناقض الشرع، ما دام لا يتعارض مع الوضع العام، فإذا كان الذميون في قرية ينفردون بامتلاكها، فليس للحكومة أن تمنعهم من احداث كنيسـة، ولا من رفـع بنـاء، ولاتتعـرض لهم في خنـازيرهم وخمرهم، وأعيادهم، واجتماعاتهم، وقـد يقـرض الـذمي ذميـاً آخر ديناً بالربا، أو يعقد نكاحاً لا يجيزه الشرع الإسلامي،

---

(١) المراغي ١٠٨.

(٢) ابن القيم الجوزية ص٦٩٩.

(٣) تريتون ص٥٣.

ومع ذلك فلا يجوز لأحد التدخل فيما فعلوه.

وأفتى الأئمة بأنه لو تزوج مجوسي ابنته (والمجوس يحلون الزواج بالبنات)، فولدت له ابنة ومات عنهما استحقت البنتان ثلثا التركة، عملا بقواعد الشرع الاسلامي على اعتبار أن هذا الزواج صحيح في شرع المجوس[1].

١١٩ ـ الحكم بين أهل الذمة:

ترك الشرع الإسلامي ـ من حيث المبدأ ـ لكل طائفة أن تتولى حل خلافات أفرادها بنفسها عن طريق محاكمهم الطائفية، بحسب شرائعهم، وعاداتهم، وأعرافهم. ولكن قد يستعصي حل قضية على الطائفة، أويشعر أحد المتخاصمين بعدم الثقة في محكمة الطائفة، فيرى اللجوء الى سلطة الدولة لتنصفه من خصمه؛ والدولة بما لها من سلطة الولاية العامة، وبما عليها من مسؤوليات حفظ الأمن في البلد، ومنع الاضطراب في المجتمع، قد ترى من حقها التدخل لحسم الخلاف. وقد وضع الفقهاء قواعد تدخل الدولة في المنازعات بين أبناء الطوائف غير المسلمة يمكن تلخيصها فيما يلي[2]:

١ ـ تعتبر الشريعة الاسلامية ذات أحكام عامة تشمل كافة المسلمين.

٢ ـ إذا رفع أحد الذميين طلباً الى القاضي لمقاضاة خصمه، فقد اختلف الأئمة فيما يجب عمله:

أ ـ فئة تقول بوجوب القضاء بينهم، إذا ترافعوا الى القاضي، وحينئذ يطبق القاضي الشرع الإسلامي، عملا بقوله تعالى: ﴿فان جاؤوك فاحكم بينهم أوأعرض عنهم﴾؛ وتؤيد هذه الفئة قولها بما رُوي عن الحسن من قوله: (خلوا بين أهل الكتاب وبين حاكمهم، وإذا ترافعوا إليكم، فأقيموا عليهم ما في كتابكم).

ب ـ وفئة تقول بأن القاضي بالخيار بالحكم بينهم وعدمه، وهو قول الإمام مالك.

ج ـ وفئة تقول بوجوب الحكم بينهم بما في الشرع الاسلامي، وإن لم يترافعوا

---

(١) المراغي ص٣٨.

(٢) المراغي ص٤١.

الى القـاضي استنـاداً الى أن الـذمي تقطـع يده في السـرقة ، مثلما تقطع يد المسلم ،ـ فتكون الأحكام جارية عليهم وإن لم يترافعوا .

ولكن أكثـر الفقهـاء متفقـون على أنـه يجب ترافـع الخصمـين الى القـاضي ، ورضاهما بحكمه ، وحينئذ يقضي بينهما بما في الشرع الاسلامي سواء كان الأمر يتعلق بالأنكحة أو حقوق العباد أو حقوق الله ، وذلك عملا بقوله تعالى : ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ . (سورة المائدة آية ٤٩) .

ويقول عبد الله مصطفى المراغي ، إن الأصح هو أنه يجب على القاضي الحكم إذا كان المـترافعـان أو أحـدهما ذميـاً ، لأن المسلمين التزموا بالذب عن الذمي ، ورفع الظلم عنـه ، وإذا طلب أحـد الخصمـين احضـار خصمه ، وجب إجبار الخصم على الحضور ، أما إذا كان أحد المتخاصمين معاهداً والآخر حربياً فلا يحكم القاضي بينهما إلا إذا رضيـا بحكمـه ، وإذا طلب أحـدهما إحضـار خصمـه ، فلا يجب إحضـاره ولا اجباره على الحضور[1] .

قال تعـالـى : ﴿ فإن جاؤ وك فاحكم بينهم أو أعـرض عنهم . . . . . . وإن حكمت فأحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾ . (سورة المائدة الآية ٤٢) .

وعـلى هذا فلا عليـك ألا تحكـم بينهم لأنهم لا يقصـدون بمجيئهم إليـك للتحاكم اتباع الحق .

وهـذا الحكم خاص بالمعـاهـدين (دون أهل الذمة) . فالمعاهدون ـ كالأجانب المـوجـودين في بلاد المسلمـين ، لايجب على المسلمين أن يحكموا بينهم ، وإن تحاكموا اليهم ، بل المسلمـون مخير ون في ذلـك حسبما يرون فيـه المصلحة ، أما أهل الذمة ، فيجب الحكم بينهم اذا تحاكموا الى المسلمين لأن من اخذت منه الجزية ، تجري عليه احكام الاسلام في البيوع والمواريث والعقود عدا بيع الخمر والخنزير .

ويتضـح مما تقـدم أن الشـرع الاسـلامي ترك للذميـين مطلق الحرية في ممارسة حقوقهم الدينية وادارة مجتمعهم وحسم النزاع بينهم ، بحسب شرعهم وأعرافهم ؛ وقد تقيد الحكام المسلمون بذلك بدقة على أنه أمر الدين .

---

(١) تريتون ص٨٠

١٢٠ ـ هل كانت الدولة تتدخل في اختيار رجال الدين؟

عقد تريتون في كتابه (أهل الذمة) فصلا بعنوان (الدولة والكنيسة)[١]، ذكر فيه أن بعض الأمراء المسلمين كانوا يتدخلون في انتقاء البطاركة وتعيينهم، ويقول إنه كان من المفـروض أن يكـون الشخص المنتقى لأعلى منصب ديني، ممن يحوزون رضا الخليفة أو نوابه، لتسهل مهمته ويستطيع ممارسة سلطته بحرية أكبر، ويقول أيضاً إن السلطة الإسلامية كانت تراقب أعمال رجال الدين غير المسلمين مراقبة دقيقة. ويرى أن البطـريـرك كان يعتبر موظفاً حكومياً، ولا بد في تعيينه من موافقة الخليفة، ويدعم وجهـة نظره هذه بالاستشهاد بالمرسوم الصادر إلى «الأنبا عبد يشوع» الثالث النسطوري، الذي تولى البطريركية عام ١١٣٨م، فقد جاء فيه (إن أمير المؤمنين، لما وكله الله إليه من أمور عباده، وحمله أعباءه في أرضه وبلاده، يرعى الأمة من اهتمامه عيناً يقظى، ويوليها في عامة متصرفاتها حراسة شاملة وحفظاً، ويتفقد أحوالها، ويعم ذلك عموماً يشترك فيه المسلم منها والمعاهد والداني والمتباعد وطوائف الملك من أهل الكتاب، الذين حماهم الشرع وذمته.. ولما أنهيت حالك إلى أمير المؤمنين، وأنك أمثل أهل نحلتك طريقة، وأقربهم إلى الصلاح مذهباً وخليقة.. وحضر جماعة من النصارى الذين يرجع إليهم في الاستعلام عن سيرة أمثالك، وذكروا أنهم تصفحوا أحوال ذوي الديانات فيهم.. بحكم حاجتهم إلى جاثليق ينظر في أمورهم، فاتفقوا باجتماع من آرائهم على اختيارك للرئاسة في دينهم، ومراعاة شؤونهم، وتدبير وقوفهم، والتسوية في عدل الوساطة بين قويهم وضعيفهم.. الخ)، فأوعز أمير المؤمنين باسعافهم فيما سألوه بالايجاب... وبرز الاذن الإمامي الأشرفي بترتيبك جاثليقا لنسطوريي النصارى بمدينة السلام، ومن تضمه منهم ديار الإسلام، وزعيما لهم ولمن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد...)[١].

ويذكر تريتون قصة أخرى تشير إلى أن الأساقفة في مصر جاؤوا أميرها حفص ابن الوليد الحضرمي طالبين منه أن يأذن لهم في إقامة بطرك، فسألهم أن يبدؤوا أولاً باختيار الرجل الذي يرونه أهلاً، ثم يحضرونه إلى قصر الأمارة، فآثروا (خاييل) من رهبان وادي هبيب، وسألوا حفصاً أن يأمر باحضاره من هناك لاقراره في منصبه[٢].

---

(١) تريتون ص٨٢

(٢) ساويروس ـ سير البطاركة ـ ص١٦٣: (أورده تريتون ص٨٣).

ومن الطبيعي أن يكون للدولة نوع من الرقابة على أعمال كبار رجال الدين فيما يتعلق بأعمالهم الادارية، وأن يكون لها رأي في اختيار أكبر سلطة فيهم، لأن هذه السلطة الكبرى تتولى جزءاً من سلطة الدولة، وهي مسؤولة عن الأمن والاستقرار، وإقامة العدل، وإحقاق الحقوق، ولكن يتضح من المثلين اللذين أوردهما تريتون أن الخلفاء أو نوابهم، يفوضون أمر انتقاء الشخص المختار إلى السلطات المختصة في الطائفة، ويستوثقون من كفاءته وأخلاقه من وجوه أبناء الطائفة، وتبقى موافقتهم شكلية.

الفصل الثاني

معاملة العرب للاسبان المستعربين

١٢١ ـ دخل العرب اسبانيا عام ٩٢هـ (٧١١م)، وأكملوا فتحها في عامين، ولما استتب لهم الأمر بدأ الفاتحون، من العرب والبربر، يستطيبون الحياة فيها، فاستقر الكثيرون منهم، واختار البربر سكنى المناطق الجبلية في الشمال والجنوب، لأنها أشبه بطبيعة بلدهم وأرضهم، وتفرق العرب في مناطق كثيرة، مختارين مناطق السهول. وبدأت الحياة تسير في ظل الفاتحين سيرها المعتاد، وأقبل الاسبان على الدين الإسلامي يدخلونه بأعداد كبيرة، بدون ضغط من المسلمين، ودون إكراه منهم على الدخول فيه. وأقام من شاء على دينه يمارسه كما يشاء في ظل الفتح أيضاً، دون ضغط أو إكراه من أي نوع كان. وترك المسلمون لمن أقاموا على دينهم حرية تدبير أمورهم الدينية كما يشاؤون، فكانت لهم محاكمهم الخاصة بهم، يقضي بها قضاة منهم بحسب شرعهم وأعرافهم. وكانت لهم لجان إدارية تصرف أمور الطائفة، في كل بلدة وقرية، ويشرف على هذه اللجان أكبر رئيس ديني في البلد، ورجل من أشرافهم، اطلق عليه العرب اسم القومس (الكونت) ـ أو شيخ البلد ـ؛ هذا في أمهات المدن. ولم يكن المسيحيون الاسبان مكلفين بأكثر من دفع الجزية عن الرجال ـ القادرين على العمل وحمل السلاح ـ والخراج عن الأرض. وبقي الاسبان يمارسون إدارة مجتمعهم في ظل الادارة العربية، حتى أصبح لهم نوع من الامتيازات، ما كانوا يحلمون بجزء منها في ظل الادارات السابقة: القوطية والفندالية والرومانية، التي سبقت المسلمين في حكم الجزيرة، وحرر المسلمون الفلاحين (عبيد الأرض) من ربقة العبودية التي كانت مفروضة عليهم قبل المسلمين، فساووا الناس في التمتع بالحياة والحرية. وازدهر المجتمع الاسباني المسيحي، وأصبح الكثيرون من افراده يتكلمون العربية، ويتقنون آدابها، ويتسمون بأسماء عربية، حتى غاظ ذلك بعض رجال الدين، فأخذوا يُعمِلون الرأي لايجاد وسيلة تنفر أبناء ملتهم من العرب، ودينهم، وحكمهم، ولغتهم، فكانت

فتنـة في قرطبـة حوالي عام ٨٥٠م . عرفت في التاريخ باسم (حمى الاستشهاد) . ولكن هذه الفتنـة خمدت بعـد شهـرين ، ونسيهـا النـاس إذا استنكـرهـا العقـلاء منهم واستسخفـوهـا . ورغم الحـروب الطـويلة التي كان يخوضهـا المسلمون كل يوم تقريباً ضد الممـالـك الاسبـانيـة الشـماليـة ، فإن المسلمـين لم يتعـرضوا بالأذى لأحد من رعاياهم المسيحيين ، ولم يبعدوا أحداً منهم عن المدن الشمالية القريبة من الحدود مع الأعداء ، مع أنهم يعـرفـون أن الكثـيرين منهم كانـوا يتصلون بالاسبـان الشماليين ويتعاطفون معهم ، ويكشفـون لهم مواضـع ضعف المسلمـين وعـوراتهم ، لأن المسلمـين كانـوا يتقيـدون بسيـاسـة معينـة ثابتـة نابعـة من روح الاسلام ، وكريم تعاليمه ، ومن عقلية العـربي المتسـامحـة ، التي فهمت الـدين ، وفسـرته بحسب ما ألفت . وقد طبقوا هذه السيـاسـة على الجـماعات الدينية التي تعيش في ظل حكمهم ، ولم يحيدوا عنها . وكان لهذه السيـاسـة المتسـامحـة العطـوفـة حماة من الأئمـة والفقهـاء ورجـال الـدين المسلمين ، فإذا أراد حاكم مسلم أن يحيد عنها ـ بسبب جهل حقيقة تعاليم الدين ، أو بسبب مزاج شخصي ، أو بسبب تصرف خاطىء من بعض أفراد تلك الجماعات ، أو بسبب ظروف غزو خارجي وقفت منـه تلك الجـماعـات موقف العطف والتأييد ـ تقدم إليـه رجـال الـدين ، يعلنـونـه بمنـافاة ذلك لروح الإسلام وتعاليمه ، وسنة النبي ﷺ وخلفـائـه ، وطـالبـوه بالتمسـك بالعهد الذي قطعـه المسلمـون على أنفسهم لتلك الجـماعـات ، وهـو عهـد لا يجوز نقضـه من جانب المسلمـين ، ما لم يكن هنـاك سبب حقيقي يبيح ذلك النقض . وكان الحكام لا يترددون في التراجع عن خطئهم ، ولا في كبح جماح عواطفهم وانفعـالاتهم . ولـذلـك بقيت تلك الجماعات في أرضها وبلادها محافظة على دينها ولغتها لم يلحق بها أذى ، ولم ينزل بساحتها ضيم .

ويكـاد المؤرخـون يجمعـون على أن الاسبـان الشـماليـين ، لما احتلوا المـدن الأندلسية الكبرى ، مثل طليطلة (١٠٨٥) وسرقسطة (١١٢٥) وغيرها ، وجدوا فيها مجتمعـات مسيحيـة مزدهرة ومنظمة يتمتع كثير من أفرادها بالثراء والجاه ، وقد شعرت هذه المجتمعـات بالغبن حينـما ادمجت في المجتمـع الاسباني بعد سقوط تلك المدن بيد الاسبان ، وطالبوا بأن تحفظ عليهم امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم العربي[١] .

---

(١) سركور ج١ ص٥٩ .

وهـذا بلا شك يعتـبر دليـلا واضحـاً على تسـامـح العرب، وحفظهم للعهود والمـواثيق، وعلى حسن معـاملتهم للنصـارى الـذين عاشـوا بينهم، والذين يسميهم المؤرخون بالمستعربين (موزاراب). ولو أخذ العرب بالسياسة الدينية التي كانت تأخذ بها الأمم الأخرى في تلك العصور لقضوا قضاء تاماً على كل ما هو غير مسلم وما هو غير عربي. ولكن العـرب فضلوا اتبـاع ما شرع لهم دينهم وخلفـاؤهم من سيـاسـة التسامح والمحبة، ولو كان في ذلك ضرر على مستقبلهم، وخطر يهدد كيان دولتهم.

ولكن الاسبـان الـذين استعـادوا من العـرب المنـاطق التي كانت بأيـديهم، لم يقـابلوا هذه السـماحـة بمثلها، وإنما اتبعوا مع المسلمين سياسة لئيمة جائرة، تنم عن الجهـل والتعصب الـذميم الأعمى. وأشـد ما يدهش في هذا المـوضـوع هو أن يرى الانسان رجال الدين في الفاتيكان والكنيسة، يحرضون الحكام الاسبان والشعب على ابـادة المسلمـين، ويغـرونهم بأذاهم ونهب أمـوالهم، وإزعاجهم، ويحلُّون لهم نقض العهود والمواثيق، التي قطعها الحكام للمسلمين، حين احتلوا أرضهم. وإذ كنا نعتقد أن الأديان جميعها ـ وخصوصاً السماوية منها ـ إنما جاءت لخير البشرية، وتحقيق الأخاء والمحبـة والسـلام بين البشـر جميعـاً، وأن الأديـان تأمـر بالخـير والمعروف، وتنهى عن الفحشـاء والمنكـر، وترفض الغـدر والمكـر والخـديعـة، وأن رجال الدين من كل ملة مفروض فيهم، أكثر من غيرهم، التمسك بتعاليم دينهم، والسهر على عدم خرقها، والاسـاءة إليهـا، ليكـونـوا هم القـدوة الصالحة للآخرين، لذلك فإننا لا نجد تعليلاً مقبولاً يمكن تقديمه لتبرير مسلك أولئك الحاضّين على إيذاء المسلمين، والنقض لعهـودهم، والغـدر بهم، إلا أن تعـاليم الـدين المسيحي، وروحـه السمحـة لم تكن مفهـومـة فهـماً صحيحـاً وواضحـاً بالنسبة لهم، أو أن تعاليم الدين لم تصقل نفوسهم صقـلا كافيـاً، ولم تتشرب نفوسهم ما في الدين من خير ومحبة وانسانية. وإذا كنا اليوم نشيـد بالمـواقف المشـرفـة، التي تدل على النبـل والشهامة والوفاء بالعهد، التي وقفها ملوك ورجال سياسة في الأزمنة البعيدة، كموقف امبراطور القسطنطينية باسيل، حينما استنجـد به أمـير حلب الحمْـداني ـ مع ماهو معروف عن رجال السياسة والحكم من الميل الى تأول المـواثيق والعهـود للافـادة من الظـروف والمناسبات ـ فإننا لا نستطيع إلا أن نشعـر بالألم والأسف، لموقـف منحـرف يصـدر عن رجل دين يفترض فيه الخوف من الله، والبعد عن مطامع الدنيا، والحرص على جادة العدل والانصاف.

وقصـة الامـبراطور باسيل هذه، تبدأ يوم استنجد به أبو الفضائل سعيد الدولة

الحمـداني عام ٣٨٤هـ، ليدفـع عنه القائد الفاطمي بنجوتكين، فأسرع الامبراطور بجيشه، ونشر الشائعات أمامه، ليجفل بنجوتكين ويضطره الى الارتحال عن حلب. ولما وصل الامبراطور منطقة العمق، ارتحل بنجوتكين، فخرج أبو الفضائل الحمداني للقـاء الامـبراطـور وشكره. ومعه كثير من الهدايا. فقال قسطنطين لأخيه الامبراطور باسيـل (خـذ حلب والشـام ما يمتنع عليك). فقال الامبراطور: ما يسمع الملوك أني خرجت أعين قوما فغدرت بهم)، فقال له بعض أصحابه (ليست حلب غالية بغدرة) فرد عليهم (بلى ولو أنها الدنيا)[1]. فأين هذا الموقف الشهم النبيل، من موقف أولئك الـرجـال الناذرين أنفسهم للدين، الـذين يضغطـون على الملوك والحكـام الاسبـان ليخـرجـوا العـرب من أرضهم وديـارهم، وهم الـذين وثقـوا بدين الحكـام وذمتهم، واطمأنوا الى عهودهم ومواثيقهم، فوضعوا السلاح، ولم يبق بيدهم وسيلة يدفعون بها عن أنفسهم. وسنرى فيما بعد، أن الفاتيكان ورجال الدين الاسبان، ما زالوا مصرين على الحاحهم حتى نجحوا في حمل الملوك على اضطهاد العرب، ووضع خطة كاملة للقضاء على كل ما هو عربي ومسلم في شبه الجزيرة؛ وقد وضعوا تحت تصرف الحكام الاسبـان ـ في سبيـل انفـاذ هذه السيـاسـة وانجـاحها ـ آلة جهنمية تعتبر من أفظع ما عرفتـه الإنسـانية في تاريخها الطويل، ألا وهي دواوين التحقيق (أو محاكم التفتيش)، وقـد طبق زبـانيـة هذه الـدواوين بحق المخـالفين للكنيسة الكاثوليكية بصورة عامة، وبحق المسلمـين العـرب بصورة خاصة، أساليب من التعذيب تقشعر لهولها الأبدان. وقد نجحت الكنيسة في اجبار كثير من المسلمين على تلقي العماد، معتبرة إياهم من النصـارى. ولكنهـا مع ذلـك لم تتركهم وشأنهم، وانـما اخـذت تنقب عن خفـايـا نفـوسهم، وتطـارد من تشـك في صدق إيـمانهم. وثـار المسلمـون الأندلسيون المرة تلو المرة، لدفع الضيم عنهم، وللتعبير عن سخطهم واستيائهم من خرق العهود المقطوعة لهم، ودامت إحـدى ثوراتهم ثلاث سنـين. ولكن خصمهم كان أقـوى منهم فقهرهـم واتخـذ من ثورتهم حجـة عليهم للتنكيل بهم، وأصبح السعيد من أولئك المساكين من تطـرده السلطـات الحاكمة، من شبه الجزيرة. وفي عامي ١٦٠٩ و ١٦١٠، أخرجت اسبانيا ما تبقى من أنسال العرب في الأندلس، مع أنهم اصبحوا مسيحيين في نظرها منذ وقت طويل.

---

(١) زبدة الحلب لابن العديم ج١ ص١٩١.

ولقد حاول بعض الكتاب الاسبان، أن يدفع عن بلده اسبانيا، النعوت والأوصاف التي ألصقها بهم الكتاب المنصفون الغربيون، من جراء ما اقترفه الشعب الاسباني وكنيسته وحكومته بحق العرب، وحاول تبرير التصرف الذي استهدف العرب، تارة بضرورة البحث عن وحدة القومية والدين في اسبانيا، وتارة بالقول إن العرب الاندلسيين كانوا يتآمرون مع الفرنسيين والأتراك والجزائريين . . . الخ، على الحكومة الاسبانية. ولكن جميع هذه الأقوال لا تجد خارج اسبانيا من يقتنع بها، أو يعتقد بصحتها.

وسنعرض في الفصل التالي الى التدابير التي اتخذت بحق العرب بعد سقوط دولتهم. وسنورد فيه الأوامر البابوية والملكية التي مست العرب في حياتهم، أما في هذا الفصل فسنعرض الى المعاملة التي لقيها المستعربون الاسبان من الادارة العربية في الأندلس.

١٢٢ ـ المعاملة التي طبقها العرب على المستعربين:

يتضح مما تقدم أن تعاليم الإسلام توجب عدم إكراه الناس على ترك دينهم، كما توجب عقد الصلح مع الأعداء إذا جنحوا للسلم؛ كما رأينا أنه متى تم عقد عهد الذمة التزم المسلمون بالوفاء به مطلقاً. وليس لهم من سبيل الى نقضه من جانبهم إلا إذا أحدث الذميون حدثاً يمكن أن يعتبر ناقضاً للعقد. ويعتبر الشرع الغدر، وعدم الوفاء بالعقود والعهود، والنكث بها، والحنث بالايمان، من الكبائر التي يمقتها الله، ويعاقب مرتكبها عقاباً شديداً. وكان الخلق العربي قبل الإسلام، ينفر من الغدر والنكث بالعهد، ويعتبر ارتكابهما معرة تلصق بفاعلها. وكانت معاملة العرب للمستعربين الاسبان، لا تخرج عن إطار الخطوط الكبرى، والقواعد العامة التي رسمتها الشريعة الإسلامية لمعاملة أهل الذمة. ولكن الادارة العربية لم تخل من بعض الانتقادات التي وجهها إليها بعض المؤرخين الاسبان، وهم في معرض تبرير ما ارتكبه شعبهم بحق العرب، بعد سقوط الدولة العربية. ولذلك فإننا لكي نستطيع تتبّع أوضاع المستعربين، ودراسة المعاملة التي طبقت عليهم في مختلف الأدوار التي مرت بها الادارة الاسلامية في الأندلس، نرى أنه من المفيد أن نقسم حكم المسلمين في الأندلس الى ست فترات، لندرس كلا منها على انفراد؛ كما فعل الكونت سيركور:

١ ـ فترة الحكام المعينين من قبل دار الخلافة في دمشق، أي من وقت الفتح حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس عام ٧٥١م.
٢ ـ فترة الحكم الأموي من سنة ٧٥١م الى ١٠٣١ تاريخ سقوط الخلافة.
٣ ـ فترة حكم ملوك الطوائف.
٤ ـ فترة حكم المرابطين.
٥ ـ فترة حكم الموحدين.
٦ ـ فترة حكم إمارة غرناطة.

١٢٣ ـ الفترة الأولى ـ فترة امراء دمشق:

احتل المسلمون بعض مدن الأندلس صلحاً، كما احتلوا غيرها حرباً، وعاملوا كل بلد بحسب ما قرره الشرع لها من معاملة، وعقدوا مع المدن المفتتحة صلحاً عهود ذمة، يمكن أن يعتبر الأمان الممنوح لـ (تدمير) حاكم مقاطعة تدمير نموذجاً لها. وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم: كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نضير الى تدمير بن غبدوش، أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه ﷺ ألا يقدَّم له أو لأحد من أصحابه ولا يؤخر، ولا ينزع عن ملكه وأنهم لا يُقتلون ولا يُسبون، ولا يُفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن ملكه، ما تعبد ونصح، وأدى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح عن سبع مدائن: أوريولة وبلنتله ومولة وبقسره وآية ولورقة، وأنه لا يؤوي لنا آبقاً، ولا يؤوي لنا عدواً، ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم خبر عدو علمه. وأن عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة اقساط طلا (وهو شراب من العنب)، وأربعة أقساط خل، وقسطي عسل، وقسطي زيت. وعلى العبد نصف ذلك. شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي، وحبيب بن أبي عبده.. وأبو قائم الهذلي (كتب في رجب ٩٤هـ)(١). ولما انتهت الحرب، وخضع اكثر شبه الجزيرة للعرب بدأت الحياة في المنطقة الإسلامية تأخذ شكلها الجديد، بعد

---

(١) غابر الأندلس وحاضرها ـ محمد كرد علي ص٣٧.

أن تحرر الأقنان ، ودخلت فئات كثيرة من مختلف طبقات الشعب في دين الفاتحين وأصبح في الأندلس مجتمعان :

١ ـ المجتمع الذي أحدثه الفاتحون ، ومن انضم الى دينهم من ابناء الأندلس ، الذين أصبحوا يتمتعون بالمساواة التامة مع القادمين في جيش الفتح .

٢ ـ ومجتمع المستعربين ، الذين بقوا تحت حكم العرب ، محافظين على دينهم ، وفقاً للشروط والعهود التي قطعت لهم . ولم يتغير شيء في إدارة الكنائس والاسقفيات ، وكان لطليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة أساقفتها ، ورهبانها ، وقسيسوها الذين كانوا ينتخبون كما في الماضي بحرية تامة[١] . وحافظ هؤلاء المستعربون على التنظيم الاداري والسياسي الذي خلفه القوط . وتابع القومس (أوشيخ البلد) ممارسة مهام السلطة القضائية بالدرجة النهائية ، والسلطة الادارية بالاشتراك مع الاسقف ، كما كان يتم في السابق بدون أي تغيير . وما كان يشذ عن ذلك إلا الدعاوى الجنائية ، التي يُحكم فيها بالموت ، فكانت من اختصاص القاضي المسلم . واعتبر المستعربون (الموزاراب) الوضع الذي كانوا فيه ، تحت حكم العرب ، امتيازاً لهم طالبوا بالحفاظ عليه حينما احتل القشتاليون طليطلة عام ١٠٨٥م[٢] .

وفي هذه الفترة التي بلغت مدتها ٤٤ عاماً تتالى على ولاية الأندلس اثنان وعشرون والياً ، بينهم ثلاثة من الغاصبين ، وقد طبق المسلمون خلال هذه الفترة شروط الاستسلام ، ولم يحدث عليها تجاوز يذكر . والبحث عن تطبيق شروط الاستسلام ، هو أفضل وسيلة لمعرفة ما إذا كان هناك عسف أو تجاوز على حقوق أهل الذمة[٣] .

ويعترف المؤرخون الغربيون أن مسلك الأمراء العرب كان سلبياً ، ومعاملتهم للمستعربين ، كانت عادلة ومنصفة ، وفي حدود شروط المعاهدة ، ولكنهم يقولون إن هناك بعض المآخذ على تصرفات أربعة من الأمراء هي :[٤]

١ ـ أن عثمان بن أبي نسعة الخثعمي قتل عدداً من رجال الدين والمستعربين .

---

(١) كونت سيركور ج١ ص٢٤ .

(٢) كونت سيركور ج١ ص٢٦ .

(٣) سيركور ج١ ص٢٢ .

(٤) سيركور ج١ ص٣٤ .

٢ ـ أن أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، نقض العهد المقطوع لتدمير، ولم يبرر هذا النقض بأي سبب.

٣ ـ أن عنبسة بن سحيم الكلبي، ضاعف الجزية في كثير من المدن والقرى.

٤ ـ أن عقبة بن الحجاج السلولي، ضاعف ضريبة الرأس، ومنع المسيحيين من الوصول الى الوظائف العليا كالولاية.

ولكننا إذا عدنا الى هذه المآخذ لنتفحصها واحداً واحداً، ونناقشها على ضوء تعاليم الشريعة ومسلك الولاة المسلمين في صدر الإسلام، نخرج بالملاحظات التالية:

أ ـ ان ما نسب الى عثمان بن أبي نسعة من قتل رجال الدين والمستعربين، هو أمر لا يمكن أن يقع بدون سبب موجب خطير يستلزم اللجوء الى القتل. هذا إذا كان الأمر قد وقع فعلاً. لأن قتل الانسان ظلماً، أي انسان كان، مسلماً أو غير مسلم، ظلماً وعدواناً، هو من أكبر الكبائر في نظر الشرع، ولا يمكن أن يبقى مثل هذا العمل بدون قصاص من السلطة المركزية. وعثمان خرج مجاهداً في سبيل الله، ويعرف أحكام القرآن، وتعاليم الدين، وقد سمع بما قاله أبو بكر موصياً بعض قادته: (ولا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته فيكبك على وجهك في النار). ولذلك فإننا لا نعتقد أن عثمانَ يقدم على ارتكاب جرم خطير قبيح كهذا. ولو فعله لذكره المؤرخون العرب، ولآخذه الخلفاء عليه.

ب ـ ولا نظن أبا الخطار يستطيع نقض العهد الذي أقره الأمراء قبله وأكده الخليفة، ولو فعله بلا سبب مبرر للجأ تدمير أو ورثته، أو أهل المنطقة، الى الأمراء الذين أتوا بعد أبي الخطار، أو الى الخلفاء، ولوجدوا من ينصفهم على كل حال. وسنرى فيما بعد أن الأمير عبد الرحمن الداخل، ينصف (أرطباس) من نفسه، بعد أن شكا إليه ما فعله الأمير به.

والمؤرخون المسلمون لا يشيرون الى ذلك النقض، ولا الى مراجعات قام بها المستعربون، لدى الأمراء والخلفاء. لذلك نعتقد أن هذا النقض لم يقع، ولو أنه وقع فعلاً، فلا بد من أن تكون هناك أسباب موجبة، كتآمر تدمير على الحكم العربي، أو قيامه بثورة، أو تآمره مع الفرنجة في الشمال.

ج ـ أما مضاعفة الجزية فهو أمر غير ممكن كما رأينا. وإذا كانت هناك زيادة وقعت، في التكاليف المفروضة على المستعربين في عهد عنبسة، فقد تكون تعديلا في نسبة

الخراج المفروض على الأرض لتتفق الضريبة مع حالة الأرض وخصبها، وصلاحها للزراعة، وللمواد المزروعة فيها. وهذه أمور يجيز الشرع للإمام أو نائبه أن يتصرفا بها ضمن حدود العدل والانصاف.

د ـ أما ما قيل عن منع عقبة بن الحجاج، المسيحيين من الوصول الى الوظائف العالية في الدولة، كالولاية وغيرها، فهو أمر قد يكون وقع فعلا، وقد رأينا لذلك أمثلة في التاريخ الاسلامي. فيأتي خلفاء أو ولاة يتوسعون في استخدام أهل الذمة، ويأتي آخرون لا يرون ذلك، فيصرفون بعضهم أو أكثرهم. وطبيعة الدولة في تلك العصور هي طبيعة دينية. والدولة الاسلامية كانت تعتبر دولة المسلمين أولاً، وسلطة الخليفة أو نائبه مطلقة، له أن يستخدم من يشاء من المسلمين وغيرهم، إذ لم يكن هناك قانون للتوظيف والاستخدام. أما غير المسلمين فلم يكونوا ذوي حق في الوظائف يخولهم المطالبة بها، فاذا لم تستخدمهم الدولة، أو إذا حدّت من استخدامهم، فلا يمكن أن يعتبر ذلك تجاوزاً على حقوق أهل الذمة.

هذا من حيث المبدأ والقاعدة العامة، ولكن الوقائع تدل على أن الأمراء المسلمين والخلفاء في المشرق والمغرب، كانوا يستخدمون أهل الذمة، وخصوصاً منهم النصارى واليهود، في كثير من وظائف الدولة، حتى أصبح بعضهم وزراء وقادة جيوش. وكان من الشائع استخدامهم في أمور الكتابة، وفي أعمال الجباية. وكان استخدام الأمراء المسلمين في الأندلس للمسيحيين واليهود، كثيراً، وأصبح لبعضهم شأن في الدولة، حتى ان اليهودي صموئيل بن نغذله، تقلد أعمال الوزارة في غرناطة في عهد حبوس بن باديس الصنهاجي. وعظم شأنه وشأن اليهود، ولكنه لم يعرف هو وأصحابه حدودهم، وتطاولوا على المسلمين وأذلوهم، وأساؤوا معاملتهم، فانفجرت ثورة عليهم أطاحتهم.

وإذا كان لنا ما نضيفه ونحن نتتبع موقف المسلمين من أهل الذمة الاسبان. في تلك الفترة، فهو أنها كانت فترة مضطربة كثرت فيها الفتن والقلاقل، وكثر فيها النزاع بين المسلمين أنفسهم، وانفجرت فيها ثورة لاهبة قام بها البربر، وكثر فيها القتل والايذاء، ثم دخل الشاميون أرض الأندلس، وتعاونوا مع عرب الأندلس في القضاء على ثورة البربر. ثم وقعت فتن بين العرب الأندلسيين وبين عرب الشام، كثر فيها القتل والاضطراب. ومن الطبيعي أن لا تصيب الفتن أناساً دون أناس، وبالتالي فإنه من الممكن أن يكون بعض المسيحيين قد أصيب خلال هذه الفتن.

١٢٤ ـ الفترة الثانية ـ فترة حكم بني أمية :

يكاد المؤرخون يجمعون على أن حكم بني أمية في الشرق، في دمشق، وفي الغرب، في الأندلس، كان مثالاً طيباً للتسامح الديني، وحسن المعاملة لأهل الذمة، بلا تعصب ولا ضيق تفكير، وقد كان حكامهم في الأندلس مثالا للحكام المستنيرين الرحماء البعيدي النظر، الذين يحسنون معاملة جميع أفراد رعيتهم.

وفي عهد بني أمية كانت أمور الأندلس قد استقرت، وهدأت الفتن والاضطرابات نوعاً ما، وأخذ المجتمع الأندلسي الجديد في التبلور، كما أخذ المجتمع الاسباني المستعرب يتكيف مع الحياة الجديدة في ظل الحكام العرب. وفي أواخر أيام الأمير عبد الرحمن الثاني (٨٢٤ ـ ٨٥٢م)، أخذ الاسبان المقيمون في الأندلس، يأنسون بجيرانهم المسلمين، ويتعلمون لغة العرب، ويأخذون بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم وأسمائهم، ويعجبون بثقافة العرب وفنهم، وموسيقاهم، وآدابهم، فأقبلوا عليها يتعلمونها، ويتذوقونها، حتى كادت الفوارق بين المجتمعين أن تنمحي، وحتى كاد المجتمع القديم يذوب في المجتمع الجديد. وكوّن أولئك المعجبون بالعرب، والمقلدون لهم، طبقة اجتماعية جديدة عرفت باسم المستعربين(١). وقد ذعر أحد الكتّاب المسيحيين المعاصرين من أهل قرطبة، لأن الرجل من عامة المسيحيين كان يتحاشى قراءة مؤلفات الآباء اللاتين، لأن الفصاحة العربية كانت تسكره. ويقال إن يوحنا أسقف اشبيلية (حوالي عام ٧٢٤) كتب بالعربية تهذيباً للتوراة كي يستعمله المسيحيون المستعربون. وطار صواب بعض رجال الدين المسيحيين، وأنكروا على مواطنيهم هذا التشبه بالفاتحين، وخافوا على لغتهم ودينهم من الضياع، فاخذوا يفكرون في طريقة يخلقون بها نفوراً بين المجتمَعين، ويحدثون رد فعل تعصبياً لدى المستعربين، لينفروا من العرب وثقافتهم ودينهم وحكمهم، وقد هداهم تفكيرهم، بعد طول البحث والتأمل، الى طريقة عجيبة وسخيفة ظنوا أنها توصلهم الى غايتهم. فقد أخذ قسيس من قرطبة اسمه (إيولوجيوس) بتحريض من له تأثير عليهم على تقديم أنفسهم ضحايا ليفوزوا بالشهادة، ويصبحوا قديسين. وفي عيد الفطر من عام ٨٥٠م أعدمت السلطة قسيساً قرطبياً اسمه برفكتوس، لأنه شتم النبي ﷺ ولعن الإسلام.

---

(١) فيليب حتي ـ تاريخ العرب ج٢ ص٦٦٩.

فجعله أسقف قرطبة ورهبانها، قديساً، ونسبوا إليه المعجزات. وبعد أيام، جاء قسيس اسمه اسحق أمام القاضي مدعياً أنه يريد اعتناق الإسلام، ثم أخذ يشتم الرسول والإسلام؛ فاضطر القاضي الى الحكم بإعدامه، فاعتبرته الكنيسة قديساً. وثارت إثر ذلك حمى الاستشهاد وجنونه، حتى بلغ من قتل خلال شهرين واحداً وعشرين شخصاً.

وعقد الأساقفة مجلساً[1] حظروا فيه على المسيحيين أن يسعوا الى الموت بهذه الطريقة، وعارض ايولوجيوس بوصفه اسقف قرطبة، هذا التصرف، فاستمرت اندفاعة المستشهدين. ولم تتوقف الحمى إلا حينما أمر الأمير محمد بإعدام ايولوجيوس، فتوقفت الحركة بعد أن راح ضحيتها ٤٤ شخصاً.

ومع أن المسلمين يجلون الرسول، ولا يحتملون سماع ما يمس به، فقد ضبط القاضي نفسه، وهو يسمع شتائم هؤلاء المهسترين، وكظم غيظه، وحاول نصح هؤلاء المرضى، وارجاعهم عن غيهم، ولما لم يفلح في ذلك، اضطر الى لفظ الحكم بإعدامهم. ولكن العقاب لم يمتد الى أهلهم وذويهم، ولم يصب غيرهم بأذى، واكتفى بأن يجعل العقاب فردياً، لا يطول الأبرياء. عملا بقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى). (سورة الإسراء آية ١٧).

لقد امتد حكم الأسرة الاموية حتى عام ١٠٣١م، فلم يؤخذ على أمرائهم تصرف فيه جور أو عسف بحق الذميين، كما لم يبدر من الشعب المسلم في الأندلس عمل فيه اساءة للذميين، أو ينم عن حقد، وروح انتقام، وعلى العكس من ذلك يمكن القول إن المستعربين (بعضهم طبعاً) كانوا هم الذين يسيئون الى المسلمين. وحاولوا إثارة الفتن الدينية بتحديهم المسلمين في قرطبة، عاصمة الدولة، إذ كانوا يتجمعون أمام جامع قرطبة حينما يكون المؤذن يؤذن للصلاة. فيظهرون الاشمئزاز والتذمر، ويبدون إشارات مهينة تسيء الى المسلمين ودينهم. ومع ذلك فإن المسلمين ضبطوا أعصابهم، ولم يقوموا بحملات انتقامية جماعية بحق المسيحيين بدون تفريق بين مذنب وبريء، كما أنهم لم يفكروا بطرد أحد منهم من بيته، أو حمله على الهجرة من وطنه.

---

(١) ويقول فيليب حتي ان المجلس عقد بناء على ايحاء الأمير عبد الرحمن. نفس المرجع ج٢ ص٦٧١.

وفي أواخر أيام الأمير عبد الرحمن الثاني، بدأت الفتن في البلاد، وقد كان لليهود والمسيحيين ضلع فيها. وفي عام ٨٢٩م، انضموا الى الناقمين من المسلمين في طليطلة، وأعلنوا الثورة على حكم الأمارة في قرطبة؛ واستمرت الثورة ثماني سنين، حتى أزعجت الأندلس، وعطلت فعاليتها، الى أن تمكن الأمير محمد من القضاء عليها، بعد أن طلب الثائرون الأمان فأمنهم الأمير، وعفا عنهم، ولم يُصَبْ المسيحيون بأذى أكثر مما أُصيب به المسلمون خلال الفتنة.

ثم تتالت الثورات في المناطق الأخرى وفي طليطلة أيضاً، وكان للنصارى باع طويل في هذه الثورات، واشتراك علني وصريح فيها. ففي الجنوب في مقاطعة ريا (منطقة مالقة) أعلن عمر بن حفصون الثورة على حكم قرطبة، وعمر بن حفصون مسيحي أسلم، أو تظاهر بالإسلام، ثم ما لبث أن ارتد عن الإسلام، وعاد الى دينه الأول، وأنضم إليه في ثورته كثير من مسيحيي المنطقة وغيرهم. واستمرت ثورة ابن حفصون وأبنائه، سنين طويلة، حتى تمكن الخليفة الناصر من اخمادها. وثار عبد الرحمن بن مروان الجليقي في منطقة ماردة، وانضم اليه كثير من المسيحيين. وحينما قضى الأمراء على هذه الثورات، لم يخصوا النصارى واليهود بالعقاب، وإنما عاملوهم على قدم المساواة مع المسلمين. وشملوهم بالعفو. وباختصار، فإن المؤرخين الغربيين لا يرون أن شروط حياة المستعربين قد تبدلت في ظل حكم الأمويين، ولا يرون شيئاً معيناً من المآخذ على معاملة الأمراء الأمويين للمستعربين. ويذكرون فقط مأخذين: أحدهما على الأمير عبد الرحمن الأول، وثانيهما على ابنه هشام الأول.

١ ـ يقولون إن الأمير عبد الرحمن كان قاسياً، مع المسيحيين، وانه أخذهم بالحزم الى أن استقامت له الأمور. ولكنهم لم يوردوا حوادث معينة تبرر قولهم، وتؤيده بالحجة، ليمكن أن يصار الى مناقشتها ومعرفة أسبابها، وهل تشكل فعلاً تجاوزاً على شروط العهود التي قطعها المسلمون للاسبان يوم الفتح أم لا. ويعترف الكونت سيركور الذي عرض لهذا الموضوع، أن الأمير عبد الرحمن أخذ الناس جميعاً ـ من مسلمين وذميين ـ بالحزم، وحملهم على الهدوء دون تمييز في المعاملة. فقد دخل عبد الرحمن الأندلس، وتمكن بعد جهد كبير من انتزاع الحكم وتهدئة الأمُور، والقضاء على ثورات يوسف الفهري وابنائه، ومؤامرات بعض الأمراء مع العباسيين. فمن الطبيعي أن يأخذ الناس بالحزم، حتى تستقيم له الأمور. وينقاد له جماح الثائرين. وينهي سيركور قوله بالعبارة التالية: (ولكننا لا نرى في أي مكان أن شروط حياة

المستعربين قد ساءت بفرض أنظمة جديدة عليهم[1].

وإذا عدنا الى تاريخ الأمير عبد الرحمن لا نجد فيه إلا سعة أفق، وسعة صدر، وحباً للنصح والأخذ به. ويذكر ابن القوطية أن الأمير عبد الرحمن نظر في بعض غزواته الى قبة (أرطباس) بن غيطشه (آخر ملوك اسبانيا)، فوجد حولها أكداساً من الهدايا التي أتته من ضياعه، فنفس عليه ذلك الأمر، وأمر بقبض ضياعه. فصار عند أبناء أخيه حتى ساءت حالته، فقصد أرطباس قرطبة، ودخل على الأمير عبد الرحمن، فنظر إليه وهو في هيئة رثة، فقال له يا أرطباس ما بلغك ههنا؟ فقال: أنت بلغتني ههنا، حلت بيني وبين ضياعي، وخالفت عهود أجدادك، بلا ذنب يوجب ذلك عليّ. ثم ذكر أرطباس للأمير عبد الرحمن أشياء كان الناس ينكرونها عليه، وينتقدونه بها، فسر الأمير عبد الرحمن لقوله، وشكره عليه، وأمر له بعشرين ضيعة من ضياعه، وكساه ووصله وولاه القهاسة، فكان أول كونت (قمص) في الأندلس[2].

٢ ـ أما ما يأخذونه على الأمير هشام بن عبد الرحمن فهو أنه عاقب بعض المسيحيين، الذين تواطؤوا مع الفرنج للهجوم على نربونه، وأنه حين اضطر الى اخلائها والانسحاب منها أجبر المسيحيين من أهل المنطقة ـ الذين تواطؤوا فعلا مع الفرنسيين ـ على احتمال أحجار بيوتهم في نربونه، لبناء بيوت لهم بها في قرطبة.

ولكن يعترف الذين يوردون هذه المآخذ على الأمراء الأمويين، ان العقاب كان بسبب التواطؤ مع العدو، وأنه لم ينزل إلا بالمجرمين وحدَهم. وما عدا ذلك بقيت الحالة العامة للمستعربين على حالها دون تغيير يذكر[3]. ويذكر الكونت سيركور أن الفرنسيين حينما هاجموا الأندلس في عهد هشام الأول فرضوا نظاماً قاسياً جداً على السكان المسيحيين، في المناطق الأندلسية التي احتلوها[4].

وعلى العموم يمكن القول إن حالة المستعربين في عهد بني أمية في الأندلس كانت طيبة، وليس لهم من سبب للشكوى. ويقول المؤرخ المنصف الكونت سيركور: (إن التحديات التي كان يقوم بها المستعربون للحكم الإسلامي، والتي

---

(١) سيركور ج١ ص٣٩.
(٢) ابن القوطية ص٦٠.
(٣) سيركور ص٣٩.
(٤) نفس المرجع ص٤٠.

كانت تبلغ، في بعض الأحيان، حداً كبيراً من الجرأة، لم تدفع بأمراء البيت الأموي الى التخلي عن سياسيتهم الرحيمة، نحوهم ولا الى الخضوع لضغط العواطف والأهواء الشعبية التي تطالب بالانتقام منهم لتآمرهم مع الممالك الاسبانية(1).

١٢٥ ـ الفترة الثالثة ـ فترة حكم ملوك الطوائف:

وبعد سقوط الدولة الأموية وانقراض الخلافة وقعت فتن وأحداث جسام في الأرض الاسلامية بين الطامعين من المسلمين، وكان كل منهم يحاول أن يكسب ود الممالك الاسبانية في الشمال ويطلب عونهم وتأييدهم فكانوا يتقدمون بجيوشهم لعون من اتفقوا معهم من المسلمين، ويحتلون المدن والقلاع والحصون، ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف أن لا يكون هناك تفريق في المعاملة بين المسلمين والمسيحيين، وأن لا يفكر الأمراء في الاساءة إليهم. وفي الواقع إن المؤرخين الغربيين لايذكرون شيئاً من المآخذ على الحكم الإسلامي في معاملته للمستعربين برغم الفوضى الكبيرة التي حدثت، والفتن والحروب التي استمرت قرابة سبعين عاماً.

١٢٦ ـ الفترة الرابعة ـ فترة حكم المرابطين:

كانت حركة المرابطين في شمالي افريقيا، حركة دينية في بدء أمرها، واستطاعت هذه الحركة أن تبسط سيادتها على المغرب العربي، وتقضي على الممالك والأمارات الإسلامية فيه. ولما تزايد الضغط الاسباني على المسلمين في الأندلس، إثر سقوط الخلافة الأموية، لم يبق أمام الأندلسيين سبيل لإنقاذ ما يمكن انقاذه، إلا اللجوء الى أمير المرابطين، الذي كان وجماعته يتحرقون شوقاً للجهاد في سبيل الله، والفوز بمرضاته. فلجأ المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين يستنصره على الاسبان، فوعده النصرة. وكانت معركة الزلاقة عام ١٠٨٦م (٤٨٠هـ)، فانتصر يوسف والأندلسيون نصراً كبيراً. ثم تطلع المرابطون الى الاستيلاء على الأندلس فتم لهم القضاء على الإمارات الأندلسية حوالي عام ١٠٩١م. وبالنظر للطبيعة الدينية لدولة

---

(١) سيركو رج١ ص٥٣.

المرابطين فقد قربوا الفقهاء والعلماء من رجال الدين، وجعلوا لهم دوراً بارزاً في حياة الدولة. ولاحق المرابطون عدداً من الفلاسفة المسلمين بسبب آرائهم. ويبدو أنهم فكروا في أمر الكنائس، لمعرفة ما تم انشاؤه وتوسيعه، خلافا لما جاء في شروط الصلح. فَعَدَّ المستعربون ذلك تعدياً على حقوقهم، واساءة لمعاملتهم، مع أن المرابطين إنما أرادوا تحكيم معاهدة الصلح بدقة لهدم ما انشأه المستعربون خلسة وخفية وخلافاً لما اتفق عليه. والمرابطون في تصرفهم هذا إنما يعتقدون أنهم يوفون أهل الذمة حقهم، وهو أمر داخل في اختصاصهم.

ويعترف المؤرخون الغربيون ان معاملة المرابطين للمستعربين، كانت معاملة عادلة، ومنصفة، وفي حدود شروط المعاهدات الموقعة معهم، وفي حدود الشرع الاسلامي. والذي يأخذونه على المرابطين هو قيامهم باجلاء كثير من النصارى من مملكة غرناطة الى افريقيا. ولكن المنصفين منهم يعتبرون تصرف المرابطين مشروعاً ومبررا، وفي حدود المعقول، لأنه كان جزاء وفاقاً لما قام به المستعربون من التآمر مع ملك أراغون على سلطة المرابطين، ولم يكن تعسفاً وتجاوزاً.

فبعد احتلال ملك اراغون مدينة سرقسطة، ظن المستعربون في منطقة غرناطة أن شمس الإسلام في الأندلس قد مالت الى الغروب، فاندفعوا يظهرون عداوتهم للمسلمين وحكمهم، وأخذوا يتصلون بالفونسو المحارب ملك أراغون يحرضونه على مهاجمة منطقة غرناطة، وانتزاعها، ويعدونه العون والنصرة ويؤكدون له أنهم سيكفونه مؤنة الحرب، بما يقدمونه له من محاربين، إذا ما وصل إليهم مع جيشه. فأغرت هذه الوعود الفونسو، وسار على رأس جيش، من أربعة آلاف مقاتل، الى منطقة مالقة، ومنها اتجه الى منطقة غرناطة، فانضم إليهم المستعربون النصارى الموجودون في تلك المنطقة، حتى قدر عددهم بخمسين ألفاً، فأسرع المرابطون الى جمع قواتهم، وفشل الأراغونيون في احتلال غرناطة، وخافوا أن تهاجمهم القوات المرابطية، فانسحبوا عائدين الى بلادهم. أما المستعربون الذين تحركوا لنصرة الأراغوانيين فقد خاف بعضهم فلحق بالغزاة الى بلادهم، وكانوا في حدود ١٢ الفاً، مخافة الانتقام، أما الآخرون فقد عادوا الى بيوتهم ظنا منهم أن المرابطين لن يجرؤوا على معاقبتهم.

ولكن المرابطين، كانوا حكاماً حازمين لا يترددون في انفاذ عقوبة أياً كان مستحقها، فقرروا نفي الذين أعانوا الأرغوانيين فقبضوا عليهم، وساقوهم الى

افـريقيـا، ولكنهم سمحوا لهم ببيع أملاكهم، ونقل أموالهم المنقولة أو بيعها، ولم ينزل عقـاب المـرابطـين إلا بمن أسـاؤ وا فعـلا وأنضمـوا الى الجيش الأرغـواني، وحملوا السلاح. أما النصارى الآخرون فقد بقوا في بيوتهم آمنين لم يمسهم أذى(١).

وفي افـريقيـا عاش المستعـربـون المنفيـون عيشة عادية، لا يتعرضون فيها الى ضغط أو ازعاج، واستخدم المرابطون بعضهم في البلاط، وفي وظائف الدولة.

وبـالاختصـار يمكن القـول إن المـرابطـين عاملوا المستعـربين معاملة عادية في حدود التعـاليم والقـواعـد العامة التي وضعها الفقهاء لمعاملة أهل الذمة، وحينما كانوا يضطـرون الى معـاقبـة انسـان منهم لذنب اقـترفـه، كان عقـابهم له رحيماً ومنصفاً، يصيب الشخص نفسه، ولا يتجاوزه الى غيره. فلا تزر وازرة وزر أخرى(٢).

١٢٧ ـ الفترة الخامسة ـ حكم الموحدين:

قامت دولـة الموحـدين في عام ١١٣٠م (٥٢٤هـ)، في شمالي افريقيا، وقضت على دولة المرابطين فيها، ثم دخل الموحدون الأندلس ليتسلموا ما بأيدي المرابطين من البلاد، وجرت معارك وحروب طويلة حتى تمكنوا من اتمام فتح البلاد، والقضاء على الولاة المرابطين. ويقول المؤرخون الغربيون إن الموحدين لم يتصرفوا حيال المستعربين كتصـرف المـرابطـين، وإنـما كانوا يقتلون المسيحيين واليهود، ففر الكثير ون منهم الى الشمال حتى أصبح وجود المستعربين بعد عام ١١٧١م، نادراً في المملكة الإسلامية. ولذلك فإن بحثنا في معاملة المسلمين للنصارى خلال هذه الفترة سيقتصر بعد هذا التـاريـخ على بحث معـاملة المسلمـين للأسـرى والعبيـد النصارى الذين يقعون في أيدي المسلمين.

لقـد أوردنـا فيـما تقـدم فقـرة موجزة عن حكم الرق في الاسلام بيّنا فيها حكم الشرع من معاملتهم، وقلنا ان القرآن والسنة أوجبا معاملة العبيد بالحسنى.

ويعترف الغربيون بأن القرآن أمر بمعاملة العبيد بالحسنى، لذلك فان المعاملة للاسـرى النصـارى كانت منوطة بصورة خاصة بطبع أسيادهم وأمزجتهم(٣). وبما أن

---

(١) الكونت سيركور ج١ ص٦٢.

(٢) نفس المرجع ص٦٣.

(٣) الكونت سيركور ج١ ص٢٩.

حركة الموحدين هي حركة دينية، مثل حركة المرابطين، وبما أن تعاليم الدين الاسلامي تحض على معاملة الأسرى معاملة انسانية رحيمة، وتجعل اعتاق الأسرى والاحسان إليهم قربة الى الله، فاننا نعتقد أن الأسرى النصارى والعبيد منهم، كانوا يعاملون معاملة انسانية معقولة.

١٢٨ ـ الفترة السادسة ـ عهد بني الأحمر:

انتقل الحكم في غرناطة الى العرب مرة أُخرى، بعد سقوط دولة الموحدين. ومعاملة العرب لأهل الذمة وللأسرى وللعبيد، مشهود لها بالإنصاف والرحمة والإنسانية، وكان للأسير ملء الحق في أن يحتفظ بدينه ومعتقده، وقد تركت معاهدة استسلام غرناطة للاسبان[١]، لهؤلاء العبيد والاسرى حرية الارتداد عن الإسلام والعودة الى النصرانية، ولكنها وضعت شروطاً أُخرى تحمي الذين يريدون البقاء منهم على الاسلام، وتمنع اجبارهم على الارتداد عن الإسلام، والعودة الى النصرانية، وهذا الشرط يدل بوضوح لا يقبل الجدل على أن الكثيرين منهم كانوا يقبلون على اعتناق الإسلام بطوعهم واختيارهم، وعن قناعة به، ولذلك فإنهم يريدون الحماية، لكيلا يجبروا على العودة الى النصرانية ،ولكيلا تلاحقهم الكنيسة بجرم الكفر والمروق من الدين.

ويختصر الكونت سيركور معاملة العرب والمسلمين في الأندلس للمستعربين الاسبان بالعبارة التالية:

«وبالاختصار فإن المستعربين كانوا ـ حتى جاء حكم المرابطين ـ يتمتعون بحماية رسمية. ولما جاء المرابطون لم يهتموا بهم، الى أن قاموابثورتهم، فنفوهم بدون حقد أوكراهية. وقد قام المرابطون بهذا العمل وهم يعتقدون بأنهم لم يتجاوزوا حقهم أبداً في الدفاع المشروع.

وينتج من مجموع الأعمال السياسية أن عرب اسبانيا اتخذوا التسامح أساساً لحكمهم وسيطرتهم، وقد تسامحوا مع رعاياهم المسيحيين في كل شيء: الدين والمؤسسات والعادات والتقاليد والاخلاق[١]».

---

(١) نفس المصدر ص٦٦.

الفصل الثالث

العرب في ظل الحكم الاسباني

١٢٩ ـ لم يجز الاسبان العرب احساناً باحسان، ولا خيراً بخير، ولا تسامحاً بتسامح، ولم يقابلوهم على معاملتهم الطيبة بمعاملة مثلها، وانما استسلموا، حينما أصبحوا في موقف الغلبة، الى انتقام رهيب صبوه على المسلمين، وأساؤوا معاملتهم. وكان زعماء رجال الدين المسيحيين، في الفاتيكان وفي اسبانيا، أطول باع فيما حل بالمسلمين من ظلم وعسف وبلاء. كان العرب لا يجهلون أن الاسبان يضمرون لهم الحقد والشر، وانهم يريدون تأول العهود، وشروط الاستسلام، ويبحثون فيها عن ثغرة ينفذون منها لنكث العهود، والغدر بالمغلوبين، فكان المسلمون كلما اضطروا الى تسليم بلد الى الاسبان، يضعون في معاهدة الاستسلام، من الشروط والبنود ما يظنونه كافياً وكفيلا لضمان أمن المسلمين الذين يريدون البقاء في أرضهم تحت ظل الغالبين.

ومن يطالع شروط استسلام المدن الاسلامية ـ وتعتبر معاهدة استسلام غرناطة نموذجاً لها ـ ويدقق في الضمانات التي أدرجت فيها، يدرك حقيقة شعور المسلمين في ذلك الوقت نحو الشعب الذي قدر لهم أن يبقوا تحت رحمته، ولكن جميع هذه الاحتياطات لم تنفع، فقد كان عدوهم يتأول الأيمان، ويدوس الكلمة، ويسخر من الوفاء، ويجد في رجال الدين مبررين لكل تصرف مهما كان غادراً فاجراً، ومحللين لهم الحنث بالأيمان والنقض للعهود. ولم يمض طويل وقت على دخول فرناندو وايزابيل مدينة غرناطة، حتى شرعا في خرق بنود معاهدة الاستسلام، ولم تمض فترة قصيرة حتى كان الملكان قد مزقا أكثر بنود المعاهدة التي أقسما على الوفاء بها أبداً، تاركين لمن يأتي بعدهما من الملوك مهمة تمزيق ما بقي منها.

١٣٠ ـ المصادر الاسلامية عن حالة العرب أيام محنتهم :

لا تورد المصـادر الاسـلاميـة كثيراً من المعلومات المحددة والواضحة عن تاريخ المسلمين المدجنين، الذين بقوا تحت حكم الممالك الاسبانية، ولا عن حالتهم الاجتماعية، ولا عن معاملة الاسبان لهم، اللهم إلا عبارات ومقاطع وردت متفرقة، مطلقة تنضح بالأسى والألم من سوء حالة هؤلاء البؤساء، وما كانوا يلاقونه من سوء المعاملة. والمصادر الاسبانية لا تذكر إلا ما يناسبها، وما يبرر أفعالها، ومعاملتها السيئة للمسلمين الخاضعين لحكمها . وأكثر المؤرخين والكتاب الغربيين لا يهتمون بتاريخ المدجنين الا بعد سقوط بلنسية بيد خايم (جاقمة) ملك أراغون، وبدء ثوراتهم، وبدء سن التشريعات، واصدار الأوامر الرامية الى نقض العهود المقطوعة للمسلمين بالمحافظة على حياتهم وحرياتهم وأموالهم وعاداتهم ودينهم ولغتهم وقضائهم، تمهيداً للقضاء عليهم، ومحو كل أثر لتاريخ العرب والمسلمين في شبه الجزيرة. وبما أننا لا نملك من المصادر العربية والاسلامية مراجع كافية، ولما كنا مضطرين للاعتماد في الموضوع على المراجع الاسبانية والغربية، فاننا سنتتبع الأوامر والقوانين الصادرة عن السلطات والكنيسة المتعلقة بموضوع المسلمين لنعرضها محللين ومدققين. ونرى لسهولة البحث، أن نقسم الموضوع الى قسمين :

١ ـ في القسم الأول : ندرس حالة المسلمين في الممالك الاسبانية منذ سقوط بلنسية الى سقوط غرناطة. وبما أن الجزيرة الاسبانية كان فيها مملكتان في تلك الحقبة هما مملكتا قشتالة وأراغون، فيمكننا تقسيم هذا القسم الى فقرتين :

أ ـ حالة المسلمين في أراغون.

ب ـ حالة المسلمين في قشتالة.

٢ ـ وفي القسم الثاني : ندرس حالة المسلمين منذ سقوط مملكة غرناطة الى يوم اخراجهم نهائياً عام ١٦١٠.

أولاً ـ العرب في ظل الحكم الاسباني حتى سقوط غرناطة

١٣١ ـ المسلمون في مملكة أراغون :

كان من بين الشروط التي تضمنتها معاهدة استسلام بلنسية المؤرخة في ١٧

صفر ٦٣٦هـ (٢٨ سبتمبر - أيلول ١٢٣٨م) ما نص على الضمانات التالية:
١ - تسلم المدينة لملك أراغون، على أن يؤمن جميع سكانها في أنفسهم وأموالهم.
٢ - أن يكفل للذين يريدون الهجرة حرية الخروج بجميع أموالهم حيث شاؤوا.
٣ - أن يكفل للذين يريدون البقاء في بلنسية، حرية مزاولة شعائرهم الدينية، وشرائعهم وعاداتهم، وأن لا يدفعوا من الضرائب أكثر مما يدفعه رعايا الملك الآخرون.
٤ - أن تسلم جميع الحصون والمواقع الواقعة على الضفة اليسرى لنهر شُقرَ الى ملك أراغون، مقابل توقيع هدنة مدتها ثماني سنين، مع زيان أمير ما تبقى من مملكة بلنسية.

ولكن ما إن دخل (خايم)، مدينة بلنسية حتى حول مسجدها الجامع - خلافاً للشرط - الى كنيسة، ثم بدأ يفكر في طريقة تمكنه من دوس العهد الذي قطعه على نفسه بمهادنة زيان لمدة ثماني سنين، واغتنام فرصة ضعف المسلمين وبلبلتهم، فلم يجد وسيلة مشروعة، فقرر أن لا يبالي بالعهد وأن يتقدم خارقاً الميثاق بكل بساطة.

وبالفعل، اندفع الملك في سيره يستولي على ما تبقى بيد المسلمين من أراضي مملكة بلنسية، حتى أتم احتلالها كلها. فنزح عن مدينة بلنسية قرابة خمسين ألفاً الى المناطق الاسلامية الأخرى، ونزح كثير ممن قرروا البقاء الى المناطق الريفية في مملكة بلنسية حفاظاً على دينهم ولغتهم وتقاليدهم وقبلوا أن يصبحوا عمالا زراعيين لدى الملاك المسيحيين الجدد الذين استولوا على الأراضي، عن طريق الاقطاع والمصادرة. ولكن حالة هؤلاء المساكين كانت أسوأ من حالة أفراد الرعية في المملكة إذ إنهم أصبحوا نوعاً من الأرقاء[١].

رأي البابوية في قيمة العهود مع المسلمين:

الأديان السماوية كلها تستقي مبادئها وتعاليمها من ينبوع تشريعي واحد هو شرع الله الذي أنزله على رسله. والنصرانية مثلها في ذلك مثل اليهودية والإسلام، بالغت في حثّ المؤمنين بها على الوفاء بالعهود المقطوعة والتمسّك بالمواثيق المعقودة مع خلق الله

---

(١) مانويل دانفيا أي كويادو (طرد الموريسكيين الاسبان) ص٢٠.

تعالى، وضرب المثل الصالح في احترام العهد والكلمة، لأن العهد لله تعالى، كما تأمر بالرحمة بالناس والعدل وحب الخير.

وحرمت الأديان السماوية كلها الكذب والغش والخديعة والغدر، والنكث بالعهود، وشددت على المؤمنين بها في وجوب احترام المبادىء السامية، وعدم اقتراف هذه المنكرات، مهما كنت الظروف والمبررات. وانذرت تعاليم الله من يخالف ذلك بأشد العقاب في الاخرة، وبالخزي والذلة في الدنيا.

ولكن الكنيسة برغم صراحة هذا التعاليم الإلهية وصرامتها، وصراحة احكامها، فان الكنيسة الكاثوليكية مرت في فترات جاء فيها باباوات تنكروا لهذه المبادىء الألهية السامية، وضربوا بها عرض الحائط، تحقيقاً لأغراض دنيوية ظنوها سامية فاذا بها خسيسة لا تتجاوز شفاء احقاد، فشوهوا بذلك جمال التعليمات الإلهية السمحة، وفتحوا الباب لاتباعهم من الملوك، ومن هم أدنى منهم من رجال الدين، أن يتوسعوا في الانحراف عن المبادىء، حتى أصبح الغدر شيمة وخليقة وعادة عند بعض رجال الدين في الغرب، وعند بعض الحكام المسيحيين في اسبانيا، ولنسق على ذلك بعض الأمثلة الثابتة تاريخياً:

المثل الأول:

عقد السلطان العثماني هدنة مع هونياد ملك المجر مدتها عشر سنين، وبعد ذلك توفى ابن السلطان علاء الدين، فحزن السلطان لذلك، وتنازل عن العرش، واتجه الى مغنيسيا ليقيم فيها، وخلفه في السلطنة ابنه محمد الثاني وعمره ١٤ سنة، وعلم البابا بالاضطراب الذي تتعرض له السلطنة العثمانية في تلك الآونة، فأرسل الي هونياد ملك المجر يحثه على اغتنام الفرصة لضرب السلطنة العثمانية، فاعتذر هونياد بوجود عهد قائم بينه وبين العثمانيين، اقسم عليه، والتزم به. فارسل إليه البابا يخبره بأنه يحله من عهده وقسمه الذي اقسمه للمسلمين، لأن المسلمين يجب أن لا يكون لهم عهد، وليس على المسيحيين التقيد بعهودهم للمسلمين إذا كان التحلل من العهد يخدم مصالحهم.

وبناء على ذلك زحف هونياد على الأراضي العثمانية في شرقي أوربا واستولى على بلاد البلغار.(١)

(١) شكيب أرسلان ـ ملحق الجزء الأول لتاريخ ابن خلدون ص١٢٨.

المثل الثاني:

أسر صلاح الدين الأيوبي اثر معركة حطين الملك الصليبي (جي دولوزينيان ملك القدس)، وعامله أحسن معاملة وأكرمها وانبلها، ثم بدا له أن يطلق سراحه تكرماً وسماحة، ففاوضه على ذلك، واشترط عليه ان يتعهد له بأن يترك الشرق الى أوربا، وأن يتعهد بأن لا يقوم بمحاربة المسلمين أبداً. فوافق الملك الصليبي على ذلك، والتزم به واقسم عليه.

وبعد ان أطلق صلاح الدين سراحه اتجه (جي) الى طرابلس لينضم الى زوجته، وهناك جاءه اسقف طرابلس، يعطيه فتوى بأنه في حل من العهد الذي قطعه على نفسه لصلاح الدين بمغادرة الشرق، وبعدم محاربة المسلمين بعد اطلاق سراحه، وقال له ان اليمين التي اقسمها لا تلزمه لأنه انما تعهد واقسم وهو مجبر على ذلك، ولا خيار له في الأمر. ثم ان العهد قطع لكافر والعهود المقطوعة للكفار لا قيمة لها في نظر الكنيسة.. [1].

المثل الثالث:

في عام ١١٢٣م أسر بلك بن بهرام بن أرتق أمير حرّوط، الملك الصليبي بودوان الثاني. وبقي في أسره مدة من الزمن، ثم مات بلك. وتقسمت امارته، وأصبح بودوان في أسر سليمان بن عبد الجبار بن ارتق، أمير حلب، واضطربت أحوال الامارات الاسلامية في تلك الفترة، ففاوض بودوان آسريه على مفاداته، وتم الاتفاق على أن يدفع بودوان مبالغ كبيرة من المال يعجل بعضها ويرهن ابنته عند آل منقذ امراء شيزر لقاء دفع ما يتبقى، وعلى أن يتنازل عن بعض الحصون لامارة حلب ومنها حصن اعزاز شمالي حلب.

وبعد أن أطلق سراح بودوان، أمره اسقف بيت المقدس - على ما قاله هو لأمير حلب - بأن لايفي بما التزم به، وأقسم عليه، وأحلّه من قسمه وتعهده وقال له إنه يلتزم عنه بالوزر الذي يلحقه من جرّاء حنثه بقسمه، ونكثه بتعهده.

---

(١) رونسمان - تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص١٨.

المثل الرابع :

أصـدر البـابـا كليمانت السابع أمراً في ١٢/ ٥/ ١٥٢٤م يحل فيه الملك شارل الخامس ـ ملك اسبانيا ـ من القسم الذي اقسمه حين ارتقى عرش اسبانيا بالمحافظة على احترام المعاهدات الموقعة مع المسلمين الذين استسلمت مدنهم للاسبان، والتي كانت تسمح لهم بممارسة حريتهم الدينية، وعاداتهم وشرائعهم ولغتهم . .

وفي هذا الأمـر البـابـوي فرض البـابـا على الملك الاسباني العمل على تحويل المسلمـين الى النصـرانيـة، وخوله حق فرض الرق على من يرفضون التنصر. ونصح البـابـا الملك بالاعتـماد على جهـاز التحقيق (محـاكم التفتيش) بما يملكه من أساليب ارهاب مخيفة لإجبار المسلمين على التنصر.

المثل الخامس :

في ١١/٦/١٥٣١م أصـدر البـابـا كليمانت السابع أمراً بابـوياً (بولا) يأمر فيه الامبر اطور شارل الخامس باخراج المسلمين الذين يرفضون التحول الى المسيحية من ممالكه.

وفي عام ١٥٢٥م أمـر البـابـا كليـمانت السابع المسلمين المقيمين في اسبانيا بأن يعلنوا طاعتهم للامبر اطور شارل الخامس،وأن يتحولوا الى النصرانية وأن يتلقوا العماد في ٨/ ١٢/ ١٥٢٥م.

المثل السادس :

دعـا البـابـا كليمانت الخامس الى عقد مجمع مقدس في فييناعام ١٣١١م، وفي هذا المجمع أمر البابا ملوك اسبانيا، ـ تحت طائلة حكم الله عليهم ـ بأن لا يسمحوا في ممالكهم بممـارسـة الـدين الاسلامي والطقوس التي ابتدعها محمد (وأطلق عليه في أمره اسم النبي المزيف).[1]

---

(١) دانفيللا أي كوليادو ص٢٩.

وقد حث البابا ملك أراغون على ابادة جميع المسلمين الموجودين في مملكته.[1]

كما كانت سلطة البابوية والاكليروس قد ساعدت الملكية على محو العنصر الاسلامي من اسبانيا والبرتغال.[2]

١٣٢ ـ ضغط الكنيسة لنقض العهود المقطوعة للمسلمين:

بعد أن استولى الملك خايم على مملكة بلنسية واستقر له الأمر فيها، بدأت الكنيسة في الضغط عليه لمحاربة المسلمين، ومحو عنصرهم من المملكة. ولكن النبلاء كانوا يرون في طرد المسلمين والقضاء عليهم، خراباً لهم، وبواراً لأرضهم، وضرراً بالحياة الاقتصادية في المملكة، لأنه يحرمها من اليد العاملة النشيطة المتخصصة. وكان الملك يرى رأي الكنيسة في القضاء على العنصر العربي، ولكنه كان يريد تحقيق ذلك بالتدريج، وذلك لأسباب كثيرة منها:

أ ـ أنه كان يصطدم بمعارضة النبلاء وأمراء الاقطاع.

ب ـ لأنه كانت هناك أراض اسلامية كثيرة لم تفتتح بعد، وكان هناك تنافس وتسابق بين مملكتي أراغون وقشتالة على الفوز بالاستيلاء عليها. وكان الجانبان يريان أن حسن معاملتهما للمسلمين الذين وقعوا تحت أيديهما مما ييسر مهمتهما، ويحمل المناطق الإسلامية الأخرى على أن تفضل الاستسلام لأحسن الجانبين معاملة للمسلمين، إذا ما اضطروا الى الاستسلام في يوم من الأيام.

ج ـ أخذ العنصر المسيحي ينتقل الى مملكة بلنسية ويستقر فيها إثر الفتح، ولكنه بقي قليل العدد والمملكة واسعة، كثيرة مرافق الانتاج. ومصلحة الدولة تقتضي الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من اليد العاملة فيها لاستثمار الأرض، والعمل في الصناعات والمرافق الانتاجية الأخرى، ولذلك كان الملك يرى أن إزعاج العنصر الاسلامي، والمبالغة في الاساءة إليه، سيحمل الكثيرين منهم على الهجرة فيتضرر الانتاج، ويكون ذلك أسوأ دعاية لمملكة أراغون.

---

(١) دانفيلا أي كوليادو ص٢٣.

(٢) نفس المرجع السابق ص٢٢.

لذلـك كله فكـر في أن يتبـع سيـاسة متسامحة بعض الشيء مع المسلمين لفترة أخرى من الزمن ، وقد أظهر الملك عزمه هذا باصداره في ٢٣ كانون الثاني ١٢٥١م ، منشـورا باللغـة الـلاتينيـة الى العـرب المقيمـين في مدينـة شاطبـة ، يتضمن سياسته مسخه حوهم

ولكن ضغط الفاتيكان ورجال الكنيسة في اسبانيا تزايد على الملك لدفعه الى المباشـرة بالعمـل للقضاء على العنصر الاسلامي ، ومحو الاسلام وآثاره من المملكة ، فلم يتمكن الملك من المقـاومـة طويـلا ، وشرع في نقض بنود معاهدة استسلام بلنسية بشكل تدريجي . وكان أول ما قام به هو تحويل المساجد وأملاكها الى ملكيات كنسية ، برغم احتجاجات المسلمين .

١٣٣ ـ ثورة المسلمين واغتنام الكنيسة الفرصة :

ولمـا تزايـد الضغط على المسلمين ، وشعروا أن احتجاجاتهم لن تفيدهم شيئاً ، انفجـرت ثورة في الجبـال الـواقعـة جنـوبي نهر (شُقَـر) بين (شاطبة ودانية واليقنت) ، تزعمهـا رجـل يدعى الأزرق كان أمـيراً لبعض مواقع المنطقة ، ثم امتدت الثورة الى جميـع أنحـاء المملكة . واستمرت ثورة الأزرق ثلاث سنين ، ولم يستطع الملك إخمادها إلا بالحيلة والاغــراء ؛ وكــان من نتيجــة هذه الثــورة أن طرد الملك عدداً كبـيراً من المسلمـين من مملكـة بلنسية ، وسيرهم الى مرسية ، وقد وصف الملك نفسه فيما كتبه ، قافلة المسلمين بأنها كانت تغطي الطريق الى مسافة خمس مراحل .

ولمـا تزايـد لهيب الثـورة ، واتسـع نطـاقهـا ، وعجز الملك عن إخمادها ، لجأ الى الكنيســة والفــاتيكــان طالبـاً مده بالمـال ، لينفق على الجيـوش التي يوجههـا لقتـال المسلمين ، فوجد الفاتيكان حاجة الملك الى المال فرصة ليملي عليه شروطه .

١٣٤ ـ شروط الفاتيكان للعون :

أعلن الفـاتيكـان للملك عن استعـداده للتنازل عن حصة الكنيسة (Dime)

---

(١) نفس المرجع ص٢١ .

(عشرها)، ولكنه اشترط عليه أن يقسم أمام مذبح العذراء، في كنيسة بلنسية، على إبادة المسلمين الموجودين في مملكته، فأقسم على ذلك، والتزم به علناً. ولما انتهت الثورة وطرد الملك من طرد، عاد يفكر بمصير المملكة، فيما لو عجل بطرد جميع المسلمين منها، فرأى أن يأخذ الأمر بالحكمة، وأن ينتظر الفرصة المناسبة، وقرر أن يترك ما تبقى منهم يداً عاملة منتجة. كما شعر، تحت ضغط أمراء الاقطاع، بثقل الوعد الذي انتزعه منه البابا، في وقت ضيقه وحاجته، بمحو العنصر العربي من المملكة.

١٣٥ ـ عودة الفاتيكان الى الضغط:

لكن البابا كليمنت الرابع طلب الى أسقف بلنسية أن يذكّر الملك بأنه ملتزم أمام الله بأن يشن على المسلمين حرباً عواناً لا هوادة فيها، وأن يضطهد المسلمين الخاضعين لحكمه، وأن يلاحقهم بدون رحمة ولا شفقة. وأمره بعدم التهاون مع المسلمين وبأن يطهر أرضه منهم.

١٣٦ ـ أسوأ حل وجده خايم:

وجد الملك نفسه في وضع محرج تماماً، فمن جهة يقف الفاتيكان والكنيسة يلحان عليه في طرد العرب وملاحقتهم، وإزعاجهم لحملهم على الهرب، ومن جهة أخرى يقف النبلاء مطالبين بالابقاء عليهم لأن إخراجهم من المملكة معناه الخراب لهم، وللمملكة. وتجاه هذا الوضع المحرج، والضغط المتناوب، رأى الملك أن يأخذ بحل وسط ـ وصفه المؤرخون الغربيون أنفسهم بأنه أسوأ الحلول وأشدها ظلماً وقسوة[1] ـ، ويقوم هذا الحل على أمرين:

أ ـ أجَّلَ الملكُ طرد المسلمين الى ظرف آخر أكثر ملاءمة.

ب ـ ولكنه تركهم بدون حماية من السلطة، معرضين لاعتداء الشعب، ورجال الجيش، وعصابات الأشقياء، دون أن يكون هناك عقاب على من يعتدي عليهم،

---

(١) سيركور ج١ ص٢٢٩.

فأخذ الأشقياء من الاسبان يخطفون المسلمين من الحقول، ومن شوارع المدن، ويذهبون بهم الى سوق النخاسة يبيعونهم فيها، تحت سمع السلطات وبصرها. وأخذ الجنود النظاميون الذين يسمون (بالمغاوير) - وهم فئة من الجنود لا راتب لهم يعيشون على المغانم - في تأليف عصابات تقوم بأعمال الشقاوة، وقطع الطريق على المسلمين، واختطافهم. واستقر قرابة ثمانية آلاف من هؤلاء المغاوير الأشقياء في جبال شيشونا قرب (اليقنت)، ومنهابدؤ وايغير ون على المدن، والقرى الاسلامية القريبة، وينهبون بيوت المسلمين، ويخطفونهم دون وازع من ضمير، ولا رادع من دين أو سلطة.

١٣٧ - إهمال شكاوى المسلمين:

وتجاه هذا الوضع الغريب، والظلم الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ، تعالت شكاوى المسلمين من أعمال الأشقياء، وأبلغوها الى الملك خايم، فلم يفعل بشأنها شيئاً، وإنما اكتفى بأن سمح لهم بترك الأودية والسهول التي يعيشون فيها للاستقرار حول الحصون والقلاع في الأماكن المرتفعة. وكان هذا الاقتراح يعني تعريض المسلمين الى خطر الموت جوعاً، ومع ذلك قبل بعضهم تعريض أنفسهم للجوع، إذا كان ذلك ينقذهم من البيع كأرقاء. ولكن حظ هؤلاء التعساء قرب الحصون والقلاع لم يكن بأفضل من حظهم في الأودية والسهول، إذ أخذ رجال الحاميات يقبضون على هؤلاء اللاجئين الى حماية الدولة، ويبيعونهم كأرقاء في سوق النخاسة تحت سمع الدولة وبصرها.

١٣٨ - الثورة مرة ثانية:

ولما بلغ اليأس بالمسلمين مبلغه قرروا الثورة على هذا الظلم الصارخ. وانطلقوا في آذار ١٢٧٦م يحتلون ٤٠ حصناً دفعة واحدة في جنوبي نهر شقر، وتزايد لهيب الثورة، ومدت غرناطة يد العون للثوار فأتعبوا حكومة أراغون.

١٣٩ - وصية دون خايم لابنه:

وبينما كان لهيب الثورة يتصاعد مرض خايم مرضاً شديداً شعر معه بدنو أجله،

فأراد اكتساب مرضاة الفاتيكان والكنيسة، لذلك وضع منشوراً في ١٨ تموز ١٢٧٦م ضمنه السياسة التي يريد أن يتبعها ابنه وخليفته، بيدرو، وقد جاء فيه:

(بما أننا تقدمنا الى البابا، بالوعد أمام مذبح العذراء في بلنسية، بأن نخرج المسلمين من أرضنا، وذلك لقاء تنازل البابا لنا عن العشر، فإننا نرجو (الانفان دون بيدرو) بأن يطرد جميع المسلمين من مملكة بلنسية، وأن لا يبقي منهم أحداً فيها، لأي سبب كان، حتى ولو دفعوا ما عليهم..).

وحينما حانت وفاته استدعى ابنه بيدرو، وسلمه سيفه، وأوصاه بأن يستعمله ضد العرب دون هوادة أو توقف، الى أن يقضي عليهم جميعاً، ويطردهم من المملكة. وطلب إليه أن لا تلهيه جنازته عن واجبه في حرب الثائرين، وكلفه بأن يبقى جثمانه مودعاً في كنيسة بلنسية الى أن تنتهي الحرب مع الثائرين، ومات خايم في ٢٧ تموز ١٢٧٦م، وخلفه ابنه دون بيدرو، الا أن هذا لم يقم بما أوصاه به أبوه من متابعة الحرب مع الثائرين، وإنما فضل مفاوضتهم لكسب الوقت. وأخيراً تمكن من التغلب عليهم بالحيلة إلا انه لم يطردهم من المملكة، وإنما اكتفى بنزع سلاحهم، وتوزيعهم على مناطق المملكة لإعمارها.

١٤٠ ـ القوانين والأوامر الصادرة في مملكة أراغون بحق المسلمين:

أدرجت السلطة الملكية في أراغون، التشريعات المطبقة على العرب، في القانون العام للمملكة الذي وضعه دون خايم، ونشره عام ١٢٤٨م، بعد احتلال بلنسية، وقد سمي (فوروم فالانتينوم).

ولا تختلف الخطوط العريضة للتشريعات المطبقة على العرب في مملكة أراغون كثيراً عن مثيلاتها في مملكة قشتالة، وبما أن الغالبية العظمى من المسلمين كانت تعيش في مملكة قشتالة فاننا سنرجىء استعراض هذه التشريعات الى حين نصل بالبحث الى حالة المسلمين في مملكة قشتالة، وسنكتفي هنا بسرد الأوامر والتشريعات اللاحقة لصدور القانون العام والمتعلقة بمعاملة المسلمين.

١٤١ ـ التعليمات والقوانين المتممة للقانون العام في أراغون:

أصدر الملوك الأراغونيون كثيراً من القوانين والأوامر المتعلقة بالمدجنين يمكن

تصنيفها بحسب تسلسلها الزمني، وعهود مصدريها، على الشكل التالي:

١٤٢ ـ خايم الأول:

أصدر في عام ١٢٦٨م قانوناً حدد فيه حق اللجوء الى الكنائس بثلاثة أيام. فقد كان الرقيق المسلم الذي يهرب من سيده ويلجأ الى الكنيسة طلباً للتنصر تخلصاً من عسف سيده وظلمه، كانت الكنيسة تؤويه مدة غير محدودة. ولكن بعد صدور هذا القانون لم يعد يستطيع البقاء في الكنيسة أكثر من ثلاثة أيام، يعاد بعدها الى سيده.

كما أن الزرّاع المسلمين العاملين لدى الاقطاعيين كانوا يهربون في بعض الأحيان من ظلم سادتهم، أو من عسف سلطات الدولة نفسها، ولم يكن هناك مكان له حرمة وحصانة يمكن أن يلجأ إليه هؤلاء التعساء غير الكنائس، فكانوا يلجؤون إليها، فأصدر الملك هذا القانون ليحمل الكنائس على إخراجهم، فيكون بالامكان ملاحقتهم.

١٤٣ ـ دون بيدرو الثالث:

أصدر في بلنسية قانوناً عام ١٢٨٣م، تناول الأمور التالية:

- يعلن لرعايا المملكة من أي دين كانوا، أنهم يستطيعون اختيار محل إقامتهم كما يشاؤون ولهم ممارسة البيع والشراء بحرية تامة.
- يحرم على المسلمين واليهود الدخول في وظائف القضاء والشرطة والمالية.
- يلزم المسلمين واليهود بأن يقسموا يميناً، بأن لا يقرضوا أموالا بفائدة تزيد على ٢٠٪ سنوياً تحت طائلة دفع غرامة قدرها خمس ليرات فضية.
- يقضي بأن شهادة المسلم الواحد غير المدعمة بوثيقة خطية، تعتبر غير كافية للاثبات، إلا إذا وقعت الشهادة خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ تسليم مبلغ الدين.
- يقضي بأن يسقط الدين، غير المعقود أمام القضاء، بعد ست سنين، حينما يكون المقرض مسلماً أو يهودياً.

١٤٤ ـ خايم الثاني :

أصدر في عام ١٣٠١م، قانوناً ينص على أنه تكفي بعد الآن شهادة اثنين من النصارى، من ذوي السمعة الحسنة، بحق المسلم دونما حاجة لشهادة مسلم آخر، كما كان يجري ذلك فيما سبق.

١٤٥ ـ الفونسو الرابع :

أصدر في بلنسية قانوناً في عام ١٣٢٨م، يقضي بما يلي :
ـ بأنه يحق للسيد الاقطاعي أن يقضي وحده في الدعاوى ضد المسلمين، حينما لا تكون الجريمة مما يعاقب عليه بأكثر من الغرامة.
ـ بأنه يحق للسيد الاقطاعي أن يحتفظ لنفسه بجميع عائدات الغرامات المحكوم بها.
ـ بأنه إذا كانت الدعوى مما يحكم فيه بالموت الطبيعي، أو المدني، أو بتعطيل أحد الأعضاء، أو الجلد مئة جلدة، فإن السيد الاقطاعي ينظر في الدعوى بحضور القاضي، أو بحضور أمير الاقطاع، ويتقاسم، مع من يشترك معه في النظر في الدعوى، مبالغ الغرامات التي يحكمان بها على المسلم.

١٤٦ ـ دون بيدرو الرابع :

سنَّ ثلاثة قوانين :
أ ـ قانوناً في بلنسية عام ١٣٤٢م، يشرح فيه الأوامر السابقة، المتعلقة بمحاكمة المسلمين.
ب ـ قانوناً في سان ماتيه عام ١٣٧٠، يحرم فيه على المسلمين ترك المملكة للهجرة الى افريقيا أو غرناطة، حتى ولو دفعوا خمس أموالهم، كما كانوا يفعلون قبلاً.
ج ـ قانوناً ثالثاً في سان ماتيه عام ١٣٧١م، يمنع فرض مراقب نصراني على المسلمين واليهود لمراقبتهم؛ وكان ضابط الشرطة قد أمر بأن يفرض عليهم مثل هذا المراقب.

١٤٧ ـ دون خوان الأول :

أصدر قانوناً في مونسون عام ١٣٨٩ يحرم فيه على الأسرى المسلمين الذين

أصلهم من غير مملكـة بلنسيـة ، أن يحصلوا على المـال من مملكـة بلنسيـة لافتـداء أنفسهم ، وإن فعلوا ذلك تعرضوا لعقوبة الاسترقاق .

١٤٨ ـ دون مارتين :

أصدر قانوناً في بلنسية عام ١٤٠٣م ، يتناول المواضيع التالية :
ـ يحرم على المسلمين الأجانب والمقيمين خارج المملكة ، أن يجمعوا المال من المملكة لدفع فديتهم .
ـ يلغي جميع الالتزامات التي تعهد بموجبها النصارى والمسلمون واليهود بأن يساهموا في افتداء أسير من أمة أجنبية ، لأن المال الذي يقدم لافتداء الأسير ، لا يمكن أن يجمع من المملكة ، وإنما يجب جمعه من بلاد واقعة تحت سيطرة المسلمين . أما رعايا المملكة من المسلمين فيجعل لهم القانون الحق بجمع المال منها للحصول على حريتهم .
ـ يقضي بأن المسلمـين الـذين هاجـروا الى افـريقيـا ، أو الى غرناطة ، يفقدون جميع أمـوالهم ، ويسـترقـون إذا قبض عليهم ، وتـوزع حاصـلات الأمـوال المصادرة على الشكل التالي : ثلث للملك ، وثلث للسيد الاقطاعي حيث كان يقيم المسلـم ، وثلث للسيد الاقطاعي في المنطقة التي قبض عليه فيها .
ـ يحرم على المسلمـين الانتقـال من اقطـاعـة الى أخـرى ، قبل تسوية الحساب ، عن الأراضي التي يأخذونها بالمزارعة .
ـ ويكرر الأمر الى معاون النائب العام بعدم التدخل لتحويل العقوبة الى غرامة نقدية ويقضي باعطـاء نصف الغـرامـة ، التي يوافق عليهـا الضبـاط الملكيون ، الى السادة المالكين ، في الاقطاعات التي يكون فيها الملك نفسه سيد أمراء الاقطاع .
ـ إذا بدل العربي مقـامـه بدون موافقـة السيد الاقطاعي يفرض عليه الرق مع زوجته وأولاده ؛ ويقسم ناتـج بيعـه ، ومصـادرة أمـوالـه ، أثـلاثـاً : ثلثـاً للملك ، وثلثاً لأمير الاقطاع ، وثلثاً للسيد الاقطاعي مالك الأرض .
ـ يوجب على السيد الاقطاعي الذي لجأ عربي الى أرضه أن يسلمه خلال ثمانين يوماً من الانذار النهائي لتسليمه تحت طائلة دفع غرامة قدرها ١٠٠٠ فلوران .

١٤٩ ـ دون فرناندو الأول :

أصدر في أوريولا أمراً في عام ١٤١٨ يقضي :

ـ أنـه يحرم على مسلمي المملكة الخروج منها إلا في حالة التحاقهم بأسيادهم ، إذا كانوا في خدمتهم الشخصيـة ، أو إذا سافـروا للتجارة . وفي هذه الحالة يمنعون من اصطحاب أبنائهم الذين تقل أعمارهم عن أربعة عشر عاماً .
ـ بأن المسلمة الرقيقة ، التي حملت بفعل سيدها لا تصبح حرة بحكم القانون ، إلا إذا اعـترف السيـد بأن الـولد ابنه . وإذا حملت ، بشكل ثابت بفعل انسان نصراني ، غير سيدها ، فيجبر الفاعل على أن يأخذ الولد تحت طائلة جلده عارياً في شوارع المدينة . وإذا ماتت الامرأة في أثناء الولادة فيجبر الفاعل المتسبب بالحمل ، على دفع قيمتها لمالكها .
ـ بأن توضـع أحيـاء المسلمين في المدينة تحت مراقبة مشرف نصراني (أو ضابط الشرطة النصراني) ويمنع وجود بيوت للعب القمار فيها .
ـ يحرم على المسلمين تحت طائلة عقوبة الموت المناداة للصلاة من أعلى المآذن، سوء أكـان ذلـك بالآذان، ام باستعمال النفير ، في مناطق القضاء الملكي أو الكنسي (يعني المدن) ؛ وتحت طائلة دفع غرامة قدرها ستون فلساً (مرابطي) في أماكن الاقطاعات العسكرية .
ـ بأن تفـرض عقـوبـة المـوت على المسلم أو اليهودي الذي يجرح نصرانياً في غير حالة الـدفـاع المشـروع ، وإذا وقـع الجـرح في أثنـاء مشاجرة فإن المسلم يدفع غرامة تعادل ضعفي ما يدفعه النصراني ، حينما يجرح مسلماً .

١٥٠ ـ دون الفونسو الرابع :

ـ أصدر قانوناً في بلنسية ، يقضي بأن يشمل أمر منع هجرة المسلمين ، المسلمَ حتى ولو حصل على موافقة السيد الاقطاعي الذي يعمل عنده .
ـ وأصدر قانوناً في ترايجيرا عام ١٤٢٨م أكد فيه حق السادة بمحاكمة جميع أتباعهم : نصـارى ومسلمـين ويهـوداً ، بما في ذلك الحالة التي يتهمون فيها بالاختلاس كجباة أو مكلفين بتحصيل الضرائب .
ـ وأصـدر أمـراً يقضي بأنـه لا يحق للمسلمـين الادعـاء بالفقـر ليتخلصـوا من قضـاء سادتهم ، وليطـالبـوا بمحاكمتهم أمام محاكم المقاطعة ، وفقاً للامتياز الممنوح للفقراء ، (إذ كانت نفقات المحاكمة أمام الضباط الملكيين أقل منها ، أمام ضباط الاقطاعات) .

١٥١ ـ الفونسو الخامس (حينما كان قاصراً صدرت باسمه القوانين التالية):

صدر في بلنسية قانون يفسر الأوامر المتعلقة بالمسلمين الذين يبدلون مراكز عملهم في الاقطاعات:

ـ إذا بدل المسلم مقر عمله قبل تسديد الحسابات، أمكن مصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة.

ـ إذا بدل مقامه دون موافقة السيد الاقطاعي يفرض عليه الرق مع زوجته وأولاده.

١٥٢ ـ العرب في قشتالة:

لم تكن حالة العرب في قشتالة أحسن من حالة اخوانهم في أراغون، فقد خرق ملوك قشتالة معاهدات الاستسلام خرقاً فاضحاً، وعاملوا المسلمين معاملة جائرة ظالمة، بعيدة عن الروح الانسانية والأخلاق، ووضع الملك الفونسو العاشر المعروف بالحكيم، في عام ١٢٥٨ قانوناً عاماً للمملكة عرف باسم (لاس سيت بارتيداس) (أو الأقسام السبعة)، ضمنه الأحكام القوطية، والأحكام والشرائع التي اعترف بها أسلافه، وكثيراً من الحقوق الكنسية والرومانية. وقد اعتبر هذا القانون تشريعاً عاماً للمملكة في عام ١٣٤٨م. ولكنه طبق منذ وضعه عام ١٢٥٨. وقد تضمن هذا القانون التشريعات المختلفة التي تطبق على العرب المقيمين في مملكة قشتالة.

١٥٣ ـ ما تضمنه القانون فيما يتعلق بالعرب:

لا يختلف ما تضمنه قانون قشتالة ـ في خطوطه العامة ـ عما تضمنه قانون أراغون، فقد كان القانونان متشابهين، ويمكن تلخيص أهم ما ورد فيهما في الآتي:

يصنف العرب الذين خضعوا الى حكم الممالك الاسبانية الى اربع فئات، بحسب أوضاعهم الاجتماعية والدينية؛ وجعل لكل فئة منها معاملة خاصة بها، وهذه الفئات هي:

١ ـ الذين تنصروا.

٢ ـ العبيد.

٣ ـ المعتقون .
٤ ـ المدجنون .

١٥٤ ـ المتنصرون :

كان المتنصرون العرب يعاملون من الشعب أسوأ معاملة ، ويقابلون بالازدراء ، والسخرية والاحتقار . وإذا أراد متنصر أن يتزوج ممن مسيحية أصلاً ، وجد في ذلك شبه استحالة ، وقد عالج القانون موضوع المتنصرين بالشكل التالي :

ـ جعل عقوبة من يهين المتنصرين ، أو يشتمهم ، أكبر من عقوبة من يهين النصارى أصلاً ، ولكن القانون ما كان يطبق إلا نادراً .

ـ من الناحية النظرية ، كان مجرد اعتناق الشخص النصرانية ، يمنحه جميع حقوق المواطن ، ما عدا الحق بأن يصبح أسقفاً .

ـ ولإغراء المسلمين بالتنصر قضى القانون بأن الأب إذا كان له أولاد مسلمون ، وآخرون متنصرون ، فإن الميراث يكون من حق المتنصرين وحدهم .

ـ في موضوع الزواج ، نص القانون على أن الأزواج الذين عقدوا زواجهم قبل تنصرهم لا يمكن أن يفترقوا ، ولا أن يفرق بينهم بسبب وجود قرابة مانعة بينهم . ولكنهم يستطيعون الحصول على الطلاق إذا كان أحد الزوجين مقيماً على دينه الأول ، ويحاول التأثير على المتنصر لحمله على الرجوع الى دينه الأول .

أما إذا كانت إحدى المسلمات قد سبق لها الطلاق لهذا السبب ، ثم تنصرت فلها الحق باجبار زوجها على اعادتها إليه ، إذا لم يكن قد عقد زواجاً آخر .

ـ أما المرتدون عن النصرانية بعد اعتناقها ، فكانت عقوبتهم قاسية . فالمرتد يحكم عليه بالموت ، ويفقد أهليته للارث ، والشهادة ، والوصية ، والتملك ، واقامة الدعوى ، حتى ولو كانت الدعوى ضد زوجته لاتهامها بالزنا . وتفقد المرتدة بائنتها . ونص القانون على جواز ملاحقة المرتد خلال خمس سنوات من تاريخ وفاته ، للحصول على حكم بمصادرة أمواله وممتلكاته .

ولا ينقذ المرتد من العقاب والمصادرة ، إلا تقديم خدمة جليلة للدولة ، كتقديم بعض الأسرار الهامة ، فمصلحة الدولة ، وحكمتها ، تأتيان قبل كل شيء .

ـ وقضت مادة من القانون بمنع رجال الدين من أن يعظوا الهراطقة ، ويبشروهم ،

ويعرفوهم بأسرار الدين المسيحي، كما منعتهم من مناقشتهم علنا، مخافة زعزعة ايمان الجهلة، وزرع الشك في نفوسهم.

١٥٥ - الأرقاء:

كان وضع الأرقاء في اسبانيا محزناً جداً، ووضع الأرقاء المسلمين أسوأ من وضع جميع الأرقاء، إذ كانوا معرضين لمنتهى أعمال القسوة والايذاء، أما الأسرى المسلمون فلم يكونوا يتمتعون بأي ضمان لحياتهم، أوشرفهم، فيمكن قتلهم، وتعذيبهم، والتفريق بين الزوجين، وبيع الزوج وبيع الأولاد، وقال أحد الشراح للقانون إنه كان يسمح باغتصاب نسائهم أمامهم[1]، والتشريعات المتعلقة بالعبيد والمعتقين طويلة ومفصلة، ولكن ليس فيها شيء خاص يلفت النظر مما يتعلق بالعرب خاصة.

١٥٦ - المدجنون:

لم تكن النصوص القانونية المتعلقة بالمدجنين واضحة ولا صريحة، ويمكن القول إنه كانت هناك فوضى وتناقض في التشريعات المتعلقة بهم، ولذلك أصبح تتبع هذه التشريعات لا يمكن أن يعطي صورة واضحة عن حالتهم، كما أن معاهدات التسليم لا يمكن أن تعطي صورة واضحة عن المعاملة التي أخضعوا لها في الممالك النصرانية في اسبانيا، لأن هذه المعاهدات قد خرقت خرقاً فاضحاً في كل مكان، ولم يحترم الملوك النصارى شروط الاستسلام التي أقسموا على الوفاء بها هم وأسلافهم.

فمثلا نصت المعاهدات التي عقدت مع المسلمين في طليطلة وفي مقاطعة الأندلس على أن تحترم حريتهم، ومعتقداتهم، وأملاكهم، ومساجدهم، وتركت لهم حرية تصريف أمورهم بأنفسهم، وفق تقاليدهم وشرائعهم، وأن لا يخرجوا من ديارهم، وأن لا يعتدى على مساجدهم . . . الخ، ولكن الملك خوان الثاني ملك قشتالة، أصدر أمراً عام ١٤٠٨، أجبر فيه المدجنين في المقاطعات المذكورة على ترك منازلهم، وأموالهم، وعلى الانتقال الى المقاطعات الشمالية من قشتالة.

---

(١) سيركور ج١ ص٢٤٢ و ٢٤٣.

١٥٧ ـ الأوامر اللاحقة المتممة للقانون العام في قشتالة:
الفونسو الحادي عشر:

ـ أصدر في القلعة عام ١٣٤٨، أمراً يحرم فيه على المسلمين واليهود أن يقرضوا بالفائدة.
ـ وأصدر بعد ذلك أمراً في مدريد يحرم فيه على المسلمين واليهود أن يشغلوا وظيفة مالية للملكية أو للسادة الاقطاعيين، تحت طائلة مصادرة جميع أموالهم، وتحت طائلة العقاب البدني، وحرم عليهم أن يكونوا محامين في قضية بين النصارى.

١٥٨ ـ أنريك الثاني:

ـ أصدر أمراً في بورغوس عام ١٣٦٨ يكرر فيه ما حرمته الأوامر السابقة على اليهود والمسلمين من التعامل بالنسيئة مع مسيحي.
ـ وأصدر امراً آخر في تورو عام ١٣٧١ يحرم فيه على المسلمين واليهود التسمي بأسماء مسيحية، ويفرض عليهم وضع إشارة مميزة فوق ثيابهم.

١٥٩ ـ خوان الأول:

أصدر أمراً في (صوريا) عام ١٣٨٠ يتضمن ما يلي:
ـ يكرر تحريم استخدام المسلمين في الوظائف المالية.
ـ يمنع شتم المتنصرين وإهانتهم، بتسميتهم خنازير، تحت طائلة دفع غرامة قدرها ٣٠٠ مرابطي أو حبس ١٥ يوماً.
ـ يحرم على النصارى تربية ولد مسلم، تحت طائلة دفع غرامة قدرها ٦٠٠ مرابطي.
ـ يسمح لعمال الزراعة المسيحيين، بأن يعملوا لدى أحد المسلمين، وأن يرافقوا رب العمل في أسفاره، لحمايته من الاعتداءات التي يتعرض لها، من قتل واهانة، من قبل كثير من الناس، إذا ما سافر وحده.

ـ إن المسلم الرقيق، المملوك من قبل شخص يهودي، لا يعتبر متحرراً حكماً إذا ما حمله سيده على التهود، ولكن اليهودي المسؤول عن هذه الجريمة يصبح رقيقاً أيضاً.

وأصدر أمراً آخر في (بريفيسكا) عام ١٣٨٧ :
- يحرم على المسلمين واليهود أن يعيشوا لدى نصارى، أوأن يعيش نصراني بينهم، تحت طائلة العقاب البدني، ومصادرة أموالهم.
- يحرم على النصارى أن يعتنوا بمسلم أويهودي، أوأن يعيلوه، أوأن يستعينوا به إذا لم يكن عبداً من عبيدهم، تحت طائلة غرامة قدرها ٦٠٠٠ مرابطي، ويستثنى من ذلك حالة كون المسلم أو اليهودي طبيباً واستدعي في حالة مستعجلة.
- يحرم على المسلمين واليهود العمل يوم الأحد علناً، تحت طائلة دفع غرامة قدرها ٣٠ مرابطياً.
- يوجب على المسلمين واليهود، أن يخلوا الشارع الذي يمر فيه الصليب، وإذا لم يستطيعوا ذلك بسبب بعض الصعوبات، فإنه يتوجب عليهم أن يركعوا، وإن لم يفعلوا تعرضوا لعقوبة مصادرة ثيابهم التي تدفع للنصراني الذي قبض عليهم وساقهم الى القاضي.
وأصدر أمراً ثالثاً في بلد الوليد عام ١٣٨٨ :
- يكرر التحريم على النصارى بأن يعيشوا مع مسلم أو يهودي، أو أن يربوا أبناءهم، تحت طائلة عقوبة الجلد.
- يكرر الأوامر السابقة القاضية بمنع دخول المسلمين واليهود الى الوظائف العامة.

١٦٠ - خوان الثاني حينما كان قاصراً :

صدر باسمه أمر في (بلد الوليد) عام ١٤٠٨ :

يكرر الأوامر السابقة بمنع دخول المسلمين واليهود الى الوظائف المالية، ويفرض غرامة مقدارها ٢٠٠٠ مرابطي على المسلم أواليهودي الذي يقبل هذه الوظيفة، ويفرض غرامة مماثلة على النصراني الذي منحه إياها.
- يحرم على المسلمين واليهود أن يأكلوا أويشربوا مع النصارى، تحت طائلة عقوبة الجلد مئة جلدة.
- ويحرم على المسلمين واليهود أن يستخدموا عمالاً نصارى تحت طائلة عقوبه الجلد مئة جلدة، وفي هاتين الحالتين إذا تكررت الجريمة تصبح العقوبة دفع غرامة مقدارها ألف مرابطي، يمنح ثلثها للمخبر أو الشاكي.
- يحرم على المسلمين واليهود أن يذهبوا الى حفلات أعياد النصارى، كما يحرم عليهم

أن يكونوا عرابين في حفلات العماد، تحت طائلة غرامة مقدارها ٢٠٠٠ مرابطي.
- يحرم على المسلمين واليهود أن يزوروا المرضى النصارى تحت طائلة دفع غرامة مقدارها ٣٠٠ مرابطي.
- يحرم على المسلمين واليهود مزاولة مهنة الجراحة، أو الصيدلة، أو العطارة، أو بيع الأدوية، أو بيع المواد الغذائية، تحت طائلة دفع غرامة مقدارها ٢٠٠٠ مرابطي، بالاضافة الى عقوبة بدنية.
- يوجب على المسلمين أن يعيشوا في أحياء منفصلة خاصة بهم.
- يلغي المحاكم الخاصة بالمسلمين، ويوصي القضاة النصارى بأن يقضوا بين المسلمين في كل قضية أو دعوى، وفقاً للحقوق التي يمنحهم إياها امتيازهم.
- يحرم على السادة الاقطاعيين أن يقبلوا لديهم المسلمين الذين يبدلون محل اقامتهم، تحت طائلة دفع غرامة مقدارها ٥٠٠٠ مرابطي، وإذا تكررت المخالفة ترفع الغرامة الى ١٠٠ ألف، وإذا تكررت للمرة الثالثة فتصادر اقطاعاتهم.
- يقضي على المسلم المدجن الذي يقبض عليه في حالة الجرم المشهود وهو هارب نحو حدود مملكة غرناطة، بفقد حريته ويصبح عبداً للملك، وتصادر أمواله لصالح الرجل النصراني الذي قبض عليه..

١٦١ - حينما أصبح بالغاً: أصدر ثلاثة أوامر:
- أصدر أمراً في (أوكانا) عام ١٤٢٢ يفرض عقوبة الموت على المسلم الذي يمنع آخر من أن يصبح مسيحياً، ولو كان ابنه.
- ويقضي بأن المسلم القادم من مملكة غرناطة الذي يقبض عليه في أرض مسيحية يصبح رقيقاً (للدليل) الذي قبض عليه.
- وأصدر أمراً في (مادريكال) عام ١٤٣٥ يحرم على النصارى أن يوقعوا كتب التزام (اقرار بدين) إلا إذا كانت خالية من شرط دفع فائدة عن هذا الدين.
- وأصدر أمراً في (مدريد) عام ١٤٣٨ يعتبر اليمين التي يحلفها المسيحي أمام القضاء مقراً فيها بدين لمسلم أو يهودي، باطلة إلا إذا كان المقر له مزارعاً.

١٦٢ - ايزابيلا:

أصدرت في مدريد أمراً عام ١٤٧٦:

ـ قصر صلاحية المحاكم الاسلامية التي مازالت تمارس أعمال القضاء بين المسلمين بالرغم من الأمر الصادر عام ١٤٠٨ على الدعاوى المدنية فقط. دون الجزائية التي أصبحت من اختصاص القاضي النصراني، ومنح الأمر الحق لكل من المتقاضين بأن يجبر الطرف الآخر على المثول أمام القاضي النصراني.
ـ حرم على المسلمين أن يلبسوا جوخاً أو حريراً أو ذهباً أو فضة، كما حرم عليهم أن يكون في عدة خيلهم حرير أو ذهب أو فضة أو جوخ، كل ذلك تحت طائلة مصادرة الأشياء الممنوعة.
ـ ألزم المسلمين بأن يضعوا على أكتافهم اشارة خاصة مميزة، هي عبارة عن قطعة جوخ حمراء، وأن يضعوا على رؤوسهم قبعة أو قلنسوة خضراء، أما النساء المسلمات فيجب أن يحملن قطعة من الجوخ الأزرق عرضها أربع أصابع.

وأصدرت أمراً آخر في طليطلة عام ١٤٨٠ كررت فيه التأكيد على أمرين سابقين:
ـ أكدت فيه على الأمر الصادر عام ١٤٠٨، والقاضي بعزل المسلمين عن النصارى.
ـ وكررت التأكيد على الأمر القاضي باسترقاق المسلمين المدجنين الذين يقبض عليهم وهم يحاولون الهرب الى مملكة غرناطة، ويعتبر هؤلاء المقبوض عليهم رقيقاً لمن يقبض عليهم.

ولكنها من جهة أخرى أجازت في هذا الأمر للمسلمين بأن يبنوا مساجدهم في الأحياء الجديدة التي خصصت لهم.

ثانياً ـ حالة المسلمين في اسبانيا بعد سقوط غرناطة

١٦٣ ـ حدث في شبه الجزيرة الايبرية، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حدثان خطيران كان لهما أثرهما الحاسم في مصير المسلمين المدجنين، وهما:
١ ـ أولهما توحيد تاجي قشتالة وأراغون، إثر زواج الملكة ايزابيلا وارثة عرش قشتالة، من الملك فرناندو وارث عرش أراغون عام (١٤٦٩).
٢ ـ وثانيهما سقوط غرناطة بيد الملكين فرناندو وايزابيلا، في ٢ كانون الثاني ١٤٩٢، وانطواء علم العرب والاسلام من الجزيرة بتمامها.

وبوقوع هذين الحدثين الهامين. زال سببان من أهم الأسباب التي كانت تحمل

الملوك النصارى على مداراة المسلمين، وعدم الامعان في إساءة معاملتهم. إذ زال التنافس بين الملوك في المملكتين بتوحيد التاجين. كما زالت الاعتبارات التي كانت مترتبة على وجود مملكة غرناطة، من تشجيع للمسلمين المقيمين في الممالك النصرانية على الثورة على ظالميهم، مع احتمالات العون والمدد من غرناطة، وكذلك زال احتمال اللجوء الى أراضيها عند الضرورة. وانتهت احتمالات الهجرة الى أراضي غرناطة عن طريق التسلل، والهرب، إذا ما أصبحت حياة المسلمين لا تطاق، ومنذ أن سقطت غرناطة، أصبح مصير المسلمين المدجنين معلقاً برغبة الملوك، وإرادتهم، دون النظر الى أي اعتبار آخر.

١٦٤ ـ البدء بخرق معاهدة غرناطة:

في اليوم الأول لدخول الملكين الى مدينة غرناطة، أقدما على عدة أعمال فيها خرق فاضح للمعاهدة، التي لم يجف مدادها بعد. ففي مساء اليوم الأول لدخولهما البلد جاء نبلاء غرناطة اليهما، فأحسنا استقبالهم، وبذلا لهم الوعود السخية، وطلبا التعرف منهم على رغباتهم. . فشكوا اليهما من تصرفات تعسفية ارتكبها أحد النبلاء الاسبان (ويدعى بيدروجاسكا دافيلا)، فأعلن الملك لهم حكمه عليه بالاعدام، ولكن الملكة تدخلت في الأمر، وأخذت المحكوم عليه تحت حمايتها. وعين الملك يحيى النير (ابن أخ السلطان الزغل وصهره وكان قد تنصر وتسمى باسم بيدرو دو غرانادا) مديراً عاماً للشرطة، وهذا خرق للمعاهدة التي نصت على أن لا يتولى أحد من أتباع الزغل في منصب فيه سلطة له على أهل غرناطة، ويحيى النير من أتباع الزغل.

وحدث خرق ثالث للمعاهدة ذلك اليوم، إذ قام (كونت تانديلا)، الذي عينه الملك قائداً عاماً لغرناطة، بانتقاء أجمل البيوت في حي القصبة ـ وهو حي المترفين في غرناطة ـ وأمر باخلائها من سكانها، لتكون مقراً لأمراء الجيش الاسباني، ولم يبد المسلمون أية مقاومة لأنهم أدركوا من هذه التصرفات، سوء نية الملكين، وسوء نية قادتهما، ورغبتهم جميعاً في عدم احترام نصوص المعاهدة، وأصبح الشك يساورهم، وقدروا أنه لا بد لهم من اللجوء الى السلاح في يوم قريب للدفاع عن حقوقهم، لذلك لم يسلموا من أسلحتهم إلا جزءا بسيطاً، بينما عمدوا الى إخفاء الجزء الأكبر منها الى يوم الحاجة اليها.

١٦٥ ـ تحويل مسجد الطيبين الى كنيسة :

وفي يوم ٥ كانـون الثـاني ١٤٩٢ ـ وهـو اليوم المخصص رسمياً لدخول الملكين لغـرنـاطـة ـ نزل الملكـان الى جامـع الطيبين، وهو أحد المساجد الرئيسية في البلدة، فاستوليا عليه، وأمرا بتحويله الى كنيسة، ولم يتحرك المسلمون، إذ أدركوا أنه لا فائدة من الاحتجـاج، وبقـوا في أمـاكنهم ينتظرون مزيداً من الاعتداء على حقوقهم، التي صانتها المعاهدة.

١٦٦ ـ نظرة الكنيسة إلى خرق المعاهدات :

ولم يجد تصـــرف الملكـين وتعسفهـا أي استنكـار، أورد فعـل لدى الكنيسـة، والقـادة الاسبـان، إذ كانـوا جميعـاً يعتبرون أن الضرورات العسكرية هي التي أملت هذه المعاهدات. وقد زالت هذه الضرورات بزوال حكم العرب، وتلاشي آخر معقل لهم في اسبانيا بسقوط غرناطة، وقد قال أحد المؤرخين الغربيين، معلقاً على تصرف الملكـين، ومـوقف الشعب الاسبـاني: «إن نصـوص صكوك الامتيازات، التي كانت تمنـح للمسلمـين، كانت تعتبر في ضمير الشعب الاسباني باطلة، بنفس الصورة التي يبطـل بهـا وعـد ممنـوح للص»، وكـان الجميع يقدرون أنه من الميسور على الملوك، خرق معاهدات التسليم المنافية لحقوق العنصر الاسباني، أو مضرة بنشر الدين المسيحي[١]، ولم يكن هناك من يرى الوفاء بالعهود المقطوعة للعرب، غير قلة لم تكن لآرائها أهمية، تجاه كثرة خصومهم المتحمسين ضد المسلمين. ويرى الكونت سيركور أن الملكـة ايـزابيـلا كانت هي الـدافع المحرك لكل ما تم من خرق لنصوص المعاهدة ويقـول: (إن الانسـان مضطـر لأن يلقي بالمسؤولية في جميع هذه الأعمال والتصرفات التعسفيـة الجـائـرة على عاتق الملكـة ايـزابيـلا، فهي المرأة العاطفية القاسية، التي لا تعـرف اللين ولا الاعتـدال، وقـد أعمى بصيرتها الكره العنصري والديني الذي تكنه للعـرب ودينهم ولـذلـك فانها في سبيل إرواء غليلها وشفاء حقدها لم تحترم كلمتها ولا العدالة ولا مصلحة عرشها[٢]).

---

(١) الكونت سيركور ج٢ ص٣.
(٢) نفس المصدر ج٢ ص٤.

١٦٧ ـ بدء المحنة ومحاولة التنصير:

وما لبث أن طلب عدد من الاساقفة من الملكين أن يطلبا الى الغرناطيين التنصر أو الهجرة من البلاد، وأمرت الملكة أن يبحث الموضوع في مجلس عينته لهذه الغاية، إذ كانت تعتقد مع الكثيرين بأن التنصير الاجباري إذا كان لا ينفع تماماً مع الشخص المكره فإنه يؤثر في أنساله. ولم يعارض في إجبار المسلمين على التنصر إلا مُعَرِّف الملكة الكاردينال (توماس دوتور كيمادا)، الذي كان في نفس الوقت المحقق العام في ديوان التحقيق، لأنه كان يرى أن التعميد بالجملة سواء أكان بالاكراه أن بالاغراء فانه لا فائدة منه. إذ ثبت له أن كل عملية تنصير تتم بدافع من غايات أو أغراض دنيوية لن يكون من نتيجتها إلا أيجاد مارقين من الأديان كلها. وأورد توركيمادا ـ لدعم وجهة نظره ـ ما لاحظه بعد فحص أحوال مئات العائلات الاسلامية واليهودية، التي أجبرها الأسقف (فنسان بير يرا) في أواخر القرن الرابع عشر على التنصر، بعد أن استعمل معها من وسائل التعذيب والارهاب ما لا يوصف، وهو أنه بعد مرور مئة سنة على العملية لم يبق مقيماً على النصرانية إلا قلة أقل من القليلة، أما العائلات الأخرى فقد عادت الى دينها الأول، وكان من نتيجة هذه التحقيقات أن أعدم ٧٠٠ شخص من أفراد هذه العائلات خلال ثماني سنوات.

ولكن الملكة لم تقنع برأي توركيمادا، وأصرت على الأخذ بالحل الآخر الذي أخذ به أكثر أعضاء اللجنة التي درست الموضوع، ولكنها لم تقرر المباشرة فوراً في إجبار المسلمين على التنصر لأن ظروف المملكة، وانشغال الملك بقضايا مملكة أراغون، قد حملاها على تأجيل الأمر الى فرصة أخرى أكثر ملاءمة.

١٦٨ ـ طرد اليهود تمهيداً لطرد العرب:

وفي ٣٠ آذار ١٤٩٢ نشر في غرناطة أمر يوجب على اليهود الخروج من الأراضي التابعة لتاج قشتالة، خلال مهلة ثلاثة أشهر، تحت طائلة عقوبة الاعدام، ومصادرة الأموال. ويقول الكونت سيركور (إن أحداً من الناس لم يتحمس لليهود، ولم يأسف على طردهم، لأنهم جميعاً كانوا يعدونهم بلاء وكابوساً يجثم على صدر الطبقة الفقيرة، ولم تكن للدولة منفعة فيهم، لأنهم إجمالاً يعيشون

على هامش الحياة ، ويمتصون دماء المجتمع[1] ، وقد قدر عدد اليهود الذين أخرجوا من اسبانيا ، نتيجة لتنفيذ هذا الأمر ، بحوالى ٤٠٠ ألف شخص ؛ خرج أكثرهم الى افريقيا ، لكنهم ما لبث أن عاد الكثيرون منهم الى اسبانيا ، معلنين موافقتهم على تلقي العماد . وحاول اليهود حمل الملكة على إصدار عفو عنهم ، أو الغاء أمر إخراجهم ، وقدموا إليها رشوة كبيرة ، فأثر ذلك عليها ، وكادت أن توقع أمر العفو ، ولكن الكاردينال توركيمادا تدخل لدى الملكة ، وكلمها بغضب وانفعال ، وقذف بالصليب بين قدميها قائلاً : « لبيع الآله مرة أخرى بثلاثين دانقاً » فاضطرت الملكة للتراجع .

وأرادت الملكة أن تحل جماعات من النصارى محل اليهود في مملكة غرناطة ، ليكونوا بين المسلمين ، يكبحون جماحهم ، ويسدون الفراغ الذي يمكن أن يخلفه العرب ، إذا ما فكرت في طردهم في المستقبل . فاستدعت الملكة كثيراً من العائلات النصرانية من نواحي المملكة ، فجاءها كثير من المغامرين الافاقين ، وانضم إليهم بعض الجنود الذين لا مأوى لهم ، (فتكون من ذلك مجموعة مشاغبة كسولة شرهة لا تتورع عن خنى ورذيلة ، وأصبحت هذه الجماعات التي لا أخلاق لها ، نواة نصارى مملكة غرناطة) .[2]

١٦٩ ـ مشروع لطرد مسلمي قشتالة :

في نفس الوقت الذي كان يجري فيه طرد اليهود ، كان الكاردينال (بيدرو كونسالس دوميندوسا) ، يضع برنامجاً آخر لطرد المسلمين من قشتالة وليون . ولكن كثيرين من الاسبان كانوا يؤيدون بقاء المسلمين ، وخصوصاً النبلاء وأصحاب الاقطاعات ، لأن المسلمين كانوا يتولون العمل في الأرض بأنسب الشروط للملاك .

١٧٠ ـ إجلاء المسلمين عن بعض أحياء غرناطة :

عثرت السلطات الاسبانية على مستودع للاسلحة ، في أحد الأحياء العربية

(١) نفس المصدر ج٢ ص١٠ .
(٢) الكونت سيركور ج١ ص١٥ .

من غرناطة، فاتخذت ذلك ذريعة للبطش والارهاب، واستعملت أقصى ما تستطيع من أساليب العنف والقمع، وأعـدمت عدداً من العرب. ثم استغلت هذا الحادث لتجلي العرب عن بعض أحياء المدينة ولتجمعهم في حيين، هما حي البيازين، وحي انتيكريولا، فاضطروا الى ترك بيوتهم، والانتقال الى هذين الحيين، فتجمع فيهما حوالى ٥٠٠٠٠ شخص. أما الباقون من سكان غرناطة الذين يتراوح عددهم بين ١٥٠ و ٢٠٠ ألف شخص، فقد نزحوا عنها الى إفريقيا، أو الى المناطق الريفية، وخصوصاً الى البشرات، حيث كان يقيم أبو عبد الله الصغير.

١٧١ ـ بدء الثورة:

وبدأ النازحون الى الجبال يؤلفون عصابات للانتقام من الاسبان، فكانوا يقومون بقتلهم واختطافهم، وتخريب الأراضي بأيديهم. وعرف أفراد هذه العصابات في كتب التاريخ الاسبانية باسم (المونفس)، والكلمة مأخوذة من اللغة العربية (المنفيون). وأخذ المنفيون يتصلون بالجزائريين والأتراك العاملين في البحر الأبيض المتوسط، ويتعاملون معهم، يبيعونهم نتاج مغانمهم، ويشترون منهم ما كانوا هم بحاجة إليه، وأخصه السلاح، ويؤمنون عن طريقهم الاتصال بمسلمي المغرب.

واتخذ هؤلاء الرجال مقراً لهم في المناطق الثلجية من قمم جبال سيرا نيفادا. وكانت هذه الحركة هي أول رد فعل اسلامي على تصرف الاسبان، وخرقهم حرمة المعاهدات.

أما في غرناطة فقد كانت اعتداءات الاسبان على المسلمين، لاتنقطع. وكان المسلمون يلتزمون بيوتهم منذ أن يرخي الليل سدوله. ليتجنبوا الاعتداءات، والاهانات، التي تقع من النصارى الاسبان.

١٧٢ ـ تقسيم السلطة في غرناطة:

تركت الملكة في غرناطة ثلاثة أشخاص من الرسميين، ليقوموا بادارة مملكة غرناطة، وهم:

١ ـ الكاردينال (فري فيرناندو دو تالافيرا)، وعهدت إليه بادارة السلطة المدنية.

٢ ـ الكونت (دو تانديلا)، وعهدت اليه بالقيادة العامة العسكرية.

٣ ـ وضمت إليهما سكرتيرها (فرناندو دو ثافرا)، الذي لعب دوراً كبيراً في عقد المعاهدة، وتولى وضع شروطها. وعهدت اليه بأن يكون مستشاراً مكلفاً بالتنسيق، وتوضيح كل ما يثار من اعتراضات ومشاكل حول تفسير بنود المعاهدة.

شرع الكاردينال دو تالافيرا في محاولاته لحمل المسلمين على اعتناق المسيحية، ولكنه فضل اتباع طريق اللين والاقناع، ويقول المؤرخون الاسبان، انه تعمد في يوم واحد في غرناطة ٣٠٠٠ شخص، بدون ضغط أو اكراه. ولكن الذي يتابع الموضوع الى يوم طرد المسلمين، يجد أنه لم يبق أحد من المتنصرين على دينه الجديد، واضطرت السلطة الى طردهم جميعاً، على اعتبار أنه لم يكن أحد منهم مخلصاً في نصرانيته، وأنهم وآباءهم وأجدادهم الذين تعمدوا، استمروا مقيمين على الإسلام يمارسونه سراً، برغم الاضطهاد الشديد، وبرغم ملاحقات محاكم التفتيش، وبطشها بهم، ولذلك فإن الإنسان مضطر الى الإعتقاد بأنه إما أن يكونوا قد تنصروا بفعل الضغط والارهاب، وإما أن يكون الخبر غير صحيح من أساسه.

١٧٣ ـ الشروع في حمل العرب على التنصر:

عينت الملكة في عام ١٤٩٥، قسيساً يدعى فرانسيسكو سيسنيروس، كردينالا في طليطلة، وكان هذا الرجل عنيفاً سريع الانفعال، لا يقبل مناقشة أو نقداً، ولكنه استطاع بعد قليل أن يسيطر على الملكة. وفي عام ١٤٩٨، توفي الكاردينال توركيمادا المحقق العام، ومُعَرِّف الملكة، فسعى خيمنس لدى الملكة لتعين مكان توركيمادا، رجلا من جماعته هو القسيس (ديجو دي ديسا) فاستجابت الملكة لطلبه، وعينت ديسا محققا عاماً، فأصبح فرانسيسكو خيمنس دو سيسنيروس عن طريق ديسا، مسيطراً على ديوان التحقيق. وعن طريقه أصبح أقوى رجل في المملكة. وبعد قليل كلفت الملكة خيمنس بالذهاب الى غرناطة ليهتم بأمر المسلمين فيها. فذهب إليها في تشرين الأول ١٤٩٩، وهو مزود بتفويض من المحقق العام ديسا. وما كاد يستقر في غرناطة حتى أمر بمنع الزواج بين المسلمين والمسيحيين، وحقق في بعض حالات اعتبرها هرطقة وكفراً، واستعمل أساليب غريبة من العسف والارهاب، بعيدة كل البعد عن الروح الانسانية، وروح الاديان، ولما لُفِتَ نظرهُ الى منافاة تصرفاته ومناقضتها لمعاهدة

الاستسلام، أجاب: «ان المعاهدة غير مشروعة، لأنها تتعلق بمرتدين عن النصرانية - (ويقصد بذلك أن أجداد المسلمين كانوا فيما مضى نصارى، ويجب أن يعتبر أنسالهم نصارى مرتدين) - وأن الحقوق الكنسية تعارض المعاهدة ولا تعترف بها».

كان الملكان في غرناطة حينما وصل إليها خيمنس، واطلعا منه على برنامجه، وأقراه عليه. وليدعما مسعاه، ويسهلا مهمته، أصدرا قبل مغادرتهما المدينة، أمرين ملكيين:

١ - احدهما يقضي باعفاء الغرناطيين من العقوبات المفروضة على الذين يستعملون الحرير ثيابا لهم خلافاً للأوامر السابقة.

٢ - والثاني يقضي بأن يطبق في غرناطة القانون القشتالي العام (لاس سيته بارتيداس)، الذي يقضي بأن يؤول ميراث الرجل المسلم الى أبنائه أو أقاربه النصارى، دون غيرهم، حتى ولو كان له أقارب مسلمون، أكثر قرباً منه.

ويعد الأمر الملكي النساء المسلمات، اللواتي يتحولن الى النصرانية، بالحصول على أرض في البشرات، ويعد الرقيق المسلم بالعتق والحرية إذا هو تنصر، على أن تتحمل الدولة مبلغ الفدية المتوجبة لمالكيهم.

وهذا كله خرق لنصوص المعاهدة.

١٧٤ - بدء الاكراه:

بدأ الكاردينال خيمنس محاولاته لتنصير المسلمين بأساليب اللين والاغراء، إذ بدأ بتوزيع الألبسة الحريرية على المتنصرين، وأكثر من العطاء والبذل، ويقول المؤرخون الاسبان إنه دخل في المسيحية عدد كبير من الغرناطيين نتيجة لهذا الاسلوب، حتى أن خيمنس اضطر الى أن يعمد ٤٠٠٠ شخص دفعة واحدة بلا مراسم دينية. ولما رأى الفقهاء ورجال الدين المسلمون، هذه الموجة نشطوا في توعية الناس، وتذكيرهم بدينهم وحرماته، فساء ذلك خيمنس، وأرسل الشرطة فقبضت على الفقهاء والوعاظ، وسجنهم، وأمر بتعذيبهم ومعاملتهم بالقسوة.

وكان في غرناطة فقيه ذو مركز مرموق، من أحفاد بني الأحمر تسميه الرواية الاسبانية محمد الثغري وكان لسناً وخطيباً مفوهاً، كما كان يتمتع بمحبة العرب، واحترامهم، فاراد خيمنس أن يستميله باللين والحسنى، ولكنه أخفق في محاولاته

هذه، فلم يشأ أن ينهزم أمام الفقيه المسلم، فأمر بسجنه، والتضييق عليه، ووضع معه معاونه في السجن في محاولة لاقناعه، فلم يفلح في أول الأمر، ولكن العذاب والعنف أثّرا في الرجل، واضطراه إلى الاعلان عن استعداده لاعتناق النصرانية، ولما اقتيد أمام الكاردينال قال: (أيُّها السيد إذا كان هناك من هومستعصٍ عليك فعليك بإلقائه إلى هذا الأسد - ويقصد بذلك السجن والقيد - فإنه سيفعل فعله فيه خلال أيام)، ومع مرارة الجواب رضي الكاردينال بانتصاره هذا. ولقي مسلك الكاردينال معارضة من بعض النصارى الذين استنكروه وعدُّوه منافياً لروح الانجيل وتعاليمه. إذ ان إدخال الناس في المسيحية، وحملهم على الإيمان بالمسيح ورسالته، لايمكن أن يتم بالعنف والإكراه، ولكن خيمنس كان يهمه أن ينجح في مهمته، بأية وسيلة كانت، ولم تكن لتهمه المثل العليا والمبادىء الدينية الكريمة، وإنما كان يريد إرواء حقده من العرب والمسلمين.

١٧٥ - إحراق مليون كتاب عربي:

كان الكاردينال خيمنس وأعوانه يقولون إنه لكي تنجح مهمتهم في تحويل المسلمين إلى النصرانية، فيجب القضاء على اللغة العربية، وقطع الصلة بين العرب وبين ماضيهم. وفي رأيهم أن العرب مادامو مقيمين على تقاليدهم وعاداتهم، فإنه من الصعب نجاح المهمة. لذلك كله أمر الكاردينال خيمنس بالمباشرة بإتلاف الكتب العربية التي أعدّها تالافيرا باللغة العربية لتعريف المسلمين بأمور الدين المسيحي، كما قرر إتلاف الكتب العربية، كخطوة في سبيل قطع الصلة بين العرب وبين ماضيهم. وأمر بأن تجمع جميع الكتب العربية، من أي نوع كانت، في ساحة باب الرملة في غرناطة. ولما تمّ جمعها أوقد فيها الكاردينال النار، ولم ينج من هذه الكميات الهائلة من الكتب إلّا حوالي (٣٠٠) كتاب تبحث في الطب، نقلت إلى مكتبة مدينة القلعة. ولما حاول بعض أتباع الكاردينال استنقاذ بعض نفائس الكتب رفض ذلك رفضاً باتاً.

وتختلف الروايات حول عدد الكتب التي أُحرقت فيقدرها بعضهم بـ٥٠٠٠ كتاب ويقدرها آخرون بـ١٣٠٠٠٠ كتاب، ويقدرها بعض المهتمين بالدرسات العربية بثمانين ألفاً. أما الكونت سيركور، فيقدرها بمليون كتاب معتمداً في تقديره

على أن الائتلاف شمل ما حوته المكتبات العامة والمكتبات الخاصة بالافراد، ويقول إن غرناطة بلغت في زمن بني الأحمر شأواً رفيعاً في الثقافة، وحوت كثيراً من المكتبات والمدارس، وانجبت كثيراً من الرجال الافذاذ، الذين اغراهم تحرر المسلمين، وسعة افقهم فقدموا إليها. ويعلق هذا المؤلف على حادث احراق الكتب بقوله: (وهكذا نرى أن الأخلاق قد خسرت كثيراً بانتصار الجهالة[1]).

١٧٦ ـ الثورة في غرناطة:

أدت هذه التصرفات التعسفية وأمثالها الى ثورة قام بها المسلمون في غرناطة عام ١٤٩٩، استنكارا لتصرفات خيمنس، وسنعرض الى هذه الثورة في القسم التالي من هذا الكتاب، المتعلق ببحث الثورات العربية في الأندلس. ولكننا نقول الآن إن الملك عاقب العرب باجبارهم على الهجرة، أو تلقي العماد، فهرب قسم منهم الى البشرات، محاولين إشعال نار الثورة ضد الظالمين المعتدين، أما الآخرون فقد تلقوا العماد بالجبر والاكراه.

١٧٧ ـ ثورة البشرات:

وتجمع الزعماء من غرناطة في البشرات، وأثاروا رجال البشرات ذوي الهمم والنجدة، فاشتعلت الثورة في أواخر عام ١٤٩٩ ولكنها اخمدت في النهاية، وكان من نتيجتها هجرة عدد كبير من المسلمين الى افريقيا، وفرض العماد على الباقين.

١٧٨ ـ ثورة المرية:

وبعد أن فرغ القسس من تعميد أهل البشرات اتجهوا الى منطقة المرية لتعميد من فيها، فانفجرت هناك ثورة بلغت أشدها في تشرين الثاني من عام ١٥٠٠، أدت في النهاية الى مقتل عدد كبير من المسلمين، واسترقاق النساء والأطفال، وتعميد قرابة ١٨٠٠٠ شخص، بالجبر والاكراه.

---

(١) سيركور ج٢ ص٤٣.

١٧٩ ـ ثورة عام ١٥٠١ :

بعـد أن انسحب الجيش الاسبـاني في كانون الثاني ١٥٠١ من منطقة المرية انفجرت ثورتان في وقت واحد، ثورة في بعض قرى نهر المنصورة، وأخرى في قرية أدرا على البحر، ولكنها أخمدتا.

١٧٩ ـ الغاء امتيازات الادارة في غرناطة وتنصير سكانها:

صدر في ٢٠ ايلول ١٥٠٠ أمر ملكي يلغي امتيازات الادارة الممنوحة لمدينة غرناطة، بموجب معاهدة الاستسلام، ويجعل الادارة على النمط الاسباني. وحينها يئس الغـرنـاطيون من نتـائـج مساعي سلطان مصر، لتخفيف الضغط عن عرب الأنـــدلس، وبعـــد أن أخفقت ثورات البشرات والمـرية والمنصـورة، لم يبق أمـام الغـرنـاطيـين بد من الهجرة أوقبول التعميد إن أرادوا البقاء. وقد اشترط الذين رضوا بالعماد أن يسمح لهم باستعمال لغتهم، والبقاء على عاداتهم وأن لا يخضعوا لدواوين التحقيق لمدة أربعين عاماً، فقبلت شروطهم.

سمي المتنصرون (بالمسيحيين الجدد)، ولكن الدولة بقيت غير مطمئنة إليهم، فقررت منعهم من حمل السلاح إلا باجازة خاصة، ولقاء دفع مبلغ كبير من المال، ومن يخالف أمر المنع يتعرض لعقوبة ثقيلة هي النفي ومصادرة الأموال، وإذا تكررت المخالفة تصبح العقوبة الاعدام.

١٨٠ ـ ثورة المسلمين في جبال روندة عام ١٥٠١ :

بعد أن خضعت غرناطة والبشرات، والمرية، أرسل أسقف أشبيلية قسساً الى جبال رونده فتصرفوا بطريقتهم الخاصة، ليثيروا المسلمين ويدفعوا بهم الى التمرد، فتجـد الكنيسـة والـدولـة المبررات لنهب أموالهم وتهجيرهم، وارغام من يبقى على التنصر، وقد نجحت خطتهم، إذ انفجرت ثورة في منطقة رونده انتهت باجبار من أراد البقـاء على التنصر. أما الآخرون فقد سمح لهم بالهجرة الى افريقيا، على أن يتخلوا عن جميع ممتلكاتهم.

١٨١ ـ اجبار عرب قشتالة على التنصر (١٥٠١ ـ ١٥٠٢):

لم يبق في منطقة غرناطة ـ نظرياً ـ من المسلمين إلا في بعض القرى المتفرقة، ولم يكن للملكة حجة عليهم لحملهم على التنصر بالقوة، لأنهم لم يثوروا، ولم يخلوا بواجبهم، فرأت تركهم الى وقت آخر.

أما قشتالة وليون فكانت فيهما اعداد كبيرة من المسلمين، ولكنهم كانوا قد أصبحوا في حالة مؤلمة من البؤس والفاقة، ولم يتحرك أحد منهم إبان المعارك السابقة بين غرناطة وقشتالة. كما لم يتحركوا إبان الثورات السابقة في بلنسية وغرناطة والبشرات. ومع ذلك فإن الملكة، رأت بعد أن تفرغت من مشاكلها الرئيسية، وبصورة خاصة مشكلة غرناطة، ان تنتهي من مشكلة المسلمين في قشتالة وليون، إما باجبارهم على الهجرة، وإما باجبارهم على تلقي العماد. فاصدرت في ٢٠ تموز ١٥٠١ أمراً منعت بموجبه جميع الأرقاء المسلمين، وتحت طائلة عقوبة الاعدام، من التراسل مع المسلمين في مملكة غرناطة، سواء منهم المتنصرون وغير المتنصرين. كما حرمت على مسلمي قشتالة وليون الدخول الى مملكة غرناطة، تحت طائلة عقوبة الموت، ومصادرة الأموال. وفسر هذا الأمر على أن المراسلة والاتصال بين المسلمين في أطراف المملكة، يشد من أزرهم، ويرفع من معنوياتهم، ويحفزهم على معارضة أوامر التنصير.

١٨٢ ـ أوامر جائرة:

وفي ١٢ شباط ١٥٠٢ أصدر الملكان أمراً الى جميع المسلمين البالغين (الذكور ١٤ سنة والإناث ١٢ سنة)، بالخروج من مملكتي قشتالة وليون. على أن يحكم بالاعدام على من يعود منهم إليهما، وبمصادرة أمواله إلا إذا كان عبدا. ومنح الأمر هؤلاء البؤساء مهلة شهرين يكونون فيهما تحت حماية الملكين، وحينما يحل الأجل ـ وهو آخر نيسان ـ يتوجب عليهم جميعاً التوجه في الطريق المعينة لخط سيرهم، قوافل تحت اشراف مفوضي الحكومة. وقد حرم عليهم أن يحملوا معهم ذهباً وفضةً أو بضاعة ممنوعاً تصديرها، تحت طائلة عقوبة الموت ومصادرة المال. وكلف المفوضون بأن يُسَيِّر وهم «عن طريق بيسكاي» حتى أحد الموانىء، أو حتى الحدود الفرنسية، دون أن يمروا بالبرتغال أو أراغون، أو نافارا. ومنع عليهم الابحار الى افريقيا أو الى تركيا أو

إلى بلد إسلامي غير مصر. ونصّ الأمر على معاقبة كل مسيحي يخفي مسلماً بمصادرة جميع أمواله. وقضى الأمر أيضاً بإبقاء فئات من أولاد المسلمين في البلاد، دون أن يعيّن كيف تؤمن معيشتهم. ويبدو واضحاً أن جميع الصعوبات التي جاء بها الأمر كانت غايتها أن تجعل خروج هؤلاء من البلاد أمراً شبه مستحيل، وبالتالي إجبارهم على البقاء وقبول العماد. فتحريم حمل الذهب والفضة والأشياء الممنوع تصديرها، يعني أن على الناس الخروج من البلاد دون أن يكون معهم شيء ينفقونه، وترك كل شيء للإسبان؛ وتحديد الخروج من الحدود الشمالية. ومنع النازحين من الهجرة إلى غير مصر، يعني إبعاد الشقة عليهم، وإكثار النفقات، لدرجة تجعل من المستحيل على هؤلاء البؤساء احتمالها. ثم تأتي فوق هذه الصعوبات كلها الصعوبة الأكبر وهي: إجبار النازحين على ترك فئات من أولادهم في البلاد الإسبانية تحت رعاية أعدائهم.

إننا لانملك تفاصيل وافية حول هذا الموضوع، وكيف انتهى، ولكن أحد المؤرخين المعاصرين وهو الخوري اندريه بيرنالدس ـ خوري بلدة (لوس بالاسيوس) ـ قرب اشبيلية، ذكر أن العماد فُرض على مسلمي قشتالة والأندلس وجيان تحت طائلة عقوبة الاسترقاق. وحينما انتهت مهلة الشهرين المحددة في الأمر، قبلوا جميعاً أن يتعمدوا دون إكراه . . ؟؟[1] .

ويقول مؤرخ آخر هو (لورينسو كارفاخال) ـ وهو الذي كتب حياة الملكة ايزابيلا ـ (إنه حينما حلّ الأجل المضروب لإخراج المسلمين لم يسمح لهم بالخروج، وإنما أجبروا على التنصر، وان الكثيرين عمدوا بدون رضاً منهم. وذلك لأن الملكة رأت أن بعض المناطق قد خلت تماماً من سكانها[2]) .

وما ذكرته الروايتان المتقدمتان يؤكد بما لايقبل الشك أن الصعوبات التي تضمنها الأمر الملكي، والتهديد بالموت والمصادرة، كانت الغاية منها إجبار المسلمين على التنصّر، وعدم الخروج من البلاد.

١٨٣ ـ حركة الخيرمانيا وإجبار المسلمين على التنصّر في مملكة بلنْسية:

كان النبلاء وأمراء الإقطاع يعارضون دائماً في طرد المسلمين، لما يلحقه الطرد

---

(١) و(٢) سيركور ج ٢ ص ١٠٦ .

بمصالحهم من ضرر بالغ. فالمسلمون كعمال شرفاء نشيطين مخلصين في أعمالهم، كانوا يؤلفون أكثرية العمال الزراعيين في البلاد، بل غالبيتهم العظمى. وطرد المسلمين من البلاد معناه اخلاؤها من اليد العاملة، المتخصصة النشيطة، وخصوصا في مجال الزراعة، ويعني هذا خراب ملاك الأرض، والنبلاء وامراء الاقطاع، الذين يعيشون على دخول أراضيهم ومزارعهم. وإذاً فقد كان النبلاء يؤلفون ـ بما لهم من مصالح مرتبطة ببقاء المسلمين في البلاد ـ قطباً معاكساً للكنيسة واهوائها، التي تدفعها الى العمل على إثارة الحكام والعامة ضد المسلمين، وحملهم على اساءة معاملتهم، واجبارهم على التنصر أو الرحيل. ولعله لولا وجود مصالح النبلاء ومقاومتهم وضغطهم على الملوك من الجانب الآخر، لكانت مساعي الكنيسة قد أتت أكلها منذ وقت بعيد. لذلك فكر الكاردينال خيمنس ـ معرف الملكة، الذي أصبح وصياً على عرش قشتالة بعد موت الملك فرناندو ـ في تأليف قوة مسلحة تكون في خدمة الكنيسة لتستعملها ضد النبلاء. فألف حرساً وطنياً، مرتبطاً بالكنيسة، واخذ يستخدمه ضد النبلاء كلما دعت الحاجة الى ذلك. ثم جاء الملك شارل كنت (شارل الخامس) فوجد المنظمة قائمة فاراد استخدامها هو أيضاً ضد النبلاء، وضد الشعب، ولكنها أفلتت من يده مؤخراً، وتحولت ضده.

وفي عام ١٥٢٠م، الف ثلاثة من الفرسان جمعية من النبلاء في المدن، انضم إليها الكثير من الكبراء والاساقفة، فكانت هذه الجمعية تعبيرا عن شعور الارستقراطية الاسبانية ضد محاولات الكردينال، والملكية لاخضاع النبلاء.

وفي نفس الوقت تألفت في بلنسية جمعية أخرى من العامة غايتها الوقوف في وجه النبلاء، وأسميت (جيرمانيا أوهيرمانيا) أي (أخوية). وقد ولدت هذه الجمعية، نتيجة احدى الاندفاعات العاطفية الجماهيرية في بلنسية للاحتجاج على تصرف المحكمة الكنسية؛ إذ ارتكب أحد القسس الشبان جرماً شائناً قدم بنتيجته الى المحكمة الكنسية، فقضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة. وبعد قليل ارتكب أربعة من الشبان جرائم مماثلة لجريمة الراهب. ولما قدموا الى نفس المحكمة قضت باعدامهم. فاستاء الناس من هذا الموقف المتفاوت من المحكمة، وتحرك بعض الرهبان الفرنسيسكانيين ينتقدون المحكمة. وبلغ الأمر باحدهم ان قام في ٧ آب ١٥١٩ بوعظ الجماهير ولفت أنظارها الى هذا التفاوت في المعاملة، فثارت الجماهير، وتوجهت الى الكاتدرائية، فاقتحمتها واقتادت الراهب المحكوم عليه بالسجن المؤبد

الى المحرقة، مع الرجال الأربعة المحكوم عليهم بالاعدام، ونفذ فيهم الحكم جميعاً.

وحينما بدأ حاكم بلنسية بالتحقيق في القضية خاف المحرضون على أنفسهم من العقاب، ولجؤوا الى بعض الأحياء وأخذوا في تنظيم أنفسهم، على نمط المليشيا (الحرس الوطني القشتالي)، وسموها هيرمانداد (أخوة) - أو الأخوة المقدسة، سانتا هيرمانيا - وانضم الى الجمعية بعض رجال الدين، محاولين استخدامها ضد المسلمين، وأعلنوا أنهم سيقومون بالتسلح لمواجهة المسلمين، وأنهم يقصدون بحركتهم هذه الثورة على حماة المسلمين (أي النبلاء). فأخذ الناس يتقاطرون منضمين الى هذه الحركة، وكان على من يريد الانضمام إليها أن يقسم اليمين على التعاون والتعاضد ضد النبلاء، وان يضحي بدمه وماله وحياته في سبيل ذلك.

وفي شهر أيلول من عام ١٥١٩ قام أعضاء الجمعية بعرض مسلح في شوارع بلنسية، برغم معارضة مدير الشرطة، ولم تستطع الحكومة اتخاذ تدبير حاسم بحقهم، فشجعهم ذلك على التمادي في غيهم. ثم عقدوا اجتماعاً انتظموا فيه صفوفاً تحت قيادة ١٣ نقيباً (سنديكا)، وأقسم الجميع على أنهم لن يتقاضوا لدى محكمة غير محكمة نقبائهم الثلاثة عشر في كل ما يتعلق بشؤونهم. وأرسلوا في نهاية هذا الاجتماع ضبطاً بما حدث فيه الى الملك شارل الخامس. وأراد الملك أن يستخدم الجيرمانيا في خدمة اغراضه، فرد عليهم بأنه يوافق على قيام الجمعية، على شرط أن تكون تحت اشراف حاكم بلنسية.

وفي ٢٨ كانون الأول ١٥١٩ انتخبت الجيرمانيا المفوضين النهائيين من الشعب، وكان اعنفهم وانشطهم، رجل يدعى (جيين سورولا) فاصبح رئيساً للجمعية، واتخذ لنفسه حرساً خاصاً، وأحاط نفسه بمظاهر الابهة، وأصبح الحاكم الفعلي لبلنسية. ثم أخذت حركة الجيرمانيا بالامتداد الى المدن والقرى، في جميع أنحاء مملكة بلنسية. واستشعر النبلاء الخوف من تطور الأمور، وتفاقم الداء، فارسلوا الى الملك يرجونه الحضور الى بلنسية لحسم الأمر، وقطع دابر هذا الداء المهدد للجميع.

وفي هذه الاثناء وصل، من أراغون الى بلنسية، الكاردينال (فلورينت)، ليمثل الملك في بعض المراسم، فاجتمع النبلاء في مجلس النواب (الكورتس)، واعلنوا رفضهم قبول المفوضين الثلاثة الذين أرسلهم الملك للتحقيق في موضوع الجيرمانيا، وحاول الكاردينال تلطيف الجو فلم يفلح، وحينئذ أوعز الى (الجيرمانيا)

بالتحرك، فتحركت سريعاً، وأجرت عرضاً أمامه في ١٩ شباط ١٥٢٠، اشترك فيه ٨٠٠٠ عضو.

وفي أواخر أيار من العام نفسه جاء الى بلنسية نائب الملك (دون ديغو دو مندوسا) فجاءه مفوضو الجيرمانيا الثلاثة عشر، فاساء استقبالهم، فأبرز له رئيس الجمعية كتاباً من الملك مؤرخاً في ٧ أيار يوصي فيه بالجمعية خيراً، فاستغرب نائب الملك ذلك، إذ كان لديه كتاب آخر من الملك مؤرخ في ١٠ أيار يبلغه فيه بعدم اعترافه بالجمعية وبمطالبها، ولذلك صرف (دو مندوسا) أعضاء الجمعية، معلنا لهم أنه لا يستطيع الاعتراف بهم وبجمعيتهم.

وبعد قليل جرت انتخابات للمجلس البلدي ففازت فيها الجمعية بمقعدين. فاعلن نائب الملك أنه لا يعترف بوجود هذا المجلس. ولكن المجلس اجتمع برغم نائب الملك، وباشر أعماله، ولم يتخذ دو مندوسا تدبيراً ما، فشجع ذلك أعضاء الجمعية على المضي في تدابيرهم وخططهم. واندفعوا الى مدينة (مورفيديرو) واستولوا على القلعة، وقتلوا من فيها من الفرسان. وحدث مثل ذلك في مدينة بلنسية، واستمرت الاضطرابات ثلاثة أيام، هرب على أثرها نائب الملك من المدينة في ٦ حزيران. ولما هرب دو مندوسا من بلنسية، سيطر أعضاء الجمعية عليها، وأخرجوا من الوظائف من ليس منهم، وقتلوا أعداءهم، ونهبوا أموالهم، وأقاموا حكم الارهاب، وأرسل الملك إليهم رسولاً يحمل إليهم أوامره فرجموه بالحجارة واضطروه الى الهرب.

١٨٤ ـ الجمعية توجه النقمة الى المسلمين وتذبحهم:

وأراد أعضاء الجمعية مضاعفة الاندفاعة الثورية فاستغلوا كره الناس القديم للعرب لإثارتهم عليهم، وبذلك اشتعلت نار الثورة على الموجودين منهم في بلنسية ومنطقتها. وليزيد القسس والجرمانوس الأخوان (Hermanos) (أعضاء الجمعية) النقمة الشعبية على المسلمين أخذوا يشيعون أن العبيد المسلمين قتلوا أبناء أسيادهم النصارى، فاندفع الناس الى الحي العربي في بلنسية، وهدموه بعد أن نهبوه وقتلوا من صادفوه منهم كبيراً كان أو صغيراً، حتى فاضت الدماء أنهاراً، وبعد أن انتهى الجرمانوس من بلنسية، استعرضوا ٦٠٠٠ من أتباعهم في شوارع المدينة، وانطلقوا

يهاجمون المدن والقرى التي يوجد فيها مسلمون، وفي ٣٠ حزيران ١٥٢٠، هاجم الثائرون مدينة (شيفرت)، التي يسكنها كثير من المسلمين، وقتلوا جميع من فيها منهم، حتى لم ينج أحد منهم، وخربوا بيوتهم ومنازلهم، بعد أن نهبوا جميع ما فيها. وبعد أن انتهوا من ارتكاب جرائمهم في شيفرت، اتجهوا الى منطقة (موريلا)، فتصدى لهم الدوق دو سيجورب (دون الونسو داراغون)، لحماية أتباعه من العرب، وانضم اليه ٤٠٠ من العرب في مدينة المنارة، وخاف الثائرون ازدياد المقاومة ضدهم، فلجؤوا الى الحيلة، وعرضوا على الناس (جثتي اثنين) من النصارى غرست فيهما خناجر عربية، وقالوا لهم، انظروا ما فعله العرب من أنصار الدوق دو سيجورب. ووقف أحد القسس، الذين كانوا منضمين الى المخربين، يخطب مثيراً حماسة الناس ضد العرب، وانطلق القسيس يتبعه المخربون الى كاتدارئية المدينة يطلب إعطاءه علم الحرب الصليبية، فرفضوا تسليمه اليه، فانطلق يشتم العرب، وينادي بشعار (الموت لجميع العرب)، فثار المخربون، واستولوا على علم المدينة، وعلقوه على أحد الأبواب، ولما كان ذلك يعني دعوة جميع المواطنين النصارى للانضواء تحته، فقد تجمع فوراً جمع غفير من الناس انقسموا الى فئتين:

١ ـ فئة تضم قرابة خمسة آلاف رجل، تحركت تحت علم المدينة الى مدينة (مورفيديرو) وهي تهتف (الموت لجميع العرب).

٢ ـ وفئة اخرى سارت لتنضم الى أحد نقباء الجمعية الذي اتجه على رأس قوة لرد نائب الملك.

انطلق الجيش الأول الى المناطق الاسلامية ينهب ويسلب ويخرب ويقتل كل من يقع بيده من العرب، وانضم الى هذا الجيش الجنود الموالون للدولة ليفوزوا بنصيب من حصيلة النهب والسلب والاغتصاب، ولما بلغوا مدينة (غانديا) خربوها ونهبوا ما فيها، واضطروا الناس الى قبول العماد، ويقول بعض المؤرخين إن احد القسس الموجودين مع الثائرين قام بتعميد المسلمين وهم جاثون بين أنقاض بيوتهم، وبين جثث نسائهم وأطفالهم[1]، واستمرت أعمال المخربين ـ من أفراد الجمعية ومن انضم إليهم من القسس والعامة والجنود ـ ضد المسلمين حتى اضطروا من بقي منهم حياً في غانديا، وأوليفا ودانية، الى التنصر، لأنهم لم يتركوا لهم سوى الاختيار بين

---

(١) سيركور ج٢ ص١٧٤.

الموت والعماد. وارتكب المخربون أفظع الجرائم وأبشعها في قرية (بولب) الواقعة في منطقة دانية على ساحل البحر، فقد كان في القلعة ٦٠٠ من المسلمين متحصنين فيها. ولما هاجمهم المخربون دافعوا عن أنفسهم أبسل دفاع وأشرفه، ولكن المؤن سرعان ما نفدت، واضطرهم الجوع الى الاستسلام، وقبلوا أن يضعوا سلاحهم وأن يتعمدوا بشرط المحافظة على حياتهم وأموالهم.

ثم خرجوا من قلعتهم ونزلوا الى السهل مطمئنين الى الاتفاق الذي تم بينهم وبين قادة المخربين، فتلقوا العماد، ولما استعدوا للعودة الى حصنهم، صاح واحد من الأشقياء (إن هؤلاء لا يمكن أن يكونوا مستعدين للموت مثلهم الآن)، فانقض عليهم من حولهم وقتلوهم جميعاً.

وقاتل العرب تحت قيادة السادة الاقطاعيين، عصابات الأشقياء وقتل كثير منهم في الدفاع عن أنفسهم، وتميز بعضهم في المعارك بكثير من الجرأة والاقدام، ولكن الجنود الاسبانيين كانوا ينظرون الى العرب نظرة كره وحقد، ويعاملونهم معاملة الخارجين على القانون، وإذا ما ظفروا بشخص منهم قتلوه. وكان ممن تميز في المعارك ضد المخربين، وساهم في تنظيم اخوانه المسلمين، وتجنيدهم، ودفعهم الى الدفاع عن أنفسهم. . رجل يعرف بابن الوزير (الاجواسيل) وقد قتله الجنود في عداد من قتلوا.

واستمرت أعمال هذه الحركة التخريبية مدة ثلاث سنين، لاقى فيها المسلمون شراً مستطيراً وذاقوا منها صنوف العذاب والقتل والتشريد، وقد كان للقسس ورجال الدين اليد الطولى في تأليفها وإدارتها وتوجيهها الى البطش بالمسلمين.

أثر التعميد بالاكراه:

أثار تعميد المسلمين بالقوة، مسألة فقهية، وهي هل يعتبرون مسيحيين أم لا؟ وهل يمكن إخضاعهم لديوان التحقيق إذا عادوا الى الاسلام أم لا؟

لقد سبق للمجامع المقدسة، ومنها مجمع نيقية، أن قررت أن الذين يكرهون على الدخول في المسيحية، لا يمكن أن يعتبروا مسيحيين إلا إذا أعلنوا فيما بعد، وبرضاهم التام عن رغبتهم في البقاء مسيحيين. ومعنى ذلك أنه يجب العودة الى المسلمين الذين أكرهوا على التنصر، والسيف فوق رقابهم، لسؤالهم عن رغباتهم بعد

زوال الاكراه، فإن أعلنوا تمسكهم بالمسيحية اعتبروا مسيحيين، وإلا فلا يمكن اعتبارهم كذلك، وبالتالي فانهم لا يمكن أن يكونوا خاضعين للملاحقة أمام ديوان التحقيق (محاكم التفتيش).

ولكن الملك شارل الخامس كان له رأي آخر، يختلف عن رأي المجمع المقدس، فهو يريد أن يعتبرهم مسيحيين بصورة نهائية، وأن يخضعهم الى أحكام ديوان التحقيق. ومع ذلك أراد أن يحصل من البابا على تأييد لوجهة نظره هذه. ويقول المؤرخون الغربيون، إن البابا كان واقعاً تحت تأثير الملك شارل الخامس، لا يرفض له طلباً، فعرض الملك الأمر على البابا، وشرح له وجهة نظره، وطالبه بتأييده في مسعاه وفي نظرته للأمر.

١٨٥ ـ رأي البابا ونصائحه :

وحينما تلقى البابا طلب الملك، بادر الى إصدار أمر بابوي (بولا) بتاريخ ١٢ أيار ١٥٢٤ أحل فيه الملك من اليمين التي أقسمها عام ١٥١٩ على أن يحافظ على حياة المسلمين، وحريتهم وأموالهم، وامتيازاتهم وقضائهم ... الخ، وحثه على الاهتمام بموضوع تحويل المسلمين الى النصرانية في مملكته.

ونصح البابا (كليمانت السابع) الملك بأن يكلف اعضاء ديوان التحقيق بإتمام عملية التنصير، كما نصحه بتحديد مدة كافية لاتمام ذلك.

أما إذا أصر أحد المسلمين على التمسك بالاسلام، فيحسن إخراجه من المملكة تحت طائلة فرض الرق عليه مدى الحياة إذا رفض الخروج(١).

وطلب البابا من الملك تحويل الجوامع الى الخدمات الكنسية والدين المسيحي، على أن تعطى أملاكها وأوقافها الى السادة الاقطاعيين تعويضاً لهم عن حرمانهم من أيدي المسلمين العاملة في أراضيهم.

وقد اعتبر أمر البابا هذا مخالفاً لروح الدين المسيحي ولآراء المجامع المسيحية المقدسة، كما اعتبر مخالفاً للضمير الانساني، وبعيداً عن العدل والانصاف والشرف واحترام الكلمة والعهد.

---

(١) مانويل دانفيللا أي كويَّادو ص٨٧.

١٨٦ ـ اعادة بحث مسألة التنصير بالاكراه:

كان الضغط المتزايد على المسلمين يدفعهم الى المخاطرة بأنفسهم وأولادهم في سبيل الهجرة الى إفريقيا، نجاة بدينهم وحريتهم وأعراضهم، رغم ما في هذه المخاطرة من عواقب وخيمة إذا ما قبض عليهم. فقد كانت الأوامر الملكية السابقة تقضي باسترقاق من يقبض عليه وهو يحاول الهرب واسترقاق زوجته وأولاده، ومصادرة أموالهم. ولكنهم برغم جميع هذه المخاطر كانوا يتسللون باستمرار حتى بلغ عدد الهاربين من مملكة بلنسية عام ١٥٢٣ حوالي خمسة آلاف عائلة.

وتجاه هذه الهجرة التي كانت تهدد المملكة بالبوار والخراب، تعالت شكاوى السادة الاقطاعيين من استمرار هجرة أتباعهم، فأمر الامبراطور شارل كانت، بدعوة لجنة مشتركة من كبار رجال الدين، وكبار رجال الدولة في شباط (فبراير) من عام ١٥٢٥م، لمناقشة صحة العماد الذي تم بالضغط والاكراه وقيمته.

١٨٧ ـ رأي غريب للجنة:

اجتمعت اللجنة ٢٢ جلسة، وحضر الامبراطور شارل كانت الجلسة الختامية، وكان لرأيه الشخصي ووجوده تأثير مُوَجِّهٌ على اللجنة، ولم يشذ عن الخضوع لرأي الامبراطور إلا عضو واحد من أعضاء اللجنة تذكر الروايات أن اسمه (خايم بنيت)، فقد كان يرى (ان العرب لن يكونوامسيحيين مخلصين أبداً، وسيظلون مارقين مرتدين عن الدين، وهذا أمر لا يشرف الدين) وظل على رأيه هذا الذي يعارض رأي الامبراطور، ونظريته، ولكن صوته لم يسمعه احد لأنهم كانوا ينصتون إلى رأي الامبراطور.

وأخيراً أعلنت اللجنة بأكثرية أعضائها، ونزولاً عند رغبة الملك، أن العماد الذي تلقاه العرب يجب أن يعتبر صحيحاً، وإن يكن قد تم في ظروف يظن أنه رافقها بعض العنف. لأن العرب حينما تلقوا العماد كانوا يتمتعون بقواهم العقلية كاملة، فلم يكونوا مجانين او سكارى، فإذا كانوا يرفضون تلقي العماد فقد كان عليهم أن يقولوا «لا»، صراحة وعلناً، حينما عرض عليهم العماد. ولا يكفي أن يقولوا «لا» في سرهم. وليس هناك من دليل على أنهم قالوا «لا» صراحة وعلناً.

وخلصت اللجنة إلى القول إن المعمدين من العرب هم مسيحيون حقيقيون ويجب إجبارهم على الحياة النصرانية، وتعليمهم الدين، وتعميد أبنائهم.

أما المسلمون غير المعمدين، فيُلجأ إلى وعظهم ودعوتهم إلى النصرانية، وعليهم أن يتلقوا العماد خلال مهلة معينة، وإلاّ أصبحوا عبيداً مدى الحياة.

١٨٨ ـ أوامر الامبراطور:

وافق الامبراطور على رأي اللجنة، وعلى التدابير التي اقترحتها، وأصدر في نيسان (ابريل) أمراً ملكياً (سيدولا) يقضي بإرسال ثلاثة مفوضين كنسيين لتثبيت عرب بلنسية في الدين، وتعميد أبنائهم، وأمر بمصادرة المساجد التي تمّ فيها إجراء قداس في الماضي، وتحويلها لمنفعة الكنيسة.

١٨٩ ـ اللجنة الكنسية:

وبناء على هذا الأمر الملكي فوَّض المحقق العام بصلاحياته ثلاثة من رجال الدين هم دون كاسبار دافلو، مطران وادي آش، والراهبان فري انطونيو دوجيفارا وفري خوان دوسلمنكا، فذهب الثلاثة إلى بلنسية، ووصلوها في ١٠ أيار (مارس) ١٥٢٥. وفي ١٤ منه أذاع عضو اللجنة كاسبار دافالو الأمر الملكي. ومنح المسلمين مهلة مدتها ثلاثون يوماً ليوفقوا أوضاعهم مع الأمر الملكي وحثّهم على الافادة من العفو الذي تضمنه الأمر، وهدد المخالفين بإنزال عقوبة الموت بهم، وبمصادرة أموالهم.

وأرسل هذا المطران معاونيه إلى المناطق الواقعة حول المدينة لإتمام عملية تثبيت من فيها في الدين، ودام عمل اللجنة أربعة أشهر وانتهت من مهمتها في شهر آب.

١٩٠ ـ أوامر ملكية جديدة بتنصير المسلمين:

بعد أن أنجزت اللجنة الكنسية المهمة الموكولة إليها، أخبرت الملك بنتائج مساعيها، وحثّته على إنجاز القسم الثاني من الأمر البابوي الذي يقضي بتنصير المسلمين الموجودين في مملكة أراغون. فأصدر الملك أمراً مؤرخاً في ١٣/٩/١٥٢٥

تضمن الأمور التالية :

١ ـ أعلن عزم الملك الذي لا يتزعزع على محو الإسلام من مملكته.

٢ ـ دعا المسلمين الى عدم ممارسة الإسلام وإلى عدم معاندة أمر الله.

٣ ـ وعد المسلمين بمعاملتهم كمعاملة النصارى إذا أطاعوا أمر الملك.

٤ ـ وأخيراً أنذرهم باستعمال جميع وسائل العنف، إذا ما رفضوا الرضوخ للرغبة الملكية.

١٩١ ـ إبلاغ الأوامر للمسلمين:

لم يعين الأمر الملكي، العقاب الذي سيتعرض له المخالفون، وترك لأعضاء اللجنة الكنسية أمر شرحه للناس. لذلك، دعا عضو اللجنة المطران جيفارا عرب بلنسية الى الاجتماع في الكنيسة، بتاريخ ٨ تشرين الاول، ليبلغهم أمر الملك، ويشرحه لهم. ولما اجتمع الناس، وقف جيفارا يعظهم، ويقص عليهم تاريخ أصلهم، وقال لهم إن الدم النصراني يجري في عروقهم، لأن المسلمين حينما فتحوا بلنسية لم يكن معهم نساؤهم، وانما تزوجوا مسيحيات، ومن هذا الزواج جاء شعب المنطقة، فالسكان في رأيه مسيحيون بالحق الالهي، والحق الطبيعي، وهم إذا كانوا اليوم مسلمين فذلك لأنهم مرتدون. ثم أعلن لهم أنه يمنحهم مدة عشرة أيام للتفكير فيما قاله لهم، وفيما عرضه الملك عليهم، وأنذرهم بأنه بعد مضي المدة المحددة سيترك سبيل الاقناع، وسيلجأ الى جميع الوسائل لارغامهم على التنصر.

وليرهب الحاضرين، ويحملهم على الرضوخ لمطالبه، ومطالب الملك، أعلمهم أنه يحرم عليهم الخروج من منازلهم خلال الأيام العشرة التي حددها لهم للتفكير، ومن خرق هذا المنع عرّض نفسه للاسترقاق. وليضمن جيفارا النجاح لمهمته أراد أن يحمل النبلاء على التخلي عن مساعدتهم للعرب، فدعاهم الى الكنيسة، وهناك حملهم على القسم أمام مذبح العذراء على العمل باخلاص لتحويل المسلمين الى نصارى وبذلك فقد العرب السند الوحيد الذي كان لهم في محنتهم.

١٩٢ ـ رفض المسلمين:

أما المسلمون فلم يستجيبوا للدعوة ولا للإنذار، ولم يردوا على الأسقف، وإنما

شرعوا في بيع أموالهم ومنقولاتهم بأبخس الأثمان، وقرروا في أنفسهم محاولة الهرب للنجاة بدينهم، أية ما كانت المخاطر التي سيتعرضون إليها. ولما أدركت السلطات الملكية حقيقة مقاصد المسلمين صدر أمر ملكي بتاريخ ٢١ تشرين الاول يحرم على المسلمين بيع أموالهم.

١٩٣ ـ الأمر يمنع ممارسة الإسلام:

وفي ١٦ تشرين الثاني ١٥٢٥ أذيع في بلنسية الأمر الملكي الذي يقضي بمنع ممارسة الدين الإسلامي منعاً تاماً ونهائياً، وكلف الأمر السادة الاقطاعيين باتخاذ التدابير التالية تحت طائلة مصادرة أموالهم:

أ ـ نزع سلاح المسلمين.

ب ـ إحصاء السلاح وتسليمه لاعضاء اللجنة.

ج ـ حدد الأمر عقوبة من يهمل القيام بهذه الواجبات بأن جعلها دفع غرامة مقدارها عشرة آلاف فلوران، كما جعل عقوبة العربي، الذي يستفيد من هذا الاهمال، الاسترقاق، ومصادرة جميع أمواله، والضرب مئة جلدة.

د ـ إغلاق المساجد بعد ثلاثة أيام من صدور هذا الأمر.

هـ ـ منع جميع الاجتماعات العامة للمسلمين، سواء أكانت للصلاة أو للحج أو للدفن أو للوعظ.

و ـ منع المسلمين من الاحتفال بالأعياد، ومنعهم من ختن أولادهم.

ز ـ منعهم من ذبح حيواناتهم حسب الطريقة المتبعة عند المسلمين.

ح ـ إجبار المسلمين على حضور القداس والصلوات، والركوع عند مرور الصليب، وحين قرع النواقيس. ومن خالف ذلك منهم كانت عقوبته فرض الرق عليه، وهي عقوبة ثقيلة جداً.

أما الذين يعملون يوم الأحد فيدفعون غرامة مقدارها مئة قطعة نقدية (مرابطي).

١٩٤ ـ محاولة طرد المسلمين غير المعمدين:

في ١٠ كانون الأول ١٥٢٥ طلب مفوض الشرطة التابع لديوان التحقيق، من

العرب الذين لم يتلقوا العماد، التهيؤ لترك بيوتهم، والاستعداد للنزوح. وطلب إليهم الاجتماع يوم ٣١ كانون الأول، في آخر قرية تقع على حدود مملكة بلنسية ليتوجهوا منها الى مدريد ثم الى بلد الوليد، وسانتاندر، ولاريدو، وكوروني، ومن هناك يخرجون جميعاً من المملكة في مهلة اقصاها ٣١ كانون الثاني ١٥٢٦م، ومن يتخلف عن هذا الموعد تكون عقوبته الاسترقاق. وكان الملك يقدر ان هؤلاء البؤساء سيضطرون الى طلب تعميدهم، بعد أن يستهلكوا، في هذه الطريق الطويلة التي فرض عليهم سيرها، ما معهم من مال وزاد. وبعد أن علم العرب بالأمر ألفّوا منهم وفداً قابل الملكة، نائبة الملك في بلنسية، ورفعوا اليها شكواهم، من هذا الأمر الجائر، ورجوها السماح لوفد منهم بمقابلة الملك لرفع ظلامتهم إليه. ولم نضيع الملكة مثل هذه الفرصة الذهبية لاستغلال بؤس هؤلاء التعساء واستنزاف ما لديهم من قليل المال، فتقاضت منهم خمسين ألف دوكات ـ على ما قيل ـ لتعطيهم أماناً لوفدهم، وتوصية الى الملك. وفي ١٢ كانون الأول، وقعت أماناً لوفد إسلامي مؤلف من ١٢ شخصاً من الفقهاء ووجهتهم مع كتاب منها الى الملك(١).

أحالهم الملك على المحقق العام (ألونسو مانريكس) لينظر في شكواهم، ويناقشهم. فتقدموا بواسطته، بمذكرة الى الملك. ولما اطلع الملك على المذكرة، أعطى تعليماته للمحقق العام وهي تتضمن:

أ ـ وعدا للعرب بعدم ملاحقتهم من قبل ديوان التحقيق، إلا في حالة الارتداد الثابت القاطع.

ب ـ السماح لهم باستعمال اللغة العربية، وبممارسة العادات الإسلامية، مدة عشر سنين أخرى.

ج ـ الوعد بابطال الأمر القاضي بنزع سلاحهم.

د ـ الوعد بأن تكون الضرائب المترتبة عليهم، مساوية للضرائب المفروضة على المسيحيين القدامى.

١٩٥ ـ ثورة المسلمين في بلنسية ١٥٢٥ ـ ١٥٢٦:

ولكن المسلمين لم يرضوا بالتخلي عن دينهم، مهما كلف الأمر، فاندلعت، في

---

(١) دانفيلا إي كوبادو ص٩٨.

أواخر عام ١٥٢٥، نيران الثورة في المنطقة واتسعت، فقابلتها الحكومة بأعنف وسائل القمع والارهاب. ولم تتمكن مملكة اراغون من التغلب على الثائرين، إلا بعد ان استعانت بجيش من الالمان. وأبلى المسلمون أحسن بلاء، في المعارك التي دارت خلال عشرة أشهر. وأدت هذه الثورة إلى قتل عدد كبير من المسلمين، ونسائهم وأطفالهم، واسترقاق عدد كبير منهم، وإلى هجرة عدد كبير آخر إلى افريقيا. أما الباقون فقد اجبروا على تلقي العماد.

١٩٦ ـ تنصير مسلمي اراغون وقطالونيا:

بعد أن تمكن الملك من سحق ثورة بلنسية، فكّر في الانتهاء من أمر المسلمين، في أراغون وقطالونيا، مقدراً أنهم لن يتمكنوا من الثورة فأمرهم بعدم بيع أموالهم، ومنعهم من الهجرة الى افريقيا، وفرض عليهم الهجرة عن طريق فرانسا، ولكنه حرم عليهم نقل الذهب والفضة، وما لا يجوز تصديره، وتجاه هذه الظروف القاهرة اضطر المسلمون الى تلقي العماد، منتظرين فرصة أفضل للهرب من المملكة او للثورة.

١٩٧ ـ سنة فاصلة في تاريخ مسلمي الجزيرة:

يقول المؤرخون الغربيون ان عام ١٥٢٦، كان عاماً فاصلاً في تاريخ الاسلام، في شبه الجزيرة الايبرية، إذ تلاشى فيه كل مظهر خارجي إسلامي، وأصبح ديوان التحقيق، يطول جميع سكان المملكة، بعد ان اصبحوا كلهم مسيحيين نظرياً. وبعد هذا التاريخ لم يعد العرب يعرفون باسم (مورو ـ أي مغربي ـ أو عربي)، وانما صاروا ينادون باسم (النصارى الجدد) أو باسم (موريسكوس) أي المغربي الصغير.

على أن الكنيسة بقيت لا تثق بالمسلمين، وبقي الشعب ينظر إليهم نظرة عداء وكره. وعلق (المؤرخ سيركور) على هذه النتيجة بالعبارة التالية: (كم من دماء سالت، وكم من لطخات العار علقت بجبين الأمراء والوزراء والاساقفة، في سبيل الوصول الى هذه النتيجة، التي تعتبر استرقاقاً للجسم، دون كسب للروح. لقد ارتفع الصليب فعلاً فوق الهلال، ولكن الانجيل لم ينتصر)[١].

---

(١) سيركور ج٢ ص٢٢٠.

بعد أن تم اخماد الثورة، حدث الأمران التاليان:

أ ـ أصدر البابا كليمنت السابع في ٧ تموز ١٥٢٧ أمراً بابوياً (بولا) يجيز فيه للمحقق العام، البت في أمر المتنصرين، في مملكة غرناطة وغيرها في اسبانيا، الذين يصرون على تمسكهم بالإسلام.

ب ـ قرر مجلسا مدريد وبلنسية، السماح بزيارة بيوت المتنصرين، للتأكد من أنهم ما زالوا مقيمين على الكثلكة.

ولكن المسلمين لم ييأسوا، برغم ما جرى، إذ إنهم كانوا يعرفون الوسيلة التي يتغلبون بها على صلف الاسبان وعجرفتهم، ألا وهي بذل المال، وتقديم الرشاوى، إذ كان كل شيء في اسبانيا في ذلك الحين، يباع ويشرى بالمال: الشرف والقانون، والأخلاق، حتى أصبح يمكن الاعتراف بشرعية أبناء الاكليروس[1]، فتابع الفقهاء الاثنا عشر ـ الذين يمثلون جمعيات المسلمين في بلنسية ـ جهودهم، لايجاد تسوية للمواضيع المعلقة؛ فاتصلوا بكردينال طليطلة، وبديوان التحقيق الأعلى، وبالأمبراطور نفسه، وتوصلوا في ٢١ أيار ١٥٢٨ الى اتفاق مهم مع رئيس ديوان التحقيق، ومع كردينال طليطلة، قبل به الملك، ووافق عليه، وهذا الاتفاق الذي وصفه المؤرخون بأنه مهم، لا يُعرف الشيء الكثير عنه اليوم. ومما عرف منه النقاط التالية[2]:

١ ـ أشار الاتفاق الى أنه لا يمكن أن يستمر العرب (الموريسكيون) في الاقامة في مكان يعاملون فيه معاملة سيئة كالتي يلقونها اليوم (ولعل هذه الاشارة تبرير للملك والمحقق العام، للموافقة على هذا الاتفاق).

٢ ـ لا يلاحَق الموريسكيون من قبل ديوان التحقيق خلال أربعين عاماً.

٣ ـ لا يجبرون على ارتداء ثياب المسيحيين خلال عشر سنوات.

٤ ـ لا يُجبرون على استعمال اللغة الاسبانية والبلنسية خلال عشر سنوات.

٥ ـ يسمح لهم بأن تكون لهم مقابر خاصة بهم بجانب المساجد.

٦ ـ في قضايا الزواج بين الأقارب، يعفى عما سبق من زواج يمنعه الدين المسيحي،

---

(١) مانويل دانفيلا أي كويادو ص١٥٣.

(٢) نفس المرجع ص١٠٢.

وفي غير ذلك يستشار البابا.
٧ ـ تنفق أموال المساجد على خدمات الدين المسيحي ماعدا ماهو ضروري لنفقات الفقهاء، مادام هؤلاء أحياء.
٨ ـ يسمح للعرب (الموريسكيين) بحمل السلاح.
٩ ـ يتساوون مع النصارى القدامى في الواجبات، ويسمح لهم بالانتقال من مساكنهم بحرّية.
١٠ ـ تبقى الجامعات الإسلامية القائمة في شاطبة وبلنسية وألسيرا... إلخ مستمرة في عملها كجامعات مستقلة.

ويقول (كويادو) إن هذا الاتفاق الذي تمّ التوصل إليه يعتبر اعترافاً بالاستقلال الذاتي للمسلمين، وهذا يعني أن الملك غيّر سياسته.

١٩٨ ـ المسلمون مازالوا مقيمين على الإسلام:

ولكن برغم جميع المحاولات التي بُذلت لصرف العنصر العربي عن الإسلام، فإن أبناءه ظلوا مقيمين على دين آبائهم، يمارسونه ويتابعون حياة المسلمين، وعاداتهم وتقاليدهم في طعامهم، وشرابهم، وذبيحتهم، وصومهم، وحينما كان يُقال لهم إنهم مسيحيون، بعد أن تلقوا العماد، كانوا يقولون إنهم غير مسيحيين، وإنهم عمدوا بالإكراه والسيف فوق رقابهم. وكانت الحكومة والكنيسة، تعرفان ذلك منهم، وقد جربتا جميع الوسائل لصرفهم عن ممارسة دينهم، فلم تفلح. لذلك كلفت السلطات الإسبانية والكنيسة، بعد توقيع هذا الاتفاق، رجل دين يجيد العربية يدعى (فري بارتوله دولوس انجيلوس)، بمحاولة إقناع المسلمين بالدين المسيحي عن طريق الوعظ والارشاد، ولكنه لم يفلح في مهمته.

١٩٩ ـ نقض الملك الاتفاق واستمر في الضغط على المسلمين:

ولكن ديوان التحقيق الأعلى لم يرض بما تمّ الاتفاق عليه، وأراد تفسير الاتفاق على أنه لايسمح للمسلمين بممارسة الطقوس الإسلامية، وأنذر المسلمين، بأن كل من يعود إلى الإسلام، أو يقوم بفروضه وواجباته، يعتبر مرتداً عن النصرانية،

ويلاحقه ديوان التحقيق.

ولما رأى الامبراطور موقف ديوان التحقيق، عمد الى نقض الاتفاق المشار إليه، وكأنه كان ينتظر هذا الموقف لينفض يده مما وقّع عليه، وطلب الملك من المسلمين أن يتعمدوا بدون ابطاء.

ويحاول المؤرخون الاسبانيون تبرير تصرف الملك المخزي، فمنهم من يبرره بأن الملك اكتشف مؤامرة في أواخر عام ١٥٢٨، ومنهم من يجعل سببه استمرار غزوات القرصان الافريقيين لشواطىء اسبانيا وجزر الباليار[1]. ولو كان هذا النقض للعهد، والحنث باليمين، والرجوع بكلمة الشرف، هي الأولى من نوعها من قبل ملوك اسبانيا، لبحث الإنسان في السبب، ولكننا ونحن نتابع الحوادث في الممالك الاسبانية، لم نقع على موقف ملكي واحد فيه وفاء بالعهد، وتقيد بالكلمة. ولذلك لا بد للإنسان من أن يعتبر موقف الملك هذا، موقف مرتش طماع أصدر أمراً بعد أن قبض عليه مالاً، ثم ما لبث أن أراد التخلص منه، فوجد الوسيلة لذلك.

٢٠٠ ـ أوامر بابوية بملاحقة المسلمين:

(١) في ١٣/ ١٢/ ١٥٣٢، صدر عن البابا كليمنت السابع، أمر بابوي يقضي بوجوب تعليم المسلمين المقيمين في أراغون وبلنسية وقطالونيا، أمور الدين المسيحي وتعاليمه.

(٢) وفي مطلع عام ١٥٣٤ كتب البابا المذكور الى المحقق العام (مانريكس) يبدي أسفه، لما بلغه من عودة مسلمي بلنسية الى دينهم القديم.

(٣) وفي ١١ حزيران ١٥٣٤، أصدر البابا أمراً بابوياً (بولا) يأمر فيه الامبراطور شارل الخامس، بإخراج المسلمين الذين يرفضون التحول الى النصرانية من ممالكه.

٢٠١ ـ تتالي الأوامر الملكية بحق المسلمين:

وبعد ذلك تتالت الأوامر الملكية، وكانت الغاية منها كلها، اجبار المسلمين على

---

(١) مانويل دانفيلا أي كويادو ص١٠٧.

التنصر، والتخلي نهائياً عن الإسلام. ومن هذه الأوامر(١):

(١) صدر أمر ملكي، حرم على المسلمين الذهاب الى مكان آخر، أو الانتقال الى اقطاعات شخص آخر، تحت طائلة عقوبة الموت، ومصادرة جميع الأموال.

ويحرم الأمر على أصحاب الأراضي أن يقبلوا المسلمين في أراضيهم دون موافقة ملكية سابقة، تحت طائلة دفع غرامة مالية قدرها ٥٠٠ فلوران من الذهب، أو الجلد إذا لم يمكن تحصيلها.

- وحرم الأمر على المسلمين، حمل السلاح - سواء أكان هجومياً أو دفاعياً - خلافاً لما كان تم الاتفاق عليه عام ١٥٢٨ تحت طائلة الجلد مئة جلدة والحبس عشرين يوماً، ودفع غرامة مالية مقدارها (مئة سويلدوس).

(٢) وقضى أمر آخر، بأن المسلمين، الذين يسيرون خارج الطريق الرئيسية الممتدة من برشلونة الى بلنسية، وفي الجهة الشرقية منها (جهة البحر)، دون أن يكونوا مزودين ببطاقة خاصة من أسيادهم، أو من الرسميين، يعرضون أنفسهم لعقوبة الموت، ولمصادرة أموالهم، وفقاً لما سبق أن تقرر عام ١٥٣٠. وتطبّق نفس العقوبة على الذين يسيرون في الجهة الشرقية من الطرق الممتدة من بلنسية الى دانية، ومن دانية الى اليقنت، ومن اليقنت الى أوريولا. كما تطبق نفس العقوبة على الأشخاص الذين يقبض عليهم وهم يتجولون في المناطق القريبة من شاطىء البحر.

وقضى الأمر بأن السادة الاقطاعيين الذين يعطون الإجازات، عليهم أن يوضحوا فيها الساعة والوقت الذي يستطيع فيه تابعوهم الاقتراب من البحر.

٢٠٢ - تمزيق ما تبقى من معاهدة غرناطة:

ذهب شارل الخامس الى غرناطة في ٥ حزيران ١٥٢٦، واطلع بنفسه على عظمة ما خلفه العرب من تراث حضاري، واستمع الى ما قصه عليه أصحابه من تاريخ العرب في الأندلس، فأدرك معنى الثورة التي تكمن في نفوس المسلمين، فقال عبارته المشهورة: (إنه لشقي من أضاع كل هذا). وفكر في أمر يمكنه من المساعدة على اجتثاث روح الثورة من نفوس العرب، وهداه تفكيره في آخر الأمر الى حملهم على

(١) نفس المرجع ص١٢٨.

نسيان ماضيهم، وقدر بأن اظهار عظمة الدولة يكفي لذلك. وبينما كان مقيمًا في غرناطة، تقدم اليه العرب والنصارى كل منهم يشكو الجانب الآخر: النصارى يشكون من عصابات المنفيين (المونفس)، وتزايد نشاطها لدرجة خطيرة، كما يشكون من تزايد هجمات القراصنة المسلمين من افارقة وأتراك، على السواحل الاسبانية، مما أدى الى تخريب أكثرها.

ويشكون أيضاً من اساءة العرب لاجازات حمل السلاح، حتى أصبحت بيوتهم مستودعات للأسلحة يتزود منها المنفيون. أما العرب فقد وضعوا مذكرة بينوا فيها شكواهم من رجال القضاء المدني والكنسي، وما يأخذونه عليهم.

ووقع المذكرة وجهاء المسلمين، ومنهم ثلاثة من أعضاء المجلس البلدي، وتولى الأعضاء الثلاثة في المجلس البلدي (ومنهم عضو اسمه الاسباني ديجو لوبس ـ واسمه العربي ابن الشرع) تقديم المذكرة الى ـ الامبراطور، فاحالهم الامبراطور الى مجلس الدولة. ولما تسلم المجلس الشكوى الإسلامية، قرر تأليف لجنة تحقيق، يزور أعضاؤها المناطق الإسلامية في جميع أنحاء مملكة غرناطة لاستقصاء الحقائق. ودافع أحد القسس من أعضاء المجلس عن تصرفات رجال الدين بحق المسلمين، قائلاً إن أسباب الاضطهاد الذي يحل بالمسلمين هو أنهم ملحدون مارقون من المسيحية، وهذا ما يحمل رجال القضاء الكنسي والمدني على اضطهادهم.

تألفت لجنة التحقيق من خمسة أعضاء من رجال الكنيسة، أربعة منهم من اكليروس غرناطة، الذين يشكو المسلمون من تصرفاتهم، والخامس من خارج المنطقة، يدعى انطونيو جيفارا، وهو الذي أصبح فيما بعد اسقف وادي آش، وأظهر كثيراً من التعصب والحقد على العرب والمسلمين، حتى أنه أمر بجلد النساء المسلمات اللواتي يخضبن أصابعهن بالحناء. ومن الغريب أن يكلف مجلس الدولة أربعة ممن تقدم الشكوى العربية بحقهم، ليكونوا أعضاء في لجنة التحقيق في الموضوعات التي تضمنتها هذه الشكوى من تصرفات المحققين أنفسهم، ولكن ما رأيناه من تعصب الملوك ورجال الكنيسة، وسوء نيتهم، لا يترك مجالاً لأي استغراب ما دام الأمر يتعلق بالمسلمين.

قام الأعضاء بالتجول في نواحي المملكة لاستقصاء الحقائق، والبحث في شكوى النصارى من الموريسكيين، وما نسبوه إليهم من عدم تمسكهم بالمسيحية، ثم اجتمعت اللجنة لتضع تقريرها بنتائج تحقيقاتها ومشاهداتها. ومع أنها كانت مكلفة

بالتحقيق عن مسلك القسس، ورجال القضاء، تجاه المسلمين، إلا أنها صرفت النظر عن هذه الناحية. واكتفى (جيفارا) بالقول، تعليقاً على هذه الشكوى، إنه يلوم القسس ورجال القضاء على تسامحهم مع المسلمين.

وجاء في تقرير اللجنة إعتراف منها باستقامة المتنصرين وبتمتعهم بأخلاق وعادات حسنة، وبأنهم يوحون الثقة الكاملة لجميع من يتعاملون معهم، بالنظر لأمانتهم واستقامتهم. واعترفت اللجنة بأن المسلمين يعطفون على الفقراء، ويحبون الخير، ويخلصون في عملهم. ولكن اللجنة لم ترد ذلك الى متانة الخلق، وصفاء النفس، وعمق الايمان، وانما عزته الى حب التظاهر والنفاق(١).

وتطرق التقرير الى ما نسب الى المسلمين، من عدم التمسك بالدين الجديد، فجاء فيه (إنه لا يبدو لدى الموريسكيين أية غيرة على الدين المسيحي، ولا تقيد بالآحاد، ولا احترام للأعياد. ومع أنهم انتسبوا الى الكنيسة منذ ٢٧ عاماً، إلا أنهم، في الحقيقة، لا يوجد بينهم سبعة أشخاص مسيحيون فعلاً، فإذا لم يكونوا مسلمين حقاً فهم هراطقة متسترون).

واتهم التقرير المسلمين بأنهم يصومون رمضان، ويعلمون أولادهم القرآن، وتعاليم الإسلام، ويبقون يوم الجمعة في بيوتهم ليؤدوا الصلاة، ويعملون يوم الأحد. ويكرهون شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير ويختنون أولادهم ويغتسلون، ويغسلون ثيابهم بعناية تامة لتطهيرها مما أصابها من زيت العماد المقدس، ويتمون زواجهم على طريقتهم بعد أن يتلقوا بركات القسيس، ولا يستدعون القسيس في حالات الموت إلا بعد أن يكون المريض قد مات أو فقد القدرة على النطق). وأشار التقرير الى ما كان فرضه الكاردينال خيمنس على المسلمين من حضور القداس يوم الأحد، وحضور دروس الوعظ تحت طائلة دفع غرامة مادية، كما فرض على القسس اجراء تفقد لأبناء منطقتهم قبل البدء بالوعظ، وتسجيل أسماء من يتغيب لفرض العقوبة بحقه.

وذكر التقرير أيضاً أن خيمنس، كان قد فرض على من يأتي من المسلمين، لعقد زواجه، أن يرتدي الملابس الاسبانية، وأن يبرهن على أنه يعرف ترديد الصلاة الكاثوليكية. ثم ذكر التقرير أنه بالرغم من تلك الأوامر فإن المسلمين كانوا يتهربون

---

(١) سيركور ج ٢ ص ٢٢٦

من اتمام هذه الواجبات، أساليب مختلفة أهمها وأبرزها شراء القسس، ورشوتهم بالمال. ومما لا شك فيه هو أن القسس كانوا يساهمون في خلق هذا الجو من الفوضى والاضطراب لأن ذلك كان يعود عليهم بالربح المادي، إما من الرشاوى، وإما من الغرامات، وإما من بيع صكوك الغفران[1].

وعلى أثر ذلك عهد الامبراطور الى المحقق (ألونسو مانريكس)، والى ١٣ شخصاً اكليركيا ومدنياً - ليس فيهم عربي - بوضع توصياتهم في ادخال اصلاح على أحوال العرب (الموريسك)، مع أنه حينما دخل غرناطة قبل أيام كان قد أقسم على احترام الامتيازات الممنوحة للمسلمين كاملة غير منقوصة وعلى عدم المساس بها.

٢٠٣ - قرار اللجنة :

عقدت اللجنة عشر جلسات، استمعت فيها الى روايات المفوضين الزائرين للمناطق، ودرست معاهدة التسليم، والشكاوى. ثم وضعت تقريراً جاء فيه : (إنها ترى أن مصلحة النصارى الجدد تقتضي بأن يحجب عنهم كل ما يذكرهم بالدين الذي كانوا يدينون به، وبالامة التي كانوا ينتسبون إليها). ولم تعرض اللجنة الى بحث ملاحظات المسلمين.

وحملت اللجنة الى الامبراطور قرارها، وما كان الامبراطور ينتظر غير هذا القرار ليحوله إلى قانون مؤذ للمسلمين، فوافق على الاقتراح، وأصدر في ٧ كانون الأول ١٥٢٦ قانوناً يحرم فيه على العرب التسمي باسماء عربية، والتحدث باللغة العربية، ولبس الألبسة العربية. ولقاء ذلك منحهم القانون عفوا عاماً عن المخالفات السابقة. وهكذا تلاشت معاهدة التسليم تماماً. وتمزق آخر ما بقي من موادها دون تمزيق، حتى ذلك الحين.

٢٠٥ - الأوامر التالية :

١ - اصدر الامبراطور في عام ١٥٢٨، أمراً ملكياً يفرض على مختاري القرى، في

(١) نفس المرجع ص ٢٢٨ .

بمملكة غرناطة، بأن يتحملوا من أموالهم الخاصة، التعويض عن الاضرار التي يسببها المنفيون والقرصان في منطقتهم.
٢ ـ وفي ١٢ كانون الثاني ١٥٢٩، أصدر (شارل كنت) أمره بنقل العرب خارج حي البيازين، واسكانهم وسط المدينة.
٣ ـ وفي عام ١٥٣٢م وضعت الامبراطورة موضع التنفيذ، الأوامر الصادرة في ٧ كانون الأول ١٥٢٦م التي تقضي بمنع العرب من استعمال اللغة العربية، ومن التسمي باسماء عربية، ومن لبس الألبسة العربية.

وعلق الكونت سيركور على الأوامر التي أصدرها شارل الخامس وزوجته المتعلقة بالمسلمين بقوله: «إن الامبراطور وزوجته كانا يبحثان عن وسيلة يتمكنان بها من ابتزاز أموال الموريسكيين، فلم يجدا وسيلة أفضل من اصدار القوانين الجائرة، والأوامر السخيفة بحقهم، ليضطرهم الى المراجعة، ودفع مبالغ كبيرة من المال في سبيل إبطالها[1]». وبالفعل فإن العرب توجهوا، في جميع هذه الحالات، الى الامبراطورين، ودفعوا لأعوانهما ولهما مبالغ كبيرة، لوقف تنفيذ الأوامر أو ابطالها.

ومن أسخف واقسى ما سن من تشريعات بحق العرب، هو النظام الذي وضعه المحقق العام، الكاردينال (فرناندو فالدس)، الذي يمنع العرب من التزاوج فيما بينهم، كما يحرم عليهم أن يكون عندهم خدم من عنصرهم، وان يسكنوا متجاورين. ولكن هذا الأمر السخيف الجائر لم ينفذ ولم يعمل به. فقد تحدَّاه العرب بقوة وعناد.

٢٠٦ ـ الأوامر التي أصدرها فيليب الثاني:

١ ـ أصدر الملك فيليب الثاني أمراً في عام ١٥٦٠، حرم فيه على العرب اقتناء العبيد السود، تحت طائلة دفع غرامة قدرها عشرة آلاف مرابطي، ومصادرة العبد. وحرم عليهم أيضاً الاتجار بالذهب والفضة. ولكن بما أن تحريم اقتناء العبيد السود يشل الفعالية الزراعية التي تقوم في أكثرها عليهم، فقد تقدم العرب بطلبات تظلم الى الملك، وبقيت المسألة بين أخذ ورد حتى حسمها الملك في مطلع عام ١٥٦٣، برفضه

(١) سيركور ج٢ ص٢٤٣.

شكوى العرب.

٢ - وفي ١٤/ ٥/ ١٥٦٣ أصدر الملك أمراً:

١ - يجدد فيه الأمرين الصادرين عام ١٥٢٦ وفي ١١/ ٥/ ١٥٥٢ المتعلقين بتحريم اقتناء الأسلحة بدون رخصة.

٢ - ويأمر العرب بتقديم جميع أسلحتهم لختمها، بعد التثبت من صحة الإجازة، ومصدرها ونظاميتها. وأنذر العرب بأن من يملك إجازة نظامية يعرض نفسه لعقوبة فقدها في الأحوال التالية:

١ - إذا أعار السلاح لشخص آخر.

٢ - إذا لم يقدم سلاحه لمراقبته وختمه.

٣ - إذا لم يجدد ختم إجازته إذا ما اشترى سلاحاً جديداً.

ونص الأمر على فتح سجل تدون فيه أسماء الأشخاص الذين يحوزون سلاحاً، وأوصاف السلاح وأنواعه.

وفوض الملك الى القائد العام لمنطقة غرناطة، الكونت دوتانديلا، أمر تحديد العقوبة المترتبة على مخالفات حمل السلاح. وبناء على هذا التفويض، جعل الكونت الإعدام عقوبة للمخالفين. ووافق الملك على هذا التحديد. وقد أدَّى تنفيذ هذا الأمر الى مآس كثيرة، والى ملاحقات مشروعة وغير مشروعة، والى ابتزاز أموال العرب من قبل كل من يستطيع أن يدعي لنفسه صلاحية تطبيقه. فقد كانت هناك إجازات مزورة يمنحها الموظفون، وكان العرب، الذين تجهل غالبيتهم العظمى اللغة الاسبانية، لا يستطيعون التفريق بين المزور وغير المزور، فيقعون في مشاكل لا تنتهي، ولما كانت العقوبة بالغة القسوة، فقد كانوا مضطرين، الى تلافي الأمر، وشراء حريتهم ورقابهم بالدفع. وكان من نتيجة هذا الأمر، أن هرب ألوف من العرب من بيوتهم، ولم يكن أمامهم أمكنة يلجؤون إليها غير الكنائس، وأراضي السادة الاقطاعيين. ولكن الملك سد الطريق أمامهم إذ أصدر أمراً حدد فيه حق اللجوء الى الكنائس بثلاثة أيام، وحرَّم على السادة الاقطاعيين إيواء الهاربين. لذلك لم يبق أمامهم غير اللجوء الى الجبال والانضمام الى عصابات المنفيين، وامتهان قطع الطريق، والقيام بأعمال السلب والنهب. وصبت هذه العصابات جام غضبها على الاسبان تقطع عليهم السبل، وتتخطفهم، وتخرب أراضيهم. وتعاظم أمر هؤلاء الثائرين حتى سيطروا على المنطقة الممتدة من البشرات الى جبال رونده. وبلغ من

جرأتهم أنهم كانوا يصلون الى أبواب غرناطة متحدين السلطات، ومنذ ذلك الحين بدأت تختمر فكرة القيام بثورة، وبدأ الاعداد لها.

٢٠٧ ـ الأمر الصادر عام ١٥٦٦ بضغط من الفاتيكان:

كان بين الحاضرين في مجمع (تارانت) قسيس اسمه (بيدرو جيريرا)، وقد بذل هذا القسيس نشاطاً ملحوظاً، وابدى حماسةً ظاهرةً، فلمع اسمه. ولما عاد الى اسبانيا، جعل من نفسه مراسلاً للفاتيكان، وأخذ يوافيه بتقارير عن الحالة في اسبانيا، وبصورة خاصة عن حالة المسلمين فيها، فسر البابا (بيوس الرابع) من هذا النشاط، وعهد الى جيرير بأن يقوم بإبلاغ ملك اسبانيا (فيليب الثاني) رغبة البابا باتخاذ تدابير صارمة بحق المسلمين، وبأنه يعتبر الملك مخطئاً في التسامح الذي يبديه في ترك المسلمين مقيمين على عاداتهم التي ترتدي في رأيه ونظره طابع الهرطقة.

فاغتنم القسيس هذا التكليف وأسرع الى الملك يبلغه رغبة البابا، ويمارس الضغط عليه، ويطالبه باتخاذ تدبير حاسم ينهي مشكلة العرب.

ولكن الملك كان يتردد في اتخاذ تدبير اخرق قد يزيد الأمر تعقيداً.

إلا أن جيريرا، الذي كان يريد أن يدخل التاريخ من أي باب كان، عاد يلاحق الملك، ويراسل الفاتيكان ليزيد في ضغطه على الملك ليخضع للرغبة البابوية، وينفذ أوامرها.

وفي ايلول ١٥٦٥ دعا جيريرا الاساقفة الى اجتماع، وحملهم على توقيع طلب الى الملك، يرجونه فيه تطبيق الأمر الصادر عام ١٥٢٦. وفي ذلك الوقت أقيل المحقق العام (فيرناندو فالدس)، وحل مكانه (ديجو دايسبينوزا) وهو عدو لدود للعرب، فاصبح سنداً لأسقف غرناطة، واتفقا على تفتيش المنطقة، والقيام بتعيين مندوبين يزورونها ويقدمون تقاريرهم عن حالة العرب مثلما حدث عام ١٥٢٦.

وأخيراً تألفت لجنة لوضع الاقتراحات اللازم ادخالها على الأنظمة المطبقة على العرب (الموريسك)، ولم يشترك فيها أحد من العرب. وبعد أن تناقشت اللجنة، اقترح رجال الدين الأعضاء فيها، أن تزاد شدة التدابير الواردة في الأمر الملكي الصادر عام ١٥٢٦. ولم يجرؤ أحد من الأعضاء المدنيين على معارضة القسس.

وأخيراً تقدمت اللجنة بتوصيات أقرتها بالأكثرية، ومن هذه التوصيات:

١ ـ منع استعمال اللغة العربية والعادات والتقاليد العربية منعاً باتاً.
٢ ـ منع التسمي بأسماء عربية.
٣ ـ هدم الحمامات العامة وكل ما له مظهر جامع أو حمام.
٤ ـ منع استعمال الألبسة العربية.
٥ ـ منع العرب من امتلاك العبيد.
٦ ـ إجبارهم على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة، في أيام الأعياد لمراقبة مايجري فيها.
٧ ـ إجبار النساء العربيات على كشف وجوههن حينما يسرن في الشارع.

وافق الملك على هذه التوصيات، وأصدر أمراً ملكياً بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ١٥٦٦ يتضمن المقترحات الواردة فيها.

وكان في غرناطة رجلان يتنافسان في الزعامة هما القائد العام للجيش المركيز دو مونديخار، والكاردينال بيدرو ديسا، ولما علم القائد العام بصدور هذا الأمر ـ وكان إذ ذاك في البلاط ـ عارضه وأبدى مخاوفه من عواقبه. ولكن الكاردينال، دايسبينوزا بقي مصراً على رأيه، ولم يقبل أن يُدخل عليه أي تعديل. وقرر بيدرو ديسا أن يعلن هذا الأمر للشعب يوم ١٥٦٧/١/١، يوم الذكرى السنوية لسقوط غرناطة، إلّا أنه أراد أن يمهد الطريق أمام إعلانه ليخفف من رد الفعل. فاستدعى زعماء العرب في غرناطة، وحدّثهم بالأمر، ونصحهم بالتعاون معه، وإعداد أفكار الناس لكيلا يُفاجؤوا. ولكن الزعماء المسلمين اعتذروا عن عدم تمكّنهم من التحدّث في هذا الأمر لأن الشعب سيرجمهم بالحجارة إنِ هم فاتحوه بشيء منه.

وفي ١٥٦٧/١/١، اجتمع المسلمون، في ساحة باب البنود ـ التي كانت تجري فيها في السابق احتفالات عرض البنود والرايات حينما يعتلي العرش ملك جديد ـ وقرأ المنادون الأمر الملكي، فعلا الوجوم والاشمئزاز وجوه المسلمين، وبدت على وجوههم علائم الثورة.

وقابل زعيم عربي اسمه (فرنسيسكو مؤنس) الكاردينال بيدرو ديسا، وناقشه في مضمون الأمر الملكي، وفنّده، وبيّن سخافته، وعدم جدواه. وحاول ديسا إقناعه بأنه من العبث مناقشة الأمر الملكي بعد أن صدر.

ولجأ مؤنس إلى الملك فلم يحصل منه على شيء يذكر، غير السماح للخياطين العرب بأن يصنعوا ثياباً على النمط الإسباني، دون حاجة إلى دفع شيء من المال لقاء منح الإجازة الجديدة.

وتوصل العرب الى اكتساب عطف أمير اقطاع، اسمه خوان انريكس، كان على صلة باميرال قشتالة، وبالملك نفسه. وبواسطة هذا الاقطاعي، الذي تأثر للظلم الواقع على العرب، تمكن اثنان من العرب هما (خوان فرناندس مفضل)، من غرناطة، و(فرناندو الحبقي) من وادي آش، من مقابلة الملك، وقدما إليه مذكرة تتضمن مطالب العرب. فرد الملك عليهما بأنه استشار أهل العلم والمعرفة، فنصحوه باتمام ما تم. ثم قال لهما إنه سيبلغ أوامره الى ديسا، فعليهما بمراجعته. ولكنهما لما راجعا ديسا، قال لهما إن الملك يقول: إن ما أمر به سينفذ بحذافيره. فكانت الثورة الكبرى عام ١٥٦٩.

القسم

٣

الثـــورات

الفصل الأول

ثورات متفرقة

٢٠٨ ـ أول ثورة قام بها العرب في بلنسية ١٢٥٤ :

استسلم المسلمون في بلنسية الى خايم الأول عام ١٢٣٨ ، بعد أن عقدوا معه معاهدة أقسم عليها ، وتعهد بأن يصون حياة المسلمين وأموالهم ، وأن يحترم حريتهم في ممارسة دينهم ، وعاداتهم ، ولغتهم ، وقضائهم ، بحسب شريعتهم . وأن يمنح المسلمين في الجزء المتبقي بيدهم من مملكة بلنسية هدنة مدتها ثماني سنين ، ولكن خايم لم يحترم عهده بمهادنة زيان أمير بلنسية ، وقرر بعد أن استتبت له الأمور أن يستولي على ما تبقى من المملكة فكان له ما أراد ثم نقض خايم العهد مرة أخرى إذ حول بعض المساجد الى كنائس أو الى ملكيات تابعة للكنائس .

واستدعى خايم أعداداً من المسيحيين ليستقروا في بلنسية وما حولها من المدن ، في حاولة منه لترسيخ أقدام الفتح ، فبدأ النصارى بإزعاج المسلمين وإساءة معاملتهم . وساهم خايم في التضييق على العنصر الاسلامي ، وأطلق الحرية للنصارى وحدهم(١) ، ثم رأى عزل العناصر الموجودة في بلنسية بعضها عن بعض وهم المسلمون والنصارى واليهود ، بأن جعل لكل عنصر حياً خاصاً به . وانتقلت الملكيات العربية الى أيدي الاسبان ، عن طريق الاقطاع ، والمصادرة ، وتحول العرب من ملاك الى أجراء لدى الملاك الجدد ، وأصبحوا أدنى من غيرهم من أفراد الشعب مرتبة إذ أصبحوا نوعاً من الأرقاء(٢) .

وبدأ النصارى يسيئون معاملة المسلمين ، ويزعجونهم ، ويعتدون عليهم ؛ ولجأ المسلمون الى السلطة ، فلم تظهر أي اهتمام بشكاواهم ، فأدركوا أنه لا غنى لهم عن

---

(١) مانويل دانفيلا اي كويادو ص٢٢ .

(٢) نفس المصدر ص٢١ .

الاعتماد على أنفسهم، والدفاع عن حقوقهم. ولما تزايد الضغط عليهم، من قبل الملك، والحكومة، والكنيسة، والشعب، اندلعت نيران ثورتهم الأولى في منطقة بلنسية عام ١٢٥٤م، وتولى زعامة الثورة أمير إحدى المناطق التابعة لبلنسية، وتسميه الروايات الاسبانية الأزرق (أو اليزرقي). واستولى الثوار فوراً على عدد من القلاع والحصون بين (شاطبة) و (دانية) و (اليقنت)، وسيطروا على المنطقة الجبلية جنوبي نهر (شُقر)، وبقيت الثورة محصورة في هذه المنطقة بعض الوقت. ولكنها سرعان ما امتدت الى جميع نواحي المملكة بسبب خطأ ارتكبه الملك. إذ إن الملك أسرع الى بلنسية لمعالجة الموقف بعد أن بلغه خبر اندلاع الثورة، ودعا مجلس التاج أو النواب (الكورتس) للاجتماع به، وأعلن فيه خطته في معالجة الثورة. وقال للأعضاء إنه ينوي القيام بتحصين بعض المواقع الرئيسية، وخصوصاً شاطبة، لتكون نقاط ارتكاز له ولجيشه، في العمليات المقبلة. ثم بعد ذلك يعمد الى طرد المسلمين جميعهم من مملكة بلنسية، وإحلال النصارى محلهم، وهلل الخوارنة والبورجوازيون لهذا المخطط، بينما وقف أمراء الاقطاع يعارضونه لأنه سيلحق الخراب بهم، وبالمملكة كلها.

ولكن رأي الملك، ورجال الدين، وممثلي العامة، تغلب على رأي الاقطاعيين، فأمر الملك العرب بالنزوح من المملكة، وسمح لهم بأن يحملوا معهم ما يستطيعون حمله من أموالهم ومتاعهم. ولما علم العرب بهذا القرار تحرك منهم قرابة ستين ألفاً، ممن شملهم قرار الطرد، واستولوا على ١٢ حصناً، وبذلك اتسع نطاق الثورة اتساعاً كبيراً شمل المملكة كلها. ويبدو أن بعض المقيمين في أطراف بلنسية، تخاذلوا وداخلهم الوهن والشك في امكان نجاح الثورة، ففضلوا مفاوضة الملك على النزوح، وتم الاتفاق على السماح لهم بذلك. وقد قدر الملك نفسه عدد النازحين بقوله: «إنهم كانوا يغطون الطريق لمسافة خمس مراحل».

أما الأزرق، فإنه تابع نضاله في المنطقة الجبلية، ولقي عوناً كبيراً من أمير غرناطة، واستمرت ثورته ثلاث سنوات، أتعب فيها ملك أراغون، وأقلق راحته. ولما عجز الملك خايم عن اخضاع الثوار عمد الى الحيلة، فاتصل بالثائرين، واتفق معهم على هدنة لمدة معلومة، ثم أغرى أحد قادة الأزرق لبيع كميات من المؤن المدخرة في القلاع الثائرة، على اعتبار أن الهدنة تمتد الى ما بعد موسم المحاصيل، ومن الممكن تعويض هذه المؤن، حينما تنزل المحاصيل الجديدة. وانطلت الحيلة على القائد المسلم، فباع كميات كبيرة من مؤن حصونه، ولما تأكد الملك من ذلك قام

بمهاجمة الحصون التي قلت مؤونتها، ولم تعد تستطيع احتمال حصار طويل الأمد. فأخضعها، واضطر الأزرق بعد استسلام كثير من الحصون الخاضعة له، الى مفاوضة الملك في أواخر عام ١٢٥٧، وتم الاتفاق على أن يسمح الملك له ولمن يريد من الثائرين، بالانسحاب الى مملكة غرناطة، وأن يعفو الملك عن الآخرين الذين يريدون البقاء في أرضهم.

٢٠٩ ـ ثورة العرب في مملكة قشتالة ١٢٦١ ـ ١٢٦٦:

بدأ العرب يشعرون بثقل الحكم الاسباني عليهم، وأدركوا أن الاسبان لن يتقيدوا بعهد ولا ميثاق، وأنهم لن يسمحوا لهم طويلاً بممارسة حرياتهم الدينية والشخصية، فأخذ المقيمون منهم في منطقة الغرب، وجنوبي الأندلس، بالعمل سراً على تهيئة ثورة تقوم في وقت واحد، في جميع المناطق، وتنادي بشعار ابن الأحمر أمير غرناطة، وتعلن الانضمام الى مملكته. وبذلك يصعب على ملك قشتالة ضربها في مهدها، واخضاعها كلها دفعة واحدة. وعلم سكان مملكة مرسية بالتأهب للثورة، وكان قد نزح إليهم عدد كبير من مملكة بلنسية إثر الثورة التي قامت فيها، فاستشعروا القوة والقدرة على الانضمام الى حركة الثورة في منطقة الغرب، إذا ما نشبت، واضطروا ملكهم محمد بن هود على أن يشترك فيها برغم كرهه الشديد لابن الأحمر.

تمت جميع الاتصالات بين مدبري الثورة في طول المنطقة وعرضها، بسرية تامة، فلم يشعر الاسبان بشيء مما يدبر ولذلك لم يتخذوا اهبتهم واستعداداتهم لمواجهة الموقف. ولم يشعروا إلا والثورة تندلع في صيف عام ١٢٦١، والثوار ينقضون على جميع الحصون في المنطقة الممتدة بين مرسية وشريش، ويقضون على مقاومة الحاميات الاسبانية فيها؛ ويتسلمون زمام الأمور. ورفعوا علم غرناطة، وأعلنوا انضمامهم الى سلطة ابن الأحمر، فأسرع ابن الأحمر في إرسال عدد من قادته وكبار ثقاته الى هذه الحصون، لتنسيق أعمال الدفاع عنها.

كان ألفونسو ملك قشتالة في (شقوبية)، حين بلغه خبر الثورة، فأرسل الى ابن الأحمر يطلب إليه الاستعداد للاشتراك الى جانبه في اخضاع المناطق الثائرة. وكان ابن الأحمر يتوقع مثل هذا الطلب وفقاً للمعاهدة المعقودة بينه وبين قشتالة، وهيأ رده عليه. وقد تضمن رده أن شعبه لا يمكن أن يسمح له بالقيام بدور في هذه المعركة، وقد

يضطره الضغط الشعبي الى اتخاذ موقف الى جانب الثائرين. وإنه إذا ما أقدم على شيء من ذلك فإنه قد يقدم عليه مكرهاً بالرغم من ارادته. ولم يرق هذا الجواب لألفونسو، واعتبره اعلان حرب من جانب ابن الأحمر، فقرر الاعتماد على نفسه، وشرع في جمع الجيوش.

وبانتظار اجتماع الجيوش إليه، واتمام الاستعدادات، أمر الملك قادة الفرسان في مقاطعة الأندلس بالاغارة على أراضي مملكة غرناطة وازعاجها، وانتهى ما تبقى من عام ١٢٦١، بالاستعداد من الجانبين، وبالمناوشات الصغيرة. وأفاد الثائرون من هذه الفترة فقووا حصونهم، واستعدوا للمقاومة. وأدرك ألفونسو أنه سيتعذر عليه اخضاع الحصون جميعها دفعة واحدة، فقرر تأجيل الهجوم على منطقة مرسية، والالتفات الى منطقة الغرب. ولكنه رأى أن يستنجد بحميه دون خايم ملك أراغون طالباً عونه في مهاجمة مرسية، واشغال ثوارها، لئلا يضموا قواهم الى قوى ثوار الغرب. وقبل خايم المهمة بسرور لكيلا يسمح بامتداد نيران الثورة الى مملكة بلنسية الخاضعة له. وشرع كل منهما يعمل من ناحيته.

وجه ألفونسو قواته كلها الى وادي النهر الكبير، وضرب الحصار حول مدينة شريش في أيار ١٢٦٤، واستمر الحصار ستة أشهر، أبلت فيه حاميتها أشرف البلاء. ولكنها اضطرت أخيراً أمام الضغط المتزايد عليها، وأمام نقص المؤن والأقوات والذخائر، الى المفاوضة لتقرير شروط الاستسلام، وتم الاتفاق بين الجانبين في ٩ تشرين الأول ١٢٦٤. وكان مما تم الاتفاق عليه أن يسمح الملك للحامية وللثائرين بالانسحاب بأنفسهم، على أن يتركوا أموالهم وأملاكهم، دون أن يأخذوا منها شيئاً، فانسحب جميع السكان ولم يبق أحد منهم في شريش. أما ابن الأحمر فانه لم يتمكن من تقديم العون للحركة، ولم يستطع أن ينجد أهل مرسية، ولا أهل شريش، لأنه واجه في ذلك الحين عصياناً من حكام وادي آش، ومالقة، وقمارش، بحجة أنه لم يعرف أقدارهم، ولم يوفهم حقهم من الاحترام.

وأخذ الحكام الثلاثة المنشقون يتصلون بالملك ألفونسو، عدو أمتهم وعدوهم، في هذا الوقت الخطير من تاريخ أمتهم في الأندلس، ودفعهم قصر النظر، وسوء الطوية، الى الاستمرار في الضغط على ابن الأحمر، حتى جمده الخوف تماماً، ومنعه من القيام بأي عمل يمكن أن يخفف الضغط عن الثائرين، فتركهم لمصيرهم. وبعد سقوط (شريش)، اتجه الفونسو الى حصار المدن الأخرى فأخذت تسقط بيده تباعاً.

وكان دفاع حاميات مدن (أركوش) و(ليبريخا) و(شذونة) و(شلوقة) و(قادس)[1]، بطولياً عنيداً، ولكنها لم تستطع الصمود طويلاً وحدها، في مواجهة قوى اسبانية ضخمة، فاستسلمت الواحدة تلو الأخرى. وكانت قادس آخر مدينة تستسلم في الغرب، إذ سقطت عام ١٢٦٦. وكان الشيء الوحيد الذي استطاع الثوار الحصول عليه من الاسبان هو السماح لهم بالانسحاب بأنفسهم، والتخلي عن جميع ما يملكون من مال وعقار وماشية، إذ كان أخوف ما يخافه سكان المدن الثائرة هو أن يفرض عليهم الرق، فانسحبوا الى افريقيا والى غرناطة.

٢١٠ ـ سقوط مرسية:

قبل خايم بالمهمة التي أوكلها إليه صهره ألفونسو، وتحرك بسرعة عام ١٢٦٣ نحو اليقنت فاحتلها، ثم احتل قرطاجة، وقد لاقت اليقنت معاملة أفضل من المعاملة التي لقيتها قرطاجة. وعلل المؤرخون سبب هذا التفاوت في المعاملة التي لقيتها البلدتان الثائرتان بأن الجيش الذي اتجه الى (قرطاجنة) كان مؤلفاً من قوات مشتركة من القشتاليين والأراغونيين، وكان القشتاليون أكثر عدداً ففرضوا قانونهم، وطردوا المسلمين من المدينة، ولم يسمحوا لهم بأن يأخذوا غير منقولاتهم.

أما الجيش الذي هاجم اليقنت فكان الجيش الأراغوني وحده، بقيادة دون خايم. وأراد خايم أن يجازي صهره على دسائسه حينما احتل الأراغونيون مدينة بلنسية. لذلك أراد إغراء المسلمين في مدينة (اليقنت) بحسن المعاملة، فقدم لهم شروطاً للاستسلام، أفضل بكثير مما يتوقعون، وأفضل مما لاقاه إخوانهم في (قرطاجنة) و(الغرب)[2]. وبعد احتلال (اليقنت)، أرسل الملك ابنه بيدرو، الى مرسية على رأس جيش، فقاومتهم المدينة مقاومة عنيفة باسلة، وردت جميع الهجمات التي قام بها

---

(١) هذه المدن هي اليوم:
اركوش (Arcos)، ليبريخا (Lebrija).
شلوقة (San lucar)، شريش (Medina Sedonia)
اليقنت (Alicante).

(٢) ومقاطعة الغرب في جنوبي البرتغال اليوم (Aigarve)، مرسيه (Murica).

المهاجرون.. واستمرت مرسية في مقاومتها حتى عام ١٢٦٥ .

وحينما كانت القوات الآراغونية تحاصر مرسية، كانت قوات أراغونية وقشتالية أخرى، تخضع باقي المدن في منطقة مرسية بعد أن حاولت اغراءها بالعفو. ولما تم استسلام أكثر مدن المنطقة، شرع الملك خايم في إخراج الحاميات القشتالية من هذه المدن، ليضع مكانها حاميات أراغونية، فبدأ صهره يقلق، ويشك في أن خايم يعمل لحسابه الخاص، وقدر بأنه سيضيع كل شيء إذا لم ينه الموضوع في أقرب وقت. لذلك شرع في الاتصال بابن الأحمر، وحثه على التوسط لدى ثوار مرسية ليعودوا الى الطاعة.

ومقابل ذلك تعهد الفونسو بأن يحمل حكام الحصون المنشقين على ابن الأحمر على التفاهم معه والعودة الى طاعته. وجرى لقاء بين ابن الأحمر والفونسو في قلعة ابن الوزير قرر مصير مرسية وسكانها بشكل نهائي إذ تنازل ابن الأحمر عن كل مطلب له ولأولاده في هذه المدينة، وتعهد بأن يبذل جهده لاقناع الثوار بفتح أبواب المدينة للقشتاليين، على أن يكتفي بنفي زعماء الثورة فقط، وأن يعزل محمد بن هود ملك مرسية مع ضمان حياته، ويُنصب مكانه في الملك أخوه محمد أبو عبد الله (أبو جعفر)، ويعاد الى تطبيق معاهدة الاستسلام السابقة، دون انتقاص شيء منها. وتُضْمَنُ للمسلمين حريتهم الدينية، ويبقى على نظام الضرائب المتعارف عليه سابقاً بين المسلمين. ويترك ثلث ايراد الضرائب للملك العربي، ولكن الذي حدث هو أن مرسية كان يحاصرها الجيش الأراغوني، وقد بذل دون خايم جهده لاغراء السكان بالاستسلام إليه، وحرص على عدم تخريب البساتين والمزارع حول المدينة، لكيلا ينفر السكان منه. وأخيراً استسلمت المدينة إليه في ١٣ شباط ١٢٦٦ .

وتتضارب الأقوال حول ما حدث حين دخول الجيش الأرغواني الى مرسية، والذي يبدو هو أن ملك أراغون فرض في أول الأمر ضريبة حرب على المدينة، وسمح للحامية بالخروج، واعطاها أماناً لمدة يوم واحد، ثم نقض الاتفاق، ووزع نصف المنازل بين فرسان جيشه، وحصر العرب في حي (الرشاقة) (Arrejaca)، كما يبدو أنه شك في إمكانه الاحتفاظ بالمدينة فسلمها الى صهره بعد أيام، واكتفى بالاحتفاظ بخمسة من أقضيتها.

وتقول الروايات الاسبانية إن ألفونسو ترك الفرسان الأراغونيين والقطالونيين في البيوت التي سلمها إليهم ملكهم، وعوض أصحاب البيوت العرب من حسابه الخاص.

وفي ٥ حزيران ١٢٦٦، صدر عن الملك الجديد محمد بن هود، أمر ملكي يقضي بأن يخلي المسلمون البيوت التي لهم في الحي المسيحي، وأن يخلي المسيحيون البيوت التي يسكنونها في الحي الإسلامي (حي الرشاقة)، وأقيم جدار فاصل بين الحيين، لمنع السرقات والتعديات والاصطدامات التي كان المسلمون يشكون منها.

وبعد هذه الثورة أخذ ذكر بني هود يتلاشى شيئاً فشيئاً، ولم يعد يتحدث عنهم المؤرخون، وبقيت ادارة الحي العربي (الرشاقة) في مدينة مرسية بيد بني هود حتى عام ١٣٠٨م، إذ انتقلت بعد هذا التاريخ الى أيدي القشتاليين.

وهكذا انتهت هذه الثورة بالاخفاق، بعد أن دامت قرابة ثماني سنوات، وكان مقدراً لها النجاح لو أنها لقيت من بني الأحمر، ومن الممالك الاسلامية في شمالي أفريقيا، عوناً كافياً. ولكن خيانة حكام وادي آش ومالقة وقمارش، وإعلانهم العصيان على ابن الأحمر، بسبب أعذار واهية، وعقدهم معاهدة مع ألفونسو، شلت حركة ابن الأحمر، وجمدته مكانه، فتمكن الاسبان من اخضاع المنطقة مدينة إثر مدينة. ولم ينته عصيان القادة على ابن الأحمر إلا بعد أن استنفد العصيان أغراضه، فأمرهم الفونسو بأن يعودوا الى الطاعة فعادوا.

وكان من نتيجة هذه الثورة الفاشلة أن انسحب أكثر سكان منطقة الغرب المسلمين الى غرناطة وشمالي إفريقيا، تاركين كل شيء في الأرض التي خرجوا منها، فانقرض العنصر العربي في هذه المنطقة أو كاد.

٢١١ ـ الثورة الثانية في مملكة بلنسية (١٢٧٦ ـ ١٢٧٧):

لبث العرب هادئين في مملكة بلنسية ثماني عشرة سنة، بعد ثورتهم فظن دون خايم أن الأمور استتبت له، وتقول الروايات الاسبانية إن الملك كان شخصاً مستنيراً، يدرك فائدة الاحتفاظ بوجود السكان العرب كيدٍ عاملة، ومادة للانتاج، فسن قانوناً ضمن حياة المسلمين، وكفل لهم حرية محددة، ومنحهم حق الانتفاع بجزء صغير من نتاج عملهم، ولكنه استمر في معاملتهم كالبهائم[1]. وبعد أن هدأت الأمور بدأ الملك يشعر بثقل الوعد الذي قطعه للبابا، وأقسم عليه أمام مذبح العذراء بأن يمحو العنصر العربي من مملكته.

---

(١) الكونت سيركور ج١ ص٢٢٨.

إلا أن البابا (كليمانت الرابع)، أخذ في ملاحقة الملك لابادة المسلمين، وأعلمه بواسطة أسقف بلنسية بأنه ملتزم أمام الله، بأن يشن على العرب حرباً لا هوادة فيها، وأن عليه أن يوجه اضطهاده وملاحقته الى المسلمين الموجودين في مملكته، وأن يطهر أرضه منهم. وكان النبلاء تقوم استثماراتهم الزراعية على أكتاف العرب، لذلك كانوا يعارضون في اضطهاد العرب لكيلا يحملهم الاضطهاد على الهرب، فتتعطل مصالحهم الخاصة.

وتجاه الضغط المتناوب الواقع على الملك قرر أن يبقي العرب حيث هم، لكنه رفع عنهم حماية الدولة، وتركهم تحت رحمة الأشقياء الذين بدؤوا يتخطفونهم، ويبيعونهم عبيداً في سوق النخاسة، تحت سمع الدولة وبصرها، وهي لا تعارض تلك التصرفات ولا تستنكرها، وذهبت شكاوى المسلمين واحتجاجاتهم على هذا الظلم الرهيب أدراج الرياح. ولما يئس المسلمون من كل انصاف قرروا الثورة، فلم يشعر الأراغونيون إلا والثورة تندلع فجأة في جنوبي نهر (شُقر) في شهر آذار ١٢٧٦، واحتل الثائرون دفعة واحدة ٤٠ حصناً ومعقلاً، وأرسلوا الى ابن الأحمر يستمدونه ويسألونه العون والنجدة.

كان الملك خايم في ذاك الحين في مملكة بلنسية، ولكن لم تكن لديه قوات كافية يستطيع أن يخضع بها المنطقة الثائرة، وقوات مملكة بلنسية تكاد لا تكفي لأكثر من مراقبة المناطق الثائرة، ومنع المناطق الأخرى من الانضمام الى الثوار، وقوات أراغون وقطالونيا، التي أرسل الملك بطلبها، لا يمكن أن تصل قبل مضي شهر، فقرر كسب الوقت، وأخذ الأمر بالحكمة والمفاوضة الى أن يصبح في حالة أفضل: فأعلن للثائرين بأنه يمنح هدنة لجميع الحصون التي لا ترفع علم غرناطة. أما الحصون التي ترفعه فانه سيهاجمها فوراً. وبالفعل فانه شرع بما لديه من قوات بمهاجمة الحصون التي رفعت علم غرناطة، وأخذ في إزعاجها ليمنع عنها المؤن، وليمنعها من ترميم ما تخرب من حصونها. ولما تجمع لديه بعض القوات تحرك خايم في شهر حزيران الى شاطبة ـ مركز المنطقة الثائرة ـ وشرع في حصارها، وهو يقصد بذلك قطع الاتصال بين القوات العربية المتمركزة في وادي شقر، وبين القوات المتمركزة في جبال (أليقنت). وفي أثناء ذلك وصلت قوات عربية من غرناطة، ومتطوعة من إفريقيا بقيادة الأزرق ـ قائد ثورة بلنسية السابقة عام ١٢٥٤ ـ وبذلك أصبح المسلمون في مركز قوي يمكنهم من تهديد الجيوش النصرانية تهديداً خطيراً، ولكن الأزرق قتل

غيلة وغدراً في كمين أمام حصن الكوي (Alcoy) فتسلّم ابنه القيادة، ولكن هذا قتل أيضاً في كمين وبذلك حرمت الثورة من خبرة الأزرق وكفاءته وقدرته على جمع الكلمة، ولم يفت مقتل الأزرق وابنه في عضد الثورة، فقد باغت الثائرون حامية قلعة الكوي، في كمين نصبوه لها، وقضوا عليها تقريباً، فبقي الحصن بلا قوة تدافع عنه. واندفع المسلمون إثر ذلك يقتحمون المسالك والممرات الممتدة جنوبي نهر شُقر، وسيطروا عليها، وزحفت جموعهم شمالاً حتى بلغوا أسوار بلنسية، وتصدت لهم قوة من فرسان (منظمة مونتريال) في وادي البيضاء فهزموها هزيمة منكرة، وقضوا على أكثر رجالها، وساءت حالة جيوش أراغون، ولم يبق لديها عدد كاف للدفاع عن شاطبة.

وحينما كانت الثورة في أوجها مات ملك أراغون خايم الأول في ٢٧ تموز ١٢٧٦، وأوصى ابنه أن يتابع الحرب ضد المسلمين الى أن يقضي عليهم ويبيدهم، وطلب أن يترك جثمانه مسجى في كنسية بلنسية الى أن تنتهي الحرب. وتسلم بيدرو زمام الأمور، ولكنه لم يعمل بما أوصاه به أبوه، وإنما شرع في مفاوضة رؤساء الثورة، وكانوا أربعة، واتفق معهم على هدنة مدتها ثلاثة أشهر، إلا أنه استثنى من الهدنة ستة حصون قدر أنه يستطيع إخضاعها في فصل الخريف، إذا ما أتلف ما حولها مما تتمون به.

غادر بيدرو شاطبة في شهر آب الى سرقسطة، حيث توج فيها بتاريخ ١٦/ ١١/ ١٢٧٦، وبقي في أراغون يدبر أمور المملكة حتى نيسان ١٢٧٧، ولما عاد الى بلنسية في شهر نيسان، أعد عدته لمهاجمة الحصون الستة ،التي استثناها من شروط الهدنة، فهاجمها، وأتلف ما حولها من مزروعات، ومصادر القوت والمؤن. ولم يكن في هذه الحصون كميات من المؤن تكفيها لمدة طويلة، لذلك لم تجد حاميتها بداً من الانسحاب. وقد قدر مجموع ما فيها من الرجال بثلاثين ألفاً، انسحبوا مع عائلاتهم الى حصن (مونتيسا). وكانت (مونتيسا) موقعاً حصيناً لكن اتصاله مع من حوله صعب، كما كان يصعب تأمين المؤن له. وكان الملك بيدرو ينتظر اجتماع الثوار في هذا الحصن ليحيط بهم ويقضي على الثورة دفعة واحدة، إلا أنه خاف من وصول قوات مغربية لنجدة الثوار.

وأراد الملك أن يقضي على الثورة قبل أن تصل النجدات، فهاجم الحصن بعنف، لكن حاميته التي كان يذكي حماستها ما تنتظره من وصول النجدات المغربية إليها، وخوفها من الانتقام منها، كانت تدافع ببسالة فائقة ،وحماسة كبيرة، فلم

يستطع الملك أن يحقق أي نصر عليها، لذلك قسم قواته بشكل يستطيع معه محاصرة الحصن ورد القوات المغربية إذا وصلت لنجدة الثوار. وبقي الحال كذلك الى آخر شهر أيلول ١٢٧٧، وحينئذ تأكد الملك أن ملك مراكش مشغول عن الثوار بأموره الداخلية، وأنه تركهم لمصيرهم، فعاد الملك وجمع قواته وشن بنفسه هجوماً على هضبة (مويلا) (Muela) التي تشرف على الحصن، والتي تعتبر مفتاحاً (لمونتيسا) (Mon-tesa)، فقابله المدافعون بجرأة وبسالة واصرار على المقاومة، ولكن الملك أصر على التقدم، تتبعه صفوة مختارة من جنده، واستمر في زحفه الى أن تمكن من احتلال الهضبة بعد أن تقطع درعه وسيفه، وكان ذلك في يوم ٢٩ أيلول ١٢٧٧.

وتقول الرواية الاسبانية إن هذا الهجوم الصاعق، أرهب الثائرين فلم يفكروا في الانسحاب الى مونتيسا، والدفاع عنها وطلبوا الاستسلام دون املاء شروط، فوافق الملك على نزع سلاحهم ولم يعاقبهم، ووزعهم على المملكة لاعمارها، خلافاً لما أوصاه به أبوه من ابادة جميع المسلمين والقضاء عليهم في مملكة بلنسية.

وبعد استسلام مونتيسا، اضطرب أمر الثورة وأخذت في الاضمحلال والتلاشي.

٢١٢ ـ ثورة غرناطة عام ١٤٩٩:

عينت الملكة ايزابيلا عام ١٤٩٥ قسيساً يدعى (فرانسيسكو خيمنس دو سيسنيروس)، كردينالا في طليطلة. ثم توسط خيمنس هذا لدى الملكة، فعينت صديقه القسيس (دي ديسا) (De Dassa) عام ١٤٩٨م، محققاً عاماً، ومعرفاً للملكة. وعن طريق هذا الصديق اصبح خيمنس مسيطراً على ديوان التحقيق.

وفي عام ١٤٩٩م، استدعت الملكة خيمنس الى غرناطة ليتولى أمر المسلمين فيها، فباشر هذا باجبار المسلمين على التنصر. واحرق مليون كتاب عربي (على ما تقوله الروايات[1]). وأخذ في محو اللغة العربية، واضطهد رجال الدين المسلمين. إلا أنه بالرغم من جميع الجهود التي بذلها خيمنس، فإنه لم يتوصل الى النتيجة

---

(١) يقول الكونت سيركور أن بعض الروايات قدرت ما احرقه الكاردينال بحوالي ١,٣٠٠,٠٠٠ كتاب (ج٢ ص٤٢).

التي كان يحلم بها، إذ بقي إقبال الناس على التنصر محدوداً.

ولكن خيمنس كان يريد مجداً رخيصاً، فآلمه فشله، وزاد حنقه على المسلمين، وخصوصاً على العائلات التي كانت مسيحية منذ وقت قريب قبل سقوط غرناطة ثم تحولت الى الإسلام، وكانت ترفض العودة الى النصرانية مما كان يثبت أنها إنما تحولت الى الإسلام عن عقيدة وقناعة بمبادئه وسموّ تعاليمه، دون إكراه من أحد. ولهذا فقد قرر خيمنس أن يلجأ الى العنف ليستر فشله في اقناع المسلمين بترك دينهم واعتناق النصرانية.

٢١٣ ـ اجتهاد غريب لمحاكم التفتيش:

كانت دواوين التحقيق (محاكم التفتيش) تأخذ باجتهاد غريب، سبق أن توصلت إليه، واصبح جزءاً من القانون الذي تحكم بموجبه في الدعاوى المعروضة عليها. وهذا الاجتهاد يعتبر ابناء المرتدين عن النصرانية، واحفادهم، وانسالهم جميعاً، مرتدين مثل الآباء، ومرتكبين لجريمة الارتداد، التي تطولها ملاحقات ديوان التحقيق، ويخضعهم لنفس العقوبة التيارتكبها جدهم المرتد الأول. فتذرع خيمنس بهذا الاجتهاد غير المنطقي، وأراد أن يطبقه على المسلمين في غرناطة، على اعتبار أن آباءهم وأجدادهم كانوا مسيحيين تابعين للكنيسة، وبما أن الأحفاد يرفضون العودة الى المسيحية، بعد أن نصحهم، ووعظهم، وذكّرهم بأصلهم المسيحي، فقد اعتبرهم هم أيضاً مرتدين. ووجد الكاردينال من هذا الباب منفذاً يتوصل منه الى خرق بنود معاهدة غرناطة، والى إرواء حقده. واطفاء نار ثورته على أولئك المسلمين العنيدين، الذين رفضوا دعوته واحبطوامسعاه.

٢١٤ ـ رد المسلمين:

ولكن المسلمين ذوي الأصول المسيحية الثابتة: ردوا بأن آباءهم دخلوا منذ سنين طويلة في الإسلام، طوعاً ودون ضغط أو إكراه لما رأوه فيه من تسامح؛ وأن الأبناء نشؤوا على الإسلام، ولا يعرفون لهم دينا غيره. وإذا جاز العودة الى الأصول والأجداد، لبلغ الأمر بالإنسان الوصول الى ما قبل المسيحية، يوم كان الناس كلهم

وثنيين. وإذاً فالدين المسيحي طارىء على الاسبان مثل الدين الاسلامي، لا فرق بينهما الا في عدد السنين. وإذا سمح الانسان لنفسه بالرجوع الى سجلات التاريخ، للبحث فيها عما كان عليه كل واحد، لتوصل الى اشياء سخيفة وغير منطقية.

وعلى كل حال فإن معاهدة غرناطة كانت صريحة في هذا الصدد، وهي تحمي الاشخاص الذين كانوا هم أنفسهم نصارى ثم أسلموا، وما زالوا يوم توقيع المعاهدة أحياء. وهذا يدل على أنه كان هناك كثير من المسيحيين قد أصبحوا مسلمين بمحض اختيارهم وارادتهم، وهم يصرون على البقاء على الإسلام، لذلك جاء في المادة ٣١ من معاهدة غرناطة: «تقرر واتفق على أنه إذا أصبح أحد من النصارى ـ رجلا كان أم امرأة ـ مسلمًا قبل توقيع الاتفاق، فلا يستطيع أحد من الناس شتمه أو اهانته بأي شكل كان. وإذا فعل أحد ذلك فإنه يصار الى معاقبته من قبل سموهما (أي من الملكين)». ولكن هذه الردود لم تقنع الكردينال المتعنت، وأصر على الملاحقة.

٢١٥ ـ انتهاك الحرم في حي البيازين والثورة:

بدأ أعوان خيمنس بملاحقة العائلات الكثيرة، ذات الأصول المسيحية المعروفة في غرناطة، وقبضوا على كثير من الرجال والنساء، وزجوا بهم في السجون. وكان هناك مفوض للشرطة يدعى (باريو نويفو) فظ غليظ القلب، قاسي التصرف، أساء معاملة المسلمين فكرهوه. وقد دخل في يوم من أيام عام ١٤٩٩ حي البيازين للقبض على إحدى النساء المسلمات، وكانت هذه السيدة ابنة رجل سبق له أن اعتنق الإسلام، ثم تزوجت رجلاً مسلمًا، وأصبح لها بنون وبنات منه. فطرق المفوض المذكور الباب، هو وتابع للكاردينال، وقبضوا عليها وعلى أولادها واستاقوهم جميعاً بالقوة والاكراه أمامهم الى السجن. فتجمع الناس في الحي، حول هذا المشهد المؤلم، الذي لم يعرف العرب مثله، وانطلقت استغاثات المرأة طالبة من إخوانها حمايتها من هذا الاعتداء الصارخ المهين من المفوض، ومن القسيس تابع الكردينال، وتدخل المسلمون محاولين حمل المفوض وصاحبه على ترك المرأة وأولادها، لأنها لم ترتكب جرماً، ولم تقترف إثمًا. ولكن المفوض وصاحبه ردا عليهم ردا عنيفاً وهدداهم بالويل والثبور، فحدثت مشادة، رمى فيها أحد المسلمين المفوض بحجر فقتله، وهرب القسيس ولجأ الى أحد بيوت المسلمين، فاخفته السيدة المسلمة صاحبة البيت تحت

سريرها، وانقذته من الموت. وأثر ذلك سرت الثورة في نفوس المسلمين، وانطلق الناس يتنادون الى السلاح من أجل الحفاظ على امتيازاتهم، ودينهم، وحريتهم. وأسرع المسلمون فاحتلوا ابراج حي البيازين والقصبة، واقاموا المتاريس بسرعة. وقبل أن يعرف القائد العام (دو تانديلا) بما حدث في البيازين، كان المسلمون قد سيطروا على الموقف في منطقتهم.

ولما أقبل الليل، قدر القائد العام أن المسلمين سيهاجمون الكردينال، مشعل الفتنة ومسببها، وكان يقيم في قصر محصن، من حي (هنارس)، فأرسل إليه مفرزة من الجند لتصحبه الى الحمراء حيث يكون في مأمن من الاعتداء عليه فرفض الكردينال التحرك من بيته، وتظاهر بالبطولة، قائلاً إنه يريد الفوز بالشهادة. وفي الليل هاجمه المسلمون، وحاصروا بيته، ولكن البيت كان جيد التحصين، وفيه عدد وافٍ من الجند المدافعين عنه. واستمر القتال طوال الليل حول البيت. وفي الصباح أدرك الكردينال أن الموضوع جد، فهرب الى الحمراء، ولم يعد يفكر في أجر الشهداء بعد أن رأى أشباح الموت تطوف فوق رأسه[1].

كان القائد العام للجيش يدرك أن قوة المسلمين أكبر من قوته ففضل أخذ الأمر بالحكمة، كسباً للوقت، وشرع في مفاوضة الثائرين، ريثما تصله القوات التي أرسل بطلبها على جناح السرعة. وأرسل الى حي البيازين ترسه كتعبير عن رغبته في السلم. وأسرع المسلمون بتنظيم أنفسهم، وانتخبوا أربعين شخصاً من بينهم لتولي الادارة، والقيادة، وبدؤوا بترميم ثغرات حصونهم. وسرعان ما انضمت الى الثائرين قوات كبيرة تجمعت من كل مكان حول غرناطة، وأصبحوا على أهبة الاستعداد، ولكنهم لم يتخذوا المبادهة، ولم يباشروا الهجوم على الاسبان. وقابل عدد من الزعماء المسلمين والفقهاء القائد العام، فشرح لهم الأخطار التي تتهددهم، وتتهدد عائلاتهم، إذا ما استمروا في ثورتهم، ورفضوا الخضوع قبل أن يصل الجيش الذي سيرسله الملك. ورد عليه الفقهاء، شارحين التعديات التي وقعت عليهم، والتجاوزات التي قام بها خيمنس وأعوانه، على حرياتهم الدينية وعلى نصوص المعاهدة التي وقعها الملكان، وأقسما على احترامها هما وأنسالهما؛ وقالوا له إنهم لا يخشون شيئاً من جانب الملك، لأنهم غير ثائرين عليه، وإنما يدافعون عن شرف كلمته وتوقيعه. وكل ما يطلبون هو

---

(١) سيركور ج٢ ص٤٧.

الحفاظ على بنود المعاهدة. أما السلاح الذي بأيديهم فإنهم مستعدون لوضعه حينما ينصفهم الملك وممثلوه. وأدرك القائد بإنصافه، أن المسلمين على حق، وأن تصرفات الكردينال وعناده هما أساس الفتنة ومبعثها، فاعلن لهم أنه يتفق معهم في الرأي، لكنه لا يستطيع أن يعدهم بشيء، لأنه يعلم أن السيد الحقيقي في غرناطة هو خيمنس، بحكم مركزه الديني، وسيطرته على الملكة.

كان الملكان في اشبيلية في ذلك الحين، قد بلغتهما أنباء الثورة، وتلقى الملك تقارير عنها وعن أسبابها. فاستاء كثيراً، وعنف الملكة وقال لها: أنت التي أتيت بهذا الرجل الى غرناطة، وإنه سيضيع في يوم واحد نتائج حرب دامت عشر سنين. فكتبت الملكة الى خيمنس تعنفه بلهجة جافة، وتلومه على حماقته، وسوء تصرفه.

وأراد خيمنس أن يأخذ المبادهة،فكتب الى الملكة كتاباً مطولاً ـ قبل أن يصله كتابها ـ عرض فيه الأمر بالشكل الذي يوافق أهواءه، وكلف حامل الرسالة بأن يسرع في الوصول الى اشبيلية، وأن يسلم الكتاب الى الملكة شخصياً، أو الى سكرتيرها (المازن) وهو شخص نشّأه خيمنس، وله عليه دالة وتأثير. وكان خيمنس يقدر أن رسالته ستصل الى الملكة، قبل أن تصلها أنباء الثورة من مصدر آخر، فيكون لرسالته التأثير الأول في نفس الملكة. ولكن كتابه تأخر في الوصول، وأنباء الثورة وصلت الملكين قبل وصوله، فتهيأت افكارهما ضده.

٢١٦ ـ خيمنس يعترف بأنه دفع العرب للثورة:

ولما وصل تعنيف الملكة لخيمنس، أدرك أن الأمور لم تسر بالشكل الذي يريد. وإنجاحاً لخطته أرسل قبله راهباً الى البلاط في أشبيلية، يمهد السبيل أمامه، ويعرض الأمور بشكل مناسب، يخفف ثورة الملكين والبلاط عليه. ثم وصل خيمنس واجتمع الى الملكة، وشرح لها الأمر، وقال لها إن الحوادث لم تسبقه، وإنما هو الذي تصرف بهذا الشكل، ليقع ما وقع. وذكر للملكة أنه أخفى متعمداً براجمه عنها لكيلا ترفضها. ثم بين لها النفقات الضخمة التي أنفقها لفتن المسلمين عن دينهم، واغرائهم بالتحول الى النصرانية، وهو ما يعتقد أنه يخدم الرب. وأكد لها أنه تعمد أن يضع العرب في حالة الثورة. وأن هذه الفرصة هي أجل وأسعد فرصة لاتمام العمل الجليل الذي كان يسعى إليه، ألا وهو اجبار الناس على التنصر. وهم الآن خارجون

عن القانون، وثائرون على الملك، ولذلك يخيرون بين حكم القضاء عليهم كثائرين، وبين الرحمة ويكون سبيلها قبول تلقي العماد (أي التنصر). وقد أثرت هذه الحجة في نفس الملكة، وأخذت على عاتقها أمر اقناع الملك بها، وأخيراً وافق الملكان على المخطط الذي وضعه الكاردينال. واستبقى الملكان خيمنس في اشبيلية، وأرسلا من قبلهما شخصاً مكلفاً بتولي محاكمة من لا يريد التنصر من الثائرين.

٢١٧ ـ سير الأمور في غرناطة بعد سفر خيمنس:

بعد أن سافر خيمنس الى اشبيلية، ظهر كردينال غرناطة (تالافيرا)، وأخذ يتصل بالمسلمين ثم توجه الى حيهم في اليوم العاشر للثورة، ودخل المناطق العربية المحصنة، وتجول بين الثائرين، وتحدث معهم في العودة الى الطاعة والهدوء ثم استدعى الكونت دوتانديلا، فوصل إليه مع بعض الجنود، ولما استعد العرب للمقاومة، القى الكردينال قبعته الحمراء على الأرض تعبيراً عن الرغبة في السلام، فهدؤوا.

بدأت المفاوضات بين الجانبين، وتوصلا الى اتفاق وضعت شروطه في نفس الجلسة، لأنه لم يكن هناك تباعد في وجهات النظر، وقبل الجانب الاسباني اعتبار الثورة انتفاضة في سبيل الحفاظ على كلمة الملكين، أي عهودهما، والدفاع عنها، وأن تحتفظ المعاهدة بكل قوتها ومفعولها، كأنه لم يحدث شيء. وتم الاتفاق على أن يسلم المسلمون قاتل مفوض الشرطة، ويعودوا فوراً الى بيوتهم، بعد رفع الحواجز من الطرقات، واعادة كل شيء الى ما كان عليه. وكضمان لتنفيذ هذا الاتفاق، أو الوعد من الجانب الاسباني، قدم الكونت دو تانديلا زوجته وأبناءه، ليكونوا رهينة تحت اشراف المسلمين. وسلم المسلمون من جانبهم جميع من اشترك في مقتل مفوض الشرطة، فاحتفظ القائد العام بأربعة منهم، وأطلق سراح الباقين. وعاد الناس الى حياتهم المعتادة، ورفعت الحواجز، وانتهى كل شيء.

٢١٨ ـ نقض الاتفاق واجبار المسلمين على التنصر:

ولكن الملكين ومرسلهما، لم يقبلوا بما تم الاتفاق عليه، ولم يحترموا كلمة

الكاردينال (تالافيرا)، ولا كلمة القائد العام، واصروا على أن يخير العرب بين العماد وبين العقاب، فعادت روح الثورة والتمرد، وتعالت لدى المسلمين، وخشي الملكان العاقبة، فعدلا الأمر وجعلاه الخيار بين الهجرة من البلاد، وبين التنصر. وقد أصيب المسلمون بخيبة أمل من جراء اصرار الملكين على عدم قبول الاتفاق، ولكنهم مع ذلك أعادوا الرهائن الى القائد العام، مقدرين موقفه النبيل. وهرب الممثلون الأربعون الذين انتخبهم سكان غرناطة، إبان الحوادث لادارة العمليات، بعد أن اصبحوا معروفين لدى السلطات الاسبانية، والتجؤوا الى البشرات، وانضموا الى عصابات المنفيين، يبثون روح الثورة في المنطقة، ويشددون النكير على النصارى. ونتيجة لاصرار الملكين على رأيهما، هاجر كثير من المسلمين الى افريقيا نجاة بدينهم، أما الآخرون فبقوا حيث هم منتظرين نتائج جهود قادتهم، في اشعال الثورة، في البشرات.

٢١٩ - ثورة البشرات:

انضم الهاربون من غرناطة الى عصابات المنفيين في البشرات، حتى أصبح عددهم في أواخر عام ١٤٩٩، قرابة ١٥٠٠رجل، واتخذوا مدينة قوجر (Gujjar) الحصينة الواقعة في سفح جبل الثلج، قاعدة لهم. ومنها بدؤوا يقومون بهجماتهم على الحاميات النصرانية في مرج غرناطة. وكلما حقق الثائرون نصراً، أو أوقعوا بالحاميات الاسبانية هزيمة، شدَّد ذلك من عزائم إخوانهم في غرناطة والمناطق الأخرى، ودفع بهم الى الانضمام الى الثائرين بغية الانتقام من الظالمين. وفي مطلع عام ١٥٠٠، فوض الملك القائد العام، بمهاجمة مركز المنفيين، في قوجر، فجمع دو تانديلا قوات كبيرة وسار بها في دروب وعرة صعبة المسالك، حتى وصل أمامها. ولما شعر الثائرون بحركة الجيش الاسباني فتحوا أقنية المياه على الأرض التي يحتلها الجيش فاغرقوها، ولم تعد تستطيع الخيل الجولان والحركة، وحينئذ انقض الثائرون على الاسبان ونشبت معركة عنيفة، تكبد فيها الإسبان الخسائر. ولكن الجيش كان أكثر عدداً وعدة من الثائرين، وكان يملك الأسلحة النارية، وبعد قتال مضن طويل، اضطر العرب الى التراجع والانسحاب، فدخل الاسبان المدينة، وقتلوا جميع من فيها من نساء وأطفال وشيوخ. أما المحاربون فقد لجأ قرابة ٢٣٠٠ شخص منهم الى حصن قائم فوق

صخرة، واعتصموا فيه. ولكن لم تكن لديهم أقوات كافية، وكان عددهم كبيرا، فلاحقهم الاسبان وأحاطوا بهم، ثم بدؤ وا في مهاجمة الحصن، ودافع الثائرون دفاعاً مجيداً وردوا جميع الهجمات التي شنت عليهم، مكبدين العدو أفدح الخسائر. ودام الأمر كذلك بضعة أيام، حتى اضطرهم الجوع والعطش الى مفاوضة كونت (تانديلا)، لانقاذ أنفسهم من الهلاك. وكان كل ما استطاعوا الحصول عليه هو ضمان حياتهم فاسترقهم الاسبان.

٢٢٠ - اندلاع الثورة في مناطق اخرى من البشرات عام ١٥٠٠:

عمل القادة الغرناطيون على تحريك الثورة في نفوس رجال البشرات الاشداء، واقنعوهم بأن السكوت على الضغط الذي يمارسه الاسبان، وعلى الخرق المستمر لبنود معاهدة غرناطة، سيشجعهم على التمادي في غيهم، وعلى تمزيق ما تبقى من بنود المعاهدة، وسيؤدي الأمر بالاسبان الى إجبار عرب البشرات والمناطق الأخرى على التنصر، كما فعلوه في غرناطة. ويبدو أن محنه العرب في الأندلس، في ذلك الحين، حركت ضمائر اخوانهم في المشرق، الاتراك العثمانيين، وحكام مصر، فقدر الأندلسيون أن تصلهم نجدات تساعدهم على استرداد حقهم، لذلك أقنع القادة رجال البشرات بأن القيام بثورة قوية وناجحة، ووصول نجدات من مصر وتركيا، يمكن أن يؤديا الى أفضل النتائج فيما يتعلق بتحسين وضعهم.

وفي أوائل عام ١٥٠٠م، اندلعت نيران الثورة، واستولى الثائرون على ثلاثة حصون واقعة على ساحل البحر المتوسط هي: (أدرا) و(كاستل فيروه) و(بونيول)، واصبحوا يهددون المرية. وعلى الفور تحركت قوة اسبانية قوامها ٥٠٠٠ رجل الى (مارشينا)، الواقعة وسط الجبال، للمحافظة عليها، ومنعها من الوقوع في أيدي المسلمين، إذ كان الاسبان يخشون أن يؤدي سقوط (مارشينا) بيد الثوار، الى امتداد الثورة الى جميع المناطق، وحينئذ يتسع الخرق ويصعب رتقه.

لم تكن لدى القائد العام قوات كبيرة يستطيع أن يوجهها الى قتال الثائرين فأرسل الى الملك يستنجد به، وبعد قليل وصل الملك الى غرناطة (في ٢٧ كانون الثاني ١٥٠٠)، وفكر في طريقة يحطم بها تضامن المسلمين، ويضعف حركتهم. فأخذ في مفاوضة المسلمين، مبديا لهم بعض الاعتدال، وحثهم على الهجرة الى افريقيا، وعين

شخصاً من قبله يسهر على أمن المهاجرين وسلامتهم . وكلف أناساً من قبله بمرافقة المراكب المعدة لنقل المهاجرين ، وأمرهم بأن يحصلوا من سلطات الموانىء الافريقية التي ينزل فيها المهاجرون على وثائق تشهد بأن المهاجرين قد وصلوا سالمين لم يقع عليهم في الطريق عنف ولا ازعاج وقد نجحت الحيلة ، إذ شجع ذلك الأغنياء على الهجرة الى افريقيا ، وبقي الضعفاء والفقراء بدون قادة ، فضعف شأنهم ، وظهر الخلاف بينهم . وهذا ما كان يريده الملك .

كان الملك قد استدعى قوات كبيرة لتجتمع إليه حول غرناطة في ٢٥ شباط ١٥٠٠ ، ووضع خطة فكر في تطبيقها بعد وصول القوات إليه ، وبعد أن يكون قد أضعف الثورة ، وافقد الثائرين ثقتهم بعضهم ببعض . وفي أواخر شباط تجمع للملك ٨٠ الف رجل و ١٥ الف فارس . كما اجتمع إليه جيش آخر في المرية بقيادة زوج ابنة الملك فرناندو غير الشرعية . وتقوم الخطة التي وضعها الملك على أن يتحرك جيش المرية الى المناطق الشرقية من البشرات ، ويتحرك الملك الى الجهة الغربية من المنطقة الجبلية . وأدرك الثائرون أبعاد خطة الملك فاسرعوا بتحصين مدينة (أندرش) ، التي تسيطر على مداخل البشرات في الشرق ، وتحصين مدينة (لانخارون) التي تسيطر عل مداخل البشرات من الغرب ، ووضعوا في هذا الحصن ثلاثة آلاف رجل للدفاع عنه واقاموا حاميات قوية في القلعتين الحصينتين ، قولجر و (بلش ابن عبد الله) . ولكنهم اهملوا مراقبة (جسر الطبلات) ، الذي يعتبر الممر الوحيد الموصل الى جبال (لانخارون) . ولما علم الملك بالتدابير التي اتخذها العرب ، تحرك في أول آذار وعبر ممر جسر الطبلات دون أن يشعر به أحد ، وسار في دروب ملتوية ، فلم يشعر المسلمون إلا والجيش قد أصبح فجأة أمامهم فوق (لانخارون) . وفي نفس الوقت ظهرت قوة أخرى بقيادة الكونت دوليرين (Lerin) ، أمام قلعة (لانخار أندرش) ، وبدأ الهجوم في ٤ آذار على القلعتين في وقت واحد . ونشب القتال ودافع المسلمون في المدينتين دفاعاً مجيداً ، وأظهروا كثيراً من الشجاعة والجلد . ولكن الاسبان كانوا يفوقونهم عدداً وعدة . وبعد قتال ضار اقتحم الاسبان مدينه (لانخار) وأعملوا فيها القتل والسبي والنهب ، واضطر عدد كبير من الأطفال والنساء والشيوخ الى الالتجاء الى جامع المدينة ، فأمر الكونت (دوليرين) بنسفه ، فنهدم البناء فوق رؤوسهم ، ولم ينج منهم أحد ، وقاومت (لانخارون) مدة أطول ، ولكن فعل المدفعية والأسلحة النارية ، والتفوق العددي ، اضطرا المسلمين الى طلب

المفـاوضـات. ولمـا رأى قائـد القوات العربية المدافعة عن (لانخارون) رجاله يوقّعون وثيقة الاستسلام، فضّل الموت وقذف بنفسه من فوق السور فمات.

وأفضت المفـاوضـات إلى توقيع اتفاق بين الجانبين، تعهد بموجبه الثائرون أن يكـون التـوقيع باسمهم واسم جميع أهل البشرات، واشترط عليهم الملك أن يسلموا ٣٠ رهينـة، وأن يسلمـوا أسلحتهم والقـلاع التي بأيـديهم، وأن يطلقـوا سراح جميـع الأسرى النصارى، وأن يعيدوا شراء من سبق أن باعوهم من النصارى إلى القرصان الافـريقيـين. ورتب عليهم دفع مبلغ ٥٠ ألف دوكات من الذهب على قسطين. ولم تشـر الاتفـاقيـة الجديدة إلى موضوع معاهدة غرناطة، ولا إلى تلقي العماد. وبعد أن نفّذ المسلمون شروط الاتفاق، انسحب الملك إلى اشبيلية حيث كانت الملكة تنتظره. وكـانت الملكـة قد أعـدّت برنامجاً لتنصير عرب البشرات، ويقوم برنامجها على إرسال القسس المبشـرين إلى البشـرات، مع تعليـمات واضحـة بأن يستعملوا جميع الوسائل لانجاح مهمتهم.

ويقـدّر المؤرخـون الغـربيون[1]، أن استعمال العنف كان هو الطريقة الوحيدة التي أخـذ بها المبشـرون، لأنهم حققـوا في وقت قصـير نجاحاً كبيراً بين أناس وضعوا السلاح منذ قليل، بعد أن ثاروا دفاعاً عن دينهم.

وفي أواخر تموز ١٥٠٠ وصلت الملكة إلى غرناطة، لتشرف على سير عمليات التنصـير، وليـدفع وجودها بالحركة إلى الأمام، وتقول الرواية الإسبانية إنه تمّ خلال ثلاثة أشهر، تعميد جميع سكان البشرات ووادي آش والمرية وبسطة.

٢٢١ ـ ثورة منطقة المرية عام ١٥٠٠:

بعـد أن انتهى القسس من مهمتهم في تعميـد سكـان البشـرات، تلقـوا الأمر بالاتجـاه إلى منطقة المرية، وجبال (فيلابرس)، ليباشروا أعمالهم هناك. وكان القسس يستعملون وسائل العنف فدفعوا الناس إلى الثورة، وطرد الثائرون القسس، وبلغت الثـورة أشدها في شهر تشرين الثاني ١٥٠٠، بعد أن احتلوا جميع الحصون التي تحمي المنطقـة الجبليـة وتـدافـع عنهـا. وكـان سكـان وادي المنصـورة المجاورة لمنطقة الثورة

---

(١) الكونت سيركور ج٢ ص٦٥.

ينتظرون تطور الموقف، ليقرروا مايفعلونه: إما حمل السلاح مع إخوانهم الثائرين، وإما الخضوع في حال إخفاق الثورة السريع. ولكن الملك أسرع بإرسال قوات كبيرة إلى المنطقة الثائرة، تحت إمرة أحد قواده، وكلفه بمهاجمة معاقل الثوار. فاتجهت القوات الرئيسية إلى مدينة (بلفيق) التي تتجمع فيها قوات الثائرين الأساسية. وكان بين القوات المتجمعة في (بلفيق)، عدد من رجال عصابات المنفيين، وعدد من المتطوعة الأفريقيين، فأذكوا نار الحماسة في الناس، وشدّوا من عزائمهم، ورفعوا معنوياتهم، واستماتوا في الدفاع، إذ كانوا لاينتظرون رحمة ولا شفقة إن وقعوا بيد الإسبان. وقاتلت القوات الثائرة قتالاً عنيداً، وألحقت بالجيش الإسباني هزيمة منكرة. ولكن ثلاثة من الفرسان تمكنوا من جمع شتات الجيش، وعادوا بها لحصار بلفيق. واستمر القتال عدداً من الأيام، نضب خلالها الماء، وقلّ القوت في المدينة، وأجهد من فيها الجوع والعطش، فاضطروا إلى المفاوضة. ولم يقدم لهم الإسبان أي شرط، وإنما تركوا الحكم للملك، وسمحوا للثائرين بالتزوّد بقليل من الماء، لقاء تقديم ٢٠ رهينة.

وأدرك المنفيون والقرصان أنه لم يبق هناك أمل، وخشوا من الوقوع بيد الإسبان، فتسللوا ليلاً منسحبين من المدينة، فأضعف ذلك عزيمة الثوار، وجعلهم في وضع محرج للغاية. فاضطروا إلى الاستسلام على أن يكونوا تحت رحمة الملك وحكمه. ولكن رحمة الملك قضت بأن يقتل الرجال، وتسبى النساء والذرية، وتصادر الأموال. وكان هذا العقاب الرهيب سبباً في إجبار ١٨٠٠٠ شخص في منطقة فيلابرس ونهر المنصورة على الخضوع وقبول العماد.

٢٢٢ ـ ثورة عام ١٥٠١:

لما انسحب الجيش الإسباني من منطقة المرية، في ١٤ كانون الثاني ١٥٠١، اندلعت نيران ثورتين:

١ ـ ثورة قام بها سكان ثلاث من قرى وادي المنصورة، فطردوا الرهبان المبشرين، وأعلنوا تمسكهم بدينهم الإسلام. فأسرع قائد المنطقة الإسباني بقواته، وتمكّن بقليل من الجهد من إخضاع الثائرين.

٢ ـ وثورة أخرى اندلعت في (أدرا) على ساحل البحر الأبيض، فهاجمها الجيش الإسباني، وحاصرها حصاراً شديداً. وقاوم الثائرون مقاومة باسلة. ولما طال أمد

الحصار بدأ المدافعون يتناقص عددهم، من ويلات الحرب، ومن الجوع، والعطش. ولما أدرك الاسبان ضعف المقاومة شنوا هجوماً اقتحموا به الأسوار، ودخلوا المدينة فلم يجدوا فيها أكثر من ٤٠٠ شخص، أخذوهم أسرى، وفرضوا عليهم الرق.

٢٢٣ ـ ثورة سكان جبال بني طوميز عام ١٥٠١:

بعد أن قضى الاسبان على الثورات التي نشبت في غرناطة، والبشرات، ووادي المرية، شعروا بأن مهمتهم سهلة في بقية المناطق، وقررت الملكة تطبيق برنامجها في منطقة (روندة)، ومقاطعة (رية) (مالقة). وبعد أن وضعت خطة العمل مع أسقف اشبيلية، عهدت إليه بأن يكلف القسس بالذهاب الى منطقة روندة، ومباشرة العمل بجد لتحويل الناس الى الكثلكة. ذهب القسس المبشرون الى المنطقة، وتجاوزوا في تصرفاتهم حدود التبشير، والدعوة للدين، وشرعوا في استعمال وسائلهم المعهودة، من ضغط وارهاب، ليثيروا الناس، فكان لهم ما أرادوا. إذ تحرك أهل المنطقة، وطردوا المبشرين. وخاف الملكان من انفجار ثورة على نطاق واسع، أو لعلهما أرادا التعجيل بانفجارها للقضاء على المقاومة العربية دفعة واحدة. وأية ما كانت نيتهما، فقد أمرا بالقبض على عدد من زعماء رجال الدين المسلمين، وكان بينهم فقيه، ذو مكانة مرموقة يدعى (إدريس)، وجه الاسبان همهم إليه لإغرائه بالتحول الى النصرانية، فلم يفلحوا، فزجوا به في السجن بجانب إخوانه. وقد أدى سجن الفقهاء الى اندلاع نيران الثورة في كثير من المناطق، واحتل الثائرون بعض الحصون. وتحركت قوات الحكومة لمواجهة الموقف، وأخذت ـ على عادتها ـ في إساءة معاملة المواطنين المسلمين، فدفع تصرفها سكان منطقة (هافارال) الى الثورة، وهكذا أصبحت منطقة (روندة)، و(سيرانيا) كلها معسكراً إسلامياً ثائراً. وشعر قائد منطقة روندة بعجزه عن مواجهة الموقف، فاستنجد بقوات الكونت دي سيفونيته. ولما وصله الكونت بقواته، اختلفا في الخطة الواجب اتباعها في مواجهة الثائرين. وأدى اختلافهما الى تفرق جيشيهما، الى عصابات للنهب والسلب.

وأسرع الملك يستدعي القوات لمواجهة الموقف المتفجر، وبانتظار اجتماعها إليه أصدر أمراً الى الثائرين يمنحهم العفو على درجتين:

أ ـ عفواً كاملاً لمن يقبلون التعمد، مع السماح لهم بالبقاء في بيوتهم.

ب ـ عفواً ناقصاً لا يشمل إلا ضمان حياة من يريد البقاء على دينه. وهذا العفو يستفيد منه الذين يطلبون، خلال عشرة أيام، الهجرة الى قشتالة.

ويقول (سيركور) إن هذا الأمر لم تكن له أية قيمة أو أثر، لأنه لم يبلغ أسماع الثائرين، وكان المنادون يعلنونه في القرى المسيحية فقط(١).

وحينما تجمعت الجيوش في (روندة) استعرضها قادتها في ١٧ شباط ١٥٠١. وكان هؤلاء القادة متساوين في الأهمية وهم (كونت دي سيفوينته(٢)) و (كونت دواجيلار) و (كونت دواورينا(٣)).

ولما رأى قائد الثورة المسلم (سليم الأزرق)، تجمع القوات الاسبانية، حاول إلهاءها بعض الوقت، وتأخير نشوب المعركة، ريثما يستكمل استعداداته. فتظاهر بالاستعداد للمفاوضة والخضوع. ولكن خطته لم تنجح إذ حدث خلل في صفوف جماعته، أدى الى نزوح سكان (مونيتخاك) و (بني أوخان) الى روندة وطلبهم الأمان من الاسبان، فسرح الأزرق جيشه، وانسحب بمن تبقى معه الى جبال (الهافارال(٤))، فلاحقته القوات الاسبانية، وأخذت تسيء معاملة المسلمين، فخاف السكان وانسحبوا الى الجبال الحمراء. فظن القادة الاسبان أن الأمر قد انتهى، فبقوا حيث هم، وأخذت قواتهم تواصل عمليات النهب، والسلب، وانتهاك الأعراض، فتجددت الثورة في نفوس الناس، واضطر أهل المنطقة كلهم، حتى الذين سبق لهم إعلان خضوعهم، الى الهرب من وجه العسف الإسباني، والانضمام الى الثائرين في الجبال الحمراء (Sierra Bermeja) وبدأ المسلمون، من معقلهم، يتصلون بالقادة الاسبان، ويعلمونهم باستعدادهم للعودة الى الحياة الهادئة المسالمة، وبرغبتهم في العودة الى بيوتهم، إذا ضمن لهم عدم الاعتداء عليهم. وأراد أحد القادة ويدعى (الونسو دو أجيلار)، قبول العرض، وحاول حمل زميليه على الاقتناع بوجهة نظره. ولكن الكونت أورينا أحد القائدين الأخرين. كان يطمع في تحقيق المكاسب المادية، وجمع العبيد، والمغانم، والسبايا، فلم يقبل العرض، واضطر صاحباه الى مجاراته في

---

(١) الكونت سيركور ج٢ ص٩٦.

(٢) (C.de Cifuentes).

(٣) (C. de Urena).

(٤) (Sierra de Hvaral)

رفض مطلب المسلمين.

وبعدئذ شرع الجيش الإسباني يهاجم منطقة (الجبال الحمراء) من جهة الشرق، ويدفع بالثائرين إلى الوراء حتى أوصلهم إلى منطقة وادي النهر الأخضر. وفي ١٨ آذار عسكر الجيش الإسباني أمام الجبل الأحمر (أوجبل عمار)، وكان المسلمون تحت قيادة شخص يعرف بالفهري - وتقول الروايات الإسبانية إنه من عائلة مشهورة في الأندلس - يحتلون منبسطاً فسيحاً في قمة الجبل، ويتحصنون فيه، وكان موقعهم هذا يسهّل اتصالهم بالسلسلة الشرقية من هذه الجبال، ويؤمّن انسحابهم إلى مواقع منيعة في حال الهزيمة. ولما رأى الإسبان مناعة موقع المسلمين أرادوا الانسحاب، ولكن (أجيلار) رفض ذلك، وقال لصاحبيه إنه نصحهما في روندة بعدم إثارة الحرب، فلم يقبلا ولم يأخذا برأيه. أما الآن فإن تخاذلهم، يزيد في حراجة موقفهم ويجرىء المسلمين عليهم. وفي اليوم التالي نشبت المعركة، وتظاهر العرب بالتراجع ليستدرجوا الإسبان وراءهم إلى مواقعهم المختارة، فلاحقهم أجيلار إلى المنبسط الأعلى. وحينما هبط الليل انقسم الجيش الإسباني، وعسكر في ثلاثة مواقع منفصلة. وأراد العرب إغراء الإسبان، وحملهم على التفرّق، فتركوا أموالهم وأمتعتهم في المنبسط، فتحرك الجنود إلى المنبسط للفوز بالغنائم والسبايا. وتصفهم الروايات الغربية بأنهم تفرقوا مثل عصابات اللصوص باحثين عن المغانم. ووصل الكثيرون منهم إلى مايبغون من المغانم، وعادوا يهبطون التلال مثقلين بما يحملون، متجهين إلى بيوتهم. ويقول سيركور في وصف هذا الجيش «إن الجيش كان مجموعة من فرق الميليشيا التي لامصلحة لها بالحرب، وكان في الحقيقة عصابات من اللصوص، وقطاع الطرق الذين لايعرفون الانضباط، فتفرقوا في كل اتجاه يأتي منه صوت النساء. وألقى بعضهم بأسلحته ليحمل الغنائم الثمينة[1]». وبلغ الانحلال غايته حينما ارتد العرب فجأة على العدو، ودفعوا أمامهم بالقوات التي يقودها أجيلار وأورينا. وزاد الظلام في خوف الإسبان، فتفرقوا، وتمكن بعضهم من النجاة. وحاول القادة إعادة النظام إلى الجيش المتبدد. وبينما كانوا يبذلون محاولتهم هذه، انفجر برميل من البارود، فأضاء أرض المعركة، وكشف لكل واحد من الجانبين موقف خصمه. ولما أدرك العرب الاضطراب الذي يسود صفوف الإسبان شددوا هجماتهم عليهم فهزموهم. وهرب القائد (دوأورينا)، وحوصر الكونت دوأجيلار، وقتل

---

(١) الكونت سيركور ج٢ ص٩٢

فرسه وجرح ابنه. وفي ظلمة الليل عثر القائد العربي (الفهري) على (أجيلار) فتطاعنا بالخناجر، وقتل الفهري خصمه. ودامت المطاردة طوال الليل، ووصل الهاربون الإسبان الى معسكر (دي سيفوينته)، فطارت قلوب رجاله هلعاً، لما سمعوه عن المعركة الرهيبة. وكانت صيحات العرب تدوي في جميع المناطق وهم يطاردون فلول المنهزمين، فيزداد خوف جيش سيفوينته، وبدأت الهزيمة في صفوفه. ولكن سيفونته استطاع أن يضبط الموقف بعض الشيء، وفي الصباح استطاع سيفوينته، جمع الجيشين الآخرين المنفصلين، وكانا قد أصيبا بخسائر كبيرة خلال الليل، وامتلأت الدروب والمسالك بجثث الإسبان. وعاد العرب الى موقعهم في المنبسط، وأقاموا قوات تحتل الممرات المؤدية إليه من أمامه ومن خلفه. وأصبح الجيش الإسباني محصوراً في مدينة (موناردا)، فأرسل دي سيفونته الى الملك يستنجد به لإنقاذه.

أمر الملك بجمع قوات في روندة، فتجمع فوراً قرابة ٧٥٠٠ جندي، ولكنهم كانوا في حالة معنوية منهارة، وجاء الملك ليقود المعركة بنفسه، ولكنه لما رأى حالة الجيش المتدهورة، خشي أن تلحق به هزيمة تحط من سمعته وقدره، وفضل أن يعهد بالقيادة الى الدوك [بيدرو مانريكش دوناخيرا]، وان ينتظر هو نتيجة المعركة. سار الدوك فوراً الى منطقة الثورة، وأرسل الى سيفونته يعرفه بخطته للعمل، ويطلب إليه أن يتولى الهجوم على المرتفع من أمامه، بينما توجه الدوك بقواته ليهاجم المرتفع من الوراء. ولم يكن العرب يتوقعون الهجوم من الجهتين معاً، ولم يكونوا مستعدين له، لذلك أسقط في أيديهم، وقدروا ان نجاحهم في المعركة السابقة سيؤمن لهم شروطاً مناسبة، فأرسلوا ثلاثة مفاوضين الى (كونت سيفونته) قبل أن تظهر قوات الدوك أمام المرتفع، وكان كل ما طلبه العرب، هو منحهم الأمان، وتأمين السفن لهم للعبور الى الشاطىء الافريقي.

لم يبت سيفونته بالأمر، وأرسل المفاوضين الى روندة، وكان الملك يميل الى التساهل مع المفاوضين لإنهاء الثورة، التي أوقعت بجيشه أفدح الخسائر، وأساءت الى سمعته الحربية إساءة كبيرة. ولكن الملكة كانت بجانب زوجها، فحملته على التشدد، وعدم التساهل، فأبلغ الملك شروطه المعاكسة للوفد. وهي تتلخص في أن يسمح بالخروج لمن يدفع عشر دوكات، فدية، أما الآخرون فإنهم لا يعفى عنهم إلا إذا قبلوا العماد. فاضطر الوفد الى قبول هذه الشروط مخافة أن يخسروا المعركة، ويضيع

من أيديهم كل شيء. وكان من نتيجة ذلك أن هاجر عدد كبير من العرب الى افريقيا، حملتهم السفن يوم ١٤ نيسان ١٥٠١، أما الآخرون فقد أجبروا على تلقي العماد.

٢٢٤ ـ ثورة عام ١٥٢٥ في مملكة بلنسية:

اثيرت مسألة التعميد بالإكراه، وطلب الملك شارل كنت رأي البابا في الأمر، فأصدر البابا كليمانت السابع أمراً في ١٢ أيار ١٥٢٤، يتضمن:

أ ـ احلال الملك من قسمه بالمحافظة على نصوص المعاهدة الموقعة مع المسلمين والتي تسمح لهم بممارسة حريتهم الدينية وعاداتهم وشرائعهم... الخ.

ب ـ مطالبته الملك بالعمل على تحويل المسلمين الى النصرانية. ومنحه حق فرض الرق على من يرفضون التنصر.

ج ـ نصحه باستخدام جهاز التحقيق، بما يملكه من أساليب رهيبة، ووسائل ارهاب مخيفة، لحمل الناس على التنصر... الخ.. وفي ١٦تشرين الثاني **١٥٢٥**، أصدر الملك أمراً بتنفيذ مضمون الأمر البابوي، وقضى بنزع سلاح العرب، وباغلاق المساجد، وباجبار المسلمين على حضور القداس.. تحت طائلة وقوع المخالف في الرق. وفي ١٠ كانون الأول **١٥٢٥** طلب مفوض ديوان التحقيق من العرب غير المعمدين، الاستعداد لترك بيوتهم، والخروج من المملكة نهائياً في موعد أقصاه ٣١ كانون الثاني ١٥٢٦. ثم توصل المسلمون الى مراجعة الملك، فحصلوا على وعد منه يتضمن:

أ ـ عدم ملاحقتهم من قبل ديوان التحقيق إلاّ في حالة الارتداد الثابت والقاطع.

ب ـ السماح لهم باستعمال لغتهم العربية مدة عشر سنين.

ج ـ وعدهم بإبطال أمر نزع سلاحهم.

د ـ وعدهم بأن تقرر الضرائب على المسلمين بالتساوي مع المسيحيين.

ولكن المسلمين كانوا يطالبون بتطبيق نصوص المعاهدات الموقعة معهم، والتي تضمن لهم حرية ممارسة دينهم ولغتهم وعاداتهم، فأعلنوا الثورة. وانطلقت الشرارة الأولى من مدينة (ابن الوزير)، القريبة من بلنسية، إذ أغلقوا أبواب بيوتهم فيها في وجه المفوضين الإكليركيين. ولما علم سكان القرى القريبة من المدينة بما فعله اخوانهم

فيها، انضموا إليهم، فتزايد عددهم، ووقعت اشتباكات بينهم وبين الاسبان، المقيمين بينهم. ثم تحرك سكان منطقة (كورتس) قرب نهر شقر، وقتلوا السيد الاقطاعي (لويس دو باياس)، الذي كان يحاول اجبارهم على التنصر، ولما علم المسلمون المقيمون في أراضي (دانية) و(غانديا)[1]، ثاروا وتجمعوا حول حصن (Po-lope) (بولبه) ـ الذي سبق لجماعة ثوار الجرمانيا أن قتلوا جميع سكانه المسلمين ـ، وهو حصن يقوم في أرض جبلية وعرة، تجعلها مياه السيول في فصل الشتاء غير صالحة لحركة الجيوش. ولما تزايد عدد الثوار في منطقة ابن الوزير، تحركوا الى مدينة (بيكوك) في وادي النهر الكبير، وبذلك أصبحوا معرضين لتحمل الصدمة الأولى من الجيش الاسباني. وقد وجه نائب الملك في بلنسية فصائل الفرسان للعيث في البسائط المحيطة بالحصن، ولا تلاف كل ما تستطيع اتلافه مما يفيد الثائرين في تأمين معاشهم، إذ كان الاسبان ينتظرون ان تحل المجاعة بالثائرين فيطلبوا الأمان.

٢٢٥ ـ تحرك القوات الحكومية:

وفي ١٥ شباط ١٥٢٦، أعلن المنادون في شوارع بلنسية، باسم نائب الملك الحاكم العام ـ، باعلان الحرب على العرب الثائرين بالحديد والنار، فخرج خمسة آلاف شخص على رأسهم الخوري جيفارا، يجرون عدداً من المدافع، ويتجهون الى الحصن. ويعترف المؤرخون الاسبان أن الثائرين العرب لم يكونوا يملكون مدافع، ولا ذخائر، ولا قوة من الفرسان، ولم تكن لهم معاقل ولا متاريس تقيهم الرصاص، ومع ذلك تمكنوا من صد الجيش الإسباني أكثر من مرة، وكبدوه خسائر فادحة[2]. ولكن أقوات الحصن كانت قليلة، وسرعان ما شعر المدافعون بالجوع، فبدؤوا بالمفاوضة، واشترط الحاكم، والخورى جيفارا ضمان، حياة من في الحصن إذا قبلوا العهاد، ولما لم يكن للمحاصرين أي خيار فقد اضطروا الى القبول يوم ١٨ آذار ١٥٢٦. وأخذت منهم ٢٥ رهينة. ولما دخل الإسبان الحصن وجدوا فيه عدداً من عرب أراغون فأمر الحاكم باسترقاقهم. وأجبر سكان الحصن على أن يفتدوا أنفسهم

---

(١) هي بالإسبانية (Gandia).

(٢) الكونت دو سيركور ج٢ ص٢٠٣.

بدفع ١٢ ألف دوكات من الذهب، وعلى أن يتعمدوا، فقبلوا، وعمدهم الخوري جيفارا. وانسحب القسم الأكبر من المسلمين من الباب الخلفي للمدينة، واتجهوا الى سيجوربة. ولم يفكر الإسبان بمطاردتهم لأنهم كانوا يبحثون عن المغانم، وقد عثروا عليها. ولما امتلأت أيدي الحاكم العام والخوري من المغانم عادا بالجيش الى بلنسية.

٢٢٦ ـ اندلاع الثورة في جبال سيرا دو ايسبادان:

لم يدخل الناجون مدينة سيجوربة وانما تابعوا سيرهم الى جبال (سيرا دو ايسبادان) (Serra de Espadan) القريبة منهم ـ وهي سلسلة من الجبال تفصل بين مملكتي أراغون وبلنسية ـ. ولما مروا بمدينة سيجوربة، انضم إليهم منها عدد من اخوانهم العرب، ورافقوهم الى المعاقل الجبلية. وكانت طبيعة هذه المنطقة، وموقعها المتوسط بين البحر وبين مملكتي بلنسية ـ وأراغون، وسيطرتها على طريق بلنسية سرقسطة، كل ذلك يجعلها موقعاً ممتازاً لنشاط الثائرين.

وبعد أن تكاثر عدد العرب اللاجئين الى هذه المنطقة الوعرة، بدؤوا في اتباع حياة المنفيين في جبال الثلج في مملكة غرناطة، وجاهروا بالعصيان، وأخذوا يتحدون الجيش الاسباني وسلطان الحكومة الإسبانية. ولما شعر الثائرون بقوتهم، انتخبوا فلاحاً من (مدينة الغار)، جعلوه ملكاً عليهم، ولقبوه (بسليم المنصور). وتصفه الروايات الإسبانية بأنه كان كفؤاً نشيطاً، فنشط في تحصين الجبل كله في مدة قليلة، وحفر خنادق عميقة على كل مرتفع، وأقام أسواراً في كل غور، وجمع كتلاً من الصخور في قمم الجبال لقذفها على المهاجمين، وأكثر من وضع العوائق والعراقيل، لإعاقة سبيل المهاجمين، وكانت خطته تقوم على انهاك العدو، واضعاف معنوياته في كل خطوة، مع اشعار جماعته، بالثقة والاطمئنان لرفع معنوياتهم وأقام نظاماً ادارياً وحربياً ممتازاً بين هذه المجموعة الثائرة. وشدد الحراسة على المداخل والممرات الأمامية، وأقام الجيش في مواقع مختارة، وقسمه الى فرق ومنازل، أسكنها في بيوت من الخشب اقامها لهم لتأمين راحتهم.

ويأخذ المؤرخون الغربيون على قائد الثورة أنه برغم كفاءته ونشاطه في الأمور العسكرية، فإنه لم يكن بعيد النظر، ولم يفكر في توسيع نطاق الثورة، واشعالها في المناطق الأخرى. لذلك لم يفكر في الاتصال باخوانه في مناطق اسبانيا الأخرى، وفي

الخارج لضرب اسبانيا في وقت واحد. وإنما بقي مكانه واثقاً من أن الجيش لن يستطيع أن يقتحم عليه حصونه ومعاقله. وهذا قصر نظر أدى إلى تمكين الإسبان من الإحاطة بالثورة، والقضاء عليها[1].

وصل الملك إلى بلنسية، وأخذ يستعد للقضاء على الثورة، بجمع الجيوش، وتأمين المال. واستدان الملك ثلاثة آلاف دوكا من النبلاء ووعدهم بالدفع من قيمة المغانم واجتمع للملك ثلاثة آلاف جندي في بلنسية فوجههم إلى الثائرين بقيادة الدوك دو سيجورب. وضمّ إليه عدداً من نبلاء المملكة. وفي آخر نيسان ١٥٢٥ شنّ الجيش أول هجوم له من الغرب، فردَّ العرب المهاجمين بعد أن كبدوهم خسائر كبيرة. وكان لقذف الحجارة من قمم الجبال، أثر بعيد على معنويات الجنود الإسبان، فتفرقوا، وانسحب الدوك إلى بيته، وعاد النبلاء إلى بلنسية. وإثر ذلك انعقد مجلس حربي في بلنسية، تقرر فيه الاكتفاء، في الوقت الحاضر، بمراقبة تحركات الثائرين إلى أن يعطي الامبراطور تعليماته. وأرسل المجلس الحربي ضابطاً و ٥٥٠ جندياً إلى مدينة (أوندة)، ليستقروا فيها تحقيقاً لهذه المراقبة. واستمر المنصور بتوسيع هجماته على المناطق القريبة، وبالاستيلاء على مافيها، وأغار في آخر أيار على مدينة ساحلية صغيرة تدعى (شلش) فنهبها وخرب كنيستها واستولى على تمثال المسيح، فأثار هذا الحادث قلقاً في بلنسية، واضطربت الكنيسة، وتنادى القسس للتسلح لانقاذ جسد المسيح من يد الثوار. ولكن النبلاء طلبوا منهم الهدوء، والتزموا أمامهم وأمام الشعب باستعادة التمثال. وأعلن الأسقف وقف القداسات في جميع كنائس المملكة إلى إشعار آخر حداداً على جسد المسيح.

أخذت القوات تتجمع من جديد لمحاربة الثائرين، وفي شهر تموز، كان هناك ثلاثة آلاف متطوع يحيطون بجبل ديسبادان بقيادة الدوك دو سيجورب، ثم تتالت الامدادات حتى بلغ عدد المشاة ٦٠٠٠ رجل، ومعهم عدد كبير من الفرسان. وفي ٢٠ تموز صدر الأمر بالهجوم على مواقع الثوار، ودافع الثوار دفاعاً مجيداً، حتى عن المواقع التي لاقيمة حربية لها، وكانوا إذا أضاعوا موقعاً عادوا فشنوا هجوماً معاكساً واسترجعوه، حتى إنهم أضاعوا بعض المواقع واستردوها سبع مرات. ولكنهم اضطروا أخيراً الى التخلي عنها بسبب تفوق سلاح عدوهم، وتراجعوا بانتظام الى خط دفاعهم الثاني، وتكبد الجانبان خسائر فادحة، ولم يقع بيد الإسبان من الأسرى إلا عدد من

---

(١) الكونت دو سيركور ج٢ ص٢٠٩.

الجرحى المسلمين فأمر القائد باسترقاقهم. وتزايد حماسة العرب وجرأتهم في خط دفاعهم الثاني، فقاوموا بضراوة، وعناد لا مثيل لها. ولم يستطع الدوك انتزاع ستة مواقع منهم إلا بثمن باهظ من الخسائر في الأرواح، مما اضطره الى أن يغير نظامه الحربي، وأن يفرض حصاراً على المنطقة كلها. ولكن المعارك تجددت برغم إرادة الدوك، وكان للصخور التي تنهال على الجنود من أعالي المرتفعات مفعول كبير في ارهابهم، فأعلن الدوك الحرب بالحديد والدم والنار، وكانت الامدادات تتالى باستمرار للجيش الاسباني، ودامت المعارك الضارية متصلة مدة شهرين كاملين، بين أخذ ورد، وكان العرب كلما فقدوا مركزاً لهم عادوا فاستردوه. ولم يتمكن الإسبان برغم القتال العنيف، من زحزحة العرب عن خطهم الثاني. وأسفرت هذه المعارك عن نتيجة واحدة هي اجهاد العرب، وتضاؤل عدد مقاتليهم، بالموت والجراح. ولم تكن تصلهم إمدادات، بينما كان الإسبان لا تنقطع عنهم الإمدادات. وبرغم ذلك كله لم يحرزوا على العرب أي رجحان عسكري.

٢٢٧ ـ الجنود الألمان في المعركة:

ولما وجد الملك أن جنوده لا يحققون أي تقدم، برغم تفوقهم العددي، وتفوقهم بالسلاح والمعدات والتدريب، قرر الاستنجاد بالجيش الألماني، فوصل إليه ثلاثة آلاف جندي في ١٧ أيلول ١٥٢٦ بقيادة روكاندولف، وساروا فوراً الى ميدان المعركة. وكانت الخطة تقوم على أن يهاجم الألمان المنطقة الجبلية التي يحتلها الثوار من ورائها، وهي الجهة الوحيدة التي لم يكن العرب يتوقعون منها هجوماً. وفوجىء العرب بهجوم الألمان. وأفاد الألمان من عنصر المفاجأة، فتمكنوا من الاستيلاء على بعض المواقع. ولما تمركز الألمان في المواقع التي احتلوها، اتفقوا مع الكونت دو سيجورب على شن هجوم متناسق في وقت واحد، وتعهد الألمان باختراق الجبل من المواقع التي يحتلونها.

بلغ مجموع قوات الجيش العامل أكثر من ٨٠٠٠ رجل، عدا الفرسان، وقد قسمت على الشكل التالي:

١ ـ وضع الدوك دو سيجورب تحت امرته ٢٥٠٠ جندي اسباني و ٥٠٠ جندي ألماني ليهاجم مواقع الثوار من جهة الشرق.

٢ ـ ٢٥٠٠ جندي ألماني، يهاجمون من مواقعهم.
٣ ـ وكان هناك ٢٠٠٠ جندي اسباني بقيادة ضابط اسباني كلفوا بمعاونة الألمان في الهجوم.
٤ ـ وكان هناك فرق استطلاع بحدود ٥٠٠ رجل. وعدد من الفرسان.

أما العرب فكان عدد مقاتليهم حوالي ٣٠٠٠ رجل، بعد أن تناقص عددهم كثيراً نتيجة للحروب الشديدة التي مرت. وبدأ الهجوم العام صباح ١٩ أيلول، من الشرق والغرب والجنوب في وقت واحد، فنشبت أعنف المعارك، وأكثرها ضراوة، وانهالت الصخور والحجارة على المهاجمين، ولكن المدافع والبنادق، والتفوق العددي، والانهاك الـذي حل بالعرب من طول القتال، كل ذلك أتاح للمهاجمين التفوق، واضطروا الثائرين على التراجع الى قلعتهم التي أحاط بها العدو من كل جانب. واستشرت المعركة حول القلعة بشكل لم يسبق له مثيل طوال القتال الماضي. وقاتل العرب قتال اليائس المستميت، فقتل المنصور وسلاحه بيده، وقتل من جماعته أكثر من ٢٠٠٠ رجل، ونجا قسم ضئيل من العرب، انضموا الى ثوار (مدينة كورتس)، واستسلمت قلة قليلة ضمن لها الإسبان حفظ حياتها. وتقول الروايات الإسبانية إن خسائر الإسبان والألمان كانت بالغة الفداحه، ولكنهم غنموا في النهاية ما قيمته ٢٠٠٠٠٠ دوكات من الذهب. وعثر أحد الجنود الألمان على تمثال المسيح، فأخفاه وكتم خبره. وعاد الجيش الى بلنسية.

٢٢٨ ـ انتهاء الثورات الأخرى:

كانت مذبحة ديسباداان سبباً لإنهاء ثورة كورتس، لأنها أرهبت الثائرين، وحملتهم على الاستسلام للجيش الإسباني الذي وصل الى المدينة. وبعد مفاوضات جرت بين الجانبين تم الاتفاق على أن يحقن قائد الجيش دم الثائرين، شريطة أن يقبلوا بتلقي العماد، ودفع مبلغ من المال دية القتلى، الذين قتلهم الثائرون. ولما دخل القائد الإسباني قتل أربعة أشخاص، كانوا اشتركوا في قتل أخيه السيد الإقطاعي لبارونية (دانيه)، وألزم الآخرين بدفع مبلغ ٣٠٠٠ دوكات.

أما ثوار دانية، فإن الدولة انشغلت عنهم في معارك ديسباداان، ولما طال الأمر بدأ الثائرون يتفرقون، حتى إنه لم يبق منهم أكثر من ٢٠٠٠ شخص. وبعد مدة وصلت ١٥ سفينة للقرصان المسلمين، نقلتهم الى افريقيا.

الفصل الثاني

الثورة الكبرى لعام ١٥٦٩

٢٢٩ ـ سوء معاملة الاسبان للعرب:

تفيض كتب التاريخ العام لمملكة اسبانيا في إيراد حوادث هذه الثورة، وتورد أوسع التفاصيل عنها، حتى إنها لتشغل فيها فصولا كثيرة. ولما كان كثير من التفاصيل لا أهمية له اليوم بالنسبة لكتابنا هذا، لذلك فإننا سنكتفي بإيراد أهم الحوادث التي وقعت. ولا بد لنا من الاشارة هنا إلى أن الروايات الاسبانية لا تنكر ارتكاب ألوف الجرائم الوحشية، بحق النساء والأطفال والشيوخ والعزل من السلاح، كما أنها تذكر أن الاسبان، من أمراء، وحكام، ورجال كنيسة، وقادة، وضباط جيش، وجنود، كانوا كلهم يطمعون في سلب العرب، واسترقاقهم، وكسب المغانم منهم. وقد أجبروا، بتصرفاتهم اللئيمة، العرب الأندلسيين على الثورة ليكون لهم المبرر في السطو عليهم. وفي كثير من الحالات كانوا يعتدون عليهم، ويهاجمونهم دون انتظار ايجاد المبرر. وسيجد القارىء الكريم في سياق الحديث، نتفاً من روايات المؤرخين الاسبان المعاصرين للثورة، وكان أكثرهم شاهد عيان، وعاش الأحداث التي يرويها.

٢٣٠ ـ الأسباب المباشرة للثورة:

حضر القسيس بيدروجيريرا مجمع تارانت، وأظهر فيه كثيراً من الحماسة، فلمع اسمه فيه، وعاد إلى اسبانيا فجعل من نفسه مراسلا يوافي الفاتيكان بأنباء اسبانيا، وخصوصاً بأنباء العرب فيها، وحالتهم. ويقول الكونت سيركور، إن تقارير جيريرا ما كانت تدل على وعي وفهم للواقع، وكان من نتيجتها غش البابا بيوس

لرابع وخداعه(1). ولما رأى البابا حماسة جيريرا، كلفه بأن يبلغ الملك فيليب الثاني أن لبابا يستنكر تسامح الملك مع العرب في ممارسة ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم، التي تعتبر في نظره نوعاً من الهرطقة، ويطلب إليه اتخاذ تدبير صارم بحقهم، يجتث جذور هذه العادات والتقاليد.

ولما بلغ جيريرا الملك أمر البابا، تردد الملك في اتخاذ تدبير قد يزيد الأمر تعقيداً، ولم يقطع في الأمر، وانما تركه للزمن يحله. ولكن جيريرا عاد يراسل البابا، ويلح على الملك باسم الفاتيكان. وفي أيلول ١٥٦٥ دعا الأساقفة، وحملهم على توقيع طلب إلى الملك يرجونه فيه تطبيق الأمر الملكي الصادر عام ١٥٢٦ بحق العرب. وفي تلك الأثناء مات المحقق العام، دون فيرناندو فالدس، وحل محله الكاردينال (دون داسبينوزا)، وتصفه الروايات الغربية بأنه كان خصماً لدوداً للعرب، فاتفق مع كاردينال غرناطة على أخذ العرب بالشدة، وعلى تعيين مفوضين يطوفون أنحاء المملكة ويقدمون تقاريرهم عن حالة العرب، ثم تألفت لجنة لمناقشة التقارير وفحص حالة العرب، وتقديم المقترحات التي تراها مناسبة في موضوع العرب. وكانت اللجنة مؤلفة من كبار رجال الدين، وبعض كبار الموظفين المدنيين، والقادة العسكريين. وبعد عدد من الاجتماعات تغلب رأي رجال الدين فقدمت اللجنة توصياتها الرامية إلى التشدد في تطبيق الأمر الصادر عام ١٥٢٦. ولم يجرؤ المدنيون على معارضة رأي رجال الدين، وكان مما اقترحته اللجنة:

١ ـ منع استعمال اللغة العربية، والعادات والتقاليد العربية منعاً باتاً.

٢ ـ منع التسمي بأسماء عربية وتحريم لبس الألبسة العربية.

٣ ـ هدم الحمامات وكل ما له مظهر حمام أو جامع.

٤ ـ منع العرب من أن يمتلكوا عبيداً.

٥ ـ إجبارهم على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة خلال الأعياد لمراقبة ما يجري فيها.

٦ ـ إجبار النساء العربيات على كشف وجوههن حينما يسرن في الشارع.

قدمت اللجنة تقريرها ومقترحاتها إلى الملك بواسطة الكاردينال (دوديسا) رئيس الادارة المدنية في غرناطة، فأصدر الملك بها أمره المؤرخ في ١٧ تشرين الثاني

---

١ ـ كونت سيركورج ٢ ص ٢٧٥.

١٥٦٦ . وكـان القـائـد العـام في البـلاط حين صدور الأمـر، ولما علم به انتقده أشد الانتقـاد، وأبـدى مخاوفـه من مغبـة تطبيقـه . وحاول أن يحول دون إعلانه، فلم يقبل الكـاردينـال المحقق العام، دا سبينوزا بإدخال أي تعديل على الأمر، وطالب بتنفيذه كما جاء.

ولما وصل الأمر إلى غرناطة قرر (دوديسا)، أن يجعل إعلانه يوم ١ كانون الثاني ١٥٦٧ ، وهـو يوم الـذكـرى السنوية لسقوط غرناطة، وحاول أن يمهد للأمر ليخفف من وقعـه على العـرب، ولكن زعـماء العـرب لم يقبلوا التعـاون معـه . فتولى هودعوة الشعب العربي إلى ميدان باب البنود. الذي كانت تجري فيه، في عهد بني الأحمر، احتفالات عرض البنود حين ارتقاء ملك جديد العرش . ولما أذاع دوديسا الأمر على العرب علاهم الوجوم ، وبدت عليهم علائم الثورة ، فكيف لهم أن ينسوا كـل المـاضي العريض لقـومهم في الأندلس ؟ وحـاول العرب وقف الأمـر أو إبـطالـه بالمراجعات الرسمية ، فلم يفلحوا . وشرعت السلطات بملاحقة العرب لتنفيذ الأمر الملكي ، كما زادت في تعسفها ومضايقاتها تنفيذاً للأمر المتعلق بمنع المسلمين من حمل السلاح إلاَّ برخصة . وسببت هذه الملاحقات كثيراً من المشاكل والمآسي ، وابتزاز الأموال ، فلم يجد الناس ملجأ لهم من السلطة والقضاء إلا في معاقل المنفيين ، في جبال الثلج (سيِّرا نيفادا) ، وهناك تزايد عددهم وأصبحوا يشكلون قوة لا بأس بها ، وبدأت فكرة الثورة تختمر في رؤوس قادة الشعب الغـرناطي ، وفي رؤوس المنفيين ، وزعماء البشرات ، وأصبح الجميع يرون أن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لوقف التعسف الاسباني . وكان آخر ما ألحقه دوديسا ، بالعرب من إساءات هو تجنيد قوة من الشرطة ، أجبر العرب على تحميل نفقاتها لتقوم بالسهر على الأمن في الأحياء العربية ، وبتقصي المعلومات عن نشاطهم وتحركاتهم .

٢٣١ ـ التحضير للثورة :

ادرك القـادة الغـرنـاطيـون أن الثـورة، أصبحت أمراً لا غنى عنه، وقدروا أنه ليكتب للثورة النجاح لا بد لها من توافر عنصرين :

١ ـ المشاركة الفعلية لجماهير العرب في مملكة غرناطة، وفي المناطق المحيطة بها على أوسـع نطـاق، ليتـوافـر للثـورة الرجال المحاربون، وليجعل اتساع نطاق الثورة صعباً على السلطات الاسبانية حصرها، والقضاء عليها في مهدها.

٢ ـ العون المادي بالرجال والسلاح من السلطات الإسلامية في المغرب والجزائر، وهذا العون ضروري لنجاح الثورة، لأنه يوفر لها السلاح الحديث الذي لم يكن لدى الشعب الأندلسي كثير منه، كما يوفر للثورة الرجال المتطوعين الملمين بأصول الحرب، واستعمال السلاح الناري.

ولذلك شرع هؤلاء القادة بالاتصال بالسلطات المغربية، وبالسلطات التركية في الجزائر من جهة، وبالاتصال باخوانهم الأندلسيين في المناطق المحيطة بغرناطة، لمعرفة مدى استعداد هؤلاء وأولئك للمساهمة الفعالة الجدية في الثورة القادمة إذا ما نشبت.

٢٣٢ ـ الاتصال بالمناطق الأندلسية:

بذل القادة الغرناطيون جهدهم للوقوف على استعداد إخوانهم الأندلسيين للمساهمة في الثورة، وعملوا في ذلك بتكتم شديد، لكيلا تطلع السلطات الاسبانية على شيء من مخططاتهم فتحبطها، ولاحت الفرصة المواتية لهم للعمل والتطواف في المناطق الاسلامية، فاغتنموها. فقد أجيز للعرب تأسيس جمعية خيرية لمساعدة الفقراء والمرضى منهم، وشرعوا في بناء مستشفى لهم خارج أسوار غرناطة. ولكن المال نفد قبل إكمال البناء فاقترح القادة المفكرون في الثورة على رئيس الجمعية أن يوفدوا بعض أعضاء الجمعية لجمع المال من عرب المناطق المجاورة، فوافق على ذلك. وتقدم بطلب إلى دوديسا فسمح للجمعية بجمع المال، وبعد أن حصلوا على هذه الموافقة أرسلوا شخصين من أعضاء الجمعية المؤمنين بفكرة الثورة للتطواف، وكلفوهما بزيارة جميع البيوت، وتقصي رغبات إخوانهم وإمكاناتهم، واستعدادهم للمساهمة المادية في الثورة، كما طلبوا إليهما إحصاء الأشخاص القادرين على حمل السلاح الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و ٤٥ سنة، والذين يرغبون في الانضمام للثورة، إذا اندلعت نيرانها. وكان الموفدان مثال النباهة والذكاء، فعملا بنشاط وتكتم شديدين، وبحثا الأمر، ووقفا على رغبات من اتصلا بهم دون أن يفطن أحد إلى مهمتهما، واتخذا لنفسيهما صندوقين يضعان في أحدهما المبالغ المجموعة للاعانات، وفي الثاني يضعان قطعة نقدية من كل ذكر قادر على القتال، وراغب في الاشتراك فيه. وتقول الروايات الاسبانية أن الموفدين المذكورين دخلا ١٢٠ ألف بيت وبحثا الأمر ملياً مع جميع من اتصلا بهم، ولكن بحذق كبير، وشددا على إخوانهما بضرورة الكتمان.

٢٣٣ ـ عدد الراغبين في الثورة:

ولما عاد المرسلان إلى غرناطة فتح القادة الصندوق المخصص لاحصاء القادرين على الاشتراك في القتال، والراغبين فيه. فتأكد لهم أن فيه ٤٥ ألف قطعة نقدية، وهذا يعني أن الثورة تستطيع أن تعتمد على مساهمة هؤلاء فيها.

٢٣٤ ـ نتائج الاتصالات بالجزائر والمغرب:

وأوفد القادة رسلا إلى السلطات المغربية، وإلى السلطات التركية في الجزائر، يبحثون الأمر معها، وقد تكللت مساعي الموفدين بالنجاح، إذ وعدهم شريف مراكش بالنجدة إذا استطاعوا حشد قوات ذات أهمية يمكنها إحداث أثر على سير الأحداث. أما علوش علي باشا والي الجزائر التركي فقد وعدهم بإرسال قوات تنزل في شواطىء الأندلس، حينما يطلبون ذلك، وأرسل معهم عدداً من المتطوعين الجزائريين مسلحين بأحدث الأسلحة لمعاونة المنفيين.

٢٣٥ ـ بوادر الثورة:

شجعت نتائج الاتصالات بالعرب الأندلسيين وبالسلطات الاسلامية في المغرب والجزائر، قادة الثورة على المضي في استعداداتهم لاعلانها. وجرأت هذه الوعود قادة المنفيين فأخذوا ينزلون من معاقلهم إلى مرج غرناطة في وضح النهار، ويعاقبون الاسبان على ما يرتكبونه من جرائم بحق إخوانهم العرب، وراجت إشاعات كثيرة عن وصول قوات تركية جزائرية إلى اسبانيا. وتقول الروايات الاسبانية، إن الجميع من عرب وإسبان، أدركوا أن شيئاً ما سيقع، ولكن لا يدري أحد ما هو، ومتى يقع. ولم يكن هناك إلا شخصان لم يقتنعا بإمكان حدوث الثورة، وهما دوديسا، رئيس الادارة المدنية، والمركيز (دومونديخار) القائد العام للجيش، فقد اعتقد كل منهما أن الأمر لا يعدو الشائعات، وأن العرب إذا كانوا سيقومون بثورة فإنهم ألفوا التكتم والحرص.

وخشي القادة من افتضاح الأمر فذهب أحدهم إلى دوديسا، يشكو إليه باسم العرب من الاشاعات المغرضة التي تلفق حول قرب نشوب ثورة يقومون بها. وقال له

ان مثيري هذه الشائعات إنما يقصدون من ذلك زيادة التعديات على العرب، والانتقام منهم، وعرض أن يقدم العرب للسلطات ٣٠٠ رهينة. وطالب بإجراء تحقيق في الأمر، ومعاقبة من تثبت ادانته. فصرفه دوديسا معتقداً أن الأمر لا يعدو الشائعات. وفي الوقت نفسه عاد المركيز دومنديخار، القائد العام من البلاط بعد أن أكد للسمؤ ولين ان العرب لن يثوروا، واتصل بوجوه الأندلسيين، وأكد لهم أنه سيمنع عنهم تعديات الكاردينال دوديسا، إذا تعاونوا معه، وأنه سيحل قوة الشرطة التي ألفها دوديسا، وألزم العرب بنفقاتها، فوعدوه بالتعاون معه. وأرسل المركيز تقريراً إلى البلاط ضمنه نتائج اتصالاته بالعرب، وطلب الموافقة على حل فرق الشرطة فوافق البلاط عليه لكن دوديسا، تمكن بعد حين من استصدار أمر من الملك بالغاء الأمر الصادر بحل فرق الشرطة. وكانت تتتالى في ذلك الحين الأخبار الواصلة إلى البلاط عن قرب ثورة العرب، فكان يحيلها إلى سلطات غرناطة للتحقيق في مضمونها.

٢٣٦ ـ التنافس بين القائد العام والكاردينال:

كان بين الكاردينال دوديسا وبين القائد العام دوموندیخار تنافس شديد، وقد خدم هذا التنافس العرب في ستر حركتهم، إذ كان كل منهما يسعى لافساد خطط الآخر. فدوديسا كان يحاول إقناع البلاط بعدم وجود نية لدى العرب للقيام بحركة، ليمنع المركيز من تدعيم سلطانه وزيادة قواته، وزيادة نفوذه وانفراده بوضع المخططات بحجة المحافظة على الأمن، ومنع وقوع الثورة. والمركيز يحاول اقناع البلاط بهدوء العرب ليتوصل إلى إضعاف نفوذ الكاردينال عن طريق حل فرق الشرطة الخاصة التي أقامها الكاردينال، وألزم العرب بدفع نفقاتها. وأصدر دوديسا على سبيل الاحتياط أوامر ترمي إلى ضمان الهدوء منها:

١ ـ أمر يقضي بإبعاد جميع الغرباء عن حي البيازين بدون استثناء.

٢ ـ أمر يقضي بعقوبة الأشخاص الذين يتعاونون مع المنفيين.

وبتاريخ الأول من كانون الثاني ١٥٦٨، أصدر أمراً يقضي بأن يسلم العرب أولادهم الذين تتراوح أعمارهم بين ٣ سنوات و١٥ سنة، إلى السلطات لادخالهم المدارس، وتلقينهم الديانة المسيحية، واللغة الاسبانية. وقد كان لهذا الأمر أبعد الأثر في دفع العرب إلى الثورة، إذ أدركوا أن السلطات الاسبانية تلاحقهم بلا هوادة، ولا أمل لهم في حملها على التراجع عما اعتزمته من اضطهادهم.

٢٣٧ ـ قرار الثورة:

وجاء رد الملك على مراجعات العرب حاسماً لا يقبل المناقشة، فأدى كل ذلك إلى اتخاذ العرب قرارهم بالثورة، وشرعوا في إعداد العدة لاعلانها في الوقت المناسب. ونشط القادة الغرناطيون في عقد الاجتماعات مع زعماء البشرات الذين ستكون منطقتهم منطلق الشرارة الأولى للثورة على الظلم.

وفي الاجتماع الثاني الذي عقد في غرناطة تقرر تعيين يوم الخميس المقدس في ١٤ نيسان ١٥٦٨، موعداً للإعلان، ووزع المجتمعون المهام فيما بينهم للاسراع باتمام الاستعدادات قبل حلول الموعد المحدد، والاتصال بسلطات الجزائر ومراكش لتؤمن السلاح والمتطوعين. والاتصال بقادة المناطق الأندلسية الأخرى ليكونوا على استعداد للتحرك في الموعد المحدد.

وتورد الروايات الاسبانية أسماء عدد من الزعماء العرب الذين قاموا بالحركة، ويلاحظ الانسان أن أسماء بعضهم مختلطة عربية واسبانية. وذلك لأن الاسبان أجبروا العرب على أن يتخذوا أسماء اسبانية. ومن بين القادة الذين تورد الروايات الاسبانية أسماءهم: الأخوة الثلاثة من آل البرطال، وابن جوهر (ويعرف بالصغير) وديجو لويس بن عبو، وفرج بن سراج، وفرناندو مولاي دوفالوراي كوردبا (وأصبح ملكاً للثائرين وتسمى باسم محمد بن أمية). وقرر المجتمعون انتخاب ملك ليشرف على الثورة، وينسق أعمالها، ويعلن بعث الدولة العربية فور اعلان الثورة، وقدروا بأن ذلك سيكون حافزاً مهماً للعرب على التحرك في كل مكان في اسبانيا. ولكن التفكير في انتخاب ملك للحركة خلق تنافساً بين شخصين أحدهما فرج بن سراج، الذي كان يريد الملك لنفسه، وبين ابن جوهر الذي كان يريد الملك لابن أخيه محمد ابن أمية. وتصف الروايات ابن جوهر بأنه رجل قوي الشخصية، له نفوذ واسع على رجال البشرات، وقد نشط الرجلان في العمل لكسب الأنصار والمؤيدين، وكان من نتائج تنافسهما انجاز الاستعدادات في البشرات قبل الموعد المحدد.

٢٣٨ ـ رفض عرب مرسية وبلنسية الاشتراك في الثورة:

لم يستطع الرسل الذين كلفوا بالاتصال بقادة العرب في مملكتي مرسية وبلنسية، إقناع إخوانهم في المملكتين بالثورة في نفس الوقت الذي تنطلق فيه ثورة عرب غرناطة.

ولا يدري أحد اليوم الأسباب التي دفعت بعرب هاتين المملكتين إلى اتخاذ هذا الموقف المتخاذل، ولكن من المرجح أنها تعود إلى الموقف المتربص الذي وقفه عرب مملكة غرناطة إبان ثورات بلنسية.

٢٣٩ - انتخاب الملك:

لم يعلن الاندلسيون ثورتهم في ١٤ نيسان ١٥٦٨، كما كان مقررا، وإنما أجلوا الموعد مرتين. وفي ٢٧ ايلول ١٥٦٨ دعا ابن جوهر قادة الثورة إلى عقد اجتماع في حي البيازين، وشرح لهم في هذا الاجتماع الأسباب التي تدعوهم إلى إعلان الثورة في أسرع وقت، وتعيين القائد العام للثورة ليتمكن من ادارتها وتنظيمها. وبعد أيام استدعى ابن جوهر ستة وعشرين شخصاً من مختاري البشرات، وجمعهم مع رؤساء التنظيم في حي القصبة. وطالبهم بانتخاب الشخص الذي يرونه اهلاً لأن يكون ملكا للمملكة العربية، التي ستعلنها الثورة من جديد، ورشح لهم ابن اخيه فرناندو محمد، فوافق المجتمعون على انتخابه بالاجماع. وكان فرناندو شاباً وسيماً شجاعاً في الثانية والعشرين من عمره، وهو من احفاد بني امية. ولما تم انتخابه صفق له الحاضرون. واتخذ اسم (مولاي عبد الله محمد بن امية ـ ملك غرناطة) (وتسميه الرواية الاسبانية دون فرنانديللو ملك البشرات). ثم نصبه أصحابه وفقا للمراسم العربية التي كانت متبعة، فألبسوه ثوبا أحمر، ووضعوا على رأسه عمامة، واجلسوه متجهاً جهة القبلة على أربعة أعلام تتجه حرابها إلى الجهات الأربع. ثم نهض فصلى بالحاضرين وأقسم أمامهم على أن يموت في سبيل الدفاع عن دينه، وعن حريته، ومملكته، وشعبه، وتقدم الحاضرون بعد ذلك فرفعوه على اكتافهم، واخذوا في التهليل والتكبير، ودعوا الله أن يبارك ملكهم، ويوفقه، وينجح ثورتهم. وبعد ذلك عين الملك عمه ابن جوهر قائداً عاماً للثورة، ثم عين ضباطه. واتفق الحاضرون على أن يكون موعد اعلان الثورة ليلة عيد الميلاد ١٥٦٨.

ويكون اعلان الثورة على الشكل التالي: حينما تظهر الاشارة المتفق عليها من أعلى مرتفع جبل الحمراء، ينتظم أهل البيازين في ثلاث كتائب، ويزحفون إلى ساحة باب الرملة، ولا يتوقفون في طريقهم إلا لاخلاء السجون، والقبض على القضاة. وحينئذ يسرع ثمانية آلاف رجل من أهل مرج غرناطة، ووادي الكرين، لمهاجمة أبواب المدينة، ويلبس هؤلاء زي الجنود الأتراك أو الزي البربري ليظن الناس

أنهم نجدات فيشتد عضدهم. ويتقدم في نفس الوقت ألفا رجل من (المنفيين) بقيادة القائدين (البرطال) و(الناقص)، عن طريق (وادي شنيل)، ليكمنوا بالقرب من غرناطة، حتى اذا اعلنت الثورة تقدموا لمهاجمة الحمراء من جهة جنة العريف، للاستيلاء عليها. وإذا ما حصل لبس في الاشارة يستعمل المدفع كاشارة ثانية.

٢٤٠ ـ انتشار الشائعات عن قرب نشوب الثورة:

وحينما حل شهر كانون الأول اخذ الناس يتحدثون عن قرب وصول ستة آلاف جندي تركي إلى اسبانيا ليلة عيد الميلاد. وفي ٢٣ كانون الأول جاء إلى أحد القسس رجل، تقول الرواية عنه إن اسمه فرانسوا بن آدم، ليعترف لديه، ثم أفضى إليه بمعلومات جاء فيها، إنه معمار في الحمراء، وإنه أعطى بعض المسلمين معلومات عن مقاييس سلالم الحمراء. فأبلغ القسيس ذلك فورا للكردينال دوديسا، وللقائد العام، فلم يصدقا هذه الأقوال، وكان كل ما اتخذه القائد العام من احتياطات هو زيادة عدد الدوريات.

٢٤١ ـ هرب الملك الى البشرات:

وفي ليلة ٢٣ كانون الأول هرب الملك ابن امية من غرناطة إلى البشرات. وتختلف الروايات في أسباب هربه. فمنها ما يقول إنه هرب بالنظر لقرب موعد اندلاع الثورة، ومنها ما يقول إنه إنما هرب ليثبت حقه في البشرات، ويحصل على البيعة، ويفوت الفرصة على منافسه فرج بن سراج.

٢٤٢ ـ وقوع حادث لم يترك خيارا للثائرين:

وفي ٢٣ كانون الأول ـ ليلاً ـ وقع حادث في البشرات لم يترك للعرب خيارا، فحملوا السلاح، واعلنوا الثورة. وتقول الرواية الاسبانية إن مفرزة اسبانية مؤلفة من ضابط وخمسين جندياً، كانت تنقل شحنة من البنادق، إلى البشرات، وكان من عادة هذه المفارز أن ترتكب ما يحلو لها من سلب ونهب، وتقوم بالتعديات والاثارات. ولما حل المساء اتجهت المفرزة إلى قرية للمبيت فيها. ويبدو أن بعض أفرادها خرجوا

يبحثون عن شيء يسرقونه، فالتقى بهم (استيبان البرطال) احد قادة المنفيين فقتلهم، ثم أمر ابن جوهر المنفيين بالقضاء على بقية رجال المفرزة والاستيلاء على أسلحتهم. فكانت تلك الحادثة الشرارة التي اشعلت فتيل الثورة. وبعد ثلاثة أيام عم لهيب الثورة في كل مكان في مملكة غرناطة، ووصلت إلى المرية ووادي الكرين. ثم انقض الثائرون على رجال الحاميات الاسبانية الموجودين في المناطق الثائرة فقتلوا بعضهم، وأسروا أكثرهم، ولم يستطع هؤلاء المقاومة نظراً لاتساع نطاق الثورة، وشمولها كل مكان. ولم يبق بيد القوات الاسبانية إلا قريتا (أورجبة) و(أجيجر)[1]. واتجه ابن جوهر مع بعض القوات لحصار (اوشيخار) وذهب فرج بن سراج الى غرناطة لاشعال نار الثورة فيها، وفقا للمخطط الموضوع.

٢٤٣ ـ بيعة اهل البشرات لابن امية:

امـا ابن اميـة ـ الملك المنتخب ـ فقـد انصـرف الى جمع النـاس من نواحي البشرات الاثنتي عشرة، ليحصل على البيعة منهم، فوفق إلى ذلك. ولما عاد فرج من غرناطة كان كل شيء قد انتهى. وتقول الرواية إن (فرج) حاول التمرد، واثارة الفتنة استنادا إلى القوة التي يرأسها من المنفيين، ولكن جماعة ابن امية اقنعوا أصحابه بعدم إثارة الفتنة، وأخيرا قنع فرج بما تم، وسماه ابن امية وزيره.

٢٤٤ ـ اخفاق فرج في اثارة غرناطة:

توجه فرج مع ١٨٠ رجلاً من المنفيين الى غرناطة، وكان الجـو بارداً، والأرض تكسوها الثلوج، واتصل فرج وأصحابه بقادة البيازين، محاولاً حملهم على تنفيذ الخطة المتفق عليهـا، واعطـاء اشـارة الثـورة، لينطلق رجـال البيـازين، ورجـال المـرج، ووادي الكرين، لتنفيذ المهام المنوطة بهم. فرفضوا ذلك لما رأوه من قلة رجال فرج، وقالوا له كيف تريدنا أن نقدم ٨٠٠٠ رجُل بينما تأتي أنت مع أربعة من الحفاة. ولما يئس فرج من اقنـاعهم هددهم بأنـه سيحملهم بالقـوة على الثـورة أو تركهم يهلكـون. وتفرق رجـالـه في غرنـاطـة ينادون باعلان ثورة الإسلام، وبعث المملكة الاندلسية، ويحثون

---

١ ـ هما اليوم: اورجيه (Orgiva) ، واجيجر (Ujijar)

الناس على النهوض لحمل السلاح، للثأر لكرامتهم المهانة، ودينهم المضطهد، والانضواء تحت علم الثورة. ولكن أهل غرناطة لم يتحركوا. ويبدو أنه لو وفّى أهل البيازين وغرناطة بما تعهدوا به في المؤتمر التحضيري للثورة، لسهل عليهم السيطرة على غرناطة، لأن القائد العام الاسباني لم يتخذ أي تدبير احتياطي حتى ذلك الحين. وقد ألزم البرد والثلوج دوريات الجيش، بقصر أعمالها على ما لا بد منه.

ولكن جميع الجهود والمحاولات التي بذلها فرج وأصحابه، لم تفلح في حمل أهل غرناطة على الثورة. وفي الصباح انسحب فرج وأصحابه من البلدة، وساروا تحت لوائهم بانتظام أمام سمع الاسبان وبصرهم، فلم يجرؤ أحد منهم على اللحاق بهم. ولما وصلوا إلى وادي نهر شنيل، توقفوا هناك بعض الوقت لعل مدافع الحمراء تنطلق فيلتبس الأمر على رجال المرج، ويقوموا بهجومهم المقرر. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث فانسحبوا إلى البشرات.

وتحرك نصارى غرناطة يتنادون إلى السلاح، والانتقام من المسلمين، فأخذ المسلمون يهربون بنسائهم وأطفالهم إلى البشرات، وينضمون إلى جماعة فرج. وأرسل القائد العام بعض القوات لمطاردة الهاربين، وقبضوا على بعضهم، وخاف أناس من المسلمين وقوع نسائهم وبناتهم في يد الاسبان فقتلوهن انقاذاً لشرفهن. وتمكن فرج واصحابه من انقاذ الكثيرين، إذ تمركزوا في بعض المرتفعات، وسددوا نيران أسلحتهم إلى الفرسان الاسبان واضطروهم إلى الارتداد.

٢٤٥ ـ اشتعال الثورة في المناطق الاخرى:

وبعد ان عاد فرج من غرناطة، وتمت التسوية بينه وبين ابن امية، كلفه الملك بأن يتجه إلى المناطق الاخرى، لاشعال نيران الثورة فيها، ويعود سريعاً لاتخاذ الترتيبات التي يقتضيها الموقف، فقام فرج بالمهمة خير قيام. وتصف الروايات الاسبانية فرجاً بأنه رجل نشيط بعيد النظر، وأنه كان له الفضل الأكبر في وضع خطة حربية، لو تمكن من انفاذها لقلبت الموقف رأساً على عقب.

٢٤٦ ـ نبل العرب:

وتقول الرواية الاسبانية إن العرب في المناطق الثائرة تمكنوا خلال وقت قصير من السيطرة على الموقف في جميع منطقة البشرات، وإنهم عاملوا الاسبان بنبل

واعتدال، برغم جميع ما لاقوه من عسف الاسبان، وازعاجهم، واعتداءاتهم، فكانوا يحتفظون بمن يقبضون عليه منهم، كرهائن في بعض الأماكن، وفي مناطق أخرى كانوا يؤمنون انسحابهم إلى حيث يشاؤون، دون أن يصيبهم ضرولا أذى، حتى ان بعض الاقطاعيين الاسبان قاموا على رأس عصابات من اتباعهم، بمهاجمة الثائرين، فحاربهم المسلمون، وانتصروا عليهم، وقتلوا بعضهم، وأسروا آخرين. ولما تم للمسلمين النصر، قادوا الأسرى الى (شلوبانية). ويقول الكونت سيركور، إنه ظهرت في هذه الآونة الحساسة أمثلة كثيرة تدل على نبل العرب وأمانتهم وإخلاصهم[1].

على أن الأمر لم يخل من بعض العنف يصدر عن بعض الناس. فبعض النفوس تصفح وتتغلب عليها الرحمة، وبعضها يستبد به الغضب، وحب الانتقام، فتستسلم له. ومن الطبيعي، وقد لاقت هذه النفوس ظلماً ليس له مثيل في تاريخ الانسانية، أن تتفجر، ويشذ بعضُها عن طريق الصواب. ومع ذلك، فإنه رغم اتساع نطاق الثورة، واختلاف أهواء الثائرين، ومشاربهم، وعقلياتهم، فإن حوادث العنف كانت قليلة جداً، حتى تكاد لا تذكر. وكان أبرزها ثلاث حوادث، وهي تعبر عن نقمة مرتكبيها على محاولات رجال الدين الاسبان إكراه المسلمين على التنصر، وعلى شرب الخمر، واكل لحم الخنزير، وحضور القداس. ففي مدينة (مايرنا) حشا الثائرون بعض القسس بالبارود وفجروهم، وفي (قوجر)، قبض الثائرون على قسيس كنيسة المدينة، ثم قادوه إلى الكنيسة، واجلسوه على كرسي الوعظ كعادته أيام الآحاد، وقرعوا الجرس، وأمروا معاونه بأن يقرأ التفقد، وينادي بأسماء الحاضرين، مثلما يفعلون عادة في القداس، فكان كل من ينادى باسمه يتقدم، ويمر أمام الخوري فيصفعه، ويشد لحيته وشاربيه، ثم تقدم شخصان فقتلاه. وفي الحادث الثالث ذبح الثائرون خنزيراً على مذبح كنيسة (ادرا)، وهو تعبير منهم عن النقمة التي يستشعرونها على القسس الذين يجبرونهم على أكل لحم الخنزير المحرم في الإسلام.

٢٤٧ ـ الاستغناء عن خدمات فرج:

والقائد العربي الثائر الذي ارتكب اعمال عنف ضد الاسبان عسكريين

---

١ ـ كونت سيركور ج٢ ص ٣١١.

ومـدنيـين، هو فرج بن سراج، حتى قيـل في بعض الـروايات إنه قتل خلال ستة أيا، ثلاثـة آلاف شخص منهم. ولمـا اتصل خبر تصرفات فرج بالملك ابن أمية أصدر أمره بألا يقتـل إنسـان بدون محاكمـة(1)، وأبعـد فرجاً عن الوزارة، وعهد بها إلى عمه ابن جوهر، وبذلك انطفأ ذكر هذا الرجل النشيط.

٢٤٨ ـ تتويج الملك ابن امية :

وبعـد اقصـاء فرج تتوج ابن أمية في قرية (لانخار) باحتفال كبير، وتزوج فوراً من ثلاث نسـاء فاصبح لديـه أربـع نسـاء، وأصدر امراً إلى جميع المسلمين بالثورة، وحـذرهم من ارتكـاب جرائم قتـل الأبرياء من نساء وأطفال وشيوخ، وغير المحاربين من الـرجـال، وهـدد من يقـترف مثـل هذا الجرم بالإعدام ومصادرة المال(٢)، واختار مستشاريه العسكريين، وبعث جيش الفرسان الذي كانت تشتهر به غرناطة، وسمى قائدا لكل ناحية. وبعد ان تفقد المناطق الثائرة عاد الى (اجيجر) في ٢٩ كانون الأول ١٥٦٨.

٢٤٩ ـ اول نصر للثائرين :

وفي ٢٨ كانون الأول تمكن الثائرون من الحاق هزيمة كبيرة بالقوات الاسبانية في (وادي الكـرين) فانسحبت من المـراكـز الامـاميـة الـواقعـة بين (جسـر الطبلات) و(دركايل) واصبح جميع (وادي الكرين) في قبضة الثائرون.

٢٥٠ ـ قادة المناطق العرب :

عين ابن امية عدداً من القادة لادارة العمليات في المناطق الثائرة منهم: (ميجيل دو غرانادا شعبان)، قائداً لوادي الكرين، وامره بمهاجمة (دركايل). (مـاركـوس الـزمار) في منطقة (قوبجر) و(ماتيو الرامي) في منطقة المرية، وكلفه

---

(١) كونت سيركور ج٢ ص٣١٦

(٢) نفس المصدر ج٢ ص ٣١٦.

بمهاجمة المرية . و(فرناندو الغُرِّي) وجعله قائداً لوادي المنصورة . و(فرانسيسكو بورتو كاريـرو بن مكنـون) ، وجعله قائـداً للمنطقـة الشرقية . و(جير ونيمو المالح) ، وجعله قائداً لمنطقة (زينيت) و(وادي آش)[1]. و(مرتين قايد) وكلفه بمحاصرة ادرا . ووضع ثلاثة من القادة تحت امرته لمعاونته في اعمال الدفاع عن البشرات . وهم : (الناقص) ، و(الرنداتي) ، و(جيرنسيلو الارشيدوني) .

٢٥١ ـ التنافس بين الزعماء الاسبان :

لم يخفف انـدلاع الشـورة من حدة التنـافس بين القـائد العام وبين الكاردينال . وليزيد الكردينال في نكاية القائد العام وازعاجه ، عمد الى اتخاذ إجراءين:

١ ـ الف حرساً وطنياً تحت قيادة ضابط من ضباط البلدية ، ينتسب الى عائلة شديدة الخصومة لآل مندوسا ، عائلة المركيز القائد العام .

٢ ـ وكتب الى الملك يرجـوه تكليف قائـد منطقـة مرسية (مـركيـز بلش) (دون لويس فاخاردو) ـ وهو ايضا من عائلة شديدة العداوة لعائلة القائد العام ـ بأن يهاجم البشـرات من المنطقـة الشـرقيـة ، فوافق الملك على ذلـك ، وأمـر المـركيز: دو فيليس بالاستعـداد للقيـام بالعمليـات من الشرق . وكان من نتيجة ذلك أن استاء المركيز دو مونديخار وأصدقاؤه ، وخفَّت حماستهم .

٢٥٢ ـ اثر تدخل المركيز دو فيليس (مركيز بلش) :

اسرع المركيز دوفيليس في جمع ثلاثة آلاف رجل من اتباعه ، ومن جنود الحرس الـوطني (المليشيـا) ، في منطقـة لورقـة واتجـه بهم إلى منطقـة المـرية في ٤ كانون الثاني ١٥٦٩ ، وتـابـع سيره حتى بلغ سفح جبل البشرات . وهناك وافته قوات من بسطة . وفي ١١ منه تلقى أمر الملك بتعيينه قائدا عاماً فوق العادة لمنطقة المرية . وكان لتحرك

---

(١) وهذه القرى هي اليوم: شلوبانية (Salubrena) . (Gyahares)
ادرا (Adra) ، اجيجر (Ujijar) .
وادي الكرين (Val Lucrin) ، دركايل (Durall) .
زينيت (Zenel) ، وادي اش (Gudix) .

هذا المـركيـز أثـر رادع ، إذ شل حركـة عرب وادي نهر المنصورة . ومنعهم من الانضمام إلى الثورة .

٢٥٣ ـ تحركات قائد غرناطة :

ولما علم المركيز (دوموندیخار) القائد العام لمملكة غرناطة ، بتعيين خصمه ، أراد أن يثبت وجـوده وينهي الثـورة قبـل أن يتسـع الخـرق ، ويفقد مركزه ومكانته . فأسرع على رأس ٢٤٠٠ رجـل إلى منطقـة وادي الكـرين ، وعسكر في (البذول)(١) وتقدمت مقـدمـة جيشـه الى (دركـال) . ولما علم القائد العربي (شعبان) بتقدم الاسبان اليه ، هاجم مقدمتهم بقوات كبيرة . وتبالغ الروايات في تقديرها اذ تجعلها ٦٠٠٠ ؛ فاحتل دركـال وقتـل كثيـراً من رجـال المقـدمة ، ولكن بعضهم لجأ الى الكنيسة وتمركز فيها ، وقاوم طوال الليل . وفي الصباح سمع القائد الاسباني طلقات النار فاسرع على رأس قوة من فرسـانـه الى دركـال فاضطـر المسلمـون الى الانسحـاب . وحينما رأى القائد الاسبـاني كثـرة جيش (شعبـان) ادرك أهميـة الثـورة العـربيـة ، ففضل عدم المخاطرة بدخـول البشـرات قبل أن تصله نجدات جديدة ، وبقي حيث هو . ويفيض الكتاب الغـربيـون في وصف الفـوضى التي كانت تسـود الجيش الاسباني ، وفي سفالة هؤلاء الجنـود . ويقـول الكونت سيركور في هذا الصدد (إن رواية أحد مرافقي الجيش تشير إلى أن بين جنـود المركيز الـ ٢٤٠٠ رجل ألفاً ومئتين على الأقل لا يخجلون إذا دعاهم الإنسـان لصـوصـاً . وقـد أصـدر اليهم القـائـد العام أوامر مشددة بعدم الاساءة إلى السكـان العـرب على اعتبـار أن الجيش أتى لتهـدئـة الثـورة ، وليس للسلب والنهب والتعسف . ولكن الجنود لم يهتموا بأوامر قائدهم ، ولم يحترموها ، وكان أول من خالف أوامـره ابنـه (الكـونت دوتانديلا) الذي بدأ بالاتجار بالمغانم ، كما أن الضباط الآخرين كانوا يدفعون جنودهم إلى السلب والنهب)(٢) .

---

١ ـ البذول PADUL

٢ ـ كونت سيركور ج٢ ص ٣٣٠ .

٢٥٤ ـ بدء المعارك :

بقي القائد العام معسكرا في دركال حتى وصلته من مدن مقاطعة الاندلس نجدات من المغامرين النبلاء الطامعين في الاثراء عن طريق المغانم. فبلغ تعداد جيشه حوالي خمسة آلاف رجل. وشرع في ٩ كانون الثاني ١٥٦٩ في الزحف على البشرات، حتى وصل (جسر الطبلات). وهذا الجسر يمتد فوق غور سحيق تمر به طريق البشرات إلى غرناطة. وكان ابن امية نفسه يقف امام هذا الجسر على رأس خيرة رجاله لصد الاسبان، لأنه كان يقدر أنهم سيحاولون سلوكه للوصول إلى اورجبة لنجدة حامياتها التي أخذت مقاومتها في الانهيار.

وتقدر الروايات الاسبانية قوات ابن امية باربعة آلاف رجل، يؤلفون ثلاث كتائب، يقودها تحت اشرافه ثلاثة من القادة هم: (الناقص) و(الرنداتي) و(جيرنسيلو الارشيدوني). وليمنع ابن امية تقدم الاسبان أمر بهدم الجسر، ووضع ألواحا من الخشب تسمح بالعبور لشخص واحد، وأقام الرماة في مرتفع يسيطر على الجسر ويؤمن حمايته. وحينما تقدم الاسبان من الجسر اطلق عليهم المسلمون نيران اسلحتهم فتراجعوا مذعورين. واحدث هرب المقدمة اضطرابا في الجيش كله. ولم يتمكن المركيز من السيطرة على الموقف، ومنع جنوده من الهرب، الا بصعوبة بالغة. وتقدم هو أمام الجيش فاصابته قذيفة لم تلحق به كبير أذى، وحمي وطيس المعركة، وشرعت المدفعية باطلاق نيرانها على مراكز المسلمين، وكان ابن أمية يتجول على طول الجبهة يدير العمليات ويعطي الأوامر ويشجع المقاتلين وكان يركب حصاناً أبيض، ويلبس ثياباً مزركشة. وبعد قصف شديد من المدفعية الاسبانية، اضطر المسلمون إلى التخلي عن مواقعهم المسيطرة على الجسر، فتقدم الاسبان لعبوره، ولكنهم ذعروا من العبور على ألواح خشبية ضيقة وغير مثبتة، إلا أن أحد الرهبان خاطر نفسه، وعبره أمامهم، فعبروه وسقط بعضهم في الخندق فدقت أعناقهم. وحاول المسلمون مهاجمة الذين عبروا الجسر، فردتهم المدفعية واضطرتهم إلى التراجع وانسحب القادة المسلمون برجالهم إلى مواقع حصينة. وتابع الاسبان تقدمهم حتى وصلوا (أورجبة) فوجدوا حاميتها في حالة صعبة. وقد أتاح للاسبان تمركزهم في أورجبة، السيطرة على المنطقة الثائرة وتهديدها.

ويصف المؤرخون الغربيون حذق ابن امية، وبعد نظره، وكفاءته الحربية، ويقولون، إنه لو كان تحت امرته جنود مدربون لأمكنه أن يتعادل مع المركيز دو

مونـديخـار، ولكن جنـوده كانـوا فلاحـين بسطـاء تؤثر في نفوسهم الهزيمة والتراجع، وتضعف من ثقتهم وهممهم(١).

ترك الاسبـان في جسـر الطبلات قوة من رجالهم تحميه وتحرس الممر فلما ابتعدوا قام القائدان العربيان الناقص والارشيدوني بمهاجمة مفرزة الحراسة وقضيا عليها قضاء تامـاً، ولكنهما انسحبا من المنطقـة دون أن يدمـرا الجسـر، أويتركا عنده قوة تحميه، وتقطـع الطـريق على الاسبـان. ولـو فعـلا ذلـك لهددا جيش المركيز مونديخار تهديدا خطـيراً، ولأجـبراه على الانسحاب متراجعاً من حيث أتى أوعلى استدعاء ابنه مع القوات الموجودة في غرناطة، وكلاهما شديد الخطورة بالنسبة إليه. ولما انسحب العرب من منطقة الطبلات، أرسل الاسبان قوة احتلت الجسر، وتابع المركيز تقدمه.

٢٥٥ ـ اهم المعارك التي جرت:

أ ـ في المنطقة الغربية:

١ ـ تمركز ابن امية بعد انسحابه من جسر الطبلات في (بوبيون) حاضرة منطقة (بكـيرة)، ووضـع قوتـين كبـيرتـين في الجنـاحـين، وقـوة صغيرة في القلب، مهمتها استدراج الجيش الاسباني، الى المكان المناسب ثم تطبق عليه قوتا الجناحين. وتقدم المـركيـز فنـاوشـه القلب وهويتراجع فاندفع الاسبان كلهم في الهجوم، كل منهم يريد الفوز بمغنم، وحينئذ انقض عليهم العرب من كل جانب، فانهزمت فصيلة الرماة، ودبَّ الخلل في صفوف الاسبان، ولم يستطع المركيز اعادة النظام إليها إلا بجهد كبير. ولما وجد العرب أنهم فقدوا عنصر المفاجأة اضطروا إلى الانسحاب، وغنم النصارى مغانم لا تحصى، مما خلفه العرب بعد انسحابهم.

٢ ـ وانتصر قائد وادي آش الاسباني على جير ونيمو المالح، في مضيق رباحه، فانسحب المالح وجيشه الى البشرات.

٣ ـ وهاجم ٨٠٠ من العرب، الاسبان المتمركزين في (بطره)، وكان الضباب كثيفـاً، فهزموا الاسبان هزيمة منكرة، ولما انقشع الضباب وجد الاسبان أنهم امام قوة غير كبيرة، فعادوا إلى الهجوم، فانسحب العرب.

---

١ ـ سيركورج ٢ ص ٣٣٦.

٢٥٦ ـ المعارك في الجبهة الشرقية :

١ ـ كان القائد فرناندو الغُرِّي مكلفاً بقيادة القوات الثائرة في الجبهة الشرقية، وبعد معارك عديدة خاضها مع الاسبان، ارتد إلى منطقة وادي المرية، وأقام معسكره في (جيسيخا) الواقعة على نهر المرية، ورمم فيها بعض التحصينات، وزاد في عدد الحواجز والمتاريس، وإغراق الأرض بمياه الأقنية، ليعيق تقدم الفرسان في مسالك الجبال. وتقدر الروايات الاسبانية عدد القوات التي كانت تحت إمرة (الغُرِّي) بحوالي عشرة آلاف. ولما أصدر الملك أمره إلى مركيز بلش بمهاجمة المناطق الثائرة من الجهة الشرقية، تقدم هذا على رأس قوة تقدر بحوالي خمسة آلاف راجل وثلاثمئة فارس، وصفهم مؤرخ كان يرافقهم ويدعى ـ بيرس دوهيتا ـ بأنهم كلهم لصوص وهو ـ أي المؤرخ نفسه ـ أولهم، ليس لهم هم غير السلب والنهب، وهتك الأعراض، والقتل، فكانوا يسرقون كل ما يقع تحت أيديهم حتى القطط، وذلك لكيلا يفقدوا عادة السرقة، ولم يكن قائدهم المركيز بأشرف منهم، وقد كلف أخاه بقسمة الغنائم فكان يختصه بأفضلها[١].

ووصل المركيز إلى (جيسيخا) يوم ١٢ كانون الثاني ١٥٦٩ فالتحم به الثائرون، وأخيراً تمكن الفرسان الاسبان من الاشتراك في المعركة، وبعد قتال شاق ومرير، دافع فيه العرب عن مواقعهم شبراً فشبراً اضطروا إلى الانسحاب، ثم توقفوا وعادوا إلى الاشتباك مع الاسبان، وبعد قتال آخر ضار، ودفاع عنيد من جانب العرب، اضطروا إلى الانسحاب مرة أخرى. واتجه (الغُرِّي) إلى (أندرش) لكي ينظم صفوفه، وينضم إلى ملكه.

وقام القائد (ابن مكنون) بمناورة بارعة ليحول دون المركيز ودون مطاردة المنسحبين، ونجح في ذلك، فقد سار ابن مكنون بقواته التي تقدرها الروايات الاسبانية بثلاثة آلاف رجل، باتجاه المرية، متظاهراً أنه يريد مهاجمتها، فخاف المركيز من هذه الحركة، وتخلى عن مطاردة (الغُرِّي) وجماعته وسار للقاء ابن مكنون.

٢ ـ استقر ابن مكنون في فيليش (Filix)، على السفح الجنوبي لجبال (غدر)[٢]، فسار إليه المركيز بقوات بلغت بمن انضم اليها من المغامرين، حوالي ثمانية

---

١ ـ سيركور ج٢ ص ٣٤٥.

٢ ـ جبال غدر (Sierra Gador).

آلاف رجل. وتذكر الروايات الاسبانية أن جيش المركيز كان في حالة من الفوضى لا توصف، وقد بلغ تذمر الجند أشده بسبب الطريقة التي كانت تقتسم بها الغنائم، وأخذ الكثيرون ينسحبون، ولكن غيرهم كان يحل محلهم طمعاً في جني الغنائم، وقد بلغ الاستياء بالجنود حد القسم على أن لا يبقوا عربياً يقع في يدهم حياً[1]، وتردد المركيز كثيراً في خوض المعركة مع ابن مكنون بهذه الحثالات من الجند الفوضويين، لكنه قرر أخيراً خوضها.

تصف الروايات الاسبانية (ابن مكنون) بأنه رجل خبير في أمور الحرب، وتقول إنه لما رأى تقدم المركيز نحوه وضع خطته على أفضل وجه، فأقام أكثر الجيش في سهل أمام القرية، ووضع مفرزتين من حملة البنادق لتغطية جناحيه، ووضع على جناحه الأيسر أيضاً خمسمئة رجل تمركزوا في جبل منيع. وألبس الأطفال والنساء ملابس المحاربين، وأقامهم في أسفل الحصن القديم بين الصخور ليظن من يراهم من بعيد أنهم احتياطي قوي للجيش، وأقام كميناً من خمسين رامياً في مدخل الوادي.

ولما اقترب المركيز من ميدان المعركة في ١٨ كانون الثاني، فهم خطة القائد العربي، فأمر مشاته بأن يتجهوا إلى خط الدفاع العربي، وأن يتوقفوا على مدى مرمى البنادق، دون الدخول في معركة، إلى أن يصل الفرسان الذين كلفهم بأن يقوموا بالتفاف كبير لتطويق ميسرة العرب. ولكن خطة المركيز فشلت بسبب حماسة أحد الجنود الاسبان الذي أخذ باطلاق النار، وتبعه غيره، ونشب القتال، واشتبك الجيش الاسباني كله فيه، وبعد معركة عنيفة دامت وقتاً طويلاً اضطر العرب إلى الانسحاب، فاجتاز قسم منهم السهل إلى الطرف الآخر، ولم يحاول الاسبان مطاردتهم، أما القسم الآخر فقد لجأ إلى الحصن القديم يحتمي به، فهاجمهم الاسبان، وحمي وطيس المعركة بشكل لم يسبق له مثيل، واستبسل المسلمون استبسالا كبيراً، واشتركت النساء والأطفال في القتال، ولكن العدو كان أكثر منهم عدة وعدداً، فاضطر القائد (ابن مكنون) إلى الانسحاب حينما لم يبق معه إلا قلة من الرجال، وبعد أن أدى واجبه، كقائد وكجندي على أفضل وجه. وقتل اثنان من كبار قادته يدعى أحدهما (فتي) (Futey)، والآخر (تيسير) (Tesir)، والسلاح في أيديهما، وقتل

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٨.

عدد كبير من النساء والأطفال والمقاتلين، وقذفت كثير من النساء بأنفسهن من أعلى الحصن لكيلا يقعن في أيدي الاسبان سبايا. ولم يوفر الاسبان الأطفال والرضع، فكانوا يقتلون بنذالة كل من يقع تحت أيديهم. ويروي المؤرخ (دوهيتا)، الذي حضر المعركة، أن القسوة التي ارتكبها الاسبان في ذلك اليوم لا يمكن وصفها لبشاعتها. وروى قصة امرأة وجدت قتيلة ممددة بين أبنائها الستة صبية وبنات، ويبدو أنها خافت على رضيع لها فنامت فوقه لتنقذه فأجهز عليها الجنود وضربوا الرضيع بالسيف فقطعوا لسانه وتركوه يسبح في دم أمه ظناً منهم أنه مات فأنقذه دوهيتا[1]، وتبالغ الروايات الاسبانية على عادتها، فتقول إن خسائر العرب كانت نحواً من ستة آلاف قتيل منهم أكثر من ألف محارب، ولم تذكر عدد قتلى الاسبان، ولكن الكونت سيركور يعلق على هذه المعركة بأن عدد القتلى الاسبان لا يمكن إلا أن يكون كبيراً جداً بسبب عنف المقاومة العربية.

وغنم الاسبان إثر هذه المعركة مغانم لا تحصى، وأسروا حوالي ٢٠٠٠ شخص من النساء والأطفال فاسترقوهم، وكان بينهم (ابن القائد ابن مكنون واختاه). ولما امتلأت أيدي الجنود الاسبان من المغانم حاولوا التهرب من القتال، والعودة إلى بيوتهم، وتطاولوا على قائدهم المركيز واستخفوا به.

٢٥٧ ـ مجزرة رهيبة يرتكبها الاسبان:

تقول الروايات الاسبانية إن الهزائم التي لحقت بالثائرين حركت النفوس الضعيفة لتطالب بالمفاوضة لتقرير شروط الاستسلام. وتقول هذه الروايات إن ابن جوهر ـ عم الملك ابن أمية ـ هو الذي تزعم حركة المطالبة بالاستسلام خوفاً من طغيان ابن أخيه، وحمل من اجتمعوا إليه في قرية قبالة[2]، على إرسال رسولين اسبانيين كان العرب قد أنقذوهما من أيدي بعض الثائرين، لمفاوضة القائد الاسباني، وكلف ابن جوهر الرسولين بأن يعرضا على مونديخار الاستسلام لقاء تأمين الثائرين على حياتهم. لم يستطع مونديخار أن يبت في الأمر مخافة رفض الملك الاتفاق. وفي ليل ١٨ كانون الثاني وصل المركيز إلى قبالة فسلمها إليه أهلها مع عدد كبير من الأسرى النصارى

---

(١) سيركورج ٢ ص ٣٤٤.

(٢) قرية قبالة (Gubillas).

الذين كانوا فيها، فأمن أهلها. ثم غير ابن جوهر رأيه فجأة وأقنع ابن أخيه بالايغال في الجبال، وأثر الانسحاب في نفس بعض ضعفاء النفوس، فتقدم عدد كبير منهم إلى المركيز يعلنون له طاعتهم، فمنحهم الأمان ايضاً. وجمع المركيز النساء والأطفال العرب الذين كانوا في قبالة، وكانوا قرابة ٢٤٠٠ شخص، فوضع بعضهم في الكنيسة، وبعضهم الآخر بقي خارج الكنيسة، وكان من بقي خارج الكنيسة قرابة ألف امرأة وثلاثمئة رجل من الشيوخ. وفي الليل تقدم أحد الاسبان يحاول اغتصاب إحدى الفتيات فدافع عنها أحد المسلمين، وقتله في أثناء العراك بينهما، ولما علم النصارى بما أصاب زميلهم اندفعوا يقتلون المسلمين من رجال ونساء وأطفال، حتى قضوا على جميع الذين كانوا خارج الكنيسة(١).

٢٥٨ ـ تجدد المعارك في المنطقة الغربية:

أراد الملك أن يضع حداً للتنافس بين [مركيزي (مونديخار) و(بلش)]، فأرسل شخصاً يدعى فرانسيسكو دو كوردوفا إلى المرية بصفة قائد عام، كما أرسل شخصاً آخر يدعى دون ديكودو مندوسا للاطلاع على الحالة في (قبالة) فأدرك المركيز مونديخار أن عليه أن ينتهي من أمر الثورة إذا أراد أن يحتفظ بمنصبه، فترك قبالة يوم ١٥٦٩/١/٢٣ متجهاً إلى باسط أجيجر لمطاردة الثائرين، ولمنعهم من الاجتماع والتمركز في مكان. ولما علم ابن أمية بحركته عقد مجلساً حربياً حضره عدد من قادة المنفيين بينهم (الغُزِّي) و(الشنيش) و(البرطال) فاقترح عليه هؤلاء القادة ترك مدينة أوشيخار الواقعة في سهل مفتوح، والانسحاب إلى جبال سيرا نيفادا، لأنه من الصعب الدفاع عن مدينة واسعة ضد عدو مزود بالمدفعية، كما أن الجبال تيسر للثائرين سبيل الانسحاب في حال الهزيمة والملاحقة. إلا أن والد زوجة ابن أمية واسمه (ميجيل الكريمي) الذي كان يريد انقاذ أملاكه الموجودة في منطقة أجيجر، وستر السرقات التي ارتكبها في أموال الثورة بصفته خازنها، كان يريد حصر الثائرين، وجعلهم تحت رحمة الاسبان، ومن ثم مفاوضة الاسبان على الأمان لقاء تمكينهم من القبض على الملك، وقادة الثورة. وقد فطن قادة الثورة لخدعته، فقتله ابن أمية، وقتل أفراد عائلته، ثم انسحب الثائرون من أجيجر وتبعهم اكثر أهلها، فدخلها

---

(١) سيركورج ٢ ص ٣٤٤.

المركيز دون قتال، وجاءه عدد من مختاري القرى مستسلمين فأمنهم، وأمن من يصل إليه واضعاً سلاحه.

٢٥٩ - مفاوضة ابن أمية على الاستسلام:

وفي ٢٦/١/١٥٦٩ عادت كتائب الاستطلاع الاسبانية لتخبر مركيز (مونديخار) أن ابن أمية والثائرين يتمركزون في موقع حصين جداً في (بطرنة) قرب قمم جبال الثلج (سيرا نيفادا) فقرر أن يسير إليهم فوراً، برغم جميع المحاذير والمخاطر. وفي ذلك الوقت جرت اتصالات بين الملك ابن أمية والقائد الاسباني للاتفاق على حل مقبول لانهاء الثورة. وتقول الرواية الاسبانية إن ابن أمية أصبح يميل إلى إيجاد تسوية سلمية، بعد أن أثرت في نفسه، وفي نفوس جنوده الانكسارات السابقة، وإنه أصبح يخاف نتيجة المعركة المقبلة، فأرسل إلى مونديخار يعلمه بأنه يريد أن يستسلم، وأنه يريد مقابلته. وطلب إليه أن يتوقف الجيش عن الزحف، ليمكن إيجاد الحل. وأرسل المركيز رجلا من قبله يحمل رده، ولكن الجيش استمر في تقدمه حتى أصبحت مقدمته أمام معاقل الثوار في (أنيسة) وعلى مرمى أسلحتهم.

٢٦٠ - نشوب القتال:

واقترب قائد الميسرة الاسباني من معاقل المسلمين أكثر مما يجب، فنشب القتال بدون إصدار أمر من القادة، وحينما نشب القتال كان ابن أمية يستمع من رسول المركيز إلى رده، فاعتقد أن في الأمر خدعة فترك الرسول في مكانه وامتطى صهوة جواده وانطلق إلى ميدان المعركة ليقود جنوده، وحمي وطيس المعركة واشتبكت جميع القوات من الجانبين في قتال ضار، وبعد معركة غير متكافئة اضطر ابن أمية إلى الانسحاب، بعد أن أبلى أحسن البلاء، وتفرق المسلمون في شعاب الجبال. ولاحق الاسبان ابن أمية لكنه تمكن من النجاة إذ ترجل عن حصانه، واختفى بين الصخور. واستولى الاسبان في (بطرنة) على كثير من المغانم، وأسروا أم ابن أمية وأخواته وإحدى زوجاته.

٢٦١ ـ مهاجمة الاسبان مراكز المسلمين خارج البشرات :

كان العـرب يحتلون خارج البشـرات موقعـين هامـين هما (قـوجر) (Guejar) و(اينوش) (Inose) وكـان قائـد الثـورة في (اينـوش)، وتسميـه الـروايـات الاسبـانيـة (فـرانسيسكـو لوبس)، يسـاعـده عدد من المتطـوعـة الاتـراك بقيـادة رجـل يدعى (غـوسـالي). وقـد تحصن الثـائرون فيها وأقاموا لأنفسهم عدداً من مراكز المراقبة حول المدينة. وقد راجت في ذلك الحين شائعات عن قرب وصول قوات تركية مؤلفة من ٧٠٠ رجـل، وعن ارسـال ابن أميـة اخـاه عبـد الله الى الجـزائـر ليطلب من واليها التركي التعجيل بإرسال إمدادات الرجال والأسلحة والذخائر.

٢٦٢ ـ مهاجمة اينوش :

عهـد الملك الاسبـاني إلى أخيـه (دون خوان)، بتـولي القيادة العليا للعمليات العسكـريـة في غرنـاطـة، وفـوض إليه أمر اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على الثورة، واخضـاع الثـائـرين. ولمـا علم بتمـركـز العـرب في اينوش كلف فرنسيسكو دو كردوفا بالمسـير إليهم ومهـاجمتهم. وقـد وجد (دو كوردوفا) أن قواته قليلة، فأراد أن يعززها، واتصـل بمـركيـز بلش لكن هذا لم يرد عليـه. وفي تلك الأثناء وصلت إلى المرية تسع سفن تحمل المؤن والمعدات للحامية فطلب (دو كوردوفا) من قائد السفن (الأميرال دو انـدارادا) أن يمـده ببعض رجـال الأسطول ليقوم بالمهمة التي كلف بها. وبعد نقاش حول اقتسـام الغنـائم وحصة رجال الأسطول منها، توصل الجانبان إلى الاتفاق على اقتسـامهـا منـاصفة. فأرسل إليه الأميرال ٣٠٠ رجل، انضموا إلى دو كوردوفا الذي كان يقـود ٩٠٠ راجـل و ٤٠ فارسـاً، وخـرج الاسبان من (أنيسة) (Iniza)، يوم ٣٠ كانـون الثـاني. وأرسلوا أمـامهم مفـرزة استكشاف مؤلفة من ٢٠٠ رجل لاختبار قوة المسلمـين، فنـاوشهـا المسلمـون منـاوشة ضعيفة ثم انسحبوا. وفي يوم ٣ شباط قسم الاسبـان قواتهم الى قسمـين كل قسم اتجـه من طريق لمهـاجمـة معقل الثوار مع طلوع الشمس دفعـة واحـدة. ولكن المسلمـين اصطـدمـوا باحـدى المفرزتين وهزموها، ثم وصلت المفـرزة الثـانيـة وعـاد المنهـزمـون من المفـرزة الأولى فانضمـوا إليها، وهاجموا المسلمين فانقض المسلمون عليهم وأعملوا فيهم السيوف والرماح والرصاص، فانهزم الاسبـان لا يلوون على شيء، ولكن بعض الجنـود الاسبـان ـ على ما تقـوله الرواية

الاسبانية ـ تمكنوا من التسلق إلى أحد المرتفعات، ثم هبطوا وأخذوا يتصايحون، فعاد الاسبان المنهزمون إلى التجمع من جديد، وجددوا الحملة على المسلمين، وقاوم الأندلسيون والأتراك الذين معهم مقاومة باسلة، فقتل أكثرهم وأسر القائد المسلم فرانسيسكو لوبس و (٢٧٠٠) امرأة وطفل استرقوا جميعاً، وتقدر الروايات الاسبانية المغانم التي حازها الاسبان بـ (٥٠٠ ألف دوكات).

٢٦٣ ـ مهاجمة (جواخارس):

تقول الروايات الغربية ان مركيز (مونديخار)، كان يعلم أن نصارى مالقة يريدون إثارة المسلمين بالقوة ليستولوا على أسلابهم ومتاعهم وأملاكهم، فأرسل الى الملك يعلمه بحقيقة الوضع، ويرجوه ألا ينخدع بحماسة بعض المغامرين الكاذبين، ولكن بعض الاسبان أخذوا يشنعون على المركيز، وينتقدونه لتركه جواخارس خارج عملياته الحربية، ومن بين هؤلاء المشنعين ابنه الكونت دوتانديللا، فاضطره كل ذلك إلى مهاجمة جواخارس، وفي ٥ شباط تحرك على رأس ٢٠٠٠ من رجاله، فوصل إلى جواخارس الأعلى وهناك وصلته نجدة من ٣٥٠٠ راجل و ٢٠٠ فارس.

كان العرب يتمركزون في قلعة حصينة تدعى (بينيون قوجر)، تقوم في قلب المنطقة الجبلية الوعرة، بقيادة (الزمار) و(الأرشيدوفي)، وقبل أن تنشب المعركة، تقدم أحد المغامرين الاسبان من المركيز يرجوه السماح له بالقيام بعمليات استكشاف، وكان يطمع في الحقيقة بأن يراه العرب فينهزموا فيحوز وحده على مغانمهم، وفطن المركيز لمقصد هذا المغامر فلم يعطه غير خمسين رجلا لمرافقته لكن الطمع دفع بالكثير إلى التسلل من المعسكر واللحاق بهذا المغامر حتى أصبح تعداد من معه ٨٠٠ رجل، فاستدرجهم (الزمار) إلى المناطق الداخلية وقضى على أكثرهم وقتل الضابط المغامر. ثم لحق بهم المركيز ليمنع وقوع الكارثة لكنه وصل متأخراً وتعرض إلى خطر كبير حينما حاول انقاذ بعض الهاربين.

وفي ١١ شباط قام جيش المركيز بهجوم عام على مواقع الثوار فقاوموه بعناد وإصرار وقتلوا الكثيرين من رجاله وردوا ثلاث هجمات شنها الجيش عليهم إلا أن الجيش تمكن في الهجوم الرابع من الوصول إلى مواقع لا تهددهم فيها أخطار الحجارة التي تقذف من أعالي الجبال، ولما أصبح الصباح علم المركيز أنه لم يبق في المعقل من

العرب غير النساء والأطفال فأمر بأن يؤتى بهم اليه ثم قتلهم جميعاً ولم يرحم أحداً منهم .

وطارد الجنود الثائرين فقبضوا على (الزمار)، بينما كان يحمل ابنته على كتفه، وعذبوه عذاباً شديداً تحمله بصبر عجيب، وقرضوا لحمه بالحديد المحمي، ثم قطعوا مفاصله، ولم ينسب إليه جرم سوى أنه عدو شريف[1]، وهرب (الأرشيدوني) وتفرق جمعه.

٢٦٤ ـ مطاردة ابن أمية :

وبعد احتلال (جواخاراس) أرسل الاسبان جنودهم للبحث عن ابن أمية، والقبض عليه، لأنهم أدركوا أن الثورة لن تنتهي إلا بالقبض عليه. وقد علموا من جواسيسهم أنه يقضي الليل في قرية (فالور الأعلى)، لدى ابن عبو، فأرسلوا اليه ضابطين مع ٦٠٠ رجل مسلحين بالبنادق، لانفاذ مهمة القبض عليه، وسارت المفرزة في دروب ملتوية وعرة لتصل الى مخبأ ابن أمية، ولكن عياراً نارياً انطلق فتنبه الجندي القائم على حراسة ابن أمية، فأيقظ ابن جوهر فهرب هذا دون أن يوقظ ابن أخيه (ابن أمية) الذي كان ينام في الغرفة المجاورة. ولما استيقظ ابن أمية، وحاول الهرب، وجد البيت محاطاً بالجند، ولم يكن في البيت مخبأ يختفي فيه، فقرر مقابلة الأمر بشجاعة، ولما طرق الضابط الباب، تقدم ابن أمية يفتحه بنفسه، ثم وقف وراءه فاندفع الجند داخلين الى البيت، ولم يفطنوا إلى مكانه. ولما دخل آخر جندي خرج ابن أمية، واختفى بين الصخور، وقد عذب الاسبان (ابن عبو) عذاباً نكراً ثم قتلوه.

٢٦٥ ـ عروض العرب للعيش بسلام :

ولما وصلت الثورة الى هذه المرحلة تقدم العرب بعروض إلى المركيز، وكان كل ما طلبوه هو أن تمنحهم الدولة الحرية، وحق الحياة فقط، ويعلنون عن موافقتهم على ان تنقلهم الدولة إلى أي مكان شاءت من المملكة. وعرضوا على المركيز ان يتحملوا هم نفقات الحاميات التي توضع في مناطقهم إذا أريد تركهم حيث هم.

---

١ ـ سيركور ج ٢ ص ٣٨٥.

ولما وصل العرض إلى المركيز، أحاله إلى الملك مع رجاء ملح بقبوله، ومنح عفو عام يعيد الأمور الى ماكانت عليا قبل الثورة. ولكن اقتراح المركيز قوبل باعتراضات كثيرة في البلاط، وطالب المعارضون بضرورة انهاء كل شيء بقوة السلاح، أما الملك فبقي متحيراً لم يقطع بشيء.

٢٦٦ ـ تجدد الثورة:

وأدى تردد الملك الى ضعف سلطة المركيز على جنوده، فأصبحوا عصابات مسلحة تقوم بأعمال النهب والسلب، وبدؤوا ينتظمون في جماعات مؤلفة من خمسة عشر إلى عشرين جندياً، تغير على القرى العربية، وتقبض على من يقع في أيديها وتحمله إلى سوق النخاسة في غرناطة ليباع فيها رقيقاً. وقام جنود المركيز دوفيليس بكثير من مثل هذه الأعمال التعسفية، واعلنوا عدم اعترافهم بصكوك الأمان التي أصدرها المركيز مونديخار. كما أن مركيز بلش نفسه كان يشجع على ازعاج العرب المسالمين، طمعاً في أن يدفع بهم إلى الثورة ليجد المبرر لمحاربتهم، واستصفاء اموالهم، واسترقاق من يقع بيده منهم(١).

وتزايد عسف الاسبان لدرجة لا تحتمل. ففي احدى المرات هاجم (الكونت دوتانديلا)، احدى قرى (اجيجر) بحجة البحث عن ابن امية، فقتل رجاله جميع الرجال، وسبوا النساء والأطفال، وحينئذٍ لم يبق للعرب خيار أمام هذه الجرائم التي ترتكب بحقهم، فأخذوا يلتحقون بمعقل الثائرين. اما هرباً من العسف، أو حباً بالانتقام، فتزايد عدد الثائرين من جديد.

٢٦٧ ـ مذبحة السجناء في غرناطة:

ارتكب الاسبان جريمة نكراء بحق مئة وخمسين مسجوناً من المسلمين، كانوا في سجن غرناطة، ولم ينج من المذبحة إلا شخصان هما والد الملك ابن امية وعمه. فقد هاجم حراس السجن والمسجونون النصارى، المسجونين المسلمين، وأخذوا في ذبحهم. ولتبرر السلطات الاسبانية هذه الجريمة الدالة على النذالة، ادعت أن الأمر وقع خطأ بسبب حادث التبس على الحراس، وتروى القصة بالشكل التالي:

سرت شائعات في غرناطة أن ابن أمية ورجاله سيأتون إلى غرناطة، وستكون إشارة وصوله، إيقاد نيران على قمم جبل الثلج (سيرانيفادا)، ترد عليها البيازين، بنيران مماثلة، وعندئذ ينطلق الهجوم على السجن. وفي مساء ١٧ آذار ١٥٦٩، جاء شخص إلى الكاردينال (دوديسا)، وأخبره أن الإشارة أعطيت. وعلم نصارى غرناطة بهذا الخبر فسادهم التوتر. ووضع دوديسا قوات اضافية في السجن، ووزع السلاح على المسجونين النصارى في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكانت تلك الساعة هي ساعة تبديل حرس السجن، فأعطى الجندي المناوب الإشارة بدق الجرس بشكل عنيف ومتلاحق، فظن نصارى غرناطة أنها دعوة للاستنفار، فتحركت المدينة، وحينئذ انطلق السجناء النصارى، وحراس السجن، يذبحون السجناء المسلمين. وقاوم المسلمون مقاومة باسلة، ودافعوا عن أنفسهم بكل شيء وقع تحت أيديهم: بالحجارة التي انتزعوها من الجدران، وبالمزاليج، وبالمفاتيح. ودام الصراع مدة ساعتين. ولما رأى الحراس أن مقاومة المسلمين عنيفة، وأنها أوقعت بالمهاجمين كثيراً من الخسائر، فتحوا أبواب السجن للشعب، فدخل الكثيرون، وساعدوا الحراس في قتال المسلمين. واستشرت المعركة التي دامت سبع ساعات، وأبدى فيها العرب الكثير من ضروب التضحية والبسالة والجلد، ولم يترك أحد منهم نفسه تذهب رخيصة، فما كان يسقط منهم واحد إلا بعد ان يُسقطَ واحداً أو أكثر من الاسبان. وتكاثر المهاجمون عليهم، وقتل منهم عشرات، ولما تعبوا من القتال وأدركوا أنهم لا نجاة لهم، أوقدوا ناراً وقذفوا بأنفسهم فيها، مفضلين الموت حرقاً على الموت بيد أعدائهم، ولم ينج من هذه المذبحة إلا والد ابن أمية وعمه، فقد كان الحراس يراقبونهما مراقبة دقيقة.

ويذكر الكونت سيركور، أن المذبحة كانت كلها من تدبير الكردينال (دوديسا)، انتقاماً من المسلمين. وقد اختلقت هذه الرواية لتغطية جرمه الشائن[1]. واغرب ما في هذه القصة هو ان القضاء الاسباني أصدر حكماً بحق المسجونين القتلى في هذا الحادث قضى بمصادرة أموالهم وعقاراتهم لصالح الدولة، وحرم الأيتام والأرامل من الميراث. ولم يذكر أحد من المؤرخين سبباً معقولاً لصدور هذا الحكم العجيب، ولكن أحدهم ذكر تعليلاً أعجب من الحكم إذ قال: (كان بين المسجونين أفراد ارتكبوا جرائم، وكانوا مسؤولين فعلاً، ولكنهم كانوا جميعاً مسؤولين بالقصد والإرادة).

---

١ ـ نفس المصدر ج ٢ ص ٤٠٦.

٢٦٨ - جرائم الاسبان بحق العزل والنساء:

لا ينكر المؤرخون الاسبان أن ألوف الجرائم ارتكبت بحق العرب المسالمين الذين لم يرتكبوا اثماً أو جرماً، ولم يتحركوا من منازلهم، ولم يساهموا في الثورة، وأن الجنود والضباط والمسؤولين كانوا يدخلون المناطق الهادئة فيقتلون، ويأسرون، ويسبون النساء والأطفال، ويهتكون الأعراض، وينهبون الأموال، وأن كبار القادة كانوا يقومون بهذه التصرفات ليحملوا الناس على الثورة فيكون لهم مبرر لابادتهم، والاستيلاء على جميع أموالهم، وسبي ذراريهم. وأصبح الحصول على المغنم هو المحرك الأول للجنود والضباط والقادة والأمراء ورجال الكنيسة. ولم تكن هناك سلطة تستنكر هذه الجرائم البشعة التي لطخت بالعارجبين اسبانيا. ولم يكن للعرب تجاه هذه الجرائم البشعة، والظلم الذي لم يسبق له مثيل، من مخرج إلا أن يحملوا السلاح، وينضموا الى الثورة، فحركوها من جديد، بعد أن كادت نيرانها تخمد. فمن ذلك ما تذكره الروايات الاسبانية من أن قائد حصن شلوبانية الاسباني - ويعرف بإسم ديجوراميريز دوهارو - اتفق مع قائد الأسطول على اقتسام المغانم لقاء التساعد والتعاون، فاتجها إلى المزارع، حيث كان الفلاحون المسلمون يجنون قصب السكر، فاعتقلا جميع السكان وخرّبا المزارع ونهبا البيوت، وعادا يقتسمان المغانم. وفي قريتي (مورتاس) و(تورون) جاء مئة من الجنود الاسبان، من حامية مدينة (أدرا) يبحثون عن نصيبهم من الأرباح والمغانم، فقاومهم المسلمون، فعادوا إلى قائدهم يشكون فذهب هذا يهدد العرب ويتوعدهم ويسيء معاملتهم، فقتله أحد العرب، وحينئذ انقضّت القوات الاسبانية على رجال القريتين، وقتلتهم جميعاً وسبت النساء والذرية.

وفي منطقة (باياركا) حاول ٢٥٠ جندياً نهب أموال العرب، وسبي نسائهم، فقاومهم أهل المنطقة، وقتلوهم عن آخرهم. وذهبت مفرزة من جند (مركيز بلش) إلى احدى القرى الواقعة في ضواحي المرية، لتنهب ما فيها وتسبي نساءها، فقتلها أهل القرية، والتحقوا بالثوار. وتعترف الروايات الاسبانية أن هذه الحوادث كانت تتكرر كل ساعة، حتى ان القادة الاسبان لم يعودوا يفكرون في التحقيق فيها، وسؤال فاعليها. وقد أدت هذه المآسي والجرائم الى دفع الناس للالتحاق بالثورة، لانهم لم يبق لهم خيار آخر.

٢٦٩ ـ ابادة فوج من الاسبان :

كان المـركيـز دومـونـديخار يحصر همه في ملاحقة ابن امية ، لادراكه أن الثورة لن تتحطم الا بالقضـاء عليـه . وكـان أحد الخونة العرب يتعاون مع المركيز للقبض على ابن اميـة . وفي ٣ آذار أرسـل المـركيز قائدين من كبار قواده مع ألف جندي لمطاردة ابن اميـة . وسـار القـائـدان في طرق ملتـوية للتخلص من مراكز المراقبة العربية ، ووصلا أخيراً أمام قرية (فالور الأعلى) ، التي يتخذها ابن امية مقراً له ، ولما لم يكن في القرية كثـير من الـرجال إذ ذاك ، اغتنم الاسبان الفرصة ، وقضوا الليل كله بالنهب والسلب والسبي ، وكـان بين السبـايـا ١٢٠٠ امـرأة ، وفي الصبـاح ، كان العـرب في المنـاطق المجـاورة قد علمـوا بوضـع الاسبـان ، فاوقـدوا النيران في قمم الجبال طلباً للنجدة ، فتجمعت قوات عربيـة كبـيرة ، وحـاول أحـد القـادة العـرب التفـاوض مع القائدين الاسبـانيـين ، لاعـادة ما نهبـه رجـالهـما ، ولاطلاق سراح السبايا ، وأعلن لهما أنهم انما يريـدون السلم والحيـاة الهـادئـة ، فشتمـه القائدان الاسبانيان ، وحينئذ لم يبق بد من خوض المعـركـة . فانقض العرب على الفوج الاسباني ، وابادوه عن آخره ، ولم ينج إلا قرابة أربعين رجلاً . وتقول الرواية الاسبانية إن العرب أرسلوا إلى المركيز (دوموندیخار) في اليـوم التـالي يشـرحون له الوضع والأسباب التي دفعتهم للقتال . كما أعربوا له عن استعـدادهم لاعـادة السـلاح الـذي تركـه الاسبـان في أرض المعـركـة ، فقبل المركيز عذرهم ، لأنه يعرف صدق العرب ، وطبع الاسبان الجشع[١] .

٢٧٠ ـ تعيين الأمير دون خوان قائداً عاماً :

في اواسـط آذار ١٥٦٩ ، عين الملك اخـاه (دون خوان داستـوريا) ، قائداً عاماً للقـوات المحـاربـة ، وأرسل إلى المركيز دوموندیخار ، يطلب إليه عدم القيام بأية حركة حتى يصـل القـائـد العـام ، ثم خيره بين البقـاء تحت امرة أخيه ، وبين الانتقال إلى عضـويـة المجلس العسكري في غرناطة ، ففضل الانتقال إلى غرناطة . ووصل الأمير دون خوان إلى غرنـاطـة يوم ٢٢ نيسـان ، وعقد مجلساً حربياً وضعت فيه خطة العمل

---

١ ـ سيركورج ٢ ص ٤١٤ .

المقبلة. وتقوم هذه الخطة على تكليف مركيز بلش بالهجوم على البشرات، واغراء المسلمين بالهجوم على قلعة اورجبة التي تتمركز فيها حامية اسبانية قوامها ٢٥٠٠ رجل، بينما يكون قائدها مستعداً لمواجهتهم، ويبقى جيش غرناطة قوة احتياطية.

٢٧١ ـ تجدد حماسة العرب :

دفعت جرائم الاسبان العرب إلى أحضان الثورة من جديد، فانضم إلى ابن امية الوف منهم، وتمكنوا في وقت قصير من السيطرة على جميع المناطق، حتى انه لم يبق بيد الاسبان في البشرات إلا جسر الطبلات والبذول. وعاد النشاط إلى ابن امية، فعاقب المختارين الذين طلبوا الامان من الاسبان، وأرسل قوات حاصرت حصون الساحل: اورجبة والمنيقر وشلوبانية وموتريل وادرا والمرية. واستولى المسلمون على حصن كاستل فيروه الساحلي، فأمنوا عن طريقه الاتصال بالمغرب.

وألف ابن امية مجلساً ضم إليه عمه ابن جوهر الصغير، وميجيل الدالي، ورجلاً اسمه مشرف هو مختار قرية اوشيخار، وفرناندو الحبقي من وادي آش. ونظم الجيش على نمط التنظيم الاسباني، وقام باتصالات مع شريف مراكش ومع والي الجزائر التركي.

٢٧٢ ـ هجوم الثوار في جميع الجبهات :

وفي مطلع شهر أيار ١٥٦٩ اتخذ الثائرون خطة الهجوم على جميع الجبهات، وأمر ابن امية عرب المرية ووادي المنصورة باعلان الثورة، ووصلت القوات الثائرة في اندفاعها إلى وادي شنيل ووادي آش، ومرج غرناطة، حتى ان بعض مفارزها دخلت غرناطة نفسها.

٢٧٣ ـ نصر المسلمين على القائد الاسباني لوادي آش :

قرر المركيز دوفيليس ان يدخل البشرات بدون اذن الأمير دون خوان، وكتب إلى حاكم وادي آش يأمره باحتلال مضيق رباحه، لتأمين الطريق في هذه المنطقة،

فقـام هذا الأخـير على رأس ٤٠٠ رام باحتـلال هذا المضيق، ولكن قوة عربيـة، فاجأتهم وقضت عليهم جميعاً. وقد دفع هذا النصر بعرب مركيزيّة زينيت إلى الثورة، بعد ان خلت منطقة المرية من قوات مركيز بلش. وقد استاء خوان من تصرف المركيز فكتب إليـه يأمـره بالتـوقف في المكـان الـذي يدركه فيه حامل الرسالة. ولكن المركيز لم يتوقف، وتابع سيره إلى (برجه) (berja).

٢٧٤ - مهاجمة ابن امية جيش المركيز:

نجحت الثـورة في السيطـرة على كثـير من المناطق، وحملت تصرفات الاسبان عرب وادي الكـرين، ووادي شنيـل، على الثـورة. وذهب القائدان حسن الشعيبي والنـاقص إلى تلك المنـاطق، وشـرعـا في مهاجمة القوافل الاسبانية، واحتل الشعيبي أبشـر بالقـرب من منـابع نهر شنيل وحصنها، فوجد ابن أمية أن مصلحة الثورة تقضي بأن يقضي على قوات المـركيـز في (بـرجـه). فاستـدعى قوات كثـيرة للانضمام إليه، للزحف على (بـرجـه) في أوائـل حزيـران. وكـانت خطتـه تقوم على القيام بهجومين فرعيين على جهتي اليمين واليسار من الحصن. أما الهجوم الرئيسي فيقوم به امين سره مشقـر (أو مشكـر). وتطـوع ٤٠٠ رام من مسلمي افريقيا (القومي) ليكونوا في طليعة القـوات المهـاجمة، واقسموا على ان لا يعودوا الا منتصرين. وتبعهم ٦٦٠ اندلسي. وكلف فوجـين يضـم كل منهـما قرابـة ألف مقاتل. بالقيام بالهجومين الفرعيين، وبقي ابن امية في حوالي ٤٠٠٠ رجل كقوة احتياطية.

أمـا المـركيـز فقـد عرف من أحـد الأسـرى خطة ابن امية فهاله الأمر، وفكر في اخـلاء معسكـره ولكنـه أدرك انه هالك على كل حال. فاختار الثبات على انه أهون الشـرين. وأخـذ في الاستعـداد ووزع رجـالـه القـادرين على القتـال، وكانوا حوالي ٢٥٠٠ رجـل، ووضعهم في الأمـاكن التي خصصهـا لهم، وأمرهم بحمل اسلحتهم، والبقاء على أهبة الاستعداد طوال تلك الليلة. وعند الفجر ظهر الفوج العربي الأول الـذي يقـوده (مشكـر)[1]، واقتحم الطريق، وكان الاسبان متمركزين على جانبيه، وأدرك مشكـر ان الاسبـان متنبهـون له، فاراد العـودة ولكن المـركيـز لم يمهله فنشبت

---

١ - ورد اسمه في الروايات الاسبانية (Maxacar).

المعـركـة، وقاتل الفدائيون من مسلمي المغرب قتالاً بطولياً رائعاً، واستشهدوا جميعاً، وبعـد معـركـة ضاريـة مريـرة اضطـر ابن اميـة إلى سحب قواتـه تحت وطأة هجـوم الفـرسـان. وقـد تحمـل الطـرفـان خسـائر باهظة، واضطر المركيز اثر هذه المعركة إلى الانسحـاب إلى ادرا. ويقـول الكـونت سيركـور ان كلا من الجانبين ادعى النصر في هذه المعـركـة، ولكن الشيء المؤكـد هوان ابن اميـة هوالذي جنى ثمارهذا النصر إذ افلح في زحزحة المركيز عن موقعه، واضعف هيبته، فأعلن مسلمو وادي المنصورة الثورة[1]

٢٧٥ ـ امتداد الثورة إلى مقاطعة مالقة:

دفعت تصرفات النصارى الاسبان بسكان منطقة مالقة إلى الثورة، كما دفعت غيرهم إليهـا، فأعلن سكـان المنطقـة الـواقعـة بين الحـامـة وبـين جبـال (بني طوميز)[2]الثورة في ٢٣ أيار، وقادهم أحد قادة المنفيين ويدعى (الشريران)، وشخص آخر يعرف باسم (فرناندو الدرة) وتجمعت القوات الثائرة في إحدى الهضبات، فخرج اليهم حاكم المرية ليهاجمهم فهزموه هزيمة منكرة، وألجؤوه إلى حصن (بلش مالقة)، ولم يعد يجرؤ على الخروج منه.

٢٧٦ ـ بطولات وفداء:

وفي ١ حزيـران، وصلت سفن إلى شاطىء بلش، فاستأذن قائـدهـا الملك ورجـاه السـماح له بالقيـام بهجـوم على الثـوار المتجمعـين في مرتفعات فريخليانا ـ وهو المكان الذي يتجمع فيه ثوار منطقة مالقة ـ فأذن له، فسار في يوم ٧ حزيران على رأس سبعـة آلاف رجـل الى المرتفع. ولم يكن للعرب من سلاح غير الأسلحة البيضاء بينما كانت، القوة الاسبانية مزودة بالمدفعية والبنادق. وانقسمت القوة الاسبانية إلى أربع فرق، هاجمت المرتفـع من جهـاتـه الأربـع، فقـاومهـا العـرب مقاومة باسلة، وردوا

---

١ ـ سيركور ج ٢ ص ٤٣٣.

٢ ـ اورده محمد عبد الله باسم جبال (بنتوفير) ووردت في الرواية الاسبانية (Sierra de Bentoniz)

هجـمات الفـرق الثـلاث، بنجاح كبير، بعد ان اوقعوا فيها خسائر فادحة، ولم يفطنوا إلى الفرقة الرابعة، لأنها لم تصل إلى ميدان المعركة. وحينما كان العرب منهمكين في رد هجمات الفرق الأخرى، دقت طبول الفرقة الرابعة من أعلى المرتفع، فاندفع اليها المسلمون. وتقول الروايات الاسبانية ان النساء العربيات قاتلن في ذلك اليوم ببسالة فائقـة، ولكن القـوى كانت غير متكافئة، ولعبت المدفعية دوراً كبيراً في انهاك العرب فاضطروا إلى الانسحاب. وحينئذ شوهد فصل من فصول التضحية والفداء لم يسبق له مثيـل في التـاريخ، فقد تقدم الشيوخ العرب أمام الشباب الذين يستطيعون خدمة قضيـة الثـورة إذا ما نجـوا، ووقف الشيـوخ صفاً متراصاً لا يمكن اختراقه، وثبتوا في وجـه الاسبـان، حتى قتلوا عن آخـرهـم. وقـد مكن فعلهم هذا الفين من الشبان من الانسحـاب بسـلام وانتظـام، ونجا كثير من النسوة، ولكن ثلاثة آلاف منهن اسرن فمتن جوعاً. أما الذين نجوا فقد تابعوا سيرهم إلى البشرات حيث انضموا إلى قوات ابن امية.

٢٧٧ ـ نبل العرب في أثناء المعارك:

وبـرغم جميـع المـآسي والفظـائـع التي ارتكبها الاسبان من حكام وجنود وأفراد بحق العـرب المسـلمين، فإن المؤرخـين الغـربيـين المنصفين يعترفون بأن ثوار منطقة مالقـة، وجبـال بني طوميـز، عاملوا جيرانهم النصارى معاملة نبيلة، فلم يعتدوا على أحـد منهم، ولم يرتكبـوا حادثـاً واحـداً من حوادث القتـل والسـرقـة، وانما جمعوهم، وارسلوهم جميعـاً إلى بلش سالمـين. ويقـول سيركـوران النسـاء المسلمات اللواتي عاملهن الاسبـان معـاملة وحشيـة بربـريـة، اظهرن كثيراً من الإنسانية نحو الاسبان خلال الثورة[1].

٢٧٨ ـ استيلاء العرب على سيرون:

أرسـل ابن اميـة قوة إلى وادي المنصورة للاستيلاء على بعض الحصون المنيعة

---

١ ـ نفس المصدرج ٢ ص ٤٣٤.

التي سيطر على الوادي . فهاجمت قلعة سيرون التي تعتبر أكثر هذه المواقع قوة وتحصيناً ، ولم يكن لدى العرب مدافع ولا آلات لقهر الحصون ، فاضطروها بالجوع إلى الاستسلام يوم ١١ أيار. وأرسل الاسبان قوة لفك الحصار ولكنها وصلت متأخرة .

٢٧٩ ـ مأساة اخراج المسلمين من غرناطة :

كان الكردينال (دوديسا) رئيس الادارة المدنية في غرناطة ، لا يترك مناسبة فيها اساءة للعرب إلا اغتنمها . ولما تزايد اشتعال نار الثورة ، فكر في اخراج العرب من حي البيازين في غرناطة ، واخذ يروج الشائعات بأن العرب سيقومون بثورة في نفس الوقت الذي يشن فيه ابن امية وجماعته هجوماً على المدينة . وتقدم دوديسا بمشروع إلى المجلس العسكري في غرناطة يتضمن تفاصيل خطته لطرد العرب من البيازين ، ولكن المجلس رفض المشروع بناء على معارضة الدوك دوديسا والمركيز دوموندبخار في ان يحمل المجلس الأبرياء ذنب المسيئين .

ولكن دوديسا لم ييئس فعاد يجدد الشائعات عن قرب اندلاع الثورة في البيازين ، وعرض بعد شهرين مشروعه من جديد على المجلس ، ولما أيد الأمير خوان المشروع ، انضم اليه جميع الأعضاء بمن فيهم المركيز (دوموندبخار) . وفي ٢٣ حزيران ١٥٦٩ صدر أمر المجلس باخراج العرب الموجودين في غرناطة وحي البيازين ، وخرج المنادون على أصوات الطبول يدعون العرب إلى الاجتماع في الكنائس في مناطقهم ، وأصدر دوديسا أمراً يقضي بضمان حياة من يطيع الأمر، وأدرك العرب عجزهم عن المقاومة ، إذ كانت الحكومة اتخذت تدابير أمن مشددة ، فتقاطروا الى الكنائس حيث قضوا ليلتهم .

وفي اليوم التالي اخرجوا من الكنائس بعد ان اوثقت ايديهم ، ثم وضع الشيوخ الذين تزيد أعمارهم عن الستين والاولاد الذين تقل اعمارهم عن عشر سنين في جهة وجمع الرجال الآخرون ، بين صفين من الجند الشاكي السلاح ، فقادوهم خارج المدينة الى المستشفى الملكي . واندفعت النساء العربيات يحمسن الرجال على التمرد والثورة ، ويقلن لهم : ايها الاشقياء ، انهم يقودونكم الى المجزرة ، وانه لمن الأشرف لكم أن تموتوا فوق الأرض التي ولدتم فيها ، واندفع أحد الشبان فضرب قائد الجند

بحجر على رأسه كاد يصرعه، وقد انتقم الجند من العرب ابشع انتقام لهذا الحادث، وكاد الأمر يؤدي إلى مجزرة.

ثم انتقى الاسبان بعض الصناع والعمال المهرة، وابقوهم في غرناطة نظراً للحاجة اليهم. وهرب كثير من الشبان يوم اعلان الأمر. وتقول الرواية الاسبانية ان أمر الطرد لم ينفذ إلا بحوالي ٣٥٠٠ رجل وحوالي ٧٠٠٠ امرأة ثم وجه الجميع قوافل إلى المناطق المعينة لإقامتهم. وكان قد تقرر ان يرسل بعضهم الى قشتالة، ومنهم من أرسل إلى الاستريمادورا، ومنهم من أرسل إلى مقاطعة الأندلس. وتعترف الرواية الاسبانية أيضا بأنه لم يصل منهم إلى المناطق المعينة لهم إلا أعداد ضئيلة. أما الآخرون فإنهم ماتوا قتلاً بيد حراس القوافل، أوباعهم الحراس عبيداً في سوق النخاسة، أوماتوا من الجوع والتعب[1]، فكانت مأساة أخرى تضاف الى المآسي الكثيرة التي عاناها هذا الشعب المنكود الحظ.

٢٨٠ ـ تزايد نقمة العرب على الاسبان:

وزاد عمل السلطات الاسبانية هذا في نقمة العرب وجرأتهم ورغبتهم في الانتقام وانضم كثير من الذين كانوا مسالمين حتى ذلك الحين، إلى الثوار. وفي ٣ اب، تمكن القائد العربي (الناقص) من القضاء على فصيلة من الجند الاسبان في (وادي الكرين)، بينما كانت متجهة بالمؤن الى (اورجبه). وهزم أحد الضباط العرب العاملين في فرقة الناقص، ويدعى (لوبه)، القائد الاسباني (انطونيولونا)، ومزق الكتيبة الاسبانية التي تحرس جسر الطبلات، فاضطر من نجا من رجالها الى الانسحاب.

وضاعف (الارشيدوني) هجماته الجريئة على المدن والقرى والقوافل الاسبانية حتى اضطر الأمير دون خوان إلى توجيه فرقة كاملة لمواجهة قوة الارشدوني الصغيرة.

وشدد (المالح) قائد منطقة نهر المنصورة، من هجماته على مدينة (اوريه)، بعد استيلائه على (سيرون). وبدأ ابن امية يهدد المرية، ولم ينقذها من هجماته إلا مناورة بارعة من قائد الحامية الاسباني، الذي اوهم العرب بأنه يملك قوة كبيرة، كافية

---

١ ـ سيركورج ٢ ص ٤٤٣.

للدفاع عنها، بينما كان لا يملك فعلاً أكثر من ٢٠٠ جندي.

٢٨١ ـ استئناف الاسبان عملياتهم الحربية:

اصدر المجلس العسكري امره الى المركيز دوفيليس، بترك (ادرا) التي يصعب تموينها، والاتجاه الى (اوشيخار)، على ان يكون حذرا في سيره في الممرات الوعرة التي كان عليه ان يسلكها. فسار المركيز في ٢٥ تموز بقوات بلغت حوالي ١٢٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠ من الفرسان، بعد ان قسمها الى ثلاثة افواج. وقد حاول المسلمون اعتراض سبيل الجيش الاسباني، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ووصل المركيز الى اوشيخار.

٢٨٢ ـ ابن امية يجمع القوات ويستنجد بالجزائر:

ولما علم ابن امية بتحرك المركيز، ارسل رسالة الى الجزائر يطلب العون والنجدة، كما ارسل يستدعي قوات الثورة في المرية ووادي المنصورة للاجتماع اليه، وعهد الى احد قادته، ويدعى (بيدرو دو مندوسا الحسين)، بأن يقوم مع قواته البالغ عددها خمسة آلاف رجل، باعتراض سبيل المركيز، ولكن الحسين لم يتمكن من ذلك. وبعد قليل بدأت القوات العربية تتجمع في مركز ابن امية في قرية (فالور)، فقرر المركيز ان يبادئها بالهجوم قبل ان يكتمل تجمعها. وسار اليها يوم ٣ آب ١٥٦٩ بجميع جيشه. ولما علم المسلمون بتحركه نحوهم استعدوا لقتاله، وركزوا قواتهم في المواقع المختارة، ووضعوا ٥٠٠ رام بالبنادق الحديثة في ممر ضيق كان على الاسبان ان يجتازوه. ولما وصلت مقدمة الاسبان هاجمها المسلمون هجوماً عنيفاً، واستبسل الفريقان. وتقول الرواية الاسبانية ان ابن امية كان في مقدمة الصفوف على حصان ابيض وعليه جبة (برنس) وعلى رأسه طربوش تركي، يدير المعركة، ويحرض الناس على القتال، ويقول لهم ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء، وان الموت في ساحة المعركة والسلاح بيد المقاتل خير من العيش الذليل. ولما حمي وطيس المعركة ارسل المركيز قائد فرسانه مع الفرسان لمهاجمة المسلمين من ورائهم، فاضطر المسلمون الى التراجع، واحرق الاسبان دار ابن امية في قرية فالور.

٢٨٣ ـ المسلمون يستنجدون بوالي الجزائر:

وفي آب ١٥٦٩ ارسل ابن امية قائده، هرناندو الحبقي، الى الجزائر ليتصل بواليها علوش علي لعله يمدهم بالرجال والسلاح. فأذاع علوش بيانا في الجزائر دعا فيه الناس من اتراك ومغاربة الى التطوع لنصرة اخوانهم الاندلسيين. فتدفقت سيول المتطوعة من كل حدب وصوب. ولما رأى الوالي كثرتهم قرر ان يستفيد منهم في القيام بالهجوم على تونس اولاً. ولكنه عاد فأذاع بياناً ثانياً ـ على ما تقوله الرواية الاسبانية ـ دعا فيه جميع الملاحقين بجرائم وجنح الى التطوع للذهاب إلى الأندلس، على ان يعفى عنهم، فجاءه ٤٠٠ رجل سلحهم بالبنادق وارسلهم تحت قيادة رجل تركي اسمه حسين، مع هرناندو الحبقي، في ست سفن. وارسل معهم كمية كبيرة من الاسلحة والذخائر، ووصل للثائرين اسلحة كثيرة من تطوان فتحسنت حالتهم. وطاف القائد التركي حسين في المناطق الاسلامية، ودخل سرا الى غرناطة ووادي آش، وتعرف على المواقع وابلغ الناس ان السلطان التركي ارسله ليدرس الحالة ويتعرف على الحاجات ليقوم بارسال النجدات والسلاح، فانعش ذلك آمال المسلمين وشدد من عزائمهم. ثم عاد حسين الى الجزائر ليقدم تقريره الى علوش[١].

٢٨٤ ـ انتكاسة الثورة ومقتل ابن امية:

وبينما كانت الثورة في اوج اندفاعتها وانتصاراتها، حدثت انتكاسة خطيرة، كانت العامل الاساسي في تقرير مصيرها. فقد دبر بعض الخونة الناقمين على ابن امية مؤامرة ادت الى قيام المتطوعة الاتراك بقتله.

ويتلخص الحادث، كما تورده الرواية الاسبانية، في ان شخصا يدعى ديجو الجواسيل ـ وهو ابن حمي ابن أمية ـ وآخرين من انصاره وجماعته كانوا ينقمون على ابن امية قتله بعض مختاري البشرات الذين ضعفت نفوسهم فاعلنوا خضوعهم للاسبان. وارادوا الانتقام منه. وكان الوشاة الراغبون في احداث انشاق في صفوف الثوار، يحرضون ابن امية على المتطوعين الاتراك، ويحرضون الاتراك على ابن امية،

---

١ ـ المؤرخون الاسبان ج ١ ص ٢٨٦.

فساءت العلاقات بين الجانبين. وليحسم ابن امية الموضوع ، طلب الى قريبه ابن عبو ضم الاتـراك الى القـوة التي تحت امرته. ثم اراد ابن امية مهاجمة القوات الاسبانية المرابطة في (مـوتـريـل) (Motril) فطلب الى ابن عبـوجمع الاتـراك الذين لديه والسير بهم الى (البينول) ، على ان يخبره في بريد لاحق ما يجب عليه ان يفعله . وكانت غاية ابن امية تعمية الاخبار لكيلا تتسرب الى العدو. وكان على ساعي البريد بين ابن عبو وبين ابن امية ان يمر بالضرورة في (اجيجر) ، فاطلع منه ديجو الجواسيل الكريمي ، بحكم قرابته من ابن امية ، على مضمون الرسالة . ولما علم (الكريمي) ان ابن امية سيرسل رسـولا آخـر يحمـل التعليـمات ، اتصل بكاتب ابن امية ويدعى (ديجو اركوش) فزوّرا رسـالـة على لسـان ابن امية ، يطلب فيها من ابن عبو ان يذهب بالاتراك الذين تحت امرته الى مكان معين ، وهناك ينزع سلاحهم بمعاونة المئة رجل الذين يعملون تحت امرة الكريمي ، ويضرب اعناقهم ، ثم يفعل مثل ذلك مع الكريمي . وانتظر المتآمران دييغـو الغـواسيـل الكـريمي ودييغو اركوش رسول ابن امية الثاني ، حتى وصل خارج اجيجر فقتلاه واخذا الرسالة منه ، وارسلا الى ابن عبو الرسالة المزورة مع شخص من قبلهما. ولمـا اطلع ابن عبـوعلى الـرسـالـة ، استنكـر تصـرف ابن امية ، واعتقد بأن الشـائعـات التي تنشـر عن محاولة ابن امية التفاهم مع الاسبان هي صحيحة ، فاطلع قائـد الأتـراك على الـرسـالـة ، فاستنكـر وأصحابه أن يغدر بهم أناس إنما جاؤوا هم لنصرتهم. ولما رأى الكريمي ان المؤامرة نجحت ، اخرج من جيبه قطعة من الحشيش الذي اعتاد الاتراك تعاطيه وقال لهم ان ابن امية اعطاه اياها ليسقيها للاتراك ويخدرهم فيسهـل قتلهم. فاستـاء الاتـراك جدا ، وقرروا اغتيال ابن امية وتنصيب غيره قبل ان يحطم الثـورة بانـانيتـه. واقترح الكريمي ان ينصب احد القائدين التركيين حسين او اخيه في مكان ابن امية ، فرفضا ذلك وقالا انهما اتيا لمساعدة ملك الأندلس ، وانه من الضـروري ان يكـون الملك من اهل البلاد. فاتفق الجميع على تنصيب (ابن عبو) ، بالـرغم من معـارضتـه الشديدة. وسار ابن عبو والاتراك الى مقر ابن امية ، واقتحموا عليـه الابـواب ، وقبضـوا عليـه ، ولم يتقدم احد من اصحابه للدفاع عنه ، ثم واجهوه بالتهم المنسوبة اليه ، وأروه الرسالة فدقق في الخط والتوقيع ، فانكرهما وقال ان اعداءه فعلوا ذلك. وناشدهم الله الا يقتلوه ، لأنه كان مسلما مخلصا وانه لم يفكر بالاتفاق مع النصـارى ، ورجـاهم ان يطلبـوا (الحبقي) ليشهـد على صحة قوله ، فلم يستمع اليه احـد. ووضعـوه في غرفـة موصـدة وكلفـوا بحـراستـه المتآمرين الكريمي وكاتبه ديجو

اركوش، وفي الليل انتهز المجرمان الفرصة فخنقاه[1].

٢٨٥ ـ تنصيب ابن عبو ملكا :

تسلم ابن عبو نيابة الملك لمدة ثلاثة اشهر، على ان يوافق حاكم الجزائر على ذلك، واتخذ اسم (مولاي عبد الله بن عبو ملك الاندلسيين)، ووافق بعض القادة على ما تم، واوقف المتآمرون من لم يوافق، وانسحب ابن مكنون مع رجاله كما انسحب الارشيدوني. وعين ابن عبو بعض القادة لقيادة المناطق: منهم (المالح) لوادي المنصورة ومركيزية زينيت ومنطقة بسطة، و(الشعيبي) للبشرات وجبال غرناطة، و(بولودوي) لمنطقة المرية.

٢٨٦ ـ جهود ابن عبو لانعاش الثورة :

جمع ابن عبو قوة كبيرة تقدرها الروايات الاسبانية بعشرة آلاف رجل، وسار بها لحصار (اورجبه)، وبعد محاولات متعددة لم يفلح في اقتحام اسوارها، فقرر ان يضطرها الى الاستسلام بالجوع. فارسل قائد الحامية رسالة الى الامير دون خوان في غرناطة يطلب منه النجدة، فكلف الامير الدوق (دوسيسا) بالقيام بالمهمة. ولما علم ابن عبو بمسير الدوق نحوه، رفع الحصار عن اورجبه، واتجه الى (لانخارون) ليقطع الطريق عليه، وعلى اثر ذلك قرر المجلس العسكري سحب الحامية من اورجبه لعدم فائدتها، ولصعوبة تموينها وانجادها. وكان فيها قرابة ١٥٠٠ رجل. وقبض الدوق على بعض العرب الذين يحملون رسائل من ابن عبو الى بعض قواده يطلب اليهم فيها الاجتماع إليه للقيام بشن هجوم على الدوق.

وتقدم الدوق يريد مناجزة المسلمين القتال قبل ان تجتمع قواتهم، فسار على رأس ٤٠٠٠ راجل و ٣٠٠ فارس، ولما رأى المسلمون تحرك الاسبان، اتخذوا أهبتهم للقتال، وجرت معركة عنيفة، انهزم فيها الاسبان هزيمة منكرة، بعد ان قتل منهم ٤٠٠ شخص. وتحاول الرواية الاسبانية تلطيف اثر هذه الهزيمة فتقول إنه لولا نفوذ

---

١ ـ تاريخ ثورات وعقاب الموريسكيين ج ٢١ ص ٢٩٢.

الدوق، وحرمة الجيش له، لما توقف سيل الهاربين[1].

٢٨٧ ـ محاصرة قلعة اوريا:

علم جير ونيمو المالح ان (حصن اوريا) فيه كثير من الناس، وتنقصه الاقوات والذخائر، ففكر في الاستيلاء عليه، واخذ في جمع الرجال للهجوم عليه. وعلم الاسبان بما يريده المالح فاسرعوا بارسال النجدات الى الحصن، واخلوه من النساء والأطفال والشيوخ (اوائل تشرين الثاني ١٥٦٩). ولما تكاثر عدد الاسبان في اوريا اغاروا على قرية (مانتوربا) التي تجمع فيها المسلمون، فنسفوا مستودعا للبارود. ونهبوا الماشية، ولكن بعض النجدات العربية اعترضتهم وهم عائدون الى اوريا، والتحمت معهم، وجرى عراك عنيف. وتقول الرواية الاسبانية ان حامل الراية المسلم اظهر من الجلد والشجاعة ما لم ير مثله، فقد كان على حصانه يحمل العلم بيده، فهاجمه الاسبان وطعنوه بحربتين اخترقتا جسده، فبقي ثابتا لا يتحرك وهو ممسك بالراية، وطعنه القائد الاسباني برمحه فاخترقت الطعنة جسمه، لكنه بقي واقفا لم يتزحزح، فارسل القائد الاسباني شخصا نسفه وحصانه بلغم، فقتل الحصان يسقط الرجل ولكنه ظل ممسكا برايته، وحاول الاسبان انتزاع الراية منه فلم يفلحوا، ولم يتمكنوا من انتزاعها منه حتى فارق الحياة[2].

٢٨٨ ـ بدء تدهور الثورة:

تشاءم الناس بعد مقتل ابن امية، واخذ التنافس يشتد بين القادة، ونفر كثير من الثائرين، وضعفت ثقتهم. وفي ذلك الحين كانت اسبانيا تحشد كثيراً من القوات مكنتها من استعادة المبادهة في ميادين القتال.

وفي اواخر كانون الأول ١٥٦٩، سار الامير دون خوان إلى حصن ابشر

---

١ ـ نفس المصدر ج ٢١ ص ٢٩٧.

٢ ـ ثورات الموريسكيين وعقابهم ج ٢١ ص ٣٠٢.

بنفسه، وكان ـ على ما تقوله الرواية الاسبانية ـ يطمع مثل غيره في المغنم، وقد استاء لسبق غيره له في احتلال ابشر[1].

٢٨٩ ـ الاستيلاء على غاليرا:

وفي ١٥٦٩/١٢/٢٩، تحرك الامير دون خوان الى (بسطة)، وبعد ان اقام فيها بضعة ايام اجتمعت اليه القوات خلالها، اتجه الى غاليرا على رأس قوة يبلغ تعدادها ١٢ ألف مقاتل. وكان للمسلمين قوة تعسكر في الكنيسة خارج البلدة، فهاجمها الاسبان هجوماً عنيفاً، وتمكن المسلمون من رد المهاجمين عدة مرات، واخيرا تغلب عليهم الاسبان وتمكنوا من الاستيلاء على الكنيسة بعد قصف شديد بالمدفعية.

وحفر الاسبان خندقاً حول البلدة يمرون فيه دون التعرض لنيران المدافعين عن (جاليرا)، ثم قام الاسبان بشن هجوم عنيف، رده المسلمون بعد ان كبدوا المهاجمين خسائر كبيرة. ولما رأى (الامير خوان) أن المدفعية لا تحدث أثراً كبيراً في الجدران المصنوعة من اللبن، أمر بوضع لغم، نسف جانباً من السور، وتدفق الاسبان من هذه الثغرة، فقاتلهم المسلمون عليها قتال المستميت، واشتركت نساؤهم واطفالهم في رد المهاجمين، وحاول خوان أن يرسل قوات من الجهة الشرقية، فاخفق هجومها ورد بخسائر كبيرة. وتقول الرواية الاسبانية إن الاسبان خسروا في هذا الهجوم ٤٠٠ قتيل و ٥٠٠ جريح. ولما رأى خوان عقم محاولاته أمر بالتراجع. وعقد مجلساً حربياً وضع فيه خطة تقوم على وضع لغمين تحت الأسوار، بينما تكون المدفعية مستمرة في اطلاق قذائفها. وبالفعل فجر الاسبان لغمين، وتدفقوا إلى البلدة عن طريق الثغرة المفتوحة في السور، وجرى قتال دموي رهيب، وقعت فيه ضحايا كثيرة من الجانبين، أكثرهم من النساء والأطفال، فأمر الامير خوان بقتلهم جميعا أمامه. واقترح بعض المجرمين الإسبان أن يذاب النحاس ويصب في أرحام المسلمات انتقاما منهن. ولا تذكر الرواية الاسبانية التي أوردت هذا الاقتراح إن كان الامير قد اخذ به قبل قتل النساء أو لا. ولكن الشيء الأكيد هو أن تفتق عقلية عن مثل هذا الاقتراح

---

١ ـ نفس المصدر ج ٢١ ص ٣٠٦.

المجرم الخسيس دليل على أن مجتمعها وظروفه لا تستنكر تنفيذه(1). ويقول سيركور ان دون خوان امر بقتل النساء والاطفال وان ١٤٠٠ امرأة قتلن بحضوره(2).

٢٩٠ - الهجوم على سيرون وهزيمة الاسبان :

وبعد ذلك تحرك دون خوان الى (سيرون)، ولما شعر المسلمون بزحف الاسبان عليهم أوقدوا النيران تحذيرا وطلباً للنجدة، فخفت اليهم النجدات من كل جانب، وخف (الحبقي) و(المالح) على رأس قوة قدرت بستة آلاف رجل، وجرى التحام مع الاسبان قتل فيه الكثيرون من الاسبان وهم منهمكون في النهب والسرقات، وألقى اخرون السلاح وهربوا، وامتدت الهزيمة إلى الجيش كله فلم يعد الامير يستطيع وقفها، فطلب إلى المهزومين أن ينسحبوا بانتظام على الأقل، لتخف فيهم الاصابات، فلم يستمع إليه أحد. وتمكن خوان أخيرا من جمع عدد من الجنود سار بهم منسحباً فطاردهم المسلمون مسافة طويلة. وتحاول الرواية الاسبانية أن تخفف من أثر هزيمة الأمير، حفاظا على اعتباره. ولكنها تعترف أن خسائر الاسبان بلغت ٦٠٠ قتيل(3).

٢٩١ - ابن عبو يستنجد بمفتي القسطنطينية :

شعر المسلمون بحرج موقفهم، وأن النصارى أصبحوا في موقف من يستطيع توجيه الضربة، فأرسل ابن عبو كتاباً مؤرخاً في ١١ شعبان ٩٧٧هـ، (١١ شباط ١٥٧٠م) إلى مفتي القسطنطينية، يستنجد به، ويرجوه التوسط لدى السلطان لانجاد الثورة، وتقديم العون الفعال لها. وفي نفس الوقت كتب ابن عبو إلى نائب السلطان العثماني في الجزائر، يستنجد به، وقد وجد نص الكتاب بين أوراق ابن عبو في كهف في

---

١ - نفس المصدر ص ٣١٤.

٢ - سيركور ج ٣ ص ٧٥ - ٧٦.

٣ - تاريخ ثورات الموريكسيين وعقابهم ج ٢١ ص ٣١٦.

كاستاريس، وأورد المؤرخون الاسبان ترجمته إلى الاسبانية[٢]، وفيما يلي نورد ترجمة للكتاب المرسل إلى مفتي القسطنطينية :

بسم الله الرحمن الرحيم،

العزة لله، من عبد الله المتوكل عليه، الحي بفضله وقدرته، المجاهد في سبيله، أمير المؤمنين المتمسك بشريعة الله، مبيد الكفار، وقاهر جيوش العاصين لله، مولاي عبد الله بن عبو، بارك الله مسعاه، وسدد خطاه ليسترد عزة الاندلس، ويجدد نهضتها، نصرها الله القدير، وهو القادر على كل شيء. صديقنا وحبيبنا الخاص، السيد العظيم، الشريف الكريم، السامي المتقدم، العادل المحسن الخائف من الله، أنعم الله عليه بنعمة الغفران.

اما بعد، فسلام الله عامة على دولتنا العلية، ونعمته وبركاته الوفيرة.

ايها الأخ العزيز، لقد بلغتنا أنباء دولتكم العلية، وشخص الملك الكريم، وما صدر عنه من العطف على التعساء البائسين، وأنه سأل عنا مهتماً لمعرفة ما يجري لدينا، وأنه اهتم وتألم لما اصابنا من ضنك ونصب على أيدي أولئك المسيحيين، وأن صاحب الجلالة والعظمة السلطان، قد أرسل الينا كتابا مختوما بخاتمه يعدنا فيه النصرة، بعدد وافر من الرجال المسلحين، وبما نحتاج اليه من العون والعدد التي تسمح لنا بالحفاظ على هذه الأرض. وبما أننا نقاسي المتاعب الشديدة في هذه الأزمة المريرة، فاننا نلجأ من جديد إلى الباب العالي، نطلب النجدة، والمعونة والنصر عن يدكم.

فالنجدة النجدة، بالله القاهر فوق الناس جميعا، ونرجو من سيادتكم اعلام السلطان القادر باحوالنا وإخباره باخبارنا، وبالحرب الكبرى التي نخوضها، وقولوا لعظمته انه اذا اراد ان يشملنا برعايته وعطفه، فليبادر الى انجادنا بسرعة قبل ان نهلك، فهناك جيشان قويان يتجهان الينا لمهاجمتنا من جهتين، واننا اذا ما اندحرنا في المعركة فانّ الله سيحاسبه على ذلك حسابا عسيراً يوم القيامة، يوم لا تنفع القوة في الحجة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حرر يوم الثلاثاء في الحادي عشر من شهر شعبان ٩٧٧

مولاي عبد الله محمد بن عبو

---

٢ ـ نفس المصدر ج ٢١ ص ٣١٧

٢٩٢ ـ استئناف العمليات العسكرية من الجانب الاسباني:

ولما شعر الاسبان بالارتباك الذي يسود الثورة بعد مقتل ابن أمية، انطلق قادتهم يشنون الهجمات على المسلمين في كل الجبهات، واستولى دون خوان على حصن (سيرون)، وهرب الحبقي منه بعد أن قتل حصانه، وقتل كثير من المسلمين. واحتل الاسبان خلال الربع الأول من عام ١٥٧٠ عدداً من الحصون والمواقع التي كانت بيد الثائرين.

٢٩٣ ـ إجبار من تبقى من المسلمين في غرناطة على النزوح عنها:

ولما شعر الاسبان بتحسن وضعهم العسكري، أمر الأمير دون خوان المسلمين ـ في ١٤ شباط ١٥٧٠ ـ بأن يستعدوا للنزوح عن غرناطة والمرج إلى المناطق الداخلية. وفي ١٩ آذار بدأت مسيرة قوافل النازحين. وتعترف الروايات الاسبانية بأن أكثر النازحين ماتوا في الطريق.

٢٩٤ ـ المفاوضات لانهاء الثورة:

في الوقت الذي اندلعت فيه نيران ثورة عرب الأندلس، كان الغزو العثماني يمتد إلى أوروبا ويهددها تهديداً خطيراً، فقررت عصبة الأمراء النصارى فيها اختيار الأمير دون خوان ـ شقيق ملك اسبانيا ـ قائداً للجيش النصراني الموحد، المكلف بمواجهة الغزو التركي. فأراد الملك الانتهاء من مشكلة الثورة، وأمر أخاه ببدء المفاوضات مع قادتها، فاختار دون خوان بعض أصحابه ممن لهم صداقات مع عرب اسبانيا للتوسط في المفاوضة مع الثوار، فاتصل أحدهم ويدعى ـ باراداس ـ بصديقه الحبقي ـ الذي أصبح قائداً عاماً للثورة بعد موت المالح ـ واجتمع به في ٥ شباط في مرتفعات (سيرا نيفادا) وحدثه عن ضرورة انهاء الحرب، وعرض عليه العفو، وحاول اقناعه بضرورة اغتنام هذه الفرصة. فوعده الحبقي بدراسة الأمر مع زملائه القادة المسلمين وأبلغه أنه لا يوجد أحد يرغب في السلام أكثر منه. واستمرت المفاوضات بشكل سري. وكان الحبقي يحاول استمالة ضباط الجيش الثائر وجنوده، واقناعهم

بضرورة وضع حد لاراقة الدماء وهدر الأرواح والأعراض.

وأصدر دون خوان، منشوراً للثائرين يحثهم على وضع السلاح، وإعلان الخضوع خلال عشرين يوماً، ويؤكد لهم العفو التام عن الجرائم التي ارتكبت، ويعد من لحقت بهم أضرار بأن يسمح لهم بالمطالبة بالتعويض عنها، وأكد لهم أنه لا يمكن أن يفرض الرق على أحد من المستسلمين.

وفي ١٨ نيسان ١٥٧٠، أرسل (ألونسودوغرانادا فينيجاس)(١)، رسالة إلى صديقه ابن عبو، يحاول اقناعه بانهاء هذه الحرب المشؤومة، ويحثه على إرسال وفد من قبله للمفاوضة لتقرير شروط الصلح، ولما وصلت الرسالة إلى ابن عبو كان عنده قائده الحبقي فنصحه هذا بالرد على الرسالة، فرد عليها برسالة مؤرخة في ٢٢ نيسان ١٥٧٠. وقد أنحى ابن عبو في رده باللائمة على الذين تسببوا بالحرب، وإشعال نار الثورة، وطلب من ألونسو فينيجاس أن يرسل أماناً من الملك للحبقي لمقابلته ومفاوضته(٢).

وجرت اتصالات كثيرة بين (الحبقي) وبين الاسبان، واجتمع بمندوبي الملك يوم ١٩ أيار، وقدم مذكرة بالشكل الذي نصحه به كاتب دون خوان. وبعد ان أرسلت المذكرة إلى الامير، تم الاتفاق مع الحبقي على أن يذهب باسم ابن عبو وباسم القادة الآخرين ليطلب من الأمير الرحمة والصفح ويسلم اليه السلاح والعلم. وبعدئذ يعفو الأمير عنهم باسم الملك، ويرسل المحاربين المستسلمين مع نسائهم وأطفالهم إلى الأماكن التي عليهم أن يعيشوا فيها، وقبل الحبقي أن لا يبقى أحد من الثائرين في البشرات.

وإثر ذلك ذهب الحبقي مع ٣٠٠ رجل إلى معسكر الاسبان وأعلنوا للأمير الخضوع، وسلمه الحبقي العلم والسلاح باسم ابن عبو، فقبله الأمير وأكرمه، وبقي الحبقي في معسكر الاسبان حتى يوم ٢٢ أيار عاد بعدها ليخبر ابن عبو بما تم. وفي ٢٥ أيار عاد الحبقي إلى معسكر الاسبان وتقول الرواية الاسبانية إنه كان يحمل موافقة ابن عبو والأتراك وعامة الناس، على إنهاء الثورة(٣)، ولكن سير الأحداث التالية،

---

١ ـ هو حفيد الامير يحيى النيار ـ ابن السلطان ابي الحسن، من زوجته الاسبانية ثريا.

٢ ـ ثورات الموريكسيين وعقابهم ج ٢١ ص ٣٣٦.

٣ ـ نفس المصدر السابق ج ٢١ ص ٣٤٤.

يؤكد ـ حسب الروايات الاسبانية ـ أن ابن عبو لم يكن موافقا على الاستسلام، وبعد هذا الاتفاق أرسل الأمير مفوضين من قبله ليشرفوا على ترحيل الناس إلى حيث يريدون الاقامة في المناطق الداخلية.

٢٩٥ ـ محاولة إقناع ابن عبو بالاستسلام:

وفي ٢٨ أيار ١٥٧٠، عاد رسول الأمير فاتصل بابن عبو وحاول إقناعه بالاستسلام، ولكنه لم يفلح، ووقف المتطوعون والمغاربة موقفاً شريفاً، وحاولوا منع الناس من الانصياع لاغراءات الحبقي ونصحوهم بعدم الاستسلام ومتابعة الكفاح، وخاف الحبقي أن يفسد المتطوعة بتطرفهم مشاريعه، فعمل على جمع هؤلاء المتطوعة وترحيلهم إلى أرضهم ليخلو له الجو.

٢٩٦ ـ محاولة الحبقي قتل ابن عبو:

وبعد أن تمكن الحبقي من إخراج المتطوعة داخله الغرور والعجب بنفسه، فأراد القبض على ملكه ابن عبو، وتسليمه للاسبان. وطلب الحبقي من الأمير الاسباني تفويضه بالذهاب مع ٥٠٠ مسلح اسباني ليفاجىء ابن عبو ويقبض عليه، وبعدئذ تتم عملية الاستسلام بالشكل المتفق عليه. لكن الأمير قدر أن إرسال قوات اسبانية مع الحبقي قد يثير المسلمين من جديد، ويعيق عملية الاستسلام، ورفض أن يعطيه الجنود المطلوبين، وأعطاه ٨٠٠ دوكات ليستأجر بها ٤٠٠ مسلم ممن يثق بهم الحبقي.

٢٩٧ ـ إعدام الحبقي:

ولما اتجه الحبقي إلى مقر ابن عبو، التقى بعدد من الثائرين المسلمين فأعلموه أنهم ينتظرون أوامر ملكهم ليستسلموا، فقال لهم إنه ذاهب اليه، فان لم يقبل الصلح فانه سيعود به مقيداً ومشدوداً إلى ذنب بغل، وبلغت هذه الكلمات ابن عبو فاستاء منها وقرر التخلص من الحبقي، وأرسل عدداً من المتطوعين والثوار الأندلسيين للقبض

على الحبقي، فاتجهوا إلى حيث ينزل وقبضوا عليه واستاقوه أمام ابن عبو فحاكمه كخائن، وحكم عليه بالاعدام، ونفذ فيه الحكم[1].

٢٩٨ ـ جهود ابن عبو لاستمرار الثورة:

وبعد مقتل الحبقي بذل ابن عبو جهداً كبيراً لاعادة بعث الثورة، وأرسل رسله إلى المناطق المجاورة ليثيروا الناس، ويحثوهم على الثبات والمقاومة. وفي ٣٠ تموز توجه رسول من الاسبان الى ابن عبو ودخل عليه في مقره، وعرض عليه عروضاً مغرية من الأمير. وقد رد ابن عبو على الرسول بما يلي:

«إنه يشهد الله على أنه لم يكن راغباً في أن يكون ملكاً، ولا ساعياً إلى ذلك، ولكن المسلمين من أتراك وأندلسيين هم الذين انتخبوه وأرادوا ان يكون ملكاً عليهم. ولذلك فانه لا يستطيع في أي وقت، ولا في أي ظرف أن يخضع لمشيئة الأمير، ولا أن يستسلم اليه. وإنه حينما تضطره الظروف والضرورات إلى شيء من ذلك فانه يفضل أن يعبر البحر إلى إفريقيا[2]»، وانتهت المفاوضات الى الاخفاق.

٢٩٩ ـ العمليات العسكرية:

وبينما كانت هذه المفاوضات تدور كان القادة الاسبان يهاجمون بعض مواقع الثوار المسلمين لاجلائهم عنها، أو إجبارهم على الاستسلام، واغتنم الاسبان فرصة تضعضع الثورة فأجلوا مسلمي المرية إلى أشبيلية، ونقلوا من تبقى من مسلمي غرناطة إلى أشبيلية، إلا من أراد منهم النزوح الى إفريقيا، فقد سمحوا له بذلك. وبذلك خلت مملكة غرناطة من المسلمين.

٣٠٠ ـ مقتل ابن عبو وانتهاء الثورة:

وتابع القادة الاسبان شن هجماتهم على مواقع الثوار فتضعضعت الثورة،

---

١ ـ تاريخ ثورات الموريكسيين وعقابهم ج ٢١ ص ٣٤٧.

٢ ـ نفس المصدر ص ٣٥٣.

واضطـر ابن عبـو إلى الانسحـاب إلى المنـاطق الـوعرة من البشرات ، ولم يبق معه من الرجال إلا قلة ـ تقدرهم الرواية الاسبانية بأربعمئة ، وكان يثق باثنين هما برنارديـنو ابن عامـر ـ سكـرتـيره ـ وبقائد قوات المنفيين واسمه السنيس ،وتقول الرواية أن السنيس أراد أن يعبر البحر الى إفريقيا حينما أدرك قرب انهيار الثورة فمنعه ابن عبو من ذلك ، وأحرق المركب الذي أعده السنيس. لذلك استاء السنيس وقرر التقرب من الاسبان بقتل ابن عبو، لينال العفو منهم .

وفي ١٣ آذار ١٥٧١ قتـل السنيس، وستـة أشخـاص كانـوا معـه ابن عَبُّو في الكهف الذي يختبىء فيه، وسلم جثته للاسبان، فنقلوها إلى غرناطة وحشوها بالملح وعلقوها على باب المدينة، ويقال إنها بقيت معلقة ثلاثين سنة .

ولما قتل ابن عبو أدرك الثائرون أنه لا فائدة من المقاومة فتقدموا يطلبون الأمان ، ووضعـوا سلاحهم(١). وهكـذا انتهت هذه الثـورة العظيمـة التي كان يعلق عليهـا الأندلسيون آخر أمل لهم في النجاة من الظلم الذي حل بهم وقد كان من الممكن أن تكـون لها نتيجـة ايجـابيـة ، لو أنهـا لاقت التأييـد والعـون الكـافي من العثمانيين ومن حكومات المغرب العربي .

---

١ ـ نفس المصدر ص ٣٦٣ .

القسم

٤

خاتمة المحنة

- ٣٠١

أسس العرب في الأندلس حضارة زاهرة لم يكن لها مثيل في تلك العصور، وعاملوا اليهود والنصارى، الذين عاشوا بينهم، بتسامح تام، كان غريباً عن عقلية المجتمع الغربي، ومفهومه في ذلك العصر، فازدهرت المجتمعات غير المسلمة في ظل حكمهم، وحافظوا على امتيازاتهم، ولغاتهم، وعاداتهم، وأديانهم، ولم يرهَقوا بضريبة ثقيلة، ولم يُزْعجوا بمصادرة. وحينما بدأ زحف الاسبان من الشمال، وأخذ المسلمون يرتدون إلى الجنوب، تخلفت جماعات منهم مقدرة أنها لن تُهاج ولن تُضار. ولكن الاسبان لم يحترموا عهوداً ولا مواثيق، وشرعوا في الضغط على العرب الباقين لديهم، وحولوا مساجدهم إلى كنائس، وانتزعوا أكثر ما كان بيد العرب من الملكيات، فتحول هؤلاء إلى أجراء ومزارعين يعملون في أرض السادة الجدد. ورغم كل ذلك قنع المدجنون، بما قسم لهم، وصبروا على ما حل بهم، وصرفوا كل همهم إلى تأمين عيشهم، والحفاظ على دينهم ولغتهم وعاداتهم، ولم يعودوا يبدون كبير اهتمام بالصراع الدائر بين العرب والاسبان في شبه الجزيرة. حتى إن عرب طليطلة الذين خضعوا للاسبان عام ١٠٨٥م، لم يتحركوا، ولم ينتفضوا على حكامهم، حينما انتصر المسلمون على الاسبان في معركة الزلاقة عام ١٠٨٦م. ولكن الاسبان برغم ذلك كله لم يتركوا العرب حيث هم، في أمن وسلام، فما ان تحققوا من ضعف الدولة العربية في الأندلس، وانكماشها في جنوبي شبه الجزيرة في مملكة غرناطة، ثم من تلاشيها تماماً بعد سقوط غرناطة، حتى شرعوا في إزعاج العرب ومطاردتهم لاجبارهم على ترك دينهم ولغتهم وعاداتهم ووطنهم وأموالهم.

ويذهب الكتاب الغربيون مذاهب شتى في تفسير هذا الاضطهاد، ورده إلى منبعه ومبعثه، فمنهم من يعزوه إلى جهل الشعب الاسباني وتعصبه الذميم، وضيق تفكيره، ووقوعه تحت تأثير الدعايات المغرضة الكاذبة التي لفقها بعض رجال الدين

عن حقيقة الاسلام وتعاليمه، وما أقنعوهم به من كره المسلمين للمسيحيين وعدائهم ـ التقليدي ـ لهم، وسعيهم للقضاء على المسيحية بكل وسيلة وسبيل[1].

ومنهم مثل (ماك كيب)، من يقول إن الشعب الاسباني شعب مسالم وديع، أراد أن يعيش مع العرب في أمن وسلام، وجرب حياة التعايش هذه قرابة قرنين، لم تبدر خلالها بادرة تنم عن الخصومة والعداء، ولكن تعصب القسس، وجهلهم، وحقدهم على الإسلام والمسلمين، دفعهم إلى النشاط في الدعاية ضد هذا التعايش. وقد استطاعوا بما كان لهم من تأثير على عقول الشعب، أن يخلقوا هوة ونفوراً بين الشعبين، أديا فيما بعد إلى عداء سافر وقطيعة[2].

ومنهم مثل (مانويل دانفيلا)، من يجعل السبب هو الكنيسة والفاتيكان، في محاولة منه لتبرئة ملوك اسبانيا ـ وخصوصاً ملوك أراغون ـ من جريمة اضطهاد العرب، وإن كان يحاول أن يجعل الباعث الأساسي لرد الفعل هذا من قبل الكنيسة والملكية، هو تصرف العرب أنفسهم، برفضهم الخضوع للضغط الواقع عليهم لترك دينهم، ولغتهم وتقاليدهم ولقيامهم بالثورات المتتالية للدفاع عن أنفسهم وحقوقهم المهدورة.

ويورد هذا الكاتب تواريخ أكثر الأوامر البابوية التي دفعت بملوك اسبانيا إلى اضطهاد المسلمين، كما يسرد طرفاً مما عاناه المسلمون من محاكم التفتيش، ومن السلطتين الملكية والكنسية، وهو بمعرض التعجب من صمود هذا الشعب العنيد، وتمسكه بدينه ولغته وتقاليده، برغم جميع ما نزل به من اضطهاد وكوارث وملاحقات[3]. وإذا عدنا الى ما كتب حول طرد العرب من بلادهم، وما حل بهم من اضطهاد لم يسمع بحلول مثله بشعب آخر، نجد ان الفاتيكان والكنيسة الاسبانية لعبا الدور الأول في مأساة المسلمين في الأندلس بما لهما من نفوذ وسلطة على ملوك البلاد النصرانية في تلك العصور. وان الملكية لعبت دور المنفذ للسياسة التي رسمها الفاتيكان والكنيسة، وان كان ذلك لا يقلل من مسؤوليتها تجاه التاريخ في هذا الأمر.

---

١ ـ سيركورج ٢ ص ٢٢٦.

٢ ـ ماك كيب ص ٦٥.

٣ ـ دانفيلا اي كويادو ص ٥٥، ٨٧، ١١٦.

أمـا سيـاسة الفاتيكان فقد وضحت في الأوامر العديدة التي أصدرها إلى ملوك أراغـون وقشتـالـة أولاً ، ثم إلى ملوك اسبـانيا بعد التوحيد أخيراً ، لمطاردة المسلمين ، ومـلاحقتهم أمـام محاكم التفتيش ، والتضييق عليهم ، حتى يتخلوا عن دينهم ولغتهم وعاداتهم ، وإذا لم تنجح جميع هذه الأساليب في حملهم على ترك ماضيهم ، فانه يأمر الملوك بطـردهم ، وتطهـير الأرض منهم . فالمهم في نظـر الفاتيكان هو أن يزول كل اثر للعـرب والإسـلام في شبـه الجـزيـرة الايـبر ية[1] . ومع أن مجامع طليطلة ، التي تعتبر سلطتها عظمى بالنسبة لكل النصرانية ، تحرم بشدة استعمال العنف والقسوة مع غير النصـارى[2] ، فإن بعض رجـال الكنيسـة استعملوا في إطـار الخطـة العـامـة لتنفيـذ الأوامـر البـابـويـة ، طرقـاً غير انسـانيـة وغـير أخـلاقيـة ، لاحـراج الملوك ، ووضعهم في موقف لا خيـار لهم فيـه . فقـد رأينا في الفصـول السـابقـة ، ان الكـاردينـال خيمنس ، اعـترف للملكة ، بحسب الروايات الاسبـانيـة نفسهـا ـ حينـما نشبت الثـورة في غرنـاطة عام ١٤٩٩ ـ أنه هو الذي وضع خطتـه لدفـع المسلمـين إلى الثـورة ليصبحوا متمردين على السلطة ، وبذلك لا يبقى لهذه السلطة خيار في مهادنتهم ، ولا يبقى أمامهـا إلا أن تلاحقهم كمتمردين خارجين على القانون ، وتكون عقوبتهم حينئذ الاعدام . ولكنها تستطيع أن تعفو عنهم ، وتوفر دماءهم ، إذا ما تركوا دينهم واعتنقوا النصرانية .

فأي خلق وأي دين يسمح لرجل يمثل أكبر مركز ديني في اسبانيا أن يتآمر بهذا الشكـل غير الاخـلاقي ، على أنـاس أبرياء قنعوا بما كتب لهم القدر في صفحته ، من زوال ملك مؤثل ، وسقـوط حضـارة زاهـرة وخضوع لعدوٍ لا يرحم ، فيباشر هو بنفسه خرق بنود معاهدة وقع عليها ملكه ، وأقسم على احترامها ، ويجبرهم وفقهاءهم على التنصـر بالحـديد والنار والسجون والتعذيب ، أو يدفع بهم إلى الثورة ليكونوا في وضع ليس لهم فيـه إلا خيـاران لا ثالث لهما : إمـا أن يرضخـوا ويستكينـوا ويقبلوا بما فرض عليهم وطلب منهم ، ويتركوا دينَ آبائهم وأجدادهم ، ولغتهم ، وحينئذ تنتهي مشكلة العرب في اسبانيا كما يشتهي الغالبون ، وإما أن يتحركوا للدفاع عن حقهم ، والاعلان عن شكواهم التي لم يرد أحد الاستماع إليها ، وهي تقدم للمسؤولين سلماً ، وبالطرق المشروعة ، وحينئذ يعتبر ون متمردين شاقين عصا الطاعة على الملك . فتضع الملكية

---

١ ـ دانفيلا اي كويادو ص : ٢٢ ، ٢٤ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٨٧ ، ١١٦ .

٢ ـ سيركور ج ٢ ص ٤٢ .

كل إمكاناتها للقضاء على ثورتهم، فيقتل من يقتل، ويهاجر من يهاجر، ويُسترق من يسترق، ويتلف من الأموال ما يتلف، وبذلك تصل الكنيسة إلى غايتها، في القضاء على العرب إما بالموت والطرد، وإما بالتنصر.

ولقد رأينا في فصل معاملة العرب للاسبان أيام حكمهم، كيف هدى بعض رجال الكنيسة الاسبان تفكيرُهم الضيق إلى وسيلة يمكن أن تعتبر فريدة في التاريخ، لاحداث نفور بين المستعربين وبين العرب، في محاولة لصرف المستعربين عن الافتتان بالمجتمع العربي، وآدابه، وفنونه، ولغته، وتسامحه، ألا وهي دفع الناس إلى شتم النبي العربي، ليقضي القضاة باعدامهم، بعد أن يرفضوا التراجع عما بدر منهم، وبذلك تعلنهم الكنيسة شهداء. فأي دين وأي ايمان يجيز لرجال الدين أن يشتموا مقدسات الآخرين وأديانهم، ويستعملوا الهجر من القول، ليثيروا الفتن، ويتسببوا في إهراق الدماء البريئة ظلماً وعدواناً من عند أنفسهم؟ أوليست لهم ألسنتهم وحججهم وتعاليم دينهم ليدعوا الناس بها إلى الايمان، وإلى التمسك بأهداب الدين والافتتان بمحاسنه؟ أليس لهم من دينهم آمر يأمرهم بالدعوة إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة؟ لقد كان كثير من رجال الدين الاسبان يعيشون بين المسلمين، وأجاد كثيرون منهم اللغة العربية، وكانت بين أيديهم كتب لا تحصى، توضح الدين الاسلامي، وتعاليمه، وأحكامه، ومذاهبه، فلماذا لم يدرسوها ويناقشوها بالعقل والحجة والمنطق؟ وكيف يجيز لهم إيمانهم ان يحرفوا ويزوروا وأن ينسبوا إلى الاسلام ما ليس فيه، ليتوصلوا إلى غاياتهم وأغراضهم؟

إن رجال الدين الاسبان يعرفون أن الاسلام انما جاء مؤكداً ومكملاً ما سبق أن ورد في اليهودية والنصرانية من إيمان بالله، وبرسله، وبالأحكام الواردة فيهما. وقد ترك الاسلام الحرية لاتباع الديانات الأخرى، وخصوصاً النصرانية واليهودية، للحياة كما يشاؤون، ولممارسة دينهم، وإدارة شؤون مجتمعهم. وفضل الاسلام أتباع الديانتين السماويتين على غيرهم من الناس لاشتراكهم معه في عبادة الله وتوحيده. وأبسط دليل على صحة هذا القول هو بقاؤهم هم أنفسهم، يمارسون عملهم في مجتمعهم بكامل حريتهم. حتى دفع بهم التسامح المفرط من جانب الحكام العرب إلى الاعتداء على حرمات دين الحكام ومقدساته. فهل هو جهل من رجال الدين الاسبان أن يجعلوا الإسلام عدواً للمسيحية، وحرباً عليها، وباعثاً للقضاء عليها،

وأن يجعلوه ديناً ينكر عيسى ، ويتقول على مريم عليها السلام؟ أم هو سوء نية منهم؟ فإن كان سوء نية فليس في الأديان كلها ما يأمر بالكذب والغش والتلفيق للوصول إلى هدف معين أياً كان ذلك الهدف ، ومن يفعل ذلك كان بعيداً عن الدين .

لا ينكر أحد على رجال الدين ، أي دين ، حقهم في أن يدعوا الناس إلى دينهم ، ويحثوهم على التمسك به ، أوعلى الدخول فيه ، وأن يوضحوا لهم محاسنه وفضله على الأديان الأخرى . ولكن ليس هناك عاقل يؤيدهم ، أويقبل منهم ، أن يلفقوا ، ويكذبوا ، ويشوهوا الحقائق ، ليتوصلوا بذلك الى مقاصدهم وأغراضهم ، لأن الأديان خير ومحبة ، وإحسان ، والخير يبرأ من الكذب والخداع .

والأمر الذي لا تفهمه عقلية الإنسان العربي ، ويستلفت النظر فعلا ، هو أن يصدر البابا كليمنت السابع أمراً بتاريخ ١٥٢٤/٣/١٢ ، يحل فيه الملك شارل الخامس من القسم الذي أقسمه عام ١٥١٩ يوم تولى الملك ، على الوفاء للمسلمين بما تضمنته معاهدات الصلح(١) . فالعربي لا يستطيع أن يفهم كيف يجوز إحلال انسان من قسم أقسمه أمام الله والناس على الوفاء لأبرياء وثقوا بالملك ودينه وشرف قسمه ، فاستسلموا له ، ونزعوا سلاحهم ، وسلموه اليه ، ولم تبق بهم قدرة على المقاومة ، والدفاع عن أنفسهم وحقوقهم . وفي المفهوم العربي للعهود والمواثيق ان البابا كان عليه - إذا كان قد استثقل شروط الاستسلام ، ووجدها كثيرة التسامح - أن يطلب إلى الملك إعادة بلنسية ، ومملكتها الى العرب ، وان يعيد إليهم سلاحهم ومالهم وخيلهم ، وأن يعطيهم وقتاً كافياً يستعدون فيه للمجابهة والحرب ، ثم يباشر حربهم إذا شاء ، وبذلك يكون الاحلال من القسم ونقض العهد معقولاً ، وهذا هو ما فهمته العقلية العربية لتعاليم الدين الاسلامي عن الأمر بالوفاء بالعهد ، واحترام العقود(٢) . وهناك أمر آخر يستلفت النظر في موقف الكنيسة الاسبانية من اضطهاد المسلمين وتعذيبهم ، ألا وهو وضعها جهاز ديوان التحقيق ، وهو جهاز كنسي خالص ، في خدمة هذا الاضطهاد ، وتقنينه وتنظيم عملياته ، والتفنن في أساليبه .

---

١ - دانفيلا اي كويادو ص ٨٧ .

(٢) انظر في هذا الكتاب : حق الامام في نقض شروط الصلح .

٣٠٢ ـ ديوان التحقيق :

لقد ترك ديوان التحقيق (وهو ما كان يعرف بمحاكم التفتيش)، ذكراً يرن في أسماع العصور الخالية ولكن الكثيرين يجهلون بالضبط الأساليب التي كان يتبعها هذا الديوان مع الضحايا المساكين الذين يحالون إليه. وقد يتصور الانسان لأول وهلة، أن قضاء ديوان التحقيق كغيره من هيئات القضاء المعروفة في زماننا، أو في عالمنا الشرقي كله. لذلك فقد يستغرب كيف يستطيع قضاء، مهما كان قاسياً متشدداً في تطبيق القانون، أن يرغم الأندلسيين على الخضوع للجور والاستكانة للضغط. ولكن من يطلع على القصة التي رواها ضابط فرنسي كان في اسبانيا أيام الحملة الفرنسية على اسبانيا في عهد نابليون، يدرك الهول الذي كان يتعرض له من يقع في يد محاكم التفتيش الكنسية، من أي دين كان.

كان أكثر عمل ديوان التحقيق قائماً على مطاردة العرب الأندلسيين، فقد اضطروهم بالضغط والاكراه والعنف إلى تقبل العماد، واعتبروهم بذلك مسيحيين، ولكنهم لم يتركوهم وما اعتقدوا أنهم عليه، بل أخذوا ينقبون عن أسرارهم وسرائرهم، وينكرون عليهم النظافة والاستحمام والامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، وختن الأولاد. واعتبروا كل ذلك قرائن تدل على أنهم ما زالوا مقيمين على الإسلام، وأنهم صاروا مرتدين عن النصرانية، وتجب ملاحقتهم. لقد أزهق ديوان التحقيق ألوفاً لا تحصى من أرواح العرب الأبرياء بتهم مختلفة، ولسنا الآن بصدد إحصاء عدد أولئك المنكوبين، ولكن يكفي أن نقول ان ديوان التحقيق أعدم في أشبيلية وحدها خلال ثماني سنوات، ٧٠٠ شخص، واضطر ٥٠٠٠ بأساليبه الخاصة إلى التوبة وطلب الغفران. وكان ذلك قبل أن يتسع نطاق التنصير، وقبل أن تضع الكنيسة خطتها الشاملة لابادة العرب[١].

وقد نقل الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه (نهاية الاندلس) وثيقةً أوردها المؤرخ الاسباني (لُورنْتي) مؤرخ ديوان التحقيق، تضمنت طائفة من القواعد والاجراءات التي رأى ديوان التحقيق أن يأخذ بها العرب المتنصرين في موضوع تهمة الكفر والزندقة والارتداد عن النصرانية، رأينا أن نقتبسها هنا لما فيها من غرابةٍ، وبعدٍ عن روح الإيمان، وظلمٍ،

(١) سيروكوز ج ٢ ص ٨.

(يعتبر الموريسكي (العربي المتنصر) قد عاد إلى الإسلام إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلها، وليس إلا رسولا. أو إن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أُمّهُ، ويجب على كل نصراني أن يُبلِّغ عن ذلك، ويجب عليه أيضا أن يُبلِّغ عمّا إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدا من الموريسكيين يباشر بعض العادات الاسلامية، ومنها أن يأكل اللحم يوم الجمعة، وهو يعتقد أن ذلك مباح له، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق في صلاته قائلا: بسم الله، أو يربط أرجل الماشية عند ذبحها، أو يرفض أكل الماشية التي لم تذبح، أو لحم الماشية التي ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده، أو يسميهم باسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباع هذه العادة، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا في الله وفي محمد رسوله، أو يقسم أيمانا بالقرآن، أو يصوم في رمضان، أو يتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور)، أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير، وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجِّه وجهَه جهة المشرق ويركع ويسجد ويتلو سورا من القران، أو ان يتزوج طبقا لرسوم الشريعة الاسلامية، او ينشر الأغاني العربية، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقا العربية، أو أن تستعمل النساء الحنّاء في صبغ أيديهن وشعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يمسح بيده على رؤوس أولاده أو غيرهم، تنفيذاً لهذه القاعدة، أو يغسل الموتى أو يكفنهم بأثواب جديدة أو يستغيث بمحمد عند الشدة ناعتا إياه بالنبيِّ أو برسول الله . . . أو يقول إن الكعبة هي أول معابد الله). [1]

ويقول المؤرخ الاسباني مارمول في موضوع بقاء العرب مقيمين على الإسلام ما يلي:

(كان الموريسكيون يشعرون دائما بالحرج من الدين الجديد، فإذا ذهبوا إلى القداس أيام الآحاد فإنهم كانوا يفعلون ذلك مراعاة للعرف والنظام - (وفي الحقيقة إن الكنيسة جعلت ذلك فرضاً عليهم، ومن تأخر عن ذلك عوقب وعرض نفسه لأشد الأخطار) - وهم لم يقولوا أبدا الحقيقة في اعترافهم أمام القسس فى الكنائس. وفي يوم الجمعة يجتمعون ويغتسلون ويقيمون في منازِلهم المغلقةِ الصلاة طبقاً للشريعة الإسلامية.

---

١ - محمد عبد الله عنان ٣٢٨.

وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون، وإذا عمَّدوا أطفالهم عادوا إلى منازلهم فغسلوهم سراً بالماء الحار، ويسمون أولادهم بأسماء عربية. وفي حفلات الزواج، تذهب العروس إلى الكنيسة لتلقي البركة، ولكنها متى عادت الى بيتها نزعت ملابسها النصرانية وارتدت ثياباً عربية، واقاموا حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية)(١).

٣٠٣ ـ قصة الكولونيل ليمونسكي:

اما قصة الكولونيل ليمونسكي الضابط في الحملة الفرنسية على اسبانيا فهي التالية: (٢)

«كنت سنة ١٨٠٩ ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في اسبانيا، وكانت فرقتي بين فرق الجيش التي احتلت مدريد. وكان الامبراطور نابليون اصدر مرسوما سنة ١٨٠٨ بالغاء دواوين التحقيق، في المملكة الاسبانية. غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة الحربية، والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ. وصمم رهبان الجزويت ـ اصحاب الديوان الملغى ـ على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم، انتقاما من القرار الصادر، والقاء الرعب في قلوب الفرنسيين، حتى يضطروا إلى اخلاء البلاد، فيخلو لهم الجو. وبينما كنت أسير في إحدى الليالي، اجتاز شارعاً يقل المرور فيه من شوارع مدريد، اذ باثنين مسلحين قد هجما علي يبتغيان قتلي، فدافعت عن حياتي دفاعا شديدا، ولم ينجني من فتكهما إلا قدوم سرية من جيشنا، مكلفة بالتطواف في المدينة. فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالفرار، وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش. فاسرعت إلى المارشال (سولت) الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النبأ، فثار غضبه، وقال لا شك في أن قتل جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار، ولا بد من معاقبتهم، وتنفيذ أمر الامبراطور بحل ديوانهم. والآن خذ معك ألف جندي وأربعة مدافع وهاجم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة.

وفي الرابعة صباحا ركبت على رأس تلك الحملة، ثم قصدنا دير الديوان، وهو

---

(١) سيركور ج ٢ ص ٨.

(٢) محمد الغزالي ص ٢٣٦.

على مسافة خمسة أميال من مدريد . فلم يشعر الرهبان إلا والجنود يحيطون بديرهم ، والمدافع تصوب إليهم فوهاتها ، وكان هذا الدير عبارة عن بناء ضخم أشبه بقلعة حصينة ، وأسواره العالية تحرسها فرقة من الجنود اليسوعيين . فتقدمت إلى باب الدير، وخاطبت الحارس الواقف على السور، وأمرته باسم الإمبراطور أن يفتح الباب . وظهر لي أن الحارس التفت نحو الداخل ، وكلم أشخاصاً لم نرهم ، ولما انتهى من حديثه عاد وأخذ بندقيته وأطلق علينا الرصاص ، ثم انهال علينا الرصاص من كل جهة ، فقتل بعض رجالي وجرح آخرون ولكني أمرت جنودي بأن يقتحموا الدير عنوة ، واعتبرت اطلاق الرصاص من الجزويت علامة رفض ، وأنهم لا يفتحون الباب إلا بالقوة . وأخذنا نطلق المدافع على أسوار الدير، وعلى الباب الموصد . واستخدم جنودنا الواح الخشب السميك تقيهم رصاص الحرس الذي كان ينهمر علينا كالمطر الغزير. وبعد نصف ساعة استطعنا فتح ثغرة واسعة في الحائط نفذ الجيش منها إلى داخل الدير، وكنت مع بعض زملائي في طليعة الداخلين . وأسرع الرهبان اليسوعيون إلى لقائنا مرحبين بنا ، ووجوههم باشة ، وهم يستفهمون عن سبب قدومنا على هذا النحو وكأنه لم يدر بيننا قتال ، ولم تنشب معركة . ثم استداروا إلى جنودهم ، وانهالوا عليهم تعنيفاً وتأنيباً وقالوا : إن الفرنسيين اصدقاؤ نا فمرحبا بهم . على أن هذه النفاق الخبيث لم ينطل علينا ، فاصدرت الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعا ، وعلى جنودهم الحراس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري . ثم أخذنا نبحث عن قاعات العذاب المشهورة ، وطفنا بغرف الدير فراعنا ما بها من أثاث فاخر، ورياش وكراسي هزازة ، وسجاجيد فارسية ثمينة ، وصور نادرة ، ومكاتب كبيرة . وقد صُنِعَتْ أرضُ هذه الغرف من خشب (المغنى) المصقول بالشمع . وكان شذى العطر يعبق في أرجاء الغرف فتبدو الساحة كلها أشبه بابهاء القصور الفخمة التي لا يسكنها إلاّ الملوك .

وعلمنا بعد ذلك أن تلك الروائح العطرة تنبعث من شمع يوقد دائماً أمام صور الرهبان ، ويظهر أن الشمع خلط بماء الورد . وكادت جهودنا تذهب سدى ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب . لقد فحصنا غرف الدير وممراته واقبيته كلها ، ولم نجد شيئا يدل عليها . فعزمنا على الخروج يائسين من اكتشاف بغيتنا ، وكانوا في اثناء ذلك يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عنهم ، وعن ديرهم ، ليس إلا تهماً باطلة ، وأنهم يحتملون هذه الأكاذيب في سبيل الله . وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة اتباعه

بصوت خافت، وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفرا بالدمع. فأعطيت الاوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير. لكن اللفتنانت «دي ليل» استمهلني قائلاً: ليسمح الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن! وقال: إني أرغب في فحص أرضية هذه الغرف، وأدقق في امتحانها، فإن قلبي يحدثني أن السر تحتها. وعند ذلك نظر الرهبان بعضهم إلى بعض نظرات قلقة، وأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود برفع الأبسطة فرفعت، ثم أمر بصب الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا. وكنا نرقب الماء فاذا بالأرض تبتلعه في إحدى الغرف، ويتسرب إلى أسفل. فصفق الضابط دي ليل من شدة فرحه قال: هوذا الباب انظروا، فنظرنا فإذا الباب قد انشكف، وهو قطعة من أرض الغرفة يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوارها قائمة مكتب الرئيس. وأخذ الجنود يكسرون الباب المسحور. والتفت فرقة من الجند حول عصابة الرهبان الذين اصفرت وجوههم، وكستها غبرة. وفتح الباب وظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض. فاسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين. ولما هممت بالنزول وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفاً وقال لي: يا بني لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال لانها شمعة مقدسة. فقلت له يا هذا، إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الابرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك.

وهبطت على درج السلم، يتبعني سائر الضباط والجنود شاهرين سيوفهم. حتى وصلنا آخر الدرج، فاذا بنا في غرفة كبيرة مربعة، هي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة. وأمام ذلك العمود عرش الدينونة كما يسمونه، وهو عبارة عن دكة عالية يجلس عليها رئيس الديوان، والى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعا معدة لجلوس جماعة القضاة. ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتمزيق الاجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات تحت الأرض، وقد رأيت فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني الى التقزز ما حييت. رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الانسان، بعضها عمودي وبعضها افقي، فيبقى سجين العمودية واقفا على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه. ويبقى سجين الافقية ممدداً حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم. ولتصريف الروائح الكريهة

المنبعثة من الاجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج. وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في اغلالها سجينة. والسجناء كانوا رجالا ونساء تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين. واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة. وكان فيهم من جن لكثرة ما لاقى من عذاب. وكان السجناء عراة زيادة في النكاية بهم، حتى اضطر جنودنا ان يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيفاً من النساء السجينات. وقدمنا السجناء إلى النور تدريجياً لئلا يؤثر النور المفاجىء على أبصارهم. وكانوا يبكون فرحاً، وهم يقبلون أيدي جنودنا وأرجلهم لأنهم انقذوهم من العذاب، وأعادوهم الى الحياة. وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الابدان. عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم. وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج، حتى تأتي الآلة على البدن المهشم فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة. وعثرنا على صندوق في حجم رأس الانسان تماما يوضع فيه الرأس المعذب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل من يديه ورجليه، فلا يقوى على حركة. وتقطر على الرأس من ثقب في أعلى الصندوق، نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة، وقد جن الكثيرون من ذلك اللون من التعذيب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت. وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى بالسيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة، ثم يطبقون عليهما باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق تمزق جسم الشاب، وتقطع إرباً. كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان، ولتمزيق اثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عراة حتى يتناثر اللحم عن العظام.

وصل خبر الهجوم على دير ديوان التفتيش إلى مدريد، فهب الألوف ليروا ما حدث. ولما شاهد الناس باعينهم وسائل التعذيب وآلاته الجهنمية جن جنونهم، وامسكوا برئيس اليسوعيين، ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقاً، وسحقتها سحقاً، وامسكوا بكاتم سره، وزفوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهما التابوت، فمزقته السكاكين شر ممزق. ثم فعلوا مثل ذلك ببقية أفراد العصابة. ثم أخذ الشعب ينهب الدير.

وقد عثرنا على أسماء ألوف الأغنياء في سجلات الديوان السرية، وهم الذين قضى الرهبان بقتلهم كي يبتزوا أموالهم، أو يضطروهم إلى كتابة إقرارات تحول ثرواتهم إلى اليسوعيين».

هذه قصة ديوان التفتيش، رواها شاهد عيان، وهي لا تحتاج إلى أي تعليق عليها، والذي يمكن أن نضيفه إلى رواية الكولونيل الفرنسي، هو أن مشاهداته كانت عام ١٨٠٩، وأن المعاملة واقعة على كاثوليك مسيحيين، فكيف بمعاملة الديوان للمسلمين قبل ثلاثة قرون، قبل أن تنصقل العواطف، وتتهذب النفوس بعض الشيء، وتنتشر فكرة الحرية في العالم؟ إنها بلا شك تتجاوز أضعاف ما ورد في هذه الرواية.

٣٠٤ ـ الشروع في طرد من تبقى من العرب في الأندلس:

وإذاً فقد كان اضطهاد الاسبان للعرب كبيرا، فاق في قسوته وفظاعته كل ما يمكن ان يتخيله الانسان، فالملك والكنيسة والجيش والقضاة والموظفون والشعب، كلهم يلاحقون العرب، ويبتزون أموالهم بالباطل. وكانت السلطة الملكية تسن القوانين الجائرة غير المنطقية، بحق العرب ليلجؤوا اليها، ويقدموا لها الرشاوى، لتوقف العمل بها، أو تبطلها، ولكنها لا تلبث بعد حين أن تعود إلى اصدار أوامر أخرى، وفي نيتها أن تقبض مبالغ أخرى من المال لِتوقف العمل بها من جديد.

وقد اعترف المؤرخ الاسباني (دانفيلا اي كويادو): أن كل شيء في اسبانيا، في ذلك الحين، كان يباع: القضاء والشرف والاخلاق، حتى اصبح يمكن الاعتراف بشرعية ابناء الاكليروس[1]. وكان تطبيق القوانين والانظمة مصدر اثراء وربح للقضاة والموظفين والحكام. ويعترف المؤرخون الغربيون أن قانون رخص الأسلحة ونصوصه الغامضة، وما تضمنه من عقوبات بالغة الشدة بحق العرب المخالفين، كان مصدر اثراء كبير بالنسبة لكل من له علاقة بتطبيقه. ويلاحظ الانسان بملء الدهشة أن اكثر القوانين التي سنتها السلطات الملكية في اسبانيا لاخضاع العرب، كانت عقوباتها بالغة القسوة، وكانت عقوبات الموت والاسترقاق، ومصادرة الأموال والأشغال الشاقة في السفن مدى الحياة، أو لمدة ست سنوات، هي اكثر العقوبات

---

١ ـ دانفيلا اي كويادو ١٥٣.

ذكراً في هذه القوانين، حتى بالنسبة للمخالفات البسيطة، كمخالفات حمل السلاح.

ولكن جميع هذه المعاملة غير الانسانية، والملاحقات الجائرة والمصادرات، لم تستطع كلها أن تجتث جذور العرب من الأندلس، ولم تستطع حملهم على التخلي عن الأرض التي أنبتتهم، وشهدت عظمتهم ومجدهم، وازدهار حضارتهم. لذلك اتجهت السياسة الاسبانية، بدفع من الفاتيكان والكنيسة إلى الاخذ بفكرة التخلص من العرب، وطردهم من البلاد.

ولكنَّ طرد مئات الألوف من الناس المستقرين، المتمسكين بالأرض، ليس بالأمر السهل الاقدام عليه، وهكذا بقيت فكرة الطرد تظهر وتخبو، وتُقرَّرُ ويُتراجعُ عنها، إلى أن تم اتخاذ القرار النهائي، ونفذ عام ١٦٠٩، بعد أن اتخذت الاحتياطات القوية لضمان نجاحه. ولكن السلطة لم تستطع أن تقدم عليه إلا بعد أن كانت التعسفات والمصادرات، وملاحقات ديوان التفتيش، قد ارهقت ذلك الشعب المسكين، وانهكت قواه، وتركته قطيعا من الشحاذين، والعبيد الهائمين على وجوههم في كل فج هربا من العذاب والاسترقاق.

وسنستعرض في البحث التالي تطور فكرة الطرد والأوامر الصادرة حولها، والمآسي والفظائع التي رافقت التنفيذ.

٣٠٥ ـ ضغط البابوية والكنيسة لطرد العرب وازعاجهم:

نفذت فكرة طرد العرب من اسبانيا على نطاق واسع عامي ١٦٠٩ و ١٦١٠م، في عهد الملك فيليب الثالث، ولكنها لم تكن من بنات افكار ذلك الملك، ولم تنشأ في عهده، وانما هي فكرة قديمة استقرت في اذهان الملوك والفاتيكان والكنيسة منذ عهد بعيد. ففي عام ١٢٥٤، حدثت ثورة في منطقة نهر شقر (مملكة بلنسية)، تزعمها أمير يدعى (الأزرق) فأسرع الملك خايم إلى بلنسية، لمواجهة الموقف، ودعا مجلس الدولة فيها، وأعلن للمجلس الخطة التي ينوي اتباعها في معالجة الثورة. وكان من خطته أن يحصن بعض المواقع الرئيسية في المنطقة، وبصورة خاصة مدينة شاطبة، لكي يجمد العرب غير الثائرين، ويمنعهم من الانضمام إلى الثورة، ثم يعمد إلى طرد جميع العرب من المنطقة، وإلى احلال عائلات نصرانية محلهم. فصفق البورجوازيون والقسس لهذه الفكرة، وعارضها النبلاء لما تجره عليهم من خراب.

وهـذه أول مرة تعـالـج فيها مسألة المدجنين بهذا الشكل الواضح الحاسم. ونفذ الملك جزءاً من فكـرتـه وخطتـه، إذ طرد كثـيراً من العـرب الثـائرين، وسمح لهم بحمل ما يستطيعون حمله من امتعتهم. أما ما لم يستطيعوا حمله من امتعتهم وأموالهم غير المنقولة فقـد اعطيت لأمـراء الاقطـاع في المنـاطق التي كانـوا يعيشـون فيها، تعويضاً لهم عن الخسـائـر التي الحقهـا بهم حرمـانهم من الأيـدي العـاملة المطرودة. وكان عدد الذين أخرجوا كبيراً، وصفه الملك نفسه فقال انهم كانوا يغطون مسافة خمس مراحل من الطريق.

وحينـما نشبت الثـورة في مملكـة بلنسيـة، وشعـر الملك خايم الاول بحـاجتـه إلى مالٍ ينفقه على الجيوش التي يسيرها لاخماد الثورة، لجأ إلى الفاتيكان والكنيسة لمده ببعض المـال، فاظهـر الفـاتيكـان استعـداد الكنيسـة للتنـازل له عن العشر الكنسي لبعض الوقت، ولكنه اشترط عليه أن يقسم علنا أمام مذبح العذراء في كنيسة بلنسية، على إبادة جميع المسلمين الموجودين في مملكته، ففعل ذلك وتمت الصفقة[1].

ثم تكـرر طلب البـابـا إلى دون خايم إبـادة المسلمـين، حينـما حاول الملك الاستيـلاء على مرسيـة، فأرسـل البـابـا إليـه يشجعـه على تحقيق الفكـرة، ويقـول له إنه من الضروري أن تبيد جميع المسلمين[2].

ثم نشبت الثـورة مرة اخـرى في مملكـة بلنسيـة عام ١٢٧٦، وكـان الملك خايم مريضـا، وقبـل أن يمـوت في ١٨ تموز ١٢٧٦، كتب وصيته لابنه دون بيدرو وقد جاء فيهـا: (إنـه بالنظـر لما قدمـه الملك من وعـد للبـابـا باخـراج جميع المسلمين من أرض المملكـة، وبـالنظـر لما تقدم بالقسم عليه أمام مذبح العذراء في بلنسية، فانه يرجو ابنه دون بيـدرو أن يتـولى هو مهمـة طردهـم جميعـا من مملكـة بلنسية، دون أن يترك أحداً منهم فيها لأي سبب كان، حتى ولو دفعوا ما عليهم).

وهـذا يؤكـد أن البحث بين البابا والملك خايم كان يدور حول طرد العرب من مملكة اراغون منذ القرن الثالث عشر. ويعترف المؤرخون الاسبان أن الملك خايم لم يقـدم على وضـع سيـاستـه لطرد العرب إلا تحت ضغط ثلاثة عوامل: ١) أولها الحاح الفاتيكان ٢) وثانيها ثورات العرب ٣) وثالثها ضغط البورجوازية والاكليروس.

وتـلاحقت ضغـوط الفـاتيكان على ملوك اسبانيا لاخراج العرب من أرضهم،

---

(١) نفس المصدر ٢٢.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣.

ففي عام ١٣١١ دعا البابا كليمانت الخامس إلى عقد مجمع مقدس في فيينا، وفيه وجه البابا أمراً إلى الملوك الكاثوليك في اسبانيا، بألاَّ يسمحوا في ممالكهم بممارسة الدين الاسلامي، وهذا يعني حمل الناس على التنصر، وطرد من لا يقبل منهم ترك دينه.

وعين البابا محققين من رجال الكنيسة يتولون ملاحقة المارقين والمرتدين ـ الذين تعمدوا تحت الضغط والاكراه ـ كما يتولون التبشير، ودعوة المسلمين للتحول إلى الكثلكة.

وفي ١٢ آذار ١٥٢٤، أصدر البابا كليمانت السابع أمراً بابويا (بولا) تناول فيه الأمور التالية:

أ ـ حل فيه الملك شارل الخامس، من القسم الذي أقسمه عام ١٥١٩ وهو القسم الذي التزم ملوك اراغون بأن يقسموه حينما يتولون العرش، وفيه يلتزمون بأن يحترموا المعاهدات الموقعة مع العرب حين الاستسلام، وما تقضي به من احترام حريتهم في ممارسة دينهم ولغتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، والتقاضي لدى قضائهم بحسب شريعتهم. الخ[1].

ب ـ يدعو الملك إلى أن يكلف المحققين بمهمة التبشير ودعوة المسلمين إلى الدين المسيحي، وأن يعين لهم مهلة يتحولون خلالها الى المسيحية.

ج ـ ان يخرج الملك من المملكة، المسلمين الذين يرفضون العماد تحت طائلة استرقاقهم مدى الحياة.

وفي عام ١٥٢٥ اصدر البابا امرا الى الامبراطور شارل كنت يأمره فيه بأن يحمل المسلمين على اعلان طاعتهم له (أي للامبراطور)، وأن يُعَمَّدوا في يوم ٨ كانون الأول ١٥٢٥، فاعتبر أمر البابا هذا دفعا جديدا للسير في فكرة تنصير العرب

---

(١) خشي نبلاء اراغون ان تعمد الملكة ايزابيل الكاثوليكية الى مباشرة الضغط على العرب في مملكتهم لحملهم على التنصر، مما قد يدفعهم الى الحرب. فألزموا الملك فرناندو (زوج الملكة) بان يقطع لهم عهدا بان لا تمس حقوق العرب المضمونة بموجب المعاهدات الموقعة معهم. فوعدهم بذلك، ووضعت صيغة، وقعها الملك فرناندو واقسم عليها، واصبح تقليدا في مملكة اراغون ان يقسم الملوك على هذه الصيغة. وقد جاء في الصيغة المذكورة: (ان المسلمين الموجودين في مملكة بلنسية لا يمكن ان يطردوا او يخرجوا من المملكة، ولا ان يجبروا على ان يصبحوا مسيحيين).
وجاء في النص الذي وقع عليه الملك فرناندو (واننا نرغب ونريد، ان لا يكون من قبلنا ولا من قبل احفادنا اي قيد على تجارة العرب في هذه المملكة، ولا على علاقاتهم بالنصارى، ونريد ان يساسوا بتسامح كما في السابق).

وطردهم[1] وعاد البابا كليمانت السابع في عام ١٥٣٤ فاثار الموضوع مرة اخرى إذ كتب إلى المحقق مانـريكـه، يطلب اليـه ابـلاغ الملك أسفـه لما بلغـه عن عودة العـرب المتنصرين إلى دينهم الأول، كما يطلب إليه ملاحقة هؤلاء وحملهم على الثبات على الكثلكة[2] .

وفي ١١ حزيـران ١٥٣٤، اصـدر البـابـا أمرا بابوياً (بولا) يأمر فيه الامبراطور شارل كنت بان لا يترك العرب في مملكتي اراغون وبلنسية، وان يطرد من المملكتين، جميع من لا يقبلون منهم التحول الى النصرانية[3] .

٣٠٦ ـ العوائق في سبيل التنفيذ:

لقد كانت الفكرة اذاً تتردد في اذهان الملوك والكنيسة، منذ وقت بعيد. ولكن طرد مئـات الالـوف أو المـلايين من العرب الذين بقوا في أرضهم لم يكن بالأمر السهل على الممالك الاسبانية في ذلك الحين، لأسباب كثيرة: منها كثرة عدد العرب، والخوف من ثوراتهم وتمردهم على الأوامر، مما كان يمكن ان يهدد أمن الممالك وسلامها بأفدح الاخطار، لا سيما وأن الممالك الاسلامية في المغرب والجزائر ومصر وتركيا، كانت تهدد الممـالـك الاسبـانيـة بالتـدخـل لحماية العرب المقيمين فيها. وكان هناك ايضاً مصلحة النبـلاء الاسبـان الـذين كان العرب يعملون في أراضيهم. إذ إن طرد العرب سيخلي أراضيهم تمامـا من اليـد العـاملة النشيطة المخلصة القادرة على الانتاج، وبالتالي فإنه سيؤدي الى افقـار السـادة الاقطاعيين. وكان الاسبان يعتبرون عمل العرب مصدراً للثراء لمن يعملون لديـه، لذلـك كانـوا يقـولون في امثالهم في ذلك الحين: (من عنده عرب عنده ذهب) (Quien tiene moro tiene oro) . وكان نفوذ النبلاء كبيرا في الممالك الاقطاعية في تلك الازمنة اذ يقوم نفوذ الملكية على اكتافهم، وكانوا هم الذين يؤلفون الاطـار القيـادي للجيـوش المحـاربة. وبلغ من نفوذ النبلاء في مملكة اراغون ان حملوا الملك فرناندو، كما رأينا منذ قليل، على أن يقسم على احترام حقوق العرب، وعدم ازعاجهم، والسماح لهم بممارسة عاداتهم ودينهم ولغتهم، ثم اصبح هذا القسم صيغة متوارثة يلتزم بها ملوك اسبانيا.

(١) دانفيلا اي كويادو ٩٢٩. وسيركورج ٢ ص ١٥٠.

(٢) و(٣) دانفيلا اي كويادو ص ١١٦ .

والملكيـة نفسهـا كسلطـة ذات مصـالـح اقطاعية، مثل بقية النبلاء، كانت لها مصلحـة في بقـاء العرب كيد عاملة تنتج في أرضها وأملاكها. كما أن الملكية، كسلطة عامة مكلفة بالسهر على مصلحة الدولة ككل، كانت ترى أن المصلحة تقضي ببقاء العرب، ولو إلى حين، كيلا تخرب البلاد، وتخلو من السكان إذا خرجوا منها.

٣٠٧ - تبلور الفكرة:

ولكن الكنيسة كان لها رأي آخر، والفاتيكان بما له من سلطة وتأثير على الملوك الكاثوليك، كان يحث ملوك اسبانيا ويدفعهم إلى السير في سبيل الطرد، لارضاء الله في زعمهم، مهما كانت النتائج المادية لذلك العمل. ونقلت الكنيسة رغبتها في تحويل العـرب إلى النصـرانيـة، وطـرد من لا يتنصـر منهم، إلى أوسـاط الشعـب. فوجدها زعـانف النـاس والكسـالى، والفقـراء، ومن لا يملكـون شيئـاً، فرصـة يمكنهم بها الحصـول على ملكيـات واستثمارات، إذا ما خرج العرب، واحتاجت الدولة إلى من يحل محلهم، فتكوَّن رأي عام يطالب باخراج العرب.

٣٠٨ - الهجرات الجزئية:

كان الضغـط الشـديـد الذي يتعرض له العرب يدفع بالكثيرين ممن يجدون ما ينفقـون خارج المملكـة، إلى الهجـرة نحو شمالي افريقيا، هربا بدينهم وبحياتهم. كما أن الثـورات الكثيـرة التي قام بها العـرب، للتعبيـر عن سخطهم على المعـاملة غير الانسـانيـة التي كانـوا يلاقـونهـا، أجبرت الكثيرين منهم على الهجرة، كيلا يتعرضوا للموت والاسترقاق والتحول إلى النصرانية. كما اقتنع الكثيرون من عرب الاندلس أن أرض الاندلس لم تعد لهم دار مقام وقرار، فكانوا ينسلون بالتدريج هاربين إلى برِّ العدوة من المغرب. وكان من نتيجة ذلك كله، أن هاجرت ألوف لا تحصى من سكان الأنـدلس. وبـدأ التخلخل يبدو في مناطقهم. وكلما قل عددهم في اسبانيا تزايد عدد الاسبـان في هذه المنـاطق، واستشعـر دعاة الطرد بأن الساعة الحاسمة لاخراج العرب جملة من البـلاد قد قربت. فقـد أضعفت الهجرات امكانات العرب على الثورة، كما أن تزايـد الاسبـان في المنـاطق العـربية، أضعف المحاذير التي كانت تبدو بنقص اليد العاملة، وخلو المناطق من السكان.

٣٠٩ ـ اقتراحات تقدم للملك:

كان هم الكنيسة هو أن تحول العرب إلى نصارى متمسكين بتعاليم الكنيسة بكل دقة. فهي تريد الوصول الى غايتها بجميع الوسائل، وفيها الاغراء والاكراه. وكانت تقدر أن الذي يعرقل نجاح جهودها هو التراث الحضاري العربي، فإذا قطعت صلة العرب بذلك التراث أمكنها تحويلهم إلى النصرانية بسهولة، وحملهم على البقاء في إطار الكنيسة، فأتلفت الكتب العربية، وأمرت بتحريم استعمال اللغة العربية، وتحريم ما ألِفَ المسلمون من عادات وتقاليد في النظافة والطهارة والصوم، والختان، وتحريم شرب الخمر وتحريم اكل لحم الخنزير. فأمرت بهدم الحمامات، وتحويل المساجد إلى كنائس وازالة معالمها الخارجية. ولكن جميع هذه الأساليب لم تزد العرب إلّا إصراراً على التمسك بدينهم وعاداتهم، حتى الذين أكرهوا على التنصر منهم بقوا مقيمين على الإسلام، يمارسونه في بيوتهم سرا، يصومون رمضان، ويؤدون الصلاة، ويعلمون أولادهم الدين، ويتطهرون. فأساء ذلك الاصرار إلى رجال الكنيسة، ونشطوا في ملاحقتهم أمام محاكم التفتيش بشدة ليس لها مثيل. وصدرت أوامر تمنعهم من الخروج من البلاد، ومن الانتقال من أرض إلى أرض، وحرم عليهم حمل السلاح، وكل ذلك كان يهدف إلى إدخال اليأس إلى نفوسهم، وإجبارهم على الخضوع للكنيسة. فدفعهم ذلك إلى الاتصال بإخوانهم في شمالي افريقيا، وبالقراصنة الأتراك والجزائريين ليعملوا على نقل من يريد الهرب منهم، والخروج من اسبانيا. فوجدت السلطات في ذلك حجة لها تمكنها من زيادة العسف الذي تنزله بهم.

ولما تزايد ضغط الفاتيكان والكنيسة والعامة على الملكية للقضاء على العرب في اسبانيا، بدأت الملكية تبحث المسألة بحثاً جدياً. ففي عام ١٥٦١، سأل الملك فيليب الثاني شخصاً يدعى (غريغوري دوميراندا)، وهو من المكلفين بزيارة المناطق العربية، وفحص حالة العرب، عن رأيه في قضية العرب فأجاب: (إن الموريسكيين هم عرب مسلمون تماماً كالجزائريين، وإنهم يمارسون شعائرهم وعبادتهم علناً، ولديهم كثير من المساجد، وإنهم خونة لا يفكرون إلّا في الثورة حينما تسنح لهم الفرصة، وإنهم يقبضون على النصارى، ويخفون القراصنة، ويتعاونون مع الأتراك، وإنه من الضروري نزع سلاحهم، وإعادة تنشئتهم على النصرانية)[1].

---

١ ـ دانفيلا دي كوريادو ١٦٢.

٣١٠ - نزع سلاح العرب :

أصـدر الملك فيليب الثـاني أمـراً بتـاريـخ ٢/١/١٥٦٣ ، بوجـوب نزع سلاح العـرب ، على أن يتم ذلــك في يوم واحـد هويوم ٨ شبـاط ١٥٦٣ ، وعلى أن تسلم الأسلحـة خلال أربـع ساعـات . فجمعت كميات كبيرة من السلاح إثر ذلك . وبعد أن تم نزع سلاح العرب ، صدر في ٢٥ آذار١٥٦٣ أمر من ديوان التحقيق الأعلى بأن يحضر العرب المتنصرون القداس والاحتفالات الدينية مع عائلاتهم ، كما ألزمهم بأن يرسلوا أولادهم الـذين تزيـد أعـمارهم عن أربع السنـوات ، وتقـل عن السبع ، إلى الكنيسة لمدة ساعة كل يوم لتلقي تعاليم الدين .

٣١١ - بحث المسألة :

وكـان في منطقـة بلنسيـة بلدة تدعى شيا (xea) ، كان سكانها العرب من أشد النـاس تمسكـاً بدينهم وتقـاليـدهم ، وكـانـوا بحكم موقـع بلدتهم قرب ساحل البحر يتصلون بإخـوانهم في افـريقيا عن طريق القرصان والسفن التجارية ، وقد حوكم عدد منهم بتهمة التآمر والاتصال بالقرصان ، وحكم على عدد كبير منهم بالإعدام .

ووضعت هذه المحـاكمـة وغـيرهـا من المحـاكـمات التي كانت تجري كل يوم تقـريبـاً ، مسألـة طرد العـرب من بيـوتهم موضـع البحث . فقـد بحث أمـر أهل بلدة (شيـا) ، أولاً في مجالس المملكـة ، وارتأى بعضهم أن ينقلوا من ديـارهم إلى منـاطق كاستيليـا الـداخلية ، أبعـد ما يكـونـون عن الشاطىء ، واقترح آخرون طردهم من البلاد ، فصدرت اعتراضات على هذا الرأي باعتبار أنهم اسبانيون أصلاً ، ويجب أن يجبروا على الحياة كاسبانيين ، وألا يسمح لهم بالخروج من البلاد .

ولكن جميـع هذه الأوامـر والتـدابير لم تفلح في صرف العرب عن دينهم ولغتهم وعاداتهم ، ولم تجعل منهم مسيحيين صالحين ، كما كانت تأمل الكنيسة .

وعـادت المسألـة إلى بساط البحث مرة أخرى . ويقول دانفيلا اي كويادو ، إن المسؤولـين في اسبـانيا بحثوا في طريقة تمكنهم من القضاء على الوجود العربي في شبه الجزيرة . وبنتيجة البحث توصلوا إلى الاقتناع بأن أمامهم أحد طريقين :

أ ـ اما اخراجهم من أرضهم عن طريق إصدار أحكام .

ب ـ وإمـا ملاحقتهم أمـام ديـوان التحقيق ، وإصـدار احكـام كثـيرة عليهم

بالاعدام، وحينئذ لا يبقى في المملكة خلال سنين، أحد منهم[1].

٣١٢ ـ وضع الخطة:

وقد تبلورت هذه الحلول والاقتراحات، فيما بعد، في عهد الملك فيليب الثاني، فأصبحت لديه في عام ١٥٨٢، خطوط كبرى لخطة عامة لطرد العرب من اسبانيا. ولكنه لم يجرؤ على الاقدام على تنفيذها، فجاء خلفه فيليب الثالث فنفذها عام ١٦٠٩م.

بحث فيليب الثاني الخطة التي تصورها للانتهاء من وجود العرب في اسبانيا الذين قدر عددهم في زمانه بنصف مليون انسان ـ حسب الروايات الاسبانية ـ ورأى انه لا بد لنجاح خطة الطرد من تعاون النبلاء والسادة الاقطاعيين، الذين كانوا دائماً يسعون للوفاء بالشروط التي ضمنت للعرب حريتهم لكيلا يضطرهم الاضطهاد إلى الهرب. على ان موقف هؤلاء النبلاء بدأ يتحول في آخر الأمر فأصبحوا ينصحون الرهبان والقسس بأن يقوموا بالتبشير بين المسلمين لاجتذابهم طوعاً أو بالإغراء إلى المسيحية، وذلك لكيلا يبقوا مصرين على دينهم وتقاليدهم، فتقوم العامة والكنيسة بالمطالبة باجبارهم على التنصر، فيضطرهم ذلك الى الهرب. وفي كلا الحالين كان الاقطاعيون حريصين على مصالحهم المرتبطة ببقاء العرب يعملون في أرضهم. لذلك أراد الملك أن يضمن تعاونهم معه في مسألة الطرد، بعد أن فشلت جميع الوسائل في حمل هذا الشعب العنيد على التخلي عن تراثه المجيد. وفي أيلول ١٥٨٢ اتصل الملك فيليب الثاني سراً، بعدد من كبار أمراء الاقطاع، الذين يعيش في اقطاعاتهم كثير من العرب، وأخذ يشرح لهم أهمية إخراج العرب من شبه الجزيرة. وفي عام ١٥٨٤، وجه شخص يدعى انطونيو دي كوردوبا اي لارا إلى الملك رسالة، اقترح عليه فيها، القيام بتحصين طليطلة، وتسليح ٣٠٠ ألف شخص لتحقيق اخراج المسلمين من طليطلة، وارسالهم إلى منطقة (سايا جو)، ووضع مسيحيين مكانهم، واقترح عليه بأن يفعل مثل ذلك مع جميع عرب اسبانيا ليفقدوا الجرأة والغرور اللذين استوليا عليهم اثر الانتصارات التي حققوها في الثورات السابقة[2] ولما

---

(١) نفس المرجع ص ١٩٦.

(٢) دانفيلا اي كويادو ص ٢٠٥.

رأى الملك استجابة من اناس كثيرين، وعدم معارضة النبلاء، شرع في اتخاذ التدابير القاسية بحق العرب ومن ذلك:

أ ـ اصدر الملك في ١٨ كانون الثاني ١٥٨٥ أمراً ملكياً يلغي فيه الاتفاق الذي تم مع العرب في عام ١٥٧١، وما تضمنه من تساهل وتسامح. ونص الأمر الجديد على أن العرب الذين لا يطيعون أمر الطرد خلال شهرين، يصار إلى اعدامهم شنقاً.

ج ـ وأما الأولاد فيدخلون في دور التعليم (سيمنارينو)، تحت اشراف الكنيسة.

واقترح المجلس أن يتم تطبيق هذه الحلول خلال فصل الشتاء. وفي ٢ شباط ١٥٩٩ أعلن مركيز دانية أمام المجلس أن الموريسكيين، هم الآن عرب، كما كانوا قبلاً ويستحقون الموت، ويمكن الحكم عليهم بالشغل في السفن مدى الحياة كعبيد، ومصادرة أموالهم وأملاكهم. أما النساء والشيوخ فيطردون الى افريقيا. وأما الأولاد فيسلمون الى الكنيسة ـ لينشؤوا في الأديرة ودور التعليم تحت اشرافها.

وعُرِضَ على المجلس اقتراحٌ آخر يقول باخراج العرب من منازلهم، وتوزيعهم بين المسيحيين بنسبة عائلة بين كل ٥٠٠ أو ١٠٠٠ عائلة، وبذلك يذوبون نهائياً.

وبعد مناقشات طويلة توصل المجلس إلى اتخاذ قرار عام ١٥٩٩ يتضمن ما يلي:

أ ـ يجب العمل بسرية تامة.

ب ـ يجب جمع القوة العسكرية الكافية.

ج ـ يجب العمل على معرفة العدد التقريبي للعرب الموجودين في المملكة، على أن يُبدأ بقشتالة وينظر بعدها بأمر بلنسية وأراغون.

وكان كل ما يشغل بال المجلس الطريقة التي يتم بها الطرد، وبذلك تكون الفكرة التي وجدت عام ١٥٨٢ قد تبلورت وأصبحت خطة واضحة وجاهزة للتنفيذ عام ١٥٩٩.

وفي عام ١٥٩٩ انعقد مجمع اقليمي في بلنسية حضره البطريرك، وكبار رجال الدين، والكاردينال معرِّف الملكة (جاسبار دو كوردوبا)، ولكن هذا المجمع درس مسألة حمل العرب على التنصر، ولم يدرس مسألة اخراجهم. وكان الرأي الذي اقترحه الكاردينال عام ١٦٠٠، واهتم به المجلس، يقول باخراج العرب من ديارهم ليوزعوا في قشتالة، على أن يُلجأ الى استعمال الرفق معهم، فإذا لم ينجح الرفق وجب انتزاعهم بالقوة، وارسالهم الى قشتالة، ثم رأى المجلس في ١٩ حزيران

١٦٠٠، بالاجماع، أنه من الضروري أن يصار الى الاهتمام بتعليم العرب تعاليم الدين، وان يضيق عليهم في مسألة اللغة واللباس.

وفي عام ١٦٠١، ناقش المجلس اقتراحات خطيرة وسخيفة، فرؤي عدم الأخذ بها. ومن هذه الاقتراحات:

١ - انتزاع أولاد العرب الصغار من آبائهم وتسليمهم الى النصارى لتنشئتهم.

ب - أصدر الملك في ٢١ آذار ١٥٨٦، أمراً يقضي بمكافأة من يقبض على المخالفين لأوامر الطرد من العرب.

جـ - ثم اصدر امراً آخر يحرم على العرب الاقتراب من البحر.

د - وفي ٣٠ تموز ١٥٨٦، صدر أمر حرَّم عليهم، تبديل أماكن اقامتهم.

هـ - وفي ٥ أيار ١٥٩٥ أصدر الملك أمراً يقضي بضرورة تعليم العرب الديانة المسيحية واللغة الاسبانية.

و - وفي ٢١ أيار ١٥٩٥ قرر الملك إلغاء الدروس العربية في جامعة بلنسية.

ورأى مجلس الدولة أنه من الضروري الحرص على عدم تعليم أولاد العرب اللغة العربية، وأن يهدم كل بناء أو أثر يشير مظهره الخارجي إلى أنه جامع أو حمام(١).

على أن الملك فيليب الثاني برغم جميع هذه الأوامر التعسفية، لم يجرؤ على مباشرة تنفيذ الخطة التي وضعها لطرد العرب.

٣١٣ - فيليب الثالث ينفذ خطة الطرد:

حينما ارتقى فيليب الثالث العرش عام ١٥٩٨، وضع ثقته في شخص يدعى فرنسيسكو دوسان دوفال - (مركيز دانية) فأخذ هذا يتصرف في أمور الدولة كما يشاء، ويطبق سياسته الشخصية. وبناء على سعيه وجهده حمل مجلس الدولة على الأخذ برأيه في أمر مصير العرب. وفي ١٥٩٩/١/٣٠ عقد مجلس الدولة (الكورتس) جلسة بحث فيها مسألة طرد العرب من المملكة وتوصل المجتمعون الى صوغ اقتراحاتهم المتعلقة بمصير العرب وهي:

أ - يحكم على الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٦٠ سنة بالعمل في

---

١ - نفس المرجع ص ٢٣٠.

السفن مدى الحياة، وتصادر أموالهم.

ب ـ أما الرجال الذين تزيد أعمارهم عن الستين والنساء فيرسلون إلى افريقيا.

ولكن هذا الاقتراح استبعد لعدم واقعيته، إذ قدر عدد الأولاد المراد انتزاعهم بأربعين ألفاً، فإذا كلف النصارى بتحمل عبء نفقاتهم كان ذلك شيئاً ثقيلاً عليهم، وقد لا يقبله الكثيرون منهم. وإذا كُلف الآباء العرب بها فقد يرفضون دفعها.

٢ ـ وعرض على المجلس اقتراح آخر يقول بتحريم الزواج على العرب. واستبعد هذا الاقتراح لمخالفته لقوانين الطبيعة.

٣ ـ وعرض على المجلس اقتراح ثالث يقول بترك العرب في أماكنهم يعيشون على دينهم وعاداتهم؛ بعد مصادرة أموالهم وفرض ضريبة ثقيلة عليهم. ولكن هذا الاقتراح لم يؤخذ به أيضاً.

٣١٤ ـ اقتراح طرد عرب أراغون:

وفي ٣ كانون الثاني ١٦٠٣، عقد مجلس الدولة جلسة قرر فيها الاقتراح على الملك بطرد عرب مملكة أراغون للقضاء على العلاقات التي يقيمونها مع الفرنج في الشمال، وهو أمر يضر بمصالح المملكة، وذلك لأن المجلس يرى أن أحكام ديوان التحقيق لا تحقق الغاية المرجوة منها، بسبب أعمال القراصنة، وإمكانات الهرب، والعفو والتسامح.

٣١٥ ـ اتخاذ قرار الطرد:

وفي ٢١ شباط ١٦٠٩، كتب المحققون في مملكة أراغون إلى كاردينال طليطلة، يسألونه عما تقرر بشأن العرب. فكتب الكاردينال إلى مجلس الدولة يسأله بدوره، واقترح أن يبقى الأمر سراً مكتوماً، إلى حين تنفيذه، وأن لا يهاج العرب ولا يحرجوا، لكيلا يتحركوا، فيأخذهم الأمر بغتة. واقترح على المجلس أن يعطي تعليماته سراً إلى ديوان التحقيق في أراغون وبلنسية وقطالونيا.

٣١٦ ـ قرار مجلس الدولة:

رأى المجلس أن سنة ١٦٠٩، هي أفضل السنين مناسبة لاتخاذ قرار حاسم

ب ـ لا ينفذ القرار في قشتالة إلا بعد أن تتبين نتيجة تنفيذه في بلنسيه.
ج ـ إن حرمان العرب من ابنائهم يعرقل عملية الطرد، ولأجل ذلك يجب تأليف لجنة من رجال الدين والقانون لتنظر في أمر الأبناء.
د ـ توزع القوات، وتتخذ الاستعدادات والتدابير المشددة لمراقبة كل حركة.
هـ ـ تؤخذ الثمار والأموال المنقولة لتنفق في تربية الأولاد.
و ـ تبقى النساء المسيحيات المتزوجات من عرب مع أولادهن في المملكة.
ز ـ لا يطرد من أصبحوا مسيحيين فعلاً.

٣١٩ ـ مصير الأولاد:

لم يجرؤ مجلس الدولة على أن يقرر مصير الأولاد فوراً، لذلك أوصى بتأليف لجنة من رجال اللاهوت والقانون لدرس الموضوع. ولما درست اللجنة هذا الموضوع رأت أن تقترح الحلول التالية:

أ ـ الأطفال الذين تقلُّ اعمارهم عن ٤ سنوات، ويرى آباؤ هم تركهم في البلاد، يجب أن يبقوا، على أن يتم البحث عن أشخاص يقبلون تسلّمهم للعناية بتربيتهم.

ب ـ الأولاد الذين عاشوا منذ زمن بعيد بين المسيحيين، وتلقوا (التكريس)، يمكن بقاؤ هم في البلاد.

ج ـ أولاد المسيحيين والمسيحيات، يبقون في البلاد إذا كانت أعمارهم تقل عن ست سنين..

د ـ أما غير هؤ لاء من الأولاد، فيجب أن يخرجوا من اسبانيا مع أهليهم، بلا تردد ولا شفقة. ثم عدلت السن فجعلت سبع سنين.

٣٢٠ ـ موقف المغرب من مسألة الطرد:

كان المغرب دائماً أملاً وسنداً لاخوانه أبناء الأندلس، وقد تحمل في ذلك أكبر التضحيات وأعظمها، وكان لتدخله عام ١٠٨٦، الفضل في منع انهيار الدولة العربية في الأندلس، في ذلك الحين، ومد بذلك عمر الحكم العربي ٤٠٠ سنة اخرى. وفي الوقت الذي اذيع فيه أمر طرد العرب من الأندلس، كانت في المغرب دولة قوية موحد:

بحق العرب، نظراً للاضطرابات الخطيرة بين زعماء العالم الاسلامي، وانشغالهم بهذه الخلافات عن كل شيء آخر. فسلطان الترك كان مشغولاً في صراع مع ملك فارس، وفي صراع آخر مع ملك مراكش. وملك مراكش مشغول بثورة مولاي زيدان، بالاضافة إلى انشغاله في صراعه مع سلطات الجزائر التركية. ولذلك لم يكن هناك أمل للتدخل في شؤون عرب اسبانيا. وبعد مداولات، قرر المجلس في ٤ نيسان ١٦٠٩، مبدأ طرد العرب من اسبانيا، والتدابير التي يجب اتخاذها. ولكن الملك أبقى الموضوع سراً، وسافر إلى شقوبية، وبقي فيها الى ٣ أيلول.

٣١٧ ـ اذاعة قرار الطرد:

اتخذ الملك احتياطات أمن مشددة، وحشد قوات تقارب ١٣٠٠٠ جندي، ووضع الحصون والقلاع على أهبة الاستعداد الكامل، وشحنها بالمؤن والذخائر، واستدعى قوات الاسطول لتساهم كلها في العملية، ثم أمر بإذاعة الأمر في ٢٢ أيلول ١٦٠٩. وهو يقضي بطرد عرب مملكة بلنسية.

٣١٨ ـ محاولة النبلاء لآخر مرة:

وقع الملك أمر الطرد في ١١ أيلول، ولكنه لم يذعه إلا في ٢٢ منه، وقد علم النبلاء بالأمر بعد توقيع القرار، وقبل اذاعته، فتوجهوا إلى الملك، للمرة الأخيرة، يشرحون له الأضرار التي تلحق بالمملكة من جراء تنفيذ قرار الطرد فرد عليهم الملك شارحاً وجهة نظره، وعرض عليهم أن يعوضهم عن الأضرار التي تلحق بهم، فقال لهم إن أوان المراجعة قد فات لأن أمر الطرد قد أذيع في ذلك الحين في بلنسية، وأنه في طريق التنفيذ.

وفي نفس الوقت الذي تم فيه مسعى النبلاء لدى الملك، اجتمع مجلس الدولة في ١٥ أيلول ١٦٠٩، بتمام هيئته، وحضر الملك اجتماعه هذا، وكان مما قرره المجلس في هذا الاجتماع:

أ ـ يجب الاستمرار في تنفيذ أمر طرد العرب من بلنسية، وقشتالة، تحقيقاً لخدمة المسيح، ولأمن اسبانيا.

تضم مراكش وفـاس، تحت امـرة السلطـان محمـد الشيخ، وكان من المنتظر، ان تقوم الدولة المغربية بعمل ما في هذا السبيل إذ كانت فعلاً هي الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تحدث أثراً في السياسة الاسبانية. ولكن السلطان كان يواجه خطرين يهددان كيان دولته، أولها خطر الغزو التركي، من جانب الحكم التركي المستقر في الجزائر. وثانيهما خطـر انشقـاق داخـلي، أحـدثتـه ثورة مولاي زيـدان. وتقول الروايات الاسبانية إن السلطـان، تجاه هذا الـوضـع الخطـير، كان يسعى إلى تأمين عون من اسبانيا، وإنه اضطـر إلى أن يستقـرض منهـا عشـرين ألف دينـار، كما حصـل منها على ستة آلاف بنـدقيـة، وقـدم ضمانـات للملك فيليب الثـالث على الـوفاء بالدين. ولما تأكد الملك فيليب من أن السلطان في شغل عنه، وأنه لن يتمكن من فعل شيء، قرر المضي في تنفيـذ مخططـه. وقـد صح تقـديـره لأن السلطـان المغربي لم يتحرك، كما أن الأتراك لم يقوموا بعمل ما.

٣٢١ ـ التنفيذ:

قبل أن يذاع أمر الطرد الصادر في ١١ أيلول ١٦٠٩، اتخذت الدولة الاسبانية الاحتياطات التالية:

أ ـ أذيع في ١٢ أيلول، أمر ملكي في بلنسية، يقضي بفرض عقوبات بحق من يسيء معاملة العرب في مملكة بلنسية.

ب ـ وفي ١٧ أيلول، احتلت السفن الايطالية والاسبانية، التي اجتمعت تحت إمرة أمير البحر الاسباني بيدور دوتوليدو، بعض الموانىء، وتولت قواتها حراسة المعابر والممرات الموصلة بين مملكتي أراغون وبلنسية.

ج ـ دعـا الملك في ٢١ أيلول أعضـاء مجلس الـدولة (النواب)، وأمراء الاقطاع وأصحاب الرتب العليا في الدولة للاجتماع إليه.

د ـ ولما اجتمع اليه من دعاهم يوم ٢٢ أيلول، قرأ عليهم الأمر الملكي الصادر في ١١ أيلول ١٦٠٩، فرد عليه ممثلو النبلاء أنهم وإن كانوا يرون خراب أملاكهم، إذا ما خرج العـرب منهـا، إلا أنهم لن يبـالـوا بذلـك، لأن كل همهم منحصـر في خدمـة الملك، ورفعة الدين، وأمن المملكة.

وبعـد ذلـك كتب الملك إلى نبـلاء بلنسيـة يطلب إليهم التعـاون معـه لانفـاذ

مضمون أمر الطرد. كما قام الكاردينال باذكاء روح الحماسة في القسس، وحثهم على تقديم أكبر عون لانجاح المهمة.

٣٢٢ ـ تعليمات الطرد:

وأشارت التعليمات التي أذاعها (المركيز دو كارسينا)، لتنفيذ الأمر الملكي، إلى الجهود الكبيرة التي بذلت عبثاً لتحويل العرب في مملكتي بلنسية وقشتالة الى النصرانية، لذلك فإنه سيصار الى الانتهاء من مشكلتهم كما يلي:

أ ـ إخراجهم جميعاً من المملكة رجالا ونساء وأطفالا، خلال ثلاثة أيام. وإذا وجدوا بعد هذه المهلة في الطرق، أوفي أماكن أخرى، فيمكن القبض عليهم وتجريدهم مما يحملون من أمتعتهم، وإذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم جاز قتلهم.

ب ـ وعليهم خلال الأيام الثلاثة الممنوحة لهم أن يلزموا بيوتهم وأن لا يخرجوا منها حتى يأتي إليهم مفوضو الدولة المكلفون بتنفيذ الأوامر.

ج ـ إذا قبل الجيران أن يخفوا أموالا للعرب، تعرض المخفون لعقوبة الاعدام.

د ـ يسمح لهم فقط بأن يحملوا معهم أموالهم المنقولة التي يستطيعون حملها معهم شخصياً، تحت طائلة عقوبة الموت.

هـ ـ أما ما لا يستطيعون حمله من أموال ومنقولات وأثاث، فان الملك أمر بأن تُسلّم للسيد الاقطاعي التابعين له.

و ـ سمح لستة أشخاص فقط من كل مئة شخص أن يبقوا لتسوية أمور الآخرين المعلقة، على أن يكونوا أكبرهم سناً.

ز ـ بعد انقضاء المهلة المحددة، يلغى الأمر الصادر بتحريم اساءة معاملة العرب.

ح ـ يسمح لعشرة من العرب الذين يسافرون في الفوج الأول، بالعودة إلى البلاد لاخبار اخوانهم بالمعاملة التي لاقوها في الطريق من قبل موظفي الدولة المكلفين بمرافقتهم.

ط ـ الأولاد الذين تقل أعمارهم عن أربع سنوات، والذين يرغبون في البقاء، ويوافق آباؤ هم أو أولياؤ هم على بقائهم يمكنهم ذلك.

ي ـ الأولاد الذين تقل أعمارهم عن سبع سنوات والذين هم من أب نصراني، أو أم نصرانية أصلا، يمكنهم البقاء، وتبقى معهم أمهم، وإن كانت عربية. ولكن إذا كان الأب عربياً والأم نصرانية فيطرد هو ويبقى مع الأم الأولاد الذين تقل اعمارهم عن سبع سنوات.

ك ـ أما الأشخاص الذين يعيشون مع المسيحيين أصلا، ويثبت أنهم لم يذهبوا إلى رابطة الجوامع منذ اكثر من سنتين فيسمح لهم بالبقاء.

واتخذت إثر إذاعة هذه التعليمات الاحتياطات المشددة لحراسة المدينة، والأحياء الواقعة خارج الأسوار. وشرع المفوضون بالتطواف على القرى، والضياع، والأحياء، لحمل الناس على الابحار، وترك اسبانيا. وفي ٢٧ أيلول قدم المركيز (دو كارسينا) كشفاً للملك بالعمليات التي تمت، وباعداد الذين أخرجوا فعلا. وأبدى بعض النبلاء تعاوناً مخلصاً مع الملك في تنفيذ أمر الطرد، مثل الدوك (دوغانديا)، الذي يملك اربع مناطق يبلغ سكانها من العرب من أتباعه ستين ألفاً[١]، ومع ذلك قرر التضحية بمصالحه الخاصة، ابتغاء مرضاة الملك. ولكن النبلاء الآخرين لم يتعاونوا مثل هذا التعاون ـ على ما تقوله الروايات الاسبانية ـ.

٣٢٣ ـ المآسي التي رافقت عملية الطرد:

لقد رافق تنفيذ عمليات الطرد مآسٍ، وإساءاتٌ لا توصف، وكأن هؤلاء المساكين لم يكفهم ما حل بهم في الماضي من ظلم، ونهب أموال، واضطهاد من جميع فئات الشعب الاسباني، وكأنهم لم يكفهم ان يُنْتَزعوا من بيوتهم ليُقْذَفَ بهم بعيداً عنها، فقد تعرضوا أثناء عمليات الطرد إلى ما لا يحصى من الجرائم الفظيعة التي ارتكبت بحقهم ومن ذلك:

أ ـ أمرت الدولة بألا يحملوا معهم غير ما يستطيعون حمله شخصياً من متاعهم، أي ما يستطيعون هم حمله بأنفسهم، لا ما يستعان لحمله بدابة أو واسطة نقل أخرى. وما الذي يستطيع أن يحمله الانسان؟ لقد تركوا أغلب ما يملكون من متاع وأثاث وماشية ومؤن.

---

١ ـ كويادو ص ٣٠٢.

ب ـ إن الـذين لم يأت دورهم في الابحـار راحـوا يستعـدون للرحلة، فصـاروا يبيعـون ما لا يستطيعـون حمله كي يستعيضـوا بحمـل النقـود عن حمل المتـاع، فأخذ الاسبـان يتر بصـون للعـرب في الطرقات والمسالك التي يمرون فيها ذاهبين إلى المدن لبيع ما معهم، ويسلبونهم إياها، تحت سمع الحكومة وبصرها.

ج ـ ثم رأت الحكـومـة أن بعض الناس كانوا يتمكنون من الوصول الى المدن وبيع ما معهم، فأرادت أن تقطع هي عليهم الطريق فأصدرت أمراً بتاريخ ١ تشرين الأول ١٦٠٩، تحرم فيـه على العـرب أن يبيعـوا، بعـد ذلـك اليـوم، ما يملكون من حبوب وزيوت، ومواشٍ، وأمرت بأن تصادر منهم، وتسلم للسادة الاقطاعيين.

د ـ أخذ الشعب الاسباني ينتظم في عصابات تقوم بمهاجمة قوافل النازحين في الطـرقـات، وتسلبهم ما معهم من قليـل المتـاع، وتقتـل من تقتـل منهم، تحت سمع القوات المرافقة للنازحين وبصرها.

ولما تزايدت الفظائع المرتكبة، وبلغت حداً لا يُطاق، ضج العرب في كل مكان في اسبـانيـا، بالشكـوى، وتـوتـر الجو، وبدت علائم الثورة والتمرد عليهم، فخافت الحكـومـة أن يعـرقل ذلك الجهود التي بذلتها لانجاح مخططها، فأمرت بوضع حراسة على جميع طرق المملكة لضمان سلامة النازحين، ولكن ذلك لم يبدل من الأمر شيئاً، إذ أخـذت هذه القـوات التي كلفت بالحـراسـة والسهر على أمن النازحين تشارك هي نفسها في عمليات الاغارة عليهم، فأدرك المسؤولون أن ثورة العرب أصبحت وشيكة الوقوع لما حل بهم من ظلم وعسف. وقد كتب المركيز (دو كارسينا) للملك يخبره بأن الجرائم التي يرتكبها النصارى بحق العرب من قتل ونهب وسطو واختطاف تتزايد كل يوم، وان النقمة في أوساط العرب تتزايد بسبب هذه الجرائم.

وتقول الروايات الا سبانية إن الملك استاء من هذه التعسفات التي تجاوزت كل حد، وإنـه قال لسكـرتـيره، إن التـدابـير التي اتخذتها الحكـومـة لم تكن كافيـة لردع المجرمين، ولا بد من انزال عقاب صارم بهم، أو ببعضهم على الأقل، ليرتدع الآخرون(١). ولكن الحكومة لم تقدم حماية جدية للنازحين فانفجرت ثورات في بعض المناطق العربية، ومنها ثورة في (مويلا) (والأغوار)، واستمرت من ٢٤ أيلول حتى ٢٩ تشـرين الثـاني، فأسرعت القوات الحكومية لمقاتلة الثائرين، وقطعت الماء عن الوادي

---

١ ـ كويادو ٣٠٢ ـ ٣٠٤.

الذي احتله الثائرون، وعندئذ أعلنوا استعدادهم لوضع السلاح والنزوح. وتقول الرواية الاسبانية إن الناس تدافعوا إلى الماء وكانوا قرابة ١٧٠٠٠ انسان، ومات كثيرون منهم لكثرة ما شربوا.

٣٢٤ - طرد العرب من المناطق الأخرى:

بعد أن نجحت عمليات السلطات الاسبانية في كبح جماح العرب، في مملكة بلنسية وطردهم، التفتت هذه السلطات إلى تنظيم عمليات طردهم من المناطق الأخرى: غرناطة ومرسية وجيان والأندلس.

وفي ١٣ كانون الثاني ١٦١٠، أذاع (خوان دو ميندوسا)، في أشبيلية، الارادة الملكية الصادرة في ١٦٠٩/١٢/٩ التي تقضي على العرب المقيمين في مناطق غرناطة ومرسية وجيان والأندلس، بالخروج من المملكة خلال ٣٠ يوماً مع أولاهم ونسائهم، تحت طائلة عقوبة الموت ومصادرة أملاكهم وأموالهم. وسمح لهم الأمر ببيع منقولاتهم على أن يحملوا بدلا عنها بضائع يشترونها. وسمح لهم بأن يحملوا من النقود ما يكفيهم للرحلة الى المنطقة التي يريدون الخروج منها. وحرم الأمر الملكي على أهل المناطق المراد اخراجهم، التوجه الى موانيء أراغون وبلنسية.

٣٢٥ - إخراج عرب قشتالة والاستريمادورا:

تذكر الرواية الاسبانية أن (برناردو دو فالاسكو) كونت سالازار، قال إن عرب قشتالة والاستريمادورا قد اعربوا له عن قلقهم، وعن رغبتهم في الخروج من البلاد، لذلك صدر أمر ملكي في ٢٨ كانون الأول ١٦٠٩، يقضي بالسماح لهم بالخروج الى حيث يشاؤون خلال ٣٠ يوماً، وسمح لهم باخراج منقولاتهم، واختار بعضهم الخروج إلى الأراضي الفرنسية، فسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقود ما يكفيهم للرحلة، من بورغوس إلى الحدود الفرنسية. وفي عام ١٦١٠ خرج من بورغوس الى فرنسا قرابة ١٦٧١٣ شخصاً أكثرهم من أهالي غرناطة.

وفي ١٠ تموز ١٦١٠، أذيع أمر ملكي يقضي بطرد كل من بقي في البلاد من العرب، باستثناء النساء العربيات المتزوجات من نصارى وأولادهن. ونتيجة لهذا

الأمـر الجـديـد خرج من بورغـوس وحـدها، إلى فرنسا أكثر من عشرة آلاف انسان. وتقـول الـروايـة الاسبانية إن الذين أخرجوا من قشتالة نتيجة لهذا الأمر يقدرون بأكثر من مئة ألف شخص(1).

٣٢٦ ـ إخراج عرب أراغون:

أصـدر الملك في ١٧ نيسـان ١٦١٠، أمـراً باخـراج العـرب المقيمـين في مملكة أراغون، ولكن هؤلاء كانوا شرعوا في التسلل من البلاد إلى فرنسا، منذ أن أدركوا أن دورهم آت لا محالة. فباعوا ما استطاعوا بيعه من أموالهم وأمتعتهم، وخرج الكثير ون منهم قبل صدور الأمر الملكي.

وفي ٢٩ أيـار ١٦١٠، أذاع المـركيـز (دي ايتـونـا)، أمـراً في سرقسطـة يقضي باخـراج جميـع عرب المنطقـة، فخـرج منهم بنـاء على هذا الأمـر حوالي ٢٢ ألفـاً من الموانىء، ولكن الحـاكم لم يترك هذه المنـاسبـة تفـوت دون أن يفيد منها، فأجبر كل فرد على أن يدفـع له عشـرة ريـالات (مرابطي). وتقدر الروايات الاسبانية عدد الذين طردوا من أراغون بحوالي ٦٤ ألفاً، أما الذين خرجوا من قطالونيا فكانوا بحدود خمسين ألفاً.

٣٢٧ ـ عمليات طرد أخرى:

وفي ٢٢ آذار ١٦١١، نشر كتاب ملكي، يذكر الملك فيه أنه قد بقي في اسبانيا عدد من العـرب، وأن بعضهم عاد بعـد اخـراجه. ويأمر الكتاب بأن يخرج من البلاد خلال سنتـين، جميع العرب الموجودين في مملكة غرناطة، بدون استثناء. حتى العبيد العـرب الموجودون لدى السـادة الاسبـان، فقـد طلب الأمـر تحريـرهم ليخرجوا مع الآخرين خلال هذه المهلة أيضاً.

ونتيجة لهذا الأمر خرج من قشتالة والاستر يمادورا وحدهما ٦٠٠٠ شخص. ثم صدر أمر آخر في ١٦١١/٥/٣١، يجدد الأمر بالطرد، ويقضي بأن يحكم على الذين عادوا خلسة بالعمل في السفن، وسمح هذا الأمر بأن يبقى في كل مكان واحد يختاره

---

١ ـ كويادو ص ٣١٠.

العـرب، ليقـوم ببيـع أمـوالهم، وتسـويـة أمـورهم المعلقة، نيابة عن جميع المبعدين وقضى الأمر أيضاً بأن يستولي الملك على نصف قيمة ما يبيعه العرب من أموالهم.

٣٢٨ - عرب مرسية:

صدر أمر إخراج عرب مرسية في ١٠ كانون الثاني ١٦١٠، ولكنه لم ينفذ حينما نفذ بحق عرب المناطق الأخرى. وفي ٨ تشرين الأول ١٦١١، صدر أمر باخراجهم من ميناء قرطاجنة، على أن يشمل الأمر اخراج العرب من موريسكيين (متنصرين)، ومدجنين. ولكن الأمر لم يذع في مرسية إلا في ١٩ تشرين الثاني.

وخرج من البلاد تطبيقاً لهذا الأمر قرابة ١٥٠٠٠ شخص. أما الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثماني سنوات فقد تركوا في البلاد، وسلموا للمسيحيين لتنشئتهم.

وبالرغم من جميع هذه الأوامر فانه بقي عدد لا بأس به من العرب في اسبانيا. وتقول الرواية الاسبانية إن الدولة تلقت معلومات عام ١٦٢٣، عن وجود عرب بقوا في اسبـانيـا. وفي عام ١٧٦٩، تلقى ديـوان التحقيق معلومات عن وجود مسجد في قرطاجنة يحتفظ به العرب المقيمون فيها.

ولكن برغم وجـود أعـداد قليلة من العـرب في نواح متفـرقـة من شبـه الجـزيرة الاسبـانيـة، فانهم لم يبق لهم كيـان وأثـر في الحياة العامة. وهكذا تمكن الجهل والظلم والعسف والارهـاب، من طي علم تلك الحضـارة المشرقة، التي أنارت لأوروبا سبيل العلم والمعـرفـة، وأيقظتها من سباتها العميق، وانتزعتها من تخلفها، وانطوى بانطواء العلم العربي علم الاسلام الذي دخل الفاتحون العرب تحت ظله إلى الأندلس.

القسم

٥

حضارة العرب

تمهيد

٣٢٩ ـ حضارة العرب :

كان بودي أن أقف بالقارىء الكريم عند نهاية أعظم مأساة في تاريخ الانسانية، ليبقى اثرها في نفسه حياً. ولكنني وجدت أنه لا يمكن أن يعالج الإنسان ناحية من نواحي تاريخ الأندلسيين، أية كانت تلك الناحية، دون أن يتعرض، ولو باشارة موجزة، أو لمحة عابرة، إلى حضارتهم ومدنيتهم، لا سيما وأننا أشرنا، أكثر من مرة في هذا الكتاب، إلى تلك الحضارة الزاهرة، التي لم يعرف التاريخ الأوربي القديم، لها مثيلاً.

ومما دفعني أيضاً إلى إضافة هذا الفصل، هو أن جميع الكتّاب الذين عالجوا موضوع الأندلس، ومأساة العرب فيها، تعرضوا إلى الحضارة العربية عامة، والأندلسية خاصة، واهتموا بالخراب الذي الحقته يد الجهل والظلم بالحضارة الأندلسية، أكثر من اهتمامهم بمصير الشعب العربي، والمآسي العظيمة التي حلت به.

وقد وجدت أن أُتبع هذا القسم بفصل آخر، يتضمن بعض ما قاله الأندلسيون من شعر في رثاء أنفسهم، ووطنهم ودينهم، وفي تصوير المآسي التي حلت بهم، والظلم الرهيب الذي وقع عليهم، لأن هذا الأدب، هو أدب المأساة، الذي يعتبر أصدق وصف، وتصوير لواقع الشعب وحياته، وهو جزء هام من تراثه.

ولكن البحث في حضارة العرب عمل ضخم يحتاج الى كتب مطولة، لا إلى فصل واحد من كتاب، وضع لمعالجة ناحية معينة من نواحي تاريخ العرب في الأندلس. والباحث في تاريخ حضارة شعب ما، عليه أن يتناول جميع ما امتاز به هذا الشعب، وما قدمه للإنسانية في جميع مجالات الحياة: العلوم والفنون والآداب والآثار والعمران والأخلاق والفلسفة والصحة والنظافة والآداب. . . الخ.

والأندلسيون قدموا للإنسانية، ولاوروبا بصورة خاصة، الشيء الكثير جداً في هذه الميادين، ولا يستطيع أن يجادل في ذلك إلا مكابر مجانف للعدل والانصاف.

على أننا إذا لم نستطع أن نحيط في هذا الفصل، بجميع نواحي الموضوع، ولا أن نوفيه حقه كاملاً من العرض والتفصيل، لتتضح أمام القارىء الكريم الصورة الكاملة لهذه الحضارة التي بلغت الأوج، يوم كانت أوروبا في أبعد درجات التخلف والجهل، فإننا نستطيع أن نشير على الأقل الى الخطوط العريضة، والى بعض مظاهر هذه الحضارة، وما قيل فيها، ليعود من شاء التوسع في الموضوع، إلى المراجع المطولة التي عالجت حضارة العرب في الأندلس.

وقد رأينا أن نكتفي ببعض ما قاله بعض الكتاب الغربيين المنصفين، مما يشير إلى هذه الخطوط العريضة للحضارة العربية عامة، وإلى حضارة الأندلس خاصة، والكتاب الغربيون أقرب إلى الشعب الاسباني منهم إلى العرب الأندلسيين، ولا يمكن أن يتهمهم أحد بالتحيّز للعرب، ولا بالتحامل على الكنيسة وعلى الاسبان. ولذلك فإننا نعتقد أن إيراد مقتطفات مما قالوه، يكون أكبر برهان على حقيقة ما قدمه العرب للحضارة الإنسانية.

ونحن حينما نبحث في الحضارة الأندلسية، لا بد لنا من أن نشير إلى أنها كانت جزءاً من الحضارة العربية الإسلامية في المشرق، اقتبست منها الكثير، واغنتها هي بدورها. فقد كانت وحدة الدين، ووحدة اللغة، ووحدة الدار، والثقافة، والتاريخ، والمصير، والمصالح، من أكبر العوامل في تيسير انتقال العلم والعلماء، والفنون والفنانين، وفي انتقال أحدث المبتكرات من جهة إلى أخرى في العالم الاسلامي.

ولذلك فإن الانسان حينما يبحث في الحضارة العربية الإسلامية في الغرب، لا يمكنه أن يغفل النظر إلى أصولها ومنابعها في الشرق. فالحضارة العربية الاسلامية، في الغرب والشرق كانت كلاً واحداً، وهذا بلا شك لا ينفي ولا يمنع من أن تكون هناك مميزات خاصة تميز الحضارة في كل قطر تبعاً للبيئة والجوار. ولذلك كان البحث في الحضارة العربية بحثاً بالضرورة في الحضارة الأندلسية.

٣٣٠ ـ جهل الإنسان الغربي بحقيقة الحضارة الأندلسية:

وقع أول احتكاك جدي بين العرب وبين أوروبا في سوريا وفي مصر، حينما اندفعت جيوش العرب ـ بعد أن تحولوا إلى الإسلام ـ إلى هذين القطرين، لاقصاء الروم البيزنطيين عنهما، ولاحتلال مكانهم فيهما. وتتابع الاحتكاك في القرون التالية،

حتى بلغ العرب أوروبا بعد فتح الأندلس، وجنوبي فرانسا، وجنوبي ايطاليا، وجزيرتي صقلية وسردينيا.

ومع أن الإسلام لم يتعرض لدين من الأديان، أو لجنس من الأجناس، بشيء من الضغط والاكراه - كما يقر بذلك الغربيون أنفسهم - فإن الكنيسة، وجدت في انتشار الإسلام تهديداً خطيراً لها، ولنفوذها. وخصوصاً حينما وجدت أن التسامح العربي الإسلامي يجتذب الملايين من اتباعها، للدخول في الإسلام. فقدرت أن أفضل وسيلة تستعملها لوقف هذا النزيف المهدد، هي اثارة العواطف الدينية لدى العامة، وخلق تيار من التعصب والحقد، ضد العرب والإسلام. وبذلك تُوجِدُ هوةً عميقة بين اتباع الدينين، وتدفع بأتباعها إلى البقاء في أحضانها.

وقد اثارت الكنيسة الاسبانية حوادث الاستشهاد في قرطبة - في القرن التاسع الميلادي - حسب ما رأينا، كما أثارت الكنيسة في روما الحروب الصليبية، في القرن الحادي عشر. وكانت وسيلتها في كثير من الأحيان نشر الأكاذيب والمبالغات، وتلفيق القصص، وتزوير الوقائع، لاقناع الناس في أوروبا، بأن للإسلام غايةً واحدةً هي القضاء على المسيحية، وتعفية آثارها، وأن المسلمين يمارسون الضغط على النصارى في المشرق، ويجبرونهم على التخلي عن دينهم، ومعتقداتهم لاعتناق الإسلام. . . .

وبما أن النصارى الشرقيين لم يشك أحد منهم من معاملة الحكام المسلمين لهم، كما لم يشك أحد منهم من سوء معاملة المواطنين المسلمين لجيرانهم أبناء الأديان الأخرى، وأن كبار رجال الدين المسيحي سجلوا كثيراً من الأقوال والشهادات التي بقيت محفوظة في بطون كتب التاريخ، وهي تشيد بعدل العرب، وإنصافهم وانسانيتهم، وبعدهم عن التعصب وعن الاساءة الى المسيحيين خاصة، وإلى أبناء الأديان الأخرى عامة، فإن ذلك يدعونا الى الاعتقاد بأن رجال الكنيسة الغربية، اختلقوا ولفقوا، مثل هذه الادعاءات من عندهم، لاثارة العواطف والتعصب عند الناس. إذ كانوا يرون أن الغاية تبرر الواسطة. وهذا بلا شك أسوأ ما يمكن أن ينحط إليه الخلق. وقد كان من المفترض في رجال الدين أن يكونوا أبعد الناس عن الأخذ بهذه القاعدة المنافية للخلق الكريم، ولتعاليم الأديان السماوية كلها.

وقد روت لنا كتب التاريخ، ما قام به رجال الدين من الصليبيين - الذين عاملهم صلاح الدين أكرم معاملة وأرحمها وأنبلها - من مبادرات دنيئة هدفها استصراخ الغرب لكي يرسل حملة صليبية لانقاذ بيت المقدس، بعد أن استرجعه

منهم صلاح الدين. فقد هداهم تفكيرهم إلى وضع صورة يركب فيها عربي على حصان يقف فوق قبر السيد المسيح والحصان. . . إلى آخر القصة المعروفة. ولا شك في أن واضعي هذه الصورة كانوا يعتمدون على جهل الإنسان الغربي بالإسلام، وبخلق المسلمين، وبالوضع البنياني للقبر، الموجود داخل كنيسة مغلقة، ومن الصعب أن يدخل إليه حصان. . . وقد استحل رجال الدين هذا الكذب والاختلاق لإثارة المشاعر ضد المسلمين، وللوصول إلى غاياتهم.

وتابعت الكنيسة جهودها في إثارة التعصب في أوروبا، ضد الإسلام والمسلمين، إلى نهاية القرن السادس عشر، حينما تم اخراج جميع المسلمين من اسبانيا.

ولكن خطر الإسلام ما لبث أن برز مرة أخرى في شرقي أوروبا، مع الفتح العثماني، فتحركت الكنيسة مرة أخرى تحرض الناس، وتدفع بالحكام إلى الإتحاد ضد المسلمين، واستمر ذلك إلى نهاية القرن التاسع عشر.

وكانت الكنيسة خلال هذه القرون الطويلة، تحاول تشويه صورة الإسلام في نظر اتباعها، وتبرزه دائماً في صور منفرة، فكانت ترى أن وصولها إلى غايتها فيما تصورته خدمة للمسيحية، يبيح لها اختلاق العيوب والمثالب، وكتم الحقائق والفضائل. لذلك لم نجد أحداً من رجال الغرب في الماضي، يعترف بفضل للعرب على أوروبا، وعلى الإنسانية، فيما وصلت إليه من تقدم ورقي، لأن العرب مسلمون، والمسلمون يجب أن لا تكون لهم فضيلة محببة، تدفع الناس إلى الاطلاع على دينهم وتراثهم.

وقد أغار كثير من رجال الغرب على تراث العرب وعلومهم، وبحوثهم ومكتشفاتهم، ونسبوها الى أنفسهم، ففازوا بكسب رخيص. وحتى اليوم فإننا نجد قلة قليلة من الرجال في الغرب تجرؤ على الاعتراف بما كان للعرب من فضل على الحضارة الإنسانية.

وهكذا بقي الإنسان الغربي جاهلاً بما قدمه العرب للحضارة، فهو لا يعرف للعرب غير الصورة القبيحة المنفرة، التي رسمها لهم رجال الكنيسة عبر قرون عديدة، وقد بقيت هذه الصورة ماثلة في أذهان العامة تتناقلها جيلاً بعد جيل.

٣٣١ ـ الأصوات المنصفة في العصر الحديث:

وهكـذا بقيت صورة العـرب والإسلام، وحضارتها، مشوهة في ذهن الإنسان الغربي، عصوراً طويلة، لا يجرؤ أحد على انصافها، أو تصحيحها، مخافة أن يجلب على نفســه نقمـة الكنيسـة، إلى أن كان العصـر الحـديث. فقـام أنـاس منصفـون جريئـون، أتيحت لهم فرصـة الاطـلاع على حقـائق الإسـلام، وعلى تاريخ العرب وحضـارتهم، واستقـوا معلومـاتهم من منـابعها الأصلية، فبرزت لهم الصورة المشرقة الـبراقـة، وقـارنـوا بين تلك الصـورة الشوهاء التي استقرت في أذهانهم، وبين الواقع الـوضـاء لتـاريخ العرب والإسلام. فأدركوا أن واجبهم، نحو الحقيقة، يقتضيهم بأن يُعَرِّفوا بني قومهم، بما وقفوا عليه هم، فوضعوا كتباً ضمنوها دراسات، وآراء فيها وصل بهم البحث العلمي.

ولكن هذه الفئـة القليلة المنصفـة، لا يمكن أن تكـون وحـدهـا كافيـة لإزالـة الغشـاوة عن أبصـار ملايـين البشـر، الـذين توارثوا الكره للعرب ودينهم وحضارتهم، نتيجة الجهل بحقيقتهم، وحقيقة ما قدموه للانسانية من جميل التراث.

ومن واجب العــرب أنفسهم أن يبــذلــوا جهـوداً كبـيرة للتعـريف بحضـارة الإسـلام، وبحقيقـة التاريخ العربي، والجهد العربي في سبيل خير الإنسانية، وبهذا التعريف بنا وبتاريخنا وحضارتنا، نستطيع انتزاع الحقد من نفوس تكرهنا لجهلها بنا، وهي تظاهر أعداءنا علينا بسبب هذا الكره الذي لا مبرر له.

وسنكتفي في بحثنا هذا بعرضٍ موجزٍ لآراء ثلاثة من الكتاب الغربيين المحدثين، في حضـارة العـرب، ولن نقـوم بالتعليق عليهـا، أو منـاقشتها، لأنها واضحة جلية لا تحتاج إلى تعليق أو مناقشة.

والكتاب الثلاثة هم (غوستاف لوبون) والدكتورة (سيغريد هونكة) و(الراهب ماك كيب).

الفصل الأول

الحضارة العربية في نظر غوستاف لوبون

٣٣٢ ـ الحضارة العربية في نظر غوستاف لوبون:

وضع العالم الفرنسي غوستاف لوبون كتاباً عام ١٨٨٤م عنوانه (حضارة العرب) نقله إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر عام ١٩٤٥ . وهو كتاب طويل، تَعَرَّضَ فيه كاتبه إلى كثير من نواحي الحضارة العربية، وأتى، في فصول متفرقة من الكتاب، على ذكر حضارة الأندلسيين، وكان فيه مثالاً للانصاف والتجرد والواقعية . ويمكننا أن نجتزىء منه فقرات ومقاطع، توضح وجهة نظر الكاتب في حضارة العرب، ودينهم، وبعض ما ذكره عن حضارة عرب الأندلس.

٣٣٣ ـ العربي واليهودي:

إن الشبه قليل بين العربي أيام حضارته ،وبين اليهودي ،الذي عرف، منذ قرون طويلة، بالنفاق والجبن، والبخل والطمع، وإنه لمن الاهانة للعربي أن يقارن باليهودي . ولكن طريقة الحياة الخاصة التي خضع لها اليهود منذ قرون، هي التي جعلت منه عرقاً ذليلاً (ص ٧٥) .

٣٣٤ ـ فلسفة القرآن وانتشاره في العالم:

للإسلام وحده كل الفخار، بأنه أول دين قال بالتوحيد المخلص الخالص، وبأنه أول دين نشر أتباعه ذلك التوحيد في العالم.

وتشتق سهولة الإسلام من التوحيد المحض، وفي التوحيد سرّ قوة الإسلام. والإسلام خال مما نراه في الأديان الأخرى، ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً، وأقل غموضاً، من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله. وإنك إذا اجتمعت بأي مسلم، من أية طبقة كانت، يسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات، وهو بذلك عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث، والاستحالة وما ماثلها، من غير أن يكون من علماء اللاهوت والجدل (ص ١٤٢).

ويفسر وضوح الإسلام، وما أمر به من العدل والاحسان، سر انتشاره، كما يفسر عدم تنصر أية أمة، بعد أن رضيت بالإسلام ديناً. والإسلام من أكثر الديانات، ملاءمة لمناحي العلم، واكتشافاته، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس، ودعوة إلى العدل والاحسان والتسامح (ص ١٤٣).

٣٣٥ ـ العدل والتسامح عند العرب:

كان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي، وقد تركوا الناس أحراراً في أمور دينهم، وأظل العرب اساقفة الروم، ومطارنة اللاتين، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة.

٣٣٦ ـ معاملة الاسبان للعرب:

. . . ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بحرق كثير من العرب الذين أجبروا على التنصر وتلقي العماد، على أنهم من النصارى، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج، لتعذر حرق ملايين العرب دفعة واحدة.

وقد نصح كردينال طليطلة التقي ـ الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش ـ بقطع رؤوس من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساء وشيوخاً واطفالاً.

ولم ير الراهب الدومينكاني (بليدا) الكفاية في ذلك، فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب، ومن بقي على دينه منهم. وحجته في ذلك أنه لما كان من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب، كان من المستحب قتل جميع العرب بحد

السيف، لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى.

ولكن الحكومة الاسبانية أدركت صعوبة تنفيذ هذا الاقتراح، فأمرت في عام ١٦٠٩م باجلاء العرب عن اسبانيا. وقد قتل أكثر المهاجرين العرب في الطريق.

وقد أبدى الراهب (بليدا) ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع أولئك المهاجرين في أثناء هجرتهم. وقد قتل ذلك الراهب مئة ألف مهاجر من قافلة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مسلم، حينما كانت متجهة الى افريقيا.

٣٣٧ ـ فظاعة المذابح التي ارتكبها الاسبان بحق العرب:

ويقدر الكثير من العلماء، ومنهم (سيديو)، عدد المسلمين الذي خسرتهم اسبانيا، منذ فتح فرديناند غرناطة، حتى اجلائهم، بثلاثة ملايين. ولا تعد مذبحة سان بارتلمي، ازاء تلك المذابح، سوى حادثة تافهة لا يؤبه بها. ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لا نجد بين وحوش الفاتحين، من اقترف مظالم كالتي اقترفها نصارى اسبانيا تجاه المسلمين (ص ١٩١).

٣٣٨ ـ حالة اسبانيا قبل دخول العرب، وجهود العرب:

كانت اسبانيا ذات رخاء قليل في زمن القوط، وكانت ذات ثقافة لا تلائم غير الأجلاف، ولم يكد العرب يتمون فتح اسبانيا، حتى بدؤوا يقومون برسالتهم التثقيفية فيها، وقد استطاعوا في أقل من قرن، أن يحيوا ميت الأرض، ويعمروا خرب المدن، ويقيموا أفخم المباني، ويحققوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الاخرى. ثم شرعوا يتنافسون في تحصيل العلوم والأداب، وفي نقل كتب اليونان واللاتين إلى العربية.

ومما امتازت به حضارة العرب في اسبانيا في ذلك الزمن، ميل العرب الشديد الى الفنون والآداب والعلوم، وقد أنشأ العرب لتحصيلها، في كل ناحية، المدارس والمكتبات والمختبرات، وترجموا كتب اليونان، وضربوا بسهم كبير في المباحث الرياضية والفلكية والطبيعية والطبية (ص ٢٩٢).

٣٣٩ ـ الزراعة في اسبانيا :

برع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم الأخرى والصناعات، وليس في

اسبانيا الحاضرة من أعمال الري خلا ما أتمه العرب. وأدخل العرب، في حقول الأندلس الخصبة، زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموز. . . وأصبحت اسبانيا ـ التي هي صحراء في الوقت الحاضر، عدا بعض الأراضي في جنوبها ـ جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية والفنية.

٣٤٠ ـ اثار العرب لا تمحى:

ظن رئيس الأساقفة (اكزيمس)، أنه إذا قام باحراق ما قدر على جمعه من كتب العرب يكون قد محا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد، وما درى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد اسبانيا، يكفي لتخليد اسمهم.

أجل لقد تم النصر للنصارى، فأحلوا الصليب محل الهلال في قرطبة، ولكن الهلال كان يهيمن على أغنى مدن العالم وأجملها، وأكثرها أهلا وعمراناً، فجاء الصليب ليشرف على بقايا ما قوضه عباده، من تلك الحضارة القديمة، دون أن يقيموا حضارة اخرى مكانها (ص ٢٩٤).

٣٤١ ـ أثر العرب في حياة الأندلس:

استطاع العرب أن يحولوا اسبانيا مادياً وثقافياً، في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوروبية، ولم يقتصر تحويل العرب لاسبانيا على ذينك الأمرين، فقد كان لهم الأثر البالغ في أخلاق الناس. فهم الذين علموا النصارى ـ وإن شئت قل حاولوا أن يعلموا النصارى ـ كيف يكون التسامح، الذي هو أثمن ما تصبو إليه الانسانية. وقد بلغ حلم عرب اسبانيا إزاء النصارى، مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني، الذي عقد في تموز سنة ٧٨٢م. وتعد بيع النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي، من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم (ص ٢٩٦).

٣٤٢ ـ دخول الناس في الاسلام:

أسلم كثير من النصارى من غير اكراه، ولم يسلموا طمعاً في شيء، وهم الذين

استعربوا، وكانوا هم واليهود مساوين للمسلمين. وكانوا يتقلدون مناصب الدولة كالمسلمين (ص ٢٩٦).

٣٤٣ ـ أخلاق عرب اسبانيا :

وكان عرب اسبانيا بالاضافة الى تسامحهم، يتصفون بنبيل الأخلاق، أي بالفروسية، فكانوا يرحمون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، ويقولون الصدق، وما إلى ذلك من الخلال الحميدة التي اقتبسها الأوروبيون منهم مؤخراً، والتي كانت تؤثر في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة.

٣٤٤ ـ اعتراف المنصفين بفضل العرب :

اعترف بفضل العرب الخلقي، اولئك الكتاب القليلون الذين درسوا تاريخهم، واليك ما قاله العالم الثبت (سيديو).

«لقد كان العرب يفوقون النصارى كثيراً في الأخلاق والعلوم والصناعات، وكان من طبائع العرب الكرم والاخلاص والرحمة مما لا تراه عند غيرهم. وكان من طبائعهم النبل والوقار والعزة مما كان يؤدي الافراط فيه، إلى المبارزة والشحناء. وكان أفقر المسلمين يحافظ على شرف أسرته كأشد الأمراء صلفاً».

وكان ملوك قشتالة ونبره (نافارا) على علم من صدق العرب وأمانتهم، وقراهم للضيف، فلم يتردد الكثيرون منهم في المجيء إلى قرطبة ليعالجهم أطباؤها المشهورون (ص ٢٩٧).

٣٤٥ ـ غدر الاسبان :

وعلى النقيض نجد أن (بطرس الظالم) ملك قشتالة، يدعو ملك غرناطة أبا سعيد، إلى قصره. فلما أعجبه ما كان يتحلى به الملك أبو سعيد، لم يرَ غير قتله لسلبه ما كان معه من حلي. ولم يقترف العرب مثل تلك الآثام أبداً. وقد أحسن العرب إلى الحضارة كثيراً بنشرهم في أنحاء العالم، من المشاعر والأخلاق ما يحول دون ارتكابها (ص ٢٩٩).

٣٤٦ - مباني العرب في اسبانيا :

وتحدث المؤلف بعد ذلك بإسهاب عن عظمة ما خلفه العرب في ميدان العمران والبناء ، ويصف جامع قرطبة ، وقصر الزهراء وقصري أشبيلية والحمراء ، وما فيها من بديع الصنعة ، ورفيع الزخارف ، وجميل الذوق الفني . ثم تحدث عن التخريب الذي ألحقه الاسبان بتلك الآثار النادرة غير عارفين قيمة ما يخربون ، وختم حديثه بقوله :

«وقد قص جميع رجال الفن الذين زاروا قصر الحمراء العجيب ، والألم ملء قلوبهم ، ما لا يكاد يصدقه العقل من أنباء التخريب الفظيع الذي أحدثه الاسبان فيه . وقد هدم شارل كنت قسما منه لينشىء مكانه بناء ثقيلا» .

وينقل الاستاذ لوبون ما ذكره (دافيليه) ، في كتابه عن اسبانيا وقد جاء فيه :

«لقد بيعت ألواح الميناء التي كانت تزين رداه الحمراء منذ بضع سنين ، لتستبدل بالملاط ، وقد بيع باب مسجدها النحاسي كشيء عتيق ، وقد حرقت منها أبواب ردهة بني سراج الخشبية الأنيقة ، كما يحرق الحطب ، ثم اتخذ من رداهها الجميلة سجون للمجرمين ، ومخازن للبيرة بعد أن بيع ما أمكن نزعه وبيعه منها» (ص ٣٢٠) .

وأراد الإسبان تطهير جدران الحمراء المزينة بالنقوش العربية الجميلة فكسوها طبقة كثيفة من الكلس (ص ٣٢٠) .

٣٤٧ - حضارة العرب في صقلية :

كانت حضارة العرب زاهرة في صقلية حين فتحها النورمنديون ، وقد أدرك روجير وخلفاؤه فضل أتباع النبي ، فاقتبسوا نظمهم ، وشملوها برعايتهم ؛ وكانوا سبباً في تمتع صقلية برخاء دام إلى أن قبض الملوك السوآبيون على زمام الملك عام ١١٩٤م ، وأجلوا العرب عنها (ص ٣٣٠) .

٣٤٨ - شر خلف لخير سلف :

جاء النورمنديون لنجدة جنوبي ايطاليا ، لفك الحصار الذي ضربه العرب على سالرنو ، ونجحوا في ذلك ، فسر أهل ايطاليا ، ودعوهم إلى عونهم ، فجاءتهم نجدات من الفرسان ، كان همهم السلب والنهب ، أكثر مما كان همهم الدفاع عن

دينهم وأبنائه. وقد تساوى في نظرهم اليونان والعرب والرومان. فأخذوا في سلبهم جميعاً، حتى خربت تلك البلد.

وقد نهب النورمان الكنائس والأديرة، وقتلوا النساء والشيوخ والأطفال، وكانوا يفاجئون الأديرة غير المحصنة، فيسلبونها كل ما فيها، ويبقرون بطون رهبانها بوحشية خشية الفضيحة، وكان الرهبان يقابلونهم بالمثل. ولم يلبث أهالي ايطاليا أن أدركوا أن صداقة النورمان أشد وقراً عليهم من عداوة العرب.

٣٤٩ ـ العرب في فرنسا:

تثبت إقامة العرب في فرنسا، مدة قرنين ونصف، بعد شارل مارتل، أن النصر الذي أحرزه في بواتيه، لم يكن مهماً كما زعم بعض المؤرخين. ولم يستطع مارتل أن يأخذ من العرب أية مدينة كانوا قد احتلوها عسكرياً، حتى إنه اضطر الى التقهقر أمامهم، تاركاً لهم ما كانوا قد استولوا عليه من البلدان.

ويعلق الاستاذ لوبون على ما كتبه الكاتب الفرنسي (هنري مارتن)، من أنه لو نجح العرب في بواتيه، لخسرت أوروبا والدنيا مستقبلها، فقال الاستاذ لوبون رداً على هذا القول:

«لنفترض أن الغربيين عجزوا عن صد العرب، فكان يصيب أوروبا النصرانية المتبربرة، مثل ما أصاب اسبانيا من التقدم، والارتقاء والحضارة الزاهرة، تحت راية النبي العربي. وكان لا يحدث في اوروبا، التي يكون الاسلام قد هذبها، ما حدث من الكبائر، كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتلمي، ومظالم محاكم التفتيش، وكل ما يعرفه الغرب من الوقائع التي خضبت اوروبا بالدماء عدة قرون» (ص ٣٤٢).

٣٥٠ ـ مصادر معارف العرب:

استوقف العالمُ الذي فتحه العربُ أنظارَهم، فأخذوا يدرسون الآداب والفنون والعلوم، بمثل نشاطهم في فتوحهم، فلم يلبث الخلفاء ـ بعد أن شادوا دولتهم ـ أن أنشؤوا المدارس في المدن للتعليم، وجمعوا حولهم كل قادر على نقل أهم كتب اليونان إلى اللغة العربية. وقد حدث في بلاد فارس وسوريا، أن الروم نفوا النساطرة من

دولتهم، فأقاموا في الرها مدرسة لنشر معارف اليونان في اسيا. ولما أغلق جوستنيان مدارس الاسكندرية وأثينا، قصد علماؤ ها بلاد فارس، فنقلوا إلى لغات الشرق (السريانية والكلدانية والفارسية)، أهم كتب علماء اليونان، مثل أرسطو وجالينوس.

وقد وجد العرب في بلاد فارس وسوريا، حينما استولوا عليها، خزائن من العلوم اليونانية، فامروا بنقل ما في اللغة السريانية إلى العربية، ثم أمروا بنقل ما في اللغة اليونانية الى العربية. فأخذت بذلك دراسات العلوم والآداب تسير قدماً نحو الرقي.

وقد كانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساساً لثقافة معلمي العرب، شأن الطلاب الذين يتلقون في مدارسهم ما ورثه الانسان من علوم الأولين. ولكن العرب المفطورين على قوة الابداع، لم يكتفوا بحال الطلاب، الذي اكتفت به أوروبا في القرون الوسطى، فلم يلبثوا أن تحرروا - بما عرف عنهم من النشاط - من ذلك الدور، ولم يعد الاغريق بعد ذلك أساتذة للعرب.

ويعجب الانسان من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث والتحقيق، وإذا كانت هناك أمم تساوت مع العرب في ذلك، فانه لم تتفوق أمة عليهم. فكانوا إذا ما استولوا على مدينة، صرفوا همهم إلى انشاء مسجد، وإقامة مدرسة، أو مدارس فيها.

وكانت المدن الكبرى تشتمل على جامعات كبيرة، محتوية على مختبرات ومراصد، ومكتبات عظيمة، وكل ما يساعد على البحث العلمي، وقد كان للعرب في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عظيمة عامة. وقد روى مؤرخو العرب، أنه كان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني في قرطبة (٦٠٠٠٠٠ كتاب) بينما لم يكن في مكتبة ملك فرنسا شارل الحكيم، بعد أربعمئة سنة من ذلك التاريخ أكثر من (٩٠٠) مجلد ثلثها فقط في غير اللاهوت (ص ٤٥٩).

٣٥١ - مناهج العرب العلمية:

إن المكتبات والمختبرات والآلات لم تكن غير وسائل للدرس والبحث، وإن قيمتها في معرفة الاستفادة منها، فقد يكون الانسان مطلعاً على علوم الآخرين، ويبقى مع ذلك عاجزاً عن التفكير الحر الطليق، وابتداع أي شيء، وأن يظل تلميذاً

غير قادر على الارتقاء إلى درجة استاذ.

والعرب الذي كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان، لم يلبثوا أن أدركوا أن التجربة والرصد أفضل من الكتب، ولا يقولن أحد ان ما أدركه العرب هو من الحقائق المبتذلة، فقد جد علماء القرون الوسطى في أوروبا ألفَ سنة، قبل أن يعلموه.

منح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقة وابداعاً، لا ينتظر مثلهما من رجل تعود درس الحوادث في الكتب. وقد توصل العرب باسلوبهم التجريبي إلى اكتشافات مهمة فأنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة، من الاكتشافات أكثر مما حققه الاغريق في زمن أطول من ذلك بكثير.

ولم يستفد البيزنطيون من التراث العلمي للاغريق. ولما آل الأمر إلى العرب، حولوا التراث العلمي الاغريقي إلى غير ما كان عليه فتلقاه ورثتهم مخلوقاً آخر.

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، وإنما نشروها كذلك، بما أقاموه من الجامعات وما ألفوه من الكتب.

والحق أن تأثير العرب على أوروبا من هذه الناحية عظيم جداً. فالعرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدة قرون، وأنها لم تطلع على علوم اليونان والرومان إلا بفضل العرب. (ص ٤٦١ - ٤٦٣).

والحق يقتضينا الاعتراف للعرب بأنهم أول من أغضى عما نسميه اليوم (حرية الفكر).

أثر العرب في العلوم

٣٥٢ ـ أثرهم في الرياضيات :

اتسع البحث في الرياضيات ـ ولا سيما الجبر ـ عند العرب ، وقد عزي إليهم كتشاف الجبر ، وإن كانت أصوله معروفة منذ زمن طويل . والحق أن العرب حولوا علم الجبر تحويلاً تاماً ، وإليهم يرجع الفضل في تطبيقه على علم الهندسة .

وقد ألف محمد بن موسى(١) ، كتاباً موطأ له بأمر الخليفة المأمون ، ومن هذا الكتاب اقتبس الأوروبيون ، بعد زمن طويل ، معارفهم الأولى لعلم الجبر .

والعرب هم الذين أدخلوا المماس إلى علم المثلثات ، وأقاموا الجيوب مقام الأوتار . وطبقوا الجبر على الهندسة ، وحلوا المعادلات المكعبة ، وتعمقوا في مباحث المخروطات ، وحولوا علم المثلثات الكروية بارجاعهم حل مثلثات الأضلاع إلى بضع مثلثات أساسية . ولادخال المماس إلى علم المثلثات أهمية عظيمة (ص ٤٨٠) .

٣٥٣ ـ أثر العرب في علم الفلك :

وعلم الفلك أول ما اعتنى به العرب ، وكانت بغداد مركزاً مهماً لمباحث علم الفلك ، وكان هناك كثير من المراصد القائمة في البلاد الممتدة من أواسط آسيا حتى سواحل المحيط الأطلسي . وقد أدت أعمال مراصد بغداد ، زمن هارون الرشيد ، وابنه المأمون ، إلى نتائج هامة . وقد أدمجت هذه النتائج ، وما كان توصل إليه مرصد دمشق ، في كتاب (الزيج المصحح) الذي ضاع .

---

١ ـ هو محمد بن موسى بن شاكر عاش في عصر الخليفة العباسي المأمون وتوفي عام ٢٥٩هـ .

ونشأ عن تحقيق العرب للاعتدال الشمسي، تعيينهم مدة السنة بالضبط، وقد أقدموا على قياس دائرة نصف النهار، وهو أمر لم يوفق اليه علماء أوروبا إلاّ بعد ذلك بألف سنة.

ومن أعمال فلكيي مراصد بغداد الأخرى، ما وضعوه من التقاويم لأمكنة الكواكب السيارة، وتعيينهم بالضبط مبادرة الاعتدالين.

ومن اشهر الفلكيين العرب (أبو محمد البتاني)[1] المتوفى عام ٩٣٩م، وأبناء موسى بن شاكر الثلاثة الذين عاشوا في القرن التاسع، وعينوا بالضبط درجة عرض مدينة بغداد عام ٩٥٩م، وأبو الوفاء المتوفى عام ٩٩٨م.

واعتبر سيديو أن مرصد بغداد توصل إلى أقصى ما يمكن أن يتوصل اليه علم الفلك بغير مرصد، ولا تقل آثار العرب الفلكية في الأندلس عن آثار عرب المشرق، ولكن لم يبق منها إلا القليل لحرق مخطوطاتها. ولا نعرف عن أكثر فلكيي العرب في الأندلس شيئاً غير أسمائهم. ولا نعلم غير القليل من محتويات كتبهم. ولكن يمكن الاستدلال على ما احتوته بما جاء في كتب نصارى ذلك الزمان. ومن ذلك ما توصل إليه (سيديو) من النتائج القائلة (إن العرب سبقوا كبلر وكوبرنيك، في اكتشافات حركات الكواكب السيارة، على شكل قطع ناقص، وفي نظرية دوران الأرض).

ويوجد في مكتبة باريس وحدها ثلاثة اسطرلابات، ومن ينعم النظر في تركيبها، يعلم أنها دالة على مهارة صانعيها، وأنه يصعب في الوقت الحاضر صنع ما هو أحسن منها.

وتتلخص اكتشافات العرب في علم الفلك في الآتي:

- إدخال المماس إلى الحساب الفلكي منذ القرن العاشر.
- وضع أزياج لحركات الكواكب.
- تعيين دقيق لانحراف سمت الشمس، ونقصانه التدريجي.
- تحديد صحيح لمدة السنة.
- تحقيق لشذوذ عرض للقمر.
- تقدير للاختلاف القمري الثالث، الذي قيل إن (تيخوبراهه) اهتدى إليه عام ١٦٠١م.
- قياس دائرة نصف النهار.

---

(١) هو محمد بن جابر بن سنان الرقي، كان اصله من صابئة حران، توفي عام ٣١٧هـ.

٣٥٤ ـ أثر العرب في العلوم الجغرافية :

كان من نتيجة رحلات العرب ومعارفهم الفلكية ، أن تقدم علم الجغرافيا ، أيام حضارة العرب كثيراً ، ولم يلبث علماء العرب أن فاقوا علماء اليونان الذين أخذوا عنهم ، حسب عادتهم ، ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عينها اليونان ، والأمكنة التي عينها العرب ، ليظهر مقدار التقدم الذي تم على أيدي العرب .

وكتب العرب ، في علم الجغرافيا ، مهمة للغاية ، وقد كان بعضها أساساً لدراسة هذا العلم في أوروبا قروناً كثيرة ، ومن أشهر جغرافيي العرب :

الاصطخري (أواسط القرن التاسع) .

الادريسي وهو اندلسي (أواسط القرن الثاني عشر) .

القزويني (القرن الثالث عشر) .

ياقوت الحموي (القرن الثالث عشر) .

أثر العرب في الطبيعيات

٣٥٥ ـ أثرهم في الفيزياء:

ضاعت الكتب المهمة في الفيزياء، ولم يبق منها غير أسمائها، ومنها كتب الحسن ابن الهيثم[1]. في الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنعطفة والمرايا المحرقة.

ويمكننا أن نستدل على أهمية كتب العرب في الفيزياء من العدد القليل الذي وصلنا منها، ولا سيما (كتاب الخازن) في البصريات الذي نقل إلى اللاتينية واليونانية، واستعان به كبلر.

٣٥٦ ـ أثرهم في الميكانيك:

معارف العرب الميكانيكية واسعة جداً، ويستدل عليها من بقايا آلاتهم، التي انتهت الينا، ومن وصفهم لها في مؤلفاتهم.

ولا ريب في أن العرب عرفوا الساعات ذات الأثقال، وكانت منها واحدة في الجامع الأموي بدمشق، وصفها ابن جبير وصفاً شيقاً.

٣٥٧ ـ أثرهم في الكيمياء:

وقد وصل فيها العرب إلى اكتشافات مهمة. وكانت معارف اليونان، التي انتقلت إلى العرب ضعيفة جداً، ولم يكن لليونان علم بما اكتشفه العرب من المركبات

---

١ ـ ابن الهيثم: هو الحسن بن الهيثم (٩٦٥ ـ ١٠٣٩م) ولد في البصرة وهو من علماء العرب في الرياضيات والطبيعيات وفلسفة ارسطو.

المهمة، كالكحول، وزيت الزاج، وماء الفضة، وماء الذهب. واكتشف العرب أساس الكيمياء كالتقطير.

ويرى علماء الكيمياء من العرب، أن جميع المعادن مؤلفة من عناصر واحدة، وأن المعادن لا يختلف بعضها عن بعض إلا بسبب اختلاف نسب تلك العناصر في تركيبها.

وأبدع العرب في الصيدلة، وحذقوا في الصباغة، واستخراج المعادن، وصنع الفولاذ، ودبغ الجلود.

ومن أشهر الكيميائيين العرب (جابر بن حيان)[1](أواخر القرن الثامن الميلادي) والرازي[2](ص ٥٠٠).

٣٥٨ ـ المعارف الصناعية:

كان لصناعات العرب تفوق عظيم، بفضل معارفهم العلمية، وقد اتقنوا استغلال المعادن ودباغة الجلود، وسقي الفولاذ. وهم الذين اخترعوا البارود، واستعملوه في حربهم مع الصليبيين، في غزوة لويس التاسع على مصر.

وقد عزي اختراع البارود الى روجر بيكن، ولكن هذا لم يفعل غير اقتباس المركبات القديمة، وهي مقتبسة عن العرب، مثلها مثل جميع المركبات الكيماوية المعروفة في القرون الوسطى.

٣٥٩ ـ الوراقة:

تثبت المخطوطات التي عثر عليها في مكتبة الاسكوريال، والمكتوبة عام ١٠٠٩م على ورق مصنوع من القطن ، أن العرب أول من أحل الكاغد محل الرق. وقد نشأ عن كثرة المكتبات العامة والخاصة في الأندلس، أيام سلطان العرب،

---

١ ـ جابر بن حيان ويعرف بجابر الكوفي، وكان متقدماً في العلوم الطبيعية، وبارعاً فيها.

٢ ـ الرازي ـ هو أبو بكر الرازي (٨٦٤ ـ ٩٣٢م)، طبيب وعالم، واهتم في بادىء الأمر بالموسيقا والغناء، ثم انصرف الى الطب والكيمياء، فنبغ فيهما.

مما لم تعرفه، أوروبا في ذلك الزمن، أن اضطر العرب إلى زيادة مصانع الورق، ثم انتهوا إلى صنعه باتقان عظيم من القنب والكتان(ص ٥٠١) .

٣٦٠ ـ البوصلة :

البوصلة من اختراع الصينيين، ولكن لم يقم دليل على استخدامهم لها في الملاحة، أما العرب الذين عدوا من أعاظم الملاحين، فمن المعتقد أنهم اقتبسوا من الصين البوصلة، واستعملوها قبل غيرهم . والذي لا شك فيه هو أن الغرب أخذ البوصلة واستعمالها عن العرب .

٣٦١ ـ التاريخ الطبيعي :

لم يقم التاريخ الطبيعي عند العرب في بادىء الأمر على غير شروح مؤلفات أرسطو. ولكن العرب لم يلبثوا أن فضلوا دراسة هذا العلم على الطبيعة، على دراسته في الكتب. والعالم مدين لهم فيما وضعوه من الكتب الممتعة الكثيرة عن الحيوانات والنباتات والمعادن والمتحجرات .

وقد أنشأ العرب حدائق للنباتات زرعوا فيها أندر النباتات، وأكثرها طرافة .

ومن كبار العلماء العرب في الطبيعيات، القزويني المتوفى عام ١٢٨٣م .

٣٦٢ ـ أثر العرب في الطب:

أتم العرب أعظم اكتشافاتهم في الطب والفلك والرياضيات والكيمياء .
ولحسن حظ الانسانية، أن أكثر كتبهم في الطب، ترجمت الى اللغات الاوروبية، فلم يتلف قسم كبير منها .

وعدد المؤلفين من أطباء العرب كبير للغاية، وقد وضع ابن أبي اصيبعة كتاباً في إيراد أسماء الأطباء . ومن أشهر أطباء العرب «الرازي» (٨٦٤ ـ ٩٣٢م)، وله مؤلفات كثيرة في الطب، وكان له اطلاع واسع على التشريح، وهو أول من وضع كتاباً في أمراض الأطفال .

وابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م)، ونقلت كتبه إلى لغات العالم.

وأبـو القـاسم القـرطبي[1] المتـوفى سنـة ١١٠٧م، وهـو أشهر جراحي العرب، واخترع آلات كثيرة للجراحة رسمها في كتبه.

وابن زهر الاشبيلي[2] (القرن الثاني عشر)، ونبغ في الجراحة.

وابن رشد[3] (١١٢٦ ـ ١١٩٨م) وله كتاب في المداواة والسموم والحميات. (ص ٥١٣).

٣٦٣ ـ فنون العرب:

الأثر الفني هو عنوان مادي لخيال العصر الذي يوضع فيه، وتدل آثار الفن على أحوال الزمن الذي أبدع فيه واحتياجاته الخاصة. وكل امة تقتبس من آثار الامم التي تقدمتها، قبل ان تصل إلى درجة الابداع الفني. وتتجلى قوة الابداع الفني في الامم في سرعة تحويل ما ظفرت به من عناصر الفن، وجعلته ملائماً لاحتياجاتها، وابتكارها بذلك فناً جديداً.

فإذا تحقق ذلـك علمنـا أن العـرب لم تسبقهم أمـة. وقـد ظهـرت قوة العـرب الابداعية منذ اقاموا مبانيهم الأولى، كجامع قرطبة.

والذين قلدوا العرب من الأمم، لم يفعلوا سوى تنفيذ العناصر المختلفة الموروثة عن الهنود والعرب والبيزنطيين والفرس. ولكن النظر إلى البنايات العربية، التي اقامها العرب في الأندلس او القاهرة، يظهر أن العناصر التي تألفت منها بلغت من التمازج ما يتعذر معه الانتباه الى المصادر التي اشتقت منها، فالعرب مبدعون (ص ٥٣١).

---

١ ـ ابـو القـاسم ـ هو ابـو القـاسم خلف بن عبـاس الـزهـراوي، كان طبيب البـلاط عند الخليفة الاندلسي الحكم الثاني، وكان من اعظم الجراحين. وضع الرسالة القيمة (التصريف لمن عجز عن التأليف) جمع في آخرها ما كان يعرف عن الجراحة والادوات المستعملة فيها في ذلك العصر وظلت رسالته هذه ذات مكانة في اوروبا قرونا طويلة.

٢ ـ ابن زهر ـ (١٠٩٤ ـ ١١٦٨م)، هو ابو مروان بن ابي العلاء المعروف بابن زهر الاشبيلي، ولد في اشبيلية، وقد اعتبره ابن رشد اعظم طبيب بعد جالينوس، وله اختراعات في علم الجراحة.

٣ ـ ابن رشـد (١١٢٦ ـ ١١٩٨م) هو ابـو الـوليـد محمـد بن احمـد بن رشـد، ولد في قرطبة، وكان بالاضافة الى نبوغه في الطب من اعظم الفلاسفة العرب في الأندلس.

٣٦٤ ـ الجمال في فنون العرب:

لقد دل البحث الصحيح على أن قيمة الأمور التي هي من نوع الجمال والبشاعة تختلف باختلاف العروق، والتربية والبيئة والزمان، وما إلى ذلك. والتعريف الوحيد الممكن الذي يلائم جميع الامم، في كل زمان ومكان، هو (أن الشيء الجميل هو ما نستلذه) وهو تعريف ناقص، وإذا كانت عناصر الأثر الفني منسجمة، كان هذا الأثر الفني ذا تأثير حسن في حواسنا، ونقول إذ ذاك إنه أثر جميل، وإذا كانت مؤذية كان ذا أثر بشع.

وما على الانسان إلا أن ينظر الى آثار العرب الأدبية والفنية، ليعلم أنهم زينوا الطبيعة، وذلك لما اتصف به الفن العربي من الخيال والابداع، والنضارة والبهاء، وفيض الزخارف والذوق الرفيع. وقد رغبت الأمة العربية في تحقيق خيالاتها، فأبدعت تلك القصور الساحرة. ولم يكن لأمة من الأمم مثل تلك العجائب، ولن يكون. فهي وليدة جيل فني مضى، وخيال خصب ذوى (ص ٥٣٣ ـ ٥٣٦).

٣٦٥ ـ مقام العرب في التاريخ:

كان للعرب خصال عظيمة، ومساوىء كثيرة، وقابليات ذهنية عالية. والعرب إذا كانوا دون الرومان مرتبة في النظم السياسية والاجتماعية، فهم أفضل منهم بسعة معارفهم العلمية والفنية. وقيمة الأمة العقلية، ودرجتها في سلم الحضارة، تقاس بعدد من يظهرون فيها من ذوي المدارك السامية. وانما يضاف الفوز المادي الى التفوق العقلي، عندما يوجد بجانب أعظم رجالها القليلين، جمع من ذوي الذكاء العادي، والثقافة المتوسطة، والصفات الخلقية العالية. وقد ظهر من العرب رجال عظماء كما تشهد به كفاءاتهم واكتشافاتهم.

وإذا قابلنا بين العرب وبين الأمم الأوروبية، بدلاً من قياسهم بالامم الغابرة، أمكننا أن نقول إنهم كانوا أرقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عهد النهضة أخلاقاً وثقافة. وإن جامعات القرون الوسطى، لم تعرف في قرون كثيرة، مصدراً غير مؤلفاتهم ومناهجهم. وإن أخلاقهم كانت أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل (ص ٥٣٦).

والخلاصة ان الامم التي فاقت العرب تمدنا قليلة للغاية، وان ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة . وان العرب اقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم، وما يزال الناس يخضعون له (ص ٦٤٣) .

الفصل الثاني

الحضارة العربية في نظر سيجريد هونكه

٣٦٦ ـ الحضارة العربية في نظر سيجريد هونكه:

وضعت السيـدة الالمـانيـة الدكتورة سيجريد هونكه كتاباً عنوانه (فضل العرب على أوروبة) نقله إلى العربية الدكتور فؤاد حسنين عام ١٩٦٤ . وقد ذكرت السيدة المؤلفة في مقدمتها الأسباب التي دفعت بها إلى وضع هذا الكتاب، وكان مما قالته:

«شـاء الله أن يظهـر بين الأوروبيـين، من يجرؤ على قول الحقيقـة، فلا نغمط العـرب من حقهم في انهم حملوا رسـالـة علميـة، وأدوا خدمة انسانية للثقافة البشرية قديماً وحـديثاً. وهـذا النفـر من الأوروبيين لا يأبه لتحدي اولئك المتعصبين، الذين أعـماهم تعصبهم الـديني، فحـاولـوا جهـدهم طمس معالم هذه الحضارة العربية، أو التقليل من شأنها.

إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية، وإن الدَّين الذي في عنق أوروبا، وسـائـر القـارات للعرب كبير جداً. وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع، ولكن التعصب الـديني، واختـلاف العقائد أعمى عيوننا، وترك عليها غشاوة، ونحن لا نجـد فيمـا نقـرؤه من كتب إلا إشـارات عابـرة إلى أن دور العـرب لا يتعدى دور ساعي البريد، الذي نقل إليهم التراث اليوناني.

إن موقف أوروبـا من العـرب، منـذ ظهـور الإسلام، موقف عدائي بعيد كل البعـد عن الانصـاف والعـدالـة. والتاريخ وقتذاك كان يملي ويصنع. والمملي لم يكن الضمـير، وإنـما كان التعصب الأعمى. وهـذا الكتـاب يهدف إلى تقديم شكر كان يجب أن يقدم إلى العرب منذ عصور قديمة، فالألمان يدينون للعرب بالشيء الكثير».

وتلفت المؤلفة النظر في مقدمتها إلى أنه نبغ في الدولة العربية عدد كبير من غير

العـرب، ولكن هؤلاء لا يمكن أن يعتـبر وا غير عرب من ناحية انتاجهم العلمي، لأنهم عاشـوا في الـدولـة العـربيـة، وازدهروا بفضلها، وكتبوا وألفوا بلسانها، وكما أن ايزنهاور ـ الألماني الأصل ـ لا يمكن أن يعتبر إلا أمريكياً، لأنه عاش في أمريكا، وحمل جنسيتها، وشعر بشعور أهلها، وقاتل في سبيلها، كذلك لا يمكن أن يعتبر ابن سينا والفارابي والرازي، غير عرب.

ويمكن أن نلخص الفكر الأساسية التي وردت في الكتاب على الشكل التالي:

٣٦٧ ـ هدف الفتوحات العربية:

كانت الفتـوحـات العربية غريبة في نوعها حقاً، إذ لم تكن فتوحات المسلمين، يقصد بها القيام بأعمال السلب والنهب، والعنف والتخريب. وكل ما ذكر عن تعصب المسلمين، أو قسوة قلوبهم، أو خشونة طباعهم، وبربرية أعمالهم، هو كذب وافتراء. وهـو دعـايـة من صنع أعداء العرب وخصومهم. ولا أدل على بطلان تلك الشائعات والاضاليل، من العودة الى الصفات الكريمة التي اتصف بها العرب الفاتحون:

«روح انسانية عالية، وتسامح تضرب به الأمثال». ولم يعرف التاريخ كثيراً من الامم، وقفت موقف العرب الانساني المتسامح مع الامم المغلوبة، التي كانت تخالف في دينها دين المنتصرين.

فلم يتـدخل المسلمون، بعد الفتح، في شؤون رعاياهم الداخلية، وعاملوهم بالعـدل. وقـد كتب بطـريـرك القدس في القرن التاسع، إلى بطريرك القسطيطينية، يعرفه بأحوال النصارى في ظل الحكم الإسلامي وكان مما قاله:

«والمسلمـون لا يظلمـوننـا ولا يضطهدوننا، إنهم يمنحون مختلف رعاياهم من أصحـاب العقـائـد الأخرى كل حرية في تأدية فرائضهم الدينية، أو حقوقهم المدنية، متى دفعوا الجزية، وأطاعوا أولي الأمر».

وفي العصور الاسلامية المتأخرة، حيث أصبح المسلمون مزيجاً غريباً من مختلف الشعـوب، أخـذت تظهـر بعض النعرات الدينية المتعصبة، أما العرب الخلص، فقد كانوا بعيدين عن الخوض في مثل هذه الخصومات (ص ٢٦١ ـ ٢٦٩).

٣٦٨ ـ شغف العرب بالعلوم، يوم كانت أوروبا جاهلة:

كان هَمُّ العرب، بعد استقرار فتوحهم، منصرفاً إلى نقل علوم اليونان والفرس، إلى اللغة العربية. وبسرعة خاطفة، شرعوا في ذلك، وساروا فيه، وكان خلفاء المسلمين أحرص الناس على ذلك. فلما انتصر الرشيد على الروم في عمورية لم يطلب غرامات حربية، ولا تسليمه سفناً وذخائر وأسلحة، وانما طلب تسليمه المخطوطات اليونانية، لتنقل الى العربية. ولما انتصر المأمون على الأمبراطور ميخائيل الثالث طلب إليه، كتعويض حرب، أن يسلمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة، والتي لم تترجم الى العربية بعد (ص ٢٨٠).

كان التعليم في العالم الاسلامي ميسراً لجميع الناس، وكان الأطفال من جميع الطبقات، يقصدون المدارس الأولية، لقاء نفقات ضئيلة جداً. وفي اسبانيا المسلمة كان التعليم مجانياً، وقد كانت توجد في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لأولاد الفقراء.

وبينما كانت الغالبية العظمى من المسلمين متعلمين، كانت أوروبا، بين القرنين التاسع والثاني عشر موطناً للامية. وقد بلغت نسبتها ٩٥٪. وكان شارلمان ملك فرنسا العظيم أمياً ولم يحاول تعلم القراءة والكتابة إلا وهو في سن متقدمة. حتى رجال الدين في الأديرة لم تكن بينهم غير قلة قليلة جداً، تعرف القراءة والكتابة (ص ٢٩٧).

ولكن العرب الذين دخلوا اسبانيا، حملوا اليها الثقافة والمعرفة، ونشروا العلم، فازدهرت الحضارة العربية، وبلغت شأواً رفيعاً. وقد دام حكم العرب لاسبانيا ثمانية قرون، كانت هي العصر الذهبي في تاريخ اسبانيا.

وهذه الثقافة الرفيعة العالية، التي بلغها العرب في اسبانيا، هي خير ما يدحض الادعاءات القائلة إن العرب قد أخذوا الحضارة البائدة وأعادوها ثانية.

٢٦٩ ـ أثر العرب في تطور العلوم:

١ ـ كان عرب الأندلس أول من استخدم البارود في أوروبا، وصنعوا القنابل من البارود. وقد قذفت المدفعية العربية في اعوام ١٣٢٥ و ١٣٣١ و ١٣٤٢م، بعض الحصون الاسبانية فاحدثت ذعراً شديداً.

٢ ـ العرب هم أول من أوجد الصفر، وعلموا أوروبا الأعداد الحسابية.

٣ ـ مهر العرب في صناعة الآلات وتركيبها، وبذلوا جهداً مشكوراً في سبيل استخدام الماء والاستفادة منه، وصنعوا أنواعاً مختلفة مثل السواقي والمضخات، والروافع. كما نجحوا في تركيب مضخة تعمل بالنار (ص ٩٥).

٤ ـ نادى البيروني[1]، (٩٧٣ ـ ١٠٤٨م) باعتبار الشمس مركز الكون لا الأرض فلكياً، وبعد ذلك بخمسة قرون، قام كوبرنيكوس، ينادي بهذه الفكرة فاضطهدته الكنيسة. وقد سبق أن توصل إلى هذا الرأي شخص اسمه اريشتاج، من أبناء ساموس، كما توصل إليه بعد ذلك الكلداني سليكوس (ص ١١٥).

٥ ـ العرب هم أساتذة أوروبا في النهضة الرياضية، وليس اليونان. وعلم الجبر الأوروبي، اعتمد على العلامة المصري (ابن كامل)، الذي اقتبس منه (ليوناردو فون بيزا) (ص ١١٧).

٣٧٠ ـ أثر العرب في الطب:

خصصت المؤلفة معظم كتابها للاشادة بالعرب، وما حققوه في ميادين الطب والصيدلة والكيمياء، والصحة العامة، ويمكن تلخيص المواضيع التي عالجتها في الآتي:

٣٧١ ـ المستشفيات:

كان العرب منذ أول عهدهم، أول من اهتم بالمستشفيات العامة، وجعلوها في متناول الجميع. وقد اشتهرت بغداد بمستشفياتها، منذ عهد هارون الرشيد، وكانت المستشفيات تُختار مواقعُها لتقام في أماكن صحية، وكانت تزود جميع غرفها، ومحال الغسيل فيها، بالمياه الجارية. وقد اتبع ابن سينا طريقة فريدة لانتقاء الأماكن التي تقام عليها المستشفيات، إذ كان يرسل أجزاء مختلفة من لحم حيوان واحد لتوضع في

---

١ ـ البيروني ـ هو ابو محمد البيروني، ولد بضاحية خوارزم، مؤلف عربي من اصل فارسي، درس الرياضيات والفلك، والطب والصيدلة، وله فيها مؤلفات.

الأماكن التي يقدر إقامة المستشفيات عليها. فالمنطقة التي يتأخر فيها فساد اللحم، يعتبر أنها أصح من غيرها وأنسب، لاقامة المستشفى.

وكان في قرطبة في منتصف القرن العاشر الميلادي، حوالي خمسين مستشفى.

ومن أشهر المستشفيات الاسلامية المستشفى الكبير في القاهرة، المعروف باسم المستشفى المنصوري، أو دار الشفاء أو مارستان قلاوون. ولما تم بناؤه توجه إليه السلطان في ركب عظيم، ولما صار في بابه، طلب قدحاً من اللبن فشربه وقال: «لقد وقفت هذا المستشفى على مثلي فمن دوني». ووقفه السلطان على الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والانثى. وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جهز وكفن ودفن. ورتب فيه الحكماء الطبايعية، والكحالين، والجرايحية، والمجبرين لمعالجة الرمد والمرض، والمجروحين والمكسورين من الرجال والنساء، ورتب الفراشين والفراشات، والقومة لخدمة المرضى، وإصلاح أماكنهم، وتنظيفها وغسل ثيابهم، وخدمتهم في الحمام، لكل مريض فرش كامل.

ولم تقتصر خدمات المستشفيات على من يقيم فيها من المرضى، فقد جعل السلطان خدماتها أيضاً لمن يطلبها وهو في منزله، فيرسل إليه ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية.. (ص ١٤٢ وما يليها).

٣٧٢ ـ تنظيم مهنة الطب ومنح إجازة العمل:

كانت المستشفيات الكبرى هي في نفس الوقت المدارس العليا للطب، وقد بلغ من حرص الدولة الإسلامية على المصلحة العامة، أنها لم تكن تسمح لطبيب بمزاولة ما تخصص فيه من طب إلا بعد أن يؤدي امتحاناً نظرياً وعملياً، ومتى نجح في الامتحان منحته الدولة إجازة يُنَصُّ فيها على مادة تخصصه. ويذكر المؤرخون أن التشريع القاضي بحصول الأطباء على الإجازات يرجع في تاريخه الى عام ٩٣١م. وكان سبب صدور هذا التشريع أن الخليفة المقتدر العباسي، علم أن طبيباً بغدادياً ارتكب خطأ أدَّى إلى موت المريض، لذلك أصدر الخليفة أمراً باجراء امتحان لسائر الأطباء الذين يزاولون هذه المهنة.

وكان في بغداد وحدها تسعمئة طبيب يعملون خارج دوائر الحكومة (ص ١٤٧).

٣٧٣ ـ العناية بالمرضى عند المسلمين:

كان أبقراط يرى أن واجب الطبيب يقضي بعدم مساعدة المريض الذي لا يُرجى شفاؤه. فالطب، كما جاء في رسالة أبقراط، هو الفن الذي يشفي المريض تماماً من مرضه. والذين لا يرجى شفاؤهم لا يجدي معهم الطب شيئاً.

وكان المجتمع الأوروبي المسيحي، منذ القرون الوسطى، وحتى القرن الثامن عشر، ينظر إلى المريض المزمن، وخصوصاً المريض بعقله، على أنه مبتلى بعقوبة إلهية، ابتلاه بها الله، تكفيراً عن خطيئة ارتكبها، أو على أن المريض أصبح جسداً للشيطان. فكان الأوروبيون يلبسون المريض ثوباً مرقعاً، ويحملونه جرساً لطرد الأرواح الشريرة، فيصبح المريض موضوعاً للسخرية، وكان المريض يعامل مُعاملة المجرم. وكان المرضى الذين لا يُعْرَفُ سببُ مرضهم، يعاملون معاملة قاسية، لأنهم ينسبون ذلك إلى الشيطان، وكانوا يكبلون بالحديد ويوضعون في الأديرة.

وكانت أوروبا تجرد مرضى البرص من حقوقهم الإنسانية، فينبذهم المجتمع، وتصلي عليهم الكنيسة صلاة الميت فتحفر للمريض قبراً، وتهيل عليه التراب ثلاث مرات اشعاراً بأنه ميت، ثم تعزله في دار خاصة، يمضي فيها مع أمثاله بقية حياتهم. وظلت الحال كذلك في أوروبا إلى أن نجح طبيب فرنسي، في أواخر القرن الثامن عشر، في إخراج هؤلاء المرضى المكبلين بالأغلال، من الدير ووضعهم تحت الرعاية الطبية.

أما المسلمون فقد استنكروا هذا النوع من المعاملة، وقال الرازي إن رسالة الطبيب الحقيقية تقضي عليه بأن يقنع مرضاه بأن حالتهم في تحسن، وأن يمنحهم الأمل في الشفاء، ولو كان غير واثق من نتيجة العلاج.

وكان ابن سينا قد سعى إلى معالجة المريض نفسياً بالاضافة إلى علاجه بالدواء، وكان المريض عقلياً، في البلاد الإسلامية، يوضع في مستشفى خاص بالأمراض العقلية تحت اشراف السلطان ورعايته، ويزورهم أسبوعياً، ويتولى الأطباء العناية بهم ورعايتهم.

وكان الأطباء العرب يعنون بالحالة الصحية للمساكن، وتزويدها بالحمامات، وتنقية هوائها، عن طريق البخور، وتهوية غرف المرضى، كما يحرصون على وجود الحرارة المعتدلة والمياه الصالحة للشرب.

وكـان الطبيب العـربي الـرازي ، يرى تجربـة الـدواء الجديد في الحيوانات قبل اعطائه للإنسان ، ليرى نتيجة مفعوله فيه .

وتـدل جميـع هذه التـدابير على المستوى الرفيع الذي بلغته العناية الصحية في العـالم الإسـلامي ، وكـانت تلك العناية قذىً في عيون رجال الكنيسة ، وتعتبر خطيئة كبرى (ص ١٦٦ ـ ١٧٢) .

كان رجال الدين المسيحي ، والمجالس المسيحية ، يقررون دائماً خروج الأطباء الآخرين على الكنيسة . وغالى رجال الكنيسة في تنفير القوم من الاستعانة بالأطباء ، فاتهموهم بأنهم تحت ستار طبهم ومعالجة المرضى ، كانوا يتربصون بالمسيحيين الذين يقصدونهم ويوقعون بهم أشد الأذى ، وقد يقتلونهم خنقاً بالحبال (ص ٢١٧) .

٣٧٤ ـ أشهر شخصيات الطب في العالم الاسلامي :

ـ الرازي (المتوفى عام ٩٣٥م) :

وله كتاب الحاوي ـ أو الجامع الكبير ـ وهو موسوعة في الطب تعالج الموضوعات الطبية من عهد أبقراط حتى عصر جمعه .

ولـه كتـاب آخـر هو كتـاب (المنصـوري) ، الـذي أهـداه إلى حاكم خراسـان المنصور ، وله كتب أخرى .

ـ ابن النفيس (القرن الثالث عشر) :

وكـان رئيسـاً لمستشفى القـاهرة الناصري ، وكان يمتاز بالشك وقوة النقد ، ولا يتقبـل آراء الآخـرين ، وهـو أول من اكتشف الـدورة الدموية التي نسبت فيما بعد إلى (ثروت) المولود عام ١٥٠٩ في أراغون .

ـ صاعد بن بشر بن عبدوس (ظهر في الأندلس) :

وقـد خالف رأي أطبـاء اليـونـان حول معـالجة الشلل ، فأخذ المرضى بالفصد الترطيب والتبريد ومنع المرضى من الغذاء فنجح تدبيره .

ـ ابن زهر الأشبيلي (وهو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء) (١٠٩١ ـ ١١٦٢م) :

وقد اكتشف حشرة الجرب (الجرثوم) ، وهو أول من شخّص أمراض الالتهابات الجلدية ، فوصفها وصفاً دقيقاً ، كما عرف الالتهاب الرطب والجاف لكيس القلب .

ـ ابن سينا ـ (ويسمى بالرئيس):

وهـو أول من لاحـظ أن السـرطـان المـوضعي هوعبـارة عن مرض بالسـرطان للعضـو، وهـو أول من لاحـظ العـدوى، التي قد تنشأ عن السل الرئوي، وعن خطر الاشعاعات الشمسية على المرضى بالسل.

وقد اهتم بمعالجة المريض نفسياً، بالاضافة إلى علاجه بالأدوية.

ـ ابن رشد (الأندلسي):

وهـو أول من قال إن بعض الأمـراض المعـدية مثـل الجدري الأسود، قد تمنح الجسم حصانة مدى الحياة.

ـ ابن ماسويه (القرن التاسع):

وهو أول من شخّص مرض البرص.

ـ ابن الجزار، وهو أحمد بن الجزار، طبيب عربي عاش في القيروان وتوفي سنة ١٠٠٤م:

وقد اهتم بمرض البرص فأجاد تشخيصه وعلاجه.

ـ ابو القاسم القرطبي الأندلسي (توفي عام ١٠١٣) وهو خلف بن عباس الزهراوي:

كان من أمهر الجراحين، وقد اغنى الطب بأبحاثه الكثيرة وبخاصة فيما يتعلق بالأمراض التي تصيب الدم.

وقـد أدخـل تجديـداً كبـيراً في الجـراحـة وأدواتهـا، وخطـا خطوة كبيرة في طب النسـاء، وهـو السـابق الى مختلف أنـواع الخيـاطـات الجـراحيـة، وقد درس التهاب المفاصل وسل الصلب.

٣٧٥ ـ مبتكرات العرب في الطب:

١ ـ اكتشف الطبيب الأندلسي ابن زهر حشرة (جرثومة) الجرب.

٢ ـ قال ابن رشد، إن بعض الأمراض المعدية قد يمنح الجسم مناعة مدى الحياة.

٣ ـ وضـع الـوزيـر الأنـدلسي، لسـان الـدين بن الخطيب، كتـاباً حول نشأة الجراثيم، فحل اللغز المشكل حول العدوى وانتقالها.

٤ ـ الخياطات الجراحية، التي ابتدعها الطبيب الأندلسي أبو القاسم الزهراوي.

٥ ـ ابتداع الكثير من الآلات الجراحية، واستخدام الخطاف لاستئصال الزوائد الأنفية، وكلها مما ابتدعه الطبيب الأندلسي أبو القاسم الزهراوي.

٦ ـ ابتدع أبو القاسم الزهراوي المرآة المهبلية.

٧ ـ كان العرب أول من اهتم بطب العيون، وكان أول كتاب لطب العيون، هو كتاب حنين ابن اسحق.

٨ ـ اكتشف العرب طريقة حديثة في التخدير، وهو التخدير الشامل، لتسهيل مهمة الطبيب وتخفيف آلام المريض. وقد اختلفوا في ذلك عن الهنود والرومان واليونان، الذين كانوا يسكرون المريض لتخفيف آلامه.

٩ ـ اكتشف العرب طريقة حديثة لمداواة الجراح، عن طريق التعقيم، وتطهير الجراح، بينما كانت طريقة اليونان تقوم على إحداث تقيح اصطناعي في الجرح، وقد نجحت الطريقة العربية، نجاحاً فائقاً، ويعود الفضل فيها لابن سينا.

١٠ ـ ابن سينا هو أول من جعل الأدوية حبوباً، ولبّسها بالسكر ليسهل تناولها.

١١ ـ العرب كانوا أول من أسس الصيدليات العامة، وقد تم تأسيس أول صيدلية في عهد أبي جعفر المنصور في القرن الثامن الميلادي. فكان كل مستشفى يحتوي على صيدلية كاملة. وكانت الصيدليات خاضعة لتفتيش الحكومة. وظل تأثير العرب على أوروبا في الصيدلة قائماً حتى القرن التاسع عشر.

١٢ ـ كان ابن النفيس أول من تحدث عن الدورة الدموية، وأكد وجودها.

١٣ ـ أبدى العرب عبقرية خاصة في البصريات، ويعتبر هذا العلم بحق أنه علم عربي، وقد ساعد تقدم علم البصريات عند العرب على تقدم علم طب العيون عندهم.

١٤ ـ العرب أول من استخدم الوسائل النفسية للعلاج.

١٥ ـ وهناك كثير من الاختراعات التي تنسب، ظلماً وخطأ، إلى الانكليز والفرنسيين، ولكن التاريخ يثبت ويؤكد أن العرب بمؤلفاتهم العظيمة، هم أساتذة أوروبا الحقيقيون، وقد أخذت أوروبا عنهم كتبهم التي امتازت على ذلك الخليط المشوش الذي تركه اليونان.

٣٧٦ ـ العرب لم يكونوا عالة على غيرهم:

كانت المجهودات العلمية العربية، وبخاصة في الطب، عظيمة جداً. وإن الأحكام الارتجالية القائلة إن العرب كانوا عالة على اليونان، هو كلام هراء، وما اكتشفه ابن النفيس من الدورة الدموية، يثبت أن العلماء العرب أطول باعاً، وأعمق بحثاً، وأدق نقداً من زملائهم المسيحيين (ص ١٨٥).

وجميع ما وضعه العرب واليونان من كتب الطب، تتضاءل أمام كتاب القانون لابن سينا، وهو كتاب شامل، لا يعدله مؤلف آخر في تاريخ الطب. وابن سينا هو الذي استطاع أن يقضي على شهرة جالينوس وسائر اليونانيين.

الفصل الثالث

حضارة عرب الأندلس في نظر ماك كيب

٣٣٧ ـ نبذة عن المؤلف

جوزيف ماك كيب رجل دين كاثوليكي ولد عام ١٨٦٧، وكان أبواه كاثوليكيين، ثم تحولت أمه إلى البروتستنتية، فأرسلاه إلى دير كاثوليكي، ثم انخرط في سلك الرهبان. وبعد أن قضى اثني عشر عاماً في الدير ترك سلك الرهبنة، وانصرف إلى البحث والتنقيب، وتأليف الكتب. وقد وضع فيما وضعه من الكتب، كتاباً بعنوان (مدنية العرب في الأندلس)، ترجمه إلى العربية الدكتور تقي الدين الهلالي وطبع في بغداد عام ١٩٥٠.

أطنب المؤلف في وصف عبقرية العرب الخلاقة، وأشاد بنبلهم وكرمهم وتسامحهم، وانحى باللوم الشديد على الاسبان، وعاب عليهم نكرانهم للجميل، ووحشيتهم في معاملة المسلمين الأندلسيين، الذين أحسنوا معاملتهم، وسمحوا لهم بممارسة شعائر دينهم في أوسع مدى ونطاق.

ويمكننا أن نقتطف من كتاب ماك كيب الفقرات التالية:

٣٧٨ ـ حالة أوروبا في القرون الوسطى:

إذا استثنينا بعض المناطق القليلة من أوروبا، كالبندقية حيث كانت فيها بقية من علوم اليونان، تخفف من شر الناس وهمجيتهم، فإن القارة الأوروبية كانت كلها في تأخر شديد اجتماعياً واقتصادياً وعقلياً. وكان ذلك العهد أشد سواداً وظلمة وانحطاطاً من عصور البابوية. ومنذ ذلك الحين أطلق الأساقفة والقسيسون والرهبان والراهبات الأعنة لأنفسهم في الدعارة وفي الشهوات البهيمية علانية، دونما حاجة إلى التستر، حتى بجلباب رقيق من النفاق. وكان ٩٩٪ من الرجال خدماً، يعاملون

بأقسى ما يعامل به العبيد. ولم يكن بين الرجال واحد في المئة يعرف القراءة
أما بالنسبة للنساء فلم تكن واحدة في الألف منهن تعرفها (ص ٩ و ١٠).

ويَرُدُّ المؤلف تخلف أوروبا في ذلك الحين إلى تسلط رجال الدين المسيحي، ويستشهد بأقوال ميشيل سكوت (١١٧٥ ـ ١٢٣٢م)، ولين بول (المولود عام ١٨٥٤).

يقول ميشيل سكوت ـ وكان قسيساً درس العلوم العربية في طليطلة، وأتقن العربية، وترجم كتاب أرسطو لملك صقلية فريدريك الثاني، من العربية مع الشروح التي وضعها العرب ـ :

«لم ترتقِ أمة قط تحت حكم الرئاسة الدينية، وإن تقوى القسيسين الروحية قد قضى عليها تعطُّشهم الشديد إلى التسلط والاستبداد في الحكم على البلاد وأهلها».

ويقول لين بول ـ وقد ألف كتباً كثيرة، ومنها كتب في تاريخ العرب في الأندلس ـ :

«لا شك في أن القوط كانوا متعبدين، إلا أنهم كانوا يرون عبادتهم تكفِّرُ ذنوبهم، وكانوا في الفسق والفساد مثل أشراف الروم، الذين سبقوهم. حتى القسيسون الذين كانوا يعظون، ويحضون على الأخوّة المسيحية، صاروا أغنياء، وملكوا الضياع، واتبعوا السياسة المأثورة في الجور، فصاروا يعاملون عبيدهم وخدمهم أسوأ معاملة، كما كان يفعل أشراف الروم قبلهم» (ص ١٣ و ١٤).

٣٧٩ ـ لو نجح عرب الأندلس في فتح أوروبا:

لا يوجد في الدنيا مدرس واحد في جامعة أو مدرسة يتجرأ أن يقول لطلابه، ما يعرفه كل مؤرخ، من أن العرب أقاموا مدنية من أعظم مدنيات العالم. وأن شارل مارتل وجنده كانوا لصوصاً مخربين متوحشين برابرة. وأن عرب الأندلس لو نجحوا في فتح أوروبا، وبقوا قرنين، ورسخوا فيها مدنيتهم، كما فعلوا في اسبانيا، لكنا الآن متقدمين خمسة قرون أو أكثر عما نحن عليه اليوم.

٣٨٠ ـ الفرق بين الأندلس المسلمة وأوروبا النصرانية:

لم يكن في أمهات المدن الأوروبية مجار وقنوات لصرف المياه، فكانت المياه

القـذرة تسيـل في شوارع باريس ولنـدن غير المبلطـة . أو تجتمـع فيكون منها حياض . وبقيت الحال في أوروبا كذلك حتى بعد مرور قرون على بدء النهضة في أوروبا .

ولم يكن في أوروبا حديقة عامة ، وكانت قصور الملوك ، متروكة بلا بلاط تنبت فيها الأعشاب ، أما النساء في أوروبا فقد نزلن إلى مرتبة الخدم ، عملا بما روته التوراة في قصـة حواء ، لتحـريم زواج القسيسـين . وكـان الشعب الاسبـاني قذراً لا يعـرف النظـافـة والاستحـمام ، وكـانت الملكـة ايـزابيـل ، تفخر بانها لم تستحم في حياتها إلاّ مرتين ، يوم ولادتها ويوم زواجها عام ١٤٥٩م . ولم يكن في أوروبا حمام واحد .

أمـا في اسبـانيـا المسلمـة فقد كانت الحال على العكس من ذلك . كانت مدن العرب مبلطة ، والشوارع مضاءة بالأنوار ، وقد سويت مجاري صرف المياه فيها أحسن تسـويـة . وقـد ذكـر سكوت أن بعض القنوات التي أنشئت في بلنسية يمكن أن تتسع لسيارة ، وان أصغر قناة فيها تتسع لحمار .

وكـان يقـوم على أمن المـدينـة ونظافتها جيش من رجال الشرطة ، وهذا النظام الصحي الـرفيـع ، كانت تتممـه مجمـوعـة من الحـمامـات العـامة والخاصة . وقد ذكر المؤرخـون أن في قرطبـة وحـدهـا كان يوجـد ٩٠٠ حمام عام بالاضافة الى الكثير من الحمامات الخاصة .

أما النساء عند المسلمين في الأندلس ، فقد كن مكرمات ، مالكات لحريتهن . وكان طلب العلم مباحاً لهن ، وكن يقبلن عليه بكل حرية .

واهتم المسلمـون اهتـماماً كبيراً بإقامة الحدائق العامة وتنسيقها ، فكانت مدنهم تزدهي بحدائقها ، وشوارعهم تتجمل بأنواع الشجر المغروسة على جوانبها . وكان مما يمتـاز به المسلمـون ، التعـاطف والتـواد فيـما بينهم ، وعيـادة مرضـاهم ، ومـواسـاتهم ومساعدة الفقراء (ص ٢٤) .

٣٨١ ـ خرب الاسبان حضارة العرب في الأندلس :

أقـام العـرب حضـارة زاهـرة في الأندلس ، فعمرت المدن ، وازدهرت الصناعة والتجـارة ، وتـرك العـرب آثاراً جليلة فيها . وحينما تغلب الاسبان على العرب ، أبادوا تلك الحضـارة ، وخـربـوا جميـع ما استطـاعـوا تخريبه ، ولم يبق من آثار العرب إلا ما لم يستطـع الاسبـان تخريبـه . فطليطلة التي كانت تضم مئتي ألف انسان ، كانت جوهرة

تزدهر فيها الصناعات، وتزخر بالحياة والجمال. وقد أصبحت الآن قرية صغيرة أهلها فقراء لا مورد لهم للرزق، ولم يبق فيها من آثار العرب إلاّ قنطرتها العظيمة التي لم يستطيعوا تخريبها.

ثم يتحدث المؤلف عن قرطبة وأشبيلية، وما كانتا عليه في زمن العرب من جمال عظيم، وتنظيم، وعمران، وكثافة سكان. ويقارن ذلك بما صارتا إليه اليوم. ويقول إنه لم يبق في قرطبة غير مسجدها الجامع الذي لولاه ما تجشم أحد عناء السفر إليها، ولو كان على بعد خمسة أميال منها.

ويقول المؤلف إن مسجد قرطبة أعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة القديس بطرس في روما (ص ٣٢ - ٣٤).

٣٨٢ - اهتمام العرب بالعلوم:

يمكن أن نقول إن أعظم مزية امتاز بها عرب الأندلس، هي ولوعهم بالأخذ بالعلوم العقلية، والمعارف الدقيقة، وقد كان ولوعهم هذا أكثر من ولوع الرومان واليونان بها. وليس في الدنيا كلها - ولن يوجد - بلد يُكرَمُ فيه العلماء والأدباء، وتغدق عليهم فيه المكافآت والمنح، أكثر من البلاد العربية في الأندلس. ويمكن أن ندرك معنى هذا القول إذا علمنا أن الخليفة الحكم المستنصر، كان يوجد في مكتبته ٤٠٠ ألف كتاب على قول أحدهم و ٩٠٠ ألف على قول آخر. ولم يكن في الأندلس قرية مسلمة واحدة، مهما صغرت، دون أن يكون فيها مدرسة تعلم أبناءها.

ويقول سكوت (وهو أعرف من يحكم على الحياة في الأندلس):

«كان في كل قرية مدارس تكفي لحاجة أهلها، وكان التعليم فيها قائماً على أفضل التسهيلات، وأنفعها، وكان الأطفال كلهم في رعاية الدولة، تعنى بهم، وتوفر لهم المدارس المجانية على نفقتها».

لذلك يمكن القول إنه يتعذر وجود فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة، في حين كان ملوك أوروبا لا يستطيعون كتابة اسمهم، وكانت نسبة الأمية بين رعاياهم تبلغ ٩٩٪، وكان هؤلاء الأميون على درجة من الجهل لا يمكن تصورها.

وكان العرب يُعنَوْن بالتعليم العالي أكثر من عنايتهم بالتعليم الابتدائي، فقد كان في قرطبة ثمانمئة مدرسة يأتي إليها التلامذة من كل مكان. أما الفقراء، فقد

أقامت الدولة لهم دوراً خاصة يقيمون فيها، وأجرت عليهم الأرزاق من بيت المال. وكانت جامعات الأندلس تقبل الطلبة من كل جنس وملة دونما تمييز. وكانت حرية الفكر عند المسلمين تفوق بكثير ما كانت تعرفه الممالك النصرانية.

ثم يتحدث المؤلف عن مكتشفات العرب وإنجازاتهم في مختلف المجالات: في العلوم، والصناعات، والفلك، والرياضيات، والفيزياء، والطب، ثم يورد بعض ما قاله علماء العصر من الاطراء والتقدير للعرب، لما قدموه من خدمات للعلوم. ويضيف قائلا:

«إن هذه الأخبار وإن كانت مختصرة جداً، فإنها كافية للدلالة على أن عرب الأندلس هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها» (ص ٤٠ - ٥٦).

٣٨٣ ـ القسيسون يدفعون الاسبان لاضطهاد العرب:

احتل الاسبان المناطق العربية، وبقي في هذه المناطق كثيرٌ من العرب يعيشون في ظل حكامهم الجدد، وكان الاسبان يفضلون العيش بسلام مع جيرانهم المسلمين، وكانوا ينظرون إليهم بإكبار وتعظيم، إذ كانوا في رأيهم قد بلغوا ذروة العبقرية. ولكن القسيسين، الذين بلغوا أبعد درجات التعصب، كانوا يعارضون هذا التعايش، وظلوا يغرون الحكام بالاساءة إلى العرب، ويحضونهم على عدم التسامح معهم، إلى أن نجحوا في إقناع الملوك بآرائهم، وحملوهم على أن يخيّروا العرب بين التنصر والخروج من البلاد.

وكان من نتيجة الاضطهاد أن نقص عدد المسلمين في الأندلس من ثلاثين مليوناً ـ يوم كانت في أوج ازدهارها ـ إلى ثلاثة ملايين، ثم أخرج الظلم هؤلاء الباقين.

خاتمة الكتاب

العبرة واسباب انهيار دولة الاسلام في الاندلس

في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لمن حوله :
(توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)
فقال قائل : (أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟)
فقال الرسول الكريم : (لا . بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم ، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن) .
قالوا : وما الوهنُ يا رسول الله؟
(قال : حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت) (صدق رسول الله)

وما أسهل مايجد الإنسان مصداق هذا الحديث الكريم ، فيما آل إليه حال المسلمين في الأندلس بالأمس ، وفيما آل إليه حال المسلمين ، عربهم وعجمهمُ اليومَ ، وما أشبه الليلةَ بالبارحة .

ويكاد الإنسان أن يقف مذهولاً أمام ظاهرة الوهن والتخاذل التي سيطرت على مسلمي الأندلس بالأمس ، وهم كثرة كاثرة ، فأدت إلى انقضاء دولتهم ، ثم إلى زوالهم من الوجود بالكلية .

وظاهرة الوهن هذه نراها اليوم تسيطر على المسلمين عامةً ، وعلى العرب خاصة فتمزقُهم ، وتبدد قواهم ، وتفرقُ جمعهم ، وتدفعهم إلى الاقتتال فيما بينهم وتهددهم بالفناء والزوال ، وهم جامدون مستسلمون لما يجري ، وكأنه قدر محتوم لايملكون له صرفاً ولادفعاً .

وآخر ما ظهر في أيامنا هذه من مظاهر الوهن المذهلة ، التي تستعصي على الافهام ، قيام إسرائيل في شهر حزيران (يونيو) من عام ١٩٨٢ بمهاجمة لبنان بقوات ضخمة لضرب الثورة الفلسطينية ، وقواتها المتواجدة فيه . ولم يكن هجومها خاطفاً لايسمح لقوات نجدة عربية وإسلامية بأن تصل إلى ميدان المعركة في الوقت المناسب ، كما كان يحدث قبلاً ، وإنما استمر الهجوم قرابة الثمانين يوماً ، والقوات الفلسطينية ، والمقاومة الشعبية اللبنانية ، تقاومها ببسالة فائقة . وكان من الممكن أن تصل أرتال كثيرة من المتطوعين ، والمقاتلين النظاميين ، من أقاصي المعمورة ، في الأيام الأولى للحرب ، لمجابهة هذا الغزو المجرم . وقد اضطرت القوات الإسرائيلية الغازية

إلى القتال في الجبال، والسهول، والمرتفعات، والسفوح، وعلى الساحل، وتعرضت لمقاومة عنيفة ضارية، ونزلت بها خسائر فادحة، ووقف مئة وخمسون مليون عربي، ووقف وراءهم ألف مليون مسلم، يتفرجون جميعاً على المأساة، ويلهون أنفسهم بسفاسف الأمور، ليجدوا العذر لأنفسهم بأن تقصيرهم في القيام بواجبهم في رد الغزو المجرم له ما يبرره.

وطبيعة الأرض التي قاتلت فيها القوات الإسرائيلية من شأنها أن تفقدها ميزات تفوقها العسكري على العرب - هذا إن كان هناك تفوق أصلاً -، وتجعلها هدفاً سهلاً للاقتناص بأيسر سلاح وأبسطه، وبأعداد قليلة من المقاتلين المؤمنين الأشداء. فلا الطائرة المتطورة، ولا الدبابة، ولا المدفع، ولا الصاروخ المحكم التسديد، يمكن أن يكون له أثر حاسم في مناطق وعرة مثل جبال لبنان، وسهوله، وأرضه، كما قالته بعض الدراسات العسكرية. ولكن العرب، ومن ورائهم المسلمون، وقفوا بأعدادهم الهائلة موقف المتفرج اللامبالي على ما يقع، ولم يتحرك منهم أحد، إلا قلة قليلة لم تغن شيئاً. ودمرت القوات الإسرائيلية الغازية البيوت والمباني والمخيمات، وذبحت النساء والاطفال والشيوخ، وهتكت الأعراض، وقام المجرمون بذبح ألوف كثيرة من الأبرياء، في محلّتي صبرا وشاتيلا في بيروت، فلم تهزّ المأساةُ المروعة القلوب المؤمنة لتسرع إلى القيام بما يفرضه عليها الإخاء الإسلامي، والانتماء القومي.

إن الدراسات العسكرية الحديثة تقول إن إسرائيل لم تكن تجهل المخاطر المدمرة التي كان من الممكن أن تتعرض لها لو وقع خطأ في حساباتها، ووصلت قوات عربية وإسلامية إلى ميدان المعركة في الوقت المناسب، إذ كان لبنان سيصبح بالنسبة لإسرائيل ما كانته معركة حطين بالنسبة للصليبيين قبل ثمانية قرون.

وعلى كل حال، وأياً ما كانت أسباب هذا الموقف الغريب، وغير المفهوم، الذي وقفه العرب والمسلمون، فإن ماحدث يعتبر مظهراً من مظاهر الوهن المسيطر على النفوس في أيامنا هذه.

الوهن الذي أصاب مسلمي الاندلس

حينما قتل عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، كانت الأندلس في ذروة مجدها، وأوج عظمتها، ومنتهى قوتها وازدهارها. وقد قدر المؤرخون عدد سكان الأندلس في تلك الأيام بثلاثين مليوناً من الأنفس، وهو عدد ضخم بالنسبة لمقاييس العصر. وكانت رقعة الأرض التي تسيطر عليها دولة الإسلام في الأندلس تشمل

معظم أراضي شبه الجزيرة الايبرية (إسبانيا والبرتغال اليوم)، وجزءاً لابأس به من الشمال الأفريقي. وكانت أرض الأندلس عامرة تقوم فيها الصناعات المزدهرة، والزراعات المتطورة، وتزدهر فيها العلوم والمعارف، والناس فيها في بلهنية من العيش.

وكانت تقوم في الشمال من أرض الاندلس، في مواجهة الأمارات النصرانية، سلسلة من القلاع والحصون المنيعة، والمدن الكبيرة القوية التحصين، وكلها تعج بألوف المقاتلين الأشداء، المدربين أحسن تدريب، وكثير منهم من أهل الرباط الذين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، وفي سبيل إعلاء كلمته وابتغاء مرضاته، وطمعاً في الثواب العظيم الذي أعدّه الله للمجاهدين المخلصين.

وكان القادرون على الجهاد من أهل الأندلس يتسابقون إلى تلبية داعي الجهاد حينما يدعوهم، وكانوا إذا بلغهم نبأ خطر مفاجيء أناخ على أحد مواقع الإسلام يتطايرون من جميع أنحاء الأندلس، ومن مناطق الشمال الأفريقي، القريبة من المكان المهدد والبعيدة عنه، ويتقاطر أهل النجدة والإيمان لنجدة الموقع المهدد، وتتتابع الأرتال لاينتظر سابق لاحقاً، ولايلوي متقدم على متأخر، حتى يلتقوا جميعاً في ساحة المعركة لدفع الخطر المنيخ، والقضاء عليه.

وكانت الأندلس حينما قتل عبد الرحمن بن أبي عامر قد مضى عليها قرابة مئة عام وهي ترتقي صعداً في سلم القوة والمنعة والازدهار والرقي والتقدم الحضاري، في جميع الميادين، هي مدة حكم الناصر والمستنصر والمنصور وابنه عبد الملك.

وانكمشت ـ أمام قوة دولة الإسلام المتعاظمة ـ الإمارات النصرانية في الشمال في رقاع ضيقة من الأرض، في مناطق وعرة كثيرة الصخور، لاتقوم فيها صناعة، ولاتزدهر فيها زراعة.

وكانت الإمارات النصرانية متفككة متناحرة فيما بينها، وكانت ترتجف خوفاً وهلعاً من اقتراب موعد سير غزوات المسلمين إليهم، في صوائفهم وشواتيهم، حتى أعلن كثير من دويلاتهم، وهو مرغم، خضوعه لدولة المسلمين، وأعلن آخرون تبعيتهم لها، لقاء الكف عن حربهم وتخريب أرضهم.

ولكن ما إن قتل عبد الرحمن بن المنصور حتى بدا وكأن كل شيء كانت تقوم عليه دولة الأندلس العظيمة قد انهار فجأة، وبدأ الانهيار المذهل، وكأن حجراً ألقي من قمة جبل تكسوه الثلوج فتدحرج الحجر متسارعاً في نزوله وهو يلف الثلج من حوله، ويجرف في طريقه كل شيء حتى بلغ الوادي وهو كتلة عظيمة لاقبل لإنسان

بالـوقـوف في وجههـا ، ومنعهـا من متـابعة الانحدار. فبدأ التمزق في كيان الدولة وفي المجتمع ، ونشبت الحروب والصراعات بين المغامرين الطامعين في السلطة ، واندلعت أعـمال العنف والانتقـام وتصفيـة الحسابات القديمة ، وارواء الأحقاد التاريخية ، وكأن البناء الذي كانت تقوم عليه دولة الاسلام في الأندلس وهم لاظل له من الحقيقة في الواقع .

وأخـذ كل متسلط وطـامـع في الحكم يسعى ، بجميـع الطرق والوسائل ، إلى الحفـاظ على ماتحت يده من أرض ، ولـو أدى به ذلك إلى الاستعانة بالاسبان أعداء قومه ودينه التقليديين ، حتى استجازوا جميعاً لأنفسهم الإستعانة بالاسبان في حروبهم مع إخوانهم المسلمين . . وتسابقوا إلى كسب ودهـم ، وتباروا في النزول لهم عن المدن والحصـون والقـلاع ، كسبـاً لعـون وقتي غير مضمون وقد نزل بعضهم لملك قشتالة ، طوعـاً ودفعـة واحـدة ، عن ٢٠٠ موقـع وحصن ومـدينـة ومعقل ، فملكها بما فيها من سكان وأموال ومزارع ومتاجر وثروات وصناعات مزدهرة ، ولم يكن لكل ذلك السخاء في العطاء من ثمن غير تقديم عشرة آلاف مقاتل يساعدون من تنازل له عنها في قتاله لإخوانه المسلمين ، وقد أنفق الناصر والمستنصر والمنصور جهوداً كبيرة ، وسنين طويلة شاقـة من الحـروب والمخـاطر ، وبذلوا كثيراً من الدماء والتضحيات والأموال في سبيل الاستيـلاء عليهـا ليرتفـع فيهـا شعـار الإسـلام ، ولتكون درعا يحمي دولة الإسلام ، فأسلمها الطغاة البغاة إلى أعدائهم وأعداء دينهم في ساعة من نهار ، ثمناً لبقائهم في كراسي الحكم ، ينعمـون بخـيراتـه ، وإرواء لاحقـادهم وشهـوتهم إلى الانتقـام من خصومهم ، من إخوانهم وأبناء دينهم وقومهم . ولو فكر هؤلاء الجهلة قليلا لوجدوا أن هذه المواقع التي نزلوا عنها للإسبان يمكنهم أن يجندوا منها من المقاتلين أضعاف العدد الذي أمدهم به الاسبان ، ولكنه الجهل ، وفساد الرأي ، وضعف الإيمان .

وقـد أدى تمزق الانـدلس ، واقتتـال المغـامرين فيها ، والتسابق إلى طلب عون الإمـارات النصـرانية ، إلى خروج الإسبان من جحورهم التي ألجأهم إليها المسلمون منذ مئة عام ، وأخذوا يستعيدون ثقتهم بأنفسهم ، بعد أن كادوا يفقدونها من كثرة ما لحق بهم من الهزائم ، خلال تلك الحقبة من الزمن .

واستعـرت الحـرب بين الحكـام المسلمـين ، واستطالت وامتدت سنين طوالاً ، حتى أصبـح المـواطن العـادي يرى أن فكـرة الجهـاد قد تبـدل معناها ، فلم تعد تعني مجاهـدة المسلمـين لأعـداء دينهم وإنـما اصبحت تعني مجاهـدة المسلمـين لاخـوانهم

المسلمين. وكان المسلمون يبذلون في حروبهم مع إخوانهم الجهد، ويظهرون من الشدة والبأس والصدق في الحرب، ما لايبذلونه في حربهم مع الإسبان. حتى أصبحوا وكأنهم هم الذين عناهم الله تعالى بقوله الكريم﴿بأسهم بينهم شديد﴾(١)،وحتى نزعوا من قلوبهم الشعور بالرحمة بالمؤمنين، وهو الشعور الذي جعله الله تعالى ميسماً لأهل الإيمان، وصفة من صفاتهم المميزة، حين قال في كتابه العزيز:﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ (سورة الفتح الآية ٢٩). فكانوا أشداء بالغي الشدة على إخوانهم المؤمنين، ضعفاء أذلاّء مستخذين أمام أعدائهم الإسبان.

وأخذ الحكام المسلمون يتسابقون إلى الخضوع للاسبان، وإلى دفع الجزية إليهم. ومن امتنع منهم عن دفع الجزية، لظنه أن الاسبان لا يستطيعون الوصول اليه لقيام حواجز بينه وبينهم من الأراضي الاسلامية الأخرى تولى الحكام المسلمون الآخرون العمل على إرهاقه لإجباره على الخضوع للاسبان، وطلب الحماية منهم، ودفع الجزية إليهم، اعترافاً بطاعتهم. ولعلهم كانوا في قرارة نفوسهم يريدونه أن يتساوى معهم في الخضوع للإسبان، وفي دفع الجزية اليهم، لكيلا يكون له ميزة عليهم عند شعبه، فإذا اجتمعوا جميعاً في صعيد واحد من الخضوع والتبعية وفي دفع الجزية للاسبان لايبقى لأحد منهم ميزة على أحد، ولايبقى مجال للمفاضلة بين خاضع وخاضع، ولا يَخُصّ واحد منهم بالذات بالتشنيع والاتهام بمخالفة شرع الله، ومبادىء الإسلام بموالاة أعداء الإسلام، والخضوع لهم، ومعاونتهم على إخوانه المسلمين.

وهكذا استخذى الحكام المسلمون جميعاً أمام الاسبان، واصبحوا أداة طيعة في أيديهم يحركونهم كالدمى؛ فكان الحكام الاسبان إذا أرادوا مهاجمة أرض إسلامية أمروا بعض أتباعهم من الحكام المسلمين المجاورين للأرض التي يريدون محاربتها، بمحاربة جيران مسلمين آخرين ليشغلوا أنفسهم فلا يبقى لأحد مجال في أن يفكر في نجدة ولا إنجاد، وكذلك يجد الموالون للاسبان حجة لأنفسهم يعتذرون بها أمام شعبهم عن تقصيرهم في تقديم العون للإخوان المسلمين المهددين بخطر الاسبان.

وكان انشغال المسلمين بالاقتتال فيما بينهم في الوقت الذي ينيخ فيه الاسبان على الحصون والمدن الإسلامية، يدخل اليأس والوهن إلى قلوب المقاتلين المدافعين عن

(١) سورة الحشر الآية ١٤.

القلاع والحصون والمدن المهددة، ويشعرهم بأنهم لاأمل لهم في عون إسلامي فيضطرون ـ وهو ما كان يقع في أغلب الحالات ـ إلى الخضوع، والنزول على إرادة الاسبان، والمبالغة في استرضائهم.

وقد وصل اللؤم والحقد في نفوس بعض الحكام المسلمين ـ إن لم نقل بهم جميعاً ـ إلى حد تفضيلهم التنازل عن الأرض والمدن والحصون للاسبان، وهم يعلمون أنها لن تعود إلى حوزة الاسلام مرة اخرى، على أن يتنازلوا عنها إلى أخ مسلم يتقوى بها على مقاومة الاسبان، وذلك لكيلا ترجح كفته عليهم، ويطمع فيما تحت أيديهم.

وحينما اعتزم الاسبان احتلال طليطلة عاصمة بني ذي النون، مهدوا لعملهم الكبير هذا بعقد حلف مع المعتمد بن عباد أمير اشبيلية، وأقوى الامراء المسلمين في الأندلس، اطلقوا بموجبه يده في محاربة جيرانه المسلمين على أن لايعترض هو على مشاريعهم الرامية إلى احتلال طليطلة، وابتلاع جميع امارة بني ذي النون.

والذي جهله المعتمد بن عباد في ذلك الحين، وأدركه فيما بعد، هو أن الاسبان حينما كانوا يحالفون الأمراء المسلمين، على جيرانهم المسلمين الآخرين، كانوا يهدفون إلى اقتطاع أجزاء من أرض الاسلام وضمها إليهم، واخراجها نهائياً من حوزة الإسلام، وبذلك يضعف الاسلام وأهله في الجزيرة، ويزدادون هم قوة، ثم يعودون الى محالفة أمراء مسلمين آخرين لينتقموا ممن كان حليفهم بالأمس، ولينتزعوا منه ما كان قد استولى عليه يوم كان حليفاً لهم من أرض إخوانه المسلمين. ويتشفى الآخرون بما حل بعدوهم المسلم، ويتكرر ذلك مراراً كثيرة، ويخسر المسلمون في كل يوم ويضعفون، ويربح الاسبان ويزدادون قوة. وكلما زادت قوتهم ازدادوا طغياناً واشتطاطاً في مطالبهم من الأمراء المسلمين.

كيف انهار البناء الاسلامي بمثل هذه السهولة؟

ويتساءل المرء بكثير من المرارة والألم عن الأسباب التي أدت إلى تسارع انهيار هذا البناء الشامخ بمثل هذه السهولة، وكيف سكت المؤمنون المخلصون من هذا الشعب الجبار على ما جرى على أيدي الطغاة من حكامهم، وهم الذين توارثوا عن أسلافهم الشغف بالجهاد، وحب الموت والاستشهاد في سبيل رفعة دين الله، وإقامة شرعه في أرضه، وقد وقفوا هم وأسلافهم من قبلهم مواقف البطولة والبأس في مواجهة جحافل النصرانية التي كانت تسوقها أوربا إليهم بين الحين والحين سنداً للأمراء

الإسبان، فكانوا يلحقون بها الهزائم، ويردونها على أعقابها خائبة خاسرة، فتنسحب عبر جبال البرانس (البيرنه) مفلولة الحد، مهيضة الجناح.

يقول من بحثوا في أسباب الكارثة التي نزلت بعرب الاندلس: إن للدول أعماراً مثلها في ذلك مثل الأفراد، فإذا شاخت الدول زالت وبادت. ويقول آخرون إن الأسباب تعود إلى عدد من العوامل تضافرت فأدت إلى الكارثة، ومن هذه الأسباب والعوامل في رأيهم:

- استيقاظ النعرات القبلية بين القبائل العربية التي وجدت على أرض الاندلس، وبصورة خاصة بين عرب الحجاز وعرب اليمن.
- استيقاظ الروح العنصرية بين العرب والبربر والبلديين (الاندلسيين المتحدرين من أصل إسباني ثم دخلوا في الإسلام هم أو أسلافهم).
- التقارب الذي حصل بين النصارى المستعربين، وبين البلديين بفعل حنين الدم، والرغبة في حكم وطنهم، والتحرر من حكم الطارئين: العرب والبربر.
- الحروب والفتن والانشقاقات التي حدثت بفعل العصبيات المستيقظة.

ولكن جميع هذه الأسباب والعوامل التي تساق كأسباب لتفسير ما حدث في الأندلس تبدو لنا مظاهر خارجية للسبب الرئيس الأول، الذي كان له الأثر الحاسم في انهيار المؤسسات الإسلامية كلها، والحكم العربي في الأندلس، ألا وهو عمل الحكام المسلمين على قتل روح الإيمان في صدور المؤمنين، وتعاونهم في ذلك مع جميع الحاقدين على العرب والإسلام، في الداخل والخارج، في سبيل اقتلاع جذوة الحماسة الدينية من نفوس المؤمنين بجميع الوسائل المتاحة، بما في ذلك العنف البالغ، والإيذاء والارهاب. وقد فعلوا كل ذلك، وساهموا فيه، وهم يظنون أنه الوسيلة الوحيدة والمثلى لبقائهم في دست الحكم مطمئنين، لايعكّر صفو حياتهم معكر من صيحات المؤمنين من شعوبهم، التي كانت تحثهم على اطراح الخنوع والاستخذاء أمام الإسبان، والقيام بما يوجبه الإسلام على الحكام من مجاهدة الأعداء، وبذل الجهد في ذلك وتوحيد كلمة المسلمين، ونبذ التفرقة، والإقلاع عن قتال الأشقاء، وتوجيه الجهد والسيوف كلها الى نحور الأعداء.

عز العرب قام على الأخذ بمبادىء الإسلام:

وتفسيراً لفكرتنا هذه نقول: إنه إلى الإسلام وحده يعود الفضل في وحدة

العــرب، وفي قيــام دولتهم، وفيـما حققـوه من انتصــارات في ميـادين الحـروب التي خاضوها، وفيما حققوه من نشر للإسلام بين الأمم التي دانت لهم، وفيما توصلوا إليه من تقدم سريع في بناء الدولة، واستكمال مؤسسات الحكم.

لقـد كان العـرب في جاهليتهم قبـائـل متنـاحـرة لا تكادتنتهي من حرب حتى تفرض عليها حرب أُخرى، وكان لذلك نتيجتان:

النتيجـة الاولى ـ كان العـرب جميعـاً يتـدربـون على استعـمال السـلاح منـذ نعـومة أظفـارهم، وكـانـوا يشاركون في الحروب في سن مبكرة، لأن الحروب المتواصلة كانت تفني الـرجـال، فكـان لابـد للقبيلة من الاستعـانة بكل قادر على حمل السلاح لدفع الأذى عنهـا، وعن سمعتهـا، وكـرامتها، وأعراضها، وأموالها، ضد الطامعين بها من أعــدائهـا. وقـد دفعت ضرورات الـدفـاع عن القبيلة إلى تمجيـد الأبطـال وإطـراء شجـاعتهم، وصـوغ القصـائـد تخليـداً لمنـاقبهم وبطـولاتهم، ليقتـدي بهم الشبـان النـاشئـون، ويستخفـوا بالموت، ويتحـدّوا الصعـاب، ويمتازوا في الحروب لينتزعوا الإعجاب، وتسير بذكرهم الركبان، ويطير ذكرهم بين القبائل.

والنتيجة الثانية ـ هي فرض التصاق الفرد بالقبيلة، والتمسك بالصلة القوية بها، لأن هذا الالتصاق هو الوسيلة الوحيدة لحماية الفرد من الاعتداء عليه من قبل أبناء القبائل الاخرى، وهويتنقل في البوادي الشاسعة طلباً للرزق والمرعى، إذ لم تكن هناك سلطة عليا تستطيع فرض سلطانها على الجميع، لذلك كان لابد لكل واحد من أن يسعى إلى تأمـين الحـماية لنفسه بالطريقة التي يراها مناسبة. ولم يكن هناك أفضل من إشعار القبائل الأُخرى بتضامن أفراد القبيلة في مواجهة الأعداء. وعدم سكوتهم على احتمال الضيم.

ومن ضرورة الالتصاق بالقبيلة، كوسيلة للحماية تفرعت ضرورات أُخرى أخذ بها العرب، وتوارثوها، فأصبحت عادات متاصلة فيهم، ومنهاجاً لحياتهم.

ومن هذه الضرورات:

أ ـ العصبية القبلية

وهي ما كانـوا يعنـون بها (انصـر أخـاك ظالما أو مظلوما)، ويعبر عنها بالانحياز الى القبيلة في صراعاتها وخصوماتها، سواء أكانت على حق أو على باطل، فلا خيار لابن القبيلة في الأخذ بذلك. وقد أصبح الاسراع إلى الأخذ برأي القبيلة، والانضمام إليـه، ولـو كانت الاكثـريـة التي قررته على خطأ، تعبيراً عن البأس والقوة والشجاعة

والتضامن والاستهانة بالحروب ومخاطرها، وبالاعداء وبقوتهم وكثرتهم . . . . وقد عبر دريد بن الصمة عن هذا التضامن بقوله:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
فلما عصوني كنت منهم وقد أري غوايتهم في أنني غير مهتد

وعبر عنها آخر بقوله:

لايسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

ب ـ **النجدة والقوة وشدة البأس:**

فاذا عرفت القبائل الأخرى أن افراد القبيلة متضامنون متناصرون، أشداء في الحروب، أهل نجدة وقوة وبأس، لاينامون على وتر . . . هابتها، وتجنبت الاحتكاك بها، والاعتداء على أبنائها، وهم يتنقلون في البوادي والقفار، لأنها لاتريدان تعرض نفسها لانتقامها.

ح ـ طلب الثأر من الواترين

بما أنه لم يكن في الجزيرة العربية سلطة مركزية تفرض سلطانها، وتستطيع تطبيق القانون على الجميع لذلك لم تكن هناك وسيلة لرد العدوان، والاقتصاص من المجرمين، واجبار المعتدين على التفكير في الكف عن عدوانهم، إلا شعورهم بأن القبيلة المعتدى على أبنائها لن تسكت على ما يلحق بها وبأبنائها من أذى واعتداء، لذلك كان طلب الثار نتيجة طبيعية لانعدام سلطة القانون.

د ـ التمسك بأخلاق الكرام

والالتصاق بالقبيلة يفرض على أبنائها التخلق بأخلاق الكرام الفاضلة، في مسلكهم، وتصرفاتهم، لكي يرتفع قدر القبيلة في أعين القبائل الأخرى، وليفرضوا احترامها على الناس جميعاً، وليسير ذكرها بين القبائل بالسمعة الطيبة.

ومن هذه الاخلاق الفاضلة التي فرض العرب على أنفسهم الأخذ بها:

ـ الكرم وقرى الأضياف المجتازين، وتقديم مايحتاجون إليه من طعام وشراب ومأوى جوداً وكرماً وسماحة. وكان من أقبح القبح عند العرب أن يباع الطعام للأضياف بيعاً. وكان ذلك يعتبر سبة عار تلحق بالفاعل وعشيرته.

ـ الصدق وقول كلمة الحق

ـ الأمانة والوفاء بالعهد

ـ حماية المستجير وإغاثة الملهوف وتأمين الخائف العائذ.

ـ التصون والتعفف عن العبث بالأعراض، وخصوصاً أعراض من ينزلون في جوار القبيلة .

ـ العدل في الحكم بين أفراد القبيلة جميعاً، فالظلم شيء فظيع لاتحتمله نفس العربي .

ـ المساواة في المعاملة بين أفراد القبيلة جميعاً، لأنهم ينتسبون الى أب واحد ولأن المغارم والأعباء تفرض على الجميع دون استثناء كل قدر طاقته، وقد يحتمل منها الفقير أكثر مما يحتمل منها الغني القوي . إذ كان كل فرد من أفراد القبيلة عرضة للثأر منه عما وقع من أحد أفراد القبيلة من اعتداء على الاخرين . وبما أن القبيلة محتاجة لكل ساعد في الدفاع عنها فكان لابد من أن يشعر الجميع بالعدل والمساواة ليسارعوا الى بذل نفوسهم وأموالهم طائعين راضين في الدفاع عن مصالح القبيلة .

أثر الاسلام في بعث العرب

جاء الإسلام فوحّد العربَ، وآخى بينهم، وجعل لهم سلطة عليا تفرض سلطانها على الجميع، وتطبق شرعة الإسلام، عليهم دون استثناء، بالعدل والمساواة، وبروح من المحبة والإخاء والتسامح .

ونسّق الإسلام بين الطاقات القتالية العربية، ووجهها لنشر الإسلام، بدلاً من استهلاكها في قتال الإخوة وأبناء العمومة، فيما لا فائدة منه في دين ولا دنيا، وأعطى الإسلام بتعاليمه الصارمة مفاهيم جديدة للعصبية القبلية، فجعل التعصب للقبيلة يعني كف ابن القبيلة الظالم عن ظلمه، وردعه عن التجاوز والتطاول على الآخرين، وبذلك تنصر القبيلة ابنها على نفسه الظالمة .

وقضى الإسلام على فكرة طلب الثأر، وعهد بالاقتصاص إلى سلطة الدولة، فلم يعد الانسان بحاجة إلى أن يباشر بنفسه طلب ثأره، والاقتصاص ممن اعتدى عليه .

﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾
(سورة الإسراء الاية ٣٣)

وقرر الإسلام فردية العقاب فلم يعد جائزا للإنسان أن يطلب إيقاع العقاب بغير الجاني﴿ولاتزر وازرة وزر أخرى﴾ (النجم ـ ٣٨)

وحث الإسلام على العفو، ورغب فيه كثيراً، وجعله من أقرب القربات عند الله تعالى، وذلك للتخفيف من آثار أخطاء القضاء، ولنشر المحبة والإخاء والتسامح

بين المسلمين، ولاستلال الأحقاد من النفوس، فمن عفا بطوعه عن قاتل ابنه، لايفكر بالثأر منه، ولا بالاعتداء عليه. ومن عفي عنه من قبل ولي الدم لابد له من أن يعترف بجميل من عفا عنه، وأنقذ حياته طائعاً مختاراً، وهكذا يشعر الاثنان بالقرب والود بدلا من الأحقاد والضغائن والرغبة في الانتقام.

وفرض الاسلام إخاء إسلامياً عاماً يتجاوز إخاء القبيلة وعصبيتها، وضرورات الدفاع عنها، وضرورات حمايتها وحماية أبنائها، فاصبح المسلم أخاً مخلصاً للمسلم أينما كانت أرضه، وأيا ماكان قومه ولونه وجنسه.

وحرم الإسلام قتل النفس إلا بحقها، واعتبر إزهاق الأرواح الإنسانية بغير حق من أكبر الكبائر عند الله، يستوي في ذلك الحاكم والمحكوم.

﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾.

(المائدة - ٣٢)

﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً أليماً﴾ (النساء - ٩٣)

والزم الإسلام المسلمين بالأخذ بمكارم الأخلاق في السر والعلن، واعتبر التحلي بالأخلاق الفاضلة من صفات المؤمن الحق، فلا يمكن أن يكون المؤمن مؤمناً حقاً إذا غش أو كذب أو انتهك الأعراض، وأخاف السابلة، وغدر واعتدى على خلق الله، أو أخذ الأموال بغير حقها، وأكل الربا وأكل المال الحرام، وبخس الناس حقوقهم، وطفف في المكيال والميزان، وخان الأمانة، وجانب العدل في حكمه بين الناس، وحابى القريب على حساب البعيد، وكتم الشهادة وقصر في غوث الملهوف، ونجدة المضطر. . . . الخ

وفرض الإسلام على المسلمين مجاهدة أعداء الإسلام، والاسراع الى الانضمام الى كتائب المجاهدين لنشر دين الله واعلاء كلمته. أولدفع الاذى والاعتداء على إخوته المسلمين أينما كانوا، وفي أي صقع أقاموا -

﴿انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ (التوبة ٤١)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من مات ولم يغزمات على شعبة من النفاق).

وفرض الاسلام المساواة بين المسلمين في الحقوق والواجبات، وأوجب تطبيق شرعة الاسلام على المسلمين جميعاً دون تمييز. واعتبر الخروج عن تطبيق هذه

القاعدة خروجاً عن مبادىء الاسلام. ﴿ومن يحكم بغير ماأنزل الله فاولئك هم الفاسقون﴾ .

وقد أراد رسول الله ﷺ تطبيق حد السرقة على امرأة من بني مخزوم سرقت، فكلمه فيها بعض المسلمين فغضب الرسول الكريم غضبا شديداً وقال: (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها).

وقد لعن الله تعالى اليهود في أكثر من موضع في القرآن لتحريفهم التوراة، وتعطيلهم أحكامها، وتطبيقها في بعض الظروف، واهمال تطبيقها في ظروف أخرى، مع أنهم أمروا بتطبيقها وإقامة أحكامها في كل حين، فقال تعالى:

﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئسما كانوا يفعلون﴾(المائدة - ٧٨)

وفرض الاسلام وحدة الأمة، ووحدة الكلمة في الأمة، وحرم الفرقة والانشقاق والتدابر والتنافر، والخروج عن الجماعة، لتحتفظ دولة الاسلام بقوتها، وفعاليتها وقدرتها على صيانة أمنها وتطبيق شرع الله.

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾(آل عمران ١٠٣)

وفرض الله على المؤمنين طاعة الحاكم المؤمن مادام يقيم شرع الله، ولم يطغ على الجماعة، ولم يعتد عليها، ولم يتجاوز حدود ما شرع الله: بهدر دم بريء أو هتك عرض مصون، أو استباحة مال بغير وجه حق، أو اساءة تصرف في مال المسلمين، مما جعله الله أميناً عليه بحكم مركزه.

وفرض الله تضامناً بين المسلمين في أي قطر كانوا، وفي أي مكان أقاموا فليس من المسلمين من يقف موقف المتفرج إذا وقع اعتداء على إخوانه المسلمين يهدد كيانهم وأمنهم وحريتهم وأعراضهم ودينهم. وليس من المسلمين من يرى حرمات الله تُنتهك وتداس في أي قطر مسلم وهو لا يهتم بذلك، ولا يبالي به، ولا يتحرك لنصرة المسلمين، ورد الأذى عنهم.

وتنفيذاً لفريضة التضامن الإسلامي فقد كانت قوافل المجاهدين تنتقل من حدود الصين وأواسط آسيا الىٰ سوريا لعون سيف الدولة بن حمدان في حروبه مع الروم، ثم لعون الحكام المسلمين بعد ذلك في مجاهدتهم للصليبيين. وكانت قوافل المجاهدين تتدفق من الشمال الأفريقي على الأندلس عبر قرون طويلة لعون

المسلمين في دفع أخطار الاسبان ومن والاهم من أمم الغرب .

وأكثر ما اهتم به الاسلام هوتربية الفرد المسلم، وترسيخ فكرة الإيمان في نفسه، حتى تصل به الى درجة الاستسلام المطلق لله تعالى، والرضى بجميع ما فرضه الله عليه، وما قدره له، وما قسمه له من رزق ومال وولد ومصير ـ . . ومتى تمكن الإيمان من النفس استطاعت تحمل جميع المصاعب والمصائب، والقيام بجميع الواجبات المفروضة عليها برضا تام .

وحينما يتمكن الإيمان من النفس يصبح لها رقيب على تصرفاتها من ذاتها يراقبها في السر والعلن، فتنصلح الأعمال، وتتهذب النفوس، وتتحمل التضحيات برضا وخضوع :

لاتقلع الأنفس عن غيها مالم يكن منها لها رادع

وقال تعالى :

﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وأولئك هم الصادقون﴾ (الحجرات ـ ١٢) .

وفرض الإسلام على المسلمين السهر على أمن الجماعة ومصلحتها . والقيام بمحاربة الفساد والمفسدين، وعدم السكوت على ما يرونه من منكر في المجتمع يحدثه بعض المفسدين، وضعاف الذمم، وعدم السكوت على ما يرونه من تجاوز على حدود الله وشرعه :

﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (التوبة ـ ٧٠) .

وتنفيذاً لهذا المبدأ الهام أوجد المسلمون في دولتهم نظام الحسبة للسهر على حسن تطبيق شرع الله، ومحاربة الفساد والمفسدين .

ومما يتفرع عن مبدأ السهر على أمن الجماعة، ومصلحة المجتمع، واجبات فرض الله على المسلمين القيام بها ومنها :

ـ واجب المسلم في اداء الشهادة على الوجه الصحيح الأكمل، دون تبديل ولاتحريف، ودون خوف ولاخشية من قوي، أوذي سلطان، ودون مراعاة ولامحاباة لضعيف أو قريب أو صديق . ﴿ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه﴾ (البقرة ٢٨٣) لان الحقوق لاتصان، والقانون لايقوم، والمجتمع لايصفو، إلا إذا قام كل واحد بواجبه في عون السلطة الحاكمة المؤمنة . فإذا ضعف الناس عن قول كلمة

الحق، ونكلوا عن أداء الشهادة، استطال أهل الباطل، وتمادوا في غيهم، وأخافوا العباد، وعكروا صفو المجتمع. والسلطة الحاكمة لاتستطيع أن تؤدي واجبها في حماية المجتمع، ومكافحة الفساد إذا لم يقم كل واحد بواجبه في كشف الحقائق، والادلاء بالمعلومات التي يعرفها عن تصرفات المفسدين، وتجاوزاتهم على القانون، لتستطيع السلطة تطبيق القانون، وفرض الحدود على المجرمين.

- ومما يتفرع عن مبدأ السهر على أمن الجماعة، ومصلحة المجتمع المسلم، وجوب اتصاف كل فرد فيه بالجرأة في قول كلمة الحق. لايخاف في ذلك لومة لائم، ولا يرهب بطش جبارعات متكبر. ولايخاف اعتداء معتد ممن يتضررون من قول كلمة الحق، ولو على نفسه، أو على قريبه، لايهمه من يتضرر منها، ومن ينتفع. وكل الذي يهمه هو أن الحق يجب أن يقال ويُعرف، وهو يعرفه وسيقوله جهاراً:

﴿ يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الأقربين﴾ (النساء ١٣٥).

﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيله ولايخافون لومة لائم﴾ (المائدة ٥٤).

ومتى أمر الناس بالمعروف، ونهوا عن المنكر في المجتمع، وسارعوا إلى أداء الشهادة، واتصفوا بالجرأة في قول كلمة الحق، صحت بنية المجتمع، وانصلح الحاكم والمحكوم، وقضي على الفساد والمفسدين، وساد الوئام والإخاء بين أبنائه، واطمأنت النفوس، وانصرف الجميع إلى العمل المثمر، وإلى التعاون على إعلاء شأن المجتمع الإسلامي، وبذلك يعود المجتمع الإسلامي ليكون المجتمع الأمثل بين المجتمعات الإنسانية، ويعود البعيدون عن الإسلام إلى التطلّع إلى الدخول فيه لثقتهم بأن المجتمع الصالح، دليل على سيادة المبادىء الصالحة فيه.

- ومما يتفرع عن مبدأ وجوب السهر على أمن الجماعة ومصلحتها، وجوب اتصاف الفرد المسلم بالشجاعة في مقارعة الظلم والطغيان الذي ينزل بالأمة، والشجاعة في محاربة أعداء الإسلام، ومن يريدون به شراً.

وتأتي شجاعة المؤمن من إيمانه إيماناً مطلقاً بأن لكل نفس أجلاً لاتتقدم عنه ولاتتاخر، وأن لكل أجل كتابا لابد لها من استيفائه، وأن كل مايصيب الفرد مقدّر مكتوب لامهرب منه، ثم تأتي شجاعة المؤمن من يقينه بأن ما وعد الله به الشهداء في

سبيله من أنـه سيجـزيهم بنعيم مقيم، وكـرامة دائمة في دار خلده، . . هو وعد حق، وأن الله لايخلف وعده أبداً.

كما تتأتى الشجـاعـة من إيمان المؤمن بأن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال هو أقرب القربات عند الله، وأنه ما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله.

﴿قل فادرؤ وا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين﴾(آل عمران ١٦٨). .

﴿وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾(آل عمران ١٤٥)

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا انفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ (الحديد ٢٢).

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾(آل عمران ١٦٩).

ـ ومما يتفرع أيضاً عن واجب السهر على أمن الجماعة، وسلامة المجتمع المسلم واجب اتصـاف المؤمن بالعـزة والإباء، وعدم السكوت على الضيم. وقد وصف الله تعالى المؤمنـين بأنهم أعـزة لاينـامـون على ضيم، ولايسكتـون على مهـانـة، وافتئـات، وطغيـان، وأنهم يثـورون في وجـه الظلم والاعتـداء من أية جهة جاء، الى أن يعيدوا الامور الى نصابها، وتسود العدالة وشرع الله في مجتمعهم:

﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾(الشورى ٣٩).

المجتمع الاندلسي

كان المجتمع الاندلسي يتألف في أواخر أيام دولة بني عامر من:

ـ انسـال عرب الفتـح، ومن أتـوا بعـدهم من العـرب، وهم ينتسبون في أصولهم الى قبائل عربية متعددة منها من أهل اليمن، ومنها من أهل نجد والحجاز.

ـ من البلديين، وهـم أنسال الاسبان الذين دخلوا في الاسلام، وكانوا يؤلفون الكثرة العددية في الاندلس.

ـ من أنسال البر بر الذين دخلوا مع جيوش الفتح الاسلامي، واستقروا في الاندلس، ومن البر بر الذين وفدوا على الاندلس بعد ذلك لأداء فريضة الجهاد واستقروا فيها، وقد وفدت أعداد كبيرة من البر بر أيام المنصور بن أبي عامر ضمهم الى جيشه ليوجد توازنـاً في الجيش بين نفـوذ العـرب، ونفـوذ غيرهم، وذلك ليتحرر من نفوذ الزعامات العربية، وسلطانها، في الجيش والدولة.

ـ من الأرقـاء والسبـايـا من إسبـان وفـرنجـة وغـيرهم، وكثير منهم دخلوا في الإسلام

وأصبحوا أحراراً.
- من الإسبان الذين أقاموا على دينهم في ظل الحكم العربي، ويعرفون باسم (المستعربين) وقد تعلم كثير من هؤلاء اللغة العربية، وعاشوا مع المسلمين. وكان لهم نوع من الحكم الذاتي في أمورهم الداخلية.

وكانت هناك قلة من اليهود وجدهم المسلمون مستذلين مستعبدين في الجزيرة من قبل الحكام القوط فحرروهم، وأعادوا إليهم كرامة الإنسان. فكانوا عوناً للمسلمين في بادىء الأمر.

ويمكننا أن نميز بين الذين دخلوا في الاسلام بين ثلاث فئات منهم:

- فئات دخلت في الاسلام عن عقيدة وإخلاص وصدق إيمان، وقد حسن إسلامهم بعد أن تفقهوا في الدين، ووقفوا على حقائق الاسلام ومبادئه، واصبحوا قوة للإسلام في الجزيرة.

- فئات دخلت في الإسلام عن إخلاص وحسن نية، ولكنهم لم يتح لهم التفقه في الدين، والتعمّق في معرفة حقائقه وأحكامه، ولم يطلعوا على مبادئه وروحه اطلاعاً كافياً، ولم يعرفوا من الإسلام إلّا قشرته الخارجية ومظاهره، فكان من السهل على من أراد الفتن، والكيد للإسلام، أن يؤثر عليهم، أوعلى بعضهم، وأن يتلاعب بعواطفهم، ويحملهم على الإقدام على تصرفات تسيء إلى الإسلام ودولته، وتضر بها ضرراً بالغاً، دون أن يدركوا مخاطر مايفعلون، وهؤلاء هم العامة.

- فئات دخلت في الإسلام بأفواهها ولم تؤمن قلوبها، وكانوا يرمون من وراء دخولهم في الإسلام الى تأمين الحماية لأنفسهم في المجتمع الإسلامي ليتمكنوا من العمل بحرية في تقويض دولة الإسلام، وزرع البلبلة والشقاق في أوساط المسلمين.

وكان هؤلاء المتظاهرون بالإسلام يؤلفون مع المستعربين (النصارى الذين أقاموا على دينهم في المجتمع المسلم) الحزب النشيط الفعال في خدمة الأمارات النصرانية في الشمال، وكانوا عيونها الساهرة في الوسط المسلم. وكانوا معول الهدم الفعال الذي يعمل على تقويض أركان دولة الاندلس. وكثيراً ما جاهروا بعدائهم الصريح للإسلام والمسلمين، وأثاروا الفتن والقلاقل، وشاركوا فيها.

لقد كان العربي منذ القديم ينفر بطبيعته من العمل في الأرض، كما كان ينفر بطبعه من العمل في الصناعات اليدوية، لأن كلا العملين يجعله ملتزماً بالارتباط

بالعمل الذي يمارسه، وهذا قد يؤدي به الى الخضوع لمتسلط يتغلب على الأرض التي يقيم فيها، ويحرمه الحرية التي يتعشقها، لذلك كان العرب يفضلون صنعة الحرب التي تناسب أمزجتهم، والتي تمرسوا فيها منذ أجيال بعيدة، واتقنوها وبرعوا فيها.

والفتح الاسلامي قام أساساً على اكتاف العرب، والدولة كانت دولة العرب. ولذلك كان العرب يؤلفون الاطار القيادي الفعال في الجيوش الإسلامية في الأندلس. ثم إن العرب كانوا ينتمون إلى قبائل، وكانت هذه القبائل تحافظ على الروابط القبلية بين أفرادها، وكانت لهذه القبائل زعامات تعرف أين يقيم أبناؤها، لذلك كان من السهل على الزعامات العربية أن تجمع المقاتلين في أسرع وقت. ويمكن أن نشبه التنظيم القبلي الدقيق، في حسن أداء المهمات في تلك الأيام، بالتنظيم الحزبي المتطور في أيامنا هذه، فما تقرره القيادات يصل الى القواعد فتنفذه بدقة، وكان كل ذلك يجعل من العرب القوة الضاربة المتماسكة في الجيوش الأندلسية.

وكان الأمراء الأمويون مثالاً للحكم العربي الواعي المتسامح، وكانوا يجمعون الى سعة الأفق رحابة الصدر، والميل الى الانصياع الى الحق. وكان الفقهاء المسلمون أصحاب المقام الأول في الدولة والمجتمع، لأنهم كانوا المكلفين بالسهر على حسن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بين الناس.

وكان البربر ينتمون أيضاً الى قبائل، وكانت لهم تنظيمات قبلية يرتبطون بها، ولكنهم كانوا أقل أثراً من العرب في الحياة العامة، لأنهم كانوا لايستكبرون عن العمل في الزراعة والصناعات مما أفقدهم القدرة على سرعة الحركة والاستجابة للزعامات القبلية بالسرعة اللازمة في الأزمات.

وفي أيام دولة بني عامر كان قد مضى على دخول الإسلام في الأندلس أكثر من ثلاثة قرون ونصف، وكانت مبادىء الاسلام قد ترسخت في النفوس بسبب انتشار الوعي والثقافة والعلوم، فأصبحت الكثرة تفهم مبادىء الإسلام وروحه فهما صحيحاً، وتعرف ما يفرضه الإسلام عليها من واجبات نحو ربها ونحو مجتمعها، ونحو حكامها. وقد أقام الشعب تعاوناً وثيقاً مع جهاز الحكم في الدولة لحماية المجتمع من الفساد والانحراف، فكان في الاندلس نظام حسبة نشيط وفعال عملاً بقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾.

وقد اعطى شعور الفرد بمسؤوليته، وتعاونه المخلص مع اخوانه في المجتمع

ومع اجهزة الحكم المكلفة بالسهر على أمن المجتمع وسلامته وطهارته، وعلى تطبيق شرع الله... أفضل النتائج، فأصبح المجتمع كله وكأنه بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، تسود النظافة باطنه، والمتانة خارجة.

وكان الحكام مؤمنين مخلصين في إيمانهم، وكانوا يدركون أن عز العرب، وعز دولتهم، إنما قاما على الأخذ بمبادىء الإسلام، وأن الحماسة الدينية هي سياج الدولة، وحصنها، وعدتها في النائبات ومصدر أمنها، لذلك كانوا هم قدوة صالحة لشعبهم، وكانوا لاتفتر لهم همة في مجاهدة أعدائهم الفرنج والاسبان في الشمال. وكانوا لايقصرون في العمل على تحريض المسلمين على الجهاد، ولا في شحذ هممهم، واستنهاض عزائمهم للقيام بواجبهم. ولذلك كانت السرايا تتقاطر عليهم من كل بقعة من بقاع الأندلس حينما كانوا يطلقون صيحة الجهاد، ملبية النداء، طامعة بالفوز برضوان الله، وعظيم ثوابه.

وبما أن الحرب تكاد تكون متصلة بين المسلمين والاسبان وحلفائهم الفرنج فقد كانت الأندلس كلها ثكنة عسكرية تعج بالمقاتلين الأشداء الواقفين دائماً على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد، وكان كل مسلم قادر مقاتلاً مدرباً متقناً فنون الحرب، شجاعاً باسلاً شغوفاً بالجهاد، يسرع الى الميدان وهو يتمنى أن يكرمه الله بالشهادة في سبيله ليفوز بأجر الشهداء.

ولذلك لم يكن هناك تناقض ولاتضارب في الغايات والمصالح بين الشعب وبين الحكام، فالحاكم يريد الشعب قوياً مدرباً ممتلئاً حماسةً ورغبة في الموت في سبيل الله، ورفعة دولة الإسلام، ليستطيع أن يخوض بهم الصراع مع الأعداء مطمئناً الى النصر. والشعب يريد حاكماً مؤمناً مخلصاً يقوده بوعي وكفاءة الى مجاهدة أعدائه، دفاعاً عن دين الله، وسلامة دولة الإسلام، وتحقيقاً لما أمر الله به المؤمنين من مجاهدة مجاور المسلمين من الأمم التي لاتدين بالإسلام، وهي تتربص بالإسلام وأهله الدوائر: ﴿ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾ (التوبة ١٢٣).

وكان كل نصر تحققه دولة الاندلس يزيد الناس ثقة بدينهم، وبأنفسهم، وبحكامهم، ويصدق ما وعدهم الله به من نصر وعز إذا هم أخلصوا الجهاد والتعاون والنصح لله، ولولي الأمر.

وقد أدى هذا التلاحم القوي بين الشعب والحاكم الى ازدهار الأندلس،

ورفعتها وعزها، وتقدمها الحضاري، والى قوتها ومنعتها، والى توالي انتصاراتها على اعـدائهـا الاسبان والفرنج. فعاشت الاندلس قروناً قريرة العيْن، ناعمة البال، تسير جيوشها من نصر الى نصر.

ولـذلـك كانت الروابط بين أبناء المجتمع قوية،والإخاء سائداً، واليقظة كبيرة فكـان من الصعب على أعـداء الاسـلام في الداخل، أن يميطوا اللثام عن وجوههم اللئيمـة، وأن يجدوا منفـذاً أو ثغـرة ينفذون منها الى ما يريدون الوصول إليه. وكانت انتصـارات المسلمـين المتتـاليـة، وهـزائم أعـدائهم المتكررة، تضعف من أثر الأعداء الـداخليـين وفعـاليتهم، كما كانت تزيـد المجتمـع الاسـلامي تماسكـاً وصفـاء ونقاء وطهارة، لأن الجهاد ينقي النفوس من أدرانها، ويجعلها تحتقر الدنيا وعروضها الزائلة، ويبعـدهـا عن الـدنـايـا والسفـاسف. والتناحر على عروض الدنيا الزائلة، هو الذي يؤدي الى الاختلاف والتخاصم والاقتتال بين الناس.

بدء الانهيار:

ولكن التنـاقض بدأ يظهـر بين الحاكم والمحكوم في الأندلس حينما عدا المنصور ابن أبي عامر على مقام الخلافة، محاولاً اغتصاب السلطة الشرعية من أصحابها. وقد أثر هذا التناقض على وحدة الشعب، وتماسكه، فيما بعد، وظهرت الانقسامات جلية واضحة اثناء الصراع بين المنصور بن أبي عامر، وبين منافسيه على السلطة.

ثم تطـور الصـراع والشقـاق كثـيراً حينـما تفرد المنصور بالسلطة، وأخذ يبطش بخصومه بطشاً شديداً أخرس الألسنة، ولكنه أشعل النفوس بنيران الحقد والكراهية والـرغبـة في الانتقـام. وسكت النـاس على مضض وضغن، ما دامت دولـة بني عامر قوية، على رأسها رجال أكفياء كالمنصور وابنه عبد الملك. ولكن سكوت الناس نقل الصراع من العلانية الى الخفاء، فكانت المكائد والمؤامرت لقلب حكم بني عامر تدبر في الخفـاء، وفي سريـة متناهية لكيلا يتعرض المتآمرون للبطش والانتقام. ولكن حينما تهلهـل حكم بني عامـر بمجيء عبـد الـرحمن بن المنصـور، وكـان غراً مغـروراً، فقد احترام الجند لسوء تصرفه، فاشتدت عزائم المعارضين، وقويت آمالهم بالخلاص من هذا الحكم المغتصب، وما هي إلا أيام قلائل حتى سنحت الفرصة المواتية، فضرب المتآمرون الحاقدون ضربتهم الموفقة، وقضوا على بني عامر وحكمهم ومؤيديهم.

كان المنصـور بن أبي عامـر رجـلاً من أوسـاط الناس، ليس من بيت عز وأمارة وزعامة، وكان ينتسب إلى معافر، وهي فخذ من إحدى قبائل اليمن، ولم يكن لمعافر

نفوذ وأثر كبير في الحياة العامة في الأندلس، ولكن المنصور كان ذكياً نشيطاً، تقرب من جعفر المصحفي وزير الخليفة المستنصر، وعن طريقه أصبح مربياً لابن الخليفة، ولي العهد هشام المؤيد، ثم تعرف على الخليفة. وادرك المنصور بذكائه، وبالغ فطنته، أثر زوجة الخليفة صبح ـ أم تلميذه هشام ـ على الخليفة، فأخذ يتقرب إليها، ويظهر الاخلاص لها، وأدرك أنه إذا أراد أن يصل يوماً الى شيء يريده فعليه أن يكسب ودها وثقتها، وثقة جواريها ووصيفاتها، وقد نجح في ذلك حتى لفت تصرفه نظر الخليفة المستنصر.

وحينما توفي الخليفة المستنصر تعاون المنصور مع استاذه جعفر المصحفي تعاوناً وثيقاً للقضاء على خطة الخصيان الطامعين في إقصاء ابن الخليفة الطفل عن ولاية العهد، والعهد بالخلافة الى أحد أخوة الخليفة المستنصر، حتى أنه قام بنفسه بخنق المغيرة المرشح من قبل الخصيان لتولي الخلافة.

وبعد أن نجحت خطة المصحفي وابن أبي عامر في إعادة الخلافة الى ولي العهد الشرعي، افترق طريقاهما، وأخذ كل منهما يسعى للتمكين لنفسه. ومع بداية الصراع بين الرجلين بدأ الانشقاق يظهر في المجتمع الأندلسي، ثم أخذ في التعمق مع تطور مراحل الصراع بين الطامعين في التفرد بالسلطة: المصحفي وابن أبي عامر.

وكان هذا الصراع هو الفرصة الذهبية للمغامرين والانتهازيين وأهل الفساد، ولأعداء العرب والإسلام من مستعربين ومن والاهم من مسلمين مرائين، ومن انتهازيين ومغامرين.... فأخذوا يعملون جهاراً، وينحازون الى هذا الفريق أو ذاك من المتنافسين على الزعامة، حسبما تنتهي بهم تقديراتهم اليه من امكان نجاح هذا أو ذاك.

وكان المتنافسان مضطرين الى الاسراف في إغداق الوعود للأنصار والمؤيدين، والتلويح لهم بالمغانم التي سيجنونها إن تحقق الفوز لأحدهما، ليضمنا التأييد في هذا الصراع المصيري بالنسبة إليهما. وهكذا بدأت الانشقاقات تتسرب الى جسم الدولة، وانتقل الصراع من القمة الى أوساط الشعب، فانقسمت القاعدة التي كانت وحدتها درع الأمن والسلامة في الأندلس لدولة الاسلام أمداً طويلاً، وبدأ التنافر يظهر في المجتمع، ويحل محل الاخاء والوحدة والتضامن التي فرضها الله على المسلمين.

ونجح ابن أبي عامر في نهاية المطاف في التغلب على خصمه، وتسلم السلطة،

ثم تفرد بالزعامة دون الزعامات التقليدية، من عربية وأندلسية وبربرية، فأخذ المنصور يتوجس خيفة من هذه الزعامات، ويستشعر منها الحذر لما يعرفه عن حقيقة نفوذها في أوساط الشعب والجيش، فأخذ يعمل على إضعاف نفوذها، وتتبُّع هذا النفوذ للقضاء عليه واجتثاثه، خوفاً من أن تجتمع يوماً عليه، وتقضي على حكمه.
وقد أدى به خوفه هذا الى التفكير في استقدام كثير من متطوعة البربر من شمالي أفريقيا ليضمهم الى الجيش ليضمن ولاءهم، ويبعدهم عن التأثر بنفوذ الزعامات الاندلسية المحلية. ثم أدرك المنصور بعد حين أن الزعامات لابد لها من أن تظهر في أوساط الجيش والدولة من جديد، وأن كل ما فعله أنه استبدل زعامات قديمة، بزعامات جديدة، ستظهر حتماً بين المتطوعة الذين استقدمهم من المغرب، إذ كان البربر القادمون للعمل في جيش المنصور هم أيضاً ينتسبون الى قبائل معروفة، ولها زعامات، وقد جاؤ وا تحت قيادات هذه الزعامات. ولاشك في أن هذه الزعامات ستشعر باهميتها عما قريب، بعد أن تقف على حقيقة حال المنصور، وانعزاله عن الشعب. لذلك أخذ المنصور يشك في ولاء بعض هذه الزعامات القادمة اليه، ويخشى من تعاظم نفوذها، حتى اضطره الخوف الى اغتيال أحد قادة البربر، حينما شك في أنه بدأ يستشعر القوة والأهمية في دولة المنصور.

وقد أدى خوف المنصور من ظهور زعامات إسلامية جديدة في الجيش والدولة إلى التفكير في إدخال متطوعة من النصارى - الإسبان والفرنج - في الجيش ليوازن بوجودهم في الجيش نفوذ العرب والبربر والأندلسيين، وليجعل من يفكرون في التآمر عليه يتشككون في إمكان نجاح خططهم بسبب وجود قوات أخرى لدى المنصور لايستطيعون التأثير عليها، وجرّها إلى خططهم. وقد نفّذ المنصور فعلاً مافكر فيه.
وقد ظنّ المنصور أن سيطرته على القوة العسكرية في البلاد يمكن أن تغنيه عن ولاء الشعب، وثقته، ورضاه الطوعي بحكمه، فأخذ يتتبع الخصوم والمناوئين، ويبطش بهم بغير رحمة ولا شفقة، حتى إن ابنه لم ينج من بطشه حينما شك في أنه يتآمر عليه مع خصومه.

وهكذا كان المنصور كلما أوغل خطوة في طريق البطش والإجرام، زادت مخاوفه وهواجسه وشكوكه فيمن حوله، حتى صار يشك في أقرب المقربين إليه إذ كان يتراءى له غدره بمن وثقوا به، ورفعوا من قدره وشأنه (الخليفة وأمه وجعفر المصحفي والقائد غالب قائد قوى الحدود الشمالية) فيظن أن المقربين منه لابد وأن يغدروا به، فيزداد

طغياياً وإمعاناً في الإجرام .

ولما شعر المنصور بالكره الذي قوبل به حكمه في أوساط الشعب ـ وخاصة في الأوساط المؤمنة ـ لاعتدائه على مقام الخلافة ـ رمز الشرعية الدستورية ـ وسلبها صلاحياتها وسلطتها، وحجره على الخليفة، ولتسببه في انقسام الأمة إلى شيع وأحزاب وطوائف، بعد أن كانت وحدة متماسكة قوية، أراد أن يصرف الأنظار عن فعلته، وأن يلهي الناس بحديث الجهاد، فاخذ يستعد استعداداً كبيراً للقيام بغزو الاسبان في الشمال بالصوائف والشواتي، وقد حقق عليهم انتصارات ضخمة. ولكن الدوافع لجهاد المنصور لم تكن كلها خالصة لوجه الله تعالى، وإنما كان جانب كبير منها يستر رغبته في إلهاء الناس بحديث الجهاد والفتح والانتصارات والمغانم التي تعود بها جيوش الفتح، لعلهم ينسون مع مرور الأيام، وتكرر الانتصارات، غدره بولي نعمته الخليفة، وتسلطه على مقام الخلافة، وحرمانه الخليفة من ممارسة حقوقه وصلاحيات الحكم.

والمنصور لايستطيع أن يدعي أنه إنما قام باغتصاب السلطة غضباً لما رآه من انتهاك محارم الله، ومخالفة شرعه، وشعوراً منه بتقصير الخلافة في أداء ما فرض الله على ولي الامر من القيام بواجب الجهاد. فالخلافة كانت تطبق شرع الله بأمانة واخلاص وفقهاء المسلمين كانوا حراساً أوفياء على وفاء السلطة بالتزاماتها الشرعية، والخلافة الأموية في الأندلس لم تقصر يوماً في القيام بفريضة الجهاد لمن يلون أرض الإسلام في الأندلس من غير المسلمين، وكان جهاد الخلافة الأموية مؤثراً في الأعداء، والخليفة الناصر أمضى قرابة الخمسين سنة في الحكم لم يمر عام منها تقريباً دون أن يقوم بغزو الاسبان بالصوائف والشواتي، وكان يقود الجيوش المجاهدة بنفسه في الغالب من الحالات، ولم يترك للاسبان راحة، حتى أفقدهم الأمل في النصر، فاضطروا الى الخضوع له، والى الاعتراف بتفوق دولة الاسلام عليهم، وكذلك فعل ابنه الحكم المستنصر.

وكان المسلمون في الأندلس يؤيدون في غالبيتهم العظمى مقام الخلافة، ويتعلقون به بإخلاص، فكانت دولة الإسلام في الأندلس بناء قوياً متيناً متراصاً محكم الجوانب، موطد الأركان، وكان الجميع يشعرون بأن الدولة هي دولتهم جميعاً لاتختص بها فئة، ولاتمتاز فيها جماعة، وشرع الله يطبق على الجميع دون استثناء، لذلك كان الناس جميعاً يبذلون المهج والأرواح، والأبناء والأموال، في سبيل الحفاظ على كرامة الدولة وسلامتها وأمنها، وبقاء وحدتها وتماسكها في ظل الخلافة. ويجدون في عملهم هذا وسيلة قربى إلى الله تعالى. وحينما قام المنصور باغتصاب السلطة

انفضّ أهـل التقى والصـلاح من حول الحكم، لأنهم رأوا في عمله هذا اعتـداء على مقـام الخـلافـة المقـدس، وتجـاوزاً على حقّهـا، ومخالفة لشرع الله الذي أمر المؤمنين بالسمـع والطـاعـة لولاة الأمور من المسلمين الأخيار. وكان هؤلاء الذين انفضوا من حول حكم المنصـور هم أهـل الإيـمان، والنجدة، والقوة، والبأس، والاندفاع للذود عن حياض الوطن في ساعة الشدة.

ثم أخـذت تنفض عنـه جماعـات أخـرى، نتيجـة لبطش المنصور، وقسوته في التعـامـل مع خصومه. وعلى هذا فلم يبق حول حكم المنصور إلاّ فئة من المغامرين، والانتهـازيين، والرعاع، وأصحاب المصالح، الذين يتطلعون الى تأمين مصالحهم. ويضـاف الى هؤلاء المغامرين والانتهازيين جماعات من الاعداء المتسترين بالإسلام ليتمكنـوا من تأديـة مهمتهم التخـريبيـة، فقـد كانـوا يعملون على تعميق الخلافات والانشقاقات في المجتمع الاسلامي، وإحداث هوة عميقة بين الحكم وبين الشعب.

وقبـل المنصـور مضطـراً بهؤلاء المؤيـدين، وهو يعلم أنهم لايغنون عنه شيئا في ساعـة الشـدة، وقد ثبت ذلك فيما بعد حينما اندلعت الفتنة في عهد ابنه عبد الرحمن: فاضطر الى العودة بالجيش من الغزاة، وحينما علم الجند، الذين كانوا معه، بما وقع في قرطبة من ثورة، أخذوا في التسلل عائدين الى بيوتهم، وانفضّوا من حوله شيئاً فشيئاً، حتى إنه لم يبق معه إلا حفنة من الناس حينما أصبح على أبواب قرطبة، وعلم الناس بأن الثائرين قد استولوا على العاصمة، فالقي القبض عليه بسهولة ويسر.

وكـان المنصـور يدرك أن الـذين انفضـوا من حوله هم خيار الناس، وكرامهم، ومؤمنـوهم، وأهـل النجـدة والصـدق في الجهـاد، وأن هؤلاء هم الـذين كانـوا عماد الحكم، والجيش، والـدولـة، وعـدة النصـر في الأيام الخوالي، فنقم عليهم المنصور، وأخـذ في محاربتهم حربـاً لاهوادة فيها، وأظهر في محاربتهم كثيراً من الشدة والقسوة، وأخذ يتتبع خصومه بالإيذاء، والملاحقة يريد استئصال شأفتهم.

وظهر من المنصور بصورة خاصة حقد كبير، ورغبة جامحة لاتقاوم، في الانتقام من استاذه، وولي نعمته، جعفر المصحفي. فقد سجنه مدة طويلة في أقبية الزهراء، وضيق عليـه، واستصفى أمـوالـه وأمـوال أهله وبنيه، وتتبع أبناءه وأبناء اخوته بالقتل والايـذاء وسـوء المعـاملة. وكـان يأتي بالمصحفي من محبسـه الى مجلسـه بين الحـين والحـين، ويعقد له مجالس محاسبة، يوجه خلالهـا الاتهـامات اليه عن اختلاس أموال الـدولـة، ويغـري خاصته بالاساءة اليه، والتطاول عليه، وكانت غايته من وراء ذلك أن يشفي حقـده عليـه برؤيته سجيناً ضعيفاً مهاناً بين يديه، يطلب العطف، ويسأل

وطال سجن المصحفي، وطال عذابه، وتقدمت به السن، وضعفت نفسه عن تحمل ما نزل به من الايذاء والمهانة والعذاب والسجن، فأخذ يوجه الى المنصور رسائل الاستعطاف شعراً رقيقاً يلين القلوب التي قدت من جلمد؛ وتتالى رفض المنصور الاستجابة لمطالب العفو، ورفض أن يكون من الكرام الذين يعفون عن الضعيف والمقهور حينما يتغلبون عليه. وبرر المصحفي استذلاله، والحاحه في الاستعطاف بقوله:

وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلت

وأخيراً يئس المصحفي من عفو المنصور حين بلغه قوله:

الآن ياجاهلاً زلت به القدم تبغي التكرم لما فاتك الكرم
نفسي إذا انصرفت ليست براجعة ولو تشفع فيك العرب والعجم

وحين سمع المصحفي قول المنصور هذا أدرك أنه لا يتعامل مع إنسان نبيل يقف حقده عند حد، ويعفو إذا اقتدر، وأنه إنما يتعامل مع صخر جلمد لايرق ولايلين، ولايستجيب لاستعطاف مستعطف، ولاتعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً، ولاتهزه الكلمة الطيبة، والشعر الجميل، فأنهى مراسلاته مع المنصور، وكف عن توجيه الرسائل إليه، وأخذ يهجوه ويصفه بضعة الأصل، وخسة النفس ولؤم الطبع:

لاتأمنن من الزمان تقلبا إن الزمان باهله يتقلب
ولقد أراني والليوث تهابني فأخافني من بعد ذاك الثعلب
حسب الكريم مهانة ومذلة أن لايزال إلى لئيم يطلب

وقال فيه أيضاً:

ولو كان من أصل كريم تكرما

وقد اساءت معاملة المنصور لخصومه بصورة عامة، والى المصحفي بصورة خاصة، الى سمعته، ومكانته، في أوساط الشعب، وصغرته في عيونه، فقد ربى الاسلام النفوس المؤمنة على التراحم والتواد، والشغف بالعفو، والتسابق إليه، والصفح عن الضعيف المسيء، ومد يد العون والحماية للمستجير الملهوف، وكَرَّه إليها الانتقام، وحب التشفي، والمبالغة في الإيذاء.

وقد ألف الشعب أن يرى مقام الخلافة كريماً في تعامله مع خصومه واعدائه، شهماً في ترفعه عن روح الانتقام والتشفي والإيذاء كما أساء إليه تجبره وعتوه وطغيانه

وبطشه بأعدائه، وتشبثه برأيه، ورفضه سماع كلمة الحق المخلصة. التي يراد بها رده الى جادة الهدى والصواب، وقد عهد الناس الخلافة كريمة مؤمنة، لاتستكبر عن نصح، ولاتطغى إذا ذكرت بأحكام شرع الله، وتعترف بالجميل لمن يسدد خطاها، ويبصرها بمواقع الزلل في تصرفها، ويدعوها إلى الرجوع عنه[1].

---

(١) ـ تذكر كتب الأدب والتاريخ قصصاً كثيرة عن شهامة أمراء بني أمية في الأندلس، وكرم نفوسهم، وتسامحهم، وانصياعهم لكلمة الحق، وقد اخترنا ثلاثاً من هذه القصص عن اعظم امراء بني امية نرويها فيما يلي:

قصة الحكم بن هشام مع طالوت بن عبد الجبار المعافري:

كان من جملة من أثاروا العامة على الأمير الحكم بن هشام، ثالث أمراء بني أمية في الأندلس، يوم الربض الفقيه طالوت بن عبد الجبار المعافري (ويوم الربض كان يوماً عصيباً على الأمير الحكم، اضطر فيه الى أن يقاتل بنفسه الثائرين عليه، الذين رموه بالزندقة، ومخالفة شرع الله، والاجتراء على محارمه، وكانت ثورة أهل الربض تهدد الحكم وحكمه، وحكم الأسرة الأموية بالزوال والفناء).ولما انتصر الحكم على الثائرين، شرد بعضهم، وسجن بعضاً أخر. وفر الفقيه طالوت عن داره، ولجأ الى دار رجل يهودي، فاستضافه اليهودي عاماً كاملاً، أكرمه خلالها غاية الاكرام.

ولما هدأت الأمور استثقل طالوت مقامه عند اليهودي، وكانت له معرفة بوزير الحكم أبي البسام، فقال طالوت لليهودي إنه يريد أن يتوجه الى بيت صديقه الوزير أبي البسام، فسأله اليهودي إن كان شعر بشيء من التقصير في خدمته، فقال لا وشكره على حسن ضيافته، فأصر اليهودي عليه أن لايفعل فإنه لايأمن عليه غدر الوزير، فاصر طالوت على الذهاب الى صاحبه أبي البسام.

وخرج طالوت بين العشاءين من إحدى الليالي، وذهب الى دار أبي البسام، فسأله هذا أين كان كل هذه المدة، فاخبره أنه كان عند رجل يهودي، فأمنه الوزير وطمأنه، وقال له إن الامير نادم على ما كان منه. وبات طالوت عند الوزير ليلته تلك.

وفي الصباح خرج أبو البسام متوجهاً الى قصر الأمير الحكم، ووكل بطالوت من يحسن حراسته لكيلا يفر في غيبته من البيت، وظن أنه سيجد الكرامة والتقدير من الامير على فعلته الخسيسة. وأخبر أبو البسام الحكم بأن طالوت في بيته، فقال له الامير: وأين ظفرت به؟ فقال أتى لطفي عليه. فأمر الحكم باحضار طالوت الى مجلسه.

وفي مجلس الأمير سأل الحكم طالوت عن قصته، فأخبره بأنه اختفى في بيت رجل يهودي، وجاء هو بنفسه الى أبي البسام لما بينهما من صداقة قديمة، فاستاء الحكم من خيانة الوزير، وغدره

بصديقه وضيفه المستجير به، واللائذ بكنفه، ثم من كذبه في الرواية التي قصها على الأمير عن وسول طالوت إليه. وقال له: يا أباالبسام رجل من اليهود حفظ فيه محله من الدين والعلم، وخاطر بنفسه وأهله وماله معي، وأردت أنت أن تنبشني فيما أنا نادم عليه؟

ثم قال للوزير اخرج عني والله لا رأيت وجهك أبداً، وعزله وعفا عن طالوت وأعاده الى داره مكرماً.

قصة الأمير الحكم مع قاضيه العادل

كان في قرطبة قاض ولاه الحكم بن هشام، ثالث أمراء بني أمية في الأندلس، القضاء فيها، وكان رجلاً فاضلاً جريئاً لايخاف في الحق لومة لائم. فجاءه يوماً رجل من كورة جيان يرفع إليه ظلامته، بعد أن سمع بجرأته، وصلابته في قول كلمة الحق. وقصة الرجل تتلخص في الآتي:

الرجل من كورة جيان، وكانت له جارية رائعة الجمال، فأقدم أحد ولاة الأمير الحكم على اغتصابها منه، وبقيت عنده مادام عاملاً في خدمة الحكم، وصاحب الجارية لايجرؤ على التظلم من العامل، مخافة أن يلحق به أذى، ولما عزل العامل، عمل على ارسال الجارية الى قصر الحكم لكيلا يفكر صاحبها في الاشتكاء عليه.

وعلم الرجل بمسير الجارية الى قصر الأمير في قرطبة، فذهب الى القاضي يرفع ظلامته، بعد أن سمع بجرأته في إقامة العدل. فكلفه القاضي باقامة البينة، فشهد له من قبل علمه على المعرفة بما قال به، وعلى معرفة عين الجارية، فأوجبت السنة أن تحضر الجارية الى مجلس القاضي ليتعرف عليها الشهود.

وكانت الجارية وقعت من نفس الحكم موقعاً عظيماً، فدخل القاضي على الأمير وقال له: إنه لايتم عدل في العامة دون إفاضته في الخاصة. وأخبره بقصة الجارية، وخيره بين احضارها الى مجلس القضاء، وبين عزله من منصب القضاء. فقال له الحكم أو خير من ذلك. تباع من صاحبها بأنفس ثمنها، وأبلغ ما يسأله فيها. فقال القاضي للامير: إن الشهود قد جاؤوا من كورة جيان يطلبون الحق في مظانه، فلما صاروا بفنائك تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله. فلعل قائلاً يقول: باع ما لم يملك بيع مقتسر على نفسه. ولابد من إبراز الجارية أو تصير أمرك الى من أحببت.

فلما رأى الحكم إصرار القاضي على رأيه أمر باخراج الجارية من قصره، فشهد الشهود على عينها، وقضي بها لصاحبها. وقال له: إياك أن تبيعها إلا في بلدك لتقوى بذلك نفوس الرعية على طلباتهم. وعلى سعيهم في استخراج حقوقهم. فكبر القاضي في عيني الأمير الحكم كثيراً، ولما توفي اكتأب الحكم لمصابه.

قصة الخليفة عبد الرحمن الناصر مع قاضيه المنذر بن سعيد

قالت الزهراء، زوجة الخليفة الناصر لدين الله، يوما لزوجها: اشتهيت لو بنيت لي مدينة سميتها باسمي، تكون خالصة لي. فاختار الخليفة موقع المدينة وبناها عليه في أطراف قرطبة، وسماها مدينة الزهراء.

تعاظم الانهيار أيام حكم الطوائف

خرجت دولة الأندلس العظيمة، بعد ربع قرن من الفتن المدمرة، مقسمة مجزأة، تقوم على أرضها عشرون دولة وأمارة ومملكة . . . وتقوم في مواجهتها أمارات اسبانية نشيطة، استطاعت خلال سني الفتنة في الأندلس، أن تعمل حثيثاً على إعادة ثقة الناس بأنفسهم، واحكام بناء دولتهم. وساعدها في إحكام بناء قوتها، وإصلاح

وقال مؤرخ تركي يصف بناء الزهراء: (كان بناء الزهراء أعجوبة الدهر لم يخطر مثل حالها في ذهن بناء منذ برأ الله هذا الكون، ولاتمثل رسم كرسمها في عقل مهندس منذ وجدت العقول).

وتفيض القصص باسهاب فيما أنفق في بنائها، ووصف محاسنها.

وكان قاضي قرطبة المنذر بن سعيد يرى أن زهرة الزهراء صائرة الى ذبول، فمن الاسراف أن يستغرق الرجل العظيم أوقاته في إيجاد ما ستذهب به يد الفناء.

وبعد أن انتهى الخليفة من بناء الزهراء، انهمك في استكمال زخرفها، حتى تعطل مرة عن ادراك صلاة الجمعة في مسجد قرطبة. فلما احتفل بافتتاح الزهراء قام المنذر بن سعيد خطيباً في المسجد، والخليفة حاضر، فابتدأ خطابه بتلاوة الآيات التاليات:

﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله واطيعون، واتقوا الله الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأموال وبنين، وجنات وعيون، إني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

ثم أتبع ذلك بخطاب طويل أفاض فيه وأحسن، وأمعن في ذم القصر المشيد، والاستغراق في زخرفته، والسرف في الانفاق عليه، فجرى ذلك طلقاً، فاستخذى الخليفة وبكى، وندم على ما سلف منه، واستعاذ بالله من سخطه، واستعصمه برحمته، إلا أنه وجد على المنذر بن سعيد للفظه الذي قرّعه به، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصرافه، وقال له: والله لقد تعمدني منذر بخطبته وأسرف في ترويعي، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، وصيانتي عن توبيخي، ثم استشاط وأقسم أنه لايصلي خلفه الجمعة أبداً.

فقال له ابنه الحكيم: وما الذي يمنعك من عزل منذر بن سعيد، والاستبدال به؟

فزجره الخليفة وانتهره، وقال له:

(أمثلابن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه، لاأم لك، يُعَزلُ في إرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لايكون. وإني لأستحيي من الله أن لا أجعل بيني وبينه شفيعاً في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد، ولكنه وقذ نفسي، وكاد يذهب بها. والله لو أجد سبيلاً الى كفارة يميني بملكي. بل يصلي بالناس حياته وحياتنا، فما أظننا نعتاض منه أبداً.

حالها، لجوء الحكام المسلمين إليها جميعا تقريباً في طلب العون والنصرة على إخوانهم المسلمين، وتسابقهم الى كسب ودها عن طريق التباري في النزول لها عن الحصون والمدن والقلاع والأراضي، وعن طريق تقديم مبالغ ضخمة من المال إليها ثمناً لهذا المعون الخادع.

وكان جميع الذين ظهروا بعد سكون الفتنة على رأس الأمارات الإسلامية تقريباً من نتاج هذه الفتنة، وممن تعاونوا تعاوناً وثيقاً مع الاحزاب والجماعات التي أوضعت فيها، وعملت على التخريب وإذكاء نيران الأحقاد بين المسلمين.

ولم يكن بينهم من عرف قبل الفتنة بسابقة مذكورة في الجهاد، أوبعصبية قوية تستجيب له، أوبمنزلة رفيعة في المجتمع، أوبمقام رفيع في الدين والعلم والفضائل.

ولم يشذ عن ذلك إلاّ أبو الحزم بن جهور، الذي كان رجلاً فاضلاً لم يشأ أنّ يشارك في الفتنة، ولم يكن له مطمع في مركز أومنصب أومال. . . . . فانزوى في بيته بعد أن آلمه كثيراً ما رأى من فساد، وتكالب على المال والجاه والمناصب، كما انزوت ألوف كثيرة من أمثاله من كرام الناس وفضلائهم، لكيلا يشاركوا في زيادة الفساد، والتسبب في مزيد من الانقسام في دولة الإسلام، فجاءه أهل الرأي في قرطبة يرجونه الخروج من عزلته التي فرضها على نفسه، وأن يتولى أمر قرطبة ليضع حدا للفتن المتتالية. وقبل في آخر الامر، بعد أن رأى إجماع أهل الفضل والتقى عليه، ولكنه اشترط أن يكون معه في الحكم أناس من وجوه الناس، يشاركونه الرأي والمشورة، وتحمل المسؤولية، لكي تستقيم الأمور في قرطبة، فكان له ذلك. وهكذا نعمت قرطبة بالأمن والاستقرار بعض الوقت نتيجة للسياسة الحكيمة التي اتبعتها جماعة الحكم فيها.

أما المناطق الاخرى فكان حكامها ممن شاركوا في الفتنة، وتعاونوا مع المغامرين والانتهازيين والمخربين، الذين كانوا يبحثون عن أكثر الحكام قدرة على تأمين مصالحهم الخاصة إذا وصلوا يوماً الى الحكم. وكانت الساحة قد خلت، آخر أيام الفتنة، من كرام الناس وشرفائهم ،وأهل الدين والتقى منهم، بعد أن اضطرهم بطش المنصور الى الانزواء والى الابتعاد عن الحياة العامة، فاسرع المغامرون يملؤون الساحة، ويعملون على استغلال الفوضى التي رافقت الفتنة. وتخيرت كل من الجماعات المغامرة زعيماً لها يسير على النهج الذي يرسمونه له ليصلوا الى غايتهم، وهي الفوز بحكم قطعة من الأرض يتمتعون فيها بخيرات الحكم دون مشارك لهم فيها.

وحينما هدأت الامور، واستقرت أوضاع الامارات الأندلسية بعض الشيء، كان من بين هذه الامارات إمارات صغيرة لايتجاوز سلطانها حدود بلدة واحدة مع ضواحيها، بينما كان يمتد سلطان إمارات أخرى الى عدد قليل من المدن وملحقاتها، وكانت هناك إمارات واسعة الأرجاء كإمارة أشبيلية وسرقسطة.

وكانت الإمارات الصغيرة مضطرة إلى البحث عمن يحميها من مطامع جيرانها المسلمين في الإمارات الأكثر قوة وأهمية... ولم يكن أمامها إلّا خيارين:

ا ـ إما أن تلجأ الى إمارة إسلامية قوية قادرة على أن توفر لها الحماية من الاعتداء، والتهديد الذي يمكن أن تتعرض له من جيرانها المسلمين، ومن الاسبان على سواء ولم يكن هذا أمراً ميسوراً، فالإمارات الإسلامية الكبيرة كانت دائماً تتطلع الى ابتلاع الامارات الإسلامية الصغيرة، وكانت تعمل لذلك، وكانت الحروب لاتنقطع بين الامراء المسلمين بسبب هذه الاطماع. فلجوء إمارة صغيرة، بطوعها واختيارها، الى إمارة كبيرة طلباً للحماية يعني أنها تقدم نفسها لقمة سائغة لذوي الاطماع ليقضوا عليها دفعة واحدة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الامارات الاسلامية لم تكن هي قادرة على حماية نفسها، ولاحماية غيرها، من طغيان الاسبان، واعتداآتهم، لاسيما بعد أن تسلطوا على الحكام المسلمين جميعاً، وأرهبوهم خلال سني الفتنة.

ب ـ وإما أن تلجأ الى الامارات الاسبانية تطلب منها الحماية لقاء دفع جزية سنوية، ولقاء تنازلات عن بعض الحصون والقلاع بين الحين والآخر، والمساهمة في الحروب التي تشنها الامارات الاسبانية على المسلمين، أوعلى الاقل الامتناع عن عون المسلمين في حروبهم مع الاسبان.

وهذا يقتضي ممن يحالفون الاسبان أن يبرهنوا على حسن نواياهم، واخلاصهم لحماتهم الاسبان، وذلك عن طريق منع المتطوعة من أبناء الامارة من الخروج منها للانضمام الى أخوانهم المسلمين في الامارة الاخرى التي يقاتلها الاسبان. وكذلك عن طريق منع المتطوعة من أبناء الامارات الاسلامية الأخرى من عبور أرض الامارة الاسلامية المتحالفة مع الاسبان للانضمام الى الجيوش الاسلامية التي تقاتل الاعداء.

وكان حكام الامارات الاسلامية الصغيرة لايجهلون المطامع الاسبانية في انتزاع

أراضيهم من أيديهم ، ولكنهم كانوا يرون أن هذه المطامع متراخية بعيدة الأجل ، لاتثير القلق العاجل . فالاسبان إذا فكروا بالغدر بهم ، وابتلاع إمارتهم بتمامها كان ذلك نذيراً للامارات الأخرى يحملها على التجمع ومواجهة المطامع الاسبانية صفاً واحداً ، كما حدث يوم الزلاقة . وهذا بلا شك أمر لا يريده الاسبان ، وكان الشيء المعقول ، الذي يمكن أن يقع من جانب الاسبان ، هو أن يتبعوا بلداً من هذه الإمارة ، ومره أخرى ينتزعون حصناً أو موقعاً هاماً من إمارة أخرى ، ثم ينتزعون من أمارة أخرى اقليماً وأراضي . . . ثم بعد ذلك يطالبون برفع الجزية المفروضة على أمارات أخرى . . . الخ ومثل هذه السياسة ، المتراخية في الانتزاع ، لم تكن لتثير قلق الحكام المسلمين ، ولم تكن لتدفعهم بضغط من شعوبهم الى الاجتماع ، والتفاهم ، وتناسي الأحقاد القديمة ، للوقوف في وجه أطماع الاسبان ، لأن مثل هذه السياسة لاتهدد بقاء الحكام ، ووجودهم حكاماً بصورة عاجلة .

ولهذا فإن الحكام المسلمين فضلوا ـ بعد أن وازنوا بين مخاطر هذين الخيارين ـ طلب حماية الاسبان لهم من عدوان ومخاطر إخوانهم المسلمين ، في الإمارات الكبرى ، لأنهم اعتقدوا أن مخاطر الحماية الاسبانية أخف عليهم من مخاطر الحماية الاسلامية ، التي يمكن أن تقضي عليهم بالكلية ، ودفعة واحدة ، فلا يستطيعون بعد ذلك التمتع بميزات الحكم ، وخيراته ومنافعه ، بينما تؤدي الحماية الاسبانية الى ابتلاعهم على دفعات متباعدة وبصورة جزئية ، ومثل هذا الابتلاع المتراخي في الزمن يترك لهم مدناً وحصوناً وأراضي يحكمونها ، ويتمتعون بخيراتها وقتاً طويلاً .

واصبحت الامارات الاسلامية الكبيرة ـ وبعد أن عاشت فترة طويلة تناصب إخوانها المسلمين العداء ، وتستنزف قواها وقواهم في الحروب والصراعات الاخوية ؛ وبعد أن أرهقت نفسها في مواجهة الاسبان ، ومحاربتهم ، ورد اعتداءاتهم ، واستطالتهم على المسلمين ـ تشعر أن الامارات الاسبانية غدت أقوى منها ، بعد أن انضم اليها حكام مسلمون كثيرون ، وملؤوا خزانتها بمال الجزى المفروضة عليهم ، وبالعون الذي فرضت معاهدات الحماية على المسلمين تقديمه للاسبان في حروبهم ، لذلك حاول بعض الحكام المسلمين التفاهم مع اخوانه المهددين مثلهم ليقفوا ضد الاسبان فلم يفلحوا ، فاضطروا مكرهين الى التفاهم مع الاسبان للكف عنهم لقاء دفع الجزية . وفكر بعض الحكام المسلمين ، بالتفاهم مع حلفائه الاسبان ، في اقتسام اراضي امارات اسلامية اخرى ، وفي ظنهم أن ضم امارة او بعض امارة اليهم يجعلهم

اكفياء لمواجهة الاسبان في ميدان الحروب، واقتسم المعتمد بن عباد فعلاً أراضي إمارة طليطلة مع الاذفونش ملك قشتاله، واحتل الاسبان نتيجة لهذا التحالف مدينة طليطلة عاصمة بني ذي النون، ولكن الاسبان لم يتركوا المعتمد ينعم بها احتل من أراضي امارة طليطلة فجاؤوه في العام التالي يطلبون منه الحساب، فلم يجد المعتمد بداً من اللجوء الى يوسف بن تاشفين، وكانت معركة الزلاقة، وانتصر فيها المسلمون. ولكن المسلمين سرعان ما شعروا بخطر المرابطين، عدة نصر الزلاقة، فصاروا يتصلون سراً بالاذفونش، ويمدونه بالمال، ووسائل القوة، ليستطيع الوقوف على قدميه أمام المرابطين بعد أن هدته هزيمة الزلاقة، وأصغرت شأنه.

وهكذا بدأ التسابق بين الأمراء المسلمين جميعاً لكسب ود الاسبان، ومحالفتهم، واعلان الولاء والخضوع لهم، وصاروا يسرفون في دفع الجزى والاتاوات إليهم ويتسابقون في النزول لهم عن المدن والحصون والأراضي بسخاء غريب، ويسارعون بجيوشهم لعون الاسبان في قتالهم لاخوانهم المسلمين.

وحينما دخلت معاهدات الحماية والتعاون بين الامارات الاسلامية والاسبان حيز التطبيق العملي، ثارت مصاعب جديدة لم تكن في الحسبان إذ وقفت الشعوب في وجه حكامها معارضة في قبول هذه المخالفات الخطيرة لشرع الله التي تتمثل في النزول للاسبان عن المدن والحصون والاراضي الاسلامية، وفي إرسال الجيوش لعون الاسبان في قتالهم لاخوانهم المسلمين، وفي منع المتطوعة من الإمارة من الذهاب لعون الاخوة الذين يقاتلون الاسبان، أومن المرور في أ ض الامارة للوصول الى ميدان المعركة مع الاسبان.

واصبح الشعب يرى بعينه انضمام حكام مسلمين مع جيوشهم الى الجيوش الاسبانية في هجومها على أراض إسلامية، فيساهمون في قتل اخوانهم المسلمين، وهتك أعراضهم، ونهب أموالهم، وسبي نسائهم وذراريهم، ثم يتسلمون المدن والحصون ليسلموها طائعين مختارين للاسبان، وبذلك تخرج الى الأبد من ملك المسلمين. واصبح الشعب يرى تنازل الحكام المسلمين، بين الحين والحين، عن المدن والقلاع والحصون للاسبان لقاء مشاركتهم للحكام المتنازلين في الهجوم على الأراضي الاسلامية الاخرى. وحينها يتحقق النصر كان الاسبان يتسلمون القسم الأعظم من المغانم والأسارى والسبايا، كما يتسلمون بعض المدن والاراضي المفتتحة حصة خالصة لهم من المغنم لقاء عونهم.

واصبح الشعب يرى الحكام، وهم يرهقون رعيتهم في طلب المال لدفع الجزى للاسبان، واصبح الشعب يرى فصائل الجند الاسبان يستقرون في المدن الاسلامية لحماية الحكام من سطوة شعوبهم. وتستطيل هذه الفصائل على المسلمين في بلدهم، وتعاملهم بازدراء واستخفاف، والحكام المسلمون ساكتون على هذا الإذلال، ولايفعلون شيئا لوقف هذه الاعتداءات.

ورأى الشعب إقدام الحكام المسلمين على منع المتطوعة المسلمين من المرور في أراضي إمارتهم لنجدة بلد مسلم ينيخ عليه الاسبان يريدون احتلاله، لأن السماح للمتطوعة بالمرور من أراضي الإمارة يعتبر عملاً عدائياً ضد الاسبان، يتناقص مع معاهدة التحالف القائمة.

ورأى الشعب أشياء أخرى كثيرة تصدر عن الحكام المسلمين، وهي تتنافى مع مبادىء الإسلام، وتتناقض معها تناقضاً صارخاً، ولاينبغي لمسلم مخلص السكوت عليها:

فالسكوت على حاكم ينهب مال الشعب ويبذره وينفقه على ملاذه وفي الوجوه الاخرى التي لاتنفع الأمة إثم.

والسكوت على تجزئة الدولة ليحكمها أفراد حسب أهوائهم إثم.

ومشاركة الكفار في قتال الإخوة المسلمين إثم.

والسكوت على الخضوع للاعداء ودفع الجزية إليهم إثم.

ومنع المتطوعة من أداء واجب الجهاد ونصرة الاخوة المسلمين الذين يجاهدون الأعداء إثم.

والسكوت على التنازل عن أراضي المسلمين، وحصونهم، وقلاعهم، ومدنهم، للاعداء إثم.

ولذلك بدأ الشعب يتألم، ويتذمر من الاوضاع القائمة في الامارات الاسلامية، وينتقدها أشد الانتقاد، ويسعى جاهداً للتخلص منها.

وشعر الحكام بالمخاطر الجسام التي يمكن أن يتعرض لها كيانهم إذا استيقظت من جديد روح الإيمان في النفوس، وسمح لرجال الدين بحرية قول كلمة الشرع للشعب حول ما يجري، وبحرية المطالبة بعرض أعمال الحكام على أحكام الشريعة ومبادىء الإسلام، لاظهار بعدها عنها.

وشعر المرتزقة والمغامرون، الملتفون حول الحكام ـ وهم وحدهم المستفيدون من

الأوضـاع المـترديـة في الامـارات الإسلامية ـ بالخطر من عودة أهل الإيمان الى ساحة العمـل، لأن الجـماهـير المؤ منـة لاتلبث أن تلتف حولهم، وتنسف الأوضاع القائمة، وتقضي على الحكـام ومـرتـزقتهم، وتعيد وحدة الاندلس الى ما كانت عليها، وتعود كتـائب المجـاهـدين الأبطـال الى الظهـور من جديد، وهي التي اذاقت الاسبان وقتاً طويلاً بأس الإسلام وأهله.

وشعر المستعربون في الداخل بالمخاطر التي تتهددهم من جراء استيقاظ الحماسة الإسـلاميـة في الصـدور، مخافـة أن يؤدي ذلـك إلى القضاء على الحكومات الخانعة المستـذلـة للاسبـان، والى القضـاء على الفسـاد والفـوضى وأهلهـا، والى لم شعث الأنـدلس المتبعثـر من جديـد، وفي ذلـك ما فيـه من الخطـر العظيم على الامـارات الاسبانية التي يستطيلون هم على من حولهم من المسلمين بالانتساب اليها، والعمل لحسابها. والافادة من جاهها ونفوذها.

كما شعر الاسبان في الشمال بالمخاطر العظيمة التي تتهددهم من عودة المسلمين الى دينهم مرة أخرى، ومن عودة وحدة الأندلس. ومن استيقاظ روح الجهاد، وحب الموت والاستشهاد في سبيل اعلاء كلمة الله، والاسبان لايجهلون الحقائق التالية:

ـ إن الأنـدلس المـوحـدة أكثر قوة من الامـارات الاسبانية، وأكثر مالاً ورجالاً، وأكثر تقـدمـاً وازدهـار في العلوم والصنـاعـات والـزراعـة والتجـارة وفي الميادين الاقتصادية والعسكرية الاخرى.

ـ إن كتـائب المتطـوعـة من أهـل الـرباط كان لهم بلاء عظيم في الحروب السابقة التي قامت بين المسلمـين والاسبـان، وإن عودة الـوحـدة الى الأنـدلس سيعيـد بعث هذه الكتائب من جديد، وفي ذلك خطر لاتستطيع الامارات الاسبانية احتماله.

ـ ان عودة الـوحـدة للانـدلس، وعودة قوتها إليها، سيقضي على الابتزاز الذي كانت تمارسـه الامـارات الاسبـانية على المسلمين. من حملهم على دفع الجزى والاتاوات، وحملهم على التنازل عن المدن والحصون والقلاع.

وهـذا الابتـزاز هو الـذي كان يمد الامارات الاسبانية بالموارد المالية، وباسباب القوة، فإذا انقطعت هذه الموارد الضخمة فإن الامارات الاسبانية ستعاني عجزاً مالياً كبيراً، وستعود الى حالة الضنك والحرمان التي كانت تعانيها قبلاً، وتعجز بالتالي عن تأمين النفقات للجيوش المقاتلة فيها.

لذلك اجتمعت كلمة جميع الذين يتضررون من عودة انبعاث روح الاسلام في

نفوس الاندلسيين من جديد : (الحكام المسلمون والامارات الاسبانية ، والمستعربون في الداخل ، والمغامرون الملتفون حول الحكام المسلمين ، والمرتزقة والخونة وأهل النفاق ، وجميع المستفيدين من الأوضاع القائمة في الأرض الاسلامية -) على العمل على مقاومة هذا الانبعاث الجديد ، الذي يهددهم جميعاً .

وتولى الحكام المسلمون مباشرة الاضطهاد لمنع استيقاظ روح الاسلام في الصدور ، وقد فضلوا الاستخذاء أمام الاسبان ، والتنازل لهم عن الحصون والقلاع ، وتسليمهم الأرض الاسلامية قطعة قطعة ، ليحولوها الى النصرانية ، وليقضوا على الاسلام والمسلمين فيها قضاء تاماً ، على أن يتنازلوا هم عن شيء من أنانياتهم ، وأن يتناسوا أحقادهم على إخوانهم ، وأن يوحدوا كلمتهم مع الحكام الآخرين لمواجهة المخاطر التي يمثلها الاسبان في الشمال ، فقد كان ضياع الأندلس وأهلها أهون عليهم من أن يتخلوا عن كراسي الحكم ، أويقللوا من بذخهم وانفاقهم على ملاذهم ومباذلهم ، وهكذا استمر هؤلاء الحكام في غيهم وطغيانهم على الشعوب ، حتى دهمتهم الأحداث فتركوا كل شيء للاسبان ، وانسحبوا الى أرض بعيدة يتابعون عيشهم الرغيد بما نهبوه من أموال الشعوب ، وتركوا شعوبهم لمصيرها أمام الاحتلال الاسباني وهكذا تسارع بنيان الأندلس العظيمة الى الانهيار .

لقد أقام الاسلام دولة العرب حينما وحد الاسلام كلمتهم ، وهذب نفوسهم ، ونقاها من أدران الفرقة والضلالة والجهالة ، وجعل لهم هدفاً سامياً يسعون الى تحقيقه ، ويموتون في سبيله . ألا وهو نشر دين الله في الارض ، وإقامة دولة العدالة والمساواة وسيادة القانون والاخاء الانساني .

وعدَّ الحكام المسلمون في الاندلس ، في اواخر أيامهم ، الاسلام عدواً خطيراً لهم يهدد وجودهم بالفناء . ويقضي على مباذلهم ومفاسدهم ، فحاربوه وأهله ، وضيقوا على أهله ، وأخرسوا ألسنة المؤمنين التي كانت تطالب بتصحيح المسار ، وتقويم الاعوجاج ، فانهارت دولتهم ، ولم يجدوا حولهم من يمد اليهم يد العون في محنتهم ، فقد كان أهل النجدة والشهامة والايمان المخلص غائبين عن هذه النهاية المؤلمة ، ولم يكن للمغامرين والمنتفعين وزعانف الناس الذين استند إليهم الحكام قضية يدافعون عنها ، فقد كانوا طلاب منافع ، وأرباب مصالح خسيسة ، حصلوا عليها فلم يعد لهم ما يموتون من أجله وفي سبيل الدفاع عنه .

لقد نسي حكام الأندلس ، في أواخر أيامهم ، الله فأنساهم أنفسهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم .

القسم

٧

الاندلسيون يرثون أنفسهم

نورد في هذا القسم قليلاً من شعر الأندلسيين في رثاء أنفسهم وأوطانهم ودينهم، ومن الصعب جداً على الانسان ان يتتبع جميع ما قيل في هذه المأساة الكبرى التي امتدت قروناً طويلة.

٣٨٤ ـ قصيدة ابن الابار:

ألح ملك اراغون على مدينة بلنسية في عام ١٢٣٢م (٦٣٦هـ)، فأوفد أميرها زيان بن أبي الحملات بن الحجاج بن مردنيش، الكاتب الحافظ أبا عبد الله بن الابار القضاعي، إلى صاحب افريقيا (تونس)، أبي زكريا بن أبي حفص، يستنجد به، فقام ابن الابار بين يدي أمير تونس وأنشد قصيدته السينية المشهورة:

أدرك بخيلك، خيلِ الله، أندلسا ... إن الطريق إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة اجحاف نائبة ... تثني الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم، لا نالت مقاسمهم ... إلاّ عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما يذهب النفس أوما ينزف النفسا
مدائن حلَّها من حلَّ مبتسماً ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
يا للمساجد عادت بعدها بيعاً ... وللنداء يرى أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني اصبحت درسا
واربعا غنمت أيدي الربيع بها ... ما شئت من حلل موشية وكسا
كانت حدائق للاحداق مونقةً ... فصوَّح النضر من أدواحها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستوقف الركب أويستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الضدّ، واحربا، ... عيث الدبا في مغانيها التي كبسا
وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الضاري لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها نضراً ... وأين غصن جنيناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها عيناً وما نعسا
ورج ارجاءها لما احاط بها ... مغادر الشمل من أعلامها خنسا

خلا له الجو وامتدت يداه إلى ... إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
حُل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس بها حبلاً ولا مرسا
وأحي ما طمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدي ما طمسا
أيام صرت لنصر الحق مستبقاً ... وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصراً ... كالصارم اهتز أوكالعارض انبجسا
تمحو الذي كتب التنجيم من ظُلَم ... والصبح ماحيةٌ أنوارُه الغلَسا
وتقنصُ الملكَ الجبارَ مهجَته ... يوم الوغى جهرةً لا ترقب الخلسا
هذي رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية ... منك الأمير الرضا والسيد الندسا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها ... عبابه فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية ... كما طلبت بأقصى شَدِّهِ الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي ... حفص مقبلةً من تربه القدسا
ملك تقلدت الأيام طاعتَه ... دنيا ودينا فغشّاها الرضا لبسا
من كل غاد على يمناه مستلماً ... وكل صاد إلى نعماه ملتمسا
مؤيداً لو رمى نجماً لاثبته ... ولو دعا أفقاً لبى وما احتبسا
إمارة يحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعسا
يبدي النهار لها من ضوئه شنباً ... ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
كأنه البدر والعلياء هالتُه ... تحفُّ من حوله شهب القنا حرسا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ... وعرف معروفه واسى الورى وأسا
قامت على العدل والإحسان دولته ... وأنشرت من وجوه الجود ما رمسا
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا ... آماله ومن العذب المعين حسا
فاستقبل السعد وضّاحا وأسرته ... من صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقبل الجود طفاحا غواربه ... من راحة غاض فيها البحر وانغمسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء انك من ... يحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا
فاوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطىء رأساً كل من ركسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم ادمعا تبكي زكا وخسا
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داء متى لم يباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئاً لك التمكين ساحتها ... جردا سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسا

- ٣٨٥

وفي الفترة التي ألح فيها الاسبان على بلنسية كثرت قصائد الأندلسيين في استنهاض الهمم، ومن ذلك قصيدة أبي جعفر الوقشي البلنسي الذي نزح إلى مالقة بعد سقوط بلنسية.

ومما جاء في هذه القصيدة:

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى ... فأبصر شمل الكاشحين طريدا
وهل بعد يقضى في العدو بنصرة ... تغادرهم للمرهفات حصيدا
ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب ... يعيد عميد الخارجين عميدا
ويلقي على افرنجهم عبل كلكل ... فيتركهم فوق الصعيد همودا
يغادرهم قتلى وجرحى مبرحاً ... ركوعاً على وجه الفلا وسجودا
ويفتكّ من أيدي الطغاة نواعما ... تبدلن من نظم الحجول قيودا
وأقبلن في خشن المسوح وطالما ... سحبن من الوشي الرفيق برودا
وغير منهن التراب ترائباً ... وخدد منهن الهجير خدودا
فحقّ لدمعي أن يفيض لأزرق ... تملكها دعج المدافع سودا
ويالهف نفسي من معاصم طفلة ... تجاور بالقيد الأليم نهودا
ويا أسفي ما أن يزال مردداً ... على شمل أعياد أعيد بذيدا
وآها بمد الصوت منتحباً على ... خلو ديار لو يكون مفيدا.

* *

- ٣٨٦

ومن ذلك أيضاً القصيدة الطويلة التي خوطب بها أبو زكريا بن أبي حفص صاحب تونس، عند أخذ بلنسية.

ومطلعها (نادتك أندلس فلب نداءها..)..

ومما جاء فيها:

صرخت بدعوتك العلية فاحْبُها ... من عاطفاتك ما يقي حوباءها
هي دارك القصوى أوت لإيالة ... ضمنت لها من نصرها إيواءها

ويها عبيدك لا بقاء لهم سوى ... سبل الضراعة يسلكون سواءها
دُفعوا لأبكار الخطوب وعونها ... فهم الغواة الصابرون عناءها
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت ... سراءها وقضتهم ضراءها
تلك الجزيرة لا بقاء لهم إذا ... لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رِشْ أيها المولى الكريم جناحها ... واعقد بأرشية النجاة رشاءها
أشفى على طرف الحياة ذماؤها ... فاستبق للدين الحنيف ذماءها
حاشاك أن تفنى حشاشَتُها وقد ... قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالُها ... ترجو بيحيى المرتجى إحياءها
يا حسرتي لعقائلٍ معقولةٍ ... سئم الهدى نحو الضلال هداءها
أيه بلنسية وفي ذكراك ما ... يجري الشؤون دماءها لا ماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد ... شبَّ الأعاجم دونها هيجاءها
وإلى رباً، وأباطح لم تعر من ... حلل الربيع فصيفها وشتاءها
طاب المعرس والمقيل خلالها ... وتطلعت غرر المنى أثناءها
بأبي مآذن كالطلول دوارس ... نسخت نواقيس الصليب نداءها

ومنها :

مولاي هاك معادة أنباؤها ... لتنيل منك معادة أبناءها
جَرِّدْ ظباك لمحو آثار العدى ... تقتل ضراغمها وتسبي ظباءها
واستدع طائفة الإمام لغزوها ... تسبق إلى أمثالها استدعاءها

- ٣٨٧ -

ومن أشهر ما رثى به الأندلسيون أنفسهم، القصيدة التي وجدت في مخطوط أندلسي مؤرخ في شعبان ٨٩٧هـ (حزيران ١٤٩٢م) ولم يعرف شاعرها(١) .

احقاً خبا من جوّ رونده نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزت ... منازلها ذات العلا وقصورها
فيا ساكني تلك الديار كريمة ... سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
احقاً أخلائي القضاء أبادكم؟ ... ودارت عليكم بالصروف دهورها؟

---

١ - تقع المرثية في اكثر من مئة بيت نشرها صويلح محمد نقلا عن مخطوط وجده في مكتبة الجزائر ، اورد الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه نهاية الاندلس قسماً منها (ص ٢٥٣ وما يليها) .

فقتل وأسر لا يفادى وفرقة ... لدى عرصات الحشر يأتي سفيرها
فواحسرتا كم من مساجد حُوِّلت ... وكان إلى البيت الحرام شطورها
وواأسفا كم من صوامع أوحشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا أسفرت يسبي العقول سفورها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة ... تود لو انضمت عليها قبورها
لها روعة من رقعة البين، دائم ... أساها، وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير مات في حجر امه ... فاكبادها حراء، لفح هجيرها
وكم من صغير بدّل الدهر دينَه ... وهل يتبع الشيطانُ إلا صغيرها؟

* * *

لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدي الأسى وجمادها ... يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فمالقة الحسناء ثكلى اسيفة ... قد استفرغت قتلا وجرحا حجورها
وجُزّت نواصيها وشُلّت يمينُها ... وبدلت الويل المبين سرورها
وقد كانت الغربية الجنن التي ... تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلّش قطعت (قطّت) رجلها بيمينها ... ومن سريان الداء بان قطورها(1)
وضحت على تلك الثنيات حجرها ... فاقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئت المنكُب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نظيرها
الا ولتقف ركب الاسى بمعالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلا حيث الصفات كأنها ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التي ... هي الحضرة العليا زهتها زهورها
تريك الاسى أعلامُها وهي خُشّعُ ... ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وإمامها ... وزائرها في مأتم ومزورها
و (بسطة) ذات البسط ما شعرت بها ... دهاها وأنى يستقيم شعورها

---

١ ـ وردت الكلمة (قطعت) في الكتاب، وبها لا يستقيم الوزن ولعلها (قطت) ومعناها قطعت.

وما أنسَ لا أنسَ (المرية) إنها قتيلة أوجال أزيل عذارها[1]
منازل آبائي الكرام ومنشئي وأول أوطان غذتني بخيرها*

* * *

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ ما لنا قِبَلٌ بها جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تنمحي إلا بمحو أصولها ولا تنجلي حتى تُحَطَّ أصورها
معاشرَ أهل الدين هبوا لصعقة وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهدَّ ركنه وزعزع من اكنافه مستطيرها
ألا واستعدوا للجهاد عزائماً يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عرائساً على الله في ذاك النعيم مهورها

- ٣٨٨

في صفر من عام ٦٧٤هـ ، جاز أمير المغرب أبويعقوب إلى الأندلس لانجاد ابن الأحمر أمير غرناطة ، وكان ابن الأحمر قد استغاث به بقصيدة من نظم كاتبه عمر إبن المرابط ، وقد جاء في هذه الاستغاثة :

هل من معين في الهوى أو منجد من متهم في الأرض أو من منجد
يا آمل النصر العزيز على العدا أجب الهوى تسعد به وتؤيد
يا من يقول غداً أتوب ولا غد ألديك علم أن تعيش إلى غد
لا تغتر ر بنسيئة الأجل الذي إن لم يحن لك نقده فكأن قد

ومنها :

كم جامع فيها أعيد كنيسة فاهلك عليه أسى ولا تتجلد
أسفاً عليها اقفرت صلواتها من قانتين وراكعين وسجد

---

١ ـ وردت في القصيدة اسماء بعض المدن الاندلسية وهي (بلّش) و (المنكب) و (بسطة) و (المرية) .
* لعلها (غذاني خيرها) وبها يستقيم الوزن . ويلاحظ ان هذا البيت والتالي له قد غيرت قافيتها ، وقد تكون قافية هذا البيت (عذيرُها) وقافية الآخر خيرُها .

كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغي الفداء وما فدى
كم من وليد بينهم قد ود من ... ولداه ودأ أنه لم يولد
كم من تقي بالسلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعه الردى ... ما بين حَدَّيْ ذابل ومهند
ضجت ملائكة السماء لحالهم ... ويبكى لهم مَنْ قلبُه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا ... مما دهانا من ردى أو من ردي
أكذا يعيث الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر لم تتقلد
أين العزائم ما لها لا تقتضي ... هل يقطع الهندي غير مجرد
أبني مرين أنتم جيراننا ... وأحق من في صرخة بهم ابتدي
كتب الجهاد عليكم فتبادروا ... أسدا إلى الغرض الأحقّ الأوكد

ومنها :

لله في نصر الخليفة موعد ... صدق فثوروا لانتجاز الموعد
هذي الثغور بكمْ إليكم تشتكي ... شكوى العديم إلى الغني الأوجد
ما بال شمل المسلمين مبدد ... فيها وشمل الضد غير مبدد
أنتم جيوش الله ملء فضائه ... تأسون للدين الغريب المفرد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم ... وطريق هذا العذر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في أمتي ... وتركتموها للعدا والمعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تُخَفْ ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

- ٣٨٩

حينما اشتد الخطب على الثائرين الأندلسيين في ثورتهم الكبرى وجه بعضهم رسالة الى السلطان بيازيد العثماني يستصرخه لنجدة الأندلس، ويشرح له حالها، وما أناخ عليها من عظيم المصائب، وهي على ركاكة شعرها، تعتبر أصدق تصوير لمأساة الشعب الأندلسي المنكود الحظ. وقد نشرها المقري في كتابه (أزهار الرياض) في الصفحة ١٠٨ وما يليها من الجزء الأول.

الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الاسلام وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ،محيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم،

ملك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامي الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا وكهفنا، وغياثنا، مولانا (أبو يزيد)، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقروناً بالانتصار، مخلد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف له به الأجر الجزيل في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد، مجردة على أعداء الدين من بأسها، ما يروي صدور السمر الصفاح، والسنية السلاح، باذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير، مفارقة الأرواح والأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الاشهاد:

سلام كريم دائم متجدد أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعلا ومَنْ ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام عن من وسع الله ملكه وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي في دار ملكه قسطنطينة أكرم بها من مدينة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا بأندلس في الغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت على خجلة الاعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق يسوقهم (اللباط) قهراً لخلوة[1]
سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل خنزير ولحم لجيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم وندعو لكم بالخير في كل ساعة

***

شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا من الضرّ والبلوى وعظم الرزية
غُدرنا ونُصِّرنا وبُدّل ديننا ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد نقاتل عباد الصليب بنية
ونلقى أموراً في الجهاد عظيمة بقتل وأسر ثم جوع وقلة

---

١ ـ اللباط ـ وقد تكرر ورود هذه الكلمة في هذه القصيدة ـ تعني القسيس، وهي مأخوذة عن الكلمة الاسبانية (أبّات) (ABBATE)، وهي محرفة عن الكلمة العربية (ابتي).

فجاءت علينا الروم من كل جانب … بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم … بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم … فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانهم تزداد في كل ساعة … وفرساننا في حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا ببلادنا … ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاؤوا بأنفاط عظام كثيرة … تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا عليها في الحصار بقوة … شهوراً وأياماً بجد وعزمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا … ولم نر من إخواننا من إغاثة
وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا … أطعناهم بالكره خوف الفضيحة
وخوفاً على أبنائنا وبناتنا … من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا … من الذين من أهل البلاد القديمة
ونبقى على آذاننا وصلاتنا … ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة
ومن شاء منا البحر جاز مؤمَّناً … بما شاء من مال إلى أرض عدوة
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم … لكم ما شرطتم كاملا بالزيادة
وأبدى لنا كتباً بعهد وموثق … وقال لنا هذا أماني وذمتي
فكونوا على أموالكم ودياركم … كما كنتم من قبل دون أذية
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم … بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرّنا بها … ونصّرنا كرهاً بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف … وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمر ديننا … ففي النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم … ولا مصحفاً يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويُعلمُ حاله … ففي النار يلقوه على أي حالة
ومن لم يجيء منا لموضع كفرهم … يعاقبه (اللبّاط) شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله … ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا … بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا … ولا نذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه … فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم … بضرب وتغريم وسجن وذلة
ومن جاءهم موت ولم يحضر الذي … يذكرهم لم يدفنوهم بحيلة
ويترك في زبل طريحاً مجدلا … كمثل حمار ميت أو بهيمة

إلى غير هذا من أمور كثيرة   قباح وأفعال غزار رديئة
وقد بُدِّلت أسماؤنا وتحولت   بغير رضا منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد   بدين كلاب الروم شر البرية
وآهاً على أسمائنا حين بدلت   بأسماء أعلاج من أهل الغباوة
وآهاً على أبنائنا وبناتنا   يروحون (للباط) في كلّ غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية   ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
وآهاً على تلك المساجد سورت   مزابل للكفار بعد الطهارة
وآهاً على تلك الصوامع علقت   نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآهاً على تلك البلاد وحسنها   لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصليب معاقلا   وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى   ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا   إليه لجادت بالدموع الغزيرة
فيا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا   من الضر والبلوى وثوب المذلة
سألناك يا مولاي بالله ربنا   وبالمصطفى المختار خير البرية
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا   لعل إله العرش يأتي برحمة
فقولك مسموع وأمرك نافذ   وما قلت من شيء يكون بسرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم   ومن ثم يأتيهم إلى كل كورة
فبالله يا مولاي منوا بفضلكم   علينا برأي أو كلام بحجة
فسل (بابهم) يعني المقيم برومة   لماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة(١)
وما لهم مالوا علينا بغدرهم   بغير أذى منا وغير جريمة
وجنسهم المغلوب في حفظ ديننا   وأمن ملوك ذي وفاء أجلة
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم   ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده   فذاك حرام الفعل في كل ملة
وقد بلغ المكتوب منكم إليهم   فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة   علينا وإقداماً بكل مساءة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا   رضينا بدين الكفر من غير قهرة
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم   ووالله ما نرضى بتلك الشهادة
لقد كذبوا في قولهم وكلامهم   علينا بهذا القول أكبر فرية

---

١ - (بابهم) يعني (البابا).

ولكن خوف القتل والحرق ردنا نقول كما قالوه من غير نية
ودين رسول الله ما زال بيننا وتوحيدنا لله في كل لحظة
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة
فسل (وجراً) عن أهلها كيف أصبحوا أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل (بلفيقا) عن قضية أمرها لقد مُزِّقوا بالسيف من بعد حسرة
و(منيافة) بالسيف مزق أهلها كذا فعلوا أيضاً بأهل (البشرة)
و (أندرش) بالنار أحرق أهلها بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة
فها نحن يا مولاي نشكو اليكم فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلاّ فيجلونا جميعاً من أرضهم بأموالنا للغرب دار الأحبة
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا على الكفر في عز على غير ملة

-٣٩٠

ومن أشهر مراثي الأندلسيين أنفسهم، قصيدة أبي البقاء صالح بن شريف الرُّندي وقد أوردها المقري في الصفحة ٤٧ من كتابه أزهار الرياض.

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال له شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة إذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سيف للفناء ولو كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شداد من إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلْك ومن مَلِك كما حكى عن خيال الطرف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله وأم كسرى فما أواه ايوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب يوماً ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يهونها   وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له   هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين بالاسلام فارتزئت   حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شان مرسية   وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه   ونهرها العذب جياش وملآن[1]
قواعد كن أركان البلاد فما   عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف   كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية   قد أسلمت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما   فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة   حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلا وله في الدهر موعظة   إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه   أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها   وما لها مع طويل الدهر نسيان
يا أيها الملك البيضاء رايته   أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
ياراكبين عتاق الخيل ضامرة   كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة   كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة   لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس   فقد سرت بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم   أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم   وأنتم يا عباد الله اخوان
ألا نفوس أبيّات لها همم   أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم   أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم   واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم   عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم   لهالك الأمر واستهوتك أحزان

---

١ ـ لقد ورد اسم حمص مرتين في هذه القصيدة، وحمص الاندلس هي اشبيلية، وسميت كذلك لأن جند حمص قد حل بها وسكنها.

يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ برزت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للفحشاء مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

- ٣٩١

ومن القصائد المشهورة قصيدة محمد بن عبد الله العربي العقيلي وزير أبي عبد الله الصغير وكاتبه، التي وضعها على لسان مولاه يعتذر فيها لملوك بني مرين في المغرب عن النكبة التي حلت بالأندلس، وقد أوردها المقري في كتابه أزهار الرياض في الصفحة ٧٢ وما يليها.

ومما جاء فيها:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعياً لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً وأفظع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له وهل مرد لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاك الله صولتها تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صيب يُرمى بأفجع حتف من بهن رمي
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا وأي ملك بظل الملك لم ينم
يبكي عليه الذي قد كان يعرفه بأدمع مزجت أمواهها بدم
وصِلْ أواصر قد كانت لنا اشتبكت فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
وابسط لنا الخلق المرجو باسطه واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم نذنب ولو كثرت أقوال ذي الوخم
فما أطقنا دفاعاً للقضاء وما أرادت أنفسنا ما حل من نقم
المرء ما لم يعنه الله أضيع من طفل تشكى بفقد الأم في اليتم
تعاتب على أشياء قد قدرت وخط مسطورها في اللوح بالقلم

***

رحماك يا راحماً ينمي الى رحما ... في النفس والأهل والأتباع والحشم
بنكم مواقف صدق في الجهاد لنا ... والخيل عالكة الأشداق باللجم
والسيف يخضب بالمخضر من علق ... ما ابيض من سبل واسود من لمم
ولا ترى صدر عَضْبٍ غير منقصف ... ولا ترى متن لدن غير منحطم
ععنى دهينا بدهيا لا اقتدار بها ... سوى على الصون للأطفال والحرم
الله ما أضمرت غشاً ضمائرنا ... ولا طوت صحةً منها على سقم
لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت ... ولاتنا قبلنا في الأعصر الدهم
فخاننا عنده الجد الخؤون ومن ... تقعد به نكبات الدهر لم يقم
فاسود ما اخضر من عيش دهته عدا ... بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخذم
وشتت البين شملا كان منتظماً ... والبين أقطع للموصول من حكم
فرب مبنى شديد قد أناخ به ... ركب البلا فقرته أدمع الديم
قمنا لديه أصيلانا نسائله ... أعيا جواباً وما بالربع من أرم
وما ظننا بأن نبقى إلى زمن ... نرى به غرر الأحباب كالحمم
لكن رضا بالقضا الجاري وإن طويت ... منا الضلوع على برح من الألم

وما قاله أبو العباس أحمد بن يوسف الصنهاجي المشهور بالدقون (المتوفى عام ٩٢١هـ) قصيدة في ندب الجزيرة تذكر النفوس بشجوها، افتتحها بنثر:[١]

أمنت من عكس آمال وأحوال ... وعشت ما بين أعمام وأخوال
ولا ابتليت بها في القلب من نكد ... فالجسم مشتغل من غير أشغال
وكيف لا وبقاع الدين خالية ... من أرض أندلس من أجل أهوال
عمت فقمت قلوب المسلمين فيا ... للمسلمين من أعداء وأنكال
جاشت بها من جيوش الكفر ما درست ... بهم معالم أخيار واقيال
أهل الشجاعة أهل العلم أهل تقى ... أهل النفاسة في قول وأفعال
عنهم وفيهم أحاديث النبيِّ بدت ... وهم معاقل قول الله للتالي
رهبان ليل وفرسان النهار فمن ... يُلْمِمْ بساحتهم يظفر بآمال
لا عيب فيهم سوى أن المضاف لهم ... يسلو عن أهل وأوطان وأموال

(١) منشور في كتاب أزهار الرياض في الصفحة ١٠٤ وما بعدها.

فهل ترى بعد هذا النفس سائلة ... وكيف تسأل عن وصف وعن حال
تالله لا زال ما في القلب من أسف ... ولو أكون حليف المنزل الخالي
أو يفتح الله في نصر يمن به ... فالله باق يقي من كل محتال
قد رام إطفاء نور الله مجتهدا ... وباذلا كل ما قد حاز من مال
سطا بجيش كموج البحر في عدد ... نعم وفي عدد من رهط وأبطال
مؤيداً باجتماع المصر يتبعه ... شر الخلائق مسروراً بإقبال
يسبي المسامع بالأنفاظ شبهته ... وقع الصواعق في هد وزلزال
يبني ليهدم ما الإسلام شيده ... والوصف يُعجز من يُدعى بقلقال(٢)
فهو المقاتل في الأبراج منتقل ... إلف النحوس وتغيير وترحال
فاستوطن المرج لا ينوي الرحيل ولا ... يخشى المغيث بسهل أو بأجبال
والمسلمون من الاضغان قد ملئت ... قلوبهم وأبوا تسديد إخلال
والحق مختلف والحمق مؤتلف ... والكل منصرف عن نصر أبطال
وهم لديه كطير وهو ينتفه ... والطير يرجو البقا مع كيد قتال

* * *

واحتل غرناطة الغراء قد عدمت ... حب الحصيد ونصر الله والآل
كأنها الشمس في أفق العلا كشفت ... فهل على طلل ترمى بأبطال
وهل تعود ليال قد سلفن بها ... ونحن لا نشتكي تنكيد ضلال
وهل يعود لها الدين الذي أنست ... به وقد آيست من فتح أبدال
فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم ... كمثل عاد وما عاد بأشكال
قد فرقوا كسبا في كل منزلة ... وقد سبا عدة من أيد أوعال
فلا المساجد بالتوحيد عامرة ... إذ عمروها بناقوس وتمثال
ولا المنابر للوعاظ بارزة ... للأمر والنهي أو تذكير آجال
ولا المكاتب بالصبيان آنسة ... تتلو القرآن باسحار وآصال
آه على الدين والدنيا وما نفعت ... آه إذا صدرت من قلب بطال
إنا الى الله والرجعى له وبه ... تعلق القلب في تصحيح إعلال
وكان ما كان والألطاف شاملة ... لاحت بنقلة نسوان وأطفال

---

(٢)القلقال الفصيح.

فلنكرم الآن من ينزل بمنزلنا فالدهر ذو دول فاسمع لأمثال
واذ ولا قدرة تدنى المنى فلهم حق الجوار ولا نوصف باهمال
نلقاهم ولنا بشر ومعذرة ورحمة يا حماة العم والخال
ولا نذد عن ورود الحوض وارده ولا ندع قول ذي نصح واجمال
إخوانكم رفعت أيدي الضراعة مع كسر القلوب فلا يلقوا باضحال
وقل لوال تلطف في مغارمهم يلطف بك الله إذ تدعى لاحمال
هذا النذير جهارا جاء ينذرنا والأذن في صمم عن قيل وعن قال
ونحن في غفلة عما يراد بنا نمشي على مهلة من طول إمهال
يا أهل فاس أما في الغير موعظة إن السعيد لموعوظ بأمثال

* * *

كيف الحياة إذا الحيات قد نفخت على السواحل أوهمت بإرسال
ولا سبيل إلى الترياق غير تقى والحزم في سعة من قبل إعجال
والأخذ بالجد في جمع القلوب على بذل النصيحة أو ابراء ادخال

* * *

في صدر سبع على التسعين زائدة شمس الجزيرة غابت بعد إكمال
وبلغ القلب ما قد شاء من أرب إذ لم يجد ذائداً عن ديننا العالي
ليقضي الله أمرا كان قدره والأمر لله في قول وأفعال

القسم

٨

مراجع الكتاب والفهرس

مراجع الكتاب

أولا ـ مراجع عربية:
ـ «أزهار الرياض في أخبار عياض»، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، طبع في القاهرة عام ١٩٣٩ م.
ـ «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب»، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني.
ـ «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، عبد الواحد المراكشي، طبع القاهرة ١٣٢٤هـ.
ـ «البيان المغرب في أخبار المغرب»، ابن عذارى المراكشي، طبع ليدن ١٨٤٩م. جزآن نشرهما دوزي وهناك جزء ثالث نشره ليفي برفنسال عام ١٩٣٠م.
ـ «تاريخ افتتاح الأندلس»، ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز)، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٥٧م.
ـ «العبر وديوان المبتدأ والخبر»، ابن خلدون، طبع مطبعة النهضة بمصر عام ١٩٣٦م.
ـ «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين»، محمد عبد الله عنان، مطبعة مصر ١٩٥٨م.
ـ «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير.
ـ «ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى»، محمد عبد الله عنان.
ـ «محاكم التفتيش»، علي مظهر.
ـ «المغرب في حلي المغرب»، ابن سعيد الأندلسي.
ـ «اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، ابن الخطيب.
ـ «التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية»، محمد الغزالي، مطابع دار الكتاب العربي بمصر.

- «غابر الأندلس وحاضرها»، محمد كرد علي، المكتبة الأهلية بمصر ١٩٢٣م.
- «أحكام أهل الذمة»، شمس الدين أبوبكر، عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، مطبعة جامعة دمشق، تحقيق الدكتور صبحي الصالح ١٩٦١م.
- «التشريع الاسلامي لغير المسلمين»، عبد الله مصطفى المراغي، مكتبة دار الآداب.

ثانياً - مراجع معربة:

- «تاريخ العرب»، فيليب حتي، طبع مصر.
- «فضل العرب على أوروبا»، سيجريد هونكه، دار النهضة العربية بمصر ١٩٦٤م، عرّبه فؤاد حسنين علي.
- «أهل الذمة في الاسلام»، آ. س. تريتون، ترجمة حسن حبشي، مطبعة الاعتماد بمصر عام ١٩٤٩.
- «مدنية العرب في الأندلس»، جوزيف ماك كيب (عرّبه تقي الدين الهلالي) بغداد ١٩٥٠.
- «تاريخ الفكر الأندلسي»، آنخيل كونثاليس بالينثيا، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.
- «حضارة العرب»، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر ١٩٤٥م.
- «آخر أيام بني سراج»، ترجمة الأمير شكيب أرسلان، مطبعة الأهرام بالاسكندرية، وفيه تعليق وافٍ على تاريخ الأندلس ١٨٩٧م.

ثالثاً - مراجع أجنبية:

- Historia de Espana, **Antonio Ramos. Oliveira 3v.**
- Los Moriscos del Reino de Granada, **Julo Caro BAROJA**
- La Espana Musulmana, **Claudio Sanchez ALBORNOS 2.v**
- Historia de los Musulmanes de Espana, **R.P. DOZY**
- Historia del Rebellion y Castigo de los Moriscos del Reino de Granada, **Bibliotica de Autores Espanoles (V.21)**
- GUERRROS Civilse de Granada, **Bibliotica de Autores Espanoles (V.3)**
- La Expulsion de los morisco Espanoles, **D. Manuel Danvilla y COLLADO**
- Condicion Social de los Moriscos de Espana, **Florencio JANER**
- Histoire des Arabes dÉspagne (ou des mors Mudejares et des Morisques sous la domination des chretiens), **COMTE de CIRCOURT Paris 1846.**

الفهـــرس

المؤلف

- ولد في حلب عام ١٩١٧
- درس الحقوق في معهد الحقوق العربي بدمشق وتخرج فيه عام ١٩٤٣
- حصل على شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة باريس عام ١٩٥١

عمل في السلك السياسي منذ عام ١٩٥٦ :

- مستشاراً في السفارة السورية في باريس .
- وزيراً مفوضاً مستشاراً في روما .
- مديراً للإدارة الاقتصادية في القاهرة في عهد الوحدة .
- سفيراً في عهد الوحدة في البرتغال .
- سفيراً لسوريا في الأرجنتين وبقي فيها حتى عام ١٩٦٤ .

وهو يعمل الآن محامياً في دمشق .

للمؤلف

- تفسير كامل للقرآن الكريم يقع في ١٥٠٠ صفحة من القطع الكبير تحت الطبع وقد صدر منه (ربع يس) .
- كتاب عن اليهود وكره بني البشر قيد الطبع .
- مجموعة من القصص نشرت في الصحف الليبية والكويتية .
- عدد من البحوث الإسلامية نشرت في الصحف العربية

إن محنة العرب في الأندلس من أكثر المحن في تاريخ الانسانية ايلاماً وتأثيراً في النفوس، فقد روت كتب التاريخ الكثير عن قهر شعب لشعب وعن ممارسة الغالب جميع أنواع الاضطهاد والتعذيب وهتك الأعراض والتخريب، لكن ذلك لم يكن يدوم إلا أياماً معدودة تعود بعدها سيادة القانون إلى البلد وتعود الطمأنينة إلى النفوس وتبدأ الحياة سيرها الطبيعي.

أما الاسبان، وهم شعب عرف الحضارة، وله دين سماوي يأمر بالخير والرأفة، والوفاء بالعهد، فقد عقدوا مع الاندلسيين عهوداً ومواثيق أقسموا على الوفاء بها، الا انهم خرقوا الميثاق ولم يوفوا بالعهد بعد أن القى الشعب العربي سلاحه، وتجرد من أسباب الدفاع عن نفسه، فراحوا يسومون العرب أنواع العذاب واستمروا في اضطهادهم لهم أكثر من مئة عام لم يتركوا خلالها نوعاً من أنواع العذاب والتنكيل والقهر إلا نفذوه، وكانت النتيجة انه عند أواخر عام ١٦١٠ م لم يبق في الأندلس كلها عربي مع ان المؤرخين يقدرون عددهم في سنة ١٠٠٠ م بما يقارب الثلاثين مليوناً!!

لقد أقام العرب في الأندلس قرابة ثمانمئة عام أشاعوا فيها العدل ونادوا بالمساواة فعاملوا الاسبان معاملة الانسان للانسان فلم يدوسوا حق أحد ولم يتعدوا على ملك أحد ولم يهتكوا عرض أحد.

لكن التعصب الاسباني وما استتبعه من أنواع التعذيب والابادة والقهر والغدر والاذلال لم يستطع ان يجتث من أرض الأندلس أصول الحضارة العربية الزاهرة، التي ما زالت ماثلة لكل ذي بصر وبصيرة شاهدة على أن العرب في الأندلس كانوا بناة حضارة قل أن شهد العالم مثلها.

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص.ب: ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس: LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧.